

# نسيم الرضا

في شرح شفاء القاضى عياض

تأليف

شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر

الخفاجي المصري

المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ

ضبطه وقدم له وعائى عليه

محمد عبد القادر عطا

الجزء الثانى

منشورات

مجمع إحيى بيضون

لشركت السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان



جميع الحقوق محفوظة

Copyright ©  
All rights reserved  
Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة  
لدار الكتب العلمية - بيروت - لبنان  
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة  
تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزئاً أو تسجيله على  
أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو  
برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة  
الناشر خطياً.

#### Exclusive Rights by

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

#### Droits Exclusifs à

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban

Il est interdit à toute personne individuelle ou morale d'éditer, de traduire, de photocopier, d'enregistrer sur cassette, disquette, C.D, ordinateur toute production écrite, entière ou partielle, sans l'autorisation signée de l'éditeur.

### الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

### دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

رمل الطريف، شارع البحري، بناية ملكات  
هاتف وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٣٧٨٥٤٧ (٩٦١ ١)  
صندوق بريد : ٩٤٢٤ - بيروت - لبنان

#### Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Beirut - Lebanon

Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor  
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98  
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

#### Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Beyrouth - Liban

Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ère Étage  
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98  
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3209-1



<http://www.al-ilmiyah.com/>

e-mail: [sales@al-ilmiyah.com](mailto:sales@al-ilmiyah.com)  
[info@al-ilmiyah.com](mailto:info@al-ilmiyah.com)  
[baydoun@al-ilmiyah.com](mailto:baydoun@al-ilmiyah.com)

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### (فصل) [فى نظافة جسمه ﷺ]

هو رابع الفصول السابق ذكرها. (وأما نظافة جسمه) عطف على قوله أما الصورة إلى آخره فى الفصل الذى قبله، أى تفاوته من نظف بالضم ضد قدر. (وطيب ريحه) المراد بالريح هنا الرائحة التى تدرك بالشم، وروى: «رائحته» وهما بمعنى.

(وعرقه) بفتحين وهو ما يترشح من البدن وقد يستعار لغيره كماء الورد المستقر منه.

(ونزاهته عن الأقدار) أى بعده وخلوه منها وتنزيهه عنها، والضمائر للجسم أو لصاحبه المعلوم التزاما، والأقدار جمع قدر والقدر والقذار ضد النظافة هو مؤكد لما قبله وكالتفسير له.

(وعورات الجسد) أى البدن، وعورات بسكون الواو وقد تحرك، وبه قرئ جمع عورة وهو كل ما يوجب خللا فيه أو يستر ويستحى منه مما يشين وينقص، ولذا قيل: إنها مشتقة من العار الذى يذم بسببه، يقال: عورات الجسد والكلام.

(فكان صلى الله تعالى عليه وسلم) الفاء تفصيلية (وقد خصه الله تعالى) وفضله وميزه عن سواه (فى ذلك) المذكور (بخصائص) أى فضائل لا توجد فى غيره كما أشار إليه بقوله:

(لم توجد فى غيره) من الأمم أصلا، أو لم توجد فى الأكثر وهذه صفة مخصصة أو مبنية مؤكدة. (ثم تممها سبحانه) تنزيه الله تعالى المنزه له واقع فى محزه والضمير للخصائص.

(بنظافة الشرع) متعلق بتممها، أى: تم ما فطر عليه من ذلك وما خصه به مما شرعه له من النظافة الدينية كالوضوء، وإضافة النظافة للشرع لملاستها له وكونها بسببه فهى لامية، قيل: المراد أنه جعل بعضا منها فى جبلته بحصوله فيها أو باقتضاء طبعه وعقله مما لم يعط لغيره، ثم أمره بما لم تكن كذلك كالطهارات، ووقفه لاتباعه على أكمل الوجوه فاتصف بالنظافة الكاملة، سواء كان الشرع شرعه أو شرع من قبله، إن قلنا باتباعه له مع أنه صار شرعاً له، وأما ما نسخ فقد زال، فما قيل من أن هذا إنما يستقيم إن لم يكن متعبداً بشرع من قبله، أو المراد بالنظافة عدم الإصر والأغلال تكلف من غير داع، وبالجملة فشرعه صلى الله تعالى عليه وسلم شامل لكل ما ينبغى على الوجه الأكمل.

(وخصال الفطرة العشر) من عطف الخاص على العام، والفطرة أصل معناها فى اللغة الطبيعية، والجبلة التى خلق عليها مركوزة فيه من فطر بمعنى خلق، ومنه ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١] وأصل معنى الفطر الشق كما قاله الراغب، وفسرها المحدثون هنا بالسنة، وأعرض عليهم ابن الصلاح بأنه لا يناسب المعنى اللغوى، ووجه ذلك بعضهم بأن مرادهم أن فى الكلام مضافاً مقدراً، أى سنة الفطرة بمعنى الصفة الناشئة عن الفطرة السليمة، ورد بأنه وقع تفسيرها بها فى صحيح البخارى، والقول ما قالت حزام فلا عبرة بمن أنكره من اللغويين كصاحب المغرب، أقول: السنة الطريقة المألوفة المعتادة والإنسان لاسيما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إنما يألفون ما تقتضيه فطرتهم السليمة المبنية على النظافة والنزاهة، وما يعتاد مما يقتضيه الطبيعة ملحق بها فلا بعد فى تسميته باسمها، كما قالوا العادة طبيعة ثانية. فالقول بأنه لا مناسبة بينهما غير صحيح، والجواب المذكور إقناعى لا يجدى نفعا، وللسيد هنا كلام لا يحصل له رأينا تركه خيراً من ذكره ورده، وأول من سن هذه السنن إبراهيم الخليل صلى الله تعالى عليه وسلم وكونها عشراً رواه مسلم فى حديث مرفوع: «عشرة من الفطرة؛ قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظافر، وغسل البراجم، وتنف الإبط، وحلق العانة، وانتفاص الماء»<sup>(١)</sup>. قال مصعب: نسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة. وروى أبو داود «المضمضة والختان» بدل من إعفاء اللحية. وقال المصنف رحمه الله تعالى: المنسى الختان. وروى أيضاً فى الحديث الصحيح: «خمس من الفطرة» فالخصر غير مقصود أو أن السنن كانت تزيد شيئاً فشيئاً. وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى قوله تعالى: ﴿وَلِإِذْ أَبَتَ إِبْرَاهِيمُ رُبُّهُ بِكَلِمَةٍ فَاتَمَّهَنَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، أنه أمر بعشر خصال ثم عدهن كما مر،

(١) أخرجه مسلم (٢٦١/٥٦)، وأبو داود (٥٣)، والنسائى (١٢٦/٨)، والترمذى (٢٧٥٧)، وابن ماجه (٢٩٣)، وأحمد (١٣٧/٦)، والبيهقى (٣٦/١)، والدارقطنى (٩٥/١).



وأشار بقوله: «من الفطرة» إلى أنها غير منحصرة فيهما ذكر وهذه كلها ظاهرة والسنة المراد بها الطريق كما مر فيشمل السنة والواجب.

والختان سنة عند الأكثر فى حق الرجال وهو قطع جلدة الكمرة، وفى حق النساء مكمرة، ويسمى خفاضاً بكسر الخاء المعجمة والفاء والضاد المعجمة، وهو قطع جلدة فى أعلى الفرج على ثقب البول، وقطع أدنى شئ منه كاف، واستحسن مالك رحمه الله تعالى ختان الصبى من سبع إلى عشر، وكرهه فى اليوم السابع لأنه عادة اليهود. ولم يعين له أبو حنيفة رحمه الله زماناً.

وقص الشارب سنة وقيل: حلقه أحسن وتقصير اللحية حسن كما مر، وهيئته تحصل بقص ما زاد على القبضة ويؤخذ من طولها أيضاً على ما يأتى. وأما حلقها فمنهى عنه لأنه عادة المشركين.

وأما السواك فسنة مطلقاً. وقيل: إنه سنة فى الوضوء. وقيل: هو سنة للرجال دون النساء لضعف أسنانهن فأقيم العلك لهن مقامه، ولذا كره للرجال إلا فى الخلوة لعذر. والمضمضة والاستنشاق من سنن الوضوء.

وانتفاض الماء هو استنجاء ويكون واجباً وسنة كما بينه الفقهاء، وهو بالفاء والمهملة أو المعجمة، والمذكور فى اللغة أنه بالقاف والمهملة، وأما بالفاء فنضحه على الذكر، وقد ورد الاستنقاض بقاف ومعجمة بمعنى الاستنجاء، قال فى المغرب: والقاف والصاد غير المعجمة تصحيف، وفيه أن رواية القاف هى المشهورة. وقال الصاغانى: انتفاض الماء بالفاء والمهملة رشه على الذكر، وقيل: الانتقاض بالقاف تصحيف، وأشعر بأن ما فى المغرب ضعيف.

وقص الأظافر وتقليمها سنة ورد النهى عنه فى يوم الأربعاء، وأنه يورث البرص. وحكى عن بعض العلماء أنه فعله فنهى عنه فقال: لم يثبت هذا فلحقه البرص من ساعته، فرأى النبى عليه السلام فى منامه فشكى إليه ما الله أصابه، فقال له: ألم تسمع نهى عنه؟ فقال: لم يصح عندى. فقال: يكفيك أنه سمع ثم مسح بدنه بيده الشريفة فذهب ما به فتاب عن مخالفة ما سمع.

وغسل البراجم إزالة وسخها بالماء، والبراجم عقد أصابع من ظهر الكف، والرواجب عقدها من بطنها وهما بالجيم الموحدة. وقال التجانى: البراجم مفاصل الأصابع فعمم.

وتنف شعر الإبط معلوم ولا بأس بحلقه، وحلق العانة وهى ما حول الذكر والفرج، وإذا قص أظافره وحلق شعر إبطه وعانته أو حجم أو اقتصد فينبغى دفن ظفره وشعره

لحديث: «ادفنوا الأظافر والشعر والدم»<sup>(١)</sup> فإنه سنة، فإن ألقاه فلا بأس به ولا يترك السبال وإن طال. وفي الإحياء: اختلف السلف فيما طال من اللحية، فقليل: يقص ما تحت القبضة وكرهه الحسن وقتادة لحديث: «اعفو للحي» أى اتركوها على حالها، وأصل خلقتها، ورجحه النووى. وما ورد من أنه عليه السلام كان يأخذ من طول لحيته وعرضها ضعيف لا يحتج به، وإن احتج به بعضهم فهو مكروه.

وأما المرأة إذا نبتت لها لحية وشارب وعنفقة فيستحب حلقها، وقيل: لا ينبغي تغيير خلقتها.

أقول: إنه صح فى لفظ الانتقاص فى الحديث ثلاث روايات؛ الأولى: انتفاض بفاء وضاد معجمة، والثانية: انتفاس بفاء وضاد مهملة. والثالثة: انتقاض بقاء وضاد معجمة. ومعناه الاستنجاء أو رش الفرج بالماء دفعا للوسواس، وروى انتضاح فلا وجه لما فى المغرب، وتفصيله فى شرح الحديث.

وأما تقليم الأظافر وكيفيته وتفصيله فقد أفرده السيوطى رحمه الله تعالى بالتأليف فلا حاجة للتطويل بذكره كما فى بعض الشروح. ويكره ترك العانة والأظافر أكثر من أربعين يوما.

(قال): إن كان معطوفا على تمم فالمعنى قال الله لرسوله، وإن كان مستأنفا أو حالا بتقدير قد فالمعنى قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ويؤيده أنه وقع فى نسخة. (صلى الله تعالى عليه وسلم بنى الدين على النظافة) النظافة مصدر نظف وهى ضد الدنس، وفى قوله «بنى الدين» استعارة مكنية وتخيلية بتشبيه الدين ببيت قائم على أعمدة أو أساس حفظه لأهله. وقيل: إنه تشبيه مضرر أو منسى الأداة، والمراد النظافة الحسية من الحدث والخبث والدنس، والمعنوية كالعقائد الفاسدة والأخلاق الردية والتهاون بالعبادة، والمراد أنه مما بنى عليه فلا يعارض «بنى الإسلام على خمس»<sup>(٢)</sup>. وقد أورد هذا الحديث فى القوت وفى الإحياء فى كتاب العلم، وقال الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء: لم أجده هكذا.

وفى الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة رضى الله تعالى عنها: «تنظفوا فإن

(١) أخرجه البيهقى فى الكبرى (٢٣/١)، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (١٩٨/٢).

(٢) أخرجه البخارى (٤٥١٥)، ومسلم (١٦/٢٠)، والترمذى (٢٦٠٩)، وأحمد (٢٦/٢)، ٩٣، ١٢٠، ٣٦٣/٤، ٣٦٤، والحميدى (٧٠٣)، وابن خزيمة (٣٠٨)، والبيهقى (٣٥٨/١)،

والطبرانى فى الكبير (٣٧١/٢).

الإسلام نظيف»<sup>(١)</sup>. وللطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنهما: «النظافة تدعو إلى الإيمان»<sup>(٢)</sup>. انتهى. وفى الترمذى: «إن الله نظيف يحب النظافة» وهو بعض حديث ذكره فى كتاب الاستئذان عن سعد بن أبى وقاص أحد العشرة رضى الله تعالى عنهم، وقال: إنه حديث غريب فى سنده خالد بن إياس أو إياس وهو ضعيف. وقال السيوطى فى تخریجه هنا بعد ما ساق كلام العراقى. قلت: رواه الترمذى عن سعد بن أبى وقاص مرفوعاً: «إن الله نظيف يحب النظافة فنظفوا أفنيتمكم»<sup>(٣)</sup> وروى الرافعى فى تاريخ قزوین بسنده عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه مرفوعاً: «تنظفوا بكل ما استطعتم فإن الله بنى الإسلام على النظافة، ولن يدخل الجنة إلا كل نظيف». انتهى.

وبما ذكرناه من أن الحديث روى من طرق متعددة تجبر ضعفه، علم أنه خرج من الضعف إلى مرتبة الحسن ومعناه صحيح موافق للشرع، فلا يرد على المصنف ما قيل إن الحديث الضعيف لا يؤتى فيه بصيغة الجزم كقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ونحوه، لأنه يقتضى صحته والجزم به فينخرط فى سلك «من كذب على»<sup>(٤)</sup> وهو تساهل قبيح، فينبغى أن يقول: قيل أو روى ونحوه من صيغ التمریض، وأما إضمار صيغة التمریض أو قصد معناها اعتماداً على القرينة، فلا يتأتى مع الجزم وبقية الكلام عليه مستوفاة فى أصول الحديث، فلا يلتفت لما ذكره بعض الشراح هنا من الخرافات المزخرفة، ثم إن إطلاق النظيف على الله فى الحديث السابق ولم يذكره أحد فى أسمائه تعالى كما قيل، وقع للمشاكلة والمتقدمون يسمونها ازدواجاً أيضاً فلا وجه للاعتراض عليه لتوهم أنه الازدواج المذكور فى بديع المفتاح فإنه من قصور النظر. وقيل: إنه لا حاجة للمشاكلة فيه لأنه بمعنى القدوس وكفى لثبوته هذا الحديث.

(حدثنا سفيان بن العاصى) سفيان بثلاثين السنين والعاصى بعين وصاد مهملتين، وهو سفيان بن أحمد بن العاصى بن سفيان بن عيسى أبو بحر الأسدى، ولد سنة تسع وثلاثين

(١) انظر: كشف الخفا (٣٤١/١)، والأسرار المرفوعة (١٥٣).

(٢) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٢٣٦/١)، وأبو نعيم تاريخ أصفهان (١٨٣/١).

(٣) أخرجه الدولابى فى الكنى والأسماء (١٦/٢)، وأورده العجلونى فى كشف الخفا (٣٤١/١)، والسيوطى فى الدرر المنتثرة (٦٠).

(٤) أخرجه البخارى (٣٨/١، ١٠٢/٢، ٢٠٧/٤)، ومسلم (٣/٣)، والترمذى (٢٦٥٩، ٢٦٦١)، وأحمد (١٦٥/١، ٢٩٣، ٣٢٣، ٤٠٥)، والدارمى (٧٦/١)، وابن حبان (١٤٦١، ١٨٤٤)، والحميدى (١١٦٦)، والبيهقى (٢٧٦/٣)، والحاكم (٧٧/١)، (١٠٢).

أو أربعين وأربع مائة، وتوفى بقرطبة لثلاث بقين من جمادى الآخرة وقد جاوز الثمانين سنة أو دونها سنة عشرين وخمس مائة، وفيها توفى ابن رشد.

(وغير واحد) تنبيه على أنه رواه عن غيره أيضا. (قالوا: حدثنا أحمد بن عمر) هو أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس العذري صاحب كتاب الإعلام بإعلام النبوة: ولد ليلة السبت لأربع خلون من ذى القعدة سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، وتوفى سنة ثمان وسبعين وأربع مائة بالمرية.

(قال: حدثنا أبو العباس الرازي) نسبة إلى الرى بزيادة زاي معجمة فى النسبة على خلاف القياس، كما قالوا مروى فى النسبة لمرو، وهو أحمد بن الحسين بن بNDAR الخراسانى.

(قال: حدثنا أبو أحمد الجلودى) بضم الجيم وفتحها نسبة لجلود قرية ببغداد أو الشام، أو محلة بنيسابور، أو إفريقية، أو لبيع الجلود، وهو محمد بن عيسى بن عمرو بن الشيخ الصالح كان على مذهب سفيان الثورى قاله التلمسانى. ولا وهم فيه كما توهم، وفى اسمه ونسبه اختلاف لا حاجة لنا به. وقال النووى: الجلودى بضم الجيم وليس هو منسوباً إلى جلود بفتح الجيم قرية. وهو قول ابن السكيت، وابن قتيبة، ثم قال: الجلودى بالفتح، وأن العوام يقولونه بالضم وإنما قالاه فى المنسوب إلى القرية لا فى هذا الجلودى راوى صحيح مسلم، وهذا الذى نهت عليه لا خلاف فيه.

(قال: حدثنا ابن سفيان) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن سفيان بن محمد المروزي الفقيه الزاهد، توفى سنة ثمان وثلاث مائة وكان زاهدا مجاب الدعوة، روى عن مسلم صحيحه قرأه عليه إلا ثلاث مواضع رواها إجازة أو وجادة.

(قال: حدثنا مسلم) بن الحجاج القشيري النيسابوري وطنا، صاحب الكتاب المشهور الذى تلقته الأمة بالقبول وشهرته تغنى عن تفصيل حاله، توفى سنة إحدى وستين ومائتين.

(قال: حدثنا قتيبة) علم منقول من مصغر القتية وهى الإمعاء، وهو قتيبة بن سعيد بن حميد بن ظريف بن عبد الله الثقفى، يكنى أبا رجاء، من الليث ومالك وابن عيينة وغيرهم، وتوفى سنة أربعين ومائتين، وولد ببلخ يوم الجمعة لست مضين من رجب سنة ثمان وأربعين ومائة.

(قال: حدثنا جعفر بن سليمان) البصرى الضبعى بالضم لنزوله فى بنى ضبعة الزاهد الأُمى، وهو كما فى التقريب صدوق وإن كان يتشيع، والأصح قبول رواية من يتشيع إن لم يكن متعصبا ولا داعيا.

(عن ثابت) البصرى أبو محمد بن سلم، قال الذهبى: وهو ثقة كان من أعبد أهل زمانه، وكان يلبس الثمينة.

(عن أنس) بن مالك الصحابى السابق ذكره وترجمته رضى الله تعالى عنه. (قال: ما شمت عنبرا) شمت بكسر الميم وفتحها من باب علم ونصر، والعنبر: طيب معروف طاهر بلا كلام، وقال الماوردى: أكثر العلماء على طهارته وفيه إشعار بأن فيه خلافا، والأصح أنه شمع غسل ببلاد الهند يجمد وينزل للبحر، ونحله يرعاه من الزهور الطيبة فيكتسب طيبه منها، وليس نباتا ولا روث دابة بحرية، وأجوده الأبيض وما قرب إلى البياض، والأسود منه غير مرغوب فيه، وفى النسائى: «أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تطيب به».

(قط) بفتح القاف وتشديد الطاء المضمومة المبنية وفيه لغات ذكرها النحاة، وأصل معناه ما انقطع من الزمان أى مضى، ولذا اختص بالماضى المنفى فى الأشهر، وذكر ابن مالك رحمه الله تعالى أنه أكثرى وأنه سمع فى المثلث فى أحاديث عدة، وأما استعماله فى المستقبل فقال فى الدرة: إنه لحن وفيه كلام لنا فى شرح الدرة، وقيل: معناه الدهر والأبد وفيه نظر.

(ولا مسكا) هو طيب معروف، وهو فى الأصل دم يتجمد عند سرّة بعض الأطباء فى زمن معين بناحية من أقصى بلاد الترك تسمى تبت، بمثنتين فوقانيتين أولاهما مضموم بينهما موحدة مشددة بزنة سكر، والصحيح أنه طاهر وإن كان دما لاستحالاته كخل الخمر، قيل: إنه خصهما لأنهما أشرف الطيب وأشهره، وقدم الأعز الأشرف منهما وعمم بقوله:

(ولا شيئا) وإن علم حال غيرهما منهما بالطريق الأولى، فشمّل الشئ غيرهما من كل ذى ريح طيبة مفردا كالورد والسنرجس، أو مركبا كالغالية، وقد يكون المركب أطيّب رائحة، والمراد: ما شمت رائحة عنبر إلى آخره، مع أن العرب تجعل ذا الريح نفسه مشموما من غير تجوز فيه عرفا، ولذا كانت رائحته صلى الله تعالى عليه وسلم مس طيبا أولا، حتى أنه كان إذا مر فى بعض أزقة المدينة علم مروّره صلى الله تعالى عليه وسلم به برائحته، وهذا الحديث رواه مسلم فى صحيحه فى موضعين؛ أحدهما كما ذكره المصنف رحمه الله، فمن قال الذى فى مسلم عن ثابت رضى الله تعالى عنه: «ما شمت عنبرا ولا مسكا ولا شيئا أطيّب من ريح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا مسست قط ديباجا ولا حريرا ولا شيئا ألين مسا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم» فزيادة قط فى كلام المصنف رحمه الله تعالى بعد العنبر ليست فى

محلها، أو هو رواية بالمعنى اقتصر على أحد الموضعين، والعنبر بالنون الموحدة وكونه بياء موحدة ومثناة تحتية وهو أخلاط طيب مخصوصة تصحيف، ثم إنه قيل إنه ترق على حد ما مر فى قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والمعروف أن يبتدأ بالأدنى ثم الأعلى فى الإثبات ويعكس فى النفى، ليكون الكلام مقيداً فيقول: أعطيته درهماً وديناراً وما أعطيته ديناراً ولا درهماً، ولو قدم نفى الدرهم علم نفى الدينار بالطريق الأولى إلا أنه قد يراعى الترتيب الوجودى.

أقول: هذا هو المشهور، وهى قاعدة كلية إلا أن التحقيق فيها أنه إن ذكر فى الكلام أدنى وأعلى، وقصد إثباتهما فى نفسهما من غير إثبات شىء آخر فالأمر كما ذكر، فإن أضيف إلى ذلك شىء وقيد آخر فالترقى والتدنى بحسبه لا بالنظر لذلك كما فى الآية، فإن المنفى فيها الأخذ وهو بمعنى الغلبة، وغلبة السنة دون غلبة النوم، فإذا قيل: لا تغلبه السنة يتوهم أن النوم الأقوى قد يغلبه فنفى غلبته، وهذا ترتيب مفيد بقطع النظر عن الترتيب الوجودى، فإن لم ينظر لهما بل أريد بنفيهما التعميم، فلك البداءة بأيهما شئت فتقول لا صغيراً ولا كبيراً، ولا كبيراً ولا صغيراً، كما فصله فى المثل السائر وبيناه فى حواشى القاضى، وهذا هو المقصود هنا، فإن المراد أنه لا طيب كطيبه صلى الله تعالى عليه وسلم مع أن طيب العنبر دون طيب المسك، كما قالوا: ليس الطيب إلا المسك وعزته وكونه أغلى منه لا دخل له فيما نحن فيه، ثم إن وصفه صلى الله تعالى عليه وسلم بلين الملمس لا ينافى ما ورد كما سبق من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان شثن الكفين والقدمين، فإن المراد غلظ جلدهما وعظمهما؛ لأنه أقوى له ولا ينافى ذلك ملاسته، فإن فسر بغلظ فى خشونته فيما أن يخص بهما ولين الملمس فى غير ذلك من جسده الشريف، أو هذا بالنسبة لأصل الخلقة وذاك لمزاولة الأعمال والأسفار كما مر والأول أصح.

(أطيب من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم) ولا مثله ولا قريب منه كما مر، من أن نفى الأفضلية يقصد بها نفى المساواة بطريق الكناية، وليس المراد أيضاً نفى شمه له بل نفى وجوده، فلا يرد أن نفى الشم لا يدل على نفى الأظبية وهو المقصود، على أنه قد يراد بنفى العلم ونفى الوجدان نفى المعلوم والموجود، والمراد رائحته صلى الله تعالى عليه وسلم الذاتية لا المكتسبة؛ لأنها لا مدح فيها بل لا يصح إرادة المكتسبة لا وحدها؛ لأن المكتسب منه مثله، ولا مع رائحته الذاتية لأن المركب ليس مثل ريحه صلى الله تعالى عليه وسلم فتأمل.

(تنبيه) قد عرفت ما اعترض به على المصنف رحمه الله تعالى من أنه غير الحديث

وجوابه، وعلى هذا قيل: إنه اختصر الحديث وقد اختلف فى جوازه، والصحيح جوازه إن يكن المذكور يتوقف فهم معناه على ما قبله بحيث يحتل المعنى كالشرط والاستثناء، وما فيه ضمير راجع لمعنى ولم يكن قرينة معينة، وأما النقل بالمعنى فممنوع لمن لم يكن عالماً بالعربية ودقائقها، فإن علم بذلك جاز على الصحيح، وفى «جامع الأصول» له تفصيل ولعل هذا كله فى غير الأمثال وما جرى مجراها نحو «أحوك البكرى» و«من أعدى الأول» وله تفصيل فى ابن الصلاح وشروحه.

(وعن جابر بن سمرة) بضم الميم وقد تقدمت ترجمته رضى الله تعالى عنه (أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مسح خده) هذا الحديث أخرجه مسلم أيضاً، واقتصر المصنف رحمه الله تعالى على بعضه لمناسبته للفصل بناء على جواز الاختصار فى الحديث كما مر، وأما مسح الخد بيده فإنما ذكره توطئة لما بعده، وكان من عادته صلى الله تعالى عليه وسلم مسح وجوه الأطفال تأنيساً لهم وتطيباً لقلوب والديهم وشفقة عليهم، فإن إحضارهم عنده يمناً وتبركاً به صلى الله تعالى عليه وسلم مشهور، وأول الحديث: «صليت مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ثم خرج وأنا معه فاستقبله ولدان، فجعل يمسح خدى أحدهم واحداً واحداً، وأما أنا فمسح خدى فوجدت ليده برداً أو ريحاً كأنما أخرجها من جونة عطار». كذا فى مسلم «أو ريحاً» بأو بدل الواو الآتى وكثيراً ما يوجد بدونها، قيل: ولعله رواية فيه والتقدير أو قال جابر.

(قال) أى جابر (فوجدت) أى أحسست (ليده) أى كفه وما قاربها (برداً) وفى صحيح البخارى: «فإذا هى أبرد من الثلج» وهذا يدل على أن البرد على حقيقته وأنه ليس بعارض لمس ماء ونحوه. وقيل: إنه عند العرب ممدوح لاسيما فى زمن الحر، ولا بعد فى عده من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم مع كمال حرارته الغريزية، وقيل: إنه عبارة عن لين كفه ورطوبته، والأقرب أنه بمعنى الراحة واللذة والطيب، وقد فسر قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ [النبا: ٢٤] براحة لاشتهاره بهذا المعنى، كما قال:

تبسمت بالرضى مواعده فقلت يا بردها على كبدى

وفى النهاية: «كل محبوب عندهم بارد» و«برد الظل طيب العيش» و«الغنيمة الباردة الهنية» واللام للاختصاص والجار والمجرور حال من النكرة التى كانت صفة لها قبل تقدمها، لا يقال إذا كان البرد بمعنى الراحة يكون من باب وجدت للمريض راحة، فيكون المعنى ذو الراحة يده كما أن المريض كذلك؛ لأننا نقول اللام تعليلية أى وجدت راحة لأجل وضع يده فإن كان على ظاهره فهى اختصاصية.

(وريحاً كأنما أخرجها) أى اليد لأنها مؤنثة سماعية. (من جونة عطار) الجونة بضم الجيم

وسكون الهمزة، ويقال: بواو ساكنة يليها نون وهاء تأنيث، وهى شبه صندوق صغير مغشى بأدم وزند مستديرة يضع فيها العطار عطره، واختلفوا هل الواو أصلية تبدل همزة لضم ما قبلها كما قالوا فى موسى مؤسّى تنزيلاً لضم ما قبله منزلة ضمه، أو الهمزة أصل أبدلت واواً على القياس كما قرئ يؤمنون ويومنون وكأن أداة تشبيه وما كافة، وهل هى مركبة أو بسيطة خلاف مشهور؟ أى كان ريحها ريح ما أخرج من جونة العطار مضمخا بالعطر، والجملة صفة ريح أو مستأنفة، وعطار للنسبة كجمال لا للمبالغة وهو بائع العطر وهو كل ما طابت رائحته.

وفى البخارى: عن أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه «خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالهاجرة فى الأبطح فتوضأ ثم صلى الظهر ركعتين والعصر ركعتين وبين يديه عنزة يمر المار من ورائها، وقام فجعل الناس يأخذون يده الشريفة فيمسحون بها وجوههم، فأخذت بيده الشريفة فوضعتها على وجهى، فإذا هى أبرد من الثلج وأطيب رائحة من المسك» وهذا ظاهر فى أن البرد حقيقى وأن برده لمسه الماء إن كانت الواقعتين واحدة، أو هو مأول كما مر ووضع اليد المذكورة من حسن أخلاقه صلى الله تعالى عليه وسلم وتواضعه للصغير والكبير.

ورود فى حديث رواه ابن العماد عن أنس رضى الله تعالى عنه: أن ظهور نفحات الطيب منه صلى الله تعالى عليه وسلم ظهر بعد الإسراء وهو ظاهر، لأنه طيب العنصر لكنه لما اتصل بالملأ الأعلى والجنان وهبت عليه نفحات القدس ازداد طيباً، وكان له صلى الله تعالى عليه وسلم طيب لا يشبه طيب الدنيا، فله طيب ذاتى وطيب مكتسب من العالم الأقدس لا يفارقه وهو أطيّب الطيب، ولا ينافيه حديث: «حبب إلى من دنياكم الطيب» كما مر ويأتى، لأن الطيبات للطيبين والزائد قابل للزيادة.

(وعن غيره) أى روى عن غير جابر بن سمرة، وفى نسخة وقال غيره، وفى بعضها قال بدون عاطف، وهذا الحديث رواه البيهقى وأبو نعيم بسند فيه ضعف، وفى لفظه اختلاف فلذا أبهمه.

(مسها بطيب أو لم يمسه) المس واللمس متقاربان إلا أن لمس يقال لما معه إدراك بحاسة السمع واللمس إدراك بظاهر البشرة ويتجوز به عن الطلب، ومنه التماس وضمير مسها للكف واليد، وفيه قلب إذ الظاهر مس بها طيباً أو لم يمسه، وأول الحديث: «فكان كفه عطار» ولما كان قوله: «كأنما أخرجها من جونة عطار» بمعناه اكتفى به عن سياق أول الحديث فلا خلاف فيه، وليس متعلقاً بما بعده ولا اختصار فيه كما توهم، وإنما هو رواية بالمعنى وهذا إشارة إلى أن طيبة صلى الله تعالى عليه وسلم ذاتى،



والقول بأن الكلام فى الخلقى فلا حاجة لهذا لغو من الكلام.

(يصفاح) أو يمىس النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بصفحة يده (المصافح) مفعوله وهو بفتح الفاء اسم مفعول وهو من يريد مصافحته فإنها سنة عند الملاقاة، وفى رواية: «يصفاحه المصافح» بكسر الفاء والرفع على أنه فاعل، والمصافحة مفاعلة بمعنى جعل كل من المتصافحين يده على يد الآخر، وفى النهاية أنها إصاق صفح الكف بالكف عند الملاقاة، وفى معناه قول التلمسانى: وضع باطن الكف على باطن الكف مع ملازمة على قدر ما يقع منه من سلام أو كلام إن عرض.

واختطاف اليد وتقبيلها وضربها مكروه، وقد يشد كل واحد يد صاحبه، وقيل: لا ينبغي فعله وهى بعد الصلاة بدعة عندنا، والأصح أنها مباحة لما فيها من الإشارة إلى أنه كأنه قدم من غيبة؛ لأنه كان عند ربه يناجيه فافهم.

(فيظل يومه) يظل بفتح الظاء المشالة مضارع ظللت بكسرها وظللت بفتحها ويقال: ظلت بحذف إحدى اللامين، قال الراغب: يعبر به عما يفعل بالنهار ويجرى مجرى صرت، قال تعالى: ﴿ظَلَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [طه: ٩٧] فهو فعل ناقص لثبوت الخبر فى جميع النهار كما قاله الرضى، لأنه لوقت فيه ظل الشمس من الصباح للمساء أو من الطلوع للغروب، فإذا كانت بمعنى صار عمت النهار وغيره، وكذا إذا كانت تامة بمعنى الدوام. وقوله فى القاموس: يظل نهاره يفعل كذا وليله يسمع فى الشعر لا وجه له، ويومه منصوب على الظرفية ولا تؤكد فيه ولا تجريد لاسيما مع دلالة على الاستغراق. (يجد ريحها) أى يجد المصافح من طيب يده وإضافة ريحها للعهد، أى ريحها الطيبة طيبا خلقيا خصه الله به مكرمة ومعجزة له صلى الله تعالى عليه وسلم.

(ويضع يده على رأس الصبى فيعرف) مبنى لما لم يسم فاعله (من بين الصبيان بريحها) هذا بعض من حديث طويل، رواه أبو نعيم والبيهقى مسندا عن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عبل الذراعين والعضدين، طويل الزندين، سبط العصب، شثن الكفين، رحب الراحة، سائل الأطراف، كأن أصابعه قضبان الفضة، وكانت كفه ألين من الحرير، وكان كفه كف عطار مسها بطيب أو لم يمسه، يصفاحه المصافح فيظل يومه يجد ريحها، ويضعها على رأس الصبى فيعرف من بين الصبيان أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مسح على رأسه»<sup>(١)</sup>. والمخرج رحمه الله تعالى ظن هذا حديثا مستقلا فيفيض له، وليس المراد بالصبى معينا، والمراد بريحها رائحتها

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣٠٥/١).

التي حصلت بحسه والباء للسببية، والمراد أنه يعرف بأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مسه فيتميز من بينهم، وفي نسخة: «لريحها» باللام التعليلية والمعنى واحد، وفي رواية: «من ريحها» وذلك إما في يومه كما مر فيؤكد أو أنه يستمر مدة طويلة، والمضارع في موضع الماضي لنكتته المشهورة، ثم إنه ذكر بعضاً من حديث رواه مسلم واقتصر منه على ما يناسب المقام اختصاراً فقال:

(ونام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في دار أنس) بن مالك الصحابي رضى الله تعالى عنه السابق ذكره (على نطع) بسط له، وكان النطع لأمه رضى الله تعالى عنها، قيل: والإضافة لأدنى ملابسة؛ لأن الدار كانت لأمه كما في صحيح مسلم ولا خلل فيه لأنه كان ساكناً معها، ولأنه لو قال دار أم أنس احتمل أن يكون كنية لغيرها فلا تعلم الجائية بالقارورة، مع ما في هذا من الدلالة على أن رواية أنس رضى الله تعالى عنه الحديث بغير واسطة.

(فرق صلى الله تعالى عليه وسلم فجاءت أمه) وهى أم سليم بضم السين المهملة والتصغير، واسمها سهلة أو غيرها، قال النووي رحمه الله تعالى: وهى أم أنس بلا خلاف، وقول الغزالي وغيره أنها جدته غلط بالاتفاق، توفيت في خلافة عثمان رضى الله تعالى عنه، وهى أخت أم حرام بنت ملحان الصحابية المدفونة بجزيرة قبرص، سيدة الشهداء من النساء، وهى التى روت حديث غزاة البحر عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو مشهور، وهذا الحديث فى صحيح مسلم عن ثابت عن أنس رضى الله تعالى عنه قال: «دخل علينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال عندنا فرعق، فجاءت أمى بقارورة فجعلت تسلت العرق، فاستيقظ النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: ما هذا الذى تصنعين يا أم سليم؟ قالت: هذا عرقك نجعله لطينا وهو أطيب الطيب»<sup>(١)</sup>. وله روايات من وجوه أخر فيها أنه كان كثيراً ما يقيّل فى بيتها وينام على فراشها، وكان كثير العرق فكانت تجمع عرقه صلى الله تعالى عليه وسلم من وجهه الشريف ومن نطعها وتعصره فى قارورة لها.

وفى رواية: أنها قالت: «نرجو بركته لصبياننا وكانت تجعله فى سك لها»<sup>(٢)</sup> وهو بضم السين وتشديد الكاف طيب معروف مركب مع غيره، وكانت تبسط للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم نطعا من آدم فيقيّل عليه عندها وروى فى الوفاء «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يدخل بيتها فينام على فراشها وليست فيه، فأثت فقيّل لها هذا

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣١/٨٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٣١/٨٤).

النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نائم على فراشك، فجاءت وقد عرق واستنقع عرقه قطعة آدم ففتحت عتيدتها وجعلت تنشف ذلك العرق وتعصره، وأخذت من عرقه وشعره فجمعتة فى قارورة، فلما حضرت أنساً رضى الله تعالى عنه الوفاة أوصى أن يجعل فى حنوطه من ذلك» وقد استشكل ذكر الشعر فيه، والواقع فى سائر الأحاديث العرق فقط، وأجيب بأنه ورد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما حلق رأسه بمنى أخذ أبو طلحة رضى الله تعالى عنه شعره وأتى به أم سليم، فجعلته فى سكها فالمعنى أنها كانت تضيف بعد ذلك ما أخذته من العرق للقارورة التى فيها الشعر، ثم إن نوم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عندها وعند أختها أم حرام استشكل بأنه صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن خلوة الرجل بغير ذى محرم وهو يقتدى بفعله، فلا يدفعه كونه معصوماً، وأجاب ابن عبد البر وغيره بأنهما كانتا خالتاه من الرضاع فهما محرماه، فلذا كان صلى الله تعالى عليه وسلم ينام عندهما ويخلو بهما ويفليان رأسه الشريف. وقيل: هذا من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم للملكة إربه وليس هذا قبل نزول آية الحجاب كما توهم، وكونه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يخل بهما لأن عنده خادماً ونحوه غير مسلم.

(بقارورة تجمع فيها عرقه) صلى الله تعالى عليه وسلم، تقدم الحديث وأن أم سليم رضى الله تعالى عنهما لم تكن فى بيتها لما جاء صلى الله تعالى عليه وسلم، كما يدل عليه قوله فجاءت ووقع فيه بدل القارورة ففتحت عتيدتها ولا منافاة بينهما، ولا حاجة للجمع بتعدد القصة؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يعتاد القيلولة عندنا، لأن العتيدة الصندوق الذى فيه القارورة وهى إناء من زجاج يوضع فيه الطيب ونحوه، وقد يطلق على غير الزجاج، وجملة تجمع صفة قارورة أو مستأنفة لا حال لتكلفه، ومن فسر العتيدة بالحقة جنح لتعدد الواقعة ولا بعد فيه.

(فسألها رسول الله تعالى عليه وسلم عن ذلك) كما فى صحيح مسلم أنه قال لها: «ما هذا الذى تصنعين؟» وفى رواية: «ما هذا» وفى أخرى: «ما تصنعين؟» والسؤال ليعلم غرضها وقصدها بفعلها إما حقيقة أو ليظهره لغيرها. (فقلت:) هذا عرقك (نجمه فى طيننا) وفى رواية «لطيننا» أى نخلطه كما روى «أذوف» أى أخلط وتقدم رواية «نرجو بركته لصبياننا» والواقعة متعددة أجيب فى كل منها بجواب، فإن كانت واحدة فهو من تصرف الراوى وروايته بالمعنى والمآل واحد، وقد قال لها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أصبت.

(وهو) أى عرقه صلى الله تعالى عليه وسلم (من أطيب الطيب) قيل: يحتمل أن يكون ذلك من مقولها، ويحتمل غير ذلك، والواقع الأول، ووقع فى مسلم: «أطيب» بدون من

وهي أولى، فإن كان الضمير للمخلوط من عرقه وغيره فظاهر، لأن خالص عرقه أطيب منه، ولا شك في طيبه وأطيبيته كما مر «ما شمت عنبراً ولا مسكاً أطيب» فليس خلطه بالطيب لتطيبه أو للتبرك فقط كما توهم.

**فإن قلت:** إذا كان أطيب الطيب فلم خلط بالطيب؟<sup>١</sup>

**قلت:** لأن ما اجتمع من عرقه صلى الله تعالى عليه وسلم ليس كثيراً يكفي لطيبهم فخلط بكثير منه ليكون كثيراً.

(وذكر البخاري) رحمه الله تعالى إمام أهل السنة السابق ذكره (في تاريخه الكبير) وهو تاريخ ذكر فيه رواية الحديث وأحوالهم وليس كغيره من التواريخ كما يتوهم، بل كتاب من كتب الحديث معني، ورواه أيضاً الدارمي والبيهقي بالمعنى. (عن جابر) بن عبد الله الصحابي رضي الله تعالى عنهما الجليل الأنصاري، شهد المشاهد إلا بدرأ واستغفر له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم خمساً وعشرين مرة لما قضى دين أبيه، وهو آخر صحابي مات بالمدينة سنة سبعين وشيء، وروى ألفاً وخمس مائة حديث.

(لم يكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يمر في طريق) في رواية البزار وأبى يعلى بسند جيد عن أنس رضي الله تعالى عنه «كان صلى الله تعالى عليه وسلم إذا مر في طريق من طرق المدينة وجد فيه رائحة المسك؛ فيقال: مر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من هذا الطريق»<sup>(١)</sup> (فيتمعه) بالرفع (أحد) أى يأتي بعد ذهابه منه لا يمشى تابعاً له، والضمير للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا للطريق، كما قيل: إن معناه يتبع الطريق ويدل عليه قوله: «إلا عرف أنه سلكه»، وذكر ضمير الطريق وهي مؤنثة لشرفها. يمروره كما قيل:

عليك بأرباب الصدور فمن غدا مضافاً لأرباب الصدور تصدراً

والمراد: علوق تلك الرائحة بالمكان الذي يمر صلى الله تعالى عليه وسلم فيه وهو توهم لا يساعده اللفظ ولا المعنى. ويتبع كي علم أو بالتشديد، وجوز فيه النصب، والمراد أنه يمشى بعده بزمان قليل فالفاء للتعقيب، والقول بأن الفاء لعدم المهلة عرفاً وحكماً بقرينة الحال لا وجه له، وقوله أحد فاعل يتبع على حال من الأحوال. (إلا) على حال أنه (عرف أنه) أى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم (سلكه) أى دخله ومر فيه، والضمير للطريق فإنه يذكر ويؤنث فلا حاجة لتأويله كما توهم. (من طيبه) أى عرف من طيب الطريق مروره صلى الله تعالى عليه وسلم به، أو من أجل طيب الطريق برائحته الطيبة

(١) أخرجه أبو يعلى والطبراني كما في مجمع الزوائد (٢٨٢/٨).

المخصوصة به الباقية فيه، وهذا لا يكون إلا منه صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وذكر إسحاق بن راهويه) هو أبو يعقوب المروزي الإمام الزاهد الثقة المجتهد، أمير المؤمنين في الحديث كما قاله ابن حنبل رحمه الله تعالى، وهو الذي أحيا السنة بالمشرق، ما سمع شيئاً إلا حفظه وما حفظ شيئاً فنسيه، قال: «كأنى أنظر إلى مائة ألف حديث في كتبي وثلاثين ألف حديث أسردها» وراهويه لقب أبيه إبراهيم بن مخلد التميمي الحنظلي لقب به لأنه ولد بطريق مكة، وراه بالفارسية معناه الطريق، وهو بالهاء والواو المفتوحين والمثناة التحتية الساكنة والهاء المكسورة في المشهور، ويقال: بضم الهاء وسكون الواو وتحتانية مفتوحة كنفطويه، وهو أحب عند المحدثين آخره هاء والتاء خطأ، فما في بعض النسخ من التاء المفتوحة على أنه ممنوع من الصرف خطأ (أن تلك) الرائحة التي كانت تشم منه وتبقى في الطريق. (كانت رائحته) الذاتية المدركة منه صلى الله تعالى عليه وسلم (بلا طيب) يمسه ويتطيب منه من خارج (صلى الله تعالى عليه وسلم) وقد تقدم ما يدل عليه من الأحاديث، فما قيل إنه لم يظهر من رواه والظاهر ثبوته عندهم من قلة التتبع، ولا ينافيه كونه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يستعمل الطيب ويحبه لأنه لتكثيره والمبالغة فيه كما مر.

(وروى المزني) بالضم ثم فتح نسبة لمزينة قبيلة مشهورة، وهو أبو إبراهيم بن إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل المزني المصري الزاهد كان مجاب الدعوة، وقال الشافعي رضى الله تعالى عنه فيه: لو ناظر الشيطان لغلبه. وله تصانيف مشهورة، ولد سنة خمس وسبعين ومائة، وتوفي لست بقين من رمضان سنة أربع وستين ومائتين، ودفن بالقرافة بالقرب من قبر الشافعي.

(والحرابي) هو في بعض النسخ وهو إبراهيم بن إسحاق الحرابي الحنبلي نسبة إلى الحرابية محلة من بغداد، وهي تنسب لحرب بن عبد الله صاحب المنصور، مات سنة سبع ومائة (عن جابر) بن عبد الله السابق، فقد قيل: إنه المراد إذا أطلق وهذا مما وقع في بعض النسخ وكأنه من إلحاقه بالأصل.

(قال: أردفني النبي صلى الله تعالى عليه وسلم) أي أركبني (خلفه) أي وراء ظهره وهو راكب، يقال: أردفه وردفه ويقال: أردفه أعم، فعلى ذلك قوله خلفه لدفع توهم المعنى الأعم أو تأكيد، قال البرهان الحلبي: جمع الحفاظ أرداف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فبلغوا نيلاً وثلاثين ولم يذكر فيهم جابر. وقال الشمني: جمع بعضهم من أردفه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على فرس أو غيره فبلغوا نيلاً وأربعين وما ذكره من التأليف لم نقف عليه، والذي عدوه ممن أردفه صلى الله تعالى عليه وسلم أسامة بن

زيد أردفه فى مرجعه من عرفة على إكاف، والصديق رضى الله تعالى عنه فى الهجرة، وعثمان رضى الله تعالى عنه فى قدومه من بدر، وعلى كرم الله وجهه فى حجة الوداع، وعبد الله بن جعفر، وقثم، وعبد الله بن عباس وأخواه عبيد الله والفضل فى نزوله من مزدلفة، والحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما، ومعاوية، ومعاذ بن جبل على حمارة عفير، وأبو ذر، وزيد بن حارثة، وثابت بن الضحاك، والشريد بن سويد، وسلمة بن الأكوع، وزيد بن سهل، وسهيل بن بيضاء، وعلى بن العاصى، وعبد الله بن الزبير، وغلان من بنى عبد المطلب، وأسامة بن عمر، وصفية بنت حى، وأبو الدرداء، وأمىة الغفارى، وأبو قاسم، وأبو هريرة، وقيس بن سعد، وخوات بن جبير، وجبريل عليه الصلاة والسلام على البراق فى الإسراء، والعباس، وصفية الجهنية، وعقبة بن عامر، وآخرون لعل النوبة تفضى لذكرهم على التفصيل.

(فالتقمت خاتم النبوة بقمى) الالتقام أخذ الشئ وجعله فى فيه سواء ابتلعه أم لا، والابتلاع والاستراط بمعنى، ولذا سمي الطريق سراطا ولقما كأنه يتلع السابلة، وخاتم بفتح التاء وكسرها وسيأتى تفصيله، وقوله: «بقمى» تأكيد لدفع توهم الجاز؛ لأنه يقال: ألقم كفه ركبته، وفى العبارة ما يقتضى أن خاتم النبوة كان ذاتيا مرتفعا حتى تمكن من التقامه وهو بين كفيه، وفيه روايات، فقل: كان كأثر المحجم، وقيل: كبيضة الحمامة أو التفاحة، أو الجمع بضم الجيم وسكون الميم وهو ضم الأصابع للكف، يقال ضربه بجمع كفه، وقيل: كركبة العنز، وقيل: كزر الحجلة، وعلى هذه الروايات يمكن التقامه، وروى عن أبى سعيد الخدرى أنه بضعة ناشرة هكذا ووضع سبابته على مفصل إبهامه أو دونه بقليل، وأما على رواية أنه شامة خضراء محتفزة فى اللحم إن صحت فالتقامه مجاز عن إخفائه بوضع فمه عليه، وزر الحجلة بيضة طائر معروف، وقيل: إن الحجلة حكمة السرير التى تسميها العامة الناموسية وزرها ما يدخل فى عروتها، وصححه فى الروض الأنف وقال: تفسير الترمذى له ببيضة الطائر وهم. وقال التجانى: إنما هو على هذا رز بتقديم المهملة على المعجمة ومعناه البيض، ومنه رز الجراد لبيضه، وكان الخطابى الذى فسره به وحده فى رواية، وتفسير الحجلة ببياض بين عيني الفرس لا وجه له، فإن كان مجازا عن التحجيل فبعيد جدا، قال: ووضع هذا الخاتم لهذا الفاتح الخاتم هل هو من ابتداء خلقه أو من بعد ما ولد أو بعد ما نبئ.

وروى ابن أبى الدنيا عن أبى ذر رضى الله تعالى عنه مرفوعا أنه قال: قلت: يا رسول الله كيف علمت أنك نبى واستيقنت؟ قال: «يا أبا ذر أتانى ملكان وأنا يبطحاء مكة فوق أحدهما بالأرض والآخر بين السماء والأرض، فأخرج قلبى وأزال منه مغمز

الشيطان وعلق الدم فطرحهما وخاط بطنى، وجعل الخاتم بين كتفى كما هو الآن ووليا عنى، فكأنى أعين الأمر معاينة»<sup>(١)</sup> وفيه بيان لوقت الوضع وكيفيته إلا أنه قيل: إن قوله: «بيطحاء مكة» وهم من الراوى، لأن ذلك كان فى بنى سعد وهو مع حليلة كما سيأتى، وقول المصنف: إنه أثر الشق بين كتفين موافق لهذا الحديث سواء قرئ أثر بفتحيتين أو بكسر فسكون، أما على الثانى فظاهر، وأما على الأول فلأنه لما وقع بعده وبسببه جعل أثراً له، فقول النووى رحمه الله تعالى إنه باطل لأن الشق إنما كان فى صدره وبطنه، وكذا قال القرطبى، وأثره إنما كان خطأ واضحاً من صدره إلى مرق بطنه كما فى الصحيحين، ولم يثبت قط أنه بلغ بالشق حتى نفذ من وراء ظهره، ولو ثبت كان مستطيلاً بين كتفيه فى محاذاة صدره، قال: فهذا غفلة منه. انتهى غير متجه.

وكذا قال ابن حجر فى شرح البخارى، وذكر أنه مروى من طرق آخر فالوهم إنما هو فى فهم كلامه، قال: وهذا أصح ما قيل أنه ولد به، وظاهر كلامهم أنه مختص به صلى الله تعالى عليه وسلم. وفى كتاب «القيافة» أنه موجود فى كل نبى وأنه من علامات النبوة، وكان أهل الكتاب يعرفونه صلى الله تعالى عليه وسلم به. وقال البرهان الحلبي: لا أستحضر فيه شيئاً، والذى يظهر أنه من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه إشارة إلى أنه خاتم النبيين، وما رواه ابن حبان من أنه كبيضة النعامة نسب فيه إلى الوهم، والصواب الحمامة، وقيل: إنه شامة سوداء أو خضراء مكتوب عليها محمد رسول الله، أو سرفأنت المنصور، أو الله وحده لا شريك له ونحوه. ولم يثبت فيه ما يعتد به، وفى رواية «كسلعة أو غدة أو بندقة عند غضروف كفه اليسرى ورفع عند موته صلى الله تعالى عليه وسلم» وإنما وضع هناك لأن الشيطان إذا وسوس وضع خرطوم ثمة، وقد رآه بعضهم فى صورة ضفدع له خرطوم كخرطوم البعوضه أدخله فى منكبه الأيسر إلى قلبه ووسوس له فإذا ذكر الله خنس.

وقوله: (وكان ينم على مسكا) اسم كان المستتر ضمير الخاتم ويتم من قولهم نمت الريح إذ جلبت الرائحة. قال البرهان رحمه الله تعالى: وهو مستعار من النيمة، ومنه سمي الريحان نماماً لطيب رائحته وهى استعارة لطيفة شائعة، وقد استعير نمام للريحان ثم للعذار، كما قال بعض المولدين:

لاقتضاحى فى عوارضه سبب والناس نيام

كيف يخفى ما أكابده والذى أهواه نمام

وينم روى بضم النون وكسرهما، وعن المزى رحمه الله الكسر فى اللازم والضم فى

(١) أخرجه الدارمى (٩/١)، وأبو نعيم فى دلائل النبوة (٧١/١).

المتعدى. وفى القاموس: نم المسك سطح، والمتعدى بمعنى ينقل أو يحكى، واللازم بمعنى يظهر، وممسكا تمييز محول عن الفاعل، ومن قال محول عن المفعول فقد وهم، وروى يثج بضم المثلثة لا بالفتح كما قيل وتشديد الجيم، وهو متعدد ولازم والضمير فيه للخاتم أو للفم، أو تندفع رائحته مرة بعد مرة من ثج الماء، وهو خروجه متدفقا بسرعة. قال التجانى: وفى بعض النسخ بكسر المثلثة والجيم أى يسيل. والذى فى الصحاح أنه بالضم لا غير، فإنه متعد من الثج بمعنى التسيل أى كأنه يسيل منه المسك فمسكا منصوب تمييز أو مفعول به.

(وقد حكى بعض المعتنين بأخباره) أى المهتمين بنقل أخباره وأحواله صلى الله تعالى عليه وسلم. (وشماله) أخلاقه وصفاته اعتناء تتبع وعلم وأعلام، وهو البيهقى عن عائشة رضى الله تعالى عنها (أنه) صلى الله تعالى عليه وسلم (كان إذا أراد أن يتغوط) أى يأتى الغائط وهو المكان المنخفض من الأرض على عادتهم فى البراز لأنه أستر، قال الله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ٤٣] ثم كنى به عما يقع فيه، ومنه الغائط للبدن، ويقال: غيط للفرق بينه وبين غيره. (انشقت الأرض فابتلعت غائطه وبوله وفاحت لذلك) المذكور من البول والغائط (رائحة طيبة) وهذا الحديث رواه البيهقى عن عائشة رضى الله تعالى عنها وقال: إنه موضوع وسنينه لك.

(وأسند محمد بن سعد كاتب الواقدي) الإمام الكبير الحافظ الثقة، وهو أبو عبد الله محمد مولى بنى هاشم صاحب «الطبقات» مات سنة ثلاث ومائتين، والواقدي هو محمد ابن عمر بن واقد قاضى العراق، مات فى ذى الحجة سنة إحدى عشرة ومائتين.

(فى هذا) أى فى أن الأرض تبتلع ما يخرج منه صلى الله تعالى عليه وسلم ويفوح له رائحة طيبة. (خبراً عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم: إنك تأتى الخلاء) بالمد أى المكان الخالى البعيد عن البيوت؛ لأنهم كانوا قبل وضع المراحيض فيها يأتونه لقضاء الحاجة، ثم عبر به بعد ذلك عن محل التغوط مطلقاً، ثم صار عرفاً اسماً للبناء المعد لذلك. (فلا نرى منك شيئاً من الأذى) بالذال المعجمة والقصر أصله ما يضر، ثم أريد به هنا ما من شأنه أن يكره، فالمراد هنا الغائط.

(فقال لها: يا عائشة أو ما علمت أن الأرض تبتلع ما يخرج من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلا يرى منه شيء) تبتلع تفتعل من البلع إدخال الطعام والشراب فى الحنجرة والمرئ فاستعير لمطلق الإخفاء كما فى قوله تعالى: ﴿يَتَارِضُ آبِلَى مَاءٍ﴾ [هود: ٤٤] وقوله: فلا يرى منه شيء تفسير للمراد من البلع وتأكيذاً وبيان لحكمته فليس بمستدرك كما توهم، وإخفاؤه مع طيبه وعدم استنذاره، قيل: لأنه لعدم الإنكار بمحلله الخارج منه



أو لتبرك الأرض به. والظاهر أنه لأنه ينبغى ستره لأنه من المروة أو لأنه يخشى من أخذ الناس له.

(وهذا الحديث) وفى نسخة الخبر. (وإن لم يكن مشهوراً) قال ابن دحية: سنده ثابت وهو أقوى ما فى هذا الباب، فلذا نفى المصنف عنه الشهرة دون الصحة، فلا وجه للاعتراض عليه بأنه لا يلزم من نفى الشهرة نفى الصحة.

(فقد قال قوم من أهل العلم بطهارة الحديثين منه صلى الله تعالى عليه وسلم وهو قول بعض أصحاب الشافعى) المراد بالحديثين الخارجين كناية للعذر من ذكر ما يستهجن، وظاهر أن القول بالطهارة مبنى على هذين الحديثين فكأنه من وصفهما بالطيب، وأما ابتلاع الأرض فلا يدل عليه بل على خلافه، وتحقيقه ما فى الخصائص للخضرى وهو كتاب لم يصنف فى بابيه مثله كما مر. قال الرافعى فى كتاب الطهارة لما تكلم على نجاسة الفضلات: وهل هى كذلك من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم؟ وجهان؛ فقول: لا لأن أبا طيبة الحجام شرب دمه صلى الله تعالى عليه وسلم ولم ينكر عليه، وأم أئمن شربت بوله صلى الله تعالى عليه وسلم ولم ينكر عليها. وقال: «إذن لا تلج النار بطنك» ويروى: «شرب على كرم الله وجهه وابن الزبير رضى الله تعالى عنهما دمه» وقال معظم الأصحاب: حكمهما منه صلى الله تعالى عليه وسلم كحكم غيره وحمل الأخبار على التداوى، وروى أنه قال للحجام: «لا تعد فإن الدم كله حرام» أى على ما يأتى.

وقال النووى رحمه الله تعالى: حديث شرب البول صحيح حسن. وذلك كاف فى الاحتجاج إذ لم ينكر عليها ولا أمرها بغسل فمها ولا نهاها عن العود لمثله. وقال القاضى حسين: الأصح القول بطهارة الجميع، واختاره كثير من المتأخرين، وجواب التداوى يرد.

(لن يجعل الله تعالى شفاء أمتى فيما حرم عليها) والسر فيه غسل الملكين لجوفه وتطهيره ولا خلاف فى طهارة شعره، والأحاديث فى هذا الباب كشراب ابن الزبير دمه وشرب أم أئمن بوله الذى كان فى قدح يوضع تحت سريره ليبول فيه بالليل كثيرة. فإن قلت: ما الحاجة لوضع هذا القدح والأرض تبتلعه فلا يرى له أثر؟. قلت: لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يكره الخروج ليلاً من بيته وبيته مصلى نافلته ومحل نزول الوحي والملائكة، فلا يليق أن يمس باطنه وظاهره شىء من الفضلات ولو كانت طاهرة تعظيماً لعبادة ربه وتادباً، ألا ترى إلى قول القائل:

من عظم الناس عظموه وفاز بالعز و الرياسة  
ومزدرهم لو كان مسكا لقل فى أصله نجاسة  
وأما التداوى بالحرام كالخمر، فقل: يجوز إذا أخيره ثقة بنفعه ولم يجد دواء غيره،  
وقيل: إنه لا يجوز لحديث: «لن يجعل الله شفاء أمتى فيما حرم عليها»<sup>(١)</sup> وقيل: إنه لا  
يأباه لأنه يكون حلالاً له غير محرم عليه. وقيل: إن الله تعالى إذا حرم شيئا أبطل نفعه،  
وكون على كرم الله وجهه شرب دمه لم يثبت كما أشار إليه الدميرى فى منظومته فى  
الفقه بقوله:

غريبة فضلة سيد البشر	طاهرة على خلاف انتشار
وابن الزبير بدم الهادى البشير	نال الذى رام كماله أشير
وهو الذى خص بويل الناس	وهم بويله من الإبلان
فى مسند البزار ثم البيهقى	والطبرانى رواه فثوق
والدارقطنى وقول ابن الصلاح	ليس له أصل يفى فى الاصطلاح
وأم أيمن استزادت شرفا	إذ شربت بول النبى المصطفى
وسقيت إذ هاجرت للسنة	ماء روبا من شراب الجنة
فبعده ما مس جوفها ظما	ولم تذق إلى الممات الماء
صححه الحاكم والمروى فى	شرب على دمه لم يعرف
وابن الصلاح قال فى شرب أبى	طيبة أنه ضعيف السبب
قال ابن سبع ويقينا كانت	تبلعها الأرض ومنها ازدانت
ولم تبل من تحتة بهيمة	ولم تر الدهر به سقيمه

وهذه فائدة تفرد بها، وهى أن الدواب لم تبل وهو صلى الله تعالى عليه وسلم راكب  
عليها، ولم تسقم دابة ركبها فى حياته، ثم وقع فى فقه الشافعية أيضاً أن حكم جميع  
فضلات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كذلك طاهرة لحديث عائشة رضى الله عنها  
بذلك، وفى بعض نسخ الشفاء هنا.

(حكاه الإمام أبو نصر الصباغ فى شامله) وهو الإمام البحر أبو نصر عبد السيد بن  
محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن جعفر الصباغ الذى انتهت إليه رئاسة الشافعية فى  
عصره، وكان ورعا تقيا زاهداً، وله كتاب الشامل فى الفقه لم يؤلف فيه مثله، وهو أول  
من درس بالمدرسة النظامية التى بناها نظام الملك للشيخ أبى إسحاق رحمه الله تعالى  
فامتنع وأبى أن يخرج من مسجده، فلما ألحوا عليه أذن لأبى نصر هذا فى التدريس بها،

(١) أخرجه أحمد فى الأشربة (٣٢)، والبيهقى (٥/١٠)، وانظر فتح البارى (١/٣٣٩، ١٣/٢٦١).

وتوفى أبو نصر رابع جمادى الأول سنة سبع وسبعين وأربع مائة بعد ما كف بصره.

(وقد حكى القولين عن العلماء فى ذلك) أى فى فضلات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أو الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وحكمها فى الطهارة وضدها، وقيل: قوله العلماء شامل الحنفية وغيرهم.

(أبو بكر بن سابق المالكى) أى العالم المقلد لمذهب الإمام مالك، وسابق بياء موحدة وقاف. قال البرهان: وفى بعض النسخ مصححاً أبو بكر وهو أبو الحسن محمد بن سابق الصقلى المالكى لا النسب. (فى كتابه البديع فى فروع المالكية وتخريج ما لم يقع لهم منها على مذهبهم من تفاريع الشافعية) يعنى أنه ألف كتابه المسمى بالبديع فى فروع فقهية لم يذكرها علماء المالكية، فخرجها على حكم ما ذكره الشافعية فيها لتصريحهم بها، وليس هذا تقليدًا لهم وإنما هو نظر فى دليلهم وإثبات لذلك الحكم بالدليل، فهو اجتهاد مذهبى ويقع مثله لغيرهم من الفقهاء أيضًا، والتخريج فى اصطلاح الفقهاء أن ينص صاحب المذهب على حكمين مختلفين فى صورتين متشابهتين لم يظهر فارق بينهما، فينقلون نصه فى كل صورة إلى أخرى، كمسئلتى الاجتهاد فى الأوانى والقبلة إذ منع فى الأول العمل بتغيير الاجتهاد وجوز فى الثانية، فنقلوا منعه فى تلك لهذه وتجويزه فى هذه لتلك، فصار فى كل قولان منصوص ومخرج المنصوص فى كل هو المخرج فى الأخرى، والتخريج عند المحدثين أن يجد حديثًا فى كتاب فينقله مسندًا مبينًا حاله فى الصحة وضدها أو غير مسند.

(وشاهد هذا) أى دليل القول بالطهارة (أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن منه شىء يكره ولا غير طيب) أى فإن النجاسة للاستقذار وكراهة التلوث، ولم يكن منه صلى الله تعالى عليه وسلم شىء مكروه عند الطيباع السليمة، وهذا دليل عقلى مؤيد لنظر أهل الشرع فلا يرد عليه أنه لا يدل على مدعاه، لأن من المستقذر ما هو غير نجس ومن النجس ما هو غير مستقذر.

(ومنه) أى من الشاهد على أنه لم يكن منه صلى الله تعالى عليه وسلم شىء يكره ولا غير طيب (حديث على رضى الله تعالى عنه) الذى رواه ابن ماجه وأبو داود فى مراسيله (غسلت النبى ﷺ) بتشديد السين؛ لأنه المستعمل فى الميت ويخفف فى غيره كالثياب.

(فذهبت أنظر ما يكون من الميت فلم أجِد شيئًا) ذهب هنا من أفعال المقاربة، أى جعلت أنظر ومثله كثير فى كلامهم، فالقول بأنه بمعنى أردت، استعير للذهاب بمعنى

المرور للإرادة بجامع التلازم بينهما تكلف مفسد للمعنى، لأن قوله: «فلم أجد» لا وجه لتفريعه ويكون تامة بمعنى يوجد، وما يوجد من الميت تغير رائحة وخروج فضلات، وهذا من أعلام النبوة وطهارة عنصر طينته، وقد مكث صلى الله تعالى عليه وسلم بعد موته يومين فلم يتغير منه شىء ما وهذا مما يستأنس به، لأن طيبه يدل على طيب ما يحصل منه، وكل إناء بالذى فيه يرشح. وليس برهانا عقليا كما يرشدك إليه تعبيره بالشاهد، فلا يرد عليه أن عدم وجوده كيف يدل على ما نحن فيه من طهارة الفضلات، ويأتى قريبا أن الذى غسّل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم علىّ والعباس وابنه أى الفضل يعينانه وقثم وأسامة وشقران يصبون الماء، وغسلوه وأعينهم معصوبة تأدبا، ولأنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «لا يرى أحد عورتى إلا طمست عيناه»<sup>(١)</sup> كما سيأتى. وروت عائشة رضى الله تعالى عنها أنهم ترددوا فى تجريدته للغسل، فسمعوا قائلا لم يروا شخصه يقول: لا تجردوا نبيكم من ثيابه فغسلوه وعليه قميصه بسبع قرب من بئر غرس ثلاث مرات، الأولى بماء قراح، والثانية بماء وسدر، والثالثة بماء وكافور، وإنما قال علىّ رضى الله عنه فذهبت أنظر بناء على العادة لتأخير دفنه؛ لأنه مات يوم الاثنين ودفن يوم الأربعاء لاشتغالهم بأمر الخلافة ولدفع وهم بعضهم أنه لم يمّت.

(فقلت: طبت) بفتح تاء الخطاب (حيا وميتا) والمخاطب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على عادتهم فى مخاطبة الأموات عند التوجع والثناء، كما ورد فى المراثى، أو لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم ليس كغيره فيسمع كما يسمع فى قبره من يصلى عليه كما سيأتى.

(قال: وسطعت منه ريح طيبة لم يجدوا مثلها قط) أى ظهرت وارتفعت، وأصل السطوع فى النور فاستعمل فى مطلق الظهور، وروى ابن بكير فى سيرته أن أم سلمة رضى الله تعالى عنها وضعت يدها على صدر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فمكنت جمعا لا تأكل ولا تتوضأ إلا وجدت ريح المسك بين يديها.

(ومثله) أى مثل قول على رضى الله عنه هذا (قال أبو بكر الصديق) رضى الله تعالى عنه (حين قبل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد موته) إشارة إلى ما فى الصحيحين عن عائشة رضى الله تعالى عنها: «أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه لما نعى له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو بمسكنه بالسنع بضم السين المهملة وضم النون وقد تسكن ثم جاء مهملة، بعوالى المدينة على مقدار ميل من المسجد النبوى، جاء فدخل المسجد ولم يكلم أحد حتى دخل بيت عائشة رضى الله تعالى عنها والنبى صلى الله

(١) أورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٥/٢٦١).

تعالى عليه وسلم مسجى ببرد حيرة، فكشف عن وجهه الشريف وأكب عليه يقبله وهو يبكي ويقول: بأبي أنت وأمي يا نبي الله، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد ذقتها، فسل عمر رضى الله تعالى عنه سيفه وجعل يتوعد من يقول إنه صلى الله تعالى عليه وسلم مات، ويقول: إنما أرسل إليه كما أرسل إلى موسى عليه الصلاة والسلام فلبث أربعين ليلة ثم رجع، وإنى والله لأرجو أن يرجع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كما رجع موسى ويقطع أيدي رجالا وأرجلهم». وفي رواية: «أن الصديق لما كشف عن وجهه بكى وقال: بأبي أنت وأمي طبت حيا وميتا» والصحابة منهم من خبل، ومنهم من أحرس، ومنهم من أقعد، فلما خرج أبو بكر رضى الله تعالى عنه قال لعمر: أيها الخالف على رسلك، فجلس فصعد أبو بكر المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وقال: ألا من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا صلى الله تعالى عليه وسلم قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله سبحانه وتعالى حي لا يموت، وقد قال الله تعالى ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَهُمْ مَئِيتٌ﴾ [الزمر: ٣٠] وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤] الآية، فنشج الناس بيبكون. وروى: «أنه لما قبل وجهه وقال طبت حيا وميتا، زاد: وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء فعظمت عن الصفة وجللت عن البكاء، ولو أن موتك كان اختيارًا لجدنا لموتك بالنفوس اذكرنا يا محمد عند ربك عز وجل ولنكن من بالك، وجعل يقول، وهو يبكي: واخليلاه واصفياه وانبياه» وتقدمت الإشارة لشيء من ذلك في الفصل السابع.

(ومنه) أى من الشواهد على ما ذكر ما رواه البيهقي والطبراني في معجمه الأوسط عن أبي سعيد الخدري، والأول دليل عقلى وهذا نقلى. (شرب مالك بن سنان دمه يوم أحد ومصة إياه) مالك بن سنان بن عبيد بن ثعلبة بن الأبحر بموحدة وجيم، وهو أبو أبي سعيد الخدري رضى الله تعالى عنهما وقد تقدم الكلام على ترجمتهما ونسبهما، وهو من كبار الصحابة، قتل شهيدًا يوم أحد رضى الله تعالى عنه، وأحد بضميتين اسم جبل وقعت فيه الواقعة العظيمة بعد قدومه صلى الله تعالى عليه وسلم من نجران، وقد غزاه كفار قريش فى شوال سنة ثلاث وقدموا بنسائهم وحلفائهم، وقصدوا المدينة فنزلوا قرب أحد على شفير الوادى بقناة مقابل المدينة، فرأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى منامه أن فى سيفه ثلثة وأن بقرًا له تذبح، وأنه أدخل يده فى درع له حصينة، فتأولها بأن رجالا من أصحابه يقتلون، وأن رجلا من أهل بيته يصاب، وأن الدرع الحصينة هى المدينة، ورؤيا الأنبياء وحى، فأشار على أصحابه أن لا يخرجوا من المدينة ويتحصنوا بها، فإن قربوا منها قوتلوا، ووافقه على رأيه عبد الله بن أبى بن سلول وأبى

كثير من الأنصار إلا الخروج ليكرم الله من شاء بالشهادة، فلما رأى صلى الله تعالى عليه وسلم عزيمتهم، دخل بيته يوم الجمعة ولبس لامته وخرج، فقال قوم ممن ألمح فى الخروج: إن شئت فارجع: فقال: «ما ينبغى لنبى إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل»<sup>(١)</sup> فخرج فى ألف من أصحابه واستعمل ابن أم مكتوم رضى الله تعالى عنه على الصلاة بمن بقى بالمدينة، فلما سار صلى الله تعالى عليه وسلم إلى القوم انصرف عنه ابن أبى بثلث الناس مغاضبا لمخالفة رأيه، فنهض صلى الله تعالى عليه وسلم لما عزم عليه وذكر له قوم من الأنصار الاستعانة بحلفائهم من اليهود، فأبى وسلك على حرة بنى حارثة، وشق أموالهم حتى نزل الشعب من أحد فى عدوة الوادى، وجعل ظهره إلى أحد، ونهى الناس أن يقاتلوا حتى يأمرهم، وسرحت قريش الظهر والكراع فى زروع المسلمين بقناة، وتعبى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم للقتال فى سبع مائة والمشركون ثلاثة آلاف فىهم مائتا فارس، وقيل: كان فى المسلمين خمسون فارسا ورماة المسلمين خمسين رجلا أمر عليهم عبد الله بن جبير رضى الله تعالى عنه وهو معلم بثياب بيض، فرتبهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خلف الجيش، وأمرهم أن ينضحوا المشركون بالنبل لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم، وظاهر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بين درعين، ودفع اللواء لمصعب بن عمير رضى الله تعالى عنه أخى بنى عبد الدار، وأجاز سمرة بن جندب والفزارى ورافع بن خديج بالخروج، وكان سن كل واحد منهما خمسة عشر سنة، وكان رافع راميا وجماعة ورد من لم يبلغ، وقيل: الإجازة استحقاق السهمين والرد عدم ذلك، وجعلت قريش على ميمنتهم فى الجبل خالد بن الوليد وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل، وأعطى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سيفه إلى أبى دجانة وكان شجاعا يختال فى الحرب، وكان أبو عامر المعروف بالراهب وسماه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الفاسق سيذا فى الأوس تنسك وترهب فى الجاهلية، فلما جاء الإسلام غلب عليه الشقاء ففر عن المدينة لبغضه لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وخرج إلى مكة فى جماعة من الأوس، وشهد يوم أحد مع الكفار ووعدهم بانحراف قومه إليه، فكان أول من خرج فى عبدان أهل مكة والأحباش، فلما نادى قومه وعرفهم بنفسه قالوا له: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق، فقال: لقد أصاب قومى بعدى شر، ثم قال: لما التقى الجمعان قاتل المسلمون قتالا شديدا وأبلى يومئذ على وحمزة وأبو دجانة وأبو طلحة رضى الله تعالى عنهم بلاء حسنا وكذا جماعة، وأصيب

(١) أخرجه الحاكم (١٢٩/٢)، والبيهقى فى الكبرى (٤١/٧)، وفى دلائل النبوة (٢٠٥/٣)، وانظر فتح البارى (٣٤١/١٣).

منهم مقبلين غير مدبرين، وقاتلوا قتالا شديدا ببصائر ثابتة، فانهزمت قريش واستمرت الهزيمة عليهم، فلما رأى ذلك الرماة قالوا: قد هزم الله تعالى أعداء الله فما لنا ههنا قاعدون، فذكروهم ابن جبير أميرهم رضى الله تعالى عنه أمر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لهم أن لا ينزلوا من مواضعهم فلم يلتفتوا لقوله، وقالوا: قد انهزموا وقاموا فتولى المسلمون وقد كر المشركون عليهم ففروا، وثبت من أكرمه الله بالشهادة، وإنما خالفوا لظنهم الأمر مقيدا ببقاء العدو، فإذا انهزموا سقط الخطاب فغلطوا فى التأويل، فوصلوا إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم منهزمين وقاتل دونه مصعب بن عمير رضى الله تعالى عنه حتى قتل، وجرح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى وجهه وكسرت ربايعيته اليمنى السفلى بحجر وهشمت البيضة برأسه، وكان الذى يتولى ذلك عمرو بن قميئة الليثى وعتبة بن أبى وقاص، وقد قيل: إن عبد الله بن شهاب هو الذى شجعه، وأكب الحجارة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حين سقط فى حفرة كان أبو عامر الراهب حفرها مكيدة فى المسلمين فخر عليه السلام على جنبه، فأخذ على كرم الله وجهه بيده واحتضنه طلحة حتى قام، ومص مالك بن سنان من جرح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم علاجاً ومداواة له حتى لا يختم الجرح قبل التصفية من الدم، ولذا لم يقل له صلى الله تعالى عليه وسلم كما قال لابن الزبير حين شرب دمه كما يأتى، وتشبثت حلقتان من درع المغفر فى وجهه الشريف، فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح رضى الله تعالى عنه وعض عليهما بثنيتيه فسقطتا وكان اهتم يزينه هتمه.

وقد اختلف فى هذا هل كان قبل الوعد من العصمة أو بعدها، والعصمة إنما هى عصمة النفس من القتل لا الجرح ونحوه، وبقي له ثوابها والتأسى به فيها، وقد تقدم ما فى ذلك، وأعطى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الراية حين قتل مصعب بن عمير رضى الله تعالى عنه عليا كرم الله وجهه، فأخذها على كرم الله تعالى وجهه وصار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تحت راية الأنصار، وقتل صاحب لواء المشركين فسقط لواءهم فرفعته عمرة بنت علقمة الحارثية، فاجتمعوا إليه وحملوا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فكر دونه نفر من الأنصار سبعة أو عشرة فقتلوا كلهم، وأصيب عترة قتادة رضى الله تعالى عنه فسالت على وجنته، فردها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى محلها فكانت أجمل عينيه وأصحهما، ولذا قال بعض ولده لعمر بن عبد العزيز لما قدم عليه وقال له: من أنت؟ فقال:

أنا ابن الذى سالت على الخد عينه      فردت بكف المصطفى أحسن الرد  
فعادت كما كانت لأول أمرها      فيا حسن ما عين ويا حسن ما رد

فقال عمر:

تلك المكارم لا قيعان من لبن

وأحسن جائزته، وانتهى أنس بن النضر إلى جماعة من الصحابة وقد ألقوا بأيديهم فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم. قال: فما تصنعون بالحياة بعده قوموا فموتوا على ما مات عليه، وأول من ميز رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد الجرح له كعب بن مالك الشاعر، فنادى بأعلى صوته: معشر المسلمين، هذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وأشار إليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن انصت الناس، فلما عرفوه صلى الله تعالى عليه وسلم مالوا إليه ونهضوا معه نحو الشعب فيهم أبو بكر، وعمر، وعلى، وطلحة، والزبير وغيرهم رضى الله عنهم، فلما أسند فى الشعب أدركه أبى بن خلف فتناول صلى الله تعالى عليه وسلم حربة الحارث بن الصمة وطعنه بها فى عنقه فمات عدو الله مرجعه بسرف. وقصة أحد مفصلة فى السير بأبسط من هذا، وما يتعلق بأبى بن خلف سيأتى الكلام عليه مطبوعاً فى كلام المصنف رحمه الله تعالى فى قوله: فصل وأما الشجاعة إلى آخره.

وأشار بقوله: شربه ومصه إلى أنه كان يفيض أولاً، فلذا جعل أخذه بفيه وابتلاعه إياه شرباً، ثم لما قل وجعل يجذب ما قل منه بالمشقة لما فيه جعله مصاً، فإن المص بالميم والصاد المهملة أخذ المائع القليل يجذب النفس، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «من مس دمه دمی لم يخالطه ذنب»<sup>(١)</sup> وهكذا من مازج بدنه شيئاً منه، وكان فيه إشارة إلى أنه يستشهد وقد كان كذلك، وقد علمت أن هذا رواه البيهقى والطبرانى فى الأوسط وكذا أصحاب السير، وضمير إياه للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، ووجه دلالة على ما قاله المصنف، أن الدم غير طاهر من غيره صلى الله تعالى عليه وسلم، فلو كان دمه الشريف طاهراً لنهاه عن ازدراده، إلا أنه لا يدل على طهارة بقية الفضلات منه قياساً لفرق الماوردى رحمه الله تعالى بين الدم والشعر وغيرهما بأنهما من أجزاء بدنه بخلافها.

وقوله: (وتسويغه صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك) أى شرب دمه ومصة (له) أى لمالك بن سنان رضى الله عنه، وتسويغه بالسين المهملة والغين المعجمة بمعنى تجويزه له من غير إنكار ومدحه له، وهو مستعار من ساغ الشراب فى الخلق إذا سهل انحدره فيه.

(١) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٢٧٠/٨)، وابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (١١٢/٦).



ومنه: ﴿لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّرِبِ﴾ [النحل: ٦٦] والتعبير به هنا في غاية الحسن والتورية لما فيه الشرب (وقوله) أى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لمالك (لن تصيبه النار) كناية عن فوزه بنعيم الجنان، وفي رواية: «من سره أن ينظر إلى من خالط دمه دمي فلينظر إلى مالك بن سنان»

(ومنه شرب عبد الله بن الزبير) بضم الزاى والتصغير (رضى الله عنهما دم حجامته) قال البرهان الحلبي: هذا الحديث رواه البزار والحاكم والبيهقي والبخارى والطبراني والدارقطني من طرق يقوى بعضها بعضاً والعجب من قول ابن الصلاح أن هذا الحديث لم أجد له أصلاً، وهو مذكور في هذه الأصول، وقد كان عليه الصلاة والسلام قال لما ولدته أمه ونظر إليه هو هو فكفت أمه عن إرضاعه فقال: «أرضعيه ولو بماء عينيك كبش كبش بين ذئاب عليها ثياب ليمنعن البيت أو ليقتلن دونه» وهذا من معجزاته صلى الله تعالى عليه وسلم لإخباره بالمغيبات فإنه بيان لقصته مع الحجاج، فإن ابن الزبير رضى الله تعالى عنهما استخلف سنة أربع أو خمس وستين بعد وفاة معاوية رضى الله تعالى عنه، فحاصره بعد ذلك الحجاج عند البيت العتيق سنة ثلاث وسبعين حتى قتل شهيداً وقصته مشهورة، وهو أحد العبادلة، الإمام الزاهد العابد الشجاع ابن الشجاع، وهو أول مولود ولد للمهاجرين، وحنكه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بتمرة لأكها بفمه فخالط ريقه ريقه، وله رضى الله تعالى عنه من شرف النسب ما لا يوصل إليه؛ لأن أمه أسماء رضى الله تعالى عنها ذات النطاقين بنت أبى بكر الصديق، وأبوه الزبير رضى الله عنهما أحد العشرة سيف الله، وجدته صفية رضى الله عنها بنت عبد المطلب، وعمته خديجة أم المؤمنين، وخالته عائشة رضى الله عنها، وجده لأمه أبو بكر رضى الله تعالى عنه، وكان صواماً قواماً لا ينام ليله، وكان أطلس لا حية له.

وقوله: (فقال له صلى الله تعالى عليه وسلم «ويل لك من الناس، وويل للناس منك») بيان لما تسبب عن شرب ذلك الدم وويل للتحسر والتألم من الأمر، قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]، وهو إشارة إلى قتله وتعذيبه وتحقيره لقتل الحجاج له ومن عاونه ظلماً له، وويل للناس منه لما أصاب الناس من خروجه لطلب الخلافة لا من المدينة لمكة، ومحاصرة مكة بسببه وقتل من قتل ثمة، وما أصاب أمه وأهله من المصائب، وما لحق قاتليه من الإثم العظيم، وتخريب البيت وهدمه بسببه، وإنما جعله ناشئاً عن شرب دمه فإنه بضعة من النبوية نورانية بما قوت قلبه حتى زادت شجاعته وعلت همته، عن أن ينقاد لغيره ممن لا يستحق الإمارة فضلاً عن الخلافة، وما قيل: إنه إشارة إلى ما يلحقه من قدح الجهلة فيه بواسطة شربه الدم، وما

يلحقهم من الإثم بذلك القدح ما لا ينبغى ذكره وسقوطه مغن عن رده وسيأتى تحقيقه،  
ودمه صلى الله تعالى عليه وسلم مما تغدى قطراته بالأرواح، ولله در القائل:

يجرى العلا فى عرقه جرى النداء فى عوده فهو اللباب صفاء  
لو يقدر الأحرار حين أرقته جعلوا له حب القلوب وعاء  
أو بويعوا قطراته معدودة أعطوا به مهج النفوس شراء  
واسترحصوا فى سعرها أن يذلوا عن كل واحدة جرت حوباء

وقد شرب دمه صلى الله تعالى عليه وسلم أيضاً أربعة رجال؛ أبو طيبة واسمه دينار أو  
نافع، وسالم بن أبى الحجام وهو الذى قال له صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا تعد فإن  
الدم كله حرام على ما فيه»<sup>(١)</sup>. وسفنة كما رواه البيهقى، وعلى بن أبى طالب كرم الله  
وجهه ذكره الرافعى فى الشرح الكبير. وقال ابن الملتن: إنه غريب لم نجده لغيره وقد مر  
ذلك.

(ولم ينكر عليه) هذا هو محط الدليل، فإن عدم إنكاره صلى الله تعالى عليه وسلم عليه  
دليل على جوازه وطهارته، قال السخاوى: سئل شيخنا العلامة ابن حجر عن حديث  
ابن الزبير ومالك بن سنان، وقوله للأول: «ويل لك» إلخ، وقوله لمالك: «لا تمسك النار»  
ما الحكمة فى تنوع القول مع اتحاد السبب؟ فأجاب بأن ابن الزبير رضى الله عنهما  
شرب دم الحجامة وهو قدر كثير يحصل به الاغتذاء، وقوة جذب الحجمة تجلبه من  
سائر العروق أو كثير منها، فعلم صلى الله تعالى عليه وسلم أنه يسرى فى جميع جسده  
فتكتسب جميع أعضائه منه قوى من قوى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فتورد به غاية  
قوة للبدن والقلب، وتكسبه نهاية الشهامة والشجاعة، فلا ينقاد لمن هو دونه بعد ضعف  
العدل وقلة ناظره وتمكن الظلمة وكثرة أعوانهم، فيحصل له ما أشار إليه صلى الله تعالى  
عليه وسلم من تلك الحروب الهائلة التى تنتهك بها حرمة، أى الناشئة من حرمة صلى  
الله تعالى عليه وسلم وحرمة البيت العتيق، فويل له لقتله وانتهاك حرمة، وويل لهم  
لظلمهم وتعديهم عليه وتسفيههم.

وأما مالك رضى الله تعالى عنه فازدرد ما مصه من الجرح الذى فى وجهه صلى الله  
تعالى عليه وسلم وهو أقل من دم الحجامة، وكأنه صلى الله تعالى عليه وسلم علم أنه  
يستشهد فى ذلك اليوم فلم يبق له من أحوال الدنيا ما يخير به، فأعلمه بالأهم له بما  
يتلقاه من أنواع مسرات الجنان. انتهى. ولا عطر بعد عروس.

(١) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٢٧٠/٨).

(وقد روى نحو من هذا) المذكور فى شرب دمه صلى الله تعالى عليه وسلم (عنه) صلى الله تعالى عليه وسلم (فى امرأة شربت بوله) سيأتى بيان هذه المرأة (فقال لها: «لن تشتكى وجع بطنك») أى لا يصيب بطنك وجع منذ اليوم لركة ما دخل فى جوفها، فعبر بنفى الشكاية عن نفى لازمه وهو الوجع بطريق الكتابة التى هى أبلغ من التصريح. (أبدًا) وفى رواية بعدها (ولم يأمر واحد منهم) أى ممن شرب دمه ومن مصه ومن شرب بوله. (بغسل فم) ولو كان نجسًا لأمر به، ونهاه عن عوده لمثله؛ لأن تناوله لم يكن بإذنه فلذا قال: (ولا نهاه عن عوده) ضمير نهاه وكذا ضمير عوده المضاف إليه إن كان بالضمير لواحد وليس الضمير لواحد للشرب كما توهم، وقال البرهان: إنه لعودة بناء التأنيث كدولة فكأنه رواية، ولو كان نجسًا حرم تناوله ووجب تطهير محله ولم يقر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على مثله، وكونه للتداوى والعلاج خلاف الظاهر على ما فيه.

(وحديث هذه المرأة التى شربت بوله صلى الله تعالى عليه وسلم صحيح ألزم الدارقطنى مسلمًا والبخارى إخرجه فى الصحيح) يعنى أنه مستجمع لشرطيهما فهو فى أعلى درجات الصحة، فكان ينبغى ذكره فليس الإلزام على ظاهره، والدارقطنى منسوب إلى دار القطن محلة ببغداد، وهو الإمام الحافظ الذى لم ير مثله فى عصره، وهو على بن عمر بن أحمد بن مسعود بن النعمان بن دينار بن عبد الله أبو الحسن الذى انتهى إليه علم الأثر ومعرفة العلل، وأسماء الرجال وأحوالهم مع الصدق والعدالة والمعرفة بمذاهب الفقهاء، فلذا قيل: إنه أمير المؤمنين فى الحديث، ولد سنة ست وثلاثمائة وتوفى سنة خمس وثمانين وثلاثمائة، وما ذكره المصنف من أن الدارقطنى قال: حديث المرأة التى شربت بوله صلى الله تعالى عليه وسلم صحيح يخالفه أنه قال فى علله: إنه مضطرب، جاء عن أبى مالك النخعى وهو ضعيف وروى عنه الحاكم.

(واسم هذه المرأة بركة واختلف فى نسبها) قال البلقينى رحمه الله تعالى فى الخصائص: إن أم أيمن وأم يوسف شربتا بوله صلى الله تعالى عليه وسلم ولم ينكره عليهما. وفى تجريد الذهبى: إن بركة الحبشية قدمت مع أم حبيبة وهى التى شربت بوله، وهى غير بركة بنت يسار المهاجرة إلى الحبشة مع زوجها قيس بن عبد الله الأسدى، وغير بركة أم أيمن، وهى بركة بنت ثعلبة بن عمرو والدة أيمن بن عبيد، وأم أسامة بن زيد، فاسم هذه المرأة بركة ولكن فى الصحابييات من اسمها بركة عدة نساء، فاختلف فى التى شربت بوله صلى الله تعالى عليه وسلم أيتن هى، وإلى ذلك أشار المصنف رحمه الله تعالى بقوله: اختلف فى نسبها، فقيل: هى أم أيمن بركة بنت محسن

ابن ثعلبة بن عمرو بن حفص بن مالك بن سلمة بن عمرو بن النعمان مولاة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وحاضنته الحبشية معتقة أبيه، أسلمت هى وابنها أيمن بن عبيد الحبشى، ثم تزوجها زيد بن حارثة، وأخرج لها أحاديث فى كتب السنة، وأدركت خلافة عثمان كما فى التهذيب وذكره الواقدي، ورد بما فى مسلم من أنها توفيت بعد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بخمسة أو ستة أشهر، ولم يكن بأى من غيرها، وقيل: إن التى شربت بوله صلى الله تعالى عليه وسلم بركة بنت يسار مولاة أبى سفيان بن حرب المهاجرة السابقة، وكانت ظئراً لأم حبيبة رضى الله عنهما، فلما تنصر عبد الله بن جحش ثبتت أم حبيبة على الإسلام، وخلف عليها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بتزويج النجاشى إياه صلى الله تعالى عليه وسلم لها وإصداقه إياها أربع مائة دينار، وبعثها له صلى الله تعالى عليه وسلم مع شرحبيل بن حسنة فقدمت ومعها بركة تخدمها، وهى القائلة: إنه كان له صلى الله تعالى عليه وسلم قدح تحت سريره يبول فيه فشربته ليلاً، وهذا مخالف لما قاله البرهان الحلبى من أن القادمة معها غير بركة بنت يسار، ولما قاله الذهبى من أنها بركة الحبشية إلا أن يريد بالحبشية المهاجرة للحبشة وهو خلاف الظاهر، وروى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال لها: «لا يجمع بطنك أبداً»<sup>(١)</sup> بفتح الياء الأولى وكسرهما وهما لغتان فى يجمع سوى ياجع وعلى الكسر روى قوله:

ولا تنكئى قرح الفؤاد فيجمعها

وروى كما مر: «إذن لا تلج النار بطنك».

(وقيل هى) أى بركة المذكورة (أم أيمن وكانت تخدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم) تأييد لكونها التى شربت بوله صلى الله تعالى عليه وسلم ليلاً، لأنها إذا كانت خادمة له صلى الله تعالى عليه وسلم تمكنت من الوصول لذلك فى مثل ذلك الوقت، وتمكنت من الوقوف على حاله، فلذلك (قالت: كان لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قدح من عيدان) والقدح ليس المراد به ما يشرب به الشراب كما هو عند العامة، بل هو الإناء الذى يشرب منه، وأصغره الغمر بضم الغين المعجمة وهو الذى لا يروى، ثم القعب وهو ما يروى، ثم القدح وهو ما يروى الاثنين والثلاثة، ثم العس وهو ما يشرب منه الجماعة، ثم الرقد، ثم التين، ثم الجفنة، وعيدان جوز فيه التلمسانى كسر العين على أنه جمع عود، والذى عليه الشراح أنه بفتح العين المهملة تليها ياء مثناة تحتيه ثم دال مهملة

(١) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٢٧١/٨)، وقال الهيثمى: «وفيه أبو مالك النخعى، وهو

وألف ونون، ووزنه فيعال أو فعلان، والعيدان والعيدانة النحلة الطويلة، قال الشاعر:

إن الرياح إذا ما أعصفت قصفت عيدان نجد ولم يعبان بالرم  
ويقال للنخل إذا طال وتناولته اليد: عضيد، فإذا فات اليد فهي الحبارة، فإذا ارتفعت  
فهي الرقلة والعيدانة، وكان للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم عدة أقداح، قدح يسمى  
الريان، آخر يسمى المغيث، وآخر مضرب بسلسلة من فضة، وقدح من زجاج، وهذا  
القدح كان (يوضع تحت سريره يبول فيه من الليل) والسرير معروف ومن ظرفية بمعنى  
فى لا زائدة، وقد عده من معانيها الكوفيون وابن مالك، وأنشدوا:

عسى سائل ذو حاجة إن منعه من اليوم سؤلا ناله بعد فى غد

وقال الله تعالى: ﴿إِذَا ثَوَدَىٰ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩] أى فيه (فبال  
فيه ليلة ثم افتقده) الافتقاد افتعال من فقد وهو العدم، وليس الافتقاد هنا بمعنى العدم  
وإن ورد بمعنى كما فى الصحاح، بل الطلب والتفتيش، يقال: تفقده وتعهد به بمعنى، إلا  
أن الفرق بينهما كما قال الراغب: إن التفقد حقيقة تعرف فقدان الشيء والتعهد تعرف  
العهد المتقدم (فلم يجد فيه شيئاً) من بوله.

(وسأل) صلى الله تعالى عليه وسلم (عن بركة فقالت: قمت وأنا عطشانة) المذكور  
فى كتب اللغة أن يقال عطشان وعطشى وجماعة عطاش إلا فى ألفاظ قليلة جاءت على  
فعلان فعلانة، ولغة بنى أسد فى كل فعلان فعلانة فيصرفون فعلان؛ لأن شرط منع  
صرفه وجود فعلى، أو فقد فعلانة فما ورد فى هذا الحديث إما سماعى على خلاف  
القياس، أو هو على لغة بنى أسد فتوقف البرهان فيه لا وجه له، وقد كانت قريش  
تتكلم بغير لغتها لكثرة وفود القبائل عليهم، وحكى صاحب «القاموس» امرأة عطشانة  
من غير تقييد بلغة، وقيل: الظاهر أن من قال عطشى لا يقول عطشانة وفيه نظر، وقد  
علم أن هذا يدل على طهارة بوله صلى الله تعالى عليه وسلم إذ لم ينهها عنه، ولم يأمرها  
بغسل فمها، ولا بإعادة الصلاة وإن كانت صلت، ولا ينافيه قولها: (فشربته وأنا لا  
أعلم) لأنه لبيان طيبه وأنها لم تجد له ريحاً وطعمًا كغيره، أى لا أعلم أنه بوله لما ذكر،  
فلا ينافى قولها: إنه كان له قدح يضعه تحت سريره إلى آخره فتأمل.

(وروى حديثها) أى بركة أم أكن المذكورة (ابن جريج وغيره) هو عبد الملك بن عبد  
العزیز بن جريج بجيمين أولاهما مضمومة، وهو إمام ثقة، ولد سنة ثمانين وتوفى سنة  
خمسین ومائة، ويكنى أبا الوليد وهو مولى لآل صفية بنت حى، قيل: وهو أول من  
صنف فى الإسلام، وكان يقول: ما دون العلم أحد تدوينى. وقيل: أول من صنف سعد

ابن أبى عروبة. وقيل: الربيع بن فضيح، وقد اختلف فى قوله السابق امرأة شربت بوله، وقصة أم أيمن فى قدح العيدان هل هما قصتان أو قصة واحدة؟ فروى الحاكم والدارقطنى عن أم أيمن أنها قالت: قام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الليل إلى فخارة من جانب البيت فبال فيها، فقممت وأنا عطشانة فشربت ما فيها وأنا لا أشعر، فلما أصبح قال: «يا أم أيمن قومى فأهريقى ما فى تلك الفخارة» فقلت: شربت ما فيها. فضحك ثم قال: «والله لا ييجعن بطنك أبداً»<sup>(١)</sup> ونحوه.

وأخرج عبد الرزاق عن ابن جريح قال: أخبرت أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يبول فى قدح من عيدان، ثم يوضع تحت سريره، فجاء فإذا القدح ليس فيه شىء، فقال لامرأة يقال لها بركة كانت تخدم أم حبيبة رضى الله تعالى عنها جاءت معها من الحبشة: «أين البول الذى كان فى القدح؟» فقالت: شربته، فقال لها: «صححة يا أم يوسف»<sup>(٢)</sup> وكانت تكنى أم يوسف، فما مر بها حدث غير مرض موتها.

وأخرج أبو داود وابن حبان عن أميمة بنت رقيقة أنها قالت: «كان لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قدح من عيدان»<sup>(٣)</sup> إلى آخره. قال ابن دحية رحمه الله تعالى: هما قصتان لامرأتين وبركة أم يوسف غير بركة أم أيمن.

أقول: وفى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم «صححة» ما يدل على أن الدعاء به بعد الشرب سنة لا بدعة عامية، وحكمته أن الأكل والشرب يخشى منه السقم ونحوه فلذا دعى به كما قال:

فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

وفى بعض النسخ وهو ساقط من الأم وأكثرها (وروى) فى بعض الروايات (عن أمه آمنة قالت: ولدته) صلى الله تعالى عليه وسلم (نظيفاً ما به قدر) أى شىء مما يكون على المولود، أى نقياً من الوسخ والدرن، وفى بعض النسخ تأخيرها عن قوله: (وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد ولد مختوناً مقطوع السرة) وفى بعض الروايات: «ولد مختوناً مسروراً» وفيه تورية لأنه من السرور أو من قطع السرة، ومثلها فى الحسن أنه ولد معذوراً مسروراً ومعنى معذوراً مختوناً، يقال: عذرت وأعذرت إذا قطعت عذرتة وهى القلفة، وكونه صلى الله تعالى عليه وسلم ولد مختوناً مقطوع السرة ورد فى

(١) أخرجه الحاكم (٤/٦٣، ٦٤)، وأبو نعيم فى دلائل النبوة (١٥٩).

(٢) أخرجه البيهقى فى الكبرى (٦٧/٧).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٤)، والنسائى (٣٢).

حديث روى عن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما، وعلى هذا فهو تكريم له صلى الله تعالى عليه وسلم حتى لا يرى أحد عورته، وقد وقع هذا لكثير من الناس، والعرب تسميه ختان القمر، وأصله أن الطفل إذا ولد فى ليلة مقمرة واتصل بحشفته ضوء القمر وهى إذ ذاك لم تنضح جلده أثر فيها حتى تقلصت وانحقت، فإن القمر يؤثر ضوءه فى اللحم ويغيره، إلا أنه لا يكون قاطعاً لها بالكلية، ولذا لم يتمدحوا به، قال الشاعر:

إنى حلفت يميناً غير كاذبة لأنت أقلف إلا ما جنى القمر

وقيل: إنه يشير إلى أن النمو فى خلقه الإنسان يحصل فى زيادة القمر، ويحصل النقصان عند نقصانه كما فى الخبز والحريز، فهذا النقصان منسوب لنقصان القمر، وقيل: إن عبد المطلب لما رآه صلى الله تعالى عليه وسلم ولد محتوناً قال: «ليكونن لابنى هذا شأن». ولا يخفى أن سند هذا الحديث ضعيف جداً، والذى صححه المحدثون كما فى التمهيد لابن عبد البر أن جده عبد المطلب ختنه يوم سابعه وجعل له مأدبة وسماء محمداً، وكانت العرب تختن لأنه سنة توارثوها من إسماعيل وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وليس ذلك لمجاورة اليهود، وقد ورد هذا فى قصة هرقل وواقعته التى قيل له فيها إن ملك الختان قد ظهر، وروى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم ختن يوم شق قلبه الشريف وهو عند مرضعته حليلة، وقد ذكره ابن القيم فى كتابه «الهدى» وهو أرجح الأقوال، وطعن فى القول الأول من الأقوال الثلاثة، وقال: إنه روى فى حديث لم يصح. وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات، ومن الغريب قول الحاكم فى المستدرک: إن الأخبار تواترت بأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولد مسروراً محتوناً، وتعبه الذهبى وقال: لا نعلم صحة ما ذكره فكيف يكون متوتراً. والقول بأنه أراد بتواتره شهرته بين الناس لا ما اصطلاح عليه المحدثون بعيد.

وقد وقع فى هذه المسئلة نزاع بين ابن طلحة والكمال ابن العديم، فألف ابن العديم فى تأييد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم ختن بعد ولادته تأليفاً أوضح فيه الدلائل والنقول، إلا أنهم لم يرضوا قول ابن الجوزى إنه موضوع وردوه، ومع قوله أنه موضوع نقل عن كعب الأخبار أن ثلاثة عشر نبياً ولدوا محتونين، أى على صورتهم وهم آدم، وشيث، وإدريس، ونوح، وسام، ولوط، ويوسف، وموسى، وشعيب، وسليمان، ويحيى، وعيسى، ومحمد، وزيد عليهم حظلة بن صفوان، قيل: ولا تعارض بين كلاميه ولا يخفى ما فيه، وزيد عليهم إلى سبعة عشر، وقد نظمهم بعضهم فى قوله:

وفى الرسل مختون لعمر ك خلقة ثمان وتسع طيبون أكارم  
 وهم زكريا شيث إدريس يوسف وحظلة عيسى وموسى وآدم  
 ونوح شعيب سام لوط وصالح سليمان يحيى هود ياسين خاتم

(تتمة) قد علم أن أمه صلى الله تعالى عليه وسلم آمنة بنت وهب بن عبد مناف زوجها عبد المطلب ابنه عبد الله فولدت له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى وقت وفاتها سبعة أقوال، فقيل: هو بعد ست سنين، أو سبع، أو ثمان، أو خمس، أو أربع، أو تسع، أو اثنى عشر وتسعة شهور من ولادته، أو غير ذلك وماتت بالأبواء راجعة من عند بنى النجار أخواله، وفى زيارة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قبرها وإحيائها له كلام سيأتى.

ثم إنه ورد فى الحديث أن رجلا سأله صلى الله تعالى عليه وسلم ما حقيقة أمر ك منذ نشأت؟ فقال: «أنا دعوة أبى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وبشرى أخى عيسى صلى الله تعالى عليه وسلم، وإنى كنت بكر أمى وأنها حملتنى كأثقل ما تحمل النساء وجعلت تشتكى لصواحبها ثقل ما تجد»<sup>(١)</sup> الحديث، وهذا الحديث يعارضه ما رواه الواقدى أن أمه آمنة قالت لما حملت به: «ما شعرت أنى حملت به ولا وجدت له ثقلا كما تجد النساء وإنما أنكرت رفع حىضتى». وجمع بينهما الحافظ أبو نعيم بأن النقل كان فى ابتداء علوقها به، والخفة عند استمراره فى يكون فى الحالين خارجا عن المعتاد المعروف، وهذا الجمع لا يتأتى مع قولها كما روى: «إنى لما أنكرت رفع حىضتى أتانى آت وأنا بين النائم واليقظان فقال: هل شعرت بأنك حملت بسيد هذه الأمة ونيها» فكونها أثبت بالحمل يقتضى أن النقل لم يكن فى ابتدائه، والذى ينبغى فى التوفيق أن الثقل يكون معنويا وهو الروع والألم الذى يحصل للحوامل وهو المنفى، وحسبها وهو رزاقته وزيادة مقداره من غير ألم وتعيب؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم وزن بجميع أمته فرجحهم، وهذا هو المثبت وبقية أحوال حملة ومولده مفصلة فى كتاب المولد لابن حجر وغيره.

(وعن عائشة رضى الله عنها) أنها قالت: (ما رأيت فرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قط) وروى أنها قالت: «ما رأيت منه ولا رأى منى» يعنى العورة، وحذف المفعول لاستهجان ذكره، وسيأتى الكلام على ذلك عند إعادة المصنف له فى الكلام على الحياء والإغضاء، وقد اختلف فى نظر أحد الزوجين عورة الآخر، فقيل: يكره وهو

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٦٩/١)، وابن سعد (٩٦/١/١)، والبخارى فى تفسيره (١١١/١)، وابن جرير فى تفسيره (٤٣٥/١).



الأصح، وقيل: يحرم لأنه يورث العمى، وورد تعليل النهي عنه بذلك. ونقل عن علماء الشافعية الاختلاف في هذا العمى، فقيل: عمى الناظر، وقيل: عمى الولد، وقيل: عمى القلب.

(وعن علي رضي الله تعالى عنه: أوصاني النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يغسله غيري فإنه لا يرى أحد عورتى إلا طمست عيناه) قال المخرج: هذا الحديث رواه البزار والبيهقي، أى لا يمر يده على جسده للغسل غيره لأنه من أقربائه وأقدمهم صحبة. وأما قول الحافظ مغلطاي: إنه غسله صلى الله تعالى عليه وسلم على والعباس وابنه يعينانه، وقثم وأسامة وشقران يصبون الماء عليه وأعينهم معصوبة من وراء الستر، فلا ينافيه أنهما أعاناه بتقليب جثته الشريفة، والثلاثة أعانوه بصب الماء وهو يغسله بنفسه، وقوله: «من وراء الستر» يعنى قميصه من غير تجريد منه كسائر الموتى، لما روى عن عائشة رضي الله عنها: «أنهم اختلفوا هل يجردونه أم لا فسمعوا مناديا من ناحية البيت يسمعون صوته ولا يرونه يقول: غسلوا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعليه ثيابه فلم يجردوه» وقوله: «وأعينهم معصوبة» أى مربوطة بعصابة حتى لا ينظرون جسده الشريف وهو يغسل، خيفة أن يبدو من بدنه الشريف ما لم يؤذن في النظر إليه، وضمير أعينهم للعباس وابنه وقثم وأسامة وشقران لا للكل، فعلى رضي الله عنه لم يعصب عينه لأنه المباشر فهو مأذون له في ذلك، وخص بالإذن لأنه كان أقدرهم على الغض، وغيره ربما حانت منه لفظة فيطمس عيناه، ولذا ورد أنه نودى وهو يغسله أن ارفع طرفك نحو السماء خوفا من أن يديم النظر إليه، وطمست بفتح الطاء والميم من الطمس وهو إزالة الأثر بالحو، وطمس العين إزالة ضوئها وصورتها وهو لازم، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَطْمَسَ عَنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨] ويتعدى كقوله تعالى: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾ [النساء: ٤٧]، وكفن صلى الله تعالى عليه وسلم في ثلاثة أثواب بيض سحولية، والسحولية بضم السين وفتحها نوع من ثياب اليمن قطن وبيان النسبة مفصلة في الفائق، وفي هذا دليل على أن الله تعالى صانه صلى الله تعالى عليه وسلم عن أن يرى أحد محل العورة منه قبل النبوة وبعدها، فمن نظر إليها عن قصد عمى، ولم يرد ما ينافيه إذ لم ينقل أن أحدا رآها في صغره كأمه ومرضعته، وأما ما روى «من أن قريشنا لما بنت الكعبة وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ينقل الحجارة معهم فكان يضع إزاره على عاتقه ويضع الحجر عليه، فإذا دنا من الناس لبسه فلكمه لاكم لكمة شديدة، فاستغاث شاخصا بصره للسماء، فقيل له: ما شأنك؟ فقال: نهيت أن أمشى عريانا وكان ذلك أول شيء رآه من أمر النبوة» فليس فيه أن أحدا نظر لعورته صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وفى حديث عكرمة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما) عكرمة منقول من العكرمة بمعنى الحمامة، وهو عكرمة بن عبد الله البربرى مولى ابن عباس أحد فقهاء المدينة وتابعيها، ومن الأئمة المقتدى بهم فى التفسير والحديث، توفى سنة سبع ومائة، وقيل غير ذلك، وهذا رواه الشيخان وغيرهما وهو حديث صحيح.

(أنه صلى الله تعالى عليه وسلم نام حتى سمع له غطيط) الغطيط: صوت النائم إذا ارتفع نفسه لانطباق مجراه وضيقه، ويقال: خطيط بالخاء المعجمة أيضاً وهى بدل من الغين، كما يقال: اغن واخن. قال التلمسانى: وثبت به الرواية أيضاً.

(فقام فصلى ولم يتوضأ) لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان لا ينتقض وضوءه بالنوم مضطجعا بخلاف غيره، وهو من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم. وحكى الشافعية قولاً أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كغيره فى الانتقاض بذلك، والكلام على الانتقاض بالنوم فى المذاهب الأربعة مفصل فى كتب الفقه، وإنما كان ناقضاً لأنه مظنة خروج شىء من ريح ونحوه من النواقض، ومذهب الشيعة وبعض السلف أنه لا ينقض. وفى أحد قولى الشافعى أنه ينقض مطلقاً، وليس هذا محل تفصيله، والأحاديث الدالة على أن نومه صلى الله تعالى عليه وسلم لا ينقض وأنه تنام عينه ولا ينام قلبه كثيرة صحيحة، منها: ما ذكره هنا وهذا مخصوص به بالنسبة للأمة لما صح من حديث: «إنا معشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا»<sup>(١)</sup> قال ابن عباس رضى الله عنهما: لأن رؤياهم وحى فيفارقون سائر البشر فى نوم القلب ويساؤونهم فى نوم العين، فلو سلط النوم على قلوبهم لم يكن رؤياهم مفارقة لرؤيا غيرهم، وهذا فضل من الله خصهم به.

وأما ما روى من وضوئه صلى الله تعالى عليه وسلم بعد نومه، فلم يقل إنه لحدث وإنما كان أحياناً تجديدًا للوضوء، فإنه كان يستحبه أو هو بالنسبة لأتمته للتشريع لهم.

فإن قلت: يشكل على هذا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم نام فى الوادى حتى طلعت الشمس، ولو كان قلبه غير نائم ما أخرج الصلاة عن وقتها.

قلت: أجيب عن هذا بأجوبة:

أحدها: أنه لا مخالفة بينهما، فإن القلب يقظان فيحس بما يدركه القلب مما يتعلق بالبدن بخلاف ما يدرك بالعين كطلوع الشمس والفجر. ثانيها: أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان له نومان؛ نوم مستغرق تنام فيه عينه وقلبه، ونوم غير مستغرق تنام فيه عينه فقط. قال النووى فى شرح مسلم: والمعتمد الأول فلعل قلبه صلى الله تعالى عليه وسلم

(١) أخرجه ابن عبد البر فى التمهيد (٢٠٨/٥)، وفى الاستذكار (٩٩/١).

كان مستغرقاً بالوحي والمشاهدة، فلا يلزم وصف قلبه بالنوم كما كان عند نزول الوحي عليه في اليقظة فلاشتغال بباطنه بالقدس تعطل عن حقوق الظواهر، كما قال الشاعر:

فو الله ما أدري إذا ما ذكرتها اثنتين صليت العشا أم ثمانيا

وهذا هو الذي اختاره ابن عبد البر وابن المنير، لأن ظاهر الحديث عموميه لسائر أحواله، وما خالفه وجهه ما ذكر وحكمته التشريع، وهذا جواب ثالث. ورابعها: أنه يستغرق قلبه وينام ولكن لا يبلغ مرتبة عدم الشعور بالحدث.

(تبيه) على القول بأن المس ينقض الوضوء ذهب بعضهم إلى أنه لغيره صلى الله تعالى عليه وسلم وأما هو فلا، ثم اعلم أنه إذا كان رؤياه صلى الله تعالى عليه وسلم وحيا، فهل أوحى إليه في نومه بشيء من القرآن؟ قال الرافعي في أماليه: وإنما نزل عليه صلى الله تعالى عليه وسلم كله يقظة، وما ورد من قراءته سورة الكوثر في النوم محمول على أنها خطرت على قلبه بعد نزولها يقظة.

وقوله: «يتوضأ» بسكون الهمزة لدخول الجازم عليه ويجوز إبدالها ألفاً لينة على القياس، وحينئذ فيجوز فيه جزمه بحذف الحركة المقدرة وإبقاء الألف المعارضة، ويجوز جزمه بحذف ألفه لمعاملته معاملة يخشى فلك أن تقول: لم يتوضأ ولم يتوض كما ذكره النحاة.

(قال عكرمة): في بيان وجه ما ذكر (لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان محفوظاً) قيل: هذا جواب عن الإشكال السابق، حاصله أن النوم ليس ناقضاً بنفسه وإنما نقض لأنه مظنة الحدث، والله تعالى حفظه صلى الله تعالى عليه وسلم عن وقوع ذلك منه، ولو وقع نبهه عليه وهو مع ضعفه مخالف لظاهر الحديث، فالظاهر أن المراد أن الله حفظه عن أن ينام قلبه، وقد علمت مما مر أن هذه خاصة إضافية بالنسبة للأمة أو الأمم، لأن سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كذلك، وقيل: إن سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى كأنه لم يطلع على حديث: «إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا». أو لم يصح عنده، فحكم بأن الصلاة بعد النوم من غير وضوء من خواصه صلى الله تعالى عليه وسلم وتبعه مغلطاً، وإليه ذهب بعض الشافعية، ولذا قال ابن الوردي رحمه الله تعالى في البهجة الوردية:

وبعض ما أكرمه الله به منامه بالعين دون قلبه

أقول: لا وجه لما قالوه، فإن الحكم بغفلة مثل سفيان، أو قوله فيما صح من

الأحاديث أنه غير صحيح مع أنه لم يصرح به، فالتقول عليه بمثله غير لائق، وحمل المؤمن وقوله على الصلاح أولى، فنقول: إنما أراد هؤلاء أنه لو سلم أن الأنبياء السالفة صح أنهم كانوا يتوضؤون لصلاتهم كوضوئنا، فلم يسمع من أحد أن وضوئهم ينتقض بنواقض شرعنا فتكون الصلاة بعد النوم من خواص نبينا على الإطلاق، وعدم نوم قلوبهم أمر آخر، وهذا أمر أوضح من الصبح. ومما قلته فيما نحن فيه:

وعينيك ما قلب النبى غفا ولا عيون له فى برودة الليل راقدة  
ولكنما الأجفان منه تهجدت وباتت بمحراب الحواجب ساجدة

\* \* \*

### (فصل) فى قوة عقله ﷺ وشدة إدراك حواسه وذكاؤه

وفيه ما يدل على كمال قوة بنيته (وأما وفور عقله) الوفور: بضم الواو والفاء مصدر كالعقود بمعنى التمام لا الكثرة، وقيل: يحتمل أنه جمع وفر بمعنى كثير، والعقل قوة وغريزة أودعها الله فى الإنسان ليميز عن الحيوان بإدراك الأمور النظرية، وقيل: إنه نور يقذف فى القلب يستعد به لإدراك العلوم والأمور العقلية، وفى حقيقته ومحل خلاف وكلام لا حاجة لتفصيله، واشتقاقه من العقل بمعنى المنع، ومنه العقل لمنعه الإنسان عما لا يليق، ولذا نظرف القائل:

قد عقلنا والعقل أى وثاق وصيرنا والصير مر المذاق

وهذه القوة تتفاوت بالشدة والضعف، وتزيد بأمور مكتسبة من التجربة ومخالطة العقلاء، فلذا قيل: العقل عقلاء، عقل غريزى، وعقل مكتسب، وقد علمت أن المراد بوفور عقله صلى الله تعالى عليه وسلم تمامه وكماله لا كثرته، حتى يقال: إن المصنف رحمه الله وصف العقل بالكثرة باعتبار آثاره الصادرة عنه، قال فى الصحاح: الوفور الشيء التام، ووفرت الشيء وفرا ووفر الشيء بنفسه وفورا بمعنى أنه تام ولازم، والوفور لم يذكر أنه جمع.

(وذكاء له) الذكاء بفتح الذال المعجمة والموحدة الفؤاد بسرعة إدراكه وفطنته، لأنه فى الأصل الاشتعال والتوقد، ولذا يقال: الذكى متوقد الذهن، وقال الشاعر:

لو لم يحل ماء النـدا فيه لأحرقه ذكاؤه

واللب: بضم اللام وتشديد الموحدة التحتية بمعنى العقل، ولب كل شيء قلبه وخالصه، فلو فسر اللب هنا بالقلب جاز أيضاً، يقال: لب يلب إذا صار لبيبا، وعلى الأول غاير بين اللب والعقل تفننا ولا تكرار فى كلامه كما توهم.

(وقوة حواسه) الخمس الظاهرة، وهى: اللمس، والذوق، والشم، والسمع، والبصر، وهذه مما لا كلام فى ثبوتها للإنسان وللحيوان، إلا أن الحصر فيها لأننا لم نعثر على غيرها لا فىنا ولا فى غيرنا، وإن أمكن كما صرحوا به، وأما الحواس الباطنة كالحسن المشترك، والخيال، والقوة الفكرية، والوهم، والحافظة ومحالها من الدماغ فلم يثبتها أهل الشرع على أنهم فى إثباتها وتعيين محالها فى حيص بيص كما يعرفه من وقف على كلامهم. والحاسة بمعنى المدركة من حس بمعنى أحسن، والثانى هو الأعراف الأوضح، وبه جاء القرآن قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ [الأنبياء: ١٢] ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكَفَرَ﴾ [آل عمران: ٥٢] وهو استعارة لجعله لشدة ظهوره كالحسوس، وقوة الحواس مما يتمدح به.

(وفصاحة لسانه) هذا وما قبله مرفوع بالعطف على وفور وسيأتى الكلام على الفصاحة قريباً.

(واعتدال حركاته) أى حركاته الظاهرة فى بدنه وأعضائه جارية على نهج الاستقامة والأدب، فإنها عنوان لما فى قلبه من الخشوع والخضوع ومراقبة ربه الذى هو دائماً فى حضرة، ولذا قال صلى الله تعالى عليه وسلم لما رأى رجلاً يعبث بلحيته فى صلاته: «لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه». (وحسن شمائله) جمع شمال بالكسر وهو الطبع والأخلاق والصفات الحمودة.

(فلا مرية) بكسر الميم وقد تضم وسكون الراء المهملة يليها مثناة تحتية أى لا شك ولا شبهة، أو لا جدال ولا محاجة. وقال الراغب: المرية التردد فى الأمر وهى أخص من الشك، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مَرِيَّةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ [السجدة: ٢٣] والامتراء والمارة المحاجة فيما فيه مرية، وقال الله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا﴾ [الكهف: ٢٢] وأصله من مريت الناقة إذا مسحت ضرعها للحلب.

(أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان أعقل الناس وأذكاهم) أى أقواهم وأشداهم عقلاً وأكثرهم فطنة وذكاء، ووضح ذلك وبينه بما هو معلوم لأهل العلم والبصيرة، فقال: (ومن تأمل) فى الصحاح تأملت نظرت فيه مستبيناً، فكأنه مأخوذ من الأمل وهو الرجاء، لأن من دقق النظر فى شىء أعمل الفكر فيه رجاء حصوله وانكشاف كنهه.

(تدبيره أمور بواطن الخلق وظواهرهم) أى الوقوف على ظواهر أحوالهم وخفياتها حتى يصلحها ويرشدهم للأحسن منها، وأصل معنى التدبير التفكير فى عواقب الأمور وإدبارها، وتدبير مفعول تأمل، وأمور مفعول تدبير؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم

بعث داعياً إلى الله وهادياً للعباد، وهذا إنما يكون بإصلاح باطنهم وظاهرهم وهو يتوقف على معرفة ذلك.

(وسياسة العامة والخاصة) منصوب معطوف على تدبيره، والسياسة مصدر ساس الناس يسوسهم إذا دبر أمورهم وتصرف فيها، قالت حرقه بنت النعمان:

فبينما نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة تنتصف

وقول علامة الروم: إنه معرب سه يسق غلط لا أصل له، وقد أخذ من كلام من لا يعتد به، والعامة عوام الناس وجهلتهم من أرباب الصنائع والرعية، مأخوذ من العموم؛ لأن أكثر الناس كذلك والخاصة خلافهم، وللمسعودى والجاحظ كلام فى وصف العامة منه. أتباع لكل جاهل، لا يفرقون بين حق وباطل، فتراهم مهر عين لقائد دب، أو ضارب دف متشوقين إلى اللهو واللعب، مختلفين لمتعبد متخرق، واقفين عند قاص كذاب، مجتمعين حول مضروب، واقفين عند مصلوب، ينق لهم فيتبعون ويصاح بهم فلا يرتدعون، إذا اجتمعوا ضروا، وإذا تفرقوا نفعوا، وسياسة الخاصة بالدلالة على الخير والنصيحة، وسياسة العامة بالزجر والقهر، والضرب والنهر.

وسئل العتبى عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] أى مناسبة بين ذلك وبين الحديد وما هو إلا كالجمع بين الضب والنون، فأجاب بأن مالك الملك أرسل رسله لإجراء أوامره ونواهيته بين عباده وهما قسمان، عقلاء ذوو بصيرة وإرشادهم بالكتب الإلهية وما حوته من الأدلة القطعية، وجهلة عوامهم وتسخيرهم بالقهر والإرهاب بالسيف والسنان، فصار المعنى أرسلناهم بضابطى العامة والخاصة، وأى مناسبة أتم من هذه وإن ترائى عدم المناسبه بينهما بحسب النظرة الحمقاء.

(مع عجيب شمائله وبديع سيره) جمع سيرة مضاف للضمير، وقد تقدم أنها هيئة السير، ثم خصت بحاله فى غزواته ونحوها، والعجيب: الأمر الذى من شأنه أن يتعجب منه لكونه لا نظير له، وكذا البديع بمعنى المبدع، وغاير بينهما تفننا فى العبارة ولم يعطفهما، وأتى بمع للدلالة على أن انضمام هذا لما قبله سبب كونه عجيباً بديعاً، كما تقول: فلان يجود مع فقره؛ لأن الجود فى هذه الحالة أغرب، يعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مع سياسته العامة للخاصة والعامة مهذب الأخلاق موطئ الأكناف حسن السيرة، وقلما تتفق السياسة العظمى إلا مع التحجير والتعظيم والتحجب كما نراه من الملوك، فهذا دليل قوة عقله وفطنته صلى الله تعالى عليه وسلم.

ثم قال: (فضلا عما أفاضه من العلم) أى: وزاد على ما ذكر بكثرة العلم الذى علمه الناس وجعله شائعا بينهم من أفاض الحديث أذاعه، وقوله: من العلم: أى علوم الأولين والآخرين.

(وقرره من الشرع) أى ما قرره للناس من الأمور الشرعية، لمعرفته بشرائع من قبله وبيانه لأمر شريعته، والكلام على فضلا وتعديه بعن مفصل فى شروح المفتاح والكشاف، ويأتى بعض منه، والإفاضة أصلها من فيض الماء ثم شاعت فيما مر.

(دون تعلم سبق) متعلق بأفاض وما بعده، أى فعل ذلك من غير تعلم، لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يسكن غير بلده، ولم يقارن غير أهل جلدته، ولم يكن ثمة من يمكن تعلمه منه.

(ولا ممارسة تقدمت) منه والممارسة: معالجة ومزاولة بالاعتقاد على فعله، أى لم يتعلم من غيره ولم يحاوله حتى يعلمه من نفسه باجتهاد فى استخراج بعقله.

(ولا مطالعة الكتب منه) أى لم ينظر فى شىء من الكتب؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان أميا بين قوم أميين، وهذا دليل على شدة ذكائه صلى الله تعالى عليه وسلم وفطنته واستقامة طبيعته وفطرته، فلذا قال: (لم يمت) أى لم يشك ولم يرتب (فى رجحان عقله) أى فى زيادة عقله (وثقوب فهمه) أى نفوذه وظهوره، وهو بالثلثة من تثقيب النار وهو تذكيتها، يقال: تثقبت النار ثقوبا إذا اتقدت. (لأول بديهته) أى لم يمتز ولم يشك فى أول نظرة نظرها.

فإن قلت: هو صلى الله تعالى عليه وسلم تعلم ما ذكر من الوحي المنزل عليه وهو سفير محض.

قلت: تلقى الوحي من الملك، وضبطه وفهمه وإجراؤه فى مجاريه من غير تكلف منه يدل على ما ذكر وكم من عالم قرأ ودرس العلوم إذا أراد تقرير ما علمه لم يجد له قدرة ولا رونقا، وبعض الفقهاء إذا ولى القضاء لا يحسن الحكم بين الناس، ولك أن تقول المراد بما ذكر أمر آخر غير ما قلته من الأمور العرفية التى أكثرها برأيه وحسن تدبيره، فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان مأذونا له فى الاجتهاد.

(وهذا مما لا يحتاج إلى تقريره) وبيانه بما ذكرناه (لتحققه) بالمشاهدة فى عصره، والتواتر بعد ذلك بحيث لا يشك فيه مسلم وعاقل، وبما قررناه عرفت أن قول بعض الشراح هنا أن قوله: «ومن تأمل» إلى آخره غير واقع موقعه؛ لأن العلم بمثل هذا ملحق بالبديهيات، وقد استشعر ذلك فقال: «وثقوب فهمه لأول بديهة» فهذا تطويل غير

مفتقر إليه ممن عدم التدبر.

(وقال وهب بن مثنبه:) بضم الميم وفتح النون وكسر الباء المشددة بزنة اسم الفاعل، وهو وهب بن منبه بن سيج بسين مهملة مفتوحة، وقيل مكسورة ثم مثناة تحتية ساكنة ثم جيم الإنباري اليماني، أخو همام بن منبه، وكنية وهب أبو عبد الله، ويقال له: الذماري نسبة إلى ذمار بكسر الذال المعجمة وهي قرية بقرب صنعاء، تابعي مشهور بالمعرفة بالكتب القديمة، سمع من جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وقيل: إنه لم يلحقه. وروى عن ابن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، والنعمان بن بشير وغيرهم رضي الله عنهم، واتفقوا على توثيقه وعبادته، وتوفى سنة أربع عشرة، وقيل: ست عشرة ومائة، وهو ابن ثمانين سنة، وأخرج له أصحاب الكتب الستة، وله ترجمة طويلة في الميزان.

(قرأت في أحد وسبعين كتاباً) من الكتب القديمة النازلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وغيرها. (فوجدت في جميعها أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أرجح الناس عقلاً وأفضلهم رأياً) يعني أن عقله أزيد من عقول الناس، والمراد أشد من عقولهم جميعاً وآرائهم، وقد تقدم أنه كان يعرف الكتب القديمة ويقرؤها. قال التجاني في كتاب المعارف لابن قتيبة: عن وهب أنه قال: «قرأت من كتب الله سبحانه وتعالى اثنين وسبعين كتاباً» فيمكن أن يكون وجد أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أرجح الناس عقلاً وأفضلهم رأياً في أحد وسبعين كتاباً منها فقط، ولم يجد ذلك في الكتاب الثاني والسبعين، ويمكن أن يكون الروايات عنه مختلفة بزيادة ونقص، والذي قاله وهب من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم منوه بذكره في الكتب المتقدمة يعضد قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] (وفي رواية أخرى) عن وهب أيضاً (فوجدت في جميعها) أي في جميع الكتب التي قرأها (أن الله تعالى لم يعط جميع الناس) حتى الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام (من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله صلى الله تعالى عليه وسلم) أصل معنى الجنب الجارحة ثم استعير للناحية التي تليها كاستعارة سائر الجوارح لذلك كاليمين والشمال، وقوله: «في جنب الله» أي في أمره وحده الذي حده لنا كما قاله الإمام الراغب، فالمراد بقوله تعالى: ﴿فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] في حده ومقداره الذي أعطاه الله تعالى له.

(إلا كحبة رمل من رمال الدنيا) يعني أن عقله صلى الله تعالى عليه وسلم كجميع رمال الدنيا وعقل جميع الناس كحبة منها، وهذا على طريق التمثيل لأن عقولهم لا تقاس



بعقله صلى الله تعالى عليه وسلم، كما ضرب الخضر لموسى عليهما الصلاة والسلام مثلاً بماء فى منقار عصفور من ماء البحر بالنسبة لسائره، فشبّه به علم الله تعالى وعلم ما عداه، وقد ورد على كونه أفضل الناس رأياً، أنه ورد ما يخالفه فى كثير من الوقائع الثابتة فى الحديث، ورجوعه عن رأيه إلى رأى غيره كما فى قصة بدر، ورجوعه لرأى الحباب بن المنذر، حيث نزل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأدنى ماء من مياه بدر، فقال له الحباب: أهذا منزل أنزلكه الله فلا تتقدم ولا تتأخر عنه أو هو رأى ومكيدة حرب؟ فقال: «بل هو رأى والمكيدة» فقال: ليس هذا بمنزل، بل الرأى أن نسير حتى نأتى أدنى ماء من مياه بدر فننزله ثم نغور ما وراءه ونبنى عليه حوضاً ونملؤه ثم نقاتل ونشرب ولا يشربون، فقال: «أشرت بالرأى»<sup>(١)</sup> ورجع صلى الله تعالى عليه وسلم لما قاله.

وكذا فى قصة أسارى بدر والفداء، وكذا فى قصة تأبير النخل ونحوه مما سيأتى مما لا حاجة للتطويل بذكره هنا، وأجاب التجانى بأن رجحان رأيه على ما سواه مخصوص بما أمضاه من سنن الشرع واجتهاداته فى أمور الدين، فلا ينافى رجوعه فى آراء الدنيا لغيره كما صرح به فى قصة التأبير إذ قال: «إنما أنا بشر مثلكم فإذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشىء من رأى فإنما أنا بشر أخطئ وأصيب»<sup>(٢)</sup> وهذا نص فيما ذكر، ورد بأن مختار أهل الأصول أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان متعبداً فيما لا وحى فيه بانتظار الوحى، ثم بالاجتهاد بعد وقت الانتظار، وقيل: له الاجتهاد مطلقاً فى الأمور الشرعية والدنيوية وهذا مذهب مالك، وأحمد، والشافعى، وهو المنقول عن أبى يوسف وغيره. واختلف فى جواز خطابه فى اجتهاده، فذهب الرازى وغيره إلى أنه لا يجوز، وفى التوضيح يجوز لكن لا يقرر عليه، وعدم الإقرار بالإجماع لوجوب اتباعه المقتضى لعصمته، وجواز الخطأ عقلاً لا مانع منه بمقتضى البشرية، وقوة عقله صلى الله تعالى عليه وسلم وكمال حدسه وسداد رأيه لا ينافيه لأنه من لوازم الطبيعة البشرية، وإذا جاز سهوه فى صلاته ومناجاته فى غيرها بالأولى، فقول التجانى أن جميع أموره الدينية صواب خلاف المختار عند علماء الأصول، وحيث أن معنى كونه أفضل الناس رأياً واجتهاداً مع جواز الخطأ أحياناً أن رأيه لو خلى ونفسه من غير معارض فيما تقتضيه الطباع البشرية، كان أفضل من رأى غيره واجتهاده إذا خلى ونفسه أيضاً، مع رجحان رأيه بعدم التقرير عليه إذا خالف الأولى، وآراؤه صلى الله تعالى عليه وسلم

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٣٧٥/٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٦٢/١٤٠)، والطبرانى فى الكبير (٣٣٤/٤).

كلها صواب بعد التقرير عليها وقبله، لا إلا على قول من يقول كل مجتهد مصيب، والحاصل أن كون رأيه أفضل الآراء لا ينافي رجوعه لغيره ومشاورته له، فإن العبرة بما وقع عليه القرار لا ببادئ الرأي فافهم.

(وقال مجاهد) رحمه الله تعالى: تقدم الكلام على ترجمته فيما رواه عن ابن المنذر والبيهقي مرسلًا بلفظ: (كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذا قام في الصلاة يرى من خلفه كما يرى من بين يديه) قال البرهان: في الأصل الذي وقفت عليه من بفتح الميم موصولة وخلفه صلته منصوب على الظرفية وكذا من بين يديه، وفي غيره بمن الجارة فيهما، وهذا الحديث رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه لكن بلفظ: قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «هل ترون قبلي ههنا؟ فوالله ما يخفى على ركوعكم ولا خشوعكم وإنى لأراكم من وراء ظهري»<sup>(١)</sup>. ورواه مالك وأحمد وغيرهما، وفي لفظه اختلاف كما يأتي، والمعنى متفق.

واختلفوا في هذه الرؤية هل هي مختصة بحال الصلاة أم لا؟ وهل هي رؤية حقيقية أم علمية قلبية؟ فقال ابن الصباغ في الشامل: إن المراد بها الحس والتحفظ. وقيل: المراد العلم بأن يوحى إليه صلى الله تعالى عليه وسلم كيفية فعلهم أو يلهم ذلك، وفيه نظر لأنه حينئذ لا معنى لتقييده بقوله: «من وراء ظهري». وقيل: المراد من عن يمينه وشماله وهو تكلف، والصواب أنه محمول على ظاهره، وأن الإبصار حقيقى خاص به على طريق خرق العادة له صلى الله تعالى عليه وسلم، ولذا أخرجه البخاري في علامات النبوة، ثم إنه على ما ذكر يجوز أن يكون برؤية عينيه خرقاً للعادة، فكان يرى بها من خلفه كما يرى ما يقابله، فعلم لأنه لا يشترط في الرؤية المقابلة ولا العضو المخصوص عند أهل السنة كما قرروه في رؤية الله تعالى، وهذه أمور عادية تجوز الرؤية مع عدمها عقلاً، وإذا قلنا الرؤية علمية فمعنى أرى من خلفى أراكم وأنتم من خلفى.

وقال الزاهد الحنفى صاحب القنية في رسالته الناصرية «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كانت له عينان بين كتفيه كسم الخياط يبصر بهما لا يحجبهما ثوب ولا غيره» والظاهر أن مثله لا يقال بالرأى، وقيل: كانت صورهم تنطبع في حائط قبلته صلى الله تعالى عليه وسلم كما تنطبع في المرأة فيشاهد أفعالهم، ولا ينافى هذا ما ورد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم جعل شاباً حدثاً من وفد عبد القيس خلفه لئلا يراه، ولا قوله: «إنى لأعلم ما وراء جدارى هذا». إن صح ولا قوله في الحديث الآخر: «أيكم الذى ركع

(١) أخرجه البخاري (١١٤/١)، ومسلم (٤٢٤/١٠٩)، وأحمد (٣٠٣/٢، ٣٦٥، ٣٧٥)، وأبو

دون الصف»<sup>(١)</sup> فقال أبو بكر رضى الله عنه: أنا يا رسول الله. فلو كان يرى كما ذكر ما احتاج للسؤال، لأن الأول تشريع، والثانى المراد به نفى علمه صلى الله تعالى عليه وسلم بالمغيبات، مع أن عدم رؤية ما وراء الجدار لا ينافى الرؤية من غير حائل، وهذا إن لم نقل أنه مخصوص بالصلاة كما فى الامتناع.

وأجاب ابن عبد البر عن حديث أبى بكر رضى الله تعالى عنه بأن هذه القضية كانت قبل أن فضله الله تعالى بهذه الفضيلة، فإن شئونه صلى الله تعالى عليه وسلم تتزايد دائما، وقيل: معنى قوله: «إنى أراكم» إن قصدت ذلك ولم يكن صلى الله تعالى عليه وسلم قصد ذلك، كما أن الإنسان قد لا يستعمل نظره أحيانا، أو أنه رآه ولم يعلم عينه أو أراد تقريره ليذكر له ما ذكره وارتضاه بعضهم، وارتضى غيره أنه كان خلفه صفوف كثيرة فلا يرد عليه عدم رؤيته؛ لأنه لم يكن خلفه فى الصف الأول فلا حاجة لما تكلفوه من الأجوبة وهو كلام حسن.

(وبه فسر) بالبناء للفاعل، أى فسر العلماء أو بعض المفسرين: (قوله تعالى: ﴿وَتَقَبَّلَكَ فِي السَّجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩]) أى نرى تقلب بصرك فى المصلين خلفك لتراهم وتعلم ما يفعلون، وهو امتنان بهذه النعم، وهذا مؤنس لاختصاصه بالصلاة كما ورد التصريح به فى بعض الأحاديث.

(وفى الموطأ) بصيغة المفعول المشدد الطاء المهملة المهموز، سمي به لما فيه من أحاديث الأحكام المهمة للشريعة، وسياق هذا الحديث للاستدلال به على قوة حواسه صلى الله تعالى عليه وسلم فيناصبه التفسير بأنه يراهم بعينه حقيقة كما مر.

(عنه صلى الله تعالى عليه وسلم: «إنى لأراكم من وراء ظهري» ونحوه عن أنس رضى الله تعالى عنه فى الصحيحين، وعن عائشة رضى الله تعالى عنها مثله قالت: (ورؤيته صلى الله تعالى عليه وسلم ما أكرمه الله تعالى به دون غيره (زيادة زاده الله تعالى إياها فى حجته) وفى نسخة فى محجته والأولى أصح.

(وفى بعض الروايات) لعبد الرزاق والحاكم («إنى لأنظر من ورائى كما أنظر من بين يدى» وفى أخرى) أى فى رواية أخرى لمسلم: (إنى لأبصر من قفاى كما أبصر من بين يدى) والمراد بحجته الدلائل الدالة على نبوته صلى الله تعالى عليه وسلم وصدقه، وقيل: فى حجته على الكفار لأن هذه معجزة من معجزاته خارقة للعادة، وقوله زيادة بالرفع أى هذه زيادة ويجوز نصبه. وقول عائشة رضى الله تعالى عنها هذا لإثبات رؤيته من

(١) أخرجه الطحاوى فى شرح معانى الآثار (٣٩٥/١).

خلفه، وأكثر المفسرون في هذه الآية الأقوال، فمنها: ما ذكره المصنف رحمه الله عن عائشة رضي الله تعالى عنها هنا، ومنها: ما مر من أن المراد انتقالك من صلب نبي لنبي ولا يأتي تمتته، وقيل: ترددك في تصفح أحوال المتجهدين؛ لأنه لما نسخ فرض الليل دار صلى الله تعالى عليه وسلم على بيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصاً على طاعتهم، فوجدوا كيبوت الزنابير من الذكر والتلاوة، وقيل: معناه نرى تقلبك في جماعة المصلين إذا أتمتهم، وما ذكره المصنف رحمه الله تعالى عن الموطأ بعض حديث رواه مالك عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «هل ترون قبلتي ههنا فوالله ما يخفى عليّ خشوعكم ولا ركوعكم، وإنى لأراكم من وراء ظهري»<sup>(١)</sup>. وأول الحديث قال أنس: صلى بنا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ذات يوم فلما أقبل علينا بوجهه قال: «أيها الناس إنى أؤمكم فلا تسبقوني بالركوع ولا بالقيام ولا بالانصراف فإنى أراكم أمامى ومن خلفى»<sup>(٢)</sup>. إلى آخر الحديث، والكلام عليه مستوفى في شروحه.

(وحكى بقى بن مخلد) بقى بفتح الموحدة وتشديد القاف المكسورة تليها ياء مثناة تحتية، ومخلد بفتح الميم واللام وخاء بينهما معجمة ساكنة ودال مهملة، هو الإمام أبو عبد الرحمن القرطبي الجياني الحافظ الزاهد العابد الثقة صاحب المسند الكبير والتفسير الجليل، الذى قال ابن حزم: إنه لم يصنف فى التفسير مثله، مولده فى رمضان سنة إحدى ومائتين، وسمع من ناس كثيرين منهم يحيى بن يحيى الليثى القرطبي، وأبا مصعب الزهرى، ويحيى بن بكير، وإبراهيم بن المنذر الحربى، وابن أبى شيبة، وطاف الشرق والغرب وشيوخه مائتان ونيف وثمانون، وروى عنه كثير كابنه أحمد، وكان مجتهداً لا يقلد أحداً، وعد من أضرب أهل السنن وكان مجاب الدعوة، يقال: إنه كان يختم القرآن كل ليلة فى ثلاث عشرة ركعة ويسرد الصوم، وحضر سبعين غزاة وتوفى سنة ست وسبعين ومائتين رحمه الله تعالى.

(عن عائشة رضي الله تعالى عنها) أنها قالت: (كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يروى فى الظلمة كما يروى فى الضوء) وفيه رواية: «كما يروى فى النور» ولا شك أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان كامل الخلقة قوى الحواس، فوقوع مثل هذا منه غير بعيد، وقد رواه الثقات كابن مخلد هذا فلا وجه لإنكاره، وقد أخرجه البيهقى عن

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (٤٢٦/١١٢)، وابن خزيمة (٩٥٨٧)، والبيهقى فى الكبرى (٩٢/٢)، وابن أبى شيبة (٣٢٨/٢).

عائشة رضى الله عنها أيضاً، ونقل ابن دحية فى كتابه «الآيات البينات» عن ابن بشكوال أنه ضعفه لأن فى سنده ضعيفاً، وأخرجه عن ابن عباس بلفظ: «كان صلى الله تعالى عليه وسلم يرى بالليل فى الظلمة كما يرى بالنهار فى الضوء».

ثم قال: وليس بالقوى. وذكر ابن الجوزى فى «العلل» حديث عائشة هذا وقال: لم يصح. وقال العقيلي: فى سنده من لا يعتمد عليه كما فصله، وذكر هذا الحديث الذهبى فى ميزانه فى ترجمة عبد الله بن محمد بن المغيرة الكوفى مع جملة أحاديث قال إنها موضوعة. وقال السهيلي رحمه الله تعالى فى «الروض»: إن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما ابتنى بأى سلمة رضى الله تعالى عنها دخل عليها بيتها فى ظلمة فوطئ على زينب فبكت، فلما كان من الليلة الأخرى دخل فى ظلمة أيضاً فقال: «انظروا زينبكم أن لا أطأ عليها».

وفى هذا الحديث توهين لحديث أنه كان يرى بالليل كما يرى بالنهار. انتهى. ولا يخفى أنه لا معارضة بين الحديثين تقتضى ما ذكره، لأن زينب رضى الله تعالى عنها كانت بنتا صغيرة نائمة مغطاة بإزار ونحوه فى جانب من البيت، ومثلها قد لا يرى بالنهار أيضاً، وهذا على ما فيه أقرب مما قيل إن عدم رؤيته صلى الله تعالى عليه وسلم لها كان لتغير حصل فى بصره الشريف، لأن الأعراض البشرية كانت تعتريه صلى الله تعالى عليه وسلم كما فى قصة السحر، فكان إذ ذاك كذلك، فإن مثله لا يقال من غير سند ورواية مجازف.

(والأحاديث كثيرة صحيحة فى رؤيته صلى الله تعالى عليه وسلم الملائكة والشیاطين) هذا مما لا شبهة فيه، وإنما ذكره المصنف رحمه الله تعالى دليلاً على قوة بصره صلى الله تعالى عليه وسلم وأنه يرى ما لا يراه غيره، أما رؤيته صلى الله تعالى عليه وسلم الملائكة فورد فى أحاديث كثيرة، منها: ما فى البخارى من أنه قال لعائشة رضى الله تعالى عنها: «هذا جبريل يقرأ عليك السلام». فقالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، إنك ترى ما لا نرى.

والأحاديث فى رؤيته الملائكة غير جبريل حيث لا يراها غيره كثيرة، كما فى حديث العقبة ورؤيته ملك الجبال المشهور، وفى هذا دليل على بصره صلى الله تعالى عليه وسلم حيث يرى ما لا يراه غيره، وليس هذا مخصوصاً بتشكل الملائكة فإنها جواهر مجردة قابلة للتشكل عندنا، وعند الحكماء لقوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] وليس ذلك لها بنقص فيها أو زيادة، بل للطافتها تنتشر تارة وتتضام أخرى، كما تراه فى لهب النار عند تلاعب الريح بها، وكذلك الجن فإنها مخلوقة من النار إلا أن الملائكة من

نورها الصافي والجن من النار المختلطة بالدخان، ولذا ذهب بعض الحكماء إلى أنهما جنس واحد وأن الاستثناء متصل، وفي بعض الشروح:

**فإن قلت:** فما معنى تشكل الملائكة والجن في صور مختلفة ولا قدرة لمخلوق على تغيير خلقته؟

**قلت:** قال القاضي أبو يعلى: لا قدرة للجن على تغيير خلقتهم ولا على نقل صورتهم إلى صورة أخرى، لأن ذلك إنما يكون بنقض البنية وتفريق الأجزاء، وإن انتقضت البنية بطلت الحياة واستحال وقوع النقل من الجملة فكيف ينقل بعينها، وإنما ذلك باعتبار جواز أن يعلمهم الله كلمات وضروباً من الأفعال، إذا فعله أحدهم أو تكلم به نقله من صورة إلى صورة، فيقال: إنه قادر على التصوير والتخييل وحمل عليه تصور جبريل عليه الصلاة والسلام في صورة دحية رضى الله تعالى عنه، وتصوره لمريم بشراً سوياً، ويجوز أن يكون الله تعالى قد جعل لهم قوة التشكل عند إرادتهم ذلك لأنهم أرواح. انتهى. وفيه كلام آخر ليس هذا محله.

وأما رؤية الجن فقد ثبت في أحاديث كثيرة، منها: ما رواه مسلم عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه قال: كنا معه صلى الله تعالى عليه وسلم ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا: اغتيل، فبتنا بشر ليلة، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء، فسألناه، فقال: «أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن وسألوه الزاد فقال: لكم كل عظم لم يذكر اسم الله عليه فهو طعام لكم وكل يعر علف لدوابكم»<sup>(١)</sup> ووردت أحاديث أخر في رؤيته صلى الله تعالى عليه وسلم لهم وإيمانهم به مفصلة في كتاب «لقط المرجان في أحكام الجان».

قال بعض فضلاء عصرنا: ظاهر كلام المصنف رحمه الله أن رؤية الملائكة والشياطين من خصائص النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فلا يراهم غير الأنبياء. وفي حاشية الحلبي في سفره صلى الله تعالى عليه وسلم إلى الشام في قول الراهب رأيت ملكين يظللانه من الشمس، فيه ما يدل على جواز رؤية الملائكة كالجن، وقد صرحوا به، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ بِرَبِّكُمْ هُمْ وَفِيْلُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا تَرْوُونَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧] محمول على الغالب، أى وفيه بحث يأتي آخر الكتاب، ولو كانت رؤيتهم محالة ما قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «هممت أن أربطه بسارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم» وقال المصنف رحمه الله تعالى: قيل: رؤية الجن على صورتهم الأصلية ممتنعة إلا للأنبياء عليهم

الصلاة والسلام، ومن خرقت له العادة، وإنما يراهم بنو آدم فى غير صورهم الأصلية، ورده النووى بأنه دعوة مجردة لا مستند لها.

(ورفع النجاشى له صلى الله تعالى عليه وسلم حتى صلى عليه) يعنى أن الله تعالى رفع بيت النجاشى وجنازته وهو ببلاد الحبش، فرآه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من المدينة وصلى على جنازته، وهذا دليل على قوة بصره الشريف بحيث يراه مع بعد ما بينهما من المسافة البعيدة والبحر، ورفع مبنى للمجهول، وتقريره رفعه الله وصلى فاعله ضمير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، قيل: ويجوز أن يكون رفع مصدرًا مضافًا لمفعوله مبتدأ خبره مقدر أى ثابت أو معجزة، ويجوز أن يجز عطفًا على قوله فى رؤيته الملائكة والأخبار كثيرة فى ذلك، وفى رفع النجاشى. يعنى أنه نقل بطرق كثيرة ولا مانع من ذلك والأول أولى وأظهر، والنجاشى ملك الحبشة واسمه أصحمة بفتح الهمزة وسكون الصاد وفتح الحاء المهملتين والميم والهاء، ابن أجز بفتح الهمزة وسكون الموحدة بعدها جيم مفتوحة وراء مهملة. وقال مغلطائى: ابن يجرى. وقيل: اسمه صحمة. مهملتين مفتوحة فساكنة، وقيل: صحمة بتقديم الميم، وقيل بالحاء المعجمة كما نقله البرهان الحلبي عن بعض مشايخه، وقيل: سليم بضم السين، وقيل: حازم، وقيل: مكحول بن صصة. مهملتين أولاهما مكسورة والإدغام. والنجاشى بفتح النون المشددة والجيم وتخفيفها، وصوب الحب الطبرى التخفيف كما قيل فى ابن جنى لأنه معرب كنى، والنجاشى غلب على المذكر كالنجم للثريا، وهو فى الأصل كل من ملك الحبشة كقيصر لكل من ملك الروم، وكسرى لمن ملك الفرس، وخاقان لملك الترك، وفرعون للقبط، والعزير لملك مصر، وتبع لحمير، ودهمى وفغفور لملك الهند، وغاية للزنج، وبطليموس لليونان، وفطيون بكسر الفاء وسكون الطاء المهملة ومثناة تحتية مضمومة يليها واو ونون، أو صالح بفتح اللام والحاء المعجمة أو شالح لليهود، وللصابئة غمروء، وتبع ملك اليمن، وجالوت من ملك البربر، وأخشيد من ملك فرغانة، ونعمان من ملك العرب من قبل العجم، وجرجير من ملك إفريقية، وشيربان من ملك خلاط، وفور من ملك السند، والأصفر من ملك علوى، ورثيل من ملك الخنزير، وكابل من ملك النوبة، كذا فى المقتفى وغيره، وفى سيرة مغلطائى أن من ملك اليمن يسمى تبعًا، فإن ترشح للملك سمي قبلا، بفتح القاف وسكون المثناة التحتية وهو كالوزير، وأصله قبلا بالتشديد كما حققه أهل اللغة، وفرعون من ملك مصر والشام، فإن أضيف إليها الإسكندرية فهو العزيز أو المقوقس.

ومعنى أصحمة عطية أو عطية الله، وأصحمة هذا هو النجاشى كما علم، وهو ملك

جليل المقدار آمن بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان بينه وبينه مهادة ومكاتبه إلا أنه لم يلقه ولم يجتمع به، ولذا لم يعد فى الصحابة لأن شرطها الملاقاة، إلا على قول ضعيف ذكره فى التقريب أنه يكفى فيها المعاصرة مع المعاهدة والإيمان، لاسيما من كان له عذر فى التخلف كهذا، وله أخبار حسنة منها أنه لما بلغه وقعة بدر بعث لمن قبله من المسلمين، فلما دخلوا عليه وجدوه لبس مسحاً وقعد على التراب فقالوا له: ما هذا أيها الملك؟ فقال: أنا نجد فى الإنجيل إن الله سبحانه وتعالى إذا أنعم على عبده بنعمة وجب عليه أن يحدث له تواضعاً، وأن الله تعالى أحدث لنا ولكم نعمة عظيمة، وهى ما بلغنى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم التقى هو وأعداؤه بواد يقال له بدر، كنت فيه أرمى غنماً لسيدى فهزم الله أعداءه ونصر دينه.

وروت عائشة رضى الله تعالى عنها أنه بعد موته كان يرى على قبره نور، وقوله: «كنت أرمى» إلخ يدل على أنه دخل بلاد العرب، وأما ما ذكره التجانى من أنه من بيت الملك وأن الحبشة قتلت أباه وملكوا عمه، وكان له ميل إليه فخافوا أن يملكه بعده فيقتلهم بأبيه. فقالوا له: لا بد من قتله أو إخراجه من أرضنا، فباعوه، ثم إن الله جعله ملكاً عليهم بعد ذلك، فلا دلالة على ما ذكر كما توهمه؛ لأن بقية القصة مذكورة فى الروض الأنف، وفيها ما يدل على خلاف ما ذكره، ثم إن ما ذكره المصنف رحمه الله تعالى من رفع النجاشى للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم حتى رأى جنازته قال السيوطى فى كتابه «مناهل الصفا فى تخريج أحاديث الشفاء»: إنه لم يجده فى كتب الحديث، وإنما الوارد فيها أنه رفع إليه معاوية المزنى حتى صلى عليه، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بتبوك، كما أخرجه أبو يعلى والبيهقى عن أنس رضى الله تعالى عنه. انتهى. ويأتى بطوله.

أقول: الذى أنكره المخرج إنما هو رفع جنازته إليه، فإنه روى فى خصائصه الكبرى من طرق مثبتة أنه صلى الله تعالى عليه وسلم نعى لأصحابه النجاشى لما مات، وخرج وصلى عليه مع أصحابه وكبر أربع تكبيرات، والصلاة عليه ثابتة فى الصحيحين، وإنما ذكر المصنف رحمه الله تعالى قصة الرفع مدرجة فى الحديث بناء على الاختلاف فى الصلاة على الغائب وصحتها مطلقاً كما يأتى، وكانت وفاته فى السنة التاسعة من الهجرة فى رجب. وعن أبى إسحاق أن نيزر، أو أبا نيزر، بنون ومثناة تحمية وزاى معجمة وراء مهملة النجاشى، كان مولى لعل بن أبى طالب بعد موت أبيه وطلبتة الحبشة ليتوجوه فأبى، وقال: لا أريد الملك بعد أن من الله على الإسلام، وكان طويل القامة صبيح الوجه، ورؤية النور على قبر النجاشى غير مستغرب فإنه يرى على بعض



قبور الشهداء، ويصدقه قوله تعالى: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩]، وإذ قد علم أن قصة النجاشى فى الصحيحين من أعلام النبوة، لإخباره صلى الله تعالى عليه وسلم بموته فى اليوم الذى مات فيه مع بعد المسافة، ولما صلى عليه قال بعض المنافقين: صلى على عالج من علوج الحبشة، فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٩] الآية، واستدل به من قال بالصلاة على الغائب؛ وبه قال أحمد والشافعى وبعض السلف، لأن الصلاة على الميت دعاء له فكيف لا يدعى له وهو غائب أو فى قبره كما يدعى له وهو حاضر. وذهب الحنفية والمالكية إلى أنه لا يشرع ذلك. وعن بعضهم: يجوز لمن كان فى جهة القبلة بخلاف مستديرها.

وأجاب من قال بعدم الصلاة على الغائب عن هذه القصة بأمر، منها: أنه كان بأرض لا يصلى بها فشرعت لذلك، ولذا قال الخطابى: لا يصلى على الغائب إلا إذا مات بأرض لا يعرف بها الصلاة على الميت كبلاد أهل الشرك، وكذا قال أبو داود، فإذا مات بها وجب على المسلمين أن يقوموا بحقه فى الصلاة، فلو علم أنه صلى عليه لا يصلى عليه من كان غائباً، فإن لم يصل عليه لعذر أو عائق سن الصلاة عليه ولا يترك لبعد المسافة.

ومنها: أن هذا مخصوص بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما روى: «أنه سويت له الأرض حتى أبصر النجاشى» وقد رد هذا بأنه إذا فعل شيئاً من أفعال الدين كان علينا اتباعه فيه، والتخصيص لا يد له من دليل، ونقل ثابت لا بمجرد الاحتمال، ولو فتح هذا الباب لم يبق شىء يوثق به، ولو كان كذلك توفرت الدواعى بنقله، ويؤيد كلام المناهل المار قول ابن حجر: إن نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم أهل لذلك الرفع والإحضار، فإنه قادر على ما هو أعظم من ذلك، لكننا لا نخترع حديثاً ونقول به من عند أنفسنا، ومثل هذه الأمور الضعاف تلاف بلا تلاف.

وقال الكرمانى رحمه الله تعالى: رفع الحجاب ممنوع، ولئن سلمناه فهو غائب فى حق الصحابة الذين صلوا مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، قد وقع فى حديث مجمع ابن حارثة ما يؤيده فإن فيه: «فصففنا خلفه صفين وما نرى شيئاً» كما فى سنن ابن ماجه والطبرانى، وأجاب الحنفية بأنه يصير كالميت الذى يصلى عليه الإمام وهو يراه، والمأموم لا يراه، فإنه جائز اتفاقاً، فإذا ورد عليه أنه ليس النزاع فى الرؤية وعدمها، فإنه لا يشترط فى صحة الصلاة رؤية الميت ولا سريره، وإنما النزاع فى كون الميت فى بلد والمصلى فى أخرى، وعلى تقدير أنه رآه لم يقع النزاع، فإن قلتم: إن سريره رفع ووضع

عنده صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن غائباً، والحاصل أن هنا ثلاثة أمور:  
أحدها: أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم علم بموته وهو بالحبيشة وصلى عليه بالمدينة هو والصحابه، وعلى هذا هو دليل للشافعية.

الثاني: أن يكون رفع له سريره أو روحه وهو في مكانه وأزيل الحجاب، فهذا أيضاً صلاة على الغائب مع أنا نطالب مدعيه بنقل صحيح.

الثالث: أن تحمل جثته لحضرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيصلى عليه وهو صلاة على حاضر، ولم يقل أحد أنه ورد ولا ثبت.

فقول الحنفية إنه دليل فاسد لا وجه له، وكان الأولى للمصنف الاستدلال على قوة بصره صلى الله تعالى عليه وسلم بحديث معاوية المزني، الذي رواه ابن عبد البر في الاستيعاب عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه: «أن جبريل عليه الصلاة والسلام نزل على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: يا محمد مات معاوية بن معاوية المزني أفتحب أن تصلى عليه؟ قال: نعم فضرب بجناحه الأرض فلم يبق شجرة ولا أكمة إلا تضعضعت ورفع له سريره حتى نظر إليه، فصلى عليه وخلفه صفان من الملائكة في كل صف سبعون ألف ملك، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لجبريل: بم نال هذه المنزلة من الله تعالى عز وجل؟ قال: بحبه قل هو الله أحد وقراءته إياها جاثياً وذاهباً وقائماً وقاعداً»<sup>(١)</sup>. وهذا حديث صحيح كما في شرح البخاري لابن حجر.

أقول: بعد صحة هذا وبيان كيفية الصلاة فيه على الغائب والأحاديث يفسر بعضها بعضاً، علم أن قصة النجاشي ورفع السرير وإزالة الحجاب أمر خارق للعادة لا يتيسر لغير النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، فتبين صحة جواب الحنفية وقوته وسقط الاعتراض عن المصنف رحمه الله تعالى أيضاً، وقد اختلف في النجاشي كما في بعض الشروح أهو علم شخص أم علم جنس لكل من ملك الحبيشة، كفرعون هل اسم لكل متفرعن أو هو علم شخص؟ وقد يجمع بأنه علم شخص نقل للعلمية ولا وجه لإنكار النقل فيه كما قيل.

(تنبيه) في حديث النجاشي أمران:

أحدهما: أنه وقع فيه نعي موت النجاشي، وقد ورد في الحديث أنه نهى عن النعي، ولذا اختلف الفقهاء فيه، فقيل: مكروه، وقيل: إنه مستحسن ولا خلاف بينهما، فإن معنى النعي الإخبار بالموت، فإذا فعل من غير صراخ وإطراء بما لا ينبغي فهو سنة، ولو

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٤٢٩/١٩).

بالنداء فى الأسواق لما فيه من الدعاء للخير بتكثير الجماعة، والاتعاظ، فإن كان بخلافه على عادة الجاهلية فمكروه.

الثانى: أن الشافعية بعد ما ذكروا دليل الخصم فى التأويل قالوا: لا دليل فيه، فقيل: إنه فاسد؛ لأن الدليل ملزوم لا يلزم من نفيه نفى اللازم ودعوى الفساد غير ظاهرة، فإن مرادهم أن الصلاة على الغائب ثابتة بالأحاديث الصحيحة، فتأويلها من غير مستند لا يكون دليلاً، إذ لابد لكل مدع من النقل، فالجواب الصحيح ما نقلناه إذ المنع المجرد لا يسمع فى مقابلة النص.

وقوله: (و) رفع (بيت المقدس حين وصفه لقريش) بالرفع معطوف على النجاشى، ويجوز جره كما مر، ومقدس كمرجع اسم مكان أو مصدر ميمى من القدس وهو الطهر، أى المكان الذى يطهر الله فيه العباد من الذنوب، أو يطهر من الأصنام، وجاء فيه ضم الميم وفتح القاف والdal المشددة اسم مفعول من التقديس وهو التطهير، وجاء بكسر dal اسم فاعل لأنه يقدس العابد فيه من الأثام، ويقال البيت المقدس بالتوصيف، والأشهر فيه الإضافة، وقدس بضمين وضم فسكون الطهر واسم جبل معروف، قال التبريزى: يقال: إنه غير مصروف ولا يمتنع واستشهد للأول بقول كثير:

كالمصرخى غدا فأصبح واقعا فى قدس بين مجاثم الأوعال

انتهى.

فانظر دخول الألف واللام عليه، ورفع بيت المقدس إشارة إلى ما وقع فى حديث الإسراء الذى رواء الشيخان وغيرهما عن جابر رضى الله تعالى عنه بسند صحيح متصل، وهو: «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما أسرى به وأصبح بمكة أتاه عدو الله أبو جهل فقال له: هل كان من شىء؟ قال: نعم إني أسرى بى الليلة إلى بيت المقدس. قال: بم أصبحت بين أظهرنا؟ قال: نعم. قال: فإن دعوت قومك أحدثهم بهذا؟ قال: نعم، فقال: يا معشر قريش، يا معشر بنى كعب بن لؤى، فانفضت إليه المجالس حتى جاءوا، فقال: حدث قومك بما حدثتني؟ فحدثهم فصاروا بين مصفق وواضع يده على رأسه متعجبا. فقالوا: هل تستطيع أن نتعت لنا بيت المقدس وكم فيه من بات؟ فكربت كرباً لم أكرب مثله قط، فجعل الله لى بيت المقدس وكشف الحجب بينى وبينه حتى رأيته، فنتعته لهم وأنا أنظر إليه، وجأؤوا أبا بكر وقصوا عليه القصة وقالوا: تصدقه؟ فقال: نعم، إني أصدقه بأخبار السماء». فسمى لذلك صديقا ولا استحالة فيه، فقد أحضر عرش بلقيس فى طرفه عين، وهذا مؤيد لما ذكره المصنف من قوة بصره حتى رآه مرفوعاً ولم

يغيب عنه شىء منه، فما قيل من أن الأليق درج هذا فيما له عليه الصلاة والسلام من الكرامات والمعجزات لأنه أمر زائد على تكميل الذات لا وجه له.

(والكعبة حين بنى مسجده) أى رفعت له صلى الله تعالى عليه وسلم الكعبة وهو بالمدينة حين بنى مسجده بها على الوجهين السابقين فى الإعراب. قال السيوطى رحمه الله تعالى فى «مناهل الصفا»: رفع الكعبة له حين بنى مسجده رواه الزبير بن بكار فى أخبار المدينة عن ابن شهاب ونافع بن جبير بن مطعم مرسلا، ثم ما ذكره المصنف رحمه الله تعالى مشكل لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما أتى المدينة ونزل بقاء أياما ثم أسس مسجدها، وهو أول مسجد أسس على التقوى، ثم خرج منها راكباً ناقته، ثم أتى دور بنى النجار فبركت ناقته فى موضع مسجده، فبناه على ما فصل فى السير والأحاديث الصحيحة، وكانت القبلة بيت المقدس إذ ذاك خمسة عشر شهراً أو نحوها، فكيف يصح أن يقال إن الكعبة رفعت له صلى الله تعالى عليه وسلم حين بنائه، كما وقع فى حديث الشفاء بنت عبد الرحمن الأنصارية أنها قالت: «كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حين بنى مسجده يؤمه جبريل إلى الكعبة ويقيم له القبلة». وهذا كله فى غاية الإشكال مع وروده فى الحديث، وكذا فى الحديث المرسى الذى نقله السيوطى فى تخريجه، ولذا قال التجانى رحمه الله تعالى فى شرحه: إنه غريب، والمعروف أن جبريل عليه الصلاة والسلام أعلمه بحقيقة القبلة وأراه سمتها، لا أنه رفع له الكعبة حتى رآها، وبهذا جاءت الآثار من غير تقييد.

وفى العتبية من سماعات مالك أنه قال: سمعت أن جبريل عليه الصلاة والسلام هو الذى أقام لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قبلة مسجده مسجد المدينة. قال ابن رشد فى «البيان والتحصيل»: يعنى أراه السمت إليها وبين له جهتها، والصواب أن ذلك كان حين تحولت القبلة لا حين بناء مسجده، وكون جبريل عليه الصلاة والسلام أراه سمتها لا يقضى رفعها ومثله لا يقدم عليه من غير رواية، والحاصل أن ما فى حديث الشفاء من أن جبريل عليه الصلاة والسلام حين بنى مسجده كان يؤمه إلى الكعبة فى غاية الإشكال، لأن القبلة لم تكن إذ ذاك الكعبة بل بيت المقدس، اللهم إلا أن يقال إن توجهه إليها لم ينسخ وكان مخيراً بين التوجه لها وللصخرة، وقد وقع فى كتاب «الناسخ والمنسوخ» ونحوه.

وأما ما قاله ابن الحنبلى فى شرحه من أن معنى قول الشفاء: يؤمه، أى يصير له إماماً أى متبعا فى التوجه إلى الكعبة، لأجل إقامة القبلة وبيان جهتها، كما يكون الرجل إمامك إذا استهل الهلال ليريكه وأنت متبع له فى التوجه ليريك سمته، فمع تكلفة لا

يجدى شيئاً، ولما استشعر هذا حاول توجيهه بما ذكره تاج القراء في سبب نزول قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ أَشْفَاهُمْ مِنَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٢] الآية، أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يحب التوجه للكعبة قبل تحويل القبلة، فلما قوى رجاءه، وتمكن أن يكون سأل جبريل عليه الصلاة والسلام أن يبين له جهتها عسى أن تكون قبلة ففعل، أو سأل الله ذلك، والإمام المتبع في الأقوال والأفعال مطلقاً، كما في «عمدة الحفاظ» وبه فسر قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] وبمجرد هذا الاحتمال لا يندفع الإشكال، وفي الشرح الجديد هنا كلام طويل بغير طائل رأينا تركه أكثر فائدة من ذكره، ثم إنى رأيت في تذكرة الحفاظ العلامة العلائي بخطه أن الراجح عند العلماء أن الكعبة كانت قبلة الأنبياء عليهم السلام، أما إنها كانت قبلة إبراهيم صلى الله تعالى عليه وسلم فمما لا شك فيه، وفي الأحاديث أنه عليه الصلاة والسلام كان يجب أن يتوجه إلى قبلة أبيه إبراهيم الكعبة، وفي الآثار ما يقضى أن توجه اليهود إلى بيت المقدس كان عن اجتهاد منهم أو عناد، وفي كتاب «الناسخ والمنسوخ» لأبي داود مسنداً إلى الحسن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩٦] الآية، قال: أعلم قبلته فلم يبعث نبياً إلا وقبلته البيت، ووقع في قصة ذكرها مع سليمان بن عبد الملك أن خالداً قال: قرأت التوراة فلم أجد قبلة بيت المقدس فيه، ولكن تابوت السكينة كان على الصخرة فلما غضب الله تعالى على بنى إسرائيل رفعه، فكانت صلاتهم إلى الصخرة عن مشاورة منهم.

وقال أبو داود: خاصم يهودى أبا العالية في القبلة، فقال: إن موسى عليه الصلاة والسلام كان يصلى عند الصخرة مستقبل البيت الحرام، فقال له: بينى وبينك مسجد النبى صالح عليه السلام، فقال: إنى صليت فيه وقبلته الكعبة. فهذه الآثار تدل على أن الكعبة كانت قبلة الأنبياء كلهم انتهى باختصار.

أقول: وكذا قبلة عيسى عليه الصلاة والسلام، وإنما غيرها للمشرق بولس كما صححوه، إذا عرفت هذا علمت أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كانت قبلته قبل الهجرة الكعبة، ولكن كان يجعلها بينه وبين البيت المقدس، لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يوافق أهل الكتاب فيما لم يوح إليه فيه، فلما هاجر إلى المدينة استمر على ذلك وهو يعلم أن القبلة الحقيقية الأصلية إنما هى الكعبة، وهى قبلة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وقد أمره الله بالاعتداء به ولم ينص على القبلة، فعنده صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه سيصرفه الله إليها ولكنه منتظر لأمر الله مراعيًا للأدب، فلا مانع من أن يسأل صلى الله تعالى عليه وسلم جبريل عليه الصلاة والسلام أن يريه سمتها، حتى إذا وقع

ذلك لم يتردد ويتحيز فيه، وهذا هو الحق الحقيق بالقبول فاعرفه، ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالى ما يدل على قوة حواسه صلى الله تعالى عليه وسلم فقال:

(وقد حكى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه كان يرى فى الثريا أحد عشر نجماً) قال السيوطى رحمه الله تعالى فى «مناهل الصفا»: هذا لم يوجد فى شىء من كتب الحديث، والثريا مصغر ثروة وهى الكثرة، وهى منزل من منازل القمر فيه نجوم مجتمعة جعلت علامة. فقول بعض الشراح: إنها كوكب وهم منه، قال فى «مباهج الفكر»: وهى ستة أنجم صغار طمس، ويظنها من لا معرفة له سبعة وهى مجتمعة بينها نجوم صغار كالرشاش. وحكى أن الثريا اثنى عشر نجماً لم يحقق الناس منها غير ستة أو سبعة، ولم ير جميعها غير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لقوة جعلها الله تعالى فى بصره، والنجم علم لها بالغلبة كالكوكب للزهرة، وذكر السهيلي أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يرى فيها اثنى عشر نجماً. وقال القرطبى فى كتاب «أسماء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم»: «إنها لا تزيد على تسعة فيما يذكرون، ونظمه فى أرجوزته فقال:

وهو الذى يرى النجوم الخافية مبيات فى السماء العالية  
أحد عشر نجماً فى الثريا لناظر سواه ماتها

وفى كتاب «التفهيم» لأبى ريجان البرونى بكسر الموحدة والنون أنها ستة كواكب كعنقود عنب، ويظن العوام والشعراء أنها سبعة وهو ظن غير مصيب، قيل: وهو غير مصيب لنقصه عما رآه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد علمت أنه لم يثبت ما نسب إليه صلى الله تعالى عليه وسلم هنا. وقال الإمام الحضرى فى خصائصه: ما ذكره القرطبى والسهيلي لم أفد له على سند وأصل يرجع إليه، وقال التلمسانى: إنه جاء فى حديث ثابت من طريق العباس رضى الله تعالى عنه ذكره ابن أبى خيثمة.

(وهذه) الأمور المذكورة (كلها) من رؤية النجاشى والكعبة والثريا وغيره مما ذكر (محمولة على رؤية العين) أى مفسرة بما ذكر وهو المراد منها، والحمل يستعار لذلك فى كلامهم استعارة مشهورة، من حمل الأحمال يجعل اللفظ كحمل على ظهر المعنى، وقريب منه الاحتمال.

(وهو قول أحمد بن حنبل وغيره وذهب بعضهم إلى ردها إلى العلم) أى إلى تأويل الرؤية بالعلم وصرفها عن ظاهرها فتعبيره بالرد توطئة لقوله: (والظواهر تخالفه) أى ظاهر العبارة تخالفه ولا مقتضى لصرفها عن الظاهر. (ولا إحالة فى ذلك) أى ليس فى حملها على الرؤية البصرية أمر محال يقتضى العدول لأجله. (وهى من خواص الأنبياء عليهم

الصلاة والسلام وخصالهم) أى قوة البصر والحواس من صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلا وجه لاستبعادها وتأويل ما يدل عليها، ثم أيد ذلك بالنقل فقال:

(كما أخبرنا) قيل: الظاهر من الكاف فى قوله كما أنها التعليلية مثلها فى قوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥١] والمعنى إنما قلنا هذا من خواص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأجل ما أخبرنا.

(أبو محمد عبد الله بن أحمد العدل من كتابه) قال التلمسانى: هو التميمى، مات بسببة سنة إحدى وخمسمائة، وهو من شيوخ المصنف، وقوله من كتابه إشارة إلى أنه قراءة وهو يسمعه من كتابه لا من حفظه، وقد اختلف فيمن لا يحفظ ويحدث من كتابه، فالصحيح أنه تجوز روايته ويحتج بها وإليه ذهب ابن الصلاح، وقيل: لا يحتج إلا بما يرويه من حفظه، واختلف أيضاً فيما إذا لم يتذكر ما فى كتابه وتفصيله فى ابن الصلاح وحواشيه قال:

(حدثنا أبو الحسن المقرئ الفرغانى) بالفاء والغين المعجمة بينهما راء مهملة نسبة إلى فرغانة بلدة مشهورة بالشرق، ويحتمل نسبه لفرغان بلدة بفارس، وباليمن وهو على بن عبد الله المقرئ نزيل مكة قال:

(حدثنا أم القاسم بنت أبى بكر عن أبيها) هى بنت أبى بكر محمد بن يعقوب البخارى الزاهد الصوفى المعروف بالخفاف، صاحب كتاب «الأخبار بفوائد الأخبار» قال:

(حدثنا الشريف أبو الحسن على بن محمد الحسنى) هو الشريف أبو الحسن على بن محمد بن على بن موسى الرضا بن جعفر بن محمد بن على بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهم، توفى فى خلافة المعتز بالله لأربع بقين من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين ومائة، وهو ابن أربعين سنة، وقيل غير ذلك قال:

(حدثنا محمد بن محمد بن سعيد) قال: (حدثنا محمد بن أحمد بن سليمان) قال: (حدثنا محمد بن محمد بن محمد بن مرزوق) قال: (حدثنا همام) هو همام بن الحارث النخعى الكوفى، سمع حذيفة وعماراً وروى عنه إبراهيم النخعى، وتوفى أيام الحجاج بن يوسف، ولفظ همام وقع فى كثير من النسخ، والصواب هانى كما أصلح وهو هانى بن يحيى السلمى وشيخه الذى أشار إليه بقوله:

(حدثنا الحسن) هو الحسن بن أبى جعفر الجفرى بضم الجيم والفاء نسبة للجفر، وهو مكان بالبصرة، أحد الضعفاء، وقد رواه أبو القاسم الطبرانى عن أحمد بن الحسين بن

بهرام الإيذجى، حدثنا محمد بن مرزوق البصرى، حدثنا هانىء فذكره، وقال فى آخره: لم يروه عن قتادة إلا الحسن بن أبى جعفر، تفرد به هانىء بن يحيى.

وقوله: (عن قتادة) هو ابن دعامة التابعى الجليل وتقدمت ترجمته (عن يحيى بن وثاب) بفتح الواو وتشديد المثلثة وألف وموحدة، وهو يحيى بن وثاب الأسدى مولاهم، روى عن ابن عباس، وعمر، وعلقمة رضى الله تعالى عنهم، وروى عنه الأعمش وعميس، وهو ثقة محدث مقرر، توفى سنة ثلاث وخمسين ومائة، وأخرج له أصحاب السنن، إلا أن روايته عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ليست فى الكتب الستة. (عن أبى هريرة) رضى الله عنه تقدم الكلام فى اسمه وترجمته.

(عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «لما تجلّى الله لموسى عليه الصلاة والسلام كان يبصر النملة على الصفا») الصفوان والصفاء الحجر الصلد الأملس. (فى الليلة الظلماء مسيرة عشرة فراسخ) جمع فرسخ وهو ثلاثة أميال، والميل أربعة آلاف ذراع طولها أربعة عشرون إصبعا وعرض كل إصبع ست حبات شعير ملصقة ظهر البطن، وقيل: ثلاثة أميال والميل أربعة آلاف خطوة، كل خطوة ثلاثة أقدام يوضع قدم أمام قدم ويلصق به، وشين عشر ساكنة ومفتوحة، ولفظ الفرسخ معرب، وقيل: عربى معناه السكون، لأنه بقطعه يسكن، وقيل: معناه الراحة والفرحة، وقيل: معناه ساعة من ساعات النهار.

والتجلى كما قاله الراغب فى مفرداته الكشف والظهور، وقد يكون بفعله بالذات نحو: ﴿وَالْتَهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ [الليل: ٣] وقد يكون بالأمر والفعل نحو: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣] انتهى.

وإذا كان التجلى بغير الذات يشمل الخطاب والكلام، فيحمل تجلى الله لموسى عليه الصلاة والسلام على خطابه وتكليمه وتجليه للجبل أمر آخر، فلا يرد على المصنف أنه مخالف للقرآن، فإن التجلى فيه للجبل لا لموسى عليه الصلاة والسلام مع أنه غير مسلم، فإن القرطبى رحمه الله تعالى نقل فى تفسيره قولاً بأن موسى صلى الله تعالى عليه وسلم رأى ربه ولذا خر صعقاً، وأما تجليه للجبل واندكاهه فإما بمعنى أمره وفعله به ما أراد، أو نقول بأن الله خلق فيه إدراكاً علم به تجلى الله فتفتت وانهى من هيئته، ولعل المصنف رحمه الله ارتضى هذا، وعليهما فاللام صلة التجلى لأنه يتعدى بها، وقال التجانى فى الجواب: إن اللام تعليلية بتقدير مضاف، أى فلما تجلى لأجل سؤال موسى رؤيته وأن هذا لا بد منه فى الحديث للتوفيق بينه وبين الآية، وقال بعضهم: المراد تجلى أمره أو نوره والمقدر لهذا من المعتزلة لإنكارهم الرؤية، ومن أهل السنة لاستبعاد أن يكون للجبل



إدراك أو روح تدرك وليس مثله. مستبعد من القدرة.

أقول: قد ارتضى هذا بعضهم وهو غير ثابت هنا لوجهين، الأول: أن ما ذكره خلاف الظاهر لا يجوز الحمل عليه من غير قرينة. الثانى: أنه لا يناسب سياق الحديث ولا كلام المصنف، لأن تجلى الله للجبل حتى صار دكًا، وخوف موسى عليه الصلاة والسلام حتى يخز صعقا لا يقتضى التأثير فى حواسه حتى يرى النملة المذكورة، بل يقتضى خلافه، ولا يصح تفسير كلام المصنف به لمنافاته لفرضه، فالحق ما قلناه، وتحقيقه أن الله تعالى لما قرب به حتى سمع كلامه النفسى بناء على ما قاله الأشعرى من أنه يجوز سماعه، أو كلامًا بغير واسطة يدل عليه إن لم نقل بقدم الألفاظ كما ذهب إليه كثير من السلف، حصل له قوة روحانية واتصل به نور إلهى أثر فى الروح الحيوانية وزاد فى نورها، الذى بانتشاره فى البدن يحصل الإدراك على ما حققه الحكماء فى الحواس، فأدرك بذلك إدراكًا خارقًا للعادة، فإذا كانت زرقاء اليمامة التى ضرب بها المثل فقيلاً: «أبصر من زرقاء اليمامة» ترى من أميال وهى امرأة من الجاهلية، فما بالك بهؤلاء، وفى تخصيص النملة والظلمة والصخرة الملساء مبالغة لا تخفى، وقيل: معنى الحديث أن الله تعالى لما خص موسى عليه الصلاة والسلام بمناجاته، ظهرت له أنوار ربانية ساطعة أضاءت بها الأرض إضاءة عجيبة، حتى صار يرى الصغير من بعيد كما يرى الكبير من قريب، والمهم المقدم فإن فهمت فهو نور على نور، وهذا الحديث رواه الطبرانى فى مسنده الصغير وصححه، ولما كانت هذه القوة حصلت للكليم بالتجلى فحصولها للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد الإسراء مع ما رآه أظهر، فلذا قال:

(ولا يبعد على هذا أن تختص نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم بما ذكرناه) من رؤيته للملائكة والجن، ورؤيته بالليل كما يرى بالنهار. (من هذا الباب) أى من نوع هذه الرؤية، فإن الباب والبابة ورد بهذا المعنى. (بعد الإسراء) قيده به لأنه وقع بالمدينة والإسراء كان بمكة، ولأنه يكون بعد تجلى الله لرؤيته على ما عليه الأكثر، فيزيد قوته الروحانية والجسمانية كما سمعته آنفاً (والخطوة بما رأى من آيات ربه الكبرى) الخطوة زيادة القرب مع المحبة وزيادة وهى بضم الحاء وكسرهما، وأما آيات ربه الكبرى فسيأتى الكلام عليها فى الإسراء.

(وقد جاءت الأخبار بأنه صلى الله تعالى عليه وسلم صرع ركاة أشد أهل وقته) أشد: أعظم قوة بدنية من جميع من كان بالقوة الجسمانية، وهذا إثبات لتفوقه صلى الله تعالى عليه وسلم على غيره فى قوته البدنية بعد ما أثبت قوة إدراكه صلى الله تعالى عليه وسلم، وركاة: بضم الراء المهملة وكاف مفتوحة يليها ألف ونون وهاء، قال الحافظ

برهان الدين الحلبي فى المقتفى: هو ركانة بن عبد يزيد بن هاشم القرشى المطلبى الحجازى المكى ثم المدنى، أسلم يوم الفتح، وهو الذى صارعه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فصرعه، قال الحافظ عبد الغنى المقدسى: وهذا مثل ما روى فى مصارعه صلى الله تعالى عليه وسلم لغيره. ورواه أبو داود والترمذى مرسلًا، قال الترمذى: وليس إسناده بالقائم. وأخرجه أبو داود عن قتيبة عن محمد بن ربيعة عن ابن الحسن العسقلانى عن أبي جعفر محمد بن ركانة عن أبيه صارعه، فذكره. وأخرجه الترمذى بهذا السند، وزاد المزى ما لفظه: هكذا رواه أبو الحسن بن العبد وغير واحد عن أبي داود مثل رواية الترمذى. ورواه البيهقى فى المراسيل عن سعيد بن جبير رضى الله تعالى عنه، قال البيهقى: «وهو مرسل جيد». وروى بإسناد آخر متصل إلا أنه ضعيف، وأشار إلى ما تقدم وقد رأيت ما نقله فى مراسيل أبي داود فى أطراف المزى كما قاله، لكن فيه أنه عليه الصلاة والسلام كان بالبطحاء فأتاه يزيد بن ركانة، أو ركانة بن يزيد فذكره بالشك، والله تعالى أعلم. وتوفى ركانة بالمدينة سنة اثنين وأربعين، وقيل: فى خلافة عثمان رضى الله تعالى عنه.

وقال النووى فى تهذيبه: وقع فى المذهب فى باب المسابقة أنه عليه الصلاة والسلام صارع يزيد بن ركانة وهو خطأ، والصواب: ركانة بن يزيد انتهى. وقال السهيلي فى روضه: إن أبا أسد بن الجمحى واسمه كلدة بن أسيد بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح، وكان بلغ من شدته فيما زعموا أنه يقف على جلد البقرة فيجاذبه عشرة لينزعوه من تحت قدميه فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه، وقد دعى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إلى المصارعة وقال: إن صرعتنى آمنت بك، فصرعه عليه الصلاة والسلام مرارًا ولم يؤمن. انتهى. والحاصل أن الذى صارعه صلى الله تعالى عليه وسلم ركانة فى أصح الروايات.

(وكان دعاه إلى الإسلام) فلم يسلم أولاً ثم أسلم بعد ذلك كما تقدم، قيل: كان ينبغي ذكر هذا قبل ذكر ما اشتمل عليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من قوى الباطن ليترقى منه إليه، إذ هذا من قوى الظاهر وهو أدنى من قوى الباطن، ولا مزية أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان من أشجع الناس وأقواهم.

(وصارع صلى الله تعالى عليه وسلم أبا ركانة فى الجاهلية) أى قبل ظهور الإسلام بمكة. قال البرهان: الذى صح أنه ركانة، وأما أبو ركانة فلم يصح، والصواب ركانة. وكذا ما نقل من أن أبا جهل صارعه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يصح أيضًا، وذكر بعضهم عن السهيلي أن أبا أسد الجمحى صارعه وكان من أشد الناس وقد مر، وغير

هذين لم يصح، والجاهلية منسوبة إلى الأمة الجاهلية أو الفترة، والجاهلية تطلق على ما قبل مبعثه صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى ما قبل الفتح، قيل: والمراد هنا الثانى. (وكان) أى أبو ركانة (شديدًا وعاوده ثلاث مرات) أى صارعه مرة بعد مرة (كل ذلك يصصره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم) كل منصوب بنزع الخافض، أى: يصصره فى كل ذلك.

قال البرهان وغيره: وأما حديث ركانة الذى تقدم فهو ما رواه البيهقى أنه قال: «كنت أنا والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى غنيمة لأبى طالب نرعاها، فقال لى ذات يوم: هل لك أن تصارعنى؟ فقلت له: أنت؟ قال: أنا. فقلت: على ماذا؟ قال: على شاة من الغنم فصارحته فصرعنى وأخذ منى شاة، ثم قال: هل لك فى المعاودة الثانية؟ قلت: نعم فصارحته فصرعنى وأخذ منى شاة، فجعلت ألتفت هل رآنى إنسان من الرعاة فيجترئ علىّ وأنا فى قومى أشدهم، فقال: هل لك فى الثالثة ولك شاة؟ قلت: نعم فصارحته فصرعنى وأخذ منى شاة فقعدت كئيبا حزينًا، فقال: مالك؟ فقلت: أرجع لصاحب الغنم وقد أعطيت ثلاثا من غنمه وكنت أظن أنى أشد الناس، فقال: هل لك فى الرابعة؟ فقلت: لا بعد ثلاث، فقال: أما الغنم فإنى أردتها عليك فردها، فلما ظهر أمره أتيته وأسلمت»<sup>(١)</sup> وفى رواية: «أنه راهنه على عشرة وأنه قال له: ما هذا إلا سحر».

**فإن قلت: ما حكم المصارعة شرعًا؟**

**قلت:** ذهب البغوى رحمه الله تعالى إلى تحريمها؛ لأنه لا منفعة لها فى الحرب، والأصح أنها تجوز من غير عوض؛ لأنه ربما تدعو إليها المحاربة، وبهذا أفتى شيخنا الرملى، وأما أخذ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم العوض من ركانة فإنما كان بنية رده وليرغب فى المصارعة، وليكون ذلك سببًا لإسلامه، مع أن المروى أن ركانة هو الذى طلبها، ثم ذكر ما يدل على قوته صلى الله تعالى عليه وسلم أيضًا.

**فقال:** (وقال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه: «ما رأيت أحدًا أسرع من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى مشيته» بكسر الميم وسكون الشين المعجمة والياء المثناة التحتية المفتوحة يليها تاء تأنيث مضافًا لضمير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وهى هيئة المشى، وروى مشيه بفتح الميم دون تاء تأنيث قاله التلمسانى، وقال التجانى: كثيرًا ما يقع فى الشفاء وغيره مكسور الميم والصواب فتحها، لأن المشية بالكسر هيئة

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٦/٢٥١).

الإنسان، وبالفتح مصدر، فإذا فتحت كان المعنى أسرع من مشى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وإذا كسرت فالتقدير أسرع من هيئة مشيته ولا معنى له، ورد بأن المشى والمشيعة بمعنى ولم يرد الهيئة والمقصود واحد، لأن المشية تكون مصدرًا، أو هو كما تقول جمال زيد أكمل وأنت تريد زيد أكمل في جماله، فالمعنى أسرع من مشيه في هيئته المخصوصة، ولم يرد تفضيل الهيئة كما في قولك فلان أحسن الناس جلسة أى هيئة أحسن من هيئة غيره في الجلوس.

أقول: هذا تكلف نشأ من توهمه أن المشية مفضل عليها وليس كذلك، فإن المفضل مطلق حركته ومشيه وفي معنى مع، أى لا يرى أسرع من حركته مع هيئته المخصوصة في مشيه، فليس المقصود تفضيل الهيئة، يعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مع تؤدته واعتدال حركاته تراه يسرع كأنه الماء الجارى من غير اضطراب، ولولا هذا ناقض ما ذكر من اعتدال حركاته فى أول الفصل فلذا قال:

(كأنما الأرض تطوى له)، فإنه يدل على أن مشيه ليس بالجرى والهرولة، وورد أن الأرض كانت تطوى له صلى الله تعالى عليه وسلم ولا منافاة بينهما، إما لحمل هذا على غالب أحواله وذاك على أسفاره ونحوها، وقيل: إنهما بمعنى فإن أحدهما استعارة أو تشبيه بليغ وهذا تشبيه صريح، كما تقول هو الأسد وكأنما هو الأسد.

(إننا لنجهد أنفسنا وهو غير مكترث) نجهد مضارع إما من الجهد بفتح الجيم وهو المشقة والتعب، أو بضمها وهو الطاقة والمقدرة، أى: أنا نتعب أنفسنا فى مساواة مشيه وهو صلى الله تعالى عليه وسلم مستريح لا يرى له مشقة، أو أنا نبذل وسعنا وطاقتنا وهو غير مبال بمشيه، ومكترث بالكاف والتاء المثناة الفوقية وراء مهملة ومثلثة اسم فاعل من الاكترث وهو المبالاة والاعتناء بالأمر، قالوا: لا يستعمل اكترث إلا فى النفس، وورد فى الإثبات نادرًا فى حديث ذكره صاحب «النهاية».

وقد ورد فى صفة مشيه صلى الله تعالى عليه وسلم كما يأتى فى الحديث عن على كرم الله تعالى وجهه وغيره: «إذا مشى مشى تكفيا كأنما ينحط من صيب، وإذا وطئ وطئ بقدمه كلها ذريع المشى» أى خطاه متباعدة، وكان أصحابه رضى الله تعالى عنهم يمشون بين يديه صلى الله تعالى عليه وسلم وهو خلفهم، ويقول: «خلوا ظهري للملائكة». وما ذكره المصنف رحمه الله تعالى بعض من حديث أوله: «ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كأن الشمس تجرى فى وجهه، وما رأيت أحداً أسرع» إلى آخره. رواه صاحب الشماثل، والمصنف رحمه الله تعالى اختصره وغير بعض ألفاظه، وفى المصححة نسخة مشيته موافق لإحدى النسختين هنا، وقد

علمت ما ورد عليه وجوابه، فلا حاجة لما قيل إن المشية أعم من المشى لدلالة الأول على الحدث، والثاني على الحدث مع الهيئة، وكلما دل على الحدث مع الهيئة دل على الحدث ولا عكس، والحدث المطلق إذا أضيف إلى من صدر عنه استفيد منه خصوص الهيئة، لأن الهيئة التي تدل عليها فعلة المكسورة ألفا حالته التي عليها الفاعل عند تلبسه بالفعل، وهي لازم لكل مصدر، فكل مشى مشية من غير عكس، لأنه تكلف.

(وفي صفته صلى الله تعالى عليه وسلم أن ضحكه صلى الله تعالى عليه وسلم كان تبسمًا): الضحك انبساط الوجه وظهور الأسنان، فلذا سمي مقدمها الضواحك والتبسم ابتداءً والأخذ فيه، وقيل: هو الضحك من غير قهقهة، وفي الحديث: «كان ضحكه صلى الله تعالى عليه وسلم تبسمًا»<sup>(١)</sup> كذا في «عمدة الحفاظ» وعلى كل حال فالتبسم بعض من الضحك أو نوع منه، وعليه قول النحاة في قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٩] أن ضاحكًا حال مؤكدة، وقول الزخشرى أى شارعًا في الضحك وأخذًا فيه، يعنى أنه قد تجاوز حد التبسم إلى الضحك لا يقتضى التفرقة، ولأن المراد بالضحك أمر مخصوص فلا اعتراض على النحاة ولا على الزخشرى كما توهم، وقد ورد في بعض الأحاديث: «أن ضحك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن إلا تبسمًا» وورد في بعضها: «أنه ضحك حتى بدت نواجذه» وفي بعضها وصفه صلى الله تعالى عليه وسلم بـ«مطلق الضحك» وجمع بينهما بأن التبسم كان غالب أمره صلى الله تعالى عليه وسلم، وأن غيره وقع منه أحيانًا على الندرة فلا منافاة بينهما، وقيل: المراد بقوله: «ضحك حتى بدت نواجذه» المبالغة لا حقيقته، ولا حاجة إليه فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصحابة رضی الله تعالى عنهم كانوا يضحكون إذا رأوا عجبًا وأمرًا يسرهم ولنا فيهم أسوة حسنة، وإنما المكروه الإكثار كما ورد في الحديث: «كثرة الضحك تميم القلب». كمن غلبه ذلك من أهل اللهو والبطالة.

وروى في قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا﴾ [النمل: ١٩] أنه كان فرحًا بفضل الله تعالى عليه، ولم يكن بطرًا وأشرًا، لاسيما ما فيه من تأنيس الناس وتعليمهم لحسن العشرة، وأما ما روى عن الحسن رضی الله تعالى عنه من أنه ما رئي ضاحكًا ولا متبسمًا لا في أهله ولا وحده ولا في جماعة، فذلك غير منكر لشدة خوفه من الله تعالى ومراقبته له، وهو مقام آخر لا يخالف فعل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه فلا وجه للاعتراض به عليه.

(إذا التفت التفت معا) فلا يسارق النظر ولا يلوى عنقه بمنة ولا يسرة كما يفعله من

(١) أخرجه ابن حجر في فتح الباري (٢٨٨/٩).

به طيش وخفة، بل يقبل جميعاً ويدبر جميعاً، ومعنى معاً بجميعه. (وإذا مشى مشى ثقلاً) رواه الترمذى فى الشمائل: «إذا مشى ثقل» وفى رواية: «إذا زال ثقلًا يمشى تكفياً ويمشى هوناً» وفى النهاية الأثرية أن المراد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم يرفع رجله من الأرض رفعاً قوياً من غير مقارنة للخطا فإنه مشى النساء والمختالين، وقلعاً: روى بفتح القاف وضمها مصدر بمعنى الفاعل، أى قالعاً رجله. وفى غريب الأنبارى والتهذيب بفتح القاف وكسر اللام وهو قريب من قوله:

(كأنما ينحط) أى ينحدر (من صيب) أى بتثبت من غير عجلة ومبادرة شديدة. وروى فى صيب بفتح الصاد المهملة وفتح أولى الموحدين وهو الموضع المرتفع، أو ما انحدر منه كسفع الجبل فمن على ظاهرها، وقيل: إنها بمعنى إلى وينحط بمعنى يتدلى، وكذا ينحدر، وفى رواية: «كأنما يهوى من صبوب» بفتح الصاد وضمها مصدرًا أو جمع صيب وهو وصف بغاية السرعة كالنازل من علو.

\* \* \*

### (فصل: وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول)

معنى الفصاحة فى اللغة كما فى كتاب الصناعتين لأبى هلال الإظهار، تقول العرب: أفصح الصبح إذا أضاء، واللبن إذا انجلت عنه الرغوة وظهر، وتماها بتمام آلة البيان وهى اللسان. قال: ولتضمن الفصاحة معنى الآلة يوصف بها اللسان فيقال: لسان فصيح، ولا يوصف بها الله سبحانه وتعالى عز وجل، فلا يقال فيه: فصيح وإن وصف بها كلامه. والبلاغة من بلغت الغاية إذا انتهت إليها وبلغتها، فسميت بلاغة لبلوغها النهاية، أو لإبلاغها المعنى لفهم السامع، ومعنى الفصاحة عند أهل المعانى معلوم فى كتبه، وتقدم أنه يوصف بها اللسان والمفرد والكلام والمتكلم، وفى وصف المفرد بها كلام ليس هذا محله، والمراد بالقول هنا جنس اللفظ الموضوع مطلقاً أو تعريفه للاستغراق، أى جمع أقواله بليغه وأضاف الفصاحة للسان، والبلاغة للقول تفنناً أو للدلالة على كمال كلامه وآلة نطقه، فإن من العرب من كان كلامه فصيحاً بليغاً مع نقص آله، كزياد الأعجم فإنه كان لا يقيم الحروف فيقول للحمار همار، ولذا لقب بالأعجم، ويحتمل أن يريد باللسان اللغة.

(فقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم من ذلك) المذكور وهو الفصاحة والبلاغة. (بالحل الأفضل والموضع الذى لا يجهل) الحل والموضع بمعنى وإن تغاير مفهومهما؛ لأن الأول مكان الحلول، والثانى مكان الوضع، ففى عبارته تفنن فراراً من التكرار، أى كان صلى الله تعالى عليه وسلم أفصح البشر وأبلغهم، فكفى عن ذلك بجعله فى أفضل محل

البلاغة وفى موضع لها لا يجمله أحد، كما فى قوله:

إن الفصاحة والسماحة والندى فى قبة ضربت على ابن الحشرج  
فهو كالإثبات بدليل ومرتبته فى ذلك دون مرتبة الإعجاز، وهو أقرب إليها من كل  
بليغ، وقوله: بالمحل خير كان ومن بيانية على القول بجواز تقدمها، وقيل: تبعية والجار  
والجورر حال من المحل والموضع، أى كان بالمحلين كائنين بعض ذلك أى بعض مطلق  
الفصاحة والبلاغة والمرتبة التى له من ذلك، ويؤثر عنه من الكلمات البليغة ما لا تصل  
إليه القوى البشرية.

(سلاسة طبع) وفى نسخة: «مع سلاسة طبع» والسلاسة السهولة، أى كانت سليقته  
صلى الله تعالى عليه وسلم فى البلاغة تنقاد له بسهولة من غير تكلف، وسلاسة وقع  
بالنصب على نزع الخافض أو هو مفعول له، ولو رفع بتقدير له سلاسة طبع جاز، ومن  
الغريب أن الشارح العرضى بعدما أعربه مفعولا قال: إنه فى جواب سؤال تقديره هل  
كانت فصاحته سليقة أو يتتبع تراكيب البلغاء وقوانينهم.

(وبراعة منزع) البراعة: بفتح الباء والراء المهملة من برع الرجل بضم الراء وفتحها  
إذا فاق غيره، وكثيراً ما يستعمل بمعنى الفصاحة، ولذا فسرهما بها هنا بعض الشراح  
وليس يبعد، والمنزع من نزع إلى أهله إذا اشتاق، وأراد الرحيل إليهم، ونزع القوس  
جذبها والدلو استقى بها، فالمنزع إن كان بفتح الميم فاسم مكان أو مصدر ميمى،  
وفسروه هنا بالمأخذ وما يرجع إليه الرجل من رأيه وأمره، والظاهر أن المراد أصله  
ومقره، يعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مع بلاغته الجبلية من قوم وجلدة هم أفصح  
الناس، وإن كان بكسرهما كما عليه التلمسانى فهو اسم آلة كالمفصل وفسر باللسان،  
وأصله السهم يقال: نزعت فى القوس نزعاً وأنزعت بمنزع أى سهم، وفى المثل: عاد  
السهم إلى النزعة. أى رجع الحق لأهله.

(وإيجاز مقطع) الإيجاز التعبير عن معان كثيرة بلفظ قليل، ويقابله الإطناب والمساواة  
كما بينه أهل المعانى، وهو بفتح الميم اسم مكان أو مصدر، أى موجز فى محل القطع  
والفصل للأمور، فإنه محل للإيجاز لا كمقام الخطابة فإنه يمد فيه التطويل، فلذا اقتصر  
عليه، لا لأنه يعلم من البلاغة كما قيل، وجوز فيه كسر الميم على أن المراد به القول  
وتفسيره بتمام الكلام لظهوره عنده تكلف.

(ونصاعة لفظ) النصاعة الخلوص والوضوح، أى أن لفظه صلى الله تعالى عليه وسلم  
خالص من كل بشاعة ولكنه واضح لكل أحد لمخاطبته كل أحد على قدر عقله وبلغته.

(وجزالة قول) بفتح الجيم والزاء المعجمة وهو القوة والإتقان وضدها الركاقة.

(وصحة معان) أى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مع فصاحة ألفاظه ووضوحها، معانيه صحيحة لا فساد فيها لاحتوائها على الأحكام والحكم الفصل.

(وقلة تكلف) لأنه يتكلم عن رؤية وسلاسة طبع عن غير تشدق ورعاية سجع ومشقة، والمراد أنه لا يتكلف، فالقلة هنا بمعنى النفى كما أثبتته النحاة وأهل اللغة فاندفع قول بعضهم، ولو قال وعدم تكلف لكان أحسن وأليق.

(أوتى جوامع الكلام) أى آتاه الله قوة ناطقة بحيث ينطق بالكلمات الجامعة للمعانى التى هى بمنزلة الأمثال، فإن من تأمل كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم رأى فيه من المعانى مع الوجازة التى تستخرج الطبع الغواص منها جواهر يحار فيها العقول، وقيل: المراد بها القرآن والحديث وفيه نظر.

(وخص بدائع الحكم) أى خص صلى الله تعالى عليه وسلم بنطقه بكل حكمة بديعة لم يسبق إليها، والحكمة العلم النافع لمن وعاه من الزيغ والضلال. وقال ابن عرفة: الحكمة عند العرب ما تمنع من الجهل ولذا سمي الحاكم حاكماً لمنعه التعدى.

(وعلم ألسنة العرب) أى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم يعلم لغاتهم، لأن اللسان يطلق على اللغة، وعلم مخفف ماض مبنى للفاعل أو مشدد مبنى للمجهول، أى علمه الله، أو مصدر مجرور معطوف على بدائع الحكم.

\* (يخاطب كل أمة منها) أى كل قبيلة وجماعة منهم.

(بلسانها) أى لغتها لاختلاف لغاتهم.

(ويجاورها بلغتها) أى يصاحبها ويراجعها بلغتها.

(ويباريها فى منزع بلاغتها) المبارء بالراء المهملة غير مهموز، والمباراة والمجارة المعاوضة وفعله مثل فعله.

(حتى كان كثير من الصحابة) رضى الله تعالى عنهم مع أنهم فصحاء علماء وهذا غاية لجميع ما قبله، أى لقوة فصاحته قد لا يفهمون كلامه لما فيه من المعانى البديعة التى لم يسمعوها بها، أو لما يليها من تكلمه بجميع الألسنة؛ لأن السامع قد لا يعرف لغة غيره. (يسألونه فى غير موطن) أى فى مواطن كثيرة.

(عن شرح كلامه وتفسير قوله) لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما أرسله الله لجميع الناس علمه جميع اللغات، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾



[إبراهيم: ٤] وهو صلى الله تعالى عليه وسلم مرسل للجميع.

(من تأمل حديثه وسيره) جمع سيرة، وروى وسيره بسين مفتوحة مهملة وباء موحدة كما ذكره البرهان، أى تتبعه وفتش عليه، وأصله من سير الجرح إذا اختبر غوره.

(علم ذلك وتحققه وليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد) قريش: قوم من ولد النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، سموا بذلك لتقرشهم أى تجمعهم بعدما كانوا متفرقين فى غير الحرم فجمعهم مضر أو قصى، أو لأنهم كانوا يتقرشون البياعات والأمتعة أى يجمعونها، أو سموا بالقريش وهو دابة بحرية يخافها دواب الأرض.

والأنصار: جمع ناصر أو نصير، سموا بذلك فى الإسلام لنصرتهم لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهم الأوس والخزرج قبيلتان سموا باسم جدّهم، كتميم.

والحجاز مكة والمدينة والطائف وما يليها، سمي به لأنه حجز بين تهامة ونجد، أو بين نجد والسرّة، أو احتجزت بجرار خمس معروفة.

ونجد بفتح فسكون ما ارتفع من الأرض ويقابله تهامة وهى من أعمال اليمامة كما بين فى معجم البلدان وغيره.

(ككلامه مع ذى المشعار الهمدانى) بسكون الميم وذال مهملة بينها ألف ونون وياء نسبة لهمدان وهى قبيلة عظيمة باليمن، وأما همدان بهاء وميم مفتوحتين وذال معجمة فبلدة بخراسان بناها همدان بن الفلوح بن سام بن نوح، والمعروف بين العجم إهمال داله فكان هذا تعريب له، وذو المشعار ميم مكسورة ثم شين معجمة ساكنة، وقال التلمسانى: إنه بشين معجمة ومهملة وغين معجمة ومهملة، واقتصر فى القاموس على الثانى وراء مهملة، وفى الروض الأنف أنه أبو ثور مالك بن غط وهو من بنى خارف أو من أيام وكلاهما من همدان، وهو صحابى وفد على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مرجعه من تبوك، وخارف بناء معجمة وراء مهملة وفاء، ويام بمشاة تحتية ويقال أيام بهمة وهو الذى ذكره المصنف، وهو همدانى خارفى أرحبى، ووهم ابن إسحاق فى قوله فى سيرته: مالك بن غطو أبو ثور، ولك أن تقول: إنه من عطف الكنية على الاسم ولا بعد فيه، والذى صححه الصاغانى فى كتاب «الذيل والصلة» أن المشعار بعين مهملة وأنه إنما قيل له ذى المشعار؛ لأن المشعار موضع باليمن ينسب إليه وسيأتى ما قاله للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما قدم.

(وظهفة النهدى) بكسر الطاء المهملة وسكون الهاء وبالفاء تليها هاء تأنيث وهو ابن

زهير، ويقال ابن أبي زهير، وسماه الذهبي في تجريده طهية بالثناة التحتية بدل الفاء. وقال ابن الجوزي: إنه طخفة بالخاء المعجمة، وقيل: طغنة بالغين المعجمة، وقيل: طقفه بقاف وفاء، وقيل: قيس بن طحفة، وقيل: اسمه يعيش واسم أبيه أبو ذر. وقال التلمساني: إنه في بعض الشروح بظاء مشالة مفتوحة ويقال بكسرهما، والنهدى بالنون والهاء وال달 المهمل منسوب لهند وهو اسم قبيلة باليمن، وهو خطيبها ووافدها للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم في سنة تسع لما قدمت عليه وفود العرب، ولما قدم قام وقال، أتيناك يا رسول الله من غورى تهامة بأكوار الميس ترمى بنا العيس نستحلب الصبير، ونستحلب الخبير، ونستعصد البرير، ونستجيل الرهام، ونستحيل الجهام من أرض غائلة المنطا، غليظة الوطا، قد نشف المدهن ويس الجعثن، وسقط الأملوج ومات العسلوج وهلك الهدى، ومات الودى برثنا يا رسول الله من العنن والوثن، وما يحدث الزمن لنا دعوة السلام وشريعة الإسلام، ما طمى البحر وقام تعار، ولنا نعم أغفال ما تبض ببال ووقير قليل الرسل وكثير الرسل، أصابتنا سنة حمراء موزلة ليس لها علل ولا نهل. فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «اللهم بارك لهم فى محضها، ومخضها، ومذقها، وابعث راعيها فى الدثر يبانع الثمر، وافجر له الثمد، وبارك له فى المال والولد» وهذا ما أشار إليه المصنف رحمه الله كما يأتى.

ونقلت من خط العلائى بسنده إلى عمران بن حصين رضى الله تعالى عنه قال: قدم وفد بنى زيد على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقام طهية بنى أبى زهير النهدى بين يديه صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: أتيناك يا رسول الله من غورى تهامة، على أكوار الميس، ترمى بنا العيس، ونستحلب الصبير، ونستحلب الخبير، ونستعصد البرير، ونستحيل الجهام، من أرض غائلة المنطا، غليظة الوطا، قد نشف المدهن، ويس الجعثن، وسقط الأملوج من البكارة، ومات العسلوج، وهلك الهدى، ومات الودى، برثنا يا رسول الله من الوثن والعنن، وما يحدث الزمن، لنا دعوة المسلمين وشريعة الإسلام ما طمى البحر وقام تعار، ولنا نعم همل إغفال لا تبض ببال، ووقير كثير الرسل قليل الرسل، أصابتنا سنة حمراء موزلة ليس لها علل ولا نهل، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «اللهم بارك لهم فى محضها ومخضها، ومذقها ومزقها، واحبس راعيها على الدثر ويانع الثمر، وبارك لهم فى الولد، ومن أقام الصلاة كان مؤمنا، ومن أدى الزكاة لم يكن غافلا، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مسلما، لكم يا بنى نهد ودائع الشرك ووضائع الملك ما لم يكن عهد ولا موعد، ولا تناقل عن الصلاة ولا تلطط فى الزكاة، ولا تلحد فى الحياة، من أقر بالإسلام فله ما فى الكتاب، ومن أقر بالجزية فعليه

الزكاة، وله من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الوفاء بالعهد فى الذمة». وكتب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مع طهية بن أبى زهير كتاباً فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى بنى نهد بن زيد: السلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، عليكم بالوظيفة الفريضة، ولكم الفارض والفريش، وذو العنان الركوب والضبيس، لا يؤكل كلكم ولا يقطع سرحكم، ولا يجبس دركم ولا يعضد طلحكم، ما لم تضمروا الرماق وتأكلوا الرباق»<sup>(١)</sup>. انتهى.

وتفسيره: الميس: الرحال. والعيس: الإبل. والصبير: السحاب المتفرق. والرهام: القداح. والجهام: السحاب بلا مطر أمطر بيلد آخر. غائلة المنطا بعيدة المسافة. ييس المدهن: غدير الماء. والجعثن: عروق الشجر. البكارة: البكر أدركه الهزال بعد السمن. العسلوج: عروق الشجر تتشعب ورقه. والودى: العسيل. والعنن: الخلاف. وما تبض بيلال: أى ليس لها لبن. ووقير قليل الرسل: يعنى الصرمة من الغنم ليس لها أولاد. كثير الرسل: يقول شديد العرف فى طلب المرعى. وقوله: فى خضضا وفرقها ومذقها كلها من اللين. والدثر: الخصب. ويانع الثمر: نضيجه. والتمد: قليل الماء يخرج من الأرض. والضبيس: الصعب. والرماق: النفاق. والرباق: الرعاء. وذو العنان: الفرس يركب ويزلل بالعنان لأنه لا يركب فيلجم. والرباق: جبل يربط. قلت غورى تهامة: ما انخفض منها وغور كل شىء عمقه. وقيل: تهامة ما بين ذى عرق على مرحلتين من وراء مكة، وقيل: إنها إلى اليمن أقرب. والميس: شجر صلب تتخذ منه الرحال وترمى تقصد. والعيس: إبل بيض إلى صفرة. والصبير: سحاب أبيض متكاثف كأن بعضه صبر على بعض أى حبس. يستحلبه: يستقطره. والخبير: النبات والعشب شبه بخبير الإبل وهو وبرها، واستخلابه احتشاشه بالمخلب وهو المنجل. والبرير: ثمر الأراك إذا اسود. ويستعضده: يحتشه من عضده إذا قطعه. والرهام: جمع رهم بالكسر وهو مطر وفسر بالقداح وهو غلط. والاستجالة: الاستمطار من الجولان. والجهام: سحاب صب ماؤه. ونستحيله روى بجاء مهملة أى ينظر إليه لجامعه فى منظره. وغائلة المنطا: كذا سمعناه. والذى رواه ابن الأثير النطاء بكسر النون من غير ميم وغائلة مهلكة، والمنطا: البعيدة، والمدهن: نقرة فى الجبل فيها ماء المطر. والبكارة: جمع بكر الإبل. والأملوج قيل: ورق شجر يشبه الطرقاء. وقيل: نبت. وقيل: نوى المقل. وقال الزخشرى: إنه استعارة لما ذهب من سمن الإبل الراعية. والعسلوج: غصن طرى قريب عهد بالطلوع. والهدى: ما يقدم للنحر أراد به مطلق الإبل. والعنن: الاعتراض من عن له كذا. وطمى البحر: ارتفع

(١) أخرجه ابن الجوزى فى العلل المتناهية (١٧٩/١).

موجه. وتعار: بكسر التاء وعين مهملة مخففة اسم جبل. وهمل: إبل لا راعى له. والإغفال ما لا سمة له. وقيل: هما ما لا لبن له. والوقير: قطيع الغنم. والمحض: بمهملة الخالص وبمعجمة اللب المبخوض ليخرج زبده. والمذق: لبن مزج بالماء والفرق بكسر فسكون إناء يحلب فيه. وقيل: بفتحين مكيال والأول أقرب هنا. وودائع الشرك: العهود والمواثيق بينهم فى الجاهلية. وقيل: ما استودعوه من أموال الكفار الذين لم يسلموا فأحلها لهم، كذا بخط العلائى.

(وقطن بن حارثة العليمى) قطن: بفتح القاف والطاء المهملة ونون، والعليمى بعين مهملة مصغر، وحارثة بجاء وراء مهملتين ومثلثة وهو منسوب لبني عليم بن جناب ابن كلب فهو كلبى، وقيل: عليم بن جناب هبل من بنى عذرة من قبائل كلب، وهو صحابى قدم على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وافداً لقومه، فكتب له كتاباً بعد ما كلمه بكلام فصيح غريب، وصورة الكتاب: «هذا ما كتب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لعماير كلب وأخلافها، ومن طارة الإسلام من غيرهم مع قطن بن حارثة العليمى بإقامة الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة بحقتها فى شدة عقدها، ووفاء عقدها بمحضر من المسلمين سعد بن عبادة، وعبد الله بن أنيس، ودحية بن خليفة الكلبي عليهم فى الهمولة الراحية البساط الظفار فى كل خمسين ناقة غير ذات عوار، والهمولة البائرة لهم لاغية، وفى الشوى الورى مسنة حامل أو حائل، وفيهم سقى الجدول من العين المعين العشر من ثمرها، ومما أخرجت أرضها، وفى الغدى شطره بقيمة الأمين لا يزداد عليهم ولا يفرق، شهد الله على ذلك ورسوله» وكتبه ثابت بن قيس بن شماس.

(والأشعث بن قيس) ابن معدى كرب بن معاوية بن جبلة بن معدى كرب أبو محمد، وهو من ولد آكل المزار الكندى الشريف الصحابى، توفى بالكوفة بعد موت على كرم الله وجهه بأربعين ليلة، وصلى عليه الحسن رضى الله عنه، وكان شريفاً مطاعاً فى قومه، وفد على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سنة عشر فى ستين ركباً فأسلموا ورجعوا إلى اليمن. قال فى الاستيعاب: ثم ارتد بعد وفاة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم رجع إلى الإسلام بعد ما أتى به أبو بكر رضى الله تعالى عنه أسيراً، فجعل يعدد عليه أفعاله فلم ينكرها، وهو فى الحديث حتى أتم مقاتله فقال له الأشعث: استبقنى وزوجنى أحتك فرأى أبو بكر رضى الله عنه أنه رأى ففعل وزوجه أخته أم فروة، وروى أنه لما خرج من عنده استل سيفه فلم يلق ذات أربع من الأنعام إلا عقرها. فقيل لأبى بكر: إنه ارتد ثانية، فقال: انظروا فى شأنه فرأوا الناس اجتمعوا عليه وهو يقول: يا قوم هذه وليمتى ولو كنت بأرضى لأولت كما يؤلم مثلى فأعدوا على وخذوا

أثمان ما عقرت لكم. وفى ذلك يقول ابن قيس الخزرجى:

لقد أولم الكندى يوم ملاكه      وليمة حمال لثقل الجرائم  
فقل للفتى الكندى أما لقيته      ذهبت بأسنى مجد أولاد آدم

ولقب بالأشعث لأنه كان رأسه أشعث دائماً، وقد أخرج للأشعث أصحاب الكتب الستة وأحمد فى مسنده، وصرحوا بأنه صحابى بناء على أن الردة لا تبطل الصحبة، وإن أبطلت ثوابها إذا رجع للإسلام قبل موته وهو الأصح، وبه صرح الشافعى فى الأم، ونقل عن أبى حنيفة، وقيل: إنها تحبطها مطلقاً، ولم يذكر المصنف رحمه الله كلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم معه ولا كلامه حين وفد عليه، وهو كما فى تاريخ ابن عساكر، ونقله الذهبى ومن خطه نقلت عن هشام بن الكلبي: «أن الأشعث وفد على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى سبعين رجلاً من كندة، فقال له عليه الصلاة والسلام: هل لك من ولد؟ فقال: غلام ولد مخرجى إليك، ولوددت أن يتبع القوم مكانه، وروى: لوددت أن لكم به قصعة من خبز ولحم، فقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا تقولن ذا فإن فيهم أجراً إذا قبضوا وإنهم لجنّة ومخزنة، وأنهم لثمرّة القلوب، وقرّة العين»<sup>(١)</sup>. انتهى. وهذا من بليغ الكلام، ومن الحديث أخذ ابن الهيارمة قوله فى الصادح والباغم:

لا خير فى الأولاد      والأهـل والسفاد  
وليس فيهم فائدة      إلا ظنون فاسدة  
مجننة ومبخلـة      مجدلة ومقتلة  
لولا هم ما ذلا      ذو أدب وقـلا

(ووائل بن حجر الكندى) نسبة لكندة بكسر الكاف وسكون النون ودال مهملة وهاء، وحجر بضم الحاء المهملة وسكون الجيم وراء مهملة، ووائل بواو وألف يليها همزة لا ياء مثناة من أسفل كما فى حواشى التلمسانى وغيره، ويقال له: أبو هنيـدة، ويقال: أبو هنيـد بغير هاء ابن ربيعة بن نعم الحضرمى كما قاله ابن عبد البر، وفى شرح التجانى أنه ابن حجر الكندى بن ربيعة بن وائل بن نعم الحضرمى، وما فى الشفاء من أنه وائل بن حجر الكندى غلط بغير شبهة، والصواب ما تقدم، ولعل الكندى كان وصفاً للأشعث بن قيس مقدماً على قوله وائل بن حجر، فأخره الناسخ سهواً أو جعله وصفاً لوائل، وفيه خلاف ذكره ابن الجزرى فى كتاب الجمال، فقال: وائل بن حجر

(١) أخرجه أحمد (٢٧٦/٤)، والطبرانى فى الكبير (٢٠٧/١).

ابن سعد بن مسروق أبو هنيذة الحضرمي، وأبو هنيذ الكندي الصحابي، ووافقه ابن عساكر فقال: وائل بن حجر بن سعد بن مسروق بن وائل بن صمعج، فيمكن أن يكون كنديا عند المصنف رحمه الله تعالى فليس وصفه به غلطا فيكون كنديا حضرميا، وهو قيل من أقيال حضرموت وهو لقب ملك من ملوكهم، فدعوى أنه غلط قال في العباب: كندة أبو حي من اليمن وهو لقب له واسمه ثور بن عنبس بن عدى، ولقب به لأنه كند نعمة أبيه ولحق بأخواله، فقال له أبوه: كندت نعمتي، ولما وفد على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مسلما بشر به أصحابه قبل قدومه بثلاثة أيام، وقال لهم: «يأتيكم وائل بن حجر من أرض بعيدة من حضرموت راعبا في الله ورسوله طائعا». وهو بقية من أبناء الملوك، فلما دخل عليه رحب به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأدناه منه وبسط له رداءه وأجلسه عليه، وقال: «اللهم بارك في وائل بن حجر وولده وولد ولده»<sup>(١)</sup>. وفي التهذيب للأزهري عن وائل بن حجر أنه قال: «كتب لي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم «لاجلب ولا جنب ولا شعار ولا وراط، ومن أجبي فقد أربا»<sup>(٢)</sup>، وفسر من أجبي بمن غبن وهو حسن. وعن أبي عبيد: الإجباء: الحرث قبل أن يبدو صلاحه. انتهى. وله قصة مع معاوية رضى الله تعالى عنه لما أرسله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم معه، وتوفي في زمن معاوية سنة تسع وأربعين في ذي الحجة، وسبب إسلامه كما قاله ابن ظفر في «كتاب البشر» أنه كان له صنم من عقيق يعبد به ويسجد له، فبينما هو نائم عنده في الظهيرة سمع صوتا منكرا هاله، فأتاه وسجد له فسمع هاتفا يقول:

واعجا من وائل بن حجر      يخال يدرى وهو ليس يدرى  
ماذا ترجى من نحيب صخر      ليس بذى عرف ولا ذى نكر  
ولا بذى نفع ولا ذى ضر      لو كان ذا حجر أطاع أمرى  
فرفع رأسه وقال: بماذا تأمرنى؟ فقال:

ارحل إلى يثرب ذات النخل      وسر إليها سير مستقل  
قبل تقضى العمر المولى      فدن بدين الصائم المصلى

محمد المبعوث خير الرسل

(١) أورده ابن كثير في البداية والنهاية (٧٩/٥).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٩١، ١٥٩٢)، والترمذى (١١٢٣)، والنسائى (١١١/٦، ٢٢٧)،

والطبرانى (١٤٨/١٨، ١٧٢)، والدارقطنى (٣٠٣/٤).

ثم خر الصنم، فقام إليه وجعله رفاتاً، ثم سار حتى أتى المدينة ودخل المسجد، فلما رآه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أدناه وبسط له رداءه وأجلسه معه، ثم صعد المنبر وقال: «يا أيها الناس هذا وائل بن حجر أتاكم من أرض بعيدة راغباً فى الإسلام» فقال: يا رسول الله بلغنى ظهورك وأنا فى ملك عظيم فتركته واخترت دين الله، فقال: «صدقت، اللهم بارك فى وائل وولده وولد ولده»<sup>(١)</sup>. ثم إنه طلب من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكاتيب ثلاثة بإقراره على أرضه وملكه، فأعطاه ذلك. وقد بسط ذلك ابن حديدة فى كتابه الذى ألفه فى كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومكاتبه.

(وغيرهم) أى غير من ذكر من العرب (من أقيال حضرموت وملوك اليمن) الأقيال: جمع قيل بفتح القاف وإسكان المثناة التحتية واللام، وهو الملك من ملوك حمير واليمن، وقيل: الملك مطلقاً، وقيل: من دون الملك الأعظم كالوزير.

وفى النهاية الأثرية أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كتب لوائل بن حجر: «إلى الأقوال العباهلة» وفى رواية «الأقيال» فقيل: إنه من القيلة وهى الأمانة، وقيل: من القول لنفوذ قوله وأمره، فأصله على هذا، قيل: بتشديد الياء أعل أعلال ميت، ولولاه لم يكن لقلب الواو ياء وجه وأقوال على الأصل، وأقيال على لفظ قيل كما قيل: ربح وأرياح والقياس أرواح، لكنه لم يرجع لأصله فرقاً بينه وبين جمع روح. والعباهلة هم الذين قر ملكهم وبقي متروكاً على ما كان عليه من عبهات الإبل إذا تركتها ترعى متى شاءت واحدة عبهل، فالتاء لتأكيد الجمعية كقشعم وقشاعة، أو جمع عبهول وأصله عباهيل فحذفت الياء وعوض منها التاء كما فى فرازنة وفرازين، وفى تثقيف اللسان: العباهلة بالياء الموحدة هم الذين لا يد عليهم لأحد، وبالمثناة التحتية الشيال، وكلاهما مدح كما قاله التلمسانى. وحضرموت بفتح الحاء المهملة وإسكان الضاد المعجمة وفتح الميم، وقال صاحب المطالع: إنه بضم الميم وجعله وجهاً جائزاً فيه، وهو علم مركب تركيباً مزجياً غير مختوم بويه، وفى مثله ثلاثة أوجه؛ فتح رائه وإعرابه إعراب ما لا ينصرف للعلمية والتركيب، وإجراء الأول على حسب العوامل، وإضافته للثانى وبنائهما كخمسة عشر. وقال النووى فى تهذيبه: حضرموت اسم بلدة باليمن واسم قبيلة، واليمن الأقاليم المعروف وينسب إليه معنى ويمان بالتخفيف، وبالتشديد وهو شاذ، وتسمى به لأنه عن يمين الكعبة ويجمع يمينى على يمينين ويمانيون بالتشديد.

(وانظر فى كتابه) أى اعرفه وقف عليه بأى طريق كان، من استعمال المقيّد فى

(١) أخرجه الطبرانى فى الصغير (١٤/٣).

المطلق، أى كتاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الذى كتبه (إلى همدان) بسكون الميم والدال المهملة كما مر كتبه لما وفد غلبه ذو المشعار الحمدانى، فهذا رجوع إلى بيان كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم مع غير أهل الحجاز، وتقدم أن همدان قبيلة من بطونها خارف ويام بالتحية، ويقال: أيام ولذا ينسب إليه أهل الحديث أيامى، وقال ابن دريد، إن همدان اسم لأب القبيلة. وقيل: اسمه أو سلة وأنه أخير بما غمه فقال: هم دان فلقب به، وليس هذا مما يلتفت انتهى كلامه فى الجمهرة.

ولم يذكر فيه مادة هم ذ بالإعجام؛ لأنه غير عربى عنده وتقدم الكلام عليه، وقصة الكتاب: «أن ذا المشعار قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لما لاقاه بتبوك: يارسول الله نصية من همدان من كل حاضر وباد أتوك على قلوب نواج متصلة بجبال الإسلام لا تأخذهم فى الله لومة لائم، من مخلاف خارف ويام وشاك، أهل السود والتود، أجابوا دعوة الرسول وفارقوا آلهة الأنصاب، عهدهم لا ينقض ما أقام لعلع وما جرى العصفور بصلع. فكتب لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كتابا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لمخلاف خارف، وأهل جناب الهضب، وخفاف الرمل، مع وافدها ذى المشعار مالك بن نمط ومن أسلم من قومه، على أن لهم فراعها ووهاطها ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، يأكلون علافها ويرعون عافيتها، لهم بذلك عهد من الله ورسوله، وشاهدتهم المهاجرون والأنصار» وروى: «هذا كتاب من محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لمخلاف خارف ويام، عهدهم لا ينقض عن سنة ماخل وأهل جناب الهضم وخفاف الرمل، مع وافدها ذى المشعار مالك بن نمط ومن أسلم من قومه، على أن لهم فراعها ووهاطها وعزازها ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، يأكلون علافها ويرعون عافيتها، لنا من دفنهم وصرامهم ما أسلموا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصدقة الثلب، والنباب، والفصيل، والفارض، والداجن، والكبش الحورى، وعليهم فيها الصالغ والقارح» فقال فى ذلك مالك:

ذكرت رسول الله فى فحمة الدجا	ونحن بأعلى رحرحان وصلدد
وهن بنا خوص طلائح تعتلى	بركبانها فى لاحب متمدد
على ككل قتلاء الذراعين جسره	تمر بنا مر الهجف الخفیدد
حلفت برب الراقصات إلى منى	صوادر بالركبان من هضب قردد
بأن رسول الله فىنا مصدق	رسول إلى من عند ذى العرش مهتدى
فما حملت من ناقة فوق رحلها	أشد على أعدائه من محمد



وأعطى إذا ما طالب العرف جاءه وأمضى يجد المشرفى المهند

وإلى بعض من هذا أشار بقوله: (إن لكم فراعها) بالفاء المكسورة وراء وعين مهملتين بينهما ألف، وهى ما ارتفع من الأرض من مرتفعات البقاع، أو أعالى الجبال، جمع فرعة بفتح فسكون، يعنى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أقطعهم ذلك.

(ووهاطها): بكسر الواو وبالهاء والطاء المهملة جمع وهطة كفرعة، وهى الوهدة وما سفلى وانخفض، والضمير للأرض المخصوصة. والوهاط والوهاد بمعنى، ويحتمل أن أحدهما مبدل من الآخر.

(وعزازها) بفتح العين المهملة وزاين معجمتين مخففتين وهو ما اشتد وصلب من الأرض مما لا ملك لأحد عليه، فيوطأ ويحرث فيصير رخوًا، ومنه العز لصلاية جانبه.

(تأكلون علافها) بكسر العين المهملة واللام والفاء، قال فى النهاية: جمع علف وهو ما تأكله الماشية مثل حمل وحمال، وفى قوله مثل حمل لطف، إلا أنه إذا كان علف الماشية فقوله تأكلون بالخطاب لهؤلاء القوم غير مناسب هنا، إلا بتجاوز بأن يقدر تأكل دوابكم أو يجعل تأكلون بمعنى تملكون، ولعل للعلاف معنى غير هذا فى لغة أهل اليمن والشرح لم ينبهوا على هذا.

(وترعون عفاءها) بفتح العين والفاء والمد، وفسروه بما ليس لأحد فيه ملك ولا أثر، من عفا الشئ إذا اندرس، أو من عفا يعفو إذا خلص، ومنه الحديث: «أقطعهم ما كان عفا» وقوله: ﴿خُذِ الْقَوَّ وَأَمْرًا بِالْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقال التجانى: روى عفاء بكسر العين جمع عفو كجبل وجبال وهو بمعنى الأول، وقوله: ترعون أيضًا ما مر، وجوابه أن الرعى مخصوص بأكل البهائم، ولذا قال بعض الجهلة لبعض الأدباء: أنت عندى كالأب بتشديد الباء، قال له: فلذا تأكلنى. قال الدمامينى فى كتابه «نزول الغيث»: لو قال فلذا ترعانى كان ألطف لما فيه من التورية؛ لاحتمال أن يكون من الرعى أو الرعاية. كما فى الأب من احتمال معنى الوالد على لغة فيه، ومعنى اللبن لأنه عنى أنه لجهله كالأنعام.

(لنا من دفنهم وصرامهم) الدفء بكسر الدال المهملة وسكون الفاء فاهزمة وفسروه هنا بالإبل، والغنم سميت بذلك لأنها يتخذ من أصوافها وأوبارها أثاث يتدفأ به ويجعل منها البيوت من الشعر ليتدفأ بها، وقال الله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ﴾ [النحل: ٥]، أى ما يتدفأ به من الصوف والوبر، وهو فى الحديث بمعنى الأنعام التى يؤخذ منها ذلك، والصرام بكسر الصاد المهملة جمع صرمة بكسر فسكون وهى القطعة

من النخل، ويجوز أن يكون الثمر نفسه لأنه يصرم من النخل، أى يجذ ويقطع، فسمى بالمصدر، ويجوز فتح الصاد؛ لأنه يقال: صرمت النخل صراماً، وما قيل من أنه لا يجوز أن يكون جمع صرمة كما توهم؛ لأنها القطعة من الإبل من الثلاثين والقطعة من السحاب، وهو لا يصح ساقط لوجهين.

(ما سلموا بالميثاق والأمانة) ما موصولة خيرها مقدم، المراد العهد الذى أخذ عليهم أو الإسلام، والمراد بما سلموا بتشديد اللام ما يعطوه من الزكاة المفروضة، والأمانة أى كونهم مأمونون على أموالهم؛ لأن رب المال فى الزكاة يصدق بقوله، وقال التلمسانى: أراد بها الطاعة أو الغناء أو العبادة وهو بعيد، أى لا يؤخذ منهم شئ قهر إبل عن طيب نفس وغنى من غير تجاوز عما حده الله، ولم يبين من يسلمون فيجوز أنهم يسلمون بأنفسهم أو للسعاة فلا يتكلف له، ويقال: إن المراد الأول؛ لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم علم منهم الرغبة فى رضى الله ورسوله، وأنهم يؤدون ما يجب عليهم بلا سعاة، وإنما يجب بعث السعاة إذا لم يتيسر وصول الصدقة بدونهم.

(ولهم من الصدقة الثلب) المراد بالصدقة الزكاة، والثلب: بمثلثة مكسورة ولام ساكنة وموحدة معناه الجمل المسن الهرم الذى سقطت أسنانه، والأنثى ثلبة فهو مخصوص بالذكر كما قاله الهروى.

(والناب) مثل الثلب معنى، إلا أنه مخصوص بالأنثى فلا يقال للجمل ناب وإن أسن، وإنما سميت ناباً لأنها إذا هرمت طال نابها.

(والفصيل) ولد الناقة الصغير الذى فصل عن رضاع أمه، والفصيلة أنثاه، والجمع فصيل وفصيلان، وقيل: هو من أولاد البقر والمعروف فى اللغة الأول.

(والفارض الداجن) الفارض البقرة الهرمة المسنة، قال الله تعالى: ﴿فَارِضٌ وَلَا يَكُرُّ﴾ [البقرة: ٦٨] وقال الراغب: الفارض المسن من البقر. قيل: سمي لكونه فارضاً للأرض أى قاطعاً، أو فارضاً لما يحمل من الأعمال الشاقة من الفرض وهو القطع. وقيل: بل لأن فريضة البقر تبيع ومسنة، فالتبيع فى حال دون الحال والمسنة يجوز بذلها فى كل حال فسميت المسنة فارضاً، فعلى هذا يكون اسماً إسلامياً انتهى.

والداجن: الشاة التى تكون فى البيت لا ترسل للمرعى، وكذا الراجن بالراء كما فى الصحاح، وعلى هذا فالداجن غير الفارض فينبغى عطفها كغيرها، وهو فى غالب النسخ بغير عطف اللهم إلا أن يقال: ما ذكر معناه الحقيقى، وهى هنا صفة مجردة عن كونها شاة وجعلت وصفاً للفارض. قلت: ضمير لهم السابق لأصحاب المال ومن تؤخذ

منهم الصدقة، والمعنى أن ما ذكر يترك لهم ولا يؤخذ منهم لمقابلته لقوله لنا: والذى يؤخذ فى الصدقة من أوسط مالهم لا أعلاه ولا أدناه، كالصغير جداً والمسن الهرم. فالفارض لما كان بمعنى المسن الذى يؤخذ فى الصدقة، والمراد خلافه هنا، وصفه بقوله الداجن بمعنى الذى يربض حول المنازل فى شدة الهرم، فلا يسرح للمرعى ولا يصلح للعمل والحمل، وهذا هو المراد من غير حاجة لتكلف ودعوى تجريد. وقيل: الفارض المسن من الإبل، وفى بعض النسخ والداجن بالعطف ومعناها شاة صغيرة تربي فى البيت كما وقع فى حديث الإفك.

(والكبش الحورى) الكبش الذكر الكبير من الغنم الذى يقودها غالباً، ولذا أطلق على الرئيس فى المدح بخلاف التيس، والحورى اختلفوا فيه، فقيل: إنه بحاء مهملة وواو مفتوحين وراء مهملة يليها ياء نسبة. وفى النهاية الأثرية: أنه منسوب إلى الحورة وهى جلود تتخذ من الضأن. وقيل: هو ما دبغ من الجلود بغير القرظ، وهو أحد ما جاء على أصله ولم يعل إعلال ناب انتهى. وقال ابن رسلان: الحورى بفتح الحاء وسكون الواو نسبة للهور وهى الجلود المذكورة، والذى فى الصحاح أن الحورة وجمعها الحور بفتح الواو فيهما واقتصر أرباب الحواشى كالشمى والحلبى والقسطلانى على ما فى النهاية، ونقل عن الكاشغرى فى كتابه «مجمع الغرائب ومنبع العجائب»: أن الحورى المكوى نسبة إلى الحوراء، وهى كية مدورة يقال حوره إذا كواه، وأنه على هذا بسكون الواو؛ لأن الحور بالقصر والمد للكية ساكنة الواو. وقال التجانى: الحورى بفتح الواو وضرب من الكباش حمر الجلود، وروى الحوارى بزيادة الألف ومعناه الأبيض لا الأحمر، ولذا قيل: الحواريون لأنصار عيسى، عليه الصلاة والسلام؛ لأنهم كانوا قصارين يبيضون الثياب، ولذا فسر بعض أرباب الحواشى الحورى بغير ألف بالأبيض الجيد لما ذكر، أو لأن موضع الكية يبيض.

أقول: الحاصل أن فى لفظ الحديث وكلام المصنف ثلاثة أوجه، أشهرها: الحورى بفتح الواو. والثانى: الحورى بسكونها. الثالث: الحوارى بألف بعد الواو. وكلها بمعنى، والمراد الكبير من الغنم وهو لا يؤخذ فى الصدقة لكونه أنفسها، ولأنه مما يحتاج إليه للضراب، فلا يؤخذ منه إلا إذا أعطاه، كما لا يؤخذ ما ذكر من الهرم وكل ناقص كما فصل فى كتاب الزكاة، وعلى الأول لم يعل مع تحرك الواو وانفتاح ما قبلها إما على خلاف القياس كما هو ظاهر كلام النهاية السابق، أو تبعاً لفعله وهو حور كفرح، أو لئلا يلتبس الواوى باليائى الذى من مادة الحيرة. وقول التجانى: إنه من الكباش إن لم يقله أحد من أهل اللغة ففيه نظر، لأنه كان ينبغى له أن يقول الكباش التى تتخذ منها

الجلود الحمر، ولبعضهم هنا كلام طويل بلا طائل.

(وعليهم فيها الصالغ والقارج) الصالغ: بصاد مهملة ولام وغين معجمة، ويقال صالغ، فإن كل صاد تبدل سيناً مع الغين كما فصل في محله، وهو من البقر والغنم ما كمل وانتهى سنه في السنة السادسة. وقيل: هو من ذوات الأظلاف كلما أكمل ست سنين ودخل في السابعة. لأن ولد البقر في أول سنة عجل، ثم تبيع، ثم جذع، ثم ثنى، ثم رباع، ثم سدس، ثم صالغ وصالغ سنة وستين. وما وقع هنا في بعض النسخ ضالع بضاد معجمة وعين مهملة تحريف، ونقله عن النهاية وهم.

والقارج: بقاف وراء وحاء مهملتين بعد الألف وهو الفرس الذي دخل في الخامسة. وفي القاموس: القارج من ذى الخافر بمنزلة البازل من الإبل. وقال التحاني: القارج من ذوات الخافر ما أكمل خمس سنين، وهو في السنة الأولى حولي بسكون الواو، ثم جذع، ثم ثنى، ثم رباع، ثم قارج. وفي هذا المكتوب زيادة على ما قاله المصنف رحمه الله تعالى، وروايات أخر منها ما قدمناه، ومعنى قوله: وعليهم إلى آخره، أنه إذا وجد عندهم هذا النوع يؤخذ منه ما ليس هرماً ولا معيباً كما مر، وهذا مبنى على أن الخيل تحب فيها الزكاة إذا كانت سائمة وذكوراً وإناثاً لا صرف ذكور، وإن شاء أعطى عن كل فرس ديناراً أو قومها وأعطى زكاتها إذا حال الحول وتم النصاب. والشافعي يحمله على ما كان معداً للتجارة وأدلتها مبسوطه في كتب الفقه.

(وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم لنهد) نهد قبيلة من اليمن تقدم الكلام عليها، وهذا إشارة لما قاله عليه الصلاة والسلام لطهفة النهدي السابق ذكره، فاللام صلة القول بتنزيل قوله لبعضهم منزلة قوله لكلهم، أو لتنزيل كتابه منزلة خطابه، أو هي للتعليل، وقيل: إنه هنا متعين لأن هذا ليس مقولاً لهم، والمخاطب بهذا الكلام الآتي هو الله تعالى عز وجل لما سأله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يستسقى لهم فدعاهم وقال: (اللهم) أي يا الله (بارك لهم) أي اجعل البركة وزيادة الرزق وثباته مقسوماً وواصباً لهم. قال الإمام الراغب رحمه الله تعالى: أصل البرك صدر البعير وإن استعمل في غيره، وبرك البعير ألقى بركة واعتبر فيه معنى اللزوم، ومنه بروكا الحرب لمكان يلزمه الأبطال، والبركة لمحسب الماء، والبركة ثبوت الخير الإلهي في الشيء، قال الله تعالى: ﴿لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بِبَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: ٩٦] لثبوت خيرها ثبوت الماء في البركة، والبارك ما فيه ذلك الخير، ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يحس على وجه لا يحصى ولا يحصر، قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة مبارك وفيه بركة، وإلى هذه

الزيادة أشير بما روى: «لا ينقص مال من صدقة»<sup>(١)</sup>. لا إلى النقصان المحسوس، كما قال بعض الخاسرين حيث قيل له ذلك بيني وبينك الميزان، وقوله تعالى: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١].

(تنبيه) على ما يفيض علينا بواسطة هذه البروج، والنيرات المذكورة في هذه الآية وكل موضع ذكر فيه تبارك، فهو تنبيه على اختصاصه تعالى بالخيرات المذكورة مع ذكر تبارك، وهو تحقيق لا مزيد عليه، ومنه أخذ صاحب الكشف ما قاله في أول سورة الملك، وقد تقدم أن طهفة وفد من قومه على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهم في قحط شديد أصابهم، فشكى له ما مسهم في كلام ذكرناه أولا فدعا لهم وقال: «اللهم بارك لهم».

(في محضها ومخضها) متعلق ببارك، والمحض بفتح الميم وسكون الحاء المهملة والضاد المعجمة والمخض مثله، إلا أن خاء معجمة، ومعنى الأول الخالص كما مر، ومادته كلها تدل على الخلوص والصفاء، ومنه: «محض الإيمان» في الحديث، ومحضت له الود وعزتي محض ونحوه، والمخض أصله تحريك السقاء الذي فيه اللبن حتى يتميز من زبده فيؤخذ منه، ويسمى اللبن الذي أخذ زبده مخيضا، وهو صفة لا مصدر سمى به كما توههم.

(ومذقها) بفتح الميم وسكون الذال المعجمة والقاف، وأصل معناه الخلط والمزج ثم استعمل في اللبن المخلوط بالماء قال:

جاؤا بمذق هل رأيت الذئب قط

والضمير راجع لأرضهم أو لأنعامهم المذكورة في كلام طهفة السابق الذي شكاه في محل بلادهم، وهلاك دوابهم، فدعا لهم صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله: «اللهم بارك لهم في ألبانهم». بأقسامها ما كان خالصا لم يتميز زبده، وما ميز منه زبده، وما مزج بالماء، ومجموعه كناية عن خصب أرضهم وسعتها، فإن الألبان إنما تكثر بنبات المرعى، وهو إنما يكون بالمطر، فكأنه قال: اللهم اسق بلادهم واجعلها مخضبة مليئة، كما يدل عليه قوله: (وابعث راعيها في الدثر) ابعث بمعنى ارسل، يقال: بعث الله رسوله للناس أي أرسله، والراعي الذي يرعى الإبل وغيرها. والدثر: بفتح الدال المهملة وسكون المثناة والراء المهملة، وهو الإبل الكثيرة ويقع على الواحد فما فوقه، ويجوز فتح ثائه. وقيل: الدثر الخصب وكثرة النبات؛ لأنه من الدثار وهو الغطاء لأنها تغطي وجه الأرض.

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/١٩٣)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/١٠٥).

(وافجر له الثمد) افجر: بضم الجيم من فجر يفجر كقعد يقعد من تفجير الماء، وهو جعله جارياً معيئاً، والتمد: بفتح المثلثة وفتح الميم وقد جوز تسكينها وآخره دال مهملة وهو الماء القليل، وافجر له مجاز عن معاني التكثير للزومه له غالباً، فالمراد: كثر ما قل من مائه، وضمير له للرأعي، وإذا كثر له كثر لغيره.

(وبارك لهم في المال والولد) معطوف على ما قبله أو على بارك الأول، والمال: كل ما يتولد أو يملك، وهو في كلام العرب في الأكثر يختص بالإبل، ويجوز إرادة كل منهما هنا.

(من أقام الصلاة كان مسلماً) أى مسلماً كاملاً كقوله: «المسلم من سلم الناس من يده ولسانه»<sup>(١)</sup>. والمراد أنه يحكم بإسلامه بحسب الظاهر، أو المراد الحث على إقامة الصلاة، والمراد بإقامة الصلاة المداومة والمحافظة عليها كما حقق في الكشف وشروحه. وقيل: إنه على ظاهره؛ لأن من تركها مستحلاً لتركها كفراً، ولأن تاركها كافر في أحد قولي أحمد، أو هو في حكم الكافر لأنه يقتل كما سيأتى بيانه.

(من آتى الزكاة) بعد آتى أى أعطها وأداها (كان محسناً) أى منعماً متفضلاً على الفقراء، وآتياً بأمر حسن مطلوب في الدين.

(ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصاً) أى: من أتى بكلمة التوحيد وأعلن بها فهو مخلص في إيمانه، لأن الظاهر مطابقة قوله لما في قلبه. وهذا من باب حمل أحوال المؤمن على الصلاح، والمراد بالإخلاص عدم النفاق، وقيل: المراد من قال كلمة الشهادة وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله، فهو كما يقال: قرأت حم والكتاب المبين أى السورة بتمامها، وعليه يحمل نظائره الواردة في الأحاديث.

(لكم يا بني نهذ ودائع الشرك) لكم خير مقدم للاهتمام لا للحصص القلبي بناء على ما سيأتى من تفسيره، وجملة النداء معترضة لبيان المخاطب. وودائع الشرك: المراد بها كما في النهاية الغهود والمواثيق التي كانت بينهم وبين من جاورهم من الكفار في المهادنة، يقال: توادع الفريقان إذا أعطى كل واحد منهم الآخر عهداً أن لا يغزوه، ويسمى ذلك العهد ودعياً بغير هاء، فيقال: أعطيته ودعياً أى عهداً. والظاهر: أن المراد عهودهم التي وقعت بينهم بعد الحروب بعدم المؤاخذة بما قتلوا إذا تحاربوا وقتل بعضهم

(١) أخرجه البخارى (٩/١)، ومسلم (٤١/٦٥)، وأبو داود (٢٤٨١)، والترمذى (٢٦٢٧)، والنسائى (١٠٥/٨)، وأحمد (١٦٣/٢)، وأبو داود (٢٠٣، ٢١٢)، والدارمى (٣٠٠/٢)، والبيهقى (١٨٧/١٠)، والحاكم (١٠/١).

بعضاً، وما أراقوا من الدماء هدر كما فى الحديث الآخر: «كل دم فى الجاهلية تحت قدمى هذه». أى متروك هدرًا. وقيل: معناه أنهم كانوا التزموا مهادنة بعض الكفار فغير الإسلام ذلك الحكم، فلو وجب عليهم الوفاء بما التزموا لأمرهم بغزوهم لمن خالف دينهم، فأطلقوا من قيود ما التزموه فى الشرك من ذلك، ولا يخفى بعده وتكلفه، ثم قال فى النهاية: ويجوز أن يراد أن ما استودعوه من أموال الكفار حلال لهم؛ لأنها مال أخذ من الكفار من غير إيجاب خيل وقتال فهو فئ، وهكذا حكم ودائع الكفار فهو جمع ودیعة باهاء على هذا، ولا ينافيه أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما هاجر خلف عليا كرم الله وجهه ليرد ما كان عنده صلى الله تعالى عليه وسلم من الودائع والأمانات، لأنه كان قبل حل الغنائم له، أو لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم فر من نسبته للخيانة وذهاب شهامته وأمانته، فيطعنوا فى الإسلام ويبعدوا من الإيمان.

(ووضائع الملك) الوضائع: جمع وضيعة. بمعنى موضوعة، والملك: بكسر الميم أى ما كان يوضع على الأملاك من الزكاة والصدقة ثابت لكم كسائر المسلمين، يلزمكم ما يلزمهم من الوظائف من غير زيادة ولا نقص، أو الملك بضم الميم والمعنى أن ما كان ملوك الجاهلية يوظفونه على الرعاية ويستأثرون به من غنائم الحروب لا يأخذ منكم، فهو على ظاهرها بتقدير التفسيرين الأخيرين للودائع والوضائع، وبمعنى على كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] على التفسيرين الأولين لهما. وقيل عليه: إن العهد إذا لزم الوفاء به يكون على المعاهد لأنه فرض مطلوب، وعهود مهادنتهم قبل الإسلام لا يجب الوفاء بها بعد الإسلام، والقائل ظن وجوب الوفاء بها فحمل اللام على ما حملة وليس كذلك كما مر، لأن عهد الكافر لا يعتد به. وأما الوضائع بمعنى تكاليف الزكاة فهى وإن ثقلت على بعضهم فهم باعتبار الأجر عليها، وقد علمت أن هذا مبنى على تفسيره وليس بمتعين كما مر مع ما فيه.

(لا تلطط فى الزكاة) تلطط: بضم التاء المثناة وسكون اللام وكسر الطاء المهملة الأولى وحزم الطاء المهملة الثانية بلا الناهية، وفى الزكاة متعلقة به أى لا تمنعها. قال ابن الأعرابى: لط الغريم إذا منع حقه، وأصله من لطت الناقة فرجها بذنبها إذا ضمته وقد أرادها الفحل. وفى شعر الأعشى الحرمارى فى امرأته وقد نشزت:

أخلفت الوعد ولطت بالذنب وهن شر غالب لمن غلب

ولط الغريم إذا اختفى.

(ولا تلحد فى الحياة) هو مضبوط بضم التاء المثناة أوله ولام ساكنة تليها حاء مهملة

مكسورة ودال مهملة مجزومة، من أُلحِد إلحَادًا إذا جار وعدل عن الحق، وأصله مطلق العدول، ويقال: أُلحِد ولحِد قليلًا، والذي في الشفاء هو الذي رواه القتيبي بالفعل والخطاب الواحد. والذي رواه غيره: «ما لم يكن عهد ولا موعد، ولا تناقل في الصلاة، ولا تلطط في الزكاة، ولا تلحد في الحياة» بالاسم المصدر وتشديد عين الآخرين وهو الوجه؛ لأنه خطاب للجماعة واقع على ما قبله، وكذا في النهاية الأثرية، يعنى أن هذه الرواية بلفظ المصدر من التفاعل والتفعل هو الوجه الواضح؛ لأنه كلام خوطب به جماعة في قوله: «يا بني نهد» وهذا جار على غير أسلوبه لوجه الخطاب لواحد من بينهم، وإن كان ما قبله مشتعلًا على ضمير الجماعة المخاطبين دونه، وقد جاء التلطط بمعنى الإلطاط المتقدم يقال: تلطط وألطط وألطي، بإبدال الأخيرة بالتخفيف. وقال ابن رسلان: لا تلطط أو تلحد بالنون، من باب نهى الإنسان نفسه لينتهى غيره. قيل: ولا ضمير في رواية القتيبي إذ الخطاب فيها لمن تلقى الكلام له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من بين جمع ما خوطبوا ابتداءً، أو نظيره في أفصح الكلام ثم عفونا عنكم من بعد ذلك حيث خوطب من يتلقى الكلام بلفظ ذلك، ولم يقل ذلكم، وتخصيص واحد من الحاضرين بخطاب النهي للتعريض بالباقيين، والصون لهم عن توجه صيغة النهي إليهم رجاء الانقياد للامثال بالطف وجهه، ويحتمل أن الخطاب لهم برمتهم أولاً ثم توجه لواحد في المجلس خارج عنهم فنهأ تعريضاً بهم، أو نهأهم نهى غنية لتنزيلهم منزلة الغائبين عند توجيهه إلى غيرهم، ولم يقل: لا يلطوا ويلحدوا بلفظ جماعة الذكور الغائبين، بل لا تلطط وتلحد، أى هى والضمير لبني نهد وبنون، وإن كان جمع مذكر سالم ومثله لا يعود له ضمير المؤنث ولا تلحقه التاء، فلا يقال: الزيدون قامت ولا قامت الزيدون ولا العمرون تقعد، بخلاف قامت الرجال والرجال تقوم بتاء التأنيث، إلا أنه لما غير مفردة عند جمعه أشبه جمع التكسير فأعطى حكمه، فجاء إلحاق التاء بفعله نحو قامت البنون، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] فصار ذلك داعياً إلى جواز البنون قامت وتقوم، ونحوه بتاء التأنيث، وذهب بعض النحاة إلى أنه جمع تكسير بدليل جواز إلحاق التاء. قال في ضوء الذبالة: هذا مذهب غريب ورأى غير مصيب. قلت: المخطئ مخطئ، وهذه المسئلة مذكورة في شروح كتاب سيبويه، والذي قال إنه قول غريب ارتضاه ابن خروف، ولولا خوف الملل فصلناه. وقيل عليه: إن قياس الضمير على حرف الخطاب المتصل باسم الإشارة لا وجه له للفرق بينهما، وما في الحديث يوجه بأنه خاطب القوم أولاً بقوله: «يا بني نهد»، وعلم أن فيهم واحداً متبعاً لهوى نفسه فخصه من بينهم بالخطاب بما يليق به، أو جعله تعريضاً



لباقىهم لئلا تثقل عليهم المواجهة بالنصيحة.

ونقل عن ابن الباذش أن الخطاب المفرد بعد الجمع له تأويلان، إما تخصيص واحد من بينهم أو تأويله بمفرد لفظاً مجموع معنى كالفرق، وجوز فيه أن يكون التفاضل وأتى بما لا يسمن ولا يغنى من جوع على عادته فى التطويل الممل من غير فائدة. وأنا أقول: هذا كله مبنى على قاعدة ذكرها النحاة كما فى شرح الكافية للرضى، وهى أنه لا يكون فى كلام واحد خطاباً لمخاطبين متغايرين من غير عطف ولا جمع تثنية، وهذه القاعدة ذكرت فى باب الإشارة وقد تتبعت كلامهم فرأيتها مقيدة بأربعة قيود:

الأول: أن يكون فى جملة واحدة، فلو قلت: عانت يا زيد تضرب عانت يا عمر وتشتم لم يمتنع.

الثانى: أن لا يتغايرا، فلو كان أحدهما غير الآخر جاز نحو: اذكر إذ قال ربك كما قدره المفسرون فى مثله وغفل عنه بعضهم. فاعترض بما لا محصل له.

الثالث: أن لا يكون أحدهما بعض من الآخر نحو: رأيكما كما ذكره النحاة فى أفعال القلوب، وصرح به المرزوقى رحمه الله تعالى فى قوله:

اجدوا قومها لكم يا جرول

فقال: جرول اسم رجل جعل أول الكلام خطاباً لجماعتهم، ثم خص بالنداء واحداً منهم جعله المأمور بما أراد كقول الهذلى:

أحيى إياكن يا لىلى الأمادىح

فقال: إياكن، ثم قال: يا لىلى. انتهى.

الرابع: أن يبقى الخطاب على حقيقته كما ذكره الرضى فى باب التعجب، وقد بسطنا الكلام على هذه المسئلة فى كتاب طراز المجالس، وللمعترض والمجيب خبط هنا خبط عشواء، فإن هذا التركيب صحيح من وجهين؛ لكونه بعضاً فى جملة أخرى فاحفظه فإنه من نفائس الذخائر، ثم إنه ذكر فى إعراب قوله فى الرواية السابقة ولا موعد كلام يقتضى منه العجب، وأجاب عنه تلميذه بأعجب وأعجب، إلا أن المصنف رحمه الله كفانا مؤنته؛ لأنه لم يذكره فلذا أضربنا عنه، فإن أردت فانظره. وقوله فى الحياة أى لا تلحد ما دمت حيا.

(ولا تشاغل عن الصلاة) بجزم اللام والكلام فيه كالذى قبله، أى لا تتوانى وتكسل عن الصلاة وتتركها، والتشاغل يجعل كناية كأن عليه ثقلاً يمنعه عن الحركة إليها.

(وكتب لهم فى الوظيفة) أى أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يكتب لهم كتاب

يبين فيه ما يلزمهم بعد الإسلام والوفاء بأركانهم. وضمير لهم لبنى نهد وهو متعلق بكتب، والوظيفة: بالظاء المشالة والفاء بزنة سفينة وهي المعين في كل يوم، أو في زمان معين من الطعام وغيره من الرزق، ويطلق على العهد والشرط وجمعه وظائف ووظف بضمين كسفن كما قاله أهل اللغة، والمراد الأخير، أى كتب فى العهد وما شرط عليهم فى الزكاة لهم فيما يؤخذ منهم من الوظائف المرتبة عليهم.

(الفريضة) أى ما فرض عليهم ففريضة بمعنى مفروضة، فإن كانت الفريضة بمعنى الهرمة المسنة كالفارض لفرضها سنهًا، أى قطعها له أو لانقطاعها عن العمل والانتفاع بها، فهي غير مرادة لأنه روى: «عليكم فى الوظيفة» أى فى كل نصاب ما فرض فيه، وهذه الرواية مفسرة للمراد به، ولأن قوله (ولكم الفارض) يأباه لما بينهما من التدافع غاية ما فيه إطلاق الوظيفة على النصاب، لأنه وظيفة لأصحاب الأرزاق مقدراً لهم كوظيفة الأرض المعينة التى وضعها عمر رضى الله عنه كما ذكر فى باب الوظائف، فلا تجوز فيه كما توهم.

والفارض: بالفاء كما ضبطه البرهان الحلبي وقد تقدم تفسيرها، ويؤيده ما فى الحديث الآخر: «ولكم الفارض والفريض» يعنى لا يؤخذ منكم ولا يكون على الأنصاء لأنه لا تصح به الزكاة، وضبطه التجانى بالعين المهملة بدل الفاء، وقال: العارض المريضة التى أصابها كسر وهى لا تقبل فى الصدقة فهى باقية لأصحابها. وفى مزيل الخفاء أنه وقع فى بعض النسخ بالعين المهملة، وهى الناقة التى يصيبها كسر أو مرض فتنحر، وفى العزيز فى بعض نسخه الفارض بالفاء وقيل: بالعين التى أصابها كسر ولم يتعرض لمرضها، يقال: عرضت الناقة إذا أصابها آفة أو كسر، وبنو فلان أكالون للعوارض إلا إذا لم ينحروا إلا ما أصابه مرض أو كسر خوفاً أن يموت فلا ينتفعون به. والعرب تعير بأكله. قلت: كأنه سقط من عبارة التجانى لفظ أو عد الكسر مرضاً، وفى الشرح خلط هنا لم نسود به وجه الطرس.

(والفريش) بفتح الفاء وكسر الراء المهملة والمثناة التحتية الساكنة والشين المعجمة الحديث العهد بالنتاج كالنفساء من النساء، وحكى أنه مالا يطيق حمل الانتقال من الإبل لصغره، كما حكى أنه يقال: فرش وفريش بمعنى، وإن كان المشهور فيه الفرش كما فى الآية: ﴿وَمِنْ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢] وقيل: الفرش ما انبسط على وجه الأرض من النبات وهو بعيد هنا، يعنى أن هذه كلها لا تؤخذ فى الزكاة، أما على الأولى فلأنها لبون نفيسة، وأما على الثانى فلخستها.

(وذو العنان الركوب) العنان بكسر العين ونونين بينهما ألف، والركوب بفتح الراء

هو المركوب الذلول، قال الله تعالى: ﴿فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ﴾ [يس: ٧٢] ووصفه بذى العنان فى محله، يعنى لا يؤخذ الزكاة من الفرس المعد لركوب صاحبه فلا يؤخذ فى الزكاة، وإن قلنا بزكاة الخيل، وكذا الصغير لأنه ليس من أوسطها، والركوب بالرفع صفة ذو، وروى بالجر صفة العنان.

(والفلو) بفتح الفاء وضم اللام وتشديد الواو المهر الصغير من الخيل لا يؤخذ فى الزكاة، وسمى فلو لأنه يفلى من أمه أى يقطع بالفطام عنها. قال الجوهري: يقال فلوته إذا فطمته. وعن أبى زيد: إذا فتحت الفاء شددت الواو، وإذا كسرتها خففت فقلت فلو كجرو. وفى القاموس إنه يقال: كجرو، وعد، وسمو. وقال: إنه الجحش والمهر. وقيل: صغار أولاد ذوات الحافر مطلقاً، وروى الفلو بدون واو عطف والأول أصح.

(الضيس) بفتح الضاد المعجمة، ووهم من قال: المهملة، والموحدة المكسورة والمثناة التحتية والسين المهملة، أى المهر العسر الركوب الصعب، وهو من الرجال كذلك، وكأنه كنى به عن صغره، ولو عطف كان المراد به الحرون إلا أنه وقع بلا عاطفة.

(لا يمنع) بالبناء للمفعول (سرحكم) بإهمال السين المفتوحة وسكون الراء المهملة والحاء المهملة، وهى الماشية التى تسرح بالغداة للمرعى، والمراد أن مطلق الماشية لا تمنع عن مرعاها، يقال: سرحت الماشية تسرح إذا خرجت للمرعى، وفعله يتعدى ولا يتعدى، فإذا رجعت قيل: أراحت، قال الله تعالى: ﴿حَيْثُ تَرِيْحُونَ وَحِينَ تَرْجِعُونَ﴾ [النحل: ٦]، وهذا كما قال فى كتاب أكيدر: «لا تعدل سارحتكم وفاردتكم من مرعى» إلا أنه عبر بالسارحة لمشاكلة الفاردة كما عبر هنا بالسرح لمشاكله قوله:

(ولا يعضد طلحكم) يعضد بمعجمة بين مهملتين بمعنى يقطع، يقال: عضده عضداً إذا قطعه، والطلح بفتح الطاء المهملة وسكون اللام والحاء المهملة شجر عظام يقال له: العضاة، وأم غيلان، وكل شجر عظيم له شوك يقال له عضه، والطلح فى قوله تعالى: ﴿وَطَلِحَ مَنُضُورٌ﴾ [الواقعة: ٢٩] قيل: هو الطلح. وقيل: شجرة الموز. والمراد: لا يقطع لكم شجر طلحاً كان أو غيره، وخصه لأنه لا ثمر له فإذا منع قطعه علم عدم قطع غيره بالطريق الأولى.

(ولا يحبس دركم) بفتح الدال وتشديد الراء المهملتين، وأصل معناه اللبن. والمراد به هنا الأنعام ذوات الدر لا تحبس عن المرعى فى مكان يجتمع فيه ليعدها من يأخذ الصدقة، لما فيه من ضرر صاحبها بعدم رعيها ومنع درها عنه. وروى: «لا يحشر دركم» أى: لا يجتمع فى مكان عند المصدق وهما بمعنى لما مر من الضرر. وما قيل من أن ما

رواه المصنف لا يختص بالحبس عن المرعى لشموله لحبسها عند صاحبها على وجه يمنعها من المرعى، وحبسها عند المصدق ليعدها عليه مع مخالفته لكلامهم وللسياق لا طائل تحته. وكذا ما قيل إن معناه لا يؤخذ الدر نفسه إلا أن يكون منحة، وكل هذا مناف للغرض، وقد ورد فى صلح أهل نجران: «لا تحشروا ولا تعشروا»، ومقصوده، صلى الله تعالى عليه وسلم، الرفق بمن يؤخذ منهم الزكاة فيؤتى لمنازلهم من غير سوق لمواشيهم وحبس لها.

(ما لم تضمروا الرماق) تضمروا بمعنى تخفوا أو تكتموا، الرماق: بكسر الراء المهملة وميم وألف وقاف وهو النفاق. يقال: رامقته رماقا وهو النظر الشر من العدو، والمعنى ما لم تضق قلوبكم عن الحق، يقال: عيش رماق أى ضيق يحسك الرمق وهو بقية الروح وآخر النفس كما قاله ابن الأثير.

(وتأكلوا الرباق) بكسر الراء المهملة والموحدة والقاف، وقال الشمنى: جمع ربة وهى حبل فيه عرى يشد به للبهائم، وفى الحديث: «خلع ربة الإسلام من عنقه»<sup>(١)</sup> قال ابن الأثير: شبه ما يلزم من العهد بالرباق واستعار الأكل لنقضه، فإن البهيمة إذا أكلت الربق خلصت من الشدة وما مصدرية ظرفية، وهو إما قيد لما قبله أو لجميع ما تقدم، والمعنى أن هذا أمر مقرر عليكم منا ما لم تنقضوا العهد وترجعوا عن الإسلام، فإذا كان كذلك فعليكم ما على غيركم من الكفرة، وهذا معنى لا غبار عليه، والترتيب فى محزه؛ لأن المعنى ما لم تضمروا النفاق ثم تظهروا نقض العهد، وقريب منه تفسيره بالغدر والنكث والعداوة فإنها إذا ضمرت كانت نفاقاً، وأما تفسير إضممار الرباق بإخفاء قطع من الغنم يعنى عن المصدق، فإنه خيانة يقتضى تضيق المصدق عليهم بحشر أنعام درهم وحبسها، فهو على هذا متعلق بقوله: «لا يحبس دركم» وهذا معنى صحيح موافق للغة، لأن الرمق القطيع من الغنم فارسى معرب كما قاله الجوهرى، إلا أن المشهور المأثور فى تفسير الحديث ما تقدم، فاعترض البرهان عليه بأنه لم ينظره فى غير الصحاح، وأخشى أن يكون أحد قاله قبله بما لا يليق ذكره، وكذا القول بأن النفاق إضممار للغدر مع إظهار خلافه، فتفسيره غير مستقيم ليس بشيء، وكذا تفسير الرباق بالموحدة بالغنم مجازاً لعلاقة المجاورة فكله بعيد بمراحل عن المرام، وفى الكلام استعارة تمثيلية أو تصريحية، والمراد بالعهد التزام أوامر الله ورسوله ونواهيه، وفى الشرح الجديد قال البرهان عن المعلق: إن الرباق مجاز عن الغنم، ولا أدرى من هذا المعلق، وعلى هذا التقدير معناه ما لم تأكلوا الغنم ولا معنى لهذه الظرفية حيثئذ، إذ يؤل إلى أدوا زكاتكم ما

(١) جزء من حديث تقدم تخريجه.

لم تأكلوا الغنم، ومثله سمح لا يليق بحديث الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم المسوق لبيان فصاحته عليه الصلاة والسلام. وفى الحواشى التلمسانية: تضمروا الإماق بهزمة مكسورة وميم ساكنة وهزمة ممدودة يليها قاف بزنة الإكرام، ومعناه الغدر والبغض، يقال: إماق يميح رباعيا وقد يخف همزته، هكذا ثبت عند العزفى. وفى بعض نسخ الشفاء: الرماق بكسر الراء والميم بعدها وهو بخط القاضى رحمه الله تعالى انتهى. والشرح وأرباب الحواشى متفقون على الرواية الثانية.

(من أقر فله الوفاء بالعهد والذمة) ال فى العهد للعهد، فالمراد ما عرف من عهود الإسلام أو ما عاهدهم الله ورسوله فيما كتب لهم، والذمة قال البرهان الحلبي: بمعنى العهد والأمان والضمان والحرمة والحق، والمراد الأولان، وسميت الذمة ذمة لأن تركها يوجب الذم، ثم سمي محل الالتزام بها فى قول الفقهاء ثبت فى ذمته كذا، ومن الفقهاء من قال إنها معنى يصير به الآدمى على الخصوص أهلاً لوجوب الحقوق له وعليه، كما قاله تاج الشريعة فى شرح الهداية. وقال القرافى رحمه الله فى قواعده: لم يعرف أكثر الفقهاء معناها المستعملة فيه وحقيقتها، حتى ظنوا أنها أهلية المعاملة أو صحة التصرف وليس كذلك، لأن كلا منهما يوجد بدون الآخر وهى عبارة عن معنى مقدر فى المكلف قابلة للالتزام، واللزوم مسبب عن أشياء خاصة فى الشرع وهى البلوغ والرشد وعدم الحجر، وهى من خطاب الوضع انتهى. وسمى أهل الذمة بذلك لدخولهم فى عهد المسلمين وأمانتهم، والمراد: أن من اعترف وصدق بما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فله الوفاء بالعهد والذمة.

(ومن أبى) أى امتنع من قبول العهد أو نقضه بعد قبوله ودخوله فيه من منع الزكاة (فعليه الربوة) والربوة بثلاث الراء المهملة وسكون الباء الموحدة والواو والهاء كما فى القاموس، فلاقتصار على بعضها تقصير وهى الزيادة، ومنه الربا لأخذه زيادة على ما أعطاه، وفسرت الربوة بأن يؤخذ منه زيادة على فريضة الزكاة عقوبة له، وروى: «من أقر بالجزية فعليه الربوة»<sup>(١)</sup> أى من امتنع عن الإسلام لأجل الزكاة كان عليه من الجزية أكثر مما يجب عليه بالزكاة، قاله ابن الأثير. وقال التجانى: عنى صلى الله تعالى عليه وسلم أن من أبى من أداء الزكاة أخذ منه الفرض وزيد عليه مثله، كما فى حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه الصحيح: أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ندب الناس إلى الصدقة، فقيل له: منعها خالد بن الوليد وفلان وفلان، فقال: «أما خالد فالتاس يظلمونه لأنه احتبس أذراعه وأعدها فى سبيل الله، وأما فلان فلم ينقم منا إلا إن

كان فقيراً فأغناه الله ورسوله، وأما فلان فإنها عليه ومثلها معها»<sup>(١)</sup> وروى: «إنها عليه صدقة ومثلها معها» وفي رواية البخارى: «أن عليه صدقة واجبة تؤخذ منه» وليس معناه أنه يعطاها ويعطى مثلها معها، لأن المذكور من أهل البيت لا تحل له الصدقة، وذهب أبو عبيد في معنى هذا الحديث إلى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إنما ألزمه إياها ومثلها معها؛ لأنه كان قد أخر عنه صدقة العام الماضى ومثله جائز للإمام إذا علم حاجته وفقره، ولكن ظاهر الحديث يخالفه لأنه فى معرض العقوبة والجزاء، فلو كان كذلك لمن يكن فيه ردع له انتهى. وفى رواية البخارى احتمال أنها كانت قبل تحريم الصدقة على أهل البيت كما فى بعض شروح مسلم.

واعلم أنه، أى التجانى، لم ينقل الحديث على وجهه، فإنه هكذا فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال: بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عمر رضى الله تعالى عنه على الصدقة، فقيل: منع ابن جميل وخالد بن الوليد والعباس، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «ما ينقم ابن جميل إلا إن كان فقيراً فأغناه الله تعالى، وأما خالد فإنكم تظلمونه وقد احتبس أذراعه فى سبيل الله، وأما العباس فهو على ومثلها، أما تعرف أن عم الرجل صنو أبيه»<sup>(٢)</sup>. وفى رواية البخارى: «فهى عليه صدقة ومثلها معها». وفى رواية: لم يقل صدقة ففیه ثلاث روايات، ومعنى الأولى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، التزم بإخراج ذلك عنه وبين سببه بقوله: «عم الرجل» إلخ تشريفاً له، ويحتمل أنه صلى الله تعالى عليه وسلم تحملها عنه لتعلق الزكاة. وجمع ابن الجوزى بين رواية على وعليه بأنهما بمعنى، وزيد فى الثانية هاء السكت فى على. وقيل: معنى على أنها عندى لأنى أخذت منه صدقة عامين. وقد ورد مصرحاً به فى رواية أخرى بناء على جواز تعجيل الزكاة. وفى الحديث وجوه أخر فى شروح الصحيحين لا حاجة لنا بها هنا، ومن هذا علمت ما فى قوله، لكن ظاهر الحديث يخالفه؛ لأنه ورد فى معرض العقوبة إلى آخره، فإنه لا زجر فيه إلا لابن جميل لا للمقول فى حقه فهى عليه ومثلها كما سمعته آنفاً.

(ومن كتابه صلى الله تعالى عليه وسلم لوائل بن حجر) تقدم الكلام عليه (إلى الأقيال العبايلة) أى الملوك القار ملكهم، وقد تقدم تفسيره وبيان لغته وضبطه.

(والأرواع) بهمزة وراء مهملة وواو بعدها ألف وعين مهملة، وهم السادة الزهر

(١) أخرجه أحمد (٣٢٢/٢)، والبيهقى (١١١/٤).

(٢) أخرجه مسلم (٩٨٣/١١)، وأبو داود (١٦٢٣)، والنسائى (٣٣/٥)، وابن خزيمة (٢٣٣٠)،

والدارقطنى (١٢٣/٢)، والبيهقى (١١١/٤).

الألوان الحسان الوجوه، وقيل: إنه جمع رائع وهم الذين يروعون الناس أى يخوفونهم بمنظرهم لجمالهم وهياتهم قاله ابن الأثير. قيل: والأول أولى وجمع فاعل على أفعال نادر جدًا.

أقول: ما قاله ابن الأثير هو الذى ارتضاه المبرد فى الكامل لما فيه من البلاغة، فإن الحسن الزائد إذا رآه من له إدراك أدهشه وحيره فيشبه الخائف الفزع، ومن وقف على كلام المبرد عرف حسنه، وقيل: إنما كان هذا غير موجه؛ لأن الهيئة التى كانت لهم هيئة تحبير وظلم أزالها الإسلام، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم إنما أراد مدحهم بالحلم والرافة وليس بشىء.

(الشايب) بفتح الميم والشين المعجمة بعدها ألف ثم موحدتين بينهما مثناة تحتية جمع مشبوب وهو الحسن الأزهر اللون، قال ذو الرمة<sup>(١)</sup>:

إذا الأروع المشبوب أضحى كأنه على الرحل مما مسه السير أححق

والمراد: السيد الظاهر الأزهر الملون المنير، كأنه أوقد فى وجهه سراج منير، وهو يجمع مع الأرواع فى كلامهم كما فى البيت، فإن النار مما تروع ناظره، وروى: «الأشياء» بزنة الأخلاء جمع شبيب كخليل، وقيل: هم الرجال الذين وجوههم بيض وشعورهم سود، فهذا كما يقال للحسناء ذات النوائب المسود شعرها يشب لونها أى يظهره ويحسنه، وقيل: المراد الأذكاء. (وفيه) أى فى كتابه صلى الله تعالى عليه وسلم لوائل.

(فى التبعة شاة) التبعة بكسر التاء الفوقية وسكون المثناة التحتية والعين المهملة الأربعون من الغنم، وقيل: الخمس من الإبل، وقيل: هى أدنى ما تجب فيه الصدقة من الغنم والإبل، وهو المقدار المذكور، وقيل: هى ما يأخذه الساعى من الزكاة وهو غير مناسب هنا، وهو من التبع وهو الفىء، وقد وقع التشبيه به فى حديث.

(الراجع فى هبة كالراجع فى قيته) ويقال: تاع قيته وأتاع، ويقال: تاع بمعنى ذهب، قيل: وجه المناسبة سرعة المبادرة عليها كسرعة القىء، أو لذهاب الساعى إليها، والأحسن أن يقال: إنها فضلة ووسخ يستريح بدفعها لأن الصدقة أوساخ الناس، كما ورد فى الحديث، ولذا منع أهل البيت منها لشرفهم.

(لا مقورة الألياط) مقورة مميم مضمومة وقاف ساكنة وواو مفتوحة مخففة وراء

(١) البيت من الطويل، وهو فى ديوان ذى الرمة (ص ٤٨٤)، لسان العرب (١/٤٨١)، ديوان الأدب (١١٦/٣)، تاج العروس (٩٨/٣).

مهملة مشددة من الأقوال، كمحمرة من الاحمرار، وهى المسترخية الجلد من الهزال فلا تؤخذ فى الصدقة لرداءتها، وقيل: هى المتشجة من الهزال أيضا. وقيل: هى السمينة فهى من الأضداد كما ذكره الصاغانى فى كتاب الأضداد، وهذه لا تؤخذ لأنها أعلى والمأمور بأخذه الوسط، وفى بعض النسخ مقورطة مفوعة قال التلمسانى: قال ابن سيدى الحسن: ولا أعلم الآن معناه ولعله مصحف مقربة، يقال: أقرط الجلد انضم بعضه لبعض مقربة وهو بمعناه، والألياط بلام وياء مثناة تحتية وطاء مهملة جمع ليط بكسر اللام وهو قشر العود، فاستعير للجلد من لاطه يلوطه إذا ألصقه. وقيل: المقورة المقطوعة والمعنى بها الناقصة فالتفاسير متقاربة.

(ولا ضنناك) بفتح الضاد المعجمة وكسرها. قال التجانى: يجوز ضمها وخطئ فيه لأنه بمعنى الزكام ولا مناسبة له هنا، وفى ضبطه نظر لما فى العباب للصاغانى: الضناك بالفتح، قاله الفارابى. وقال غيره. هو بالكسر وهو الصواب، وهى الكثيرة اللحم السمينة فلا تؤخذ لجودتها.

(وأنطوا الشجة) إنطاء بمعنى إعطاء لغة لأهل اليمن ولبنى سعد، وروى فى الدعاء: «لا مانع لما أنطيت» وقرئ شاداً: «أنا أنطيناك»، والشجة بالمثلثة والموحدة والجيم المفتوحات والهاء بمعنى الوسط والهاء للنقل من الإسمية للوصفية، وقال التجانى: إن الباء الموحدة مكسورة ومنه ثبج البحر لوسطه، وفى الحديث «خيار أمتى أولها وآخرها، وبين ذلك ثبج» والمقصود أنه لا يؤخذ فى الزكاة الأعلى لإضراره برب المال إلا أن يكون برضى منه، ولا الأدنى ولا المغيب إلا أن يكون الكل كذلك؛ لأن الجود بالوجود وتفصيله فى كتب الفقه. قال البرهان: وفى بعض النسخ بكسر الباء وتشديد الجيم وفيه نظر، وقال التلمسانى رحمه الله تعالى: وروى الشبجة بالشين والجيم من شبج سار بشدة وارد إعطاء القوى للضعيف فتأمله.

(وفى السيوب الخمس) السيوب بضم السين المهملة والمثناة التحتية وواو وباء موحدة جمع سيب، وهو الركاز بمهملة وكاف وزاى معجمة بزنة كتاب، بمعنى مركزز وهو المال المدفون الجاهلى، من ركز الرمح إذا غرزه فى الأرض وأقره، أو من الركز وهو الإخفاء، قال الله تعالى: ﴿تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨] أى صوتاً خفياً، وسمى سيباً لأنه عطية من الله تعالى. وقيل: هو الذهب والفضة المعدنى من تسيب بمعنى تكون من غير صاحب له فكأنه مسيب، والخمس بضمتين وضم فسكون، ويقال له، خميس، ومنه اسم الجيش لكونه خمسة أقسام: ميمنة، وميسرة، ومقدمة، وساقة، وقلب، وقوله فى



الحديث: «المعدن جبار وفى الركاز الخمس»<sup>(١)</sup> يدل على أن الركاز غير المعدن، واتفقوا على وجوب الخمس فى الركاز إلا الحسن البصرى رحمه الله، فقال: إن وجد فى دار الحرب ففيه الخمس وفى غيره الزكاة، ولا فرق فيه بين التقدين وغيرهما، والقليل والكثير، ولا يشترط الحول كالزكاة. وعند الشافعى: إن كان وجدته فى ملكه فهو له إن ادعاه وإلا فهو لقطه.

(ومن زنا مم بكر فاصقعوه مائة) قوله: «مم بكر»، وما يأتى من قوله: «مم ثيب»، أصله كما فى النهاية من بكر ومن ثيب فقلبت النون ميما؛ لأنها إذا سكنت قبل الباء تقلب ميما سواء كان من كلمة نحو عنبر، أو من كلمتين نحو من بكر، وتقدم أن لام التعريف تبدل ميما فى لغة حمير نحو: ليس من أم برام صيام فى أم سفر، فإما أن يكون ما نحن فيه الثانى فأصله من البكر، فحذفت نون من على حد قولهم فى بنى الحارث بلحارث فيكون بكر حينئذ غير منون، واستعمل البكر موضع الأبكار والأشبه أن يكون نكرة منونة وأبدلت نون من ميما انتهى. وقيل عليه: إن كون بمعنى أبكار لأجل من التبعية، فتقديره من زنى ببكر من الأبكار، ويجوز أن يكون لبيان الجنس ببكر على أصلها، وهو على هذا يحتمل أن يكون بمعنى الأبكار لما فى من من العموم، ثم إنه إذا قلب النون ميما على نهج الانقلاب التجويدى لا يتأتى فى قوله مم ثيب، فلذا قال فى مزيل الخفاء: إنه من باب الازدواج والمساكلة، كما فى قولهم: ما قدم وحدث بضمهما مع أن حدث بالفتح، فإن قلنا: إنه إنما قيل مم بكر بقلب النون ميما؛ لأنها تعاقبها كثيراً كما فى قولهم بنان وبنام ودان ودام كما قاله التجانى، لم يحتج لما ذكر، وقوله فاصقعوه بهمزة وصل ثم صاد مهملة ساكنة ثم قاف مفتوحة ثم عين مضمومة مهملة، أى فاضربوه، ويقال: اسقعوه، بالسين أيضاً من الصقع وهو الضرب، وأصله الضرب على الرأس، وقيل: هو الضرب بيطن الكف، وضبطه بعض الشراح فاصقعوه بالفاء بدل القاف كما نقله التلمسانى، يقال: صفعت فلانا أصفعه صفعاً إذا ضربت قفاه بجمع كفى، ورجل مصفعانى يفعل به ذلك، والعامية تقول لمن سرقت عمامته: إنه صفع، وهى استعارة عامية ركيكة، كما قال ابن نباتة رحمه الله:

أسفت لشاشى الذى قد مضى      وفاز به سارق حاشه  
ووالله ما بى مما جرى      سوى قولهم صفعوا شاشه

وتطفل عليه الصفدى رحمه الله تعالى على عادته فقال:

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٢٨، ٢٥٤، ٢٧٤، ٢٨٥، ٣١٩، ٣٨٢، ٤٥٤، ٤٦٧، ٥٠١)، والحميدى (١٠٧٩)، والطبرانى فى الكبير (١٠/١٠٧)، والدارقطنى (٣/١٥٣، ١٥٤).

قد سرق الشاش بلىل وما قدره الله فما يندفع  
الحمد لله الذى لم يكن شاشى على رأسى لما صفع

والمراد هنا حد الجلد، والمراد بالبكر غير المحصنات كما بين فى الحدود.

(واستوفضوه عاماً) بهمزة وصل وسين مهملة ساكنة ومثناة فوقية وواو وفاء وضاد معجمة ثم واو ساكنة، وهاء الضمير. بمعنى انفوه وغربوه من فوضت الإبل إذا تفرقت، والعام والسنة. بمعنى هنا، وإن كان الإمام السهلى فرق بينهما فى الروض الأنف باعتبار أصل الوضع، فإن السنة من دور الشمس إلى عودها لمحها لأنها من سنى. بمعنى دار، ومنه السانية، والعام ما اشتمل على الفصول الأربعة بتمامها.

(ومن زنا مم ثيب) أى محصنة وتقدم ما فيه (فضرجهوه بالأضاميم) ضرجهوه بضاد معجمة مفتوحة وراء مهملة مكسورة مشددة وجيم مضمومة من التضريح وهو التدمية، أى ارجموه حتى يسيل دمه ويقتل. قال: إن بنى ضرجونى بالدم. والأضاميم بفتح الهمزة والضاد المعجمة وميمين أولاهما مكسورة بينهما ياء مثناة ساكنة الحجارة، واحدها إضمامة بكسر الهمزة أو أضمووم بضمها كأقنوم، سميت بها لأنه يضم بعضها لبعض ويطلق على كل مجتمع من الناس وغيرهم، والمراد: الرجم الذى هو حد المحصن كما فصل فى كتب الفقه، واختلافهم فى كون التغريب من الحد أم لا مشهور فى الفروع شهرته تغنى عن ذكره.

(ولا توصيم فى الدين) توصيم تفعيل من الوصم بالصاد المهملة وهو العيب والعار، أى: لا كبير ولا عيب ولا عار ولا كسل فى إقامة حدود الله فلا تحابوا فيها، وهذا فى معنى قوله: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢] ولذا حرم الفقهاء الشفاعة فى الحدود دون التعزير.

(ولا غمة فى فرائض الله) الغمة بضم الغين المعجمة وتشديد الميم، أى لا يخفى وتستتر فرائضه تعالى؛ بل تظهر ويجهر بها إقامة وإظهاراً لشعائر الدين، وهذا يقتضى أن إظهار الفرائض أكمل، فينبغى إظهار أداء الزكاة دون إخفائها، فقوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا آلُفْقَرَةً فَهِيَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١] محمول على صدقة التطوع، فإن الأفضل إخفاؤها، وقيل: إنه شامل للزكاة، وقد يستحب إخفاؤها إذا خاف الرياء ونحوه، وقيل: إنه يختلف باختلاف الأحوال والزمان، ولو قيل: إن المراد هنا أن الحرام بين والحلال بين لم يحتاج للتقييد، ويؤيده أنه روى هذا لا عمه بفتح العين المهملة والميم المخففة والهاء أى لا حيرة ولا تردد فيها، وروى لا

غمد بكسر الغين المعجمة وسكون الميم والبدال المهملة ومعناها لا ستر ولا خفاء  
كتغمدنا الله برحمته أى سترنا بها.

(وكل مسكر حرام) هذا حديث صحيح رواه مسلم وهو أنه قال: «كل مسكر حمر»  
وكل مسكر أى ما من شأنه الإسكار فهو حرام، أى ولو قطرة منه، والخلاف فى المثلث  
بشروطه معلوم، ويدخل فيه الحشيش على الأصح، وللزركشى رحمه الله تعالى فيه  
تأليف مستقل، وإنما ذكر هذا لأنهم سألوه وقالوا: يا رسول الله، إن شرباً يصنع بأرضنا  
يقال له المزز والبتع، وأهل تلك الديار لهم ولع به، فلذا بينه لهم والكلام على الحديث  
مفصل فى شرح مسلم.

(ووائل بن حجر) تقدم بيانه (يتزفل على الأقيال) يتزفل بالراء المهملة والفاء واللام  
والتزفل أصله تطويل الرداء والثوب، ومثله يكون فخراً وعظمة فاستعير، أو جعل كناية،  
وهذا أظهر لجعله رئيساً عليهم محكماً فيهم وفى أخذ صدقاتهم؛ لأن التزفل للتعظيم  
والرئيس والحاكم أعظم، فجعل هذا عبارة عن أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم جعله  
والياً على أمورهم وقبض صدقاتهم. قال التجانى: أى يتأمر ويتأسر، وهذا كقوله صلى  
الله تعالى عليه وسلم فى كتاب آخر له وقد وجهه إلى المهاجر بن أبى أمية: «من محمد  
رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى المهاجر بن أبو أمية، أن وائلاً يستعير ويتزفل  
على الأقيال حيث كانوا من حضرموت»، أى هو مستعمل على الصدقات وأمير على  
الأقيال، قال الشاعر<sup>(١)</sup>:

إذا نحن رفلنا امراً ساد قومه وإن لم يكن من قبل ذلك يذكر

وقد تقدم معنى الأقيال وأصله، ومن التزفل هذا التزفل المذكور فى العروض،  
وقوله: ابن أبو أمية كذا صحت روايته بحكاية أول أحواله وأشرفها كما يقال على بن  
أبو طالب. قال التجانى: وقريش لا تغير الأب فى الكنية فتجعله بالواو فى أحواله  
الثلاثة، وحكاه أبو زيد عن الأصمعى فى نوادره فليس بلحن كما يتوهم، كما يقولون:  
يا زيد فهذه لغة خامسة لكنها لكونها مخصوصة بالكنية لم يذكروها.

(أين هذا من كتابه صلى الله تعالى عليه وسلم لأنس رضى الله تعالى عنه فى الصدقة  
المشهور) أين استفهام عن المكان، والمراد: أن بينهما بون وفرق، فإن ذاك جاء بلغة أهل  
اليمن وهذا بلغة قريش وتهامة المألوفة بينهم، ففيه إشارة إلى فصاحته صلى الله تعالى

(١) البيت من البسيط، وهو لأبى الصلت الثقفى فى تاج العروس (نعم)، وبلا نسبة فى لسان العرب

عليه وسلم ومعرفته باللغات، وخطاب كل أحد بلسانه ولغته، وهذا إشارة إلى الكتاب الذي دفعه أبو بكر رضى الله تعالى عنه لأنس، رضى الله تعالى عنه، حين أرسله في خلافته إلى البحرين وأمره أن يعمل به، وهو من كلام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وبعضهم وقفه على أبي بكر رضى الله تعالى عنه، وبعضهم رفعه إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال: إنه كان عند أبي بكر رضى الله تعالى عنه يعمل به وهو الذي سلمه لأنس رضى الله تعالى عنه، ولما دفعه إليه كان عليه خاتم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا الكتاب ذكره البخارى في صحيحه والنسائى وأبو داود والترمذى وغيرهم على اختلاف بينهم فى كثير من ألفاظه، والبخارى ذكره مفرقاً فى كتابه، ولم يخرججه مسلم، واختلف فى سبب تركه له مع صحته وشهرته، فقليل: للاختلاف فى كونه من كلام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أو من كلام أبى بكر رضى الله تعالى عنه.

وقيل: لاختلاف المحدثين فى الكتاب والعمل به، وإن كان الأصح أنه يعمل به ولا فرق بينه وبين غيره من الأحاديث وله طرق مختلفة، وأوله: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذه فريضة الله التى فرضها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فمن سألها من المسلمين على وجهها فليعطها، ومن سئل فوقها فلا يعطه فيما دون خمس وعشرين من الإبل الغنم فى كل خمس ذود شاة، فإذا بلغت خمساً وعشرين ففيها بنت مخاض»<sup>(١)</sup>. وبقية الكتاب مذكور فيه أحكام الزكاة، وهو مذكور فى المطولات، ولكن ذكرنا هذا المقدار منه تبركاً؛ لأن الثمرة تدل على الشجرة، وفى مزيل الخفاء، قيل: لم يكتب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إلى أنس وإنما أبو بكر رضى الله تعالى عنه هو الذى كتب إليه، وأجيب بأن الدارقطنى ذكر بإسناد صحيح رواية. هذا الحديث عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، وذكر أبو داود عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كتب كتاب الصدقة ولم يخرججه فى حياته، فعمل به أبو بكر رضى الله تعالى عنه بعده، ثم عمر رضى الله تعالى عنه. وعلى هذا ففى كلام المصنف رحمه الله تعالى مقدر دل عليه خصوص الواقعة، أى فى كتابه الذى كتبت نسخته لأنس رضى الله تعالى عنه لما فى صحيح البخارى: أن أنساً حدث أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه كتب له هذا الكتاب لما وجهه إلى البحرين، ثم إن المصنف رحمه الله بين وجه التباين فقال:

(لما كان كلام هؤلاء) الإشارة إلى جميع من تقدم من الأنصار وقريش وأهل نجد وأهل الحجاز، والهمدانيين والنهدين، أو إلى الأخيرين لقربهم. (على هذا الحد) أى على هذه

الصفة. قال الراغب: حد الشيء الوصف المحيط بمعناه المميز له عما عداه. (وبلاغتهم على هذا النمط) أى على هذه الطريقة.

(وأكثر استعمالهم هذه الألفاظ استعمالها معهم) يعنى أن استعمال هذه الألفاظ مع من هى لغتهم لا تخل بالفصاحة؛ بل هو من أعلى طبقاتها وإن كان فيها ما هو غريب وحشى بالنسبة لغيرهم، فإن الجاحظ نص فى البيان على أن كلام أهل البادية الوحشى بالنسبة لهم فصيح، وإن كلام أهل المعانى قد يوهم خلافه، وأنه يخل بالفصاحة مطلقاً، وهذا مما غفلوا عنه، وله فى هذا فصل بديع منه: من أراغ معنى كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما، ولا تعود من أجله أن يكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهارهما، فكن فى ثلاث منازل، أولها أن يكون لفظك رشقاً عذباً وفخماً سهلاً، ويكون معناه ظاهراً مكشوفاً وقریباً معروفاً، أما عند الخاصة إن كتبت للخاصة قصدت، وأما عند العامة بأن يكون للعامة أردت، والمعنى: ليس يشرف بأن يكون من معانى الخاصة ولا يتضع بأن يكون من معانى العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال إلى آخر ما فصله.

(ليبين للناس ما نزل إليهم وليحدث الناس بما يعلمون) إشارة إلى أنه لما كان مبعوثاً لجميع الناس، كان يتكلم بكل لغة مع أهلها لأنه أبلغ فى الإبلاغ وأنفع.

(وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث عطية السعدى) منسوب لقبيلة بنى سعد ابن بكر، وفى العرب سعود غيرهم؛ سعد تميم، وسعد قيس، وسعد هذيل، وسعد بكر، هؤلاء وغيرهم، وعطية هذا هو ابن عروة السعدى، ويقال: عطية بن عامر، ويكنى أبا محمد، وروى عنه أهل اليمن والشام، وهو جد عروة بن محمد بن عطية، روى ابن عبد البر بسنده إلى عروة بن محمد بن عطية قال: حدثنى أبى أن أباه حدثه أنه قدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى ناس من بنى سعد، قال: وأنا أصغرهم فخلفونى فى رحلهم، ثم أتوه صلى الله تعالى عليه وسلم فقضى حوائجهم، ثم قال: «هل بقى منكم أحد». قالوا: يا رسول الله، غلام منبأ خلفناه فى رحالنا، فأمرهم أن يبعثوا إليه، فأتوا إلى وقالوا: أحب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فأتيته، فلما رآنى قال: «ما أغناك الله تعالى فلا تسأل الناس شيئاً»<sup>(١)</sup>.

(فإن اليد العليا هى المنطية واليد السفلى هى المنطاة) تمامه: «ومال الله مسئول

(١) أخرجه البيهقى فى الكبرى (٤/١٩٨)، والحاكم (٤/٣٢٧)، وابن سعد (١/٢١/٦١).

ومنطى» وروى: «يودك وينطى» وهذا حديث صحيح، رواه الحاكم وصححه من طريق عروة، وتماه كما رواه الواقدي في قصة وفود السعديين: عن ابن النعمان منهم، عن أبيه قال: قدمت على رسول الله وافد في نفر من قومي وقد أوطأ رسول الله البلاد إلى أن قال: ثم انصرفنا إلى رحالتنا، وقد كنا خلفنا عليها أصغرنا، فبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في طلبنا، فأتى بنا إليه فتقدم صاحبنا فبايعه على الإسلام، فقلنا له: يا رسول الله إنه أصغرنا وخادمنا، فقال: «أصغر القوم خادهم بارك الله عز وجل عليه» فكان والله خيرنا وأقرأنا للقرآن لدعاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم أمره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم علينا، فكان يؤمننا، ولما أردنا الانصراف أمر بلالاً رضي الله تعالى عنه فأجازنا بأواقي فضة لكل رجل منا، فرجعنا إلى قومنا فرزقهم الله تعالى الإسلام. وهذا يشعر بأنه كان أمير القوم وأذكاهم، فلذا نصحه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بما ذكره المصنف رحمه الله تعالى.

(قال) أى عطية السعدى. (فكلمنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بلغتنا) ورواه السيوطى رحمه الله فى تخريجهم فكلمنى، ولا تخالفه رواية المصنف رحمه الله تعالى؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم ألقى إليه الكلام، وتوجه إليه لما تفرس فيه الخير لمخايل نجابته والقوم يسمعون، فيصح أن يقال: كلمهم وكلمه، وقيل: أراد بقوله: «كلمنا» نفسه بنون العظمة إظهاراً لأنعام الله تعالى عليه بخطاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم له وبعثه إليه، وتأميره عليهم، والمقام ياباه، وقوله: «بلغتنا»، أى بلغة بنى سعد؛ لأنهم كانوا يقولون: انطى ينطى انطاء، بمعنى أعطى، ولا ينافية ما قيل إنها لغة بمانية، لأنه يجوز كونها لغة لهم، وقال التلمسانى: قيل: لغة حمير انط بمعنى اسكت. وكتب رجل بين يدى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كتاباً فدخل آخر فقال له صلى الله تعالى عليه وسلم: «انط» أى اسكت سترًا لسره.

واليد العليا اليد المعطية، والسفلى يد السائل الآخذ، وهى المعطاة، وقد جاء تفسيره بذلك فى حديث آخر، وهو أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال على المنبر وهو يذكر الصدقة والتعفف عن المسئلة: «اليد العليا خير من اليد السفلى، واليد العليا المنفقة والسفلى السائلة»<sup>(١)</sup>. وهو حديث صحيح رواه الشيخان. أو المنفقة بنون وفاء وقاف، ويروى المتعفة بعين وفائين أى التى لا تسأل أحداً. وقيل: المنفقة بتشديد الفاء. وقيل:

(١) أخرجه البخارى (١٣٩/٢، ٨١/٧، ١١٦/٨)، ومسلم (١٠٣٣/٩٤)، وأبو داود (١٦٤٨)،  
الترمذى (٢٣٤٣)، والنسائى (٦١/٥، ٦٩)، وأحمد (٤/٢، ٦٧، ٩٨، ٣٦٢، ٣٩٤، ٤٧٥)،  
والبهقى (١٧٧/٤، ١٨٠، ١٨٢، ١٩٠، ١٩٧).

يد الله تعالى فوق يد المعطى، ويد المعطى فوق يد المعطى بالفتح، فهي أسفل الأيدي، والأيدي ثلاثة. وقيل: اليد السفلى الآخذة بسؤال ودونه، وما قيل: إن هذا لا ينبغي؛ لأن الصدقة تقع أولاً في يد الله تعالى ليس بشيء؛ لأن هذا ليس على حقيقته، لأن المراد أنه يقبلها ويدخرها له. وقيل: اليد العليا المعطية والسائلة المانعة. وقيل: اليد العليا يد الفقير لتحصيلها الثواب لصاحب المال ودفع البلاغة، واختاره بعض مشايخ الصوفية فيده أفضل عند الله. قال ابن قتيبة: وما أرى هذا إلا كلام قوم استحبوا السؤال وحسنوه، وكل هذا مضمحل بعد التصريح بتفسيره في الأحاديث الصحيحة، وإن قيل فيه إنه مدرج، والخلاف مبنى على أن المراد بالعلو المحسوس بنا على الغالب أو المعنوي من علو الشرف، كما قال الشاعر:

إذا كان باب الذل في جانب الغنا سموت إلى العلياء في جانب الفقر

والتعبير عن المعطى بالمنفق وذى اليد العليا بناء على الغالب المتبادر، فلا يقال: يد السائل قد تكون فوق إذا أخذ من كفه، وإن المنفق قد لا يكون متصدقا، وأن الأخذ قد لا يكون سائلاً بأن يعطى ابتداءً، والسائل قد لا يكون متصدقا عليه كسائل القرض وغيره، وهو ظاهر لا ينبغي التطويل بمثله، وتحصل في الحديث ثلاثة أوجه:

أحدها: أن معناه يد المعطى ويد السائل بطريق الكناية.

الثاني: أن معناه المنفق والآخذ.

الثالث: عكس الأول، والأول أصح رواية ودراية.

وبقى وجه آخر وهو أن يراد بالعلو ومقابله العلو المعنوي لعلو رتبة المنعم وانحطاط رتبة الأخذ.

(وقوله) صلى الله تعالى عليه وسلم (في حديث العامري حين سأله فقال له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم) العامري، نسبة لعامر اسم قبيلة وتسمى بنى عامر، سمو باسم جدهم كتميم، وكانوا وفدوا على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفيهم عامر ابن الطفيل، وأريد وتواعدا أن يقتلاه صلى الله تعالى عليه وسلم غيلة، فهلكا في الطريق لما رجعا من عنده صلى الله تعالى عليه وسلم وقد حماه الله وعصمه، أما أريد فأصابته صاعقة أهلكته، وأما عامر فأصابه طاعون مات فيه في بيت امرأة سلولية، وسلول قبيلة مذمومة مستزلة عند العرب، فكان يقول: أغدة كغدة البعير وموت في بيت امرأة سلولية، فجرت مثلاً لاجتماع أمرين حقيرين. وأريد أخو ليبد الشاعر، وقد هداه الله للإسلام بعد موت أخيه أريد وحسن إسلامه، ولم يقل شعراً بعد إسلامه غير قوله:

الحمد لله إذ لم يأتنى أجلى حتى اكتسبت من الإسلام سربالا وهذا العامرى اسمه عطية، توفى فى حدود الثمانين، وفى العقد لابن عبد ربه أن اسمه لقيط بن عامر بن المنتفق، وساق له حديثا على وجه آخر.

(سل عنك) بفتح العين وسكون النون عن الجارة وكاف الخطاب، وهذا الحديث رواه أبو نعيم فى الدلائل عن شداد بن أوس، ولم أر من صحح لغة بنى عامر هذه وبين وجهها، ورأيت فى شرح ديوان الأعشى فى قوله<sup>(١)</sup>:

فاذهبى ما إليك أدركنى الحـ لم عدانى هجاكم أشفاقى  
أن العرب تقول: اذهب إليك وسرى عنك بزيادة إليك وعنك انتهى. والمصنف رحمه الله تعالى ثقة واسع الاطلاع، لو لم يقف على أن هذه لغة لبنى عامر لم يذكرها، ووجه البلاغة فيها أنها جعلت كناية عن سل عن كل شىء، فإن كل أحد أدرى بنفسه، فإذا أمره بسؤاله عنها فكأنه قال له: أنا أعلم بك منك، وإذا كان كذلك فهو عليم بجميع أحواله، وهذا يدل على المراد بطريق برهانى بليغ.

(أى سل عم شئت وهى لغة بنى عامر) عم وقع فى بعض النسخ، عما بالألف وفى بعضها عم بدون ألف، والأولى أولى؛ لأنها موصولة كما لا يخفى، وإن أردت تحقيق هذا المقام فاعلم أن ابن قتيبة قال فى «أدب الكاتب»: إذا جرت ما الاستفهامية بحرف جر سقطت ألفها فرقا بينها وبين الموصولة إلا بم شئت، فإن العرب تقول: أدع بما شئت فى الموصولة والاستفهامية، فإن جرت باسم مضاف لم تحذف، وفى شرح النبلى: أما إذا كان الجار لها اسما متمكنا لم يفعلوا ذلك، وقول العرب: مجئ م ومثل م شاذ، وإنما حذفت مع الحرف تخفيفا فرقا بين الاستفهام والخبر، وخص الاستفهام لأنه اسم تام فصارت مع الحرف كاسم واحد، فحذف الألف لطول الاسم، وجاء نادرا: سل عم شئت فإن جره اسم متمكن لم يفعلوا ذلك، وجاء مع بعد وعلى لعدم تمكنها فألحقها بحروف الجر. وقول العرب: مجئ م جئت ومثل م أنت شاذ. انتهى. وهو تفصيل نفيس قل من حرره هذا التحرير، ومنه عرفت أن قوله: عم شئت صادف محزه، وأنه لا يرد عليه شىء مما قالوه. وفى شرح التسهيل لأبى حيان أن الأخفش، قال فى الأوسط: إن أنا وقد ذكر أن كثيرا يقولون: سل عم شئت كأنهم حذفوا ألفها لكثرة استعمالهم إياها. انتهى. وحينئذ لا حاجة إلى ما قيل إن المصنف رحمه الله تعالى وقف على أنها لغة لبنى عامر فقد تجانس المفسر والمفسر، وما قيل من إنه لا وجه لهذه النسخة من قصور النظر وقصر باع الاطلاع.

(١) البيت من الخفيف، وهو فى لسان العرب (٤٣٥/١٥)، تهذيب اللغة (٤٢٧/١٥).



(وأما كلامه المعتاد) أى كلام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الذى اعتاده فى مجالسه مع قومه وأهل أرضه وغيرهم، (وفصاحته المعلومة) لكل أحد من كلامه. (وجوامع كلمه) كما ورد فى الحديث الصحيح: «أوتيت جوامع الكلم»<sup>(١)</sup> والجوامع جمع جامعة، أى كلمة جامعة لوجوه الفصاحة، والكلم اسم جنس جمعى لكلمة لا جمع ولا اسم جمع على الأصح، والمراد أن الله تعالى مَنْ عليه صلى الله تعالى عليه وسلم بإقداره على التكلم بكلمات بليغة جزلة حاوية لمعان نافعة من المواعظ ونحوها، وقيل: المراد بها القرآن، والأصح الأنسب بالمقام الأول، وقول الهروى: معنى جوامع كلمة القرآن جمع الله تعالى له فيه معانى كثيرة فى اللفظ يسيرة، وكلامه صلى الله تعالى عليه وسلم كان كذلك عرفت ما فيه. وقال ابن شهاب: بلغنى أن جوامع الكلم ما جمعه الله تعالى له من الكتب التى كانت قبله فى الأمر الواحد والأمرين ونحوه، والحاصل أنهم عدوا من فضائله صلى الله تعالى عليه وسلم وكمالاته، أنه كان يتكلم فى محاوراته بقليل الألفاظ المحتوية على المعانى التى لا حصر لها، ومنه ما ورد فى الحديث: «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يستحب الجوامع من الدعاء»<sup>(٢)</sup> وهو ما يجمع الأغراض الصالحة والمقاصد الصحيحة، وأما ما يجمع أنواع السؤال وآداب المسئلة، كما قلت فى قصيدة فى مدحه صلى الله تعالى عليه وسلم:

وجوامع الكلم التى فتحت له      سجدت لها البلغاء والأقلام

(وحكمه الماثورة) هو من الأثر، وهو ما يدل على الشيء من آثاره وعلاماته، ومنه أثرت العلم إذا رويته أثره أثراً وإثارة وأثرة، إذا تتبعته أمره كما قاله الراغب، فالمأثورة المنقولة المروية، والحكم جمع حكمة وهى الكلمات النافعة فتشمل المواعظ فهى أعم من جوامع الكلم.

(فقد ألف الناس فيها الدواوين) الفاء جواب أما والضمير للحكم أو للمذكورات كلها، والمراد بها هنا الكتب المستقلة. والدواوين جمع ديوان بكسر الدال وفتحها فى لغة. وقال أبو عمرو: إنه خطأ ولو صح كان جمعه دياوين ولم يسمع كما قاله الجواليقى، وفى الأحكام السلطانية: الديوان موضوع لحفظ الأموال والأعمال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال، ووجه التسمية بذلك أن كسرى اطلع على كتبة ديوانه وهم يحسبون مع أنفسهم فقال ديوانه أى مجانين، ثم خفف بحذف الباء وقيل: إن الديوان بالفارسية اسم للشياطين جمع ديو بكسر الدال والألف والنون، علامة للجمع فى

(١) أخرجه مسلم (٥٢٣/٧)، وأحمد (٢/٢٥٠، ٣١٤، ٤٤٢، ٥٠١).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٨٢).

الفارسية كزاهد وزاهدان، فسموا به لحدقهم بالأمر ووقوفهم على الجلى والخفى، ثم سمي به مكانهم، وأول من وضع الديوان عمر رضى الله تعالى عنه وهو معرب كما قال الجوالقى، وأطلق على الدفتر ثم قيل: لكل كتاب، وقد يختص بالشعر لشاعر معين مجازاً، وشاع حتى صار حقيقة فيه، فمعانيه خمسة: الكتبة، ومحلهم، والدفتر، وكل كتاب، ومجموع الشعر.

(وجمعت فى ألفاظها ومعانيها الكتب): المراد كتب الحديث المسندة وغيرها وشروحها، وجمعت مبنى للمفعول فلا وجه لما قيل إن الألفاظ قوالب المعانى، فمتى تجردت عنها كانت مهملة.

(ومنها ما لا يوازى فصاحة) يوازى مبنى للمجهول أى يماثل ويقابل ويساوى، من الموازة وواوه مبدلة من الهمزة، يقال: آزى الشئ يوازيه إذا حازه، وفى شرح الكرمانى للبخارى آزيتة ولا وازيته، يعنى لا يقال ذلك فى ماضيه، وأما المضارع فيجوز إبدالها فيه واوا لانضمام ما قبلها فتدبر.

(ولا يبارى بلاغة) أى لا يعارض فيؤتى بمثله وهو مجهول، بضم المثناة التحتية والموحدة وراء مهملة بين ألفين، وإنما لم يمكن معارضته لقربه من مرتبة الإعجاز، وفى تعبيره بالموازة فى الفصاحة والمباراة فى البلاغة حسن لا يخفى وجهه، فلا يرد عليه أن الذى لا يعارض هو الكلام المعجز، والإعجاز يختص بالقرآن كما توهم، وفصاحة وبلاغة منصوبان على التمييز.

(كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «المسلمون تتكافؤ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم» ) التكافؤ التماثل من الكفو بالهمزة وهو المثل، أى هم متساوون فى القصاص والدية فشريفهم ومشروفهم، وصغيرهم وكبيرهم، وفقيرهم وغنيهم، وأميرهم وسوقتهم سواء، وهذا كقوله تعالى: ﴿الَّتَقَسَّ بِالْتَقَسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، خلافا لما كان عليه الجاهلية من قتل الجمع الكثير بالواحدة، كما فى قصة كليب وغيرها، فجاء الشرع بإبطاله فلا يقتل الجمع بالواحد إلا إن تواطئوا عليه، وكان فعل كل واحد منهم يقتل لو انفرد، وبهذا الحديث استدل على أن المسلم لا يقتل بالكافر لا بناء على العمل بمفهوم المخالفة، بل لما ورد من التصريح به فى الأحاديث، كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا يقتل مسلم بكافر، ولا ذو عهد فى عهده»<sup>(١)</sup>. والقائل بأنه

(١) أخرجه البخارى (٨٤/٤، ١٤/٩، ١٦)، وأبو داود (٤٠٠٦)، والترمذى (١٤١٢، ١٤١٣)، وابن ماجه (١٦٥٩، ٢٦٦٠)، وأحمد (٧٩/١، ١٧٨/٢)، وابن حبان (١٦٩٩)، والبيهقى

يقتل المسلم بالكافر الذمى قال: المراد بالكافر هنا الحربى، وفى وجه التخصيص كلام للفقهاء والأصوليين، وقد أفرد هذا الحديث بجزء مستقل، وهذا الحديث أخرجه أبو داود والنسائى عن على كرم الله وجهه وصححه، وإلى عدم قصاص المسلم بالكافر ذهب أبو حنيفة خلافا للشافعى، وتساوى دمائهم: كناية عن التساوى فى القصاص والدية كما مر.

وقوله: «ويسعى بذمتهم أدناهم» المراد بالذمة العهد والأمان، فإنه إذا أمن أحد من المسلمين واحدا من الكفار، كان ذلك جاريا على جميع المسلمين لا يجوز نقضه لأحد منهم، وأدناهم أقلهم مقدارا فيشمل كل وضع بالنص وكل شريف بالفحوى، فيدخل فيه الصبى والمرأة، واختلف فى أمان العبد، فقيل: يقبل، وقيل: إن كان مقاتلا جاز وإلا فلا، والصبى قيل: إن أمانه يقبل، وقيل: إن كان مراهقا قبل وإلا فلا، والمجنون لا يصح أمانه بلا خلاف، ومنهم من استثنى الأجراء والأسراء فى دار الحرب، ومعنى يسعى يباشر ويفعل.

وقوله: «وهم يد على من سواهم» فى النهاية معناه أنهم مجتمعون على أعدائهم يعاون بعضهم بعضا فلا يخذله، فجعل أيديهم كأنها يد واحدة فى الإنفاق، ولذا لم يقل أيدى، واليد يستعمل فى القهر والقوة والقدرة، أى هم مستولون قاهرون لغيرهم من أهل الملل، فهم فى الاتفاق باليد الواحدة فهو تشبيه بليغ أو استعارة، وفى هذا الحديث: «ويرد عليهم أقصاهم» وتفسيره مذكور فى كتب الحديث.

(وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: الناس كأسنان المشط) مناسبتة لما قبله ظاهرة، والمشط: بضم الميم وكسرهما وفتحها وشينه مثلثة أيضا، ويقال: مشط كمنبر وهو آلة معروفة يسرح بها الشعر، وهذا مثل فى تساوى الأخلاق، فهو قريب من قوله: «تتكافى دماؤهم» وهو مثل كذا فى الشروح، وهذا الحديث أخرجه ابن لال عن سهل بن سعد فى مكارم الأخلاق، واعترض على هذا التفسير وجعله نظيرا لما قبله بأن تفاوت الناس فى الأخلاق مقرر، فالظاهر أن المراد تساويهم فى الأحكام الشرعية، والمراد بالناس المسلمون؛ لأن غيرهم لا يساويهم فى ذلك، أو الجمع باعتبار أغلب الأحكام، أو المراد تساويهم فى الأنساب فإنهم كلهم أولاد آدم، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ [الحجرات: ١٣] إلى آخره، فالمراد نفى ما كان عليه الجاهلية من التفاخر بالنسب، فلا شرف إلا بالعلم والتقوى، كما ورد فى الحديث: «يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، لا فضل لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى». وفى معناه ما نسب لعلى كرم الله وجهه:

الناس فى عالم التمثيل أكفاء أبوهـم آدم والأم حواء  
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء

والشعر بتمامه مشهور، وليس المراد أن النسب لا يعتبر مطلقا.

(والمرء مع من أحب) رواه الشيخان عن أنس رضى الله عنه وغيرهما، وهو حديث صحيح مروي من طريق، منها: ما أسند إلى ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: يا رسول الله، كيف تقول فى رجل أحب قوما ولم يلحق بهم؟ فقال: «المرء مع من أحب فمن أحب الأبرار فهو مع الأبرار، ومن أحب الفجار فهو مع الفجار»<sup>(١)</sup>. وفى الحديث: «لا يحب الرجل قوما إلا حشر معهم»<sup>(٢)</sup> وفيه: «يحشر المرء مع خليله فلينظر المرء مع من يخال»<sup>(٣)</sup> وروى: «من يخال» بالتشديد، ومصادقه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] وأمثاله كثيرة لا تحصى، والمرء بمعنى الرجل، والمراد به هنا مطلق الإنسان الشامل للمرء والمرأة بطريق التغليب، ويحتمل التخصيص؛ لأن المرأة تحشر مع زوجها ولو أحببت غيره لله تعالى، والمراد المعية فى الحشر ومنازل الآخرة فيرتقى لمنزلتهم بسبب خلوص المحبة. قال الغزالي رحمه الله تعالى: وهذا لمناسبة روحانية باطنية خفية، وأسباب لا يطلع عليها، كما ورد فى الحديث: لو أن مؤمنا دخل مجلسا فيه مائة منافق ومؤمن واحد، فجاء حتى يجلس إليه فالمعية لدنو وقرب دينى لا فى مجرد الإكرام وضده فضلا من الله تعالى لا يعلمه إلا الله؛ ولذا قال فى آخر الآية السابقة: ﴿ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٧٠] وإن لم يعمل عمل من أحبه، ولو كانت المعية فى مطلق الإكرام ناله كل مؤمن صالح وإن لم يحب.

فإن قلت: من أخلص محبة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كيف يكون معه وقد خصه الله تعالى بدرجة رفيعة لا يصل إليها أحد، وهذا هو الداعى، فمن جعل المعية فى مجرد الإكرام بقطع النظر عن خصوص المرتبة؟.

قلت: هذا ارتضاه بعضهم وقد عرفت ما فيه، وقد ارتضى غيره خلافه وقال: يدل عليه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: (أنا وكافل اليتيم كهاتين) ولا يلزم مساواته من

(١) أخرجه مسلم (١٦٥/٢٦٤٠)، وأبو داود (٥١٢٧)، والترمذى (٢٣٨٦)، وأحمد (٣٩٢/١)،

٣/١٠٤، ١١٠، ٢٠٠، (٢٢٨)، والحميدى (٨٨١).

(٢) أخرجه أحمد (١٤٥/٦)، والحاكم (٣٨٤/٤).

(٣) أخرجه أحمد (٣٠٣/٢)، والترمذى (٢٣٧٨)، وأحمد (٣٠٣/٢).

كل الوجوه، وقد أطل فى الشرح الجديد هنا بما لا محصل له على عادته، ويجوز أن يراد بكونه معه كونه فى الجنة، ولا بن حجر رحمه الله:

وقائل هل عمل صالح أعدته ينفع عند الكرب  
فقلت حسبى خدمة المصطفى وحبه فالمرء مع من أحب  
وقلت أنا:

وحق المصطفى لى فيه حب إذا مرض الرجاء يكون طباً  
ولا أراضى سوى الفردوس مأوى إذا كان الفتى مع من أحبا

(ولا خير فى صحبة من لا يرى لك ما ترى له) هو حديث رواه ابن عدى فى «الكامل» بسند ضعيف كما قاله السيوطى فى تحريجه، وأوله كما قال التلمسانى: «المرء على دين خليله، ولا خير فى صحبة من لا يرى لك من الخير مثل ما ترى له»<sup>(١)</sup>. وروى: «من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه». قال: وروى يرى بالياء والتاء للبناء للفاعل والمفعول، والصحبة بضم الصاد وسكون الحاء المهملتين والموحدة مصدر كالرفقة، أى يكون عنده من الرغبة والمودة والنفع مثل ما عندك له، كما قال ابن الأحنف:

إذا كان لا يدريك إلا شفاعاة فلا خير فى ود يكون بشافع

(والناس معادن) رواه الشيخان عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه وتمامه: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا، والأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف». والمعادن جمع معدن بكسر الدال وفتحها خطأ منبت الذهب والفضة، ونحوه من عدن بمعنى أقام لإقامة أهله فيه أو لإنباته فيه، ويطلق على مكان كل شىء فيه أصله، وعلى كل أصل، وعلى بيوت العرب، ويعنى صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك أن بنى آدم يختلفون باختلاف أصلهم، فمن كان أصله شريفاً أعقب مثله وسرى طيب عرقه لفرعه، ومن كان دون ذلك كان عقبه مثله، ومن كان خبيثاً كان فرعه خبيثاً، ألا ترى أن الشجرة الكريمة تنبت فرعاً طيباً وثمره جنية وضدها كذلك، فعروق الحنظل لا تنبت إلا حنظلاً ولو سقيت شهداً، ومنبت الذهب لا يتكون فيه الحديد والنحاس، لكن خيارهم حسباً لا يصير خياراً فى الإسلام إلا بالتقوى والعفة والعلم، فإذا كان كذلك طاب أصلاً وفرعاً، وإلا فلا ينفعه حسبه كأبى جهل لعنه الله وأضرابه.

(١) أخرجه ابن عدى فى الكامل (١٠٩٧/٣).

وهاهنا نكتة: وهى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «كمعادن الذهب والفضة» ولم يذكر معادن غيرهما من الأمور الخسيسة كالحديد والملح، إشارة إلى خلقة الإنسان وجبلته خلقت على الكرم والشرف، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وكقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة).

وقوله: «فقها» بضم القاف من الفقه وبكسرها بمعنى الفهم، ويجوز فى الأول الكسر أيضا. والفقه حذق الرجل بما يعلمه وعلمه وفهمه، ثم خص بعلم الشريعة مطلقا، ولذا قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: هو معرفة النفس مالها وما عليها، وسمى كتابه فى العقائد «الفقه الأكبر»، ونقل لعلم الفروع وتعريفه والكلام عليه مفصل فى كتب أصول الفقه.

وقوله: «الأرواح جنود مجندة» يعنى أنها خلقت قبل الأجساد أقساما مجتمعة، فمن وافقت روحه الروح التى هى من قسمه ألفتها، كما قال أبو نواس:

إن النفوس لأرواح مجنـدة      لله فى الأرض بالأهواء تأتلف  
فما تعارف منها فهو مؤتلف      وما تناكر منها فهو مختلف

(و) من جوامع الكلم قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: (ما هلك امرؤ عرف قدره) قال السيوطى: قال السمانى رحمه الله تعالى: إنه حديث روى مسندا عن على كرم الله وجهه، وفى سنده من لا يعرف حاله. وقال التجانى: لا أعرف له سنداً صحيحاً إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وإنما هو من كلام أكتثم بن صيفى فى وصيته، فإن ثبت عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فعله تمثل به. وأكتثم هذا بالثلثة من بلغاء العرب وعده بعضهم فى الصحابة، والأكتثم على خلافه، وفى كتاب «جوامع الكلم»، وبدائع الحكم» هو من كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم، وذكره مسندا يعنى أن من عرف مقدار نفسه ونزلها منزلتها نجا فى الدنيا والآخرة من الهلاك، ومن تعدى طوره فتكبر ورفع نفسه فوق حده هلك وهو ظاهر.

(والمستشار مؤتمن وهو بالخيار ما لم يتكلم) المستشار اسم مفعول من المشاورة وسينه للطلب أى طلب رأى من يشاوره، وسيأتى أن المشورة بفتح الميم وسكون الشين، وأن الأفصح فتحها وضم الشين وكلاهما جائز. بمعنى الشورى من شار العسل إذا اجتباه؛ لأنه بأراءه الصواب كأنه أطعمه شهدا، أو من شار الدابة إذا عرضها، ومنه المشوار لمكان تعرض فيه الدواب، والعامّة تطلقه على جريها من إطلاق اسم الحال على المحل، فاختار لنفسك ما يحلو، فسميت بها لعرض أمره على من استشاره، وإنما كان المستشار

مؤثمتا؛ لأنه أودعه سره وما خفى من أمره وجعله أمانة عنده، فعليه أن يحفظه ولا يظهريه، وأن ينصحه فيما استشاره فيه وقد أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالمشاورة، وناهيك بعلو مقامه ومعرفته بعواقب الأمور، حتى قيل إنها كانت عليه فى الحروب تشريعا لأمتة وتطبيبا لقلوب أصحابه، كما قيل:

شاور صديقك فى الخفى المشكل      واقبل نصيحة ناصح متفضل  
فالله قد أوصى بذلك نبيه      فى قوله شاورهم وتوكل

وقوله: «وهو بالخيار» الخ معناه أنه خير إن شاء أشار عليه بما شاوريه فيه، وإن شاء سكت ولم يتكلم، فإذا تكلم لزمه بيان رأيه ونصحه وذكر الصواب عنده.

وهذا الحديث أخرجه أحمد عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه ولفظه: «المستشار مؤتمن وهو بالخيار إن شاء تكلم وإن شاء سكت، فإن تكلم فليجتهد رأيه»<sup>(١)</sup>. أى فليجتهد فى رأيه ويفكر فى الصواب فيه. وأخرج صدره فقط الأربعة من حديث أبى هريرة رضى الله عنه، والحاكم من حديث ابن عمر رضى الله تعالى عنهما.

(و) من جوامع الكلم النبوية قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: (رحم الله عبدا قال خيرا فغنىم، أو سكت فسلم) هذا الحديث أخرجه أبو الشيخ عن أبى أمامة رضى الله تعالى عنه، والدليمى عن أنس رضى الله تعالى عنه، لكنه رواه: «رحم الله امرا بدلا عبدا» والعسكرى أيضا رواه مرفوعا عن أنس أيضا، وله شواهد وروايات تقويه وتصحيحه، فرواه البيهقى فى الشعب، والخرائطى فى الأخلاق. أما كونه إذا قال خيرا كالذكر والعلم والعظة، فإنه يغنىم الأجر والذكر الجميل، وربما يحصل الغنىم فى الدنيا. وقوله «أو سكت» أى خلاف الخير فيسلم من وباله وما يندم عليه كما لا يخفى.

(و) قوله: (أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين) من حديث رواه الشيخان فى كتابه الذى كتبه صلى الله تعالى عليه وسلم له رقل ملك الروم، وروى: «أسلم تسلم» «وأسلم يؤتك الله» إلى آخره، وهو ظاهر، وعلى الأول فالثانى بدلا مما قبله، أو جواب بعد جواب، أو مجزوم بجازم مقدر، وفيه من البديع التجنيس والانسجام والإيجاز، ومعناه تسلم من عذاب الدارين ومن ذل الجزية، ويؤتك الله أجرين أجرا باتباعك عيسى عليه الصلاة والسلام وإيمانك به، وأجرا أعظم منه بالإسلام واتباع خير النبيين عليه أفضل

(١) أخرجه أحمد (٢٧٤/٥)، وأبو داود (٥١٢٨)، والترمذى (٢٨٢٢)، وابن ماجه (٣٧٤٥)،  
٣٧٤٦)، والدارمى (٢١٩/٢)، وابن حبان (١٩٩١)، والحاكم (١٣١/٤)، والبيهقى  
(١١٢/١٠).

الصلاة والسلام، ومرتين منصوب على الظرفية. وهذا كما ورد فى حديث آخر: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين»<sup>(١)</sup>؛ فذكر منهم رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فآمن به إلى آخره بخلاف المشركين، وكتابه صلى الله تعالى عليه وسلم لهرقل كان فى سنة ست حين ماد قريشا، وقيل: فى سنة خمس، وصورته: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجره مرتين» إلى آخره، وهو مذكور فى الصحيحين مشروح فى شروحهما. والدعاية بكسر الدال مصدر بمعنى الدعوة. وكتب إلى المقوقس فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد ابن عبد الله ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى المقوقس. وقال فيهما: عظيم الروم وعظيم القبط ولم يقل ملك الروم ولا ملك القبط، لأنه لا يستحق ذلك العنوان إلا من كان مسلما وقع ذلك فلم يخل بتعظيمهما تليينا لقلوبهما فى أول الدعوة إلى الحق. وهرقل بكسر الهاء وفتح الراء المهملة وسكون القاف كما قال جرير<sup>(٢)</sup>:

وأرض هرقل قد قهرت وداهرا ويسعى لكم من آل كسرى النواصف

وقيل: إنه بسكون الراء وكسر القاف، ولعلها لغة فيه لتلاعبهم بالأعجمى وهو علم ممنوع من الصرف، ولقبه قيصر، ويلقب به كل من ملك الروم كما مر، ولم يقل: ويؤتك بالعطف لتكرار أسلم لفظا أو تقديرا فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم على الإسلام، ومناسبة لكون أجره مرتين وليكون له أجرين أيضا، أو الأمر الأول للدخول فى الإسلام، والثانى للدوام عليه، ووصل له الكتاب مع دحية رضى الله عنه وهو بخمس فى المحرم سنة سبع، فلما قرأه كتب إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: إنى مسلم ولكنى مغلوب. فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «كذب عدو الله، إنه على نصرانيته» وقيل: إنه آمن. قال ابن عبد البر: كيف هذا وقد قاتل الصحابة رضى الله تعالى عنهم بتيوك؟ وواعد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يأتيه فى العام المقبل فنزل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إلى تيوك فلم يجيء، ثم أخذت البلاد منه فمكث بالقسطنطينية إلى أن هلك على نصرانيته سنة عشرين، ولذا لم يلقيه الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بالملك، مع أنه اعترف بأنه مغلوب، والمتغلب المغلوب معزول عند أبى حنيفة رحمه الله تعالى، ففى هذا إخبار بالغيب.

(١) تقدم تحريجه.

(٢) البيت من الطويل، وهو فى ديوان جرير (ص ٦٨٦)، لسان العرب (٤/٢٩٥)، تهذيل اللغة (١٩٥/٦)، تاج العروس (١١/٣٥١).



فإن قلت: قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ [القصص: ٥٤] نزلت فى أهل الكتابين التوراة والإنجيل وهو فى النصارى صحيح، وأما فى اليهود فلا إذ لا يؤجرون على دينهم بعد نسخه بشريعة عيسى صلى الله تعالى عليه وسلم؟ قلت: قد ثبت أنها نزلت فى عبد الله بن سلام رضى الله تعالى عنه وأضرابه ممن أسلم من اليهود واستمر قبل ذلك على دين اليهود، ولم يتبع عيسى عليه الصلاة والسلام، فقليل: إنهم لإيمانهم بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ودينه يؤجرون عليه، وإن كان دينهم منسوخا.

وأما القول بأنهم لم تبلغهم دعوة عيسى عليه الصلاة والسلام فبعد، ولأنهم مأولين بأنه مبعوث لبنى إسرائيل خاصة وهم من العرب، لاسيما وهم ينكرون النسخ. وأما القول بأنها نزلت فى كعب الأحبار فغير صحيح؛ لأنه ليس له صحبة ولم يسلم فى زمن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، إلا أن يؤل بأنها نزلت فى أمثاله ممن آمن من أهل الكتاب وهو بعيد، وقال الكرماني رحمه الله تعالى: إن هذا مخصوص بمن آمن به صلى الله تعالى عليه وسلم فى عصره، لأن من بعده ينسخ دينه وبلغته دعوة الإسلام، وصحح غيره أنه عام لكل من أسلم من أهل الكتاب لما مر، وبه أفتى الإمام البلقينى فلا إشكال.

(وإن أحبكم إلى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، الموطنون أكنافا الدين يآلفون ويؤلفون): هذا أيضا من جوامع كلمه صلى الله تعالى عليه وسلم وبدائع حكمه، وهذا الحديث رواه الترمذى، عن ابن مسعود، وجابر رضى الله تعالى عنهما، ورواه الطبرانى وزاد فيه: «وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى مجلسا يوم القيامة الثرثارون المتفيهقون المتشدقون» وزاد غيره: «المشاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة المتمسكون للبراء العيب» واقتصر المصنف رحمه الله تعالى على بعضه، وفيه روايات مختلفة بالزيادة والنقص، وأحب أفعال تفضيل من المبنى للمجهول وفعله ثلاثى؛ لأنه يقال: حبه بمعنى أحبه فهو محبوب، وإن كان قليلا، وصوغه من المجهول مقصور على السماع فى الأصح، ومجالس جمع مجلس وهو محل الجلوس منصوب على أنه تمييز، والتمييز يجوز إفراده وجمعه كما بينه النحاة، ونسبة القرب له كناية عن رضاه عنهم وشفاعته صلى الله تعالى عليه وسلم لهم فى الموقف. وأحسن: جمع أفعال تفضيل وجمع لمطابقة ما هو له وهو المضاف إليه، واستدل النحويون بهذا الحديث على أن أفعال التفضيل إذا أضيف لمعرفة يجوز أن يطابق موصوفه، وأن لا يطابقه لإفراده أحب وأقرب، وجمع أحاسن بخلاف ما إذا أضيف لنكرة فإنه يلزمه الأفراد والتذكير، ولا حاجة إلى القول بأنه انسلخ عن معنى التفضيل وصار بمعنى حسن، وإن ورد كثيرا فى كلامهم كما قال ابن مالك رحمه الله تعالى، بناء على أن الأحيية وكثرة الثواب بحسن الخلق فى الجملة، والأخلاق

جمع خلق وقد تقدم بيانه. والموطئون: بضم الميم وفتح الواو والطاء المهملة المشددة وبعدها همزة مضمومة جمع موطأ اسم مفعول. وقال البرهان الحلبي: إنه في الأصل الذى وقف عليه بفتح الطاء من غير تشديد، وهو من فيه لين ورفق وسهولة من التوطئة وهى التمهيد والتذليل، يقال: دابة وطفه أى لا تحرك راكبها و فراش وطى لا يؤذى النائم عليه، وهو في الأصل على طريق التمثيل والاستعارة، كأنه يمكن غيره من وطفه بأقدامه فأريد به ما مر، والأكناف: جمع كنف بزنة جمل وهو الناحية والجانب، أى من يلين جانبه لغيره، والمراد: من يلتجأ إليه ويعتمد عليه، والأول أنسب بما بعده من قوله: «الذين يألفون ويؤلفون»، أى: الذين يألفهم الناس ويألفونهم من الألفة بالضم وهى الاجتماع مع حسن المعاملة والعشرة، والثرثار: الكثير الكلام فيما لا يعنى، مستعار من عين ثرثرة إذا كانت كثيرة الماء، وكذا المتفهيق وهو مفعيل من الفيهقة، من فهِق الغدير يفهِق بفتح الهاء فيهما إذا كثر ماؤه، والمتشدقون: الذين يتكلفون في كلامهم بفتح أشداقهم كما قيل:

تشادق حتى مال بالقول شذقه وكل خطيب لا أبا لك أشدق

ورود في هذا الحديث أن الصحابة رضى الله تعالى عنهم قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفهيقون؟ قال: «المتكبرون». وهو غير مخالف لما تقدم، لأن المعجب بنفسه وكلامه تدعوه حاله إلى التكبر، وفي التقريب: الفهِق الاتساع وكل شيء توسع فقد تفهِق، وأنشد المبرد<sup>(١)</sup>:

تفهِق بالعراق أبو المثنى وعلم قومه أكل الخبيص

وفهِق الغدير يفهِق فهِقا وفهِق الرجل بالكلام امتلا. انتهى.

ثم عقبه بما يناسبه من جوامع الكلم فقال: (وقوله) صلى الله تعالى عليه وسلم (لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا يغنيه) هذا حديث صحيح روى من طرق بعضها موافق لكلام المصنف رحمه الله تعالى، وفي بعضها مالا ينقص، وفي بعضها مالا يضره، وضميره راجع للرجل المذكور في أول الحديث الذى رواه البيهقي عن أنس رضى الله تعالى عنه في الشعب: أن رجلا من الصحابة استشهد بأحد فقالت له أمه: يا بنى ليهنتك الشهادة فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لها: «وما يدريك لعله». الخ وأخرج الترمذى من حديث حفص بن غياث عن الأعمش عن أنس رضى الله تعالى عنه

(١) البيت من الوافر، وهو للفرزدق في ديوانه (٣٨٩/١)، لسان العرب (٤٨٣/٣)، تهذيب اللغة (٤٠٤/٥)، المخصص (١٧٩/١٣)، ديوان الأدب (٤٥٧/٢).

قال: توفى رجل من الصحابة فقالوا له: أبشر بالجنة، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «أو لا تدرون فلعله قد تكلم بما لا يعنيه أو بخل بما لا ينقصه» وأخرجه البيهقى من هذا الوجه أيضا وقال: هذا هو المحفوظ، قال خاتمة الحفاظ الجلال السيوطى رحمه الله تعالى: ومعناه أنه لا يهنئ ويبشر بالجنة إلا من لم يصدر عنه مثل هذا، فلعله يعاقب عليه. ويعنيه بفتح المثناة التحتية وسكون العين المهملة والنون بمعنى يهمله وينفعه من عناءه يعنيه، ومنه الحديث: «من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه»<sup>(١)</sup> وفيه نهى عن التكلم بما لا يلزم ولو مباحا لما فيه من تضييع الأوقات، ومن ترك الأهم كذكر الله تعالى عز وجل وتلاوة القرآن، وإذا نهى عن هذا فما بالك بالتكلم بكل قبيح كالغيبة والنميمة.

وقوله: «ويبخل بما لا يعنيه»: بضم المثناة التحتية وسكون الغين المعجمة وبين يعنيه ويعنيه تجنيس، والبخل ترك البذل ومنع العطاء اللازم كالزكاة والنفقة على من تلزمه نفقته، أو المستحسن مروءة كالتصدق على الفقراء وتفريج ضيق الإخوان وإطعام الطعام، وتخصيصه بالأول غير ظاهر، وكان الظاهر أن يقال بما لا يحتاج إليه كما فى الرواية الأخرى: «لا يضره ولا ينقصه» فعدل عنه لأنه أبلغ، فهو كناية عما ذكر، لأنه يعلم منه بالطريق الأولى، أو المراد مالا غناء له عنه. والبخل: صفة ذميمة لا تعقب إلا الخسارة، كما ورد عنه صلى الله تعالى عليه وسلم: (بشر مال البخيل بحادث أو وارث). وقال الشاعر كما مر:

يغنى البخيل يجمع المال مدته وللحوادث والوراث ما يدع  
كدودة القزماتبيه يهلكها وغيرها بالذى تبنيه ينتفع

(وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم ذو الوجهين لا يكون عند الله وجهها) هذا حديث رواه أبو داود عن عمار بلفظ: «ذو الوجهين وذو اللسانين فى النار» فيقال له ذو الوجهين وذو اللسانين، ويقال له ذو الأوجه كما قال:

وكم من فتى يعجب الناظرين له ألسن وله أوجه

وإذا كان ذو الوجهين كذا فذو الأوجه معلوم بطريق الأولى، وبين الوجه والوجه جناس اشتقاق، كقوله تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣] وفيه لطافة لما فيه من جعل كونه له حالين متخالفين وكلامين غير متوافقين عند رجلين على وجه الإفساد إذا كانا متحابين، أو على وجه الإضرار إذا كانا متعادين، بمنزلة من له وجهان يأتي هذا بوجه وهذا بآخر، كما قالوا: خرج بوجه وأتى بوجه غيره، والوجه الذى له

(١) أخرجه أحمد (٢٠١/١)، والترمذى (٢٣١٨)، وعبد الرزاق (٢٠٦١٧).

قدر ومنزلة، والمراد بكونه لا منزلة له عند الله تعالى أنه لا يرضاه ولا يحبه لقباحة فعله، أما لو فعل ذلك لإصلاح ذات البين وإزالة ضغائن القلوب ونحو ذلك، فهو أمر حسن ليس داخلا فيما مر، وقال التجانى: ذو الوجهين هو الذى يأتى كل قوم بما يرضيهم خيرا كان أو شرا، فيظهر لأهل المنكر أنه راض عنهم فيستقبلهم ببشر منه وترحيب، ويظهر لأهل الحق أنه عنهم راض فيريد إرضاء كل فريق منهم، ويظهر أنه معهم وإن كان ليس كذلك باطنا. وروى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه، عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «إن من شر الناس ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»<sup>(١)</sup>. خرجه مسلم. وعن أنس رضى الله عنه، عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «من كان ذا لسانين فى الدنيا جعل الله له لسانين من نار يوم القيامة»<sup>(٢)</sup>.

(ونهي عن قيل وقال) هذا حديث صحيح رواه الشيخان عن مغيرة بن سهم، وفيه ثلاثة أوجه، فقليل: القيل والقال مصدران بمعنى القول. وقيل: فعلاان أحدهما مبنى للمجهول. والثانى: غير مجهول وجوز فيه أن يحكى مبنيًا على الفتح، وأن يعرب إعراب الأسماء وينون، ومنه تعلم أن نقل الجمل يجرى فى غير الإعلام كما صرح به المازوقى، وذكر له نظائر هذا ما يتعلق بلفظه، وأما معناه فالنهي عن كثرة الكلام لما يؤل إليه من الخطأ، وكونهما بمعنى لا وجه له، فقليل: إنه إشارة إلى حكاية كلام الناس، فالأول حكاية عن غير معين. والثانى عن معين. وقيل: الأول عبارة عن السؤال والثانى عن الجواب. فالمعنى أنه نهى عن كثرة البحث والجدال فى الدين وغيره مما لا يلزم. وقيل: إنه نهى وزجر عن كثرة الكلام مبتدئا ومجيبا.

(وكثرة السؤال) أى سؤال الناس ما بأيديهم استعطاء، وهو للقادر على الكسب من غير ضرورة حرام، وهو الذى ارتضاه علماؤنا. وقيل: مكروه، أو السؤال عن أخبار الناس وأحوالهم. قيل: وهذا يعنى عنه قوله عن قيل وقال، أو السؤال عن المشبهات والبحث عنها والتكلف فى تحريجها وتوجيهها، وقد ورد النهى عن ذلك، أو المراد نهيمهم عن سؤال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن أمور لا يؤذن فى السؤال عنها، كما قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ فَسْأَلُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] ويرد عليه أنه لو أريد هذا قال: وعن السؤال من غير ذكر الكثرة، وأجيب بأن كثرة بضمه لما أذن فى السؤال عنه، وهذا يتضمن النهى عن أحدهما؛ لأن

(١) أخرجه مسلم (٢٥٢٦/٩٨)، والبيهقى (١٦٤/٨، ١٩٦/١٠).

(٢) أخرجه ابن حبان (١٩٧٩)، والبخارى فى الأدب المفرد (١٣١٠)، والبيهقى (٢٤٦/١٠)، وأبو

نعيم فى الحلية (٢٨٢/٨).

النهى عن مجموع أمرين أحدهما هو المنفى عنه فى نفس الأمر نظرا إلى هيتهما المجموعة يتضمن النهى عن خصوص ذلك النهى عنه، ولا يخفى ما فيه من التكلف لادعاء أمر لا يدل عليه اللفظ.

(وإضاعة المال) بأى طريق كان سواء كان ماله أو مال غيره كالإنفاق فى الحرام، وإهمال ماله وعدم تنميته حتى يهلك، ودفع مال السفه له، والإسراف فيما لا فائدة فيه، كل ذلك منهى عنه، وعد من إضاعته حبسه وعدم صرفه فيما يليق، كما قيل: وما ضاع مال أورث المجد أهله . ولكن أموال البخيل تضيع ومن هان عليه المال توجهت إليه الآمال، ومن بسط راحته آنس ساحته، وكما قلت:

وتكرم نفس المرء إن هان ماله وكل كريم النفس فهو كريم وقيل: تصدق المحتاج والمديون حرام، وكذا تصدقه بجميع ماله. وقال السبكي رحمه الله تعالى فى فتاواه: الضابط فى إضاعة المال أن لا يكون لغرض دينى أو دنيوى، فإذا انتفيا كان إضاعة، وحل حرمة ما مر إذا لم يصير ويتوكل على الله حق التوكل، لقوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

(ومنع وهات) منع منون مجرور، وجوز فيه أن يكون فعلا ماضيا وهو بعيد، والمراد منع بذل ما يجب أو يستحسن أو مطلق الإمساك. وهات بكسر المثناة الفوقية أى طلب ما عند غيره وسؤاله، وهو فعل أمر أصله آت فقلبت همزته هاء وهو مذهب الخليل رحمه الله تعالى، وعليه أكثر النحاة.

(وعقوق الأمهات) العقوق مخالفة الوالدين وإيذاؤهم ضد البر من العق وهو القطع، والأمهات جمع أمهة وهى الأم، وأصل الأم أمهة لجمعه على أمهات وتصغيره على أمية، وقد جاء أصله من المضاعف لقولهم أمات وأميمة، وقال بعضهم: أكثر ما يقال أمات فى البهائم ونحوها مما لا يعقل، وأمهات فى الإنسان، وخص الأمهات مع أن عقوق الوالدين من الكبائر؛ لأنهن أكثر حمقا وشفقة على الولد، ولذا لما سأل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أبوك»<sup>(١)</sup>. وهو حديث صحيح. وأيضا لما لم يكن للنساء تلك الحرمة خصهن ليحثهم على برهن وبينه

(١) أخرجه البخارى (٢/٨)، ومسلم (٢٥٤٨/١)، وأبو داود (٥١٣٩)، والترمذى (١٨٩٧)، وابن ماجه (٣٦٥٨)، وأحمد (٣٢٧/٢)، والحاكم (١٥٠/٤)، والبيهقى (١٧٩/٤).

على ما يجب لهن، قيل: ومنه يؤخذ أنه إذا أعطى والديه شيئا يزيد عطية الأم على الأب وأكثر العقوق يكون لهن، وقال: حكمة الثلاث فى الحديث مشقة الحمل والوضع والرضاع. وذهب الجمهور إلى أنها تفضل على الأب فى البر، ونقل عن مالك وبعض الشافعية التسوية بينهما والأول أصح.

(وواد البنات) الواد: بفتح الواو وسكون الهمزة والبدال المهملة، وأصله الصوت الشديد، وهو دفن البنات فى حياتهن، إما أنفة وغيره من النكاح أو خوفا من الفقر، والمدفونة حية حالة الدفن تصيح غالبا. وما فى الشرح الجديد من أنها سميت بذلك لما يطرح عليها من التراب فيؤدها أى يثقلها ومنه: ﴿وَلَا يَتُودُّوْهُ حِفْظُهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥] غلط فاحش لاختلاف مادتيهما، فإن مادة الأول وأد والثانى أود، واختلاف معنيهما كما بينه أهل اللغة، وادعاء القلب لا حاجة إليه وكان هذا فى الجاهلية، وأول من فعله قيس بن عاصم التميمى فنبهه العرب على ذلك، وكان بعضهم يقتل أولاده مطلقا، وكان مصعب بن ناجية جد الفرزدق منع الواد فى الجاهلية، كما قال<sup>(١)</sup>:

وجدى الذى منع الوائدات وأحىى الوئيد فلم يواد

وخص البنات لأنه الغالب، وكانوا على فريقين، فمنهم من يحفر حفيرة تلد المرأة عندها، فإن وضعت ذكرا أبقتة وإن وضعت أنثى ألقتها فى الحفيرة وردم عليها التراب، فإن لم يفعل ذلك وصارت سداسية، ذهب أبوها لبئر ورمها فيها بعدما طيبتها أمها وزينتها. وفى الجاهلية من نهى عن ذلك كزيد بن عمرو بن نفيل، فلما جاء الشرع أبطل ذلك، وقد جعلوا العزل وأدا خفيا وهو المؤودة الصغرى، ووجهه ظاهر وهو حرام أو مكروه، وفيه تفصيل ذكره الفقهاء، ثم نهيه صلى الله تعالى عليه وسلم عن الثلاثة الأول من هذه الأمور الستة نهى كراهة وعن البقية نهى تحريم، لكن ليس بصيغة النهى بل يقتضى الحديث الآخر الصحيح، وهو أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات»<sup>(٢)</sup> إلى آخره وبقي كلام زائد على مقتضى المقام.

(وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم اتق الله حيث كنت) وفى نسخة الدجلى: «حيث ما كنت» وهذا الحديث رواه أحمد والترمذى والحاكم عن أبى ذر رضى الله تعالى عنه، ولا فرق بين الروايين معنى؛ لأن ما زائدة والتقوى حفظ النفس عن ارتكاب المعاصى ولها مراتب فصلها القاضى فى أول سورة البقرة، وحيث ظرف مكان يضاف للجمل،

(١) البيت من المتقارب، وهو للفرزدق فى ديوانه (١٧٣/١)، كتاب العين (٩٧/٨)، جمهرة اللغة

(ص ٢٣٣)، تهذيب اللغة (٢٤٣/١٤)، تاج العروس (٥٩١/٦).

(٢) أخرجه البخارى (١٥٧/٣)، ومسلم (٥٩٣/١٢)، والبيهقى (٦٣/٦).

والمراد بها هنا التعميم أى فى أى مكان وأى حال، وقيل: إنها هنا ظرف زمان بناء على مجيئها للزمان؛ لأن التقوى فى جميع الأزمنة أعم منها فى جميع الأمكنة، وقيل: إن الرواية: «حيث ما كنت» وقال غيره: إنه روى بحذفها أيضا، والأمر لرواية أو لكل من يقف عليه ليعم كل مأمور، وباعتباره أفرد الضمير كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧] ولنا فيه كلام ليس هذا محله.

(واتبع السيئة الحسنة تمحها) هذا وما قبله وما بعده حديث واحد، رواه الترمذى وقال: إنه حديث حسن صحيح، والمراد باتباعها إياها فعلها بعدها وجعلها تابعة لها، أى واقعة بعدها بحيث تقرب منها، وفى معنى الحديث قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِيَّاتٍ﴾ [هود: ١١٤]، ومحوها وإزهاها بمعنى تكفيرها وعدم مؤاخذه الله بها فكأنها لم تكن، والمراد بالسيئة الصغيرة لقوله فى الحديث: «الصلاة إلى الصلاة كفارة لما عدا الكبائر». وقالت المرجئة: إنه شامل للكبائر والصغائر. وقال بعض المعتزلة: المراد أن الحسنات تكون سببا لترك الذنب ولا تكفر شيئا أصلا. ويحتمل أن المراد بالحو حقيقة، والمعنى أنها تمحى من كتاب أعماله وتمحها مجزوم فى جواب الأمر، ولا بعد أن هذا مقيد بغير حقوق العباد، أما هى كالغيبه فإنه لا يحوها إلا الاستحلال إذا بلغت من قيلت فيه بعد بيان جهة الظلامة إن أمكن، وإلا فقالوا: ينبغى أن يكثّر من الاستغفار والدعاء له، ويكثر من فعل الحسنات لحديث: «إذا اغتاب أحدكم أخاه من خلفه فليستغفر له فإن ذلك كفارة»<sup>(١)</sup> ولهذا زيادة بيان وتفصيل فى كتاب المكفرات للسيد السمهودى رحمه الله تعالى.

وقوله: (وخالق الناس بخلق حسن) قد علمت أنه من تنمة ما قبله، وخالق: أمر من خالقه يخالقه بمعنى عاشرهم وخالطهم وعاملهم بما تحب أن يعاملوك به، فليس المقصود المفاعلة بل هو لأصل الفعل، أو هو على أصله يجعل المطلوب منهم بمنزلة الواقع، والخلق بضمين وضم فسكون السجية والطبيعة التى طبعوا عليها، وفيه إشارة إلى أنه يمكن اكتسابه وإلا لم يكن للأمر به فائدة كما ورد: «يا معاذ حسن خلقك مع الناس»<sup>(٢)</sup> أى عاملهم بطلاقة وجبر الخواطر، وكف الأذى، فإن ذلك مؤدى لاجتماع القلوب وانتظام الأحوال، وهو جماع الخير وملاك الأمر، كما قلت:

(١) أخرجه ابن الجوزى فى الموضوعات (١٨/٣)، وابن عدى فى الكامل (١٠٩٨/٣)، وأورده الذهبى فى الميزان (٣٤٩٥)، وابن حجر فى اللسان (٣٣٢/٣)، والسيوطى فى اللآلى (١٦٢/٢).

(٢) أورده الزبيدى فى الإتحاف (٣٣٢/٧).

إن رمت أن تحظى بعز وهنا فاجتنب الناس وكن عنهم غنى  
وإن تخالطهم فكن ذا عفة وخالق الناس بخلق حسن

(وخير الأمور أوسطها) لما كانت الملكات المحمودة لها طرفا إفراط وتفریط مذمومان،  
والحمود ما بينهما وهو الوسط كالكرم بين التبذير والبخل، والشجاعة بين التهور  
والجبن، جعل الوسط منها مطلوبا على ما بين فى علم الأخلاق، وبه ورد التصريح فى  
الحديث الذى رواه العسكرى عن الأوزاعى بسنده، وهو: «ما من أمر الله تعالى به  
إلا عارض الشيطان فيه بخصلتين أيهما فعل أصاب الغلو والتقصير»<sup>(١)</sup>. وروى أبو يعلى  
بسند عن وهب بن منبه: أن لكل شىء طرفين ووسطا، فإذا أمسك بأحد الطرفين مال  
الآخر، وإذا أمسك بالوسط اعتدل الطرفان، فعليكم بالأوساط من الأشياء ويشهد له  
قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] أى بين غلو النصارى  
وتفریط اليهود. قال الشاعر:

عليك بأوساط الأمور فإنها نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا  
وقال الحريرى:

حب التناهى غلط خير الأمور الوسط  
وقال:

خير الأمور عندنا الأوساط ويكره التفریط والإفراط

وليس الوسط عندنا بمعنى الخير والحسن مطلقا، بل فى أمور مخصوصة اقتضى  
توسطها خيريتها، ألا ترى إلى قولهم: «أخو الدون الوسط»، وقولهم: «أثقل من مغن  
وسط لا مطرب ولا مضحك»، كما فى الروض الأنف. وهذا الحديث أخرجه  
السمعانى فى ذيل تاريخ بغداد عن على كرم الله وجهه عنه صلى الله تعالى عليه وسلم،  
وابن جرير فى تفسيره عن مطرف بن عبد الله ويزيد بن مرة الجعفى، وكذا أخرجه  
البيهقى بلا سند، وذكره الديلمى بلا سند عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن  
النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولفظه: «داوموا على أداء الفرائض فخير الأعمال  
أوسطها»<sup>(٢)</sup>. ويناسبه قوله: «أحب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما وأبغض  
بغيضك هونا عسى أن يكون حبيبك يوما ما»<sup>(٣)</sup>، والهون بفتح الهاء وسكون الواو والنون

(١) أورده الزبيدى فى الإتحاف (٣٣٦/٧).

(٢) أورده ابن عراق فى تنزيه الشريعة (٤١١/٢).

(٣) أخرجه الترمذى (١٩٩٧)، وابن حبان فى المجروحين (١٣٥/١)، وابن عدى فى الكامل =



مصدر كالقول: من هان عليه الشئ إذا خف وسهل، ومنه الهون فى المشى وهو الرفق واللين، فأرشد صلى الله تعالى عليه وسلم المتحابين إلى الاقتصاد فى المحبة وعدم المبالغة فيها، وكذا المتباغضين اللذين بينهما عداوة لا ينبغي لهما المبالغة فى العداوة وإظهارها، فليكن ذلك على قدر متوسط فإن خير الأمور الوسط، فقد ينتقل الحب إلى البغض والبغض إلى الحب، فيقبح تفاوت حالك وتغير أقوالك وأفعالك، فالهون هنا بمعنى التوسط وعدم الإفراط، وقد فسره به أهل اللغة، قال فى النهاية: أى لا تسرف فى الحب والبغض فعسى أن يصير الحبيب بغضاً والبغض حبيباً فيندم ويستحى. فدخل هذا الحديث تحت ما قبله. وقال ارسطاطاليس للأسكندر: لا تملأ قلبك بمحبة شئ ولا تستولين عليك بغضه، واجعلهما قصداً، فإن القلب كاسمه يتقلب. وقال بعض العرب:

وأحب إذا أحببت حبا متفاوتا      فإنك لا تدري متى أنت نازع  
وأبغض متى أبغضت غير مباين      فإنك لا تدري متى أنت راجع

وبين علته ابن الرومى بقوله:

احذر صديقك مرة      واحذر عدوك ألف مرة  
فلربما انقلب الصيد      ففكان أعرف بالمضرة

فإن قلت: كيف يدل على هذا التوسط وقد قالوا: إن ما تدل على القليل سواء قلنا إنها زائدة أو وسط على ما فصله فى قوله تعالى: ﴿مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ﴾ [البقرة: ٢٦] وهى هنا مشددة لقلب النون ميمًا وإدغامها فيها؟ قلت: لأن الوسط قليل بالنسبة للأعلى، وقيل: إنها تفيد تقليل التوسط والحب إذا كان على وجه التوسط فى القليل كان قليلا، ولكن غير خارج عن مراتب التوسط، بل عن مرتبة التوسط الوسطى، ومن الجائز أن يكون له مراتب متفاوتة قربا من الطرفين وبعدا منهما وعدم قرب وبعد منهما، وعند عدم القرب والبعد منهما يكون التوسط الكثير، ونعنى به التوسط التام كما بالتوسط القليل التوسط الناقص، والحق أنه لا تقليل فيها، وإنما المراد أى هون كان وما فى ذلك للتأكيد كما فى الآية، والتقليل لو سلم يفيد تنكير هونا. انتهى. وفيه نظر؛ وهذا الحديث كما قال السيوطى أخرجه البخارى فى الأدب، والترمذى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه، وقال التجانى: الأكثر على أنه من كلام على كرم الله وجهه. ورواه الحسن بن أبى جعفر مسندا عن على رضى الله تعالى عنه يرفعه للنسبى صلى الله تعالى عليه وسلم بإسناد ضعيف. وقال الترمذى: الأصح أنه موقوف على على، وذكر

الترمذى أيضا أنه ورد عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه. قال: وأراه رفعه وهو غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه، ومن رفعه القضاعى فى الشهاب، ورواه الماوردى مرفوعا فى أدب الدين والدنيا، وكذا الغزالى فى الإحياء، ورواه فى مسند الفردوس.

(والظلم ظلمات يوم القيامة): الظلم وضع الشىء فى غير موضعه، وقد يكون بمعنى النقص. قال تعالى: ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ لَهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣] أى لم تنقص منه شيئا، وأرض مظلومة أى لم تمطر فكأنها نقصت عن غيرها، والمراد به تعدى الحدود سواء كان فى حق أو فى غيره وتعريفه يراد به العموم، وأفرد الظلم وجمع الظلمات إما لأنه جمع معنى لاستغراقه فيكون كمقابلة الجمع بالجمع، أو إشارة إلى أن الظلم الواحد تعقبه ظلمات متعددة لفضاعته.

وقال ابن الجوزى: إن من ظلم نفسه أو غيره نشأ ذلك عن قسوة قلب، ثم يعقب ذلك تعديد ومبارزة ربه بمخالفته، فلذا تعدد جزاؤه، وتلك الظلم إما حقيقة حسية كما أن المؤمن المطيع له نور يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ مُرُومَهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَنْفِهِمْ﴾ [الحديد: ١٢] الآية. ومنهم من حمل الظلمة على الأحوال والشدائد كما فسر به قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٦٣] أى شدائدهما، ولا حاجة إلى صرفه عن حقيقته مع إمكانها، وهذا الحديث صحيح أخرجه البخارى، وترجم له وأسنده إلى ابن عمر رضى الله تعالى عنهما، ورواه كما رواه المصنف: «الظلم ظلمات يوم القيامة»<sup>(١)</sup> ورواه مسلم: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من قبلكم، حملهم على أن سفكوا دمائهم واستحلوا محارمهم»<sup>(٢)</sup>. وبذلك علم أن ما ذكره المصنف رحمه الله تعالى من حذف إن رواية فيه، فلا يقال إنه أخل بلفظه أو وقع على رواية فيه غير مشهورة، وحمل على الظلم الظلمات وجعلها عينه لأنه سببها مبالغة.

(وقوله) أى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم (فى دعائه): أى فى بعض دعواته المأثورة، وقد جمع العلماء أدعيته فى كتب مستقلة من وقف عليها رأى فيها من هذا النمط أمورا عجيبة، وهذا الحديث رواه الترمذى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما

(١) أخرجه البخارى (١٦٩/٣)، والترمذى (٢٠٣٠)، وأحمد (١٣٧/٢)، والبيهقى (٩٣/٦)، (١٣٤/١٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٨/٥٦)، وأحمد (٩٢/٢)، والحاكم (١١/١)، والبخارى فى الأدب المفرد (٣٨٣).

وقال: إنه غريب. قال: سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول ليلة حين فرغ من صلاته: (اللهم إني أسالك رحمة من عندك)، وفي رواية عن المصنف «رحمة» بدون قوله: «من عندك» والأولى هي المذكورة في الترمذى، وعند إذا أضيف إلى الله لها معان، منها العلم كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥] وتكون بمعنى الحكم نحو: ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قُوزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥] وبمعنى التفضيل والإنعام من غير مقابلة عمل، نحو: ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٧]، وبهذا فسر البرهان هنا، أى أطلب منك إحسانا بمجرد فضلك لا فى مقابلة عمل. وقيل: بل معناها قرب المنزلة أى أسالك رحمة تقربنى إليك. والهداية وغيرها بمحض فضل الله إذ لا يجب عليه شىء، فقوله: «من عندك» ليس معناه لا فى مقابلة طاعة لإشعاره، بل ما كان فى مقابلتها ليس بمحض الفضل، فذلك نسبة تشريف وتعظيم وتنويه وتكريم. انتهى. وليس بوارد لأن ما فى مقابلة العمل ليس بطريق الوجوب، بل بمقتضى وعده وحكمه السابق، وهو تفضل مخصوص منه أيضا. وقيل: معنى العندية عموم نفعها وجدواها بدون وسائط، وهو تكلف لا يساعده اللفظ والرحمة بمعنى الإنعام أو إرادته كما حقق فى محله.

(تهدى بها قلبى) أى تدله أو توصله إلى ما يقربنى من حضرة قدسك لأشاهد نفحات أنسك.

(وتجمع بها أمرى) أى تنتظم بها أمورى وشأنى حتى لا يكون لها تشتت.

(وتلم بها شعئى) أى تلم برحمة من عندك وتجمع ما تشتت وتفرق من أمرى، وهو كالتفسير لما قبله. قال الجوهري: الشعث انتشار الأمر، يقال: لم الله تعالى شعثك أى جمع أمرك انتهى. وأصله انتشار الغبار فى الهواء.

(وتصلح بها غائبى) بالغين المعجمة والباء الموحدة فسروه بباطنى، أى ما خفى من أمورى عنى وعن غيرى. وقيل: المراد قلبى وصلاحه بصلاحيته من الإخلاص والصدق والتوكل والتوحيد.

(وترفع بها شاهدى) أى ظاهرى من الشهود وهو الحضور والمعاينة، وهو مقابل لقوله غائبى وبينهما صنعة الطباع، وقيل: أراد بهما الدنيا والآخرة. ورفعها: أى جعلها عالية رفيعة بالأعمال الصالحة والصفات الحسنة. وقيل: المراد بظاهره جسده ورفعته سلامته من الآفات وعصمته من البليات، وقد دل صلاح قلبه عليه بصلاحيته صلاح غيره، لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «إن فى القلب مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله».

(وتزكى بها عملى) أى برحمة وتفضل منك تجعل عملى كله مباركاً مقبولاً سالماً مما ينقصه كالرياء، أو هو من تزكية الشهود، أى تجعله ممدوحاً وهما متقاربان.

(وتلهمنى بها رشدى) الإلهام إيقاع الخير فى القلب، والرشد والرشاد السداد والاستقامة. والرشيد فى أسماء الله تعالى هو الذى يرشد عباده لمصالحهم ويدبره.

(وترد بها ألفتى) بضم الهمزة وكسرهما وسكون اللام وفتح الفاء يليها تاء تأنيث وياء متكلم مصدر بمعنى المفعول، أى: ما كنت آلفه كالأليف ما تحبه وتريد اجتماعه، وردها عودها إلى ما كانت عليه. والمراد: عشيرته وأقرباؤه وأهل جلدته، فدعا الله أن يألهم ويهديهم للإسلام، كما يقال: رد الله عليه ضالته أى جمع بينه وبينها. وقيل: المراد حاله التى كان عليها فى عالم الذر والأرواح من حب الله وتعظيمه وخلوصه من الكدورات الجسمانية وهو بعيد.

(وتعصمنى بها من كل سوء) أصل معنى العصمة المنع والحماية، أى يصوننى ويحفظنى مما يسوءنى، والباء فى المواضع كلها سببية. وزاد التجانى هنا: اللهم أعطنى إيماناً ويقيناً ليس بعده كفر، ورحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة.

(اللهم إنى أسألك الفوز فى القضاء) وروى فى العطاء. والفوز والنجاة والظفر فى القضاء والقدر بالفتح والسكون. بمعنى فى اللغة، ومنهم من يفرق بينهما فيجعل القدر: تقدير الله الأمور قبل أن تقع. والقضاء: إنفاذ ذلك القدر وخروجه من العدم إلى حيز الوجود وهو الصحيح، لأنه قد جاء فى الحديث أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مر بكهف مائل للسقوط فأسرع المشى حتى جاوزه. فقيل له: أتفر من قضاء الله؟ فقال: «أفر من قضائه إلى قدره» ففرق بين القضاء والقدر، وبين أن الإنسان يجب عليه أن يتوقى ما يضره قاله البطليوسى. فالمعنى أنه سأل الله النجاة من كل سوء قضاه على غيره أو عليه معلقاً على أمر.

وقوله: (ونزل الشهداء) النزل بضم النون والزأى وتسكن، وهو مصدر جعل اسماً لما يعد للضيف إذا نزل من القرى والكرامة، أراد ما لأرواحهم فى البرزخ ولهم فى الجنان من الإكرام والرزق والثواب، وقد فاز صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك لما منحه الله من الشهادة مع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

(وعيش السعداء) إما أن يريد بالعيش الحياة بأن يكون سعيداً فى الدنيا معزراً مكرماً موفقاً لما يرضاه، فائزاً بكل شئ يتمناه، أو فى الآخرة بأن يحياه حياة مخلدة منعماً فيها بما يليق بجنابه، لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُودُوا فففى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [هود: ١٠٨]

الآية. والأحسن أن يريد مجموعهما. والعيش أصل معناه الحياة. والسعداء: جمع سعيد ضد الشقى وبعده في الدعاء ومرافقة الأنبياء:

(والنصر على الأعداء) أى الانتصار عليهم وغلبتهم، والأعداء جمع عدو وضده الصديق، وثمائه: «اللهم أنزلت بك حاجتى يا قاضى الأمور، ويا شافى الصدور، كما تجير من البحور أن تجيرنى من عذاب السعير، ومن دعوة الثبور، ومن فتنة القبور، اللهم وما قصر عنه رأى وضعف عنه علمى ولم تبلغه نيتى أو أمنيته من خير وعدته أحدا من عبادك، أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك، فإنى أرغب إليك فيه، وأسئلك يا رب العالمين اللهم اجعلنا هادين مهدين غير ضالين ولا مضلين، حربا لأعدائك وسلماء لأوليائك، نجب بحبك الناس ونعادى بعداوتك من خالفك من خلقك، اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة، وهذا الجهد وعليك البلاغ، ولا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم ذا الحبل الشديد، والأمر الرشيد، أسئلك الفوز يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود، والركع السجود، الموفين بالعهود، فإنك رحيم ودود وأنت تفعل ما تريد، سبحانه من تفرد بالعز، وقال به، سبحانه الذى لبس المجد وتكرم به، سبحانه الذى لا ينبغى التسييح إلا له، سبحانه ذى الفضل والنعم، سبحانه ذى القدرة والكرم، سبحانه ذى الجلال والإكرام، سبحانه الذى أحصى كل شيء بعلمه، اللهم اجعل لى نورا فى قلبى، ونورا فى قبرى، ونورا فى سمعى، ونورا فى بصرى، ونورا فى شعرى، ونورا فى بشرى، ونورا فى لحمى، ونورا فى دمي، ونورا فى عظامى، ونورا فى يدي، ونورا من خلفى، ونورا عن يمينى، ونورا عن شمالى، ونورا من فوقى، ونورا من تحتى، اللهم اعط لى نورا واجعل لى نورا». انتهى.

وقوله اعط لى باللام لمشكلة اجعل لى، فلا وجه لما قيل أعطنى؛ لأنه لا يتعدى باللام إن صحت الرواية، وفي رواية: «اللهم أعظم لى نورا وأعطنى نورا واجعل لى نورا»<sup>(١)</sup> وما وقع فى هذا الدعاء من السجع لا ينافى ما قيل من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يكرهه، لأن محله ما إذا كان عن تصنع وتكلف ملتزما، فأما ما جاء من غير تكلف فلا بأس به. وقد روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه كان يكره السجع إذا كان عن تعمد، لأنه من التكلف وهم براء منه، فمجيئه منه كتكلمه بالنظم منزه عنه، أما صدوره منه أحيانا وإن التزم كما هنا فغير مكروه كما ورد فى القرآن، ولذا قيل: إنه يصح إطلاق السجع عليه، ثم أشار إلى أن ما ذكره قطرة من بحر، فإن شئت الوقوف على غيره فأضف ما ذكر.

(إلى ما روته الكافة عن الكافة) فما رواه كثير من الناس لا يحصون فكافة، وإن كان بمعنى جميعا لأنه اسم فاعل أو مصدر كالعافية والفاقة فى قول من كف إذا جمع أطرافه، أو من كف بمعنى منع لأنه كان يمنع من الزيادة عليه، أريد به الكثرة كما وردت كل كذلك كثيرا إذ لم يروه جميع الناس ولا جميع المحدثين، لكنه لما شاع وذاع فكأنه كذلك، ثم إن سيبويه قال: إن كافة يلزم التنكير والنصب على الحالية كعامية وقاطبة وطراً ونحوه، وزاد غيره أنها لا تثنى ولا تجمع ولا تطلق على غير العقلاء، ولم يرد ذلك فى كلام الله تعالى ولا كلام العرب، ووهما من استعمالها على خلاف ذلك كابن نباتة فى خطبة، وصاحب الكشاف فى كشافه، وفى قوله فى خطبة المفصل: محيط بكافة الأبواب لإخراجه لها عن النصب والتنكير واستعمالها فيما لا يعقل. وأما قول الجوهري: الكافة الجميع من الناس فلا وهم فيه، لأن النكرة إذا أريد لفظها يجوز أن تعرف فلا وهم فيه، كما توهم صاحب الدرة وتبعه بعض الشراح هنا، فإنه ليس مما نحن فيه.

أقول: هذا وإن اتفقوا عليه لا وجه له رواية ودراية، أما الأول: فلأن العرب إذا استعملت لفظا فى معنى وضعته له على وجه خصوص من الإعراب لم يلزم غيرهم اتباعهم فيه، ولو قلنا بذلك لأدى إلى التضيق على الناس فى استعمال الألفاظ العربية، وعد هذا ونحوه لحنا كما قاله الحريرى لا وجه له، وأما الثانى: فلأنه روى عن عمر رضى الله تعالى عنه استعماله فى كتاب لبنى كاكلة المروى عنه رواية ثابتة، وعن على كرم الله تعالى وجهه فى ذلك أيضا، حيث كتبه بعينه بين جمع من الصحابة، وناهيك بهم فصاحة، فإن أردت تفصيله فانظره فى شرحنا لدرة الغواص.

وقوله: (من مقاماته ومحاضراته) بيان لما فى ما روته، والمقامات: بفتح الميم جمع مقامة مفتوحتها، وهى اسم لكان القيام وتوسعوا فيه فاستعملوها لمطلق المكان، كقوله:

وكالمسك ترب مقاماتهم وترب قبورهم أطيب

ثم كثر فيه فاستعملوه لمن قام فيه كما سموهم مجلسا فى قوله:

واستب بعدك يا كليب المجلس

وزادوا فى التوسع حتى سموا به الكلام الصادر فيه مقامه كمقامات البديع والحريرى، ومثله من التجوز كثير، ومنه تعلم أن المجاز على المجاز لا يقتصر على مرتبة واحدة كما يوهمه كلامهم، فالمراد به الكلام الصادر منه فى مجالسه وخطاب أمته صلى الله تعالى عليه وسلم فى حال حكمه وحروبه، ولا يخص بالخطب لكونه يخطب قائما لذكره لغيره، وإن كان المقام مقام خطابة يغتفر فيه الإسهاب، ولما أريد به هنا الكلام

وقع بياننا لما روته الكافة عن الكافة، والمحاضرات جمع محاضرة لا محضرة كما توهم، بضم الميم وحاء مهملة وضاد معجمة وراء مهملة أصل معناها، كما قاله الجوهري: من حاضرتة إذا جائتته أى جالسته عند السلطان، وهو كالمبالغة والمكاثرة، وحاضرتة حضارا عدوت معه. انتهى. يعنى أنها مفاعلة من الحضور عنده، أو من الحضر بالضم فمعناها مجازة المجلس جلسه فى الكلام، بأن تتكلم بما عندك فيما يحظر على بالك، ويتكلم هو فى ذلك معك، فالمراد مصاحبة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع أصحابه أحيانا، ومصاحبتهم له كالتحدث بأمور سلفت ونحوها مباشرة ولا ملاطفة. ومنه كتب المحاضرات الأدبية كمحاضرات الراغب.

(وخطبه) جمع خطبة بضم فسكون من خطب الخاطب خطابه بالفتح، وخطبة بالضم إذا تكلم بكلام فى أمر مهم، سواء كان قائما على منبر والكلام مسجع أم لا وهى معروفة.

(وأدعيته) جمع دعاء كوعاء وأوعية، وهى سؤال الله وتوجهه إليه فيما يهيمه (ومخاطباته) أى توجيه الخطاب لغيره حسبما اتفق.

(وعهوده) أى كلامه إذا أخذ العهد والميثاق على غيره من المسلمين كما فى كتبه للملوك وغيرهم، وقيل: المراد وصاياه.

(مما لا خلاف أنه نزل من ذلك مرتبة لا يقاس بها غيره) أنه بتقدير فى أنه لإطراد حذف الجار، قيل: إن وأن كما ذكره النحاة والضمير للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم أو لما، وذلك إشارة إلى البلاغة والفصاحة لسبقهما، أو للعلم بهما من سياق كلامه، ونزل منزلة ومرتبة أى محلا عاليا، ووصل إلى حد لا يصل إليه غيره، والمنزلة تستعمل فى الشرف والتناء للنقل، وفى بعض النسخ: «مرقبة» بالقاف أى محلا عاليا من شأنه أن يرقبه فيه ويطلع على أحوال غيره، وقوله: لا يقاس إلى آخره أى لا يساويه غيره، وضمير بها للمرتبة وضمير غيره للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، أو للكلام والقياس يتعدى بالباء وعلى يقال قاسه بغيره وعليه كما فى القاموس والأساس، وفى حواشى العنبد للأبهرى: القياس تقدير شئ بأخر، وعدى بعلى لتضمنه معنى البناء، وهو مخالف لما فى القاموس مع أن تعدى البناء بعلى فيه كلام فى حواشى تهذيب المنطق، وأما تعديته بلى فى قول المتنبي<sup>(١)</sup>:

من أضرب الأمثال أم من أقيسه إليك وأهل الدهر دونك والدهر

(١) البيت من الطويل، وهو فى ديوان المتنبي (٢/٢٣٠)، تاج العروس (١٦/٤١٦).

فلتضمنه معنى الضم والجمع كما قاله الواحدى.

(وحاز فيها سبقاً) حاز: بالحاء المهملة والزاي المعجمة بمعنى حوى واشتمل، وضمير فيها للمرتبة. والسبق: بفتح السين وسكون الباء الموحدة مصدر سبق، وأما السبق بفتحهما فما يجعل من المال للمراهنة فى المسابقة، أى ما توعده بإعطائه لمن سبق غيره وهو أولى هنا، فكأنه قال: لتحقيق سبقه أخذ وفاز بما يعد للسابقين. وأما السبق فى قول صدر الشريعة حفظته سبقاً وسبقاً فالمراد المعين لحفظ الأطفال وهو مولد مأخوذ من هذا.

(لا يقدر) بضم المثناة التحتية وفتح الدال المهملة المخففة مبنى للمجهول. (قدره) بسكون الدال أى مقداره، أى سبق كثير لا يلحقه فيه أحد ولا يعرف حقيقته، كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١].

(وقد جمعت من كلماته صلى الله تعالى عليه وسلم التى لم يسبق إليها) ضبطه الدجى وتبعه الشارح الجديد بالبناء للمفعول وسكون تاء التأنيث، والجار والمجرور نائب الفاعل ومن للتبعية، أى جمع الرواة بعض كلماته لم يسبق إليها ولم يتكلم بها غيره صلى الله تعالى عليه وسلم، أو من زائدة وكلماته نائب الفاعل، إلا أن فيه زيادة من فى الإثبات ومدخولها معرفة، أو نائب الفاعل ضمير الكلمات المعلومة من السياق، وهذا كله تكلف حملهم عليه أنه روى كذا، والفعل المجهول لا يؤنث إذا كان نائب فاعل جار ومجرور مؤنث، فلا يقال: أخذت من هند وعدوا مثله خطأ، لكن ابن جنى رحمه الله تعالى قال فى إعراب الحماسة: إنه سمع نادراً وبه قرئ فى الشواذ فى قوله تعالى: ﴿إِنْ نَعْتُ عَنْ طَائِفَةٍ﴾ [التوبة: ٦٦] فمن خطأ صاحب التلخيص فى قوله صوحبت معها لم يصب وسيأتى وجه آخر أظهر من هذا، وهو أن نائب الفاعل ما الموصولة فى قوله: ما يدرك الناظر، ولو قرئ بالبناء للفاعل وحذف المفعول جاز.

(ولا قدر أحد أن يفرغ فى قلبه عليها) قدر: بالتخفيف من القدرة، ويفرغ: بضم المثناة التحتية وسكون الفاء وكسر الراء المهملة والغين المعجمة، وهو صب المائعات فى ظرف، وقال: بفتح اللام اسم آلة كالعالم على خلاف القياس وقد تكسر لاه، وقيل: إنه معرب كالب، وقيل: إنه غير صحيح، والقالب ما يصب فيه ما يذاب من الجواهر كالفضة ليصاغ، ففيه استعارة مكنية تخيلية لجعله الكلام بمنزلة الجواهر وأسلوبه بمنزلة هيئة صياغته، وإثبات القالب له تخيل، وعليها بتقدير على هيأتها، وإن تحاكى، وفيه من البلاغة والمبالغة ما لا يخفى. وقيل: المراد بالقوالب الألفاظ لأنها قوالب المعانى، قال الجاحظ: استعمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المتوسط وهجر الغريب ورغب عن



الهجر، فلم يأت إلا بكلام حق وسدد بالتأييد جمع الرقة والجزالة تدخل الإذن بغير إذن ليحفظ وينقل عنه.

(كقوله حمى الوطيس) هذا حديث مروى عن العباس رضى الله عنه، ورواه مسلم والبيهقي عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما، وأنه قاله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم حنين، وقيل: إنه أول ما قاله بأوطاس، ففي التعبير به مناسبة لفظية متضمنة لبلاغته وإبداعه، أى اشتد الحرب، والوطيس: بفتح الواو وكسر الطاء المهملة يليها مثناة تحتية وسين مهملة وهو التنور أو شيء يشبهه، وقد فسره بضراب الحرب أراد المعنى المجازى، وقيل: هو الوطى الشديد الذى يطس الأرض أى يدقها، وقيل: هو حجارة مدورة إذا حميت لم يقدر أحد أن يطاها. قيل: ولم يسمع هذا الكلام من أحد قبل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو من بليغ الكلام، وفيه استعارة مصرحة مرشحة بقوله: حمى أى اتقد، وقد حماه إذا سخنه وهى عامية، وهو طرف من حديث طويل فى مسلم، ورماهم بحصى فانهمزوا فإن كان الوطيس بمعنى الحجارة ففيه مناسبة.

(ومات حتف أنفه) أى من غير ضرب ولا قتل ولا حرق ولا غرق ونحوه على فراشة، كأنه سقط على أنفه فمات. والحتف: الهلاك. وقيل: كانت العرب تتوهم أن روح المريض تخرج من أنفه وروح المجروح من جراحته، فكلمهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على قدر عقولهم، وهذا بعض حديث صحيح رواه عبد الله بن عتيك قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الذى يخرج مجاهدا فى سبيل الله: «إن لسعته دابة أو أصابه شيء فهو شهيد، ومن مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله، ومن قتل فقد استوجب المآب»<sup>(١)</sup> قال عبد الله بن عتيك: فوالله ما سمعت قوله حتف أنفه من أحد من العرب قبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم. وعلى هذا بين المصنف رحمه الله تعالى كلامه وعدها من كلامه الذى ابتدعه وهو المشهور، وذهب بعض أهل اللغة إلى أن هذه الكلمة تكلمت بها العرب قبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وصححه فى المصباح واستدلوا بقول السموأل:

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل  
وأجيب بأن هذه القصيدة اختلفت فى قائلها، فقيل: هو السموأل وهو شاعر جاهلى، وقيل: عبد الملك بن عبد الرحمن الحارثى وهو إسلامى، وقيل: إن الرواية ليست هكذا وإنما هو: «وما مات منا سيد فى فراشه» فعلى هذا لا يرد على من عدّها من مبدعاته

(١) أخرجه الحاكم (٨٨/٢)، وابن أبى شيبه (٢٩٤/٥).

صلى الله تعالى عليه وسلم لأن الشاعر الجاهلى لم يقلها. والإسلامى: أخذها من كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم كقول عتيد بن عمر التابعى: «ما مات من السمك حتف أنفه فلا تأكله» أى ما طفاً على الماء من غير سبب ظاهر لموته، أو أنه لم يسبقه أحد من أهل زمانه ولم يسمعه من غيره فتأمله.

(ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) هذا حديث صحيح رواه أبو هريرة رضى الله تعالى عنه، وفى لفظه اختلاف لا يضرب، ففى بعضها من جحر واحد، وفى بعضها من تقديم المؤمن وهو من الأمثال النبوية.

وفى كتاب ابن مسكويه المسمى بجاودان خرد الذى جمع فيه حكم اليونان: أن من أمثالهم: «لا يرمى العاقل بحجر مرتين» فانظر الفرق بين كلام النبوة وغيرها، فإن العاقل إذا أدخل يده فى جحر فلدغ هل يدخلها مرة أخرى. وقد قيل: «من لسعته الحية من الحبل يخاف» يعنى: أن المؤمن الفطن لا ينخدع مرة بعد مرة، ولا يؤتى من جهة الغفلة فيقع فى مكروه وهو لا يعلم، فينبغى أن يكون متيقظاً فى أمر دنياه وآخرته، ويلدغ بالياء المضمومة المثناة التحتية واللام الساكنة وبالذال المهملة والغين المعجمة. وأما بالذال المعجمة والعين المهملة فهو إحراق النار. والجحر بضم الجيم وحاء ساكنة مهملة حفرة فى الأرض يكون فيها الحيات والحشرات، وهذا قاله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لأبى عزة الشاعر، وكان يحرض الناس بشعره على قتال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأسر مرة فقال: إنى محتاج ذو بنات، فمن عليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأطلقه بغير فداء، وأخذ عليه أن لا يظاهر عليه أحداً، فقال يمدحه صلى الله تعالى عليه وسلم:

من مبلغ عنى الرسول محمداً      فإنك حق والمليك حميد  
وأنت امرء تدعو إلى الله والهدى      عليك من الله العظيم شهيد  
وأنت امرؤ بوئت فينا مباءة      لها درجات سهلة وصعود  
فإنك من حاربتك لمحارب      شقى ومن سألته لسعيد

ثم نقض عهده وأتى مع الكفار لحربه صلى الله تعالى عليه وسلم فأخذ أيضاً بأحد، فسأله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يمين عليه على مثل شرطه الأول، وقال: غلبت فأقلنى فلم يفعل وقال: «لا أدعك تمسح عارضيك بمكة تقول خدعت محمداً مرتين، وأن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين وأمر بضرب عنقه فقتل صبراً»<sup>(١)</sup>. ومرتين أريد به التكرار كقوله تعالى: ﴿فَاتَّجِعَ الْبَصَرُ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ ثُمَّ اتَّجِعَ الْبَصَرُ كَرَّتَيْنِ ﴿

(١) أورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٣/٣١٣، ٤/٤٦٠).

[الملك: ٣، ٤] لكنه اقتصر على الأقل؛ لأنه أنسب بالحزم فكان محاربا شقيا كما قال فى شعره، والقال موكل بالمنطق، ولما فيه من الميل للحلم جرد من نفسه مؤمنا يقظا منتقما لا ينخدع لغادر متمرد، وانتقم صلى الله تعالى عليه وسلم منه ولم يعف عنه، فإن غضبه لله يأبى الحلم، كما قيل<sup>(١)</sup>:

ولا خير فى حلم إذا لم يكن له بوارد تحمى صفوه أن يكدر  
وإن كان صلى الله تعالى عليه وسلم، يغضى عن أمور كثيرة ويتغافل عنها فى مقام آخر، كما قال أبو فراس:

ليس الغبى بسيد فى قومه لكن سيد قومه المتغابى  
قال التجانى: ما وقع فى شعر أبى عزة من مدح النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، والتصريح برسالته ليس له مخرج إلا أن يكون قصد به خداعه.

(والسعيد من وعظ بغيره) المراد بالسعيد المبارك المرضى عند الله تعالى والناس، والوعظ ذكر ما يلين القلوب من ثواب وعقاب، أى من نصحته الحوادث النازلة بغيره فذكرته عواقب الأمور من خير وشر، فاتعظ بها فقلبها فهو سعيد، ومن يوعظ به غيره فهو شقى وأبلغ من هذا، وإن كان معنى آخر ما ورد فى الحديث: «إذا أراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من نفسه»<sup>(٢)</sup>: كما رواه الماوردى فى أعلام النبوة. وفى معناه قول الشاعر:

لا تنته الأنفس عن غيرها ما لم يكن منها لها زاجر  
وفى معناه قلت:

الزهد فى الدنيا وترك الهوى عن كل أمر ضائر حافظ  
ومن يرد خيرا به ربه كان له من نفسه واعظ

وما ذكره المصنف رحمه الله تعالى بعض حديث طويل رواه مسلم عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه، وفيه: «الشقى من شقى فى بطن أمه، والسعيد من اتعظ بغيره، والسعيد سعيد فى بطن أمه»<sup>(٣)</sup>. وأخرجه العسكرى مرفوعا إلى النبى صلى الله تعالى

(١) البيت من الطويل، وهو للجدى فى ديوانه (ص ٦٢)، لسان العرب (٢٧٩/١٥)، تهذيب اللغة (٢٨٩/١٥).

(٢) أورده الزبيدى فى الإتحاف (٢٢٨/٧)، ٦١٤/٩.

(٣) أخرجه الطيرانى فى الكبير (١٩٤/٣)، وفى الصغير (٥/٢)، وابن عبد البر فى التمهيد (٣٥٠/٦)، وابن أبى عاصم فى السنة (٧٨/١).

عليه وسلم فليس من كلام ابن مسعود رضى الله تعالى عنه كما توهم، وإنما تمثل به كما قاله الحافظ ابن حجر وشيخه العراقي.

وقوله: (فى أخواتها) جمع أخت أى فى الكلمات المشابهة لها بحسب البلاغة، يقال: هذا أخو هذا لمشابهته مواخا به لغلبة التشابه بين الأخوات، فهو استعارة أو مجاز مرسل، وفى بمعنى مع كقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ [الأعراف: ٣٨] أو هى على أصلها كان أخواتها لكثرتها محيطة بها إحاطة الظرف بالمظروف، ففيه استعارة وهى فى الحقيقة أكثر من أن تحصى، كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات»<sup>(١)</sup> و«المجالس بالأمانات»<sup>(٢)</sup> و«الحرب خدعة»<sup>(٣)</sup> و«إياكم وخضراء الدمن المرأة الحسنة فى المنبت السوء»<sup>(٤)</sup> وغيره مما لا يحصى، وقد افردناه بالتأليف، وذكر الشارح منها جانباً فيه وفى شرحه وهو بمعزل عن شرح الكتاب، فلذا أضربنا صفحاً.

(ما يدرك الناظر العجب فى مضمونها) قيل: ما نائب فاعل جمعت المبنى للمجهول كما تقدم ضبطه وأنت رعاية لمعناه لأنه بمعنى الكلمات المجموعة، وجملة يدرك بمعنى يلحق، والعجب فاعله أو الناظر فاعل والعجب مفعول ويدرك من الإدراك بمعنى التصور، ومضمونها بضم الميم وفتح الضاد المعجمة والنون اسم مفعول، أى ما تضمنته من المعانى البديعة والتراكيب الصحيحة، أى يتعجب فى ذلك كل من يراها وفى نسخة مضمونها.

(ويذهب به الفكر فى أدانى حكمها) أى يذهب بالناظر فكره فى أقلها وأقل ما تضمنته من الحكم فالضمير فى به للناظر، وأدانى جمع أدنى بمعنى أقل عدداً أو كلما فما بالك بالأكثر، ومعمول يذهب محذوف لقصد العموم أى فى كل مذهب، فمعنى الذهاب به أنه يتحير فيها، فهو على حد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٥] ففيه استعارة تمثيلية أو كناية.

(وقد قال له أصحابه) صلى الله تعالى عليه وسلم (ما رأينا الذى هو أفصح منك) هذا الحديث رواه البيهقى فى شعب الإيمان مسنداً، وذكره القالى فى أماليه، وشرحه وهو أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يوماً جالسا مع أصحابه فنشأت سحابة، فقال صلى الله

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه الرامهرمزي فى الأمثال (٨٤)، والقضاعى فى مسند الشهاب (٩٥٧)، وأبو عبيد فى

الغريب (٩٩/٣).

تعالى عليه وسلم: «كيف ترون قواعدها» إلى آخره، وستراه قريبا، ومثله ما رواه أبو نعيم فى الدلائل قال: لما خطب عنده صلى الله تعالى عليه وسلم بعض خطباء الوفود فأجابه بكلام عذب فصيح، فقال له على كرم الله وجهه: يا رسول الله نحن وأنت بنو أب واحد ونشأنا فى بلد واحد، وإنك تكلم العرب بلسان ما يفهم أكثره. فقال: «إن الله عز وجل أدبني فأحسن تأديبي، ونشأت فى بنى سعد بن بكر». والحاصل أن الصحابة رضى الله عنهم أكثروا من مخالطة فصحاء العرب وخلصها، وكانوا لا يفقهون أحيانا كلامهم حتى يفسره صلى الله تعالى عليه وسلم لهم. وقد ورد أيضا كما يأتى أن لغة إسماعيل عليه السلام كانت اندرست، فعلمها له جبريل عليه الصلاة والسلام كما علم آدم الأسماء.

(فقال: وما يعنى وإنما أنزل القرآن بلسانى لسان عربى مبین) أى ما يعنى من أن أكون أفصح الناس، أو من أن لا تروا أفصح منى، والكتاب الذى أنزل على بأفصح اللغات وفى أعلى طبقات البلاغة، هذا من تمة الحديث السابق فى وصف السحابة وهو حديث صحيح، رواه التجانى مسندا عن عباد بن عباد بن حبيب بن المهلب عن موسى بن محمد بن إبراهيم التميمى عن أبيه عن جده قال: بينما رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذات يوم جالسا مع أصحابه إذ نشأت سحابة فقالوا: يا رسول الله هذه سحابة، فقال: «كيف ترون قواعدها؟» قالوا: ما أحسنها وأشد تمكنها قال: «وكيف ترون رهاها؟» قالوا: ما أحسنها وأشد استدارتها. قال: وكيف ترون بواسقها؟ قالوا: ما أحسنها وأشد استقامتها. قال: «وكيف ترون برقها أوميضا أم خفيفا أم يشق شقا؟» قالوا: بل يشق شقا. قال: «وكيف ترون جونها؟» قالوا: ما أحسنه وأشد سواده. فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «الحيا» فقالوا: يا رسول الله ما رأينا الذى هو أفصح منك، فقال: «وما يعنى من ذلك وإنما أنزل القرآن بلسان عربى مبین». وقواعد السحابة أسافلها واحدها قاعدة، وأما القواعد من النساء فواحدها قاعد، وهى التى قعدت عن الولد. ورهاها وسطها ومعظمها وكذا رحي الحرب وسطها ومعظمها حيث ابتدار القوم. وقال الجوهري: مستدارها وبواسقها ما علا منها وارتفع، وكل شىء علا فقد بسق، وقال بن الأثير: ما استطال من فروعها. والوميض: اللمع الخفى، يقال: أومض إيماضا، وأومض بعينه غمز والخفى بزنة الضرب، وبالإعجام البرق الضعيف، كما قاله القالى. قال التجانى: التقدير أترونها وميضا أو ذا خفى، لقول الجوهري: خفا البرق يخفو خفوا ويخفى خفيا إذا لمع ضعيفا معترضا فى نواحي الغيم، فإن لمع قليلا ثم سكن فهو الوميض، فإن شق الغمام فاستطال فهو العقيقة وجونها

أسودها وهو من الأضداد، لأنه يكون بمعنى الأبيض. والحياء: بالقصر الغيث وجمعه أحياء، والعناية بوصف السحاب مشهورة بين فصحاء العرب.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم (مرة أخرى بيد أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد) قال السيوطى: هذا الحديث أورده أصحاب الغريب ولا يعرف له إسناد، والطبرانى من حديث أبى سعيد ولفظه: «أنا أعرب العرب، ولدت فى قريش، ونشأت فى بنى سعد، فأنى يأتينى اللحن»<sup>(١)</sup>. وقال قطلوبغا فى تخريجه: أخرجه أبو عبيد بلاغا، وأخرج الطبرانى فى الكبير عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب، أنا أعرب العرب، ولدتنى قريش ونشأت فى بنى سعد، فأنى يأتينى اللحن»<sup>(٢)</sup>. وفى سنده مقال. وأما ما اشتهر من «أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أنى من قريش»<sup>(٣)</sup> فقالوا: إنه لم يثبت وإن ذكر فى كتب النحو والأصول. ويبد فيها لغتان أخريان مبد بالميم وباید كما ورد فى الحديث، قال فى النهاية: ولم أقف عليه، ولعله بأيد أى بقوة فحرف وفسر بغير الاستثنائية، ومن أجل التعليلية وبعلى أن كما يقال هو كثير المال على أنه بخيل، وتلزم الإضافة لأن المشددة وصلتها، وهى فى الحديث بمعنى والاستثناء ههنا منقطع على حد قوله:

ولا عيب فيه غير أن نزله يعاب بنسيان الأحبة والوطن

واستدل أبو عبيدة على مجيئها بمعنى من أجل بقوله:

عمدا فعلت ذاك بيد أنى أخاف إن هلكت أن ترنى

وقولهم: ما رأينا الذى هو أفصح منك عنوا به ولا يساويك كما مر تحقيقه وجوابه بقوله بيد إلخ، إن فسر بغير فظاهر لإفادته أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أفصح من جميع العرب، وأما تفسيرها بمن أجل فقد استشكل بأن مفهومه أنه من قريش وهم أفصح العرب، ولا يلزم منه أن يكون أفصح العرب بل من أفصحهم، وهذا الإشكال أورده بعض الشراح على أنه من بنات أفكاره، ومر أنه قد سبقه إليه الكورانى فى شرح «جمع الجوامع» وتقدم ما فى ذلك مبسوطا فى أول الكتاب، ووجهه أن العلة موجودة فى غيره، وهو نقض للحكم بوجود علته فى غيره، وأورد عليه أن كثيرا من الأصوليين

(١) أخرجه ابن سعد (٧١/١/١)، وأورده ابن كثير فى البداية (٢٧٧/٢)، والعجلونى فى كشف الخفا (٢٣٢/١، ٢٣٨).

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٤٣/٦).

(٣) انظر: تذكرة الموضوعات (٨٧)، والدرر المنتشرة (٢٣)، وكشف الخفا (٢٣٢/١)، والفوائد المجموعة (٣٢١).

كالبيضاوى والهندي ذهبوا إلى أن تخلف الحكم إن كان لمانع أو فقد شرط لا يقدر في عليّة العلة مطلقا سواء كانت منصوصة أم لا، والتقدير هنا مع كوني نبيا، فالتعليل هنا صحيح مطرد على ما فصل في العضد وغيره، ويسمونه خصوص العلة، وهذه خزيرة لأن الحديث: «بيد أنى من قريش، واسترضعت في بنى سعد» وفي رواية: «وأنزل القرآن بلسان عربى مبين». والمجموع هو العلة ولا توجد في غيره، أى أنى من قبيلتين هما أفصح العرب وقد نشأت بالحاضرة والبادية، فجمع لى من الرقة والجزالة ما لم يجتمع لغيرى، أو المعنى أنى أنزل على القرآن على أسلوب لا يوجد في غيره جامع لزيادة جميع اللغات، فأثر في سلامة طبعى وانتقش في صحف ذهنى مالا يتصور لغيرى. وأما النبوة فلا دخل لها هنا، أو نقول كونه أفصح من قريش معلوم؛ لأن السائلين له صلى الله تعالى عليه وسلم منهم وهو بين أظهرهم لا يخفى عليهم حاله.

وأما كونه نشأ في بنى سعد واسترضعوه، فلأن حليلة السعدية رضى الله تعالى عنها أرضعته بعد ثوية جارية أبى لهب، وحليمة بنت أبى ذؤيب وزوجها الحارث أبوه من الرضاغة، وبنو سعد من أكرم العرب وأفصحهم، وحليمة من أوسطهم ولذا اختارها الله تعالى لرضاعه صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأن الرضاع يؤثر في الطباع، ووقع عندها شق صدره الشريف وسيأتى بيانه وأنه وقع مرارا، ثم إن التجانى قال: اختلف المتكلمون في كلام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هل منه ما هو معجز كالقرآن بناء على هذه الأحاديث أم لا؟ فذهب في بعضهم إلى إعجازه، وأن إعجازه دون إعجاز القرآن. وذهب الباقيون إلى أنه في معناه في الفصاحة ولكن لا يبلغ إلى رتبة الإعجاز وهذا هو الصحيح. واحتج الأولون مما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه اشتبه عليه كون المعوذتين من القرآن، وعد بعض الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين القنوت من القرآن وهم فصحاء عالمون بمراتب الإعجاز، والصحيح أن هذا باطل لم يثبت عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه وغيره، أو متأول بأنه لم ينكر كونهما من القرآن ولم يشك فيه، وإنما أنكر كتابتهما في المصحف؛ لأنه لم يبلغه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أمر بكتابتهما وهو محجوج بقراءته وقراءة الصحابة رضى الله تعالى عنهم بهما في الصلاة، وسيأتى لذلك مزيد بيان في آخر الكتاب.

**فإن قلت:** ما مر من تكلم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بالوحشى الغريب مخالف لفصاحته صلى الله تعالى عليه وسلم؟

**قلت:** لا، لما مر من أن الوحشى من أهله ومن يتكلم معهم فصيح، فلا حاجة إلى القول بأنه غير غريب لثبوته في كتب اللغة من غير احتياج لتفسير وتفحص، وإلى ما

ذكرناه أشار المصنف رحمه الله تعالى.

بقوله: (فجمع له صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك قوة عارضة البادية) جمع مبنى للمجهول، وأصله جمع الله له فحذف للعلم به، وذلك إشارة لكونه من قريش ونشأ فى بنى سعد، وإنما نشأ صلى الله تعالى عليه وسلم فىهم على عادة قريش فى دفعهم أولادهم لمرضعات البادية ليتفرغ النساء لشأنهن، ولأن هواها أصح، وليكون مع أولاد الأعراب فيتدرب لترك الترفه، ولذا كان عادة ملوك بنى أمية والعارضة التجلد والقدرة على الكلام، ويقال: بغير عرضة للسفر أى قوى عليه، وإضافة القوى لها بيانية، والبادية والبدواة والباداة خلاف الحاضرة، وتبدى أتى البادية، وتبادى تشبه بأهلها وهى خلاف الحاضرة، أى الأمصار، والمراد بالبادية أهلها أو هو بتقدير مضاف.

(وجزالتها) بفتح الجيم والزاء المعجمة خلاف الركاسة، أى جزالة كلامها يقال: كلام جزل أى قوى شديد، ومنه الخطب الجزل للغليظ، وليس من الركيك وهو الضعيف من الألفاظ المحلول التركيب، فتكثر السواد به وهنا غير مناسب.

(ونصاعة ألفاظ الحاضرة) النصاعة كالفصاحة مصدر بمعنى الخلوص، والمراد خلوصها من التعقيد والغرابة الوحشية، وصاده وعينه مهملتان من نصع الشيء إذا ميز جيده من رديه، والحاضرة خلاف البادية سكان القرى والأمصار.

(ورونق كلامها) الرونق البهاء والحسن، فإن كلام أهل البادية قوى متين لعدم تصنعهم، وكلام أهل الحاضرة رقيق لطيف فجمع كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم بين هاتين الصفتين مضموماً ذلك (إلى التأييد الإلهى الذى مدده الوحي) ومدده بمعنى ممدّه لا بمعنى زيادته، والتأييد التقوية من الأيد وهو القوة، وأمدّه بإيجائه وإنزاله عليه كلامه المعجز، ولذا صح أن أهل الجنة يتكلمون بلغة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ولغة أهل الجنة، فلا صحة لما رواه بعضهم أن لسان أهل الجنة الفارسية الدرية، وهذا فى معنى ما روى من أن عمر رضى الله تعالى عنه قال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم: مالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا؟ فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «كانت لغة إسماعيل قد درست فجاءنى بها جبريل عليه الصلاة والسلام فحفظتها»<sup>(١)</sup>.

(الذى لا يحيط بعلمه بشرى) أى إنسان منسوب للبشر وهم الناس والضمير للتأييد الإلهى.

(وقالت أم معبد) هى كما مر عاتكة بنت خالد بن زمعة إحدى نساء كعب بن

(١) أورده الهنڊى فى كنز العمال (٣٥٤٦٢).



عمرو بن خزيمة، وزوجها عبد الملك بن وهب، وقيل: لا يعرف اسمه، توفى في حياة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، ويقال: إنه صحابي له رواية، وكانت تنزل بين مكة وجبالها فنزل عليها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأبو بكر رضي الله تعالى عنه لما هاجرا فقرتهما، فلما جاء زوجها أخبرته بذلك ووصفته له في حديث ذكره أهل السير أفرده الحافظ العلائي بالشرح.

(وفي وصفها له) مصدر مضاف لفاعله وضمير له للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، ويحتمل أن يكون له خير مقدم والأول أولى.

(حلو المنطق) الحلو في المطعومات مستلذ، فاستعير لما يعجب السامع ويستلذ بسماعه ذوقه، أو كلجين الماء.

(فصل) مصدر بزنة ضرب بفاء وصاد مهملة ولام، أى فاصل بين الحق والباطل، أو بين ظاهر قاطع للشك لا لبس فيه، أو يفسره قوله: (لا نزر ولا هذر) كما قاله العلائي رحمه الله تعالى، أو ذو فضل بين أجزائه لقول عائشة رضي الله تعالى عنها: «ما كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يسرد سردكم هذا، ولكن كان إذا تكلم بكلام يئنه فيحفظه من يجلس إليه» كما في المصباح، ونزر: بفتح النون وسكون الزاي قليل لا يفهم. والهذر: بالهاء والذال المعجمة المفتوحين يليه راء مهملة كذا ضبطه العلائي وهو راو ثقة، وتبعه بعض أرباب الحواشي، وضبطه ابن الحنبلي بسكون الذال مصدر هذر يهذر في كلامه، والاسم الهذر بالتحريك وهو كثرة الكلام بحيث يمل، وهذا غير مناف لما ورد في الحديث: «أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الحديث اختصاراً»<sup>(١)</sup>؛ لأن المنفى الإيجاز المخل لا المقبول منه.

(كأنه منطق) أى ما ينطق به (خروقات نظمن) أى متناسبة لها رونق كالعقد المنظوم من الجواهر، والخرز: ما ينظم من الجواهر وليس كما تفهمه العامة من تخصيصه بنوع كما في الصحاح من الخرز وهو المثقب.

(وكان جهير الصوت حسن النغمة صلى الله تعالى عليه وسلم) العرب تتمدح بعلو الصوت وتذم بضده، ولذا تمدحوا بسعة الفم وذموا بصغره كما قاله الجاحظ في كتاب البيان، وقد ورد في وصفه صلى الله تعالى عليه وسلم في حديث ابن أبي هالة أنه كان يفتح الكلام ويختمه بأشداقه، كما قال العجير السلولى:

جهير ومتمد العنان مناقل بصير بعورات الكلام خبير  
لو أن الصخور الصم يسمعن صوته لزحن وفى إعراضهن فطور

والجهير والجمهورى العالى الصوت فليس فيه خفاء ولا تكسر ككلام النساء. أقول: هذا لا ينافى ما مر من ذم التقعر والتشديق فى الكلام، فإن ذلك إذا أفرط وكان تصنعاً، ثم إن المدح بسعة الفم لدلالته على الفصاحة وقوة القدرة على الكلام بخلاف غيره، والمراد ما لم يفرط بحيث يشوه الخلقة لاسيما مع غلظ الشفتين، ولا عبرة بمدح شعراء العجم ومن تبعهم من المتأخرين لضيق الفم فإنه مقصد فاسد، كما قال ابن سناء الملك:

له فم ضيق فلم يستطع أن يخرج اللفظ بتقويم  
ولفظ سكران من ريقه فهو لهذا غير مفهوم

وقال أيضاً:

بمجهتى أفديته من فصيح لفظ من معجمه  
لا يستطيع اللفظ أن يخرج من ضيق فمه

وكان صلى الله تعالى عليه وسلم إذا قرأ بالليل أو خطب يسمع صوته، وأما حسن نغمته فلما ورد فى الحديث عن على كرم الله وجهه: «لم يبعث الله تعالى نبياً إلا حسن الوجه حسن الصوت، وكان داود صلى الله تعالى عليه وسلم إذا قرأ الزبور لم تبق دابة إلا أنصت» إلا أن قراءة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم لم تكن على طريقة الألمان والموسيقى فإنه غير ممدوح، وحديث (ليس منا من لم يتغن بالقرآن) الكلام فيه مشهور.

(غريبة) ذكرها التلمسانى هنا قال: قال ابن سيدى الحسن: كان شيخنا أبو زكريا يحدث عن شيخه منصور بن على التجانى، عن أبيه وغيره من شيوخه يقول: إنما كانت المصامدة فيهم بركة، لأنه وفد منهم رجل، وقيل: رجلان، وقيل: بل هم سبعة على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حين بعث، فلما دخلوا المسجد الحرام لم يعرفوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وكانوا لا يعرفون العربية، فقال رجل منهم بلغته: من أبون أسيران وأسير بلغتهم النبى أو الرسول، أى أيكم رسول الله، فلم يفهم الحاضرون قوله، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم «اشكد اور» ومعنى اشكد تعالى وأقبل هلم وهو بهزمة وشين معجمة ساكنة وكاف مفتوحة ودال مهلة ساكنة مشددة، واور معناه هنا أو إلينا، وجعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يجيبه بلغته ولا يفهم القوم، فأسلم وبائع وانصرف لقومه، وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أخبرهم بقدمه ولغته، قال أبو زكريا: كان شيخه منصور يحدث لهذا الحديث فى هذا الفصل فسبحان من علمه ذلك إنه المنعم الكريم. قال: وقبورهم موجودة إلى الآن انتهى.

## (فصل)

(وأما نسبه وكرم بلده ومنشأه) الشرف: رفعة القدر. والكرم: يجمع أنواع الخير وإن خصه العرف بمعنى الجود. والمنشأ: محل نشأ فيه وتربى.

(فمما لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه لظهوره، ولا بيان مشكل، ولا خفى منه) المراد: أنه لا إخفاء فيه ولا إشكال حتى يحتاج إلى البيان على حد قوله: ولا ترى الضب بها ينحجر.

(فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم نخبه بنى هاشم) النخبة بضم النون وسكون المعجمة وفتحها وبالموحدة كهزمة المختار من بينهم المتقى. (وسلالة قريش وصميمها) السلالة بالضم بمعنى النسل المستخرج منهم والصميم الخالص. (وأشرف العرب وأعزهم نفرا) أى قوماً، والنفر: رهط الإنسان وعشيرته، وهو اسم جمع لا واحد له يقع على الرجال خاصة من الثلاثة إلى العشرة، وذكر الكرمانى أنه يقع على الواحدى كما ذكرناه فى شرح الدرة (من قبل أبيه وأمه) كما هو مبين فى السير.

(ومن أهل مكة من أكرم بلاد الله على الله) لتشريفها وجعلها قبلة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومقصد الحجيج (وعلى عباده) إذ لم تزل الناس تعظمها فى الجاهلية والإسلام. وقال التجانى وتبعه بعض الشراح هنا بعد ما ذكر حديث: «إنك لأحب أرض الله إلى ولأحب أرض الله إلى الله»<sup>(١)</sup>. الذى قاله صلى الله تعالى عليه وسلم عندما خرج منها مهاجراً وأجمعوا على أن مكة والمدينة أفضل البقاع، وإنما اختلفوا أيهما أفضل؟ فنسب للمالكية تفضيل المدينة، والشافعية، وأبو حنيفة والأكثر على تفضيل مكة لما لها من المزية بأن الله حرمها وحرم صيدها، وقيل: بتغليظ الذنب ودية القتل فيها وأنه لا يقام الحد فيها، وغير ذلك من الرحمة التى ليست لحرم المدينة والصلاة بها ثوابها زيادة على غيرها، وهذا فى غير البقعة التى وضع فيها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وسيأتى أن المصنف رحمه الله تعالى فضل على مكة المدينة فجعلها أشرف وأكرم، فكلامه هنا مناف لمذهبه ولكلامه الآتى، ولهذا اعترضوا عليه وفيه خلاف عند المالكية أيضاً كما سيأتى، فلا حاجة لما قيل من أن كلام التجانى يكفى دليلاً على فضل مكة فى مذهب مالك رحمه الله تعالى.

وقال الطبرى: بيت خديجة يلى المسجد الحرام فى الفضيلة، وأجيب بأنه غير متناقض

(١) أخرجه أحمد (٣٠٥/٤)، والترمذى (٣٩٢٥)، وابن ماجه (٣١٠٨)، والدارمى (٢٣٩/٢)، والحاكم (٧/٣).

لما سيأتى؛ لأنه لم يقل مكة أكرم وأشرف البلاد بل من أكرم البلاد، ومن فيه تبعية لا بيان، وكون الشيء بعض الأشرف لا يقتضى أنه أشرف، فإن البلاد الثلاثة التى تشد الرحال لها شريفة وهذا منها.

أقول: لو قال أشرفها لم يشكل أيضا؛ لأن الكلام فى منشأه ومولده وهى فى زمن ولادته وقبل هجرته كانت أشرف البقاع على الإطلاق، إذ المدينة إنما صارت حرما مكرما بعد هجرته تكريما له صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان المعترض لاحظ أن المراد تفضيل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على جميع خلقه بشرف منشأه، فيناسب كونه أشرف من جميع ماعداه فتدبره، ووقع فى نسخ بعض الشراح أكرم بدون من فعل كلامهم مبنى على هذه النسخة.

(حدثنا قاضى القضاة حسين بن محمد الصدقى) نسبة إلى الصدف وهو اسم قرية من قرى القيروان، ووقع للفقهاء اختلاف فى جواز إطلاق قاضى القضاة فقال بعضهم: لا يجوز كملك الملوك وشاهنشاه أى سلطان السلاطين، فإنه هو الله تعالى والحق جوازه كما أفتى به كثير من أرباب المذاهب الأربع، فإن القرينة ظاهرة فى أن المراد قضاة عصره ومملكته، فإنه يطلق على من يكون قاضيا فى تحت الملك، ويؤذن له فى تولية قضاة الأطراف، ولهذا عدلوا عنه وقالوا قاضى العسكر، ولكن قوى بعضهم منعه لورود التصريح بمنعه فى الحديث. والصدقى: هو ابن سكرة وهو إمام ثقة ترجمته مشهورة.

قال: (حدثنا القاضى أبو الوليد سليمان بن خلف) هو الإمام العلامة الحافظ أبو الوليد الباجى وقد تقدمت ترجمته أيضا.

قال: (حدثنا أبو ذر عبد بن أحمد) هو الإمام الحافظ أبو ذر الهروى وقد تقدمت ترجمته، وعبد اسمه من غير إضافة.

قال: (حدثنا أبو محمد السرخسى) نسبة إلى سرخس بفتح السين والراء بلد عظيم بخراسان وهذا هو المعروف، وأما قول التلمسانى نقلا عن ابن مرزوق أنه بكسر السين وفتح الراء، وأنه يقال بزنة درهم وجعفر فلا نعرفه، (وأبو إسحاق) المستملى واسمه إبراهيم بن أحمد بن داود المستملى الإمام الثقة، (وأبو الهيثم) هو محمد بن المكى بن زراع الكشميهنى بضم الكاف وسكون الشين المعجمة وكسر الميم وسكون المثناة التحتية وفتح الحاء وكسر النون وياء النسبة، نسبة لقرية من قرى مرو قديمة خربت وخرج منها جماعة، قاله ابن الاثير: قال التلمسانى: ويقال الكشماهنى ويأتى الكلام عليه أيضا بأبسط من هذا (قالوا: حدثنا محمد بن يوسف) هو الفريرى وقد تقدمت

ترجمته. (قال: حدثنا محمد بن إسماعيل) هو حافظ الإسلام البخارى وقد تقدمت ترجمته.  
(قال: حدثنا قتيبة بن سعيد) تقدمت ترجمته.

(قال: حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن) بن محمد بن عبد الله القارى منسوب للقارة قبيلة المدنى نزيل الإسكندرية، وهو يروى عن زيد بن أسلم وسهل بن أبى صالح وغيرهما، وروى عنه قتيبة ويحيى بن بكير توفى سنة إحدى وثمانين ومائة، وأخرج له أصحاب السنن ووثقه ابن معين.

(عن عمرو) بن عمرو ويقال: ابن أبى عمرو مولى المطلب، وروى عن أنس وعكرمة وطائفة، وروى عنه مالك والداوردي ووثقه. وقال التلمسانى: إنه ليس بالقوى، وقال أحمد: ليس به بأس. وقال أبو زرعة: إنه ثقة. وأخرج له الأئمة الستة، وتوفى فى أول خلافة المنصور وله ترجمة فى الميزان.

(عن أبى سعيد المقبرى) بثلاث الباء سمي به لسكونه بقرب المقابر كذا وقع فى بعض النسخ، قال البرهان الحلبي: وضرب المصنف رحمه الله تعالى على لفظ أبى وهو الصواب، فإنه سعيد بن أبى سعيد المقبرى، واسم أبى سعيد كيسان وكنية سعيد أبو سعيد، وفيه نظر وهو يروى عن أبيه وأبى هريرة وعائشة وغيرهما، وروى عنه الليث ومالك وخلف، وثقه النسائى وأبو زرعة وغيرهما. وقال أحمد: ليس به بأس، توفى سنة ثلاث وثلاثين، وقيل: خمس وعشرين ومائة، وأخرج له أصحاب الكتب الستة. (عن أبى هريرة) رضى الله تعالى عنه تقدمت ترجمته والكلام فى اسمه.

(أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: بعثت من خير قرون بنى آدم) هذا حديث صحيح انفرد البخارى بإخراجه، وعنه روى المصنف رحمه الله تعالى، وفى القرن عشرة أقوال، فإنه مقدار من الزمان ويطلق على أهله، ف قيل: عشرة، وعشرون، وثلاثون، وأربعون، وخمسون، وستون، وسبعون، وثمانون، وتسعون، ومائة، ومائة وعشرون. ومطلق الزمان كما قاله البرهان الحلبي. قال: وابتداء قرنه عليه الصلاة والسلام من بعثته أو من حين فشا الإسلام، وقيل: القرن كل عصر فيه نبي أو كبار من العلماء فليس زمان الفترة بقرن نقله التلمسانى. وقال التجانى: القرن فى اللغة كل طبقة من الناس مقترنين فى وقت واحد، وربما سمي الوقت قرنا لأنه يقرن ناسا بناس، واحتج القائلون بأنه مائة سنة بأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مسح رأس غلام وقال: «عش قرنا» فعاش مائة سنة كما ذكره الهروى. والمختار ما قيل إن القرن كل أمة هلكت فلم يبق منها أحد انتهى. وفيه نظر. والظاهر أن المراد بالقرن فى الحديث طائفة وجيل من الناس فى عصر واحد وزمان متقارب اشتركوا فى أمر من الأمور المقصودة.

وقوله: «من خير» إلى آخره من فيه لا ابتداء الغاية أو بيانية لا للتبويض، لأن المراد أن قرنه الذى بعث فيه خير القرون لا أنه بعث فى بعض القرن، بدليل ما روى فى الحديث الصحيح: «خير القرون قرنى» والمراد به عصره صلى الله تعالى عليه وسلم وعصر صحابته رضى الله تعالى عنهم، لأنهم انقضوا بعد مائة من انتقاله صلى الله تعالى عليه وسلم وكسور اختلاف فيها، قيل: وهذا الحديث يدل على أن أصحابه صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل هذه الأمة وسائر الأمم غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأن ذلك ثابت لكل واحد منهم لا لمجموعهم، وإليه ذهب الجمهور؛ لأن فضل الصحبة ونورها لا يعدله شىء ولا يساويهم فى الفضل، وإن تفاوتوا فيه بقدّم الصحبة ونحوه خلافا لابن عبد البر رحمه الله تعالى حيث جوز أن يكون بعد الصحابة من هو أفضل من بعض إلا من قاتل معه صلى الله تعالى عليه وسلم، وأنفق ماله فى سبيله فإنه لا يعدله غيره بالاتفاق، واستدل بحديث: «أمتى مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره»<sup>(١)</sup>. وهو حديث صحيح. وأجاب النووى رحمه الله تعالى بأن المراد بآخره من أدرك عيسى عليه الصلاة والسلام، ورأى ما فى زمانه من الخير والبركة وانتظام كلمة الإسلام واضمحلال الكفر وهو متق، وأوله من لم يدركه فى صدر الإسلام غير الصحابة وسيأتى الكلام عليه مفصلا.

(قرنا فقرنا) هذا كقولهم: قرأت النحو بابا بابا وهو حال بتأويل مرتبا ولم يذكره النحاة معطوفا، وكأنه الحامل لبعض الشراح على جعله معمولا لحال مقدرة والفاء للترتيب فى الوجود أو الفضل نحو خذ الأكمل فالأكمل ومنه: ﴿وَالصَّفَاتِ صَفًا﴾ [الصافات: ٢١] وهذا قريب من قول ابن الرومى:

كم من أب قد علا بابن ذوى شرف      كما علا برسول الله عدنان

(حتى كنت من القرن الذى كنت فيه) قيل: حتى غاية لبعثته وأراد به تقبله فى أصلاب آبائه من إبراهيم عليه السلام، ثم من نابت بالنون ابن إسماعيل، ثم من النضر ابن كنانة، ثم من قريش بن النضر، ثم من عبد الله بن عبد المطلب، ثم أيد هذا بحديث رواه البيهقى مسندا فى دلائله، والترمذى وحسنه، وهو ما أشار إليه بقوله.

(وعن العباس رضى الله تعالى عنه قال: قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: إن الله خلق الخلق) أى المخلوقات كلها من إنس وملك وجن. (فجعلنى من خيرهم) أى أوجدنى وصيرنى من خير جنس منهم وهم الإنس، ومن خير نوع وهم العرب، ومن

(١) أخرجه العقيلي فى الضعفاء (٣١٠/١)، وابن عبد البر فى الاستذكار (٢٣٩/١).

خير قرن وهو قرنه صلى الله تعالى عليه وسلم وقرن أصحابه، فلذا أبدل منه قوله: (من خير قرنهم) بدل بعض من كل (ثم تخير القبائل) أى اختار من قرنه خيارهم أى أشرفهم. (فجعلنى من خير قبيلة) من العرب وهم قريش، والقبيلة واحدة القبائل الجماعة من أب واحد، والقبيل بغير هاء بنو آباء مختلفة أو هو أعم وقد يكونا بمعنى، والقبيلة تحتوى على جماعات من آباء منتسبة للأب الأول تسمى بيوتا وبطونا؛ لأنهم من بطن واحدة ويجمعهم بيت واحد، وأصل البيت المسكن الذى يبيتون فيه؛ فأطلق على أهله وصار حقيقة فيهم فلذا قال: (ثم تخير البيوت) بضم الباء ويجوز كسرهما.

(فجعلنى من خير بيوتهم) يعنى بنى هاشم، وقيل: المراد بالبيت هنا الشرف أى تخير الله جهات الشرف وأشباهه المقتضية له واختار لى أعلاه والأشرف، والأول هو الموافق للغة: نعم البيت يخص بمن له شرف.

(فأنا خيرهم) أى جميع من ذكر (نفسا) أى روحا وذاتا (وخيرهم بيتا) أى حسبنا وشرفا وأصلا، وفيما ذكر إشارة إلى الطبقات الست من الناس، فإن العرب كما تقدم تقسم الناس لشعب، وقبيلة، وعمارة، وبطن، وفخذ، وفصيلة، كل طبقة تجمع ما بعدها، وما قيل من إنه لا يلزم من كونه خيرهم بيتا، أن يكون هو خيرا لمشاركة أهل البيت له فى شرفه، والجواب أن المراد أنه خيرهم بالقياس إلى غير بيته لا إلى كل واحد من أهل بيته ليس بشىء؛ لأنه لو كان كذلك لم يصح، فتفريعه على كونه خيرهم نفسا فهذا كقولهم فلان من العلماء، وهو أمدح من قولهم عالم كما قرره أهل المعانى، لسوق فضله وخيرته مساق المعلوم المسلم وبيان عراقته وأصالته فى ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَكَاثَ مِنَ الْقَنِينِ﴾ [التحریم: ١٢] كما مر.

(وعن واثلة بن الأسقع) رضى الله تعالى عنه، وفى التذكرة فى رجال الكتب العشرة لأبى المحاسن العلوى: واثلة بمثلثة ولام ابن الأسقع بن كعب بن عامر أبو الأسقع، ويقال أبو قرصافة الليثى، أسلم قبل تبوك وشهدها، وكان من أهل الصفة، وروى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وعن أبى مرثد الغنوى، وأبى هريرة، وأم سلمة رضى الله تعالى عنهم، وروى عنه بناته ومكحول وجماعة قالوا: مات سنة ثلاث وثمانين وعمره مائة وخمس سنين، وقال البرهان: خمس وتسعون سنة وخدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ثلاث سنين، وذكر نسبه مخالفا لما ذكرناه فقال: ابن عبد العزى بن عبد ياليل بن ناشب بن عبرة بن سعد بن بكر بن عبد مناف بن كنانة، وقيل: ابن عبد الله، وقيل: غير ذلك، والأسقع بفتح الهمزة وسكون السين المهملة وفتح القاف وعين مهملة.

(قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: إن الله اصطفى) أى اختار وارتضى

(من ولد إبراهيم إسماعيل) عليهما الصلاة والسلام فهو أفضل أولاده، وكان له غير إسماعيل وإسحاق ستة أولاد من قنطورا.

(واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة) قال السهيلي: ولإسماعيل بنون ذكر أسمائهم ابن إسحاق وهم اثني عشر؛ منهم نابت بالنون كما تقدم وهو جد كنانة وبينهما ثلاثة عشر أباً، وسمى بكنانة السهام التى تسمى جعبة ولقب به، وحكى أبو حاتم عن الأصمعى أن رجلاً وقف عليه مع أخيه أسد يسليخان جزروا لهما، فقال الرجل: ما جلاء الكاشطين؟ فقال له: خائبة المصارع وهصار الأقران، فقال: يا كنانة ويا أسد أطعماني من جزوركما فأطعماه، فكنى له الرجل عن كنانة بخائبة المصارع يعنى السهام لأنها تصرع ما أصابته، وروى المصادع بالدال بدل الراء جمع مصدع، والحصر من صفات الأسد، وجلاء بكسر الجيم، والمد أى ما اسمهما الذى يكشف اللبس عنهما، والكشط بمعنى السلخ والولد صفة مشبهة جرى مجرى الأسماء يشمل الواحد وغيره.

(واصطفى من بنى كنانة قريشا) ولد كنانة لصلبه النضر، وله أربعة أولاد ومن ذريته قريش وأول قريش، فى الأصح فهر بن مالك بن النضر، وقيل: النضر أول قريش واختلف هل قريش اسمه أو لقبه واسمه فهر، وبه جزم العراقي فى ألفية السيرة، ويطلق قريش على بنيه فيصرف ولا يصرف باعتبار القبيلة كما يقال: تميم وربيعة وكذا النضر، فمن لم يكن من ولد النضر ليس بقريشى، قال الشعبي رحمه الله تعالى: النضر بن كنانة هو قريش، وإنما سمي قريشا لأنه كان يتقرش عن أرباب الحاجات ليقضى حوائجهم، والتقرش التفتيش. وقيل: التقرش التجمع فسموا به لتجمعهم فيكون اسماً للقبيلة، ولذا جاز منع صرفه كما علم. وقيل: هو اسم سمكة عظيمة سمي به القبيلة لأنه كان يأكل السمك ويقهرها، فسمى به القبيلة أو أبوها لشدتهم وتصغيره للتعظيم. قال الشاعر<sup>(١)</sup>:

وقريش هى التى تسكن البحر وبها سميت قريش قريشا

(واصطفى من قريش بنى هاشم) واسمه عمرو وهو علم منقول من معان؛ منه العمر بالضم، وواحد عمور الإنسان وهو اللحم المطيف بها، وهاشم اسم فاعل من هشم بمعنى كسر سمي به لأنه هشم الثريد لقومه فى سنة مجدبة. قال:

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستنون عجاف

أو كان يهشمه للحاج وهذا الشعر لمطرود بن كعب الخزاعى والقافية مرفوعة،

(١) البيت من الخفيف، وهو للمشمرج بن عمرو الحميرى فى خزانة الأدب (١/٢٠٤).



وتوارد مع عبد الله بن الزبير في قوله<sup>(١)</sup>:

يا أيها الرجل المحول رحله      ألا نزلت بآل عبد مناف  
الخالطين غنيهم بفقرهم      والقائلين لهم للأضياف  
عمرو العلا هشم الثريد لقومه      قوم بمكة مستئين عجاف  
وخلط الرواة في الشعرين فزعموا أنه أقوى وليس كذلك.

(واصفاني من بني هاشم) هذا الحديث رواه مسلم والترمذي، وما قاله المصنف رحمه الله تعالى هو بلفظه في الترمذي، ولفظ مسلم: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»<sup>(٢)</sup> وفيه دليل على تفاضل العرب فيما بينهم، إلا أنهم اختلفوا في التفاضل بين قريش على ما فصله الفقهاء في باب النكاح في أحكام الكفاءة، وقد تبرع به بعضهم هنا ولا داعي له.

(قال الترمذي: وهذا حديث صحيح) ونقل المزي عنه أنه قال: إنه حديث صحيح غريب. (وفي حديث عن ابن عمر رضي الله عنهما) رواه الطبراني في الأوسط بسند حسن و(رواه الطبري) هو الإمام الفرد الحافظ ابن جرير أبو جعفر أحد الأعلام صاحب التصانيف المشهورة من أهل طبرستان، كان كثير الطواف والعبادة وسمع من محمد بن الشوارب والسكوتي وإسحاق بن إسرائيل وغيرهم، وأخذ القراءات عن جماعة، وروى عنه كثير، توفي سنة عشرة وثلاثمائة ودفن بداره وولد سنة أربع وعشرين ومائتين وترجمته مشهورة.

(أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: إن الله عز وجل اختار خلقه) أي أراد أن يخلق خلقه ويوجد لهم، فلما أوجدهم تخيرهم (فاختار منهم بني آدم) وقيل: اختار خلقه بمعنى اختار منهم ففيه حذف وإيصال، وقوله: فاختار إلى آخره بيان له.

وكذا قوله: (ثم اختار بني آدم فاختار منهم العرب) وهم الجيل المعروف كما تقدم، وقيل: معناه ميز بني آدم من بينهم عن غيرهم، ثم اصطفى من بني آدم على غيرهم أو معناه، فاصطفى من بينهم بني آدم ثم دام على اصطفائه إياهم، وكثيرا ما تضمن الأفعال معنى الدوام نحو: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُونَ﴾ [النساء: ١٣٦] وإلا فلا معنى

(١) البيت من الكامل، وهو لمطروود بن كعب الخزاعي في الاشتقاق (ص ١٣)، أمالي المرتضى

(٢) (٢٦٨/٢)، معجم الشعراء (ص ٢٠٠).

(٢) تقدم تخريجه.

لاصطفائهم واختيارهم مرة بعد أخرى، وليس العرب كلهم من ولد إسماعيل كما قاله بعضهم، فإنه قول غير صحيح لشهرته لا حاجة لذكره.

(ثم اختار العرب) أى بطنا من خيارهم ليزيده لطفاً (فاختار منهم قريشا، ثم اختار قريشا فاختار منهم بنى هاشم، ثم اختار بنى هاشم فاختارنى منهم، فلم أزل خياراً من خيار) أى لم أزل من أصل مبدئى وأصولى إلى أن أنشأنى الله خياراً مخلوقاً من خيار وشريفاً من شريف.

(إلا) حرف استفتاح وتنبية على ما علم مما قاله وتحقيق لما بعده. (من أحب العرب فبحبى أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضى أبغضهم) الظاهر أن الباء للسببية أى من أحبهم بسبب محبة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لهم ومحبته، فإن من أحب أحداً يحب لأجله قومه وأصوله، وكذا البغض وهو عدم المحبة ولا يكمل إيمان المرء حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من نفسه، ونقل عن بعض المالكية أن من سبهم وجب قتله. قيل: وهذا ينبغى أن يقيد بالحيثية فإنه ملاحظ فى كثير من القضايا، أى من حيث كون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم منهم، أو من حيث أنهم عرب لا من أبغضهم أو ذمهم لأمر آخر، كقوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة: ٩٧] ويدل عليه حديث: «أحب العرب لثلاث؛ لأننى عربى، والقرآن عربى، ولسان أهل الجنة عربى»<sup>(١)</sup>. والمراد الحث على محبتهم. وقد صنف العراقى رحمه الله تعالى كتاباً فى هذا سماه: «نيل القرب فى محبة العرب» وفى هذا رد على الشعوبية وهم قوم يفضلون العجم على العرب، ولهم أدلة على مقاتلتهم بينها وما عليها، وأوردوا الأحاديث الموضوعة نصرة لهم، منها: «أن الله تعالى إذا تكلم بالرضا تكلم بالفارسية، وإذا تكلم بالبغضب تكلم بالعربية» وفى الشرح الجديد الأحاديث الواردة فى فضل اللغة الفارسية كلها موضوعة، وفضلهم فى الكرم والشجاعة والحلم والعلم أكثر من أن يحصى. وقيل: إن أبا عبيدة كان شعوبياً صنف كتاباً فى مثالب العرب، وقد قيل: إنه كذب عليه.

فإن قلت: إن تقديم المتعلق أعنى بحبى وببغضى يقتضى الحصر ومحبتهم لشرف نسبهم وحسبهم وما فيهم من الأمور الحمودة لا يتوقف على محبته صلى الله تعالى عليه وسلم.

قلت: إن كانت الباء للآلية الادعائية كما فى نحو: نظرت بعينى وسمعت بأذنى فلا إشكال، لأن المعنى من أحبهم أو أبغضهم فينبغى أن يحبهم بمثل حبى ويبغضهم بمثل بغضى، وهو الحب فى الله والبغض فى الله، إن كانت للسببية فالمراد أنه بسبب حبى

يجبهم لا للعصبية، وأمور الجاهلية فتدبر.

قلت: وهذا الحديث رواه أيضا البيهقي عن محمد بن ذكوان عن عمرو بن دينار عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إنا لنعوذ بفناء النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إذ مرت امرأة فقال بعض القوم: هذه ابنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال أبو سفيان: مثل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم في بنى هاشم مثل الريحانة في وسط العين، فانطلقت المرأة وأخبرت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، فجاء يعرف في وجهه الغضب فقال: «ما بال أقوام يبلغني عنهم ما يبلغني أن الله عز وجل خلق الخلق واختار من الخلق بنى آدم، واختار من بنى آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشا، واختار من قريش بنى هاشم، واختارني من بنى هاشم، فأنا خيار من خيار إلى خيار، فمن أحب العرب»<sup>(١)</sup> إلى آخره.

وقوله: (عن ابن عباس) رضي الله عنهما قال السيوطي: هذا الحديث رواه ابن أبي عمر العدني في مسنده (أن قريشا) بفتح همزة أن المشددة والمصدر مبتدأ خبره الجار والمجرور قبله. (كانت نورا بين يدي الله تعالى) هو مستعار مما بين الجهتين المسامتين لثدى الإنسان لأنهم من الله بمنزلة توجب إجلالهم ومحبتهم لشأنهم وحثا على محبتهم، وقيل: إنه كناية عن غاية القرب من محل رضاه، كما يقال: فلان بين يدي الملك، وإن كانت الحقيقة هنا متعذرة فهو مجاز متفرع على الكناية كما في قوله: «لا ينظر الله إلى فلان» كما في شرح المفتاح.

(قبل أن يخلق آدم عليه الصلاة والسلام بالفي عام) هو على حقيقته، أو المراد طول المدة، أي قبل أن يظهره في عالم الشهادة، ثم بين حكمة إظهاره بقوله: (يسبح ذلك النور وتسبح الملائكة) اقتداء (بتسبيحه) أي بتقديسه وتنزيهه الله، والمراد بكون قريش نورا أرواحها، أو أن الله تعالى مثلها بهذا المثال وأبرز صورها في الملأ الأعلى تسبيحه ليعلم أنها بشرية وملكية، ولذا قال الله تعالى لهم لما قالوا: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ٣٠﴾ [يعنى أنهم سبحوا قبل ما سبحتم في الأزل فهم لم يعلموا بذلك لأنهم ظنوا أن تلك الأنوار ملكية صرفة، وكان نور محمد صلى الله تعالى عليه وسلم مدرجا إذ ذاك في أصوله من قريش وغيرهم بجملة أصلابه المسبحة، وإن لم يشعروا به وإن من شئ إلا يسبح بحمده.

(فلما خلق الله) جسم (آدم عليه الصلاة والسلام ألقى ذلك النور فى صلبه) والصلب والصالب عمود الظهر، ويقال: بضم الصاد وفتحها أى أودعه فيه كما سيأتى تحقيقه ثم فصله.

بقوله: (فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: فأهبطنى الله إلى الأرض فى صلب آدم) أى أنزل نورى الذى فى صلبه إلى الأرض. (وجعلنى فى صلب نوح) أى نقل نورى من صلب آدم عليه الصلاة والسلام إلى صلب نوح صلى الله تعالى عليه وسلم. وقال: (وقذف بى فى صلب إبراهيم) عليه الصلاة والسلام، ولم يقل جعلنى لما بين نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام من البعد، لأن القذف الرمى من بعيد وأصله الرمى بالحجارة، يقال: هم ما بين حاذف وقاذف والحذف رمى العصا.

(ثم لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الكريمة) يعنى أصلاب أجداده عليه الصلاة والسلام. (والأرحام الطاهرة) من خبث الزنا وغيره، ووصف الأصلاب بالكريمة والأرحام بالطاهرة فى غاية الحسن؛ لأنها مقر الطمث والدم والنظف، والأرحام جمع رحم وهو وعاء الولد ويطلق على القرابة. (حتى أخرجنى من بين أبوى) أى بين أبى وأمى على التغليب المشهور، وإخراجه من بينهما تولده منهما وخلقه من نطفتهما.

(لم يلتقيا على سفاح قط) جملة حالية، والسفاح: الزنا، من سفح الماء ونحوه من المائعات إذا أراقه، أى لم يجتمعا على زنا، ولم تلق نطفة أحد من أبويه وآبائه فى غير الأرحام الطاهرة من الزنا ونكاح الجاهلية كما مر، وقد مر أنها لتعميم الأزمنة الماضية، يقال: ما رأيته قط بفتح القاف وضمها وتشديد الطاء، وفتح القاف وتخفيف الطاء المضمومة، وإذا كانت بمعنى حسب ففتح وسكون.

(ويشهد لصحة هذا الخبر شعر العباس) رضى الله تعالى عنه عم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فإنه اشتمل على معناه (فى مدح النبى صلى الله تعالى عليه وسلم) وهو الشعر المشهور الذى أوله:

من قبلها طبت فى الظلال وفى مستودع حيث يخصف الورق

الآيات، وستأتى بتمامها مع الكلام عليها، وقد قيل: إنها لحسان رضى الله تعالى عنه، والصحيح الأول، وإن ذهب ابن عساكر فى تاريخه إلى الثانى فى حديث أخرجه عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما إلا أنه ضعيف جداً، قيل: وهذا موضع بحث؛ لأنه إن أراد بكونه شاهداً لصحته متناً وسنداً فهو غير لازم، وإن أراد به صحة معناه فهو غير مفتقر له، لأن كثيراً من الأحاديث دلت عليه وانتقاله عليه الصلاة والسلام من صلب آدم عقلى أيضاً وفيه نظر.

## (فصل)

(وأما ما تدعو ضرورة الحياة إليه مما فصلناه) فيما تقدم أول الباب، وتدعو بمعنى تقتضيه ويلزم حتى كأنه تطلبه منه فهو استعارة فى الأصل، وضرورة الحياة ما لا بد منه فيها مما يضطر الحى إليه. (فعلى ثلاثة ضروب) جمع ضرب، وهو القسم والنوع من الشئ، وفى بعض النسخ فعلى ثلاثة ضرب، وفى بعضها أضرب بجمع القلة وهو أنسب بالثلاثة والأولى، لأن الجمعين يقام كل منهما مقام الآخر كثيرا، كقوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ قُرُوءٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وفيه تفصيل ليس هذا محله (ضرب الفضل فى قلته، وضرب الفضل فى كثرته، وضرب تختلف الأحوال فيه) وأفرد لكل منها فضلا كما سيأتى.

(فأما التمدح) أى حسنه بحيث يستحق المدح به وليس المراد به التكلف كتحلم. (والكمال بقلته اتفاقا) شرعا وعادة كما بينه بقوله: (وعلى كل حال عادة وشرعية) والمراد بالعادة ما اعتاده الناس مما يودى إليه العقل إذا خلى نفسه وطبعه، والشرعية ما أمر به الشارع ونهى عنه، مما تضمنه الوضع الإلهى السائق لذوى العقول باختيارهم إلى الأمر المحمود. (كالغذاء والنوم) الغذاء يكسر الغين وفتح الذال المعجمتين، وبالمد كل مأكول ومشروب به قوام البدن مطلقا، وأما بفتح المعجمة ودال مهملة فما يؤكل فى أول النهار كما مر، والنوم معروف.

(ولم تزل العرب والحكماء) أراد بالحكماء حكماء اليونان والهند والفرس ونحوهم، ولذا قابلهم بالعرب وهم يمدحون قلة النوم والسهر بما لا مزيد عليه، قال فى هياكل النور: النفوس الناطقة من جواهر الملكوت، وإنما يشغلها عن عالمها القوى البدنية ومشاعلها، وضعف سلطان القوى البدنية بتقليل الطعام وتكثير السهر، فيتخلص أحيانا إلى عالم القدس ويتلقى منه المغيات.

(تمادح بقلتهما وتذم بكثرتهما) تمادح كتفاخر لفظا والمقصود الكثرة لا التفاعل، وخص العرب لأنهم أكثر الناس مدحا لهذين بخلاف غيرهم، كالروم والعجم فإنهم يفتخرون بكثرة الأطعمة ونفاستها ولهم حرص عليها، وذكر الحكماء منهم ومن غيرهم، ومر ذلك لاعتنائهم بالرياضة وقلة التمتع فى كل مأكول ومشروب، مع سداد عقولهم وصفاء أذهانهم واعتنائهم بمهمات أمورهم وعبادتهم وهو ظاهر، وورد فى الحديث: «أبغضكم إلى الله تعالى كل نؤوم» وقال عيسى عليه الصلاة والسلام للحواريين: «أجيعوا بطونكم لعلكم ترون ربكم بقلوبكم» وقالوا: البطنة تذهب الفطنة. والأحاديث فى هذا أكثر من أن تحصى، وقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَمْنَعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ [محمد: ١٢].

(لأن كثرة الأكل والشرب دليل على النهم) بفتح النون والهاء وهو الإفراط فى شهوة الطعام، ومنه الحديث: «منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال»<sup>(١)</sup>. والشرب مثلث الشين. (والحرص والشرة) أى الحرص على الأكل والشرب، والشرة بفتح الشين المعجمة والراء المهملة والهاء زيادة الحرص، ففيه ترقى.

(غلبة الشهوة) المراد غلبة شهوته للطعام على تحمله وصبره وعقله فيما فيه صلاحه فليس فى كلامه تكرار، وهذه كلها صفات مذمومة كما ورد فى الحديث: «الحرص والشرة داء عضال» والحريص أسير شهوته وعبد بطنته، والحرص توأم الحسد وهو هادم الجسد، والحرص قد يكون محمودا إذا كان فى محمود، وقال الله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وإنما يمدح قلة الغذاء والنوم إذا لم يفرط حتى تؤدى لضرر بلا ضرورة كما قال:

واخش الدسائس من جوع ومن شبع      فرب مخمصة شر من التخم  
ثم إن ترك من ابتلى بذلك إذا عسر عليه ينبغي قطعه بالتدريج كما فى منظومة ابن سينا:

وكل عادة تضر أهلها      فاقطع بتدرج الزمان أصلها  
وقوله (مسبب لمضار الدنيا والآخرة) خير بعد خير لأن، وهو بكسر الباء المشددة اسم فاعل، ولم يقل سبب مع أنه أخف وأظهر؛ لأنه أمر مباح لا ضرر فيه دنيوى ولا أخروى، بل ربما يترتب عليه نفعهما كرامة البدن والقيام بعده للعبادة، كمن لو لم ينم أول الليل لم يدرك صلاة الصبح، فحيث أنه ترتب عليه نفع تارة وضرر أخرى، علم أنه ليس سببا بل قد ينشأ عنه سبب ضررها فهو مسبب لا سبب، فإن النوم قد يكون منه ترك الصلاة وهو سبب لضرر الآخرة، والأكل يكون منه الامتلاء وهو سبب للسدة والسل، والشرب بعد النوم يورث الأمراض، وقيل: إنه بمعنى السبب هنا المفضى إلى المسبب بالفتح والفضل للمتقدم، فمعنى مسبب موجد للأسباب، وهذه الشهوة والحرص عليها يؤدى إلى جلب المال، وكذا حب المال، وكذا حب الدعة والراحة قد يترتب عليه مفسد كما قال الشاعر:

وإنك إن أعطيت بطنك همه      وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا  
ويقع فى بعض النسخ «وغلبة الشهوة» مسبب برفعها على أنه مبتدأ وخبر ليس

(١) أخرجه الحاكم (٩٢/١)، والطبرانى فى الكبير (٢٢٣/١٠)، وابن عدى فى الكامل (١٤٥٧/٤)، والشجرى فى أماليه (١٦٦/٢).

بشئ، لأن غلبة الشهوة ليس سبباً للمضار وإنما سببه الأكل والشرب كما قاله الأنطاكى، ثم أشار المصنف رحمه الله تعالى إلى ذلك على طريق اللف والنشر، فقال: (جالب لأدواء) جمع داء (الجسد) أى أمراضه وأسقامه كما هو مشاهد، وقال:

فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

فهذا راجع لكثرة الأكل والشرب إذ بهما تمتلئ المعدة والعروق بالدم، وتزيد الأخلاط فيتولد منها الأمراض. واجتمع أربعة أطباء هندى ورومى وعراقى وسوادى عند الرشيد، فقال: ليصف كل واحد منكم الدواء الذى لا داء معه، فقال الهندى: هو الإهليلج الأسود. وقال الرومى: حب الرشاد الأبيض. وقال العراقى: الماء الحار. فقال السوادى: وكان أعلمهم الإهليلج يعفص المعدة، وهذا داء وحب الرشاد يرققها وهذا داء، والماء الحار يرخيها، وهذا داء، قالوا: فما هو؟ قال: أن لا تأكل الطعام حتى تشتهيه وترفع يدك وأنت تشتهيه. وفى الطب النبوى فى معناه أحاديث كثيرة نحو: «صوموا تصحوا»<sup>(١)</sup>.

(وخشارة النفس) بفتح الخاء المعجمة والمثناة والراء المهملة عند ابن رسلان وبضم الخاء عند برهان الحلبي، والأول هو الظاهر لموافقة القياس كالكفالة والضلالة، قال ابن الأثير: هو ثقل النفس وعدم نشاطها، والظاهر أنه راجع لكثرة النوم فإنه يورث لاسيما بالنهار ضعفاً للبدن، ووقع فى بعض النسخ خسارة بالسين وهو تصحيف وتحريف من الكاتب، وهو مجرور معطوف على الأدوية، وكذا قوله: (وامتلاء الدماغ) بأبجزة رطبة تتصاعد عند النوم ترخى أعصاب الدماغ وتضعفه، وتذهب صفاء الذهن، وتورث البلادة، وقلة الحفظ، ويصح رجوع هذا وما قبله للجميع، لكن يأباه ما بعده من قوله: (وقلته دليل على القناعة) بالنصب عطفاً على كثرة الأكل، ويجوز رفعه على الابتداء لأن من اعتاد قلة الأكل يقنع باليسير فاستراح واستغنى عن الناس فعز وتخلّى للعبادة، وكان من رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

(وملك النفس) معطوف على القناعة أى ملك نفسه الأمانة فلا تعصيه، لأنه إذا شبع عصته نفسه وتحركت شهوته، كما قال ذو النون رحمه الله تعالى: ما شبع إلا هممت بمعصية والجوع يقمع الشهوات.

(وقمع الشهوة) معطوف على القناعة، والقمع القهر أى قهر شهوته وغلبها وأضعفها حتى لا تخالفه، وما بعده خبر مبتدأ مقدر، والظاهر أنه مبتدأ خبره (مسبب)

(١) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٣٢٤/٥).

بكسر الباء كما تقدم.

(للصحة وصفاء الخاطر وحدة الذهن) الخاطر يطلق على ما يخطر على القلب من الأفكار، ويطلق على القلب نفسه وصفاءه من الكدورة بحسب فهمه، والذهن قوة الفهم وحدته سرعته، وهذا يكون عند الجوع أقوى وأصفى وبه يصل للمعارف الربانية، ويلتذ بالمناجاة والأذكار والعبادة، وقال الجنيد: يجعل أحدكم بينه وبين قلبه مخلاة من الطعام، ويريد أن يجد حلاوة المناجاة، وهذا كله راجع للأكل وما بعده لما بعده، والحدة بكسر الحاء القوة كبعثة. (كما أن كثرة النوم دليل على الفسولة) بضم الفاء والسين المهملة واللام، وهى الرذالة وعدم الهمة فى أمور الدنيا والآخرة.

فيا نائم الليل هنيته فقبل الممات سكنت القبورا

لأنه يميت القلب ويورث الكسل، ولا يصح إعجابه وإن كان بمعنى الجبن لعدم مجيء مصدره على فعولة. (والضعف) أى ضعف القوى والإدراك.

(وعدم الذكاء والفطنة مسبب) هما متقاربان أو الفطنة والفهم والذكاء سرعته، فقد نفى الأخص على نفى الأعم ليفيد المبالغة على قاعدتهم فى الترقى فيه، وعدم الذكاء مرفوع مبتدأ وخبره مسبب كما فى الأصول، والأظهر جره عطفا على ما قبله، فمسبب خير بعد خير كما مر.

(للكسل وعادة العجز وتضييع العمر فى غير نفع) أما كون كثرة النوم سبب للتوانى عن فعل المهم، فلتغفل الحواس فيه وارتخاؤها بعده، فإذا ألف ذلك عجز وضاع عمره بلا فائدة، كما قال:

أليس من الخسران أن لياليا تمر بلا نفع وتحسب من عمرى

فمثله لا يعد عمرا لأنه ما عمر الإنسان أحد. داريه.

إذا كان رأس المال عمرك فاحترس عليه من الإنفاق فى غير واجب

(وقساوة القلب وغفلته وموته) لعدم قبوله الموعظة بسبب غفلته به عما يهمه، وموته بعدم إدراكه؛ لأنه صفة تبطل الحس والإرادة كالموت، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَتَوَقَّى النَّفْسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] الآية، فالنوم أخو الموت (والشاهد على هذا) أى الدليل عليه وأنها يورثان ما ذكر. (ما يعلم ضرورة) أى يعلمه كل أحد علما بديهيا ضروريا. (ويوجد مشاهدة) منه ومن أمثاله (وينقل متواترا) أى نقلا متواترا بحسب المعنى. (من كلام الأمم المتقدمة والحكماء السالفين) المتقدمين على ملة الإسلام من حكماء الهند والعجم واليونان والعرب وغيرهم، كقول الحارث بن كلدة حكيم



العرب: أفضل الدواء الإزام، أى قلة الأكل. وقال داود: إياك وكثرة النوم فإنه يفقرك إذا احتاج الناس لأعمالهم. (وأشعار العرب وأخبارهم) كقوله:

قارب فديتك إن أكلت —————  
وأنا الكفيل لك الحيا —————  
ت وإن شربت وإن عشتا —————  
وأن تعافا ما حيتا —————

وقال قيصر لقس بن ساعدة: ما أفضل الأكل؟ قال: ترك الإكثار.

(وصحيح الحديث) النبوى مثل: «أبغضكم إلى الله كل نؤوم أكل شروب» وغيره (وآثار من سلف وخلف) الأثر ما أثرته أى نقلته عن غيرك فيشمل الحديث، ويطلق ويراد به ما يقابل الحديث، والمراد بمن سلف من تقدم عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ومن خلف ما عداهم كالصحابه رضى الله تعالى عنهم والتابعين (وما لا يحتاج إلى الاستشهاد عليه) أى طلب شاهد ودليل عليه وبين وجه ترك الاستشهاد بقوله: (اختصارا واقتصارا على اشتهار العلم به) المغنى عن التطويل بذكره، والاختصار عند أهل العربية الحذف للدليل، والاختصار خذف بلا دليل، وعند المحدثين أن يكون للحديث طرق فيكتفى بأحديها، والمراد هنا عدم التطويل اكتفاء بشهرة العلم بما ذكر.

(فكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد أخذ من هذين الفنين) أى النوعين وهما الأكل والنوم (بالأقل) عداه بالباء وإن كان متعديا بنفسه لتضمنه معنى التمسك أو الاتصاف، أى لازم صلى الله تعالى عليه وسلم أقل قليل منهما لما فيه من الكمال والملكة المرضية، وأتى باسم الإشارة للقريب تحقيرا لهما نحو: ما هذه الحياة الدنيا. وتبعيدا لهما عن ساحة الاعتبار لعدم المبالاة بهما. وما قيل من أنه كان ينبغي للمصنف رحمه الله تعالى أن يقتصر على كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم، فإن معه لا يحتاج لغيره من شعر وحكمة ليس بشيء، فإن مراده أن صفاته صلى الله تعالى عليه وسلم مما اتفق العقلاء وجميع الأمم على حسنها وكونها مرضية محمودة، وأن كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم زبدة حكم الأمم وإن لم يرههم ولم يقرأ كتبهم، وكفاك قصص القرآن نظير الصنيعة.

(هذا) أى ما ذكر من قلة أكله صلى الله تعالى عليه وسلم ونومه (ما لا يدفع) أى لا ينكر ولا ينازع فيه. (من سيرته) أى من طريقته وصفته، وهو بيان لما حال من ضمير يدفع، أى لشهرته وتواتره لا ينازع فيه أحد. (وهو الذى أمر به) أمته دون ضده وضمير به لهذا أو للأقل. (وحض عليه) بجاء مهملة وضاد معجمة، أى حث الناس ورغبهم فى التخلق به لما علم من شرفه وكماله.

(لاسيما بارتباط أحدهما بالآخر) لاسيما بمعنى لا مثلما، والكلام عليه مفصل فى

العربية، ويذكر بعده ما هو أولى بالحكم نحو: أكرم الناس، لاسيما العلماء إلا أن فى كونها هنا كذلك خفاء لم يتعرضوا له، غير أن بعضهم قال: المعنى لاسيما الأمر بالأخذ بالأقل والحض عليه مع ارتباط أحدهما بالآخر، لأنه إذا شبع شعبا كثيرا نام كثيرا ففاته خير كثير يعقبه ندم كثير وهو لا يجدى نفعا، والبيان الشافى أن كل واحد منهما مذموم مع انفراده ينبغى الحث على تركه، فكيف إذا اجتماعهما وهما كذلك غالبا للزوم أحدهما للآخر، فإن النوم يلزم الأكل والبلاء بمعنى مع، فما قيل أن لاسيما هنا ليست على وفق استعمالها ليس بشيء، وهو توطئة للحديث الآتى المتضمن لتلازمهما، ومن لم يفهم هذا قال: إن المصنف رحمه الله تعالى استعمل لاسيما على خلاف ما جاء فى قوله. ولاسيما يوم بدارة جرجل. وقد قال ثعلب: من استعمالها على خلافه فهو مخطئ، وحذف الواو والمستثنى بها وتقديره ولاسيما حض بارتباط أحدهما بالآخر الخ.

(حدثنا أبو على الصدفى) هو الحافظ ابن سكرة تقدم بيانه (بقراءة عليه) بين طريق روايته بأنه قرأ وشيخه يسمع، إلا أن قراءة الشيخ والسماع منه أعلى رتبة فى الرواية، لكن صار المعروف اليوم القراءة على الشيخ، ولذا قيل: إنها أرفع، وقيل: إنها سواء.

(قال: حدثنا أبو الفضل الأصفهاني) بفتح الهمزة وكسرها وبالباء والفاء، وهى بلدة عظيمة، قال صاحب المطالع: قيدناها بالفتح عن جميع شيوخنا، قال: وقيدها بالكسر أبو عبيد البكرى، قال: وأهل المشرق يقولون: أصفهان بالفاء، وأهل المغرب بالباء، وهو أحمد بن خيرون. وقد تقدم، ومعنى أصبهان مقر الفرسان، لأن أصب بمعنى فرس، قيل: وهى لا تخلو غالبا من ثلاثين رجلا يستجاب دعاؤهم، وكان غرود حمل منهم ثلاثين رجلا لحرب الخليل، فلما رأوه آمنوا به فدعا لهم بذلك، أى بأن تجاب دعوتهم كما أجابوا دعوته.

(قال: حدثنا أبو نعيم) بالتصغير وهو حافظ عصره ومحدثه أحمد بن عبد الله بن أحمد ابن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني الصوفى سبط الزاهد محمد بن يوسف البناء، ولد سنة ست وثلاثين وثلثمائة، وتوفى فى المحرم سنة ثلاثين وأربعمائة وعمره أربع وتسعون سنة، وسمع من كثير وسمع منه الحفاظ، وله ترجمة فى الميزان وتصانيفه مشهورة.

(قال: حدثنا سليمان بن أحمد) بن أيوب بن مطر الشيباني مسند الدنيا الإمام الجليل، ولد بعكا فى صفر سنة ستين ومائتين، واعتنى به أبوه فرحل به فى حديثه، وسمع فى سنة ثلاث وسبعين وبعدها بمدائن الشام، والحرمين، ومصر، والكوفة، والبصرة، وأصبهان، والجزيرة وغيرها. وحدث عن أكثر من ألف شيخ، وصنف «المعجم الكبير»

ولم يذكر مسند أبي هريرة فإنه أفردّه بمصنف، و «المعجم الأوسط» وهو كتاب جليل تعب فيه، وكان يقول: هو روحى، و «المعجم الصغير» ومصنفات آخر جلييلة، وتوفى لليلتين من ذى القعدة من سنة ستين وثلاثمائة وله مائة سنة وعشرة أشهر يقيناً، وترجمته فى الميزان وتصانيفه مشهورة.

(قال: حدثنا أبو بكر بن سهل) أبو محمد مولى بنى هاشم بن عبد الله بن يوسف الدمياطى، روى عنه الطحاوى وغيرهما، توفى سنة تسع وثمانين ومائتين عن نيف وتسعين سنة، وهو متقارب الحال، وقيل: ضعيف كما فى الميزان.

(قال: حدثنا عبد الله بن صالح) هو أبو صالح الجهنى مولاهم كاتب الليث، روى عن معاوية بن أبى صالح الآتى، وموسى بن على وغيرهما، وروى له البخارى وأصحاب السنن، وهو زاهد حسن الحديث، توفى فى سنة مائتين وثلاث وعشرين وعمره ست وثمانون سنة، وله ترجمة مطولة فى الميزان.

(قال: حدثنا معاوية بن أبى صالح) الحضرمى قاضى الأندلس وهو إمام صدوق توفى سنة ثمان وخمسين ومائة، وله ترجمة فى الميزان.

(أن يحيى بن جابر حدثه عن المقدام بن معدى كرب) هو يحيى بن خالد الطائى قاضى حمص، مات سنة مائة وستة وعشرين، وأخرج له أصحاب السنن، والمقدام بن معدى كرب بن عمرو الكندى صحابى نزل حمص وترجمته مشهورة، توفى سنة سبع وثمانين، وأخرج له أصحاب السنن وأحمد. قال السهيلي: معنى معدى كرب وجه الفلاح، وفيه لغات إسكان ياء معدى، ولو فى النصب مع فتح باء كرب بلا تنوين لبنائه وإعرابها بالإضافة مع الصرف وعدمه.

(أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه) وهذا الحديث رواه الترمذى والنسائى وابن حبان، وأخرجه المصنف رحمه الله تعالى عن الطبرانى ولم يروه عن الترمذى، لأن سنده لمعجم الطبرانى أعلى من غيره، لأن بينه وبين المقدم ثمانية فى رواية الطبرانى، وبينه وبينه فى رواية الترمذى من إحدى طريقه أحد عشر، ومن الأخرى عشرة، والحديث صحيح. وفى الروايات اختلاف يسير، ففى الترمذى بدل ابن آدم آدمى، وبلفظ بطن بلا إضافة، وبحسب الآتى بالباء الجارة، والوعاء ظرف الطعام، والمراد أنه لا وعاء أشر منه ولا يساويه فى الشر، فجعل بطنه كأوعية البيت تحقيراً له، ثم جعله شر الأوعية زيادة فى تحقيره؛ لأن امتلاءه يورثه البلادة ويحرك شهوته فيرتكب المعاصى، يحصل له من الأمراض ما يضره كما مر، ويؤدى إلى

هلاكه، ولا شر أعظم من هذا فحسبه منه ما يقيم صلبه ويعينه على عبادة ربه ونظام أمور ديناه، فلذا قال: (حسب ابن آدم) وفي رواية لمسلم بدون ابن آدم.

(أكالات يقيم صلبه) حسب بسكون السين بمعنى كفى، كما يقال: أعطيت الرجل ما حسبه أى أعطيته عطاء يكفيه، وهو مبتدأ خبره أكالات بضم الهمزة والكاف معاً، والرواية به ويجوز فتح الكاف وتسكينها جمع أكلة بضم الهمزة وسكون الكاف اسم لما يؤكل، ويقمن: بمعنى يقوين من أقام بمعنى دام وثبت. وصلبه: بضم الصاد وفتحها عظام سلسلة ظهره؛ لأنه عموده وفيه النخاع الذى يمد العصب بالممسك، فإذا أفرط جوعه ضعف وانحنى صلبه. وفي القاموس ما يخالف ما قاله الشراح، لأنه جوز فى أكلة الفتح والضم واقتصر فى جمعه على فتح ثانيه كصرد، وقال البرهان: أكالات بضم الهمزة جمع أكلة بفتحها وهى اللقمة.

(فإن كان لا محالة) بفتح الميم والحاء المهملة واللام بمعنى لا بد ولا حيلة كما فى قوله:

وكل نعيم لا محالة زائل

أى إن لم يكن صبر على الاقتصاد على لقيمات. (فلث) من بطنه (لطعامه وثلث) منه (لشرابه وثلث) منه (لنفسه) بفتحتين وهو الهواء الخارج من الجوف، وروى الدجى «طعامك وشربك ونفسك» بكاف الخطاب على الالتفات من الغيبة للخطاب اعتناء بشأن من أرشده فيما أرشده إليه، وأنه لا ينبغي تجاوزه، وفى الأول حث على الأقلية وفيما بعده تجويز لما فوقه من غير إفراط والشراب هنا بمعنى الماء.

(ولأن كثرة النوم من كثرة الأكل والشرب) هذا من كلام المصنف رحمه الله تعالى لا من الحديث، إلا أن الشراح لم يبينوا وجه ارتباطه بما قبله ولا على ما عطف، والظاهر أنه عطف على قوله السابق بارتباط أحدهما بالآخر، لأن السبب والعلة فى معنى واحد، فالمراد بارتباطهما أن أحدهما يستدعى الآخر، فإن الأكل يقتضى الشرب، ثم بين أنهما وكثرتهما يقتضيان كثرة النوم، لما يصعد منهما من الأبخرة الكثيفة إلى الدماغ المرخية له المقتضية لكثرة النوم المستدعى للكسل وذهاب الفطنة وفوات العبادة، وفى ذلك ما لا يخفى من الضرر.

(قال سفيان الثورى:) بكسر السين وضمها وفتحها، وهو سفيان بن سعيد بن مسروق أبو عبد الله، والثورى نسبة لثور بن مناة، وقيل: من ثور همدان وهما قبيلتان، الكوفى عالم عصره الزاهد المحدث، توفى سنة إحدى وستين ومائة وعمره أربع وستون، وهو ثقة ولا عيرة ممن تكلم فيه، وهم من أقران مالك رحمه الله تعالى.

(يملك مهر الليل بقلة الأكل) يملك بضم الياء وفتح اللام مبنى للمفعول، وسهر مرفوع نائب الفاعل، أى يقوى ويقدر عليه من غير مشقة، فشبه قدرته بملكه له فهو استعارة، لأن النفس تقهر بقلة الطعام بعد أن كانت قاهرة.

(وقال بعض السلف: لا تأكلوا كثيرا فتشربوا كثيرا ففقدوا كثيرا) زاد الغزالى فى الإحياء: فتخسروا كثيرا. وزاد غيره: فتندموا عند الموت لقلة الزاد، لأنه أكل زاده فضيعه فى غير وقته.

(وقد روى عنه) أى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم (أنه كان أحب الطعام إليه ما كان على ضفف أى كثرة الأيدى) لما فيه من السخاء بالطعام وقلة الأكل وكثرة البركة، وهذا الحديث قال السيوطى رحمه الله تعالى: إنه رواه أبو يعلى عن أنس وجابر رضى الله تعالى عنهما بسند جيد، ولفظه كما قال الشيخ قاسم فى تخريجه: أنه لم يجمع له غداء وعشاء وخبز ولحم إلا على ضفف وسنده جيد. وأخرج أبو عبيد فى الغريب أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يشبع من خبز ولحم إلا على ضفف.

وأخرج الترمذى فى الشمائل عن مالك بن دينار قال: «ما شبع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الخبز قط، ولا من لحم إلا على ضفف» قال مالك: سألت رجلا من أهل البادية ما الضفف؟ قال: هو التناول مع الناس.

وأخرج الطبرانى رحمه الله تعالى عن جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «أحب الطعام إلى الله تعالى ما كثرت عليه الأيدى». انتهى.

والضفف: بفتح الضاد المعجمة والفائىن أولاهما مفتوحة فسرهما المصنف رحمه الله تعالى بما ذكره أهل اللغة، وهو تفسير مأثور كما سمعته آنفا، وهو من قولهم بثر ضفوف إذا كثر الناس عليها، وقال يحيى بن أحمد: الضفف أن يكون الأكلة أكثر من الطعام، والجفف بالجيم أن يكون بمقداره، وقيل: الضفف الضيق والشدة أى لم يكن صلى الله تعالى عليه وسلم محبا للترفه فى مأكله ولا متنطعا فيه. وفى رواية: «لم يشبع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من طعام إلا على ضفف». وروى: «على شظف» أى ضيق وشدة كما علم، فالضفف والشظف رويان معنى الضيق، والحاصل أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يحب الأكل مع الجماعة وإن قل طعامه، وضافت معيشته. والأحاديث فى معناه كثيرة: ك«طعام الواحد يكفى الاثنين، وطعام الاثنين يكفى الأربعة، وطعام الأربعة يكفى الثمانية»<sup>(١)</sup>. وهو حديث صحيح. وقيل: الضفف كثرة العيال. وقيل: قلة

(١) أخرجه مسلم (٢٠٥٩/١٧٩)، والترمذى (١٨٢٠)، وابن ماجه (٣٢٥٤)، وأحمد (٤٠٧/٢)،

الطعام وكثرة الأكلين. ويقال: ضف بالإدغام، وقال ابن السكيت. الضف الأكل باليد ففيه لغتان وله معان.

(وعن عائشة رضى الله تعالى عنها: لم يمتلى جوف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم شعبا قط) وروى عنها أيضا: «ما شبع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثلاثة أيام تباعا من خبز حتى مضى لسبيله». وهذا يقتضى بمفهومه أنه شبع فى بعض الأيام دون الثلاثة، وهو معارض للأول وكلاهما صحيح، ويجمع بينهما بأن دلالة المفهوم لا تعارض المنطوق عند من قال بها، كأبى حنيفة رحمه الله تعالى فلا تعارض بينهما بالطريق الأولى، أو يقال: الامتلاء شعبا صفة زائدة على الشبع، فالشبع الأعم كان يقع منه صلى الله تعالى عليه وسلم أحيانا، وأما الامتلاء من الشبع فلم يقع أصلا، والشبع مباح عليه محرم على غيره إلا للتقوى على صوم الغداة، ولموانسة الضيف حتى لا يستحى من الأكل كما قاله الحنفية، وعند الشافعية هو محرم من مال الغير إن لم يعلم رضاه ومن مال نفسه مكروه، مع أن ما ذكر من تعارض الحديثين غير مسلم لأن ما ذكره المصنف رحمه الله تعالى هنا ذكره فى الإحياء أيضا عن عائشة رضى الله تعالى عنها، وتماه: «وربما بكيت رحمة له صلى الله تعالى عليه وسلم لما أرى به من الجوع، وأمسخ بطنه الشريف ييدى وأقول نفسى لك الفداء لو تسلفت من الدنيا بقدر ما يقوتك منها ويمنعك من الجوع، فيقول: «يا عائشة إخوانى من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم، فقدموا على ربهم عز وجل، فأكرم مأبهم وأجزل ثوابهم، وأجدنى أخشى إن ترفهت فى معيشتى أن يقصر بى دونهم فأصير أياما يسيرة أحب إلى من أن ينقص حظى غدا فى الآخرة، وما من شىء أحب إلى من أن ألحق إخوانى» قالت: فوالله ما استكمل بعد جمعة حتى قبضه الله». وقد ذكر المصنف رحمه الله صدره فقط، وقال العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء: لم أجد هذا الحديث، فلا يعارضه، وشعبا تمييز أو مفعول مطلق، وشينه مفتوحة وتكسر وتفتح الباء وتسكن، وصوب ابن مكى كسر الشين وسكون الباء كما قاله التلمسانى، ثم إنه ورد فى الأحاديث الصحيحة: «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يشبع ويجوع» وفى البخارى: «ما شبع آل محمد قط» وهذا محمول على غالب أحواله صلى الله تعالى عليه وسلم، فإن الغالب ينزل منزلة الكل كثيرا، وهذا لم يكن عن احتياج حقيقى لما رواه الترمذى عن أبى أمامة رضى الله تعالى عنه أنه قال: قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «عرض على ربى أن يجعل لى بطحاء مكة ذهابا فقلت: لا يا رب أشبع يوما وأجوع يوما، فإذا جعت تضرعت إليك وإذا شبع

شكرتك»<sup>(١)</sup>. كما قال البوصيرى:

وراودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شمم  
فجوعه صلى الله تعالى عليه وسلم كان قصدا، ولكن يظهر أنه عن احتياج تطييبا  
لقلوب الفقراء، وتنزيها من الرياء، وتبريا من رياضة أهل الكتاب والحكماء، كما قال  
صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا رهبانية فى الدين»<sup>(٢)</sup> وهذا مما ينبغى التنبيه له ويجب  
اعتقاده والتأسى به فيه فافهم.

(وأنه) معطوف على ما قبله من قوله: «أنه كان أحب» إلى آخره وقوله: (كان فى  
أهله) أى أهل بيته وعائلته وهو حال من فاعل يسأل أو خير وجملة. (لا يسألهم طعاما)  
حال منه وعدم سؤاله صلى الله تعالى عليه وسلم لذلك لعدم اهتمامه به والتفاتة لما هو  
أهم منه.

(ولا يتشهاه) مضارع تشهى تفعل من الشهوة وهو الميل إلى ما يستلذ. وقيل: هى  
إدراك الملائم من حيث هو ملائم، وقيل: الشهوة لا تحدد والفرق بينها وبين الإرادة أن  
الإنسان قد يريد مالا يشتهي ويشتهى ما لا يريده، كالمريض المحتمى عما يشتهي.  
والإرادة قد تتعلق بنفسها بخلاف الشهوة، فإنها لا تتعلق بنفسها بل تتعلق بالذات  
المغايرة لها، فإذا ذكرت متعلقة بنفسها كانت مجازا عن الإرادة، كما قيل لمريض: ما  
تشتهى؟ فقال: أشتهى أن أشتهى. وفرق بينها وبين المحبة أيضا، فإنك تقول: أحب الله  
ورسوله، ولا تقول أشتيهما. فالحجة أعم والشهوة فى الأصل تكون وجدانية غير  
اختيارية بخلاف المحبة، ولذا فرق النحاة بين قوله: أحب إلى وأشهى إلى فجعلوا إلى فى  
الأول للتبيين وفى الثانى معنى عند، وفيه كلام لنا فى نكت المغنى من باب الهمزة فإن  
أردته فراجعه، ثم بين ما ذكر.

بقوله: (إن أطعموه أكل وما أطعموه قبل وما سقوه شرب) يعنى أنه صلى الله تعالى  
عليه وسلم كان يأكل ما قدمه له أهله ونحوهم من الطعام ويقبله من غير أن يعييه، وكذا  
كل ما قدم له من الماء يشرب، وهذا كان غالب حاله صلى الله تعالى عليه وسلم فلا  
ينافى ما وقع له نادرا على خلاف مقتضى طبعه، كما فى مسلم عن عائشة رضى الله  
تعالى عنها أنها قالت: قال لى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذات يوم: «يا عائشة

(١) أخرجه أحمد (٢٥٤/٥)، والترمذى (٢٣٤٧)، والطبرانى (٢٤٥/٨)، وأبو نعيم فى الحلية

(١٣٣/٨).

(٢) أورده العجلونى فى كشف الخفا (٥٢٨/٢).

هل عندكم شىء؟ فقلت: يا رسول الله ما عندنا شىء. قال: «فإني صائم»<sup>(١)</sup> الحديث وسقوه بمعنى أعطوه ما شرب، وزاد الدجلى قط بعد قولهم السابق: لا يسألهم.

(ولا يعترض) بيناء الجهول (على هذا بحديث بريرة رضى الله عنها) أى على هذا المذكور من عدم سؤاله لما ذكر، وبريرة بفتح الموحدة ورائين مهملتين أولاهما مكسورة بينهما مثناة تحتية من البر بمعنى مبرورة أو بارة، وهى بنت صفوان، وهى قبطية أو حبشية عند الذهبى، مولاة عائشة رضى الله عنها اشترتها من عتبة بن أبى لهب، وقيل: من بنى كاهل. وقيل: كانت لناس من الأنصار، وحديثها أخرجه مالك فى الموطأ عن القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها، ورواه الشيخان وهو: قالت عائشة: «كان فى بريرة ثلاث سنن وكانت إحدى الستين أنها أعتقت فخيرت فى زوجها، وقال فيها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «الولاء لمن أعتق»<sup>(٢)</sup> ودخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على أهل بيته واليرمة تفور باللحم، فقبوا له خبزاً وإداماً من إدام البيت، فقال: «ألم أر اليرمة فيها لحم؟ فقالوا: بلى يا رسول الله، ولكن هو لحم تصدق به على بريرة وأنت لا تأكل الصدقة، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «هو لها صدقة ولنا هدية»<sup>(٣)</sup> فأخبرهم صلى الله تعالى عليه وسلم أن هذا اللحم بإهدائها إياه انتقل من حكم الصدقة إلى حكم الهبة، وإنما الذى حرم عليه ما تصدق به على نفسه وجعل محلاً لقبوله، ولو كان ما تصدق به مرة يثبت له حكم الصدقة، لما جاز للفقير إذا تصدق عليه بشىء أن يبيعه من غنى، فقد سألهم صلى الله تعالى عليه وسلم الطعام وأجاب عنه المصنف رحمه الله تعالى بقوله الآتى، فأراد بيان سنته وبأن سؤاله لمقتضى والمنفى السؤال بغير مقتضى.

(وقوله ألم أر اليرمة) بضم الموحدة وسكون الراء وبالميم، وهى عند العرب قدر ينحت من الحجارة، وقيل: أعم من ذلك فيشمل النحاس والحديد وغيرهما. (فيها لحم) الضمير لليرمة لأنها مؤنث كالقدر إلا أن تأنيث الثانية سماعى، واللحم بسكون الحاء المهملة وتفتح وقد قيل: إنه لغة مطردة فى كل ما تانيه حرف حلق كالبحر والنهر والبغل والبخل والكحل، وأنكره البصريون.

(١) أخرجه مسلم (١١٥٤/١٦٩)، وأحمد (٤٢٦/٥)، والبيهقى (٢٠٣/٤).

(٢) أخرجه البخارى (٢٠٠/٣)، ٢٥٠، ١١/٧، ٦١، وأحمد (٢٨١/١)، ٢٨١/٢، ١٥٣، ١٥٦،

٤٢/٦، ١٠٣، وابن ماجه (٢٠٧٦)، وعبد الرزاق (١٥٧٧٢)، والدارقطنى (٢٣/٣)،

والبيهقى (٣٣٨/١٠).

(٣) أخرجه البخارى (٦١/٧)، وأحمد (١٧٨/٦)، والنسائى (١٦٢/٦)، والبيهقى (٣٢٨/١٠).



(إذ لعل سبب سؤاله ظنه صلى الله تعالى عليه وسلم اعتقادهم) أى اعتقاد عائشة المخاطبة وغيرها من الناس فذكره تغليبا (أنه) أى اللحم بسبب أنه صدقة فى الأصل. (لا يحل له) صلى الله تعالى عليه وسلم كالصدقة عليه بالذات. (فأراد بيان سنته) أى طريقته المشروعة له وهى جواز أكل الهدية، وإن كانت صدقة على مهديها (إذ رآهم لم يقدموه) أى اللحم. (إليه مع علمه أنهم لا يستأثرون عليه به) أى لا يخصون أنفسهم ويقدمونها على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى شىء من الطعام وغيره. (فصدق) بتخفيف داله ويجوز تشديدها (عليهم ظنه) بالنصب أى صدق فى ظنه جعلهم بذلك فهو متعد بنفسه أو على الحذف والإيصال كما فى صدق وعده، أو بالرفع على أنه فاعل أى يحقق ظنه أو وجد صادقا فى جهلهم ذلك.

(وبين لهم ما جهلوه من أمره بقوله: هو لها صدقة ولنا هدية) وهذا جواب استحسونه، فإن الرجل إذا رأى طعاما أهدى له فسأل عنه وطلب أن يؤتى به لا يذم، وإنما لا يسأله عما عهده من طعامه ويبحث عنه، وأتى بلعل التى للترجى لأنه لم يجزم به وتقدم جواب آخر، وهذا الحديث يدل على أن الصدقة حرام عليه صلى الله تعالى عليه وسلم لشرف قدره وعلو منصبه وغناه حقيقة، وسواء فيه صدقة التطوع والفرص كالزكاة وفى حل التطوع، قول للشافعى: وكذا أهل بيته، وقيل: ما يحرم عليه الصدقة العامة كماء السبيل والآبار المسبلة، وهل ذلك حرام على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أم خاص به صلى الله تعالى عليه وسلم؟ فيه خلاف، والأصح اختصاصه به صلى الله تعالى عليه وسلم. وفى الأحاديث ما يدل عليه، ونقل عن أبى حنيفة رحمه الله تعالى جواز الصدقة على أهل البيت مطلقا. وقيل: إذا حرموا سهمهم من بيت المال كما نقله الطحاوى، وهو وجه عن الشافعى ومالك، وهم بنو هاشم وكذا بنو المطلب بخلاف غيرهم من قریش وأزواجه رضى الله تعالى عنهن.

(وفى حكمة لقمان) بن عنقاء بن سيرون واسم أبيه تاران، وقيل غير ذلك، وقيل: إنه ابن أخت داود عليه الصلاة والسلام وعنه أخذ الحكمة. وقيل: كان قاضيا فى بنى إسرائيل، والأصح أنه حكيم وقد جمعت حكمه فى كتاب مستقل مسند، والمراد بالحكمة الموعظة الحسنة لفظا ومعنى، ولقمان هذا هو المذكور فى القرآن. وكانت الحكم تجري على لسانه لما آتاه الله من العلم والنفس القدسية، وهو ولى عند الأكثرين ونبي عند بعضهم، وكان عبدا حبشيا نجارا بالراء، وقيل: نجادا بالبدال أو خياطاً أو راعيا. وقيل: نوبى. وقيل: إنه تلمذ لألف نبي وهو غريب من أهل أيلة. وقيل: أنعم. وقيل: أشكم. وقيل: ماتان. وقيل: إنه ابن أخت أيوب أو ابن خالته. وقيل: إنه كان فى

زمن داود. وقيل: إنه بعد إبراهيم، والأصح الأول. وقيل: بعد عيسى عليه الصلاة والسلام، والقول بأنه عاش ألف سنة غلط من لقمان بن عاد.

(يا بنى) بالتصغير والإضافة واسمه مشكم بكسر الميم وسكون المعجمة وميم على الأصح، وقيل غيره كما مر. (إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة) المعدة: بفتح الميم وكسر العين وبكسر الميم مع سكون العين مقر الطعام، وهى للإنسان كالكرش للبهائم، والحوصلة للطير، والفكرة والفكر قوة مدركة فى الدماغ عند من أثبت الحواس الباطنة فى بطون الدماغ كما فصل فى كتب الحكمة، ومن لم يثبتها يقول: هى قوة للنفس تدرك بها الأمور الدقيقة، فعلى الأول نومها استعارة تبعية لبطلان عملها أو شبهت الفكرة بشخص وأثبت له النوم على طريقة المكينة والتخييلية، وكذا على الثانى، أو المراد نام صاحبها والنوم مبطل للحس والإدراك، والمراد على كل غلبة للغفلة والذهول على كل من يشغله بطنه عن مهماته، ومثله ما ورد فى الحديث: «لا تميموا القلوب بكثرة الطعام والشراب» فإن القلب كالزرع يموت إذا كثرت عليه الماء فيدبر عما يهيمه من العلم النافع والعبادة. والجهل يستعار له الموت كما قيل:

لا يعجبن الجهول بزنة فذاك ميت وثوبه كفن

(وخرس الحكمة) هو كالذى قبله فى الاستعارة ونحوها، أى خرس اللسان التى تجرى عليه، والحكمة النطق بما فيه كمال النفس واقتباس النظرية والملكات التامة والأفعال الفاضلة، أى تركت ذكرها واكتسابها. (وقعدت الأعضاء عن العبادة) أى كسل صاحبها فلم يستعملها فى عبادة الله بأن يعطل بدنه من القيام لها، واللسان من ذكرها، والقلب عن فكرها، وهكذا فشبه تركه بالعقود أو استعماله فى لازمه ونحوه مما مر، ففسه على ما قبله.

(وقال سحنون) الفقيه المالكى وهذا لقبه، واسمه عبد السلام بن سعيد التنوخى قاضى إفريقية، وكنيته أبو سعيد وهو بضم السين، وصوب القاضى فتحها وقال: إن الضم زعمه بعض الفقهاء وعليه ابن الحاجب فى الشافعية حيث قال: سحنون إن صح الفتح ففعلون كحمدون، وهو مختص بالعلم لندور فعلول وهو صغفوق وخرنوب ضعيف. وقال غيره: إنه صحيح على أنه فعلون بالنون، وهو أولى لكثرة فى الإعلام كعبدون ورزقون وزيدون خصوصاً بالمغرب، وهو اسم طائر كثير الحركة فى الأصل. وقيل: هو البليل. وأدرك مالكا ولم يقرأ عليه، وقرأ على ابن القاسم وأشهب، وهو واضع كتاب المدونة، وانتهت إليه رئاسة العلم بالمغرب، وحصل له ما لم ينله غيره، وولد فى أول رمضان سنة ستين ومائتين، ومات لتسع خلون من رجب سنة أربعين ومائتين. وقيل:

الظاهر أن سحنون فعلول من السحنة وهى الهيئة الحسنة، وهو ممنوع من الصرف للعلمية وشبه العجمة، أو مصروف إن كان فعلولا. وقال التلمسانى: وقع فى نسخة القرافى هنا ذو النون بدل سحنون وهو العابد الزاهد المشهور واسمه ثوبان، وقيل: أبو الفيض بن إبراهيم المصرى، فيمكن أن يكون أحدهما روى عن الآخر لأنهما فى عصر واحد. (لا يصلح العلم لمن يأكل حتى يشبع) المضارع يفيد الاستمرار التجددى، أى من يكون دأبه كثرة الشبع يكثر نومه ويصير بليدا بطلا، فلا يحصل العلم ولا يليق به طلبه، فإن البطنة تذهب الفطنة كما تقدم، ولأنه يشتغل بإصلاح مأكله وكسب مال يحصله فيفوته العلم وكل خير.

(وفى صحيح الحديث) الذى رواه البخارى وغيره، ويجوز أن يريد المصنف بصحيح الحديث كتاب البخارى؛ لأن الصحيح غلب عليه.

(وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم أما أنا فلا أكل متكئا) هذا الحديث فى الصحيحين مروى بروايات مختلفة، منها ما ذكره المصنف رحمه الله تعالى، ومنها: «إنى لا أكل متكئا»<sup>(١)</sup> ومنها: «لا أكل وأنا متكئ» قال الكرمانى: هذا أبلغ فى الإثبات والأول أبلغ فى النفى، ف قيل عليه المراد أنه أكثر مبالغة لا بلاغة، ووجهه أن متكئ اسم فاعل فيه ضمير مستتر، فأسند الاتكاء إليه مع إسناده معه إلى أنا فهو أبلغ فى إثبات الاتكاء لتكرار إسناده، وإن لم يكن متكئ مع فاعله جملة بخلاف «لا أكل متكئا» فإنه لم يتكرر فيه الإسناد فهو فى النفى أبلغ، وعندى أن الثانى أبلغ لطفى القيد والمقيد انتهى.

أقول: هذا كلام لا محصل له مع عدم استقامته، والظاهر أن مراد الكرمانى بالطفى والإثبات نفى الأكل فى حال الاتكاء، وإثبات الأكل فى حال عدم الاتكاء الذى يقتضيه مفهومه، بناء على الفرق بين الحال المفردة والجملة، فإن النفى فى الأولى ينصرف إلى القيد والمقيد فيقتضى نفيهما، والثانية لا تقتضى ذلك نحو: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] فإنه يقتضى أنهم يعذبون بعده كما مر، ويقتضى هذا أنه يأكل إذا زال الاتكاء وفيه بحث ليس هذا محله، وسبب هذا الحديث ما أخرجه ابن ماجه بسند حسن، وهو أن أعرابيا أهدى للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم شاة فجنى على ركبتيه يأكل، فقال له الأعرابى: ما هذه الجلسة؟ فقال: «إن الله جعلنى عبدا كريما ولم يجعلنى جبارا عنيدا».

(والاتكاء هو التمكن للأكل والتعدد فى الجلوس له) أى لأجل الأكل، والتعدد

(١) أخرجه الترمذى فى الشمائل (٦٤)، وأبو نعيم فى الحلية (٢٥٦/٧).

تفعل من القعود ومعناه التثبث والتمكن من القعود، إلا أنه قيل: إنه لم يوجد من هذه المادة تفعل، والمصنف رحمه الله تعالى ثقة ما يقوله بمنزلة ما يرويه. وللجلوس أنواع بينها الثعالبي فى فقه اللغة.

(كالتربع وشبهه من تمكن الجلوسات التى يعتمد فيها الجالس على ما تحته) من أرض وفراش ونحوه، والتربع يكون بمعنى النزول والربيع وجعل الشيء رباعيا، ونوع من الجلوس مأخوذ من الأخير لبسط أربعة من أعضائه: الساقين، والوركين، مع انضمامهما على هيئة معلومة. وقوله: «من تمكن» الخ بيان للتربع وشبهه، والتمكن تفعل من المكان، أى تثبته فى المكان والاعتماد بمعنى الاتكاء كما فى الصحاح، وهذا إشارة إلى ما ارتضاه فى تفسير الاتكاء، فإن أهل اللغة اختلفوا فيه، فذهب بعضهم إلى أنه الميل إلى أحد جانبيه مع اعتماده على شيء كالمخدة والوسادة وهو المشهور. وذهب الخطايبى وتبعه المصنف رحمه الله تعالى إلى أنه الاعتماد على ما تحته من غير ميل كما بينه هنا وسيأتى تحقيقه، ثم أشار إلى وجه كون الاتكاء بهذا المعنى فى حال الأكل لم كان غير محمود فقال:

(والجالس على هذه الهيئة يستدعى الأكل) أى يطلب الأكل ويرغب فيه ويقتضى تناوله. (ويستكثر منه) أى يكثر منه كثرة مفرطة متجاوزة حد الاعتدال حتى كأنه يطلبه من نفسه لإقباله عليه وقوة شهوته لغلبة حيوانيته. (والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم) لإعراضه عن مثله وتناوله منه مقداراً ضرورياً بسرعة (إنما كان جلوسه للأكل جلوس المستوفز مقعياً) المستوفز الذى لا يكون مطمئناً، بل مستعجلاً للقيام، ومنه نحن على أوفاز أى على سفر، كما قلت فى الفصول القصار:

من كان فى الدنيا على أوفاز استراح لتهنيه بعيشه أو فاز

والإقعاء: بقاف وعين مهملة وألف ممدودة له تفاسير، والمعروف منها اثنان، أحدهما أن يلصق إلبته بالأرض وينصب ساقيه وفخديه ويلصقهما بصدره، وربما يكون مع وضع يديه على الأرض مع اقنساس يشبه جلوس البدوى المصطفى، والثانى: أن ينصب قدميه واضعاً على عقبه إلبته ضاماً ساقيه وفخذه واضعاً ركبتيه على الأرض، وهذا استحبه الشافعى فى الصلاة إذا رفع رأسه من السجود الأول، وبه ورد الحديث. وقال الشافعية: إن عليه العبادلة، وكرهه الحنفية. وأما الأول فمكروه بلا خلاف فى الصلاة، وأما إقعاءه صلى الله تعالى عليه وسلم للأكل ففسر بإلصاق مقعده بالأرض ناصباً ساقيه وهو الاحتفاف والاستيفاز. وقال التجانى: إن قول المصنف رحمه الله تعالى: إن جلوس النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لأكله مستوفزاً مقعياً ظاهره أنه كان عادة له فى كل

أحواله، والذي ورد في الحديث أنه أكل مرة هكذا، كما قال أنس رضي الله عنه: «رأيتني صلى الله تعالى عليه وسلم أكل مرة مقعيا». لا وجه له لأن ما قال المصنف رحمه الله تعالى هو المصرح به في عامة الكتب، ورواية أنس رضي الله تعالى عنه مرة لا تصلح سندا للنفي في غير تلك المرة، وإنما امتنع صلى الله تعالى عليه وسلم من الاتكاء في أكله لأنه من الكبر والترفع الذي ينزه طبعه عن الميل له، ولأنه يضر إذا مال ويستدعي لكثرة الأكل إذا تربع، وهل كان الأكل متكئا مكروها في حقه صلى الله تعالى عليه وسلم كسائر الأمة أو حراما عليه، وأن ذلك من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم. ذهب إلى الثاني بعض الشافعية، والأصح الأول، واختياره صلى الله تعالى عليه وسلم غيره دائما لا يدل على حرمة.

(ويقول: إنما أنا عبد) لله لا أملك لاختياره العبودية التي هي أشرف الصفات، وهذا من حديث رواه البخاري عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»<sup>(١)</sup>. والإطراء: المبالغة في المدح، وإلى هذا أشار البوصيري رحمه الله تعالى بقوله:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم واحكم بما شئت فضلا فيه واحتكم

وهذا من تأكيد المدح بنفيه (أكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد) في حال الأكل وغيره تواضعا لله فلا يمد رجله عند جلسائه تكريما وتعظيما لعباد الله وإرشادا لغيره، ولا يعبأ برفع ذوى الوجاهة والتكبر من الملوك وغيرهم، وبه اقتدى خلفاؤه رضي الله تعالى عنهم، لأن الله رقيب عليهم وهو معهم فأدبهم وإنما هو معه. وسيأتي الكلام أيضا على هذا الحديث عند ذكر المصنف له في قوله: فصل وأما تواضعه. وقد ضيف بعض المشايخ بعض الأمراء وهياً له محلا ينام، فلما دخل وجد فيه مصحفاً فلم يزل قائماً على قدميه إلى الصباح، فلما أتاه رب المنزل رآه قائماً فقال له: لم لا تجلس؟ فقال له: كيف أجلس أو أنام في محل فيه كلام الله، فقال له: من عظم الله عظمه، فلم يمض زمن حتى صار سلطاناً ومالك الملك يؤتیه من يشاء.

(وليس معنى الحديث في الاتكاء) المذكور سابقا (الميل على شق عند الخققين) من أهل اللغة والحديث، بل هو ما مر وهو أحد قولين لهم. واعلم أن الصاغانى قال في المجموع: رجل تكأ مثل تودة كثير الاتكاء، وأصله وكأة والتكأة أيضا لما يتكأ عليه وهو

(١) أخرجه البخاري (٤/٢٠٤، ٨/٢١٠)، والحميدي (٢٧)، والترمذي في الشمائل (١٧٢)، وعبد الرزاق (١٩٧٥٨).

المتكأ، قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتْكًا﴾ [يوسف: ٣١] قال الأخفش: هو في معنى يجلس. وطعنه حتى اتكأه أى ألقاه على هيئة المتكى، وأوكأت فلانا نصبت له متكأ. وفى نوادر أبى عبيد: أوكأت عليه أى توكأت. انتهى. وكذا قاله غيره فهو واوى من الوكاء، وأصل معناه الشد، والمعتمد على شىء يتقوى ويشند به، فالمعتمد حالة الجلوس على الأرض أو غيرها متكئ، والمائل على أحد شقيه المستند إلى الأرض أو الوسادة متكئ أيضا، فكلا التفسيرين صحيح، والمراد به فى الحديث صالح لكل منهما، ومن فسر به بالميل جنح إلى أنه عادة المتكبرين المترفين، أو المشهور فى الاستعمال فحيث طابق الوضع كان أظهر. فرد المصنف رحمه الله تعالى لم يصادف محزه وأكثرهم على خلافه إلا الخطأ، والحق أحق بالاتباع، فالحاصل أن حقيقته إنما هى الاعتماد الحسى فالمتربع معتمد والمائل معتمد على أحد شقيه، فلا خطأ فى كلا التفسيرين لمن له معرفة باللغة، فالتحقيق خلاف ما ادعاه المصنف رحمه الله تعالى من التحقيق، وإنما جعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هذه حالة العبد؛ لأنه لا اشتغاله بالخدمة والمهنة لا يستقر ويطمئن فيكون مستوفزا مستعجلا، والمعنى أنى لست مخلوقا للعالم وترفهها، فنظرى إنما هو لعبادة الله وتبليغ أوامره فلا ألتفت إليها، وإنما أتناول منها بسرعة مقدارا يسيرا لدفع الجوع كالعبد الموكل بخدمة سيده. وثمة نكت أخرى تدرك بالدق، أى أنه مهتم بذلك لا بالأكل والشرب كالبهائم.

(وكذلك) أى كقلة أكله وشربه وعدم ترفهه فيهما. (نومه صلى الله تعالى عليه وسلم كان قليلا) بيان لوجه الشبه. (شهدت بذلك) أى قلة نومه صلى الله تعالى عليه وسلم. ودلت عليه (الأثار الصحيحة) أى الأحاديث الصحيحة المسندة فى كتب الحديث التى أغنت شهرتها عن ذكرها كما مر، هذا كان أكثر حالاته صلى الله تعالى عليه وسلم، وربما خالف هذا أحيانا إذ قد ورد ما يؤذن بأن نومه زاد على يقظته أو ساواها، كحديث النسائي عن أنس رضى الله تعالى عنه قال: «ما كنا نشاء أن نرى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالليل مصليا إلا رأيناه، ولا نشاء أن نراه نائما إلا رأيناه».

(ومع ذلك) أى مع قلة نومه غالبا (فقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم: إن عيني تنامان ولا ينام قلبي) فنومه صلى الله تعالى عليه وسلم ليس كنومنا بل هو يقظة، فكأنه لا نوم له أصلا بحسب الحقيقة، فقلبه صلى الله تعالى عليه وسلم مستيقظ دائما يدرك ما لا يدركه غيره فى يقظته، ولذا كانت رؤياه صلى الله تعالى عليه وسلم قسما من الوحي لاتصاله بعالم الملكوت فى نومه، وكذلك سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تنام عيونهم ولا تنام قلوبهم. فهذه خصوصية إضافية بالنسبة لأئمتنا، وهذا أيضا باعتبار غالب

حاله، فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم نام هو وأصحابه مرة حتى فاتتهم صلاة الصبح وأدركهم حر الشمس، وقد أجيب عنه أيضا بأن القلب وإن كان يقظان لا يدرك ما تدركه العين النائمة، وإنما يدرك ما يتعلق به من الحدث والألم، ولذا ذهب بعض الفقهاء إلى أن نومه صلى الله تعالى عليه وسلم لا ينقض وضوءه، وبأنه شغل الله تعالى قلبه الشريف بمشاهدة ملكوته مع نوم عينه فلم تدرك خروج الوقت للتشريع لأمته، وقد مر الكلام على ذلك كله.

(وكان نومه) صلى الله تعالى عليه وسلم (على حانبه الأيمن استظهارا على قلة النوم) أى استعانة فإن الاستظهار استفعال من الظهر بمعنى التقوية والاستعانة، لأن قوة البدن واستمسাকে بظهره، فكان صلى الله تعالى عليه وسلم من عادته أنه إذا نام نام على شقه الأيمن، وحكمته ما يأتى أن القلب مائل إلى جانب اليسار، فإذا نام المرء على يساره يستقر القلب فيزيد نومه لراحة قلبه، فإذا نام على يمينه تعلق القلب ولم يسترح فيخف نومه ويكثر سرعة يقظته من نومه، وإنما كان مقتضى الحكمة كون القلب فى جانب اليسار ليعادل الكبد الذى فى جهة اليمين غالبا، ولموافقته لما كان يحبه صلى الله تعالى عليه وسلم من التيامن فى أموره لما فيه من اليمن لفظا ومعنى، وما قيل من أنه حال امتهان لا تكائه على الجانب الذى ينام عليه لا وجه له، فإن فى النوم راحة تعين على العبادة فالاتكاء عليه كالاتكاء على أعضاء السجود، وكذا ما قيل أنه صلى الله تعالى عليه وسلم مع قوة روحه ويقظة قلبه غالبه لنومه غير محتاج للاستظهار عليه، وإنما هو للتيمن والتشريع، فإن القوى إذا تقوى كان شديد القوة، والنوم أمر طبيعى فى جميع الخلق غالب وقد عرفت أن يقظة قلبه كانت هى الحالة الغالبة، فالتقوى احتراز مما يعرض نادرا. (لأنه) أى النوم (على الجانب الأيسر هنا) أفعل تفضيل مهموز الآخر من الهنى أى أسهل وألذ، والهنى ما أتاك من غير مشقة فالنوم على الأيسر أيسر، وفعله هنىء بالضم ويكسر هنا قيل: وإنما جعل الطائف البيت عن يساره لتوجه قلبه إليه بدعوة: ﴿فَأَجْمَلْ أَعْدَاءَ رَبِّكَ النَّاسِ يَهْوِ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فجعل جانب القلب وأعلاه محاذيا له. وقيل: لأن اليسار محل الوسوسة وكاتب السيئات، واليمين محل الرحمة وكاتب الحسنات، كما أن البيت محل الرحمة فجعل اليسار بين رحمتين لتقلب ضده. وقال ابن عبد السلام: الحكمة فيه أن القادم يستقبل البيت من ثنية كداء من ناحية باب بنى شيبه فيبقى ركن البيت على يسارك وهو يمين البيت، لأنك إذا قابلت شخصا فيمينه يسارك ويسارك يمينه، والذى يلاقيك من البيت وجهه وهو الباب لأن باب كل بيت وجهه، والأدب أن يؤتى الكبير من قبل وجهه ولهذا ابتدئ بثنية كداء، والأصل فى القرية

التيمن، فلو ابتداء بالحجر وجعل البيت على يساره، فكان قد ابتداء بالوجه واليمين معا فيجمع بين فاضلين، ولو ابتداء بالحجر وجعل البيت على يمينه ترك الأدب، ويمين البيت الحائط الذى من مركز الحجر إلى الطرف الآخر وغيره ما يقابله، وهو معنى حسن كما قاله ابن مرزوق.

وقوله: (هدو القلب) تعليل لكونه أهناً أى: لراحته واستراحته لسكونه، والهدو: بزنة العلو السكون، وهو مهموز الآخر وتبدل همزته واوا وتدغم وتسهل أيضاً، وهو قريب من الهنوء ولاهما همزة فى الأصل. (وما يتعلق به) أى والهدو معلاقه الذى تعلق به ويناط وكلاهما (من الأعضاء الباطنة) أى الموجودة فى داخل الإنسان.

(حيثنذ) أى حين نومه على جانبه الأيسر (لميلها إلى الجانب الأيسر فيستدعى ذلك) أى يقتضى ذلك الهدو ويستلزم بحسب الطبع. (الاستقبال فيه) أى: ثقل بدنه فى نومه وغلبة النوم حتى يستغرق فيه، وهو جواب إذا أو مسبب عما قبله. (والطول) أى طول نومه وطول زمان بطالته. (وإذا نام النائم على) جانبه (الأيمن تعلق القلب وقلق) أى: لم يستقر ويطمئن (فأسرع الإفاقة) أى التيقظ من نومه (ولم يغمره) بفتح الياء وسكون الغين المعجمة وضم الميم وجزم الراء المهملة. (الاستغراق) فى النوم وهو انقطاع إحساسه انقطاعاً تاماً طويلاً، وغمره له بتغطيته وشدة استيلائه عليه، من غمره الماء إذا أعلاه فهو استعارة كما استعيرت الغمرة للشدة، فينبه وبين الاستغراق مناسبة لطيفة لأنه من الغرق، وذلك لأن القلب مائل طرفه الأسفل إلى اللسان لتتوفر الحرارة منه عليه فيعتدل الجسم، فإن الحرارة كلها فى الأيمن لكون الكبد فيه.

\* \* \*

### (فصل)

(والضرب الثانى) مما تدعو ضرورة الحياة إليه وهو الفصل التاسع، وعقبه بما قبله لأنه ضده، إذ فيما قبله يتمدح بقلته وبضدها تتميز الأشياء وهو: (ما يتفق التمدح بكثرته) يتفق إما من قولهم اتفق كذا ووقع اتفاقاً أى وقع من غير قصد لصاحبه، أو من الاتفاق وهو اجتماع الكلمة، فالأصل ما يتفق الناس على التمدح بكثرته أى كثرة المدح وقوته، والمراد الأول لأن صاحبه لم يقصده ولم يقصد مدح الناس له لسببه وإن كان قد يقصد ذلك. (والفخر بوفوره) أى الافتحار بكثرته دون قلته ووجوده، فإنه موجود فى كثير مما لا يعتد به، وقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ منه بالخط الأوفى الأوفر. (كالنكاح) أى الجماع، فإنه يطلق عليه وعلى العقد كما مر، والمراد الأول. (والجاه) وهو علو القدر عند الناس والمهابة، ونفوذ الكلمة والاشتهار بذلك، وهو من



الوجهة والمواجهة، وأصله وجه فقلب وأعل كما مر.

(أما النكاح فمتفق فيه) أى فى مدحه وشأنه اتفق العلماء وأصحاب البصيرة والتمييز. (شرعا) كما سيأتى بيانه (وعادة) فيما اعتاده الناس وتعارفوه كما لا يخفى. ونصب شرعا وما بعده على التمييز أو المصدرية، ثم بين ذلك على اللف والنشر المشوش فقال: (فإنه) أى النكاح (دليل الكمال) فى الخلقة والجسم بقوته واعتداله. (وصحة الذكورية) الظاهر أنها مصدرية كالصعوبة والأنوثة، والمشهور أنها جمع ذكر خلاف الأنثى، ويصح إرادته أيضا إلا أن الأول أولى، وصحة الذكورية بمعنى قوتها وسلامتها من الضعف والآفة. (ولم يزل التفاخر بكثرة عادة) للناس (معروفة) بينهم لا تنكر (والتمادح به سيرة) أى طريقة (ماضية) أى قديمة أو نافذة مقررة من مضى الأمر إذا قضى وقرر.

(وأما فى الشرع فسنة مأثورة) أى هو فى الشرع أمر مستنون منقول فى آثار السلف والأحاديث الصحيحة، أى المراد أنه طريقة مشهورة. قال الراغب: سنة النبى طريقته التى كان يتحررها. (وقد قال ابن عباس) رضى الله تعالى عنهما، وهو حديث صحيح رواه البخارى. (أفضل هذه الأمة) أى أفضل أمة الإجابة لنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم، ولذا عبر باسم الإشارة (أكثرها نساء مشيرا إليه صلى الله تعالى عليه وسلم) يعنى أن المراد بالأفضل فى كلامه هو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه أبيض له جمع ما فوق الأربعة وهو من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم دون أمته، فدللت الأكثرية على تعينه بهذه الأفضلية ولذا عبر عنه بالإشارة فإنها تطلق على مقابل الصريح، وهو وإن كان أفضل من أمته أجل وأعلى من أن يقال إنه أفضل منهم، مع أنه لا فائدة فيه ببادى الرأى، إلا أنه رضى الله تعالى عنه قصد الحز على النكاح والإكثار منه ولذا كان مفيدا، وهذا الكلام قاله لسعيد بن جبیر رضى الله تعالى عنه لما سئل ألك زوجة؟ فقال: لا. فقال له: «تزوج فإن خير هذه الأمة من كان أكثرها نساء»<sup>(١)</sup> كما فى صحيح البخارى. ولا بد من جعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم داخلا فى الأمة على ما يأتى، لأن أفعل التفضيل فى الأصل إنما يضاف لما هو بعضه، وإن جاز يوسف أحسن إخوته على ما ارتضاه بعض النحاة على تفصيل فيه شهرته تغنى عن ذكره، وهذه الكثرة باعتبار ما أبيض له صلى الله تعالى عليه وسلم بعد التزويج بمن شاء أن يجمع فى وقت واحد عنده عدة لا تجوز لا بمجرد الدخول والعقد، فإنه ثابت لغيره أيضا. وكان اللاتى تزوج صلى الله تعالى عليه وسلم بهن بإجماع أهل السير إحدى عشر امرأة، ستة من

(١) انظر فتح البارى (٩/٣٤٥).

قريش وأربع من سائر العرب وواحدة من بنى إسرائيل من نسل هارون عليه الصلاة والسلام، وهى صفية بنت حى وسأتى لذلك مزيد بيان. وأما التى اختلف فيهن ممن فارقتها أو عقد عليها ولم يدخل بها أو خطبها ولم يقع عليها العقد، فاختلف فيهن وفى سبب فراقهن، والذى ذكره بعضهم أنهن سوى من تقدم سبع، فالجميع ثمان عشرة امرأة غير السرارى، ويمكن أن يكون المراد بالأمة ما يشملها صلى الله تعالى عليه وسلم وأمتة ولا بعد كما قيل، والتمدح بالنكاح لما فيه من الفوائد كالولد، وكسر الشهوة، وتدبير المنزل، وترك ما يشغل عن القيام بأوامر الله تعالى مع امتثال أمر الله، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١]، وفى ذلك تسبب للألفة والمودة وإيصال القرابة؛ ولأن فيه تبليغ الأحكام التى لا يطلع عليها إلا النساء، ولما فيه من إظهار معجزته لقوة قدرته على الجماع مع قلة أكله وتنعمه، والمعتاد خلافه، ومع ذلك لم يشغله ذلك عن تقيده بأمر الجهاد والتبليغ إلى ذلك مما لا يحصى، وقد عد من النسك والعبادة، بل قيل: إنه أفضل منها أحياناً، وهو من أخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وتركه للقادر عليه مكروه، إلا أن يخرج له لكسب ما لا يقدر عليه وارتكاب محذور، كما فى آخر الزمان، ولذا ورد: «خيركم الخفيف الحاذ الذى لا زوجة له ولا ولد»<sup>(١)</sup>. وإنما قيد بهذه الأمة ليخرج سليمان وداود عليهما الصلاة والسلام فإنهما كانا أكثر منه صلى الله تعالى عليه وسلم نساء وفيه تأمل.

(وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم: تناكحوا تناسلوا فإنى أباهى بكم الأمم يوم القيامة) ووقع فى بعض النسخ: «تناكحوا فإنى مباه بكم» الخ بدون تناسلوا. والتناكح تفاعل من النكاح بمعنى التزوج كما ورد بهذا اللفظ، والمفاعلة على ظاهرها بأن يراد لينكح أحدكم بنت غيره وينكح الغير بنته، وهو عبارة عن مصاهرة المسلمين بعضهم من بعض. والتناسل: كثرة النسل وهم الأولاد والذرارى، أو المراد بالتفاعل لازم معناه وهو كثرة النكاح وهذا أنسب بالمقام وبما بعده، وتناسلوا أصله تتناسلوا بتائين فى أول المضارع، وحذفت على القياس فى كل تائين فى أوله، أو هو أمر بدل مما قبله أو بتقدير العاطف والأول أولى، لأن التناسل ليس باختيارهم وإنما هو فعل الله فيحتاج إلى تأويله باطلبوا التناسل واحرصوا عليه بأن تنكحوا غير العقيمة، والآيسة من الولد، بأن يعلم ذلك منها إن كانت ثيباً، أو يكون الظاهر ذلك منها لشبابها ففيه نهى عن نكاح العجائز من غير داع، وإشارة إلى أنه ينبغى أن يكون المقصود من النكاح مع قمع الشهوة، وجود ذرية تعبد الله وتحصل بها كثرة الأمة.

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٢٤٣/١٢).

والمباهاة: المفاخرة وهي على ظاهرها بأن تقع منه المفاخرة حقيقة، أو تجعل مسرته بهم ورؤية غيرهم لهم كالمفاخرة، ويؤيده ما روى عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه، أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «أتى يوم القيامة بمثل السيل فيحطم الناس، فتقول الملائكة عليهم الصلاة والسلام لما جاء مع محمد أكثر مما جاء مع الأمم والأنبياء» وهو صلى الله تعالى عليه وسلم أكثر الناس أمة لعموم بعثته وبقائها، وكثرة أتباعه وجنده المؤيدين لدين الله، ففيه فخر عظيم. وهذا الحديث أخرجه ابن مردويه في تفسيره بسند ضعيف، إلا أنه حسن لكثرة متابعتة لفظا ومعنى، فإنه رواه الطبراني في الأوسط من حديث سهل بن حنيف رضى الله تعالى عنه: «تزوجوا فإنى مكاثركم الأمم». وعن معقل بن يسار رضى الله عنه: «تزوجوا الولود الودود فإنى مكاثركم الأمم يوم القيامة»<sup>(١)</sup>.

(ونهى) صلى الله تعالى عليه وسلم (عن التبتل) كما رواه الشيخان عن سعد بن أبي وقاص رضى الله تعالى عنه، ولحديث سميع قال فيه: رد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن لنا لاختصينا. فهذا هو المنهى الذى كان استأذنه فى التبتل فردّه ونهاه عنه.

وروى أن جماعة من الصحابة فيهم على كرم الله وجهه لما رأوا عبادة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قالوا: نلزم الصوم والعبادة ونترك نساءنا ونطلقهن ونقطع للعبادة، فنهاهم صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك. والاختصاص: الشق على الاثنين وانتزاعهما وهو التبتل من التبتل وهو القطع. والمراد: الانقطاع عن النكاح بالكلية، ويقال: رجل بتول وامرأة بتول إذا انقطعت عن الرجال. ولذا قيل لمريم: البتول. وأما فاطمة الزهراء رضى الله تعالى عنها فسميت بتولا لانقطاعها عن الدنيا وزهدها، لانقطاعها لعبادة الله تعالى، أو لانقطاعها عن نساء زمانها فضلا ودينا وحسبا. وأما قوله تعالى: ﴿وَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِلًا﴾ [المزمل: ٨] فليس منافيا للحديث، لأنه بمعنى آخر أى انقطع فى الليل لعبادة الله تعالى والتهجد وأخلص له وأقرأ القرآن. وورد النهى عن موافقتهم للنصارى وما كانوا عليه من الرهبانية.

وأما قوله: «لو أذن لنا لاختصينا» فلا يدل على جواز الاختصاص إن كان على حقيقته، فإنه قد يستعمل بمعنى آخر كما سمي الصوم وجاء، وهو جائز فى البهائم فى صغرها لغرض كتسمين المأكول وهو فى آدميين حرام لأنه مثله، ويكره استخدام

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٥٠)، والنسائي (٣٢٢٧)، وابن ماجه (١٨٤٦)، وابن حبان (١٢٢٨)، والحاكم (١٦٢/٢).

الخصى ويمنع من دخوله على النساء، ثم إن النهى عن ترك النكاح للقادر عليه يفيد كراهته لأنه مستحب . وعند المالكية واجب، فالنهي على ظاهره. قال التجانى: المتأخرون من المالكية يجعلونه فى حق بعض الناس واجبا، وفى حق بعضهم مندوبا إليه، وفى حق بعضهم مباحا التفاتا للمصلحة، وهذا نوع من القياس يسمى القياس المرسل، وهو الذى ليس له أصل يستند إليه، وإنما هو لاقتضاء المصلحة وقد أنكره كثير من العلماء، والظاهر من مذهب أصحاب مالك القول به. انتهى.

(مع ما فيه) أى فى النكاح أو فى التبتل، وقيل: الأول متعين بقرينة ما سيأتى. (من قمع الشهوة) أى قهرها والغلبة، وأصله ضرب الرأس ومنه: ﴿وَلَمْ مَقْنِعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ٢١] والمراد بالشهوة شهوة النكاح والنساء. (وغض البصر) أى خفض البصر وتغميضه عن النظر عما يحرم، وجعل غض البصر كأنه فيه مبالغة لأنه حامل عليه. وقيل: إنه مجاز لأن من لم يتشوق لأمر يغض عنه عينه فكأنه لا يبصره، ويجوز جعله حقيقة أو كناية. (اللذين نبه عليهما) صفة لقمع الشهوة وغض البصر.

(بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم) فى الحديث الذى رواه ابن ماجه عن عائشة رضى الله تعالى عنها، إلا أن فى سنده مقالا. وفى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج»<sup>(١)</sup>. وأخرجه الطبرانى بلفظ المصنف رحمه الله تعالى بدون فإنه إلى آخره. (من كان ذا طول) بفتح الطاء المهملة وسكون الواو واللام، وهو سعة الرزق والمال بحيث يكون له قدرة على نفقة زوجته وأهله، بحيث لا ينظر إلى مال امرأته وغيرها فإنه ورد فى الحديث أيضا: «لا تنكح المرأة لما لها فلفل ما لها أن يطغيها، ولا لجمالها فلعل جمالها أن يردبها، وعليكم بذات الدين فإنهن فى النساء مثل الغراب الأعصم»<sup>(٢)</sup>. قال ابن رشد: وهذا نهى إرشاد لا تحريم. وورد فى الحديث: «استوصوا بالنساء خيرا فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعلاه أعوج فإن أردت أن تقيمه كسرتة». وقد نظمه القائل حيث قال:

(١) أخرجه البخارى (٣/٧)، ومسلم (١/١٤٠٠)، والنسائى (٤/١٦٩)، وابن ماجه (١٨٤٥)،

وأحمد (١/٣٨٧، ٤٢٤، ٤٣٢)، والدارمى (٢/١٣٢)، والحميدى (١١٥)، وعبد الرزاق

(١٠٣٨٠).

(٢) تقدم تخريجه.

هي الضلع العوجاء لست تقيمها إلا أن تقويم الضلوع انكسارها<sup>(١)</sup>  
أجتمع ضعفا واقتدارا على الفتى أليس عجيبا ضعفها واقتدارها  
ومنه أخذ المنصور قوله:

إذا نقيمت عرس وأنت تحبها فدع بحرها رهوا ولا تثر الموجا  
ولا تطمعن الدهر في أن تقيمها فقد خلقت في الأصل من ضلع عوجا

(فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج) أى فإن الزوج أكثر حملا على غض  
البصر وكفه عن النظر لما يحرك الشهوة، وأكثر تحصينا أى حفظا للفرج عن الزنا،  
والمفضل عليه التبتل وحصن الفرج بقمع الشهوة، ففيه تنبيه على الأمرين المذكورين، ثم  
لما كان فى التبتل زهد ظاهر ربما يتوهم أنه أفضل من الزوج دفعه بقوله: (حتى لم يره)  
أى الزوج والنكاح (العلماء) بالدين والشرع (مما يقدح فى الزهد) القدح والطعن فى  
الشيء ذكر عيوبه، أى ليس مما ينقص الزهد حتى يعيبه الناس فأسند القدح إليه مبالغة.  
وقول فى الزهد أى ترك الدنيا ولذاتها؛ لأن ما ذكر من جملة التلذذ لأن القصد به  
التعفف والنسل وهذا مروى عن عمر رضى الله عنه، فإنه قال: ليس فى النساء سرف  
ولا فى تركهن عبادة وزهد. كما فى تحفة العروس للتجاني.

(قال سهل بن عبد الله) التستري وقد تقدمت ترجمته (قد حبين) بالبناء للمجهول  
والتشديد (إلى سيد المرسلين) أى خلق الله تعالى فيه محبتين وسيأتى بيانه والضمير للنساء  
(فكيف يزهد فيهن) أى إذا كان الله تعالى جعل حبين مركوزا فى جيلة من هو أزهد  
الخلق صلى الله تعالى عليه وسلم، فكيف يدعى أحد أن تركهن زهد. وفى سراج  
المريدين فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ  
وَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] أن هذه الآية تدل على فضل الزوج على  
العزوبة لبقاء الذرية، ودعائها الذى هو عمل لا ينقطع بموته. قلت: ويدل على أنه  
أفضل فى حق من يقتدى به الناس (ونحوه) أى مثل المروى عن التستري مروى (عن ابن  
عينة) علم منقول من تصغير العين، وهو سفيان بن عيينة بن عمران الكوفى، أحد  
الأئمة الأعلام الإمام الحافظ، روى عن كثير كالزهرى، وابن دينار، وأحمد،  
والزعفرانى. وروى عنه خلق كثير، وخرج له أصحاب الكتب الستة، وكان يسكن  
مكة، وتوفى فى رجب سنة ثمان وتسعين ومائة، ومولده سنة سبع ومائة، وكان أعور.  
وترجمته مشهورة وهو من التابعين أدرك منهم ستة وثمانين نفسا.

(١) البيت من الطويل، وهو للحاجب بن ذبيان فى لسان العرب (٢٢٦/٨)، تاج العروس  
(٤١٨/٢١).

(وقد كان زهاد الصحابة رضى الله تعالى عنهم كثيرى الزوجات والسرارى كثيرى النكاح) كثيرى بيائين أصله كثيرين بصيغة الجمع فحذفت نونه للإضافة، يعنى كانوا يكثر من النساء حرائر وإماء، أو أنهم كانوا يطلقون كثيرا فتكثر زوجاتهم بهذا الاعتبار كما قاله التجانى. وكان عند على كرم الله وجهه أربع نسوة وتسع عشرة وليدة، إلا أنه لم يتزوج غير فاطمة رضى الله عنها حتى ماتت، وولد له منها الحسن والحسين ومحسن، وتوفى صغيرا فى حياة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو الذى سماه محسنا كما ذكره الدارقطنى. والحسن رضى الله تعالى عنه كان من أشد الناس حبا للنساء وكان مطلقا، كما قيل: إنه أرخى ستره على مائتى حرة.

والسرارى: بتشديد الياء وتخفيفها جمع سرية بالتشديد، والسرية هى الأمة المنكوحة ولو مرة فلا تسمى سرية قبل الوطء، حتى أن من جعل بيد زوجته عتق كل سرية له لم يكن لها عتق التى لم يطأها زوجها، وهى منسوبة إلى السر الذى هو الجماع، أو الإخفاء لأنه كثيرا ما يخفيها عن زوجته، فضم سينها من تغييرات النسب كما قيل فى النسبة للدهر دهرى بالضم، وقيل: إنها مشتقة من السرور لأنه يسر بها فأبدل إحدى رائيها ياء، قالوا: تظنيت وتظننت وضم سينها لازم، ولذا قيل: عليك بضم الصدر السرية، والتسرى سنة وقد قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: «عليكم بالسرارى فإنهن مباركات الأرحام»<sup>(١)</sup> وقد تسرى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصحابة رضى الله تعالى عنهم.

(وحكى) بالبناء للمجهول (فى ذلك) المذكور من التزوج والتسرى وكثرته (عن على) كرم الله وجهه (والحسن) ابنه كما مر، لأنه المنقول عنه ذلك ولذا قدمه لا الحسن البصرى فإنه لم ينقل عنه مثله. (وابن عمر وغيرهم من الصحابة غير شىء) هذا هو نائب فاعل أى حكى عنهم أشياء كثيرة فى ذلك لاشيئا واحدا وأبهمه لكثرتة، كما فى قوله. (وقد كره غير واحد) من السلف الصالحين (أن يلق الله) أى يموت، لأن لقاء الله يكنى به عن الموت، كما جاء فى الحديث: «من أحب لقاء الله أحب لقاءه»<sup>(٢)</sup>. وقال الراغب: لقاء الله عبارة عن القيامة وعن المصير إليه، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَطْمَنُونَ أَتَهُمْ مُّلتَقُوا رَبَّهُمْ﴾ [البقرة: ٤٦] واللقاء الملاقاة وأصل معناه مقابلة الشىء ومصادفته معا،

(١) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٢٥٩/٤)، وابن الجوزى فى الموضوعات (٢٥٩/٢).

(٢) أخرجه البخارى (١٣٣/٨)، ومسلم (٢٦٨٣/١٤)، والترمذى (١٠٦٦، ١٠٦٧)، والنسائى

(٩/٤)، وابن ماجه (٤٢٦٤)، وأحمد (٣١٣/٢، ٣٤٦، ٤٢٠)، والدارمى (٣٤٥/١)، وعبد

الرزاق (٦٧٤٨).

وقد يعبر به عن كل واحد منهما.

(عزبا) بفتح العين المهملة والزاي المعجمة والباء الموحدة هو الذى لا امرأة له، من عزب بمعنى تباعد، يقال: رجل عزب وامرأة عزبة، وعزب عنه علمه إذا غاب عنه ولم يعلمه. وهذا مروي عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه، فقد حكى عنه أنه كان يقول: لو لم يبق من عمرى إلا عشرة أيام لأحببت أن أتزوج لئلا ألقى الله عزبا. وماتت امرأتان لمعاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه فى الطاعون وكان هو مطعوناً أيضاً، فقال: زوجونى فإننى أكره أن ألقى الله عزبا. أى بعيداً عن النساء. وقال فى الدرة: العزب يقال للذكر والأنثى، وقد يقال للمرأة عزبة ولا يقال للرجل أعزب بالهمزة، أو هى لغة قليلة، وفى التقريب قال أبو حاتم: لا يقال أعزب. قال الأزهري: وأجازه غيره. وورد فى الحديث فى مسلم: «ما فى الجنة أعزب»<sup>(١)</sup>. قال النووى: هو فى جميع نسخ بلادنا بالالف وهو لغة مشهورة، وما وقع فى بعض النسخ من تقييد عزب بسكون الزاي بالقلم كما قاله البرهان لا وجه له، فإنه خلاف المنقول فى كتب اللغة.

(فإن قلت: كيف يكون النكاح وكثرته من الفضائل وهذا يحىى بن زكريا) جعلهما لشهرتهما وشهرة اتصافهما بما ذكر بمنزلة المحسوس المشاهد حتى أشار إليهما، ويحىى وزكريا بلغاته أعجميان. وقيل: إنه عربى مشق من الحياة لا كالمفازة، بل لأن الله تعالى أحيا قلبه بأنوار النبوة الذاتية والمقتبسة من زكريا، لأنه أول من آمن به وأوتى النبوة، والفضائل المكتسبة منه، فقال: ﴿إِنَّا نَبْشُرُكَ بِعُلَمٍ أَسْمُو يَحْيَى كَمْ يَجْعَلُ لُو مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧] قال قتادة والكلبي: لم يسم أحد من قبل يحىى بذلك، فأحىى الله به دين عيسى عليه الصلاة والسلام، فاشتق له من اسمه الحى اسماً كما اشتق اسم سيدنا ونبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من اسمه المحمود، كما قيل، وكان هو وعيسى ابني خالة وكانت أمه تقول لمريم: إني أجد الذى فى بطنى يسجد للذى فى بطنك كما سيأتى، ويحىى أكبر من عيسى، وفى مقدار عمره اختلاف فقيل: كان عمره مائة وعشرين سنة. وقيل: ثمانية وتسعين. وقيل: اثنين وسبعين. وأما زكريا فمن ذرية سليمان عليه الصلاة والسلام، وكان آخر من بعث من بنى إسرائيل قبل عيسى عليه الصلاة والسلام، ولما أراد بنو إسرائيل قتله فر منهم فانفلقت له شجرة فدخلها، فأخذ الشيطان بهدب ثوبه فلما رآوه نشروا الشجرة حتى قطعوه فى جوفها. وأما يحىى عليه الصلاة والسلام فقتل بسبب امرأة أراد ملكهم تزوجها، فقال له يحىى: إنها لا تحل لك لأنها بنت امرأتك فتوصلت لقتله قبل أن يرفع عيسى عليه الصلاة والسلام، فكان دمه

يفور حتى قتل منهم بخت نصر سبعين ألفاً، وهذا قصاص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما أن قصاص الملوك خمسة وثلاثون ألفاً كما قاله ابن عباس رضى الله عنهما. وقد قيل: بل صح في الحديث أن الموت بعد استقرار أهل النار فى النار وأهل الجنة فى الجنة، يؤتى به بصورة كبش أملح فيذبحه يحيى. وقيل: الذى يذبحه جبريل عليه السلام. والثانى مروى فى بعض التفاسير، وأما الأول فلا مستند له، وإن ذكره بعض الصوفية.

(وقد أنى الله تعالى عليه أنه كان حضوراً) فى قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩] والسيد: الرئيس الشريف وفيه تفاسير سيأتى، وأما الحضور: فمن الحضر وهو المنبع ولذا اشتهر تفسيره بمن انحصر عن النساء بحيث لا يأتينهن، وأخرج ابن جرير عن ابن عمر، وعمر بن العاص رضى الله تعالى عنهم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «ما من عبد يلقى الله تعالى إلا إذا ذنب إلا يحيى بن زكريا، فإن الله تعالى عز وجل يقول: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩]، قال: وإنما كان ذكره مثل هدية الثوب» وأشار بأتملته، وبه فسر ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وأورد شاهداً له من كلام العرب، وعلى هذا بنى المصنف رحمه الله تعالى السؤال كذا فى الشرح الجديد.

أقول: هذا الحديث لم يثبت، وسئل النووى رحمه الله تعالى فى فتاويه عن حديث: «ما منا إلا من عصى أو هم بمعصية إلا يحيى بن زكريا»<sup>(١)</sup> فأجاب بأنه حديث ضعيف لا يحتج به، رواه أبو يعلى الموصلى فى مسنده عن زهير عن عفان عن حماد بن سلمة عن على بن زيد بن جدعان بضم الميم وإسكان الدال المهملة عن يوسف بن مهران عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «ما أحد من ولد آدم إلا قد أخطأ أو هم بخطيئة ليس يحيى ابن زكريا»<sup>(٢)</sup> وإسناده ضعيف، لأن ابن جدعان ضعيف ويوسف بن مهران مختلف فى جرحه. (فكيف يثنى الله عليه) فى القرآن (بالعجز عما يعده فضيلة) وهو النكاح وكثرته. (وهذا عيسى ابن مريم) عليه الصلاة والسلام (تبتل عن النساء) أى انقطع عنهن بالكلية ولم يتزوج. (ولو كان كما قررته) أن النكاح بل كثرته فضيلة ممدوحة (لنكح) أى لتزوج ليحوز هذه الفضيلة، فأجاب بقوله (فاعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى) عليه الصلاة والسلام (بأن كان حضوراً ليس) معناه (كما قال بعضهم) كما مر (أنه كان هيوياً) أصل معنى الهيوب الجبان من الهيبة وهى المخافة والتقية، ويأتى بمعنى من يخافه الناس وليس المراد هنا، بل المراد أنه كان جباناً عن النكاح.

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٢٢/٢).

(٢) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢١٦/١٢).



(أو لا ذكر له) الذكر بفتحين معروف لم يرد ظاهره وإنما أراد أنه صغير جدا، أو لا حركة له أصلا لما ورد في بعض الأحاديث الضعيفة: أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ نواة أو قذاة وقال: «كان ذكره مثل هذه» وفي أخرى: «مثل هدبة الثوب». وقال ابن المنذر: كان عنينا، وقد يطلق الحصور على المحبوب الذكر والأنثيين، كما في حديث القبطي الذي أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عليا كرم الله وجهه بقتله، قال: فرفعت الريح ثوبه فإذا هو حصور.

(بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين ونقاد العلماء) حذاق: جمع حاذق بمعنى ماهر في علم التفسير، والنقاد: جمع ناقد وهو الذي يميز جيد النقادين من رديهما وأصل معناه الوزن وخلاف النسيئة، ولم يذكر الأول في القاموس وهو المراد هنا.

(وقالوا: هذه نقيصة وعيب لا يليق بالأنبياء) عليهم الصلاة والسلام، أى لا تصلح لهم ولا تناسبهم من لاق الدواة يليقها إذا أصلحها. (وإنما معناه أنه كان معصوما من الذنوب) كسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والعصمة عندنا أن لا يخلق الله تعالى فيهم ذنب، وعند الفلاسفة ملكة تمنع الفجور. وسيأتى الكلام على تفصيل عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

(أى لا يأتيها كأنه حصر عنها) أى منع عنها فحصور بمعنى محصور. قال التجاني: هذا الجواب ضعيف لما ورد في حديث بسر بن عطية قال: لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من تحصر في الإسلام: وقال: «لا حصور إلا يحيى بن زكريا» كما أخرجه الماوردي وغيره وفيه نظر سيأتى.

(وقيل: مانعا نفسه من الشهوات. وقيل: ليست له شهوة في النساء) يعنى أن له قدرة على الجماع ولكنه يمنع نفسه عنها باشتغاله بغيرها من العبادة، أو له قدرة ولكن لا تتوق نفسه له ولا يريد، فإنهم عرفوا الشهوة بأنها توقان النفس إلى الأمور المستلذة، وفرقوا بينها وبين الإرادة بأن الإرادة أعم، فإن الإرادة قد تتعلق بما لا تشتهى كإرادة شرب الدواء، والاشتواء ميل طبعى غير مقدور، ولذلك يعاقب بإرادة المعاصى عند بعض ولا يعاقب باشتوائها، فالمعنى أن الله تعالى عصمه بأن لم يخلق فيه ميلا للمشتهيات ولو لم يفسر بما ذكر لما صح تعقيبه.

بقوله: (فقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص وإنما الفضل في كونها موجودة ثم قمعها) وهذا معنى ما قاله البسيلى في تفسيره: أن الظاهر أن كونه حصورا كان عن اختيار منه، لأن خلافه نقص في الخلقة وعيب ينزه عنه الأنبياء عليهم الصلاة

والسلام، وما ذكره ابن حزم فى «الملل والنحل» من ذمه إنما يتمشى فيما إذا كان مجرد الشهوة البهيمية، أما إذا كان لتكثير النسل فى الإسلام فلا ذم فيه، وقال ابن العربى: قول من قال الحصور هو الذى يكف عن النساء عن قدرة هو الصحيح لوجهين؛ أحدهما: أنه أثنى به عليه ومثله إنما يكون على المكتسب لا الجلبى.

الثانى: أن حصورا فعولا من صيغ المبالغة، وهو إنما يكون فى الأفعال الاختيارية فهو كف عن قدرة، وهو فى شرعه مطلوب بخلاف شرع نبيينا لنهيه صلى الله تعالى عليه وسلم عن التبتل. انتهى.

فاندفع ما قيل إن قوله لا شهوة له فى النساء لا وجه له لذكره هنا، لأنه فى مقام الجواب عما أورده، وهذا مقر للإيراد لا جواب عنه، وما ذكر فى هذا المقام هو وجه تفضيل البشر على الملك.

فإن قلت: فما تقول فيما ورد فى الحديث على فرض صحته من أنه عنين أو ماله كقذاة أو نواة أو هذب ثوب؟.

قلت: أجيب عنه بأنه لغلبة خوف الله تعالى عليه وشدة الرياضة التى كانت مشروعة له، ذبلت أعضاؤه واضمحلت حتى صار كأنه مثل ما ذكر، لا أنه لنقص فى خلقته فهو على طريق التشبيه والتمثيل.

(إما بمجاهدة) متعلق بقمع، والمراد بذلك أن الله خلق الأنبياء عليهم السلام على أحسن تقويم، فلهم قوة على الجماع زائدة على غيرهم، إلا أن منهم من قهر شهوته وغلبها حتى أضعفها، وذلك إما بمجاهدة كإفراط الرياضة بجوع وسهر وخلوة عنهن للعبادة، وهو المراد بالمجاهدة لأنه يجاهد نفسه بمنعها عما تريده من الشهوات وهو الجهاد الأكبر.

(كعيسى عليه الصلاة والسلام) أو يقهرها بعدم مطاوعتها على ما تريده؛ لأن الله تعالى خلقه وجعل فيه ملكة على ترك الشهوات من غير مجاهدة، وهو المراد بقوله: (أو بكفالة من الله كيحيى عليه الصلاة والسلام) فإن الله تعالى صرفه عن شهوة الجماع، قيل: والأليق أن يكون له قدرة قمعها بالمجاهدة كعيسى عليه الصلاة والسلام، ولذا فسر البيضاوى حصورا بمبالغ فى حبس نفسه عن الشهوات والملاهى، والتبتل فى حق المعصوم أمر مطلوب وفى غيره منهى عنه، وكان مشروعا فى دينهم كما مر. فترك التزوج عبادة عندهم لمن قدر على صون نفسه عن الشهوات، وكان يحى عليه الصلاة والسلام شديد الخوف من الله تعالى، حتى قيل: إنه وضع وجهه على الأرض وبكى حتى ذهب لحم خديه وبدت أضراسه للناظرين.

(فضيلة زائدة) مرفوع خير للمبتدأ وهو قمعها فى قوله: «ثم قمعها» أى ترك الشهوة والجماع بعد القدرة والقوة عليه فضيلة حمودة وصفة حميدة زائدة فى الخلقة على أصلها. (لكونها شاغلة فى كثير من الأوقات) أى لكون الشهوات تشغل الإنسان كثيرا عن العبادة والمهمات، وفى نسخة مشعلة. قال التلمسانى: مفعلة من الشغل. وروى مشغلة اسم فاعل من أشغل وهو قليل. وروى شاغلة انتهى.

قلت: الأخير هو الصحيح رواية ودراية، لأن الأشغال لغة ردية ولذا لما وقع الصاحب على رقعة فيها الأشغال قال: من قال أشغالى لا يصلح لأشغالى كما مر، وهو لم يقع فى النسخ المتداولة.

(حاطة إلى الدنيا) اسم فاعل من الحط وهو الإنزال من علو إلى أسفل، وهو منصوب خير بعد خير للكون، أى تنزل الإنسان إلى شهوات الدنيا الدنية لمن لم يعصمه الله عن التجلى بها وتمنعه عن اشتغال قلبه بها.

(ثم هى) أى الشهوة فى الجماع لا الفضيلة الزائدة عليها كما توهم. (فى حق من أقدر عليها) بالبناء للمجهول أى من أقدره الله على شهوته فلم تغلب.

(وملكها) أى تصرف فيها كما يريد منعاً وفعلاً وهو بفتح اللام والميم مبنى للفاعل، أو بضم الميم وكسر اللام المشددة، والبناء للمجهول. قال التلمسانى: وهو أولى ليكون على نسق أقدر. والحق هنا بمعنى الشأن والحال كما يقال: الغنى فى حق الكريم حسن.

(وقام بالواجب فيها) معطوف على ملكها أى من ملك شهوته ولم يمنعه من القيام بما يجب عليه من مهمات دينه ودنياه، لأن ما يمنع عن ذلك ينبغى تركه وفيها متعلق بقام، أى قام بما يجب عليه وهو متلبس بها.

(ولم تشغله عن ربه شغل) يشغل كسأل يسأل وقوله: (درجة علياء) مرفوع خير، وهى أى مرتبة رفيعة عند الله تعالى، وعلياء بفتح العين والمد وهى فى الأصل كل مكان مشرف أى مرتفع، وأريد به علو المنزلة.

(وهى درجة نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم) أى هذه الدرجة العليا عند الله التى وصل إليها فى الدنيا، مع أنها غير شاغلة له عن التقرب إلى الله بفعل ما يجب عليه من العبادة ودعوة الخلق.

(الذى لم يشغله) صفة لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم مبينة لما قلناه. (كثرتهن) أى النساء. (عن عبادة ربه بل زاده ذلك عبادة) على عبادته المعروفة من الصلاة والصوم وقيام الليل. (لحصىهن) أى جعلهن محصنات متعفات بنكاحه صلى الله تعالى عليه

وسلم لمن. (وقيامه بحقوقهن) من النفقة والكسوة وغير ذلك فإن فيه أجرا أيضا. (واكتسابه لمن) فإن الكسب الحلال للعيال عبادة وإرشاد للخلق، وإن كان لو سأل الله تبارك وتعالى ذلك أوصله له من غير كسب، لكنه صلى الله تعالى عليه وسلم ملتزم لمقام العبودية.

(وهدايته إياهن) بتعليمه الدين بعد خلوص الإيمان بالله ورسوله، ثم ترقى لمرتبة أعلى من هذه بين فيها أن حظوظه الدنيوية ليست ناشئة عن ميل قلب وتوجه فكر حتى يشغله عن ربه، فأضرب عما يوههم ذلك.

فقال: (بل صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو) جمع حظ كأحاط وأحظ وهو نصيب المقدّر مما يسر به، ويقال حنظ بالنون وهى لغة يمانية (وإن كانت من حظوظ دنيا غيره) من الناس فإنهم يسرون بها ويعدون لها لذة عظيمة، وإضافة الدنيا ومحبته لغيره إشارة إلى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم برئ منها ومن محبتها، فإن قلبا امتلأ بمحبة الله تعالى عز وجل لا يدخله محبة غيره، كما قيل:

تملك بعض حبك كل قلبى فإن ترد الزيادة هات قلبا

ثم فسر تصريحه بأنها ليست من حظوظه بالحديث (فقال: حبيب إلى) بالبناء للمجهول (من دنياكم) «ثلاث النساء والطيب وجعلت قرّة عينى فى الصلاة»<sup>(١)</sup> قال السيوطى رحمه الله تعالى: هذا الحديث رواه الحاكم والنسائى عن أنس رضى الله تعالى عنه بدون لفظ ثلاث، إلا أن أحمد رواه عن عائشة رضى الله تعالى عنها ولفظه: «كان يعجب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الدنيا ثلاثة أشياء؛ النساء، والطيب، والطعام، فأصاب اثنين ولم يصب واحدة، أصاب النساء والطيب ولم يصب الطعام». وإسناده صحيح إلا أن فيه رجلا لم يسم. وقد روى هذا الحديث من طرق أخرى يقوى بعضها بعضا، فهو صحيح إلا أن أكثر الحفاظ على أنه ليس فيه لفظ «ثلاث» كابن القيم، والعراقى، وابن حجر، وأنها مدرجة فى الحديث. ومن رواها فقد وهم، وخالفهم فى ذلك ابن فورك وقال: إنها مروية فى الحديث وألف فى ذلك جزعا مستقلا صحح فيه روايتها ولم أقف عليه. وتبعه فى إثباتها الزمخشري فى سورة آل عمران، والراغب وابن عربى فى الفصوص، وغيرهم من وهمهم قال: الصلاة ليست من أمور الدنيا فلا يصح عدها منها فجعلوه وهما لفظا ومعنى، ومن أثبتها افترقوا فرقتين:

فرقة قالت: إن المراد بأمور الدنيا ما وقع فى الدار الدنيا لذة كان أو عبادة، فالصلاة

من أمورها على هذا، وفى لفظ ثلاث تغليب للمؤنث على المذكر عكس القاعدة المشهورة لنكتة وغيرا الأسلوب فى الثالث، فعبر عنه بالفعل إشارة لمغايرته لما قبله وفيه عطف الفعل على الاسم الجامد، والمعروف عطفه على المشتق كما قال ابن مالك رحمه الله:

واعطف على اسم شبه فعل فعلا      وعكسا استعمل تجده سهلا  
فليست زيادة مخلة كما توهم.

وفرقه ذهبت إلى أنه نوع من البديع يسمونه الطى، وهو أن يذكر جمعا يريد تفصيله فيذكر بعضا منه ويترك بعضا، فالثالث يطوى ذكر فى الحديث لنكتة كإبهامه على السامع لعدم إرادته وقوف السامع عليه لنكتة، فإن هناك الطعام كما ورد التصريح به فى رواية أحمد كما مر، فطية لخسته عنده واستشهدوا له بقوله<sup>(١)</sup>:

إن الأحامرة الثلاثة أهلكت      مالى وكنت لها قديما مولعا  
الخمر والماء القراح وأطلى      بالزعفران فلن أزال مولعا  
وقوله:

كانت حنيفة أثلاثا فثلاثهم      من العبيد وثلاث من موالىها  
وفيه مع النكتة المذكورة تقليل اللفظ مع تكثير المعنى، وقد يقال: لا شاهد فيما ذكر، أما الأول فالثالث وهو قوله: وأطلى الخ على نهج ما تقدم فى الحديث. وأما الثانى فلأنه ذكر قبيلة بنى حنيفة وجعلها أثلاثا عبيدا، وموالى، وحلفاء، فبقى نفس القبيلة وصميمها وهى مذكورة أولا. وقال: حبيب بالبناء للمجهول ودنياكم بالإضافة إليهم، ولم يقل أحببت من دنيائى إشارة إلى أن محبته صلى الله تعالى عليه وسلم لذلك ليست باختياره لشهوات نفسه بل بفعل الله، فحبه إنما هو لله وذاته لما أراده ورضيه له، لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم بشرى الظاهر ملكوتى لا يتجلى بأحوال البشر إلا إذا أمره الله تعالى بها، لتأسى به أمته وتتشرف بما رضى له، فعده صلى الله تعالى عليه وسلم من البشر كعد الياقوت من الأحجار، وكان إذا دخل فى الصلاة اشتغل ظاهره وباطنه عن الخلق لوقوفه بين يدى خالقه، فيزداد قربا ومشاهدة فيتصل نور بصره بنور بصيرته، فلذا جعلها قرّة عينه. ولذا شرع السلام لعوده من عنده من معراج. ولذا كان بعض الناس يصفح من عنده فافهم. وروى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم جلس

(١) البيتان من الكامل، وهما للأعشى فى لسان العرب (٢٠٩/٤)، تاج العروس (٧٤/١١)، وبلا نسبة فى تهذيب اللغة (٩٥/٥)، المخصص (٢٢٤/٨٣).

مع أصحابه الأربعة رضى الله تعالى عنهم فقال: («حب إلى من دنياكم ثلاث، الطيب والنساء وجعلت قرة عيني فى الصلاة») فقال أبو بكر رضى الله عنه: وأنا يا رسول الله حب إلى من الدنيا ثلاث: الجلوس بين يديك، والنظر إليك، وإتفاق جميع مالى عليك، وقال عمر رضى الله تعالى عنه: وأنا يا رسول الله حب إلى من الدنيا ثلاث: الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وحفظ الحدود، وقال عثمان رضى الله تعالى عنه: وأنا يا رسول الله حب إلى من الدنيا ثلاث: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام، وقال على رضى الله عنه: وأنا يا رسول الله حب إلى من الدنيا ثلاث: إقراء الضيف، والصوم بالصيف، والضرب بين يديك بالسيف. فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام وقال: وأنا يا رسول الله حب إلى من دنياكم ثلاث: حب المساكين، وتبليغ الرسالة للمسلمين، وأداء الأمانة. وإذا النداء من قبل الله تعالى وهو يقول: إن الله يحب من دنياكم ثلاث: بدن صابر، ولسان ذاك، وقلب شاك. فالخطاب على هذا للخلفاء الأربعة رضى الله تعالى عنهم، ويجوز أن يكون لجميع الناس أو الأمة.

(فدل) ذلك على (أن حبه) صلى الله تعالى عليه وسلم (لما ذكر من النساء والطيب اللذين هما من دنيا غيره) أى دل ما ذكر من بناء حب للمجهول وإضافة الدنيا لغيره صلى الله تعالى عليه وسلم (واستعماله لذلك) بالنصب عطفًا على اسم إن، والمراد باستعماله لذلك مباشرته للجماع وتطيه وتضمخه بالطيب. (ليس لدنياه) والتلذذ (التي ذكرناها فى الترويح) من تحصينهن وقيامه بحقوقهن واكتسابه وهديته لهن. (وللقاء الملائكة فى الطيب) أى استعماله لأجل محبة الملائكة له وهو صلى الله تعالى عليه وسلم يلاقهم كثيرًا، ولذا ترى أصحاب العزائم والهياكل يلزمون البخور بمحبة الروحانية له. (ولأنه) أى الطيب (أيضًا مما يحض على الجماع ويعين عليه) أى مما يحرك داعية الجماع ويقويه لا تتعاش الروح به. (ويحرك أسبابه) أى يهيئ مقدماته كالشهوة والقبلة، أو المراد آله، فكفى به عنها تأدبا واحتشاما وهو تعبير حسن.

(وكان حبه صلى الله تعالى عليه وسلم لهاتين الخصلتين) الجماع والطيب. (لأجل غيره) أى الزوجات والملائكة عليهم الصلاة والسلام. (وقمع شهوته) لا لمجرد التلذذ والنعم كغيره، وإن كان قادرا على ذلك، ولذلك كان صلى الله تعالى عليه وسلم لا يرد الطيب إذا أهدى إليه. وفى الحديث: «من عرض عليه طيب فلا يرد فإنه طيب الريح خفيف الحمل، وإذا أعطى أحدكم ريحانا فلا يرد»<sup>(١)</sup>. والمراد الريحان المعروف أو كل ذى رائحة طيبة.

(١) أخرجه أبو داود (٤١٧٢)، والنسائى (١٨٩/٨)، وأحمد (٣٢٠/٢)، وابن حبان (١٤٧٣)، والبيهقى (٢٤٥/٣).

(تنبيه) قال ابن عربى: ما ورد قط عن نبى من الأنبياء أنه حبب إليه النساء إلا سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وإن كان رزقوا منهن كثيرا كسليمان وغيره، ولكن كلامنا فى كونه حبب إليه وذلك أنه كان منقطعا إلى ربه عز وجل لا ينظر معه إلى كونه يشغله عنه. فإنه مشغول بالتلقى عن الله تعالى ورعاية الأدب، فلا يتفرغ إلى شىء دونه فحبب إليه النساء عناية منه عز وجل هن، فكان يحبهن لكون الله حبيهن إليه والله جميل يحب الجمال.

(وكان حبه الحقيقى المختص بذاته) لا لأمر آخر عرضى يرجع بالآخرة إلى الدين والثواب (فى مشاهدة جبروت مولاه ومناجاته) الجبروت فعلوت كالرهبوت والملكوت، والمراد عظمة الله تعالى سيده ومولاه، والمناجاة: المسارة بتلقى وحيه ودعائه وقراءة القرآن. وقال الدوانى فى شرح «هياكل النور»: الجبروت يراد به عالم العقول، أى الملائكة. ويسمى أيضا بالملكوت الأعلى والأعظم، قيل: إنما سمي بالجبروت لأنها مجبورة على كمالاتها الفطرية، أو لأنه جبر نقصها الإمكانى بحصول ما يمكن لها بالفعل. انتهى.

(ولذلك ميز) فرق وفصل (بين الحبين) أى حب ما هو من أمور الدنيا ظاهر أو بين حب ما هو حقيقة لله. (وفصل بين الحالين) أى حال المحبتين بتغيير العبارة والأسلوب كما مر.

(فقال: وجعلت قرعة عينية فى الصلاة) فأوردها جملة فعلية معطوفة على اسم قبلها كما مر، تعظيما لشأنها وتفخيما لأمرها لكونها مجبولة لذاتها، فليست معطوفة على حب عطف الفعلية على الفعلية كما ذهب إليه من جعل الثالث مطويا كما عرفته. وقرعة العين: ما يسر من ينصره من قر يقر بالفتح إذا برد، لأنه كما قيل: دعة السرور باردة. أو من القرار والسكون لسكونها إذا نظرت من تحب، أو بنومها لأن الحزين يسهر. وقد قيل: عيني تقربكم عند تقربكم. ولو لم يغير الأسلوب. قال: والصلاة التى بها قرعة عيني أو قرعة عيني فى الصلاة فلا يحصل التمييز بين ما حبه عرضى وبين ما حبه ذاتى وحقيقى، وبهذا العدول علم أنها ليست من دنياهن، وهذا إنما يتوهم إذا كان الحديث لفظه هكذا، والمصنف رحمه الله تعالى ممن لا يقول بصحته كما سيأتى فى فضل وقاره، والمراد بالصلاة الصلاة المعروفة ذات الركوع والسجود لما يشاهد فيها كما مر، وقيل: المراد صلاة الله وملائكته عليهم الصلاة والسلام عليه، قال ابن قرقول: والأول أظهر.

(فقد ساوى) صلى الله تعالى عليه وسلم (ويحى وعيسى عليهما الصلاة والسلام فى كفاية فستهن) يعنى: أن يحيى وعيسى صلى الله تعالى عليه وسلم تبتلا وتركوا الزوج مع

القوة والقدرة خوفا من فتنة النساء، وهى تمكن حبهن فى القلب والاشتغال بهن عن العبادة فى مشاهدة عالم الملكوت، وهن لم يشغلنه صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يمنعه عنها فى حال من الأحوال، فساواهما فى عدم الاشتغال حتى كان الوحي ينزل عليه صلى الله تعالى عليه وسلم وهو فى فراش زوجته، وأعانتة خديجة رضى الله عنها فى أول أمره، فلا يقال: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم فى حال مضاجعتهم مشغول عن عبادته إلا أن يعد جماعه عبادة. (وزاد فضيلة عليهما) أى يحيى وعيسى (وبالقيام بهن) أى له صلى الله تعالى عليه وسلم فضيلة زائدة على ما ذكر بقيامه على زوجته، وكسبه لهن، وهدايته لهن مع عدم غفلته صلى الله تعالى عليه وسلم طرفة عين عن الله تعالى.

(وكان صلى الله تعالى عليه وسلم ممن أقدر) بالبناء للمجهول أى قدره الله تعالى. (على القوة فى هذا) أى أمر النكاح مع القيام بحقه وحق الله، وليس فى هذا دلالة على أن غيره صلى الله تعالى عليه وسلم أقدر منه كما توهم. (وأعطى الكثير منه ولهذا أبيح له) صلى الله تعالى عليه وسلم (من عدد الحرائر) جمع حرة على خلاف القياس لكونه بمعنى عقيلة فجمع جمع فعيلة. كما قال النابغة<sup>(١)</sup>:

حذار على ألا تنال مقادتى ولا نسوتى حتى يمتن حرائر

(ما لم ييح لغيره) من جمع ما فوق الأربعة وهو من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم بالنسبة لأمته، فأبيح له أن ينكح من النساء ما شاء فى أول أمره، ثم حرم عليه بعد ذلك أن يزيد على ما فى عصمته من أزواجه، فقال: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [الأحزاب: ٥٢] قال التجانى: وقال مغلطى: له صلى الله تعالى عليه وسلم خصائص حمة منها: إباحة تسعة نسوة، والصحيح أن له صلى الله تعالى عليه وسلم الزيادة. قال بعض الشراح: من قال لا يزيد على التسعة استدل بقوله تعالى: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنٍ وَفُلْثٍ وَرُبْعٍ﴾ [النساء: ٣] وهو خطأ بالإجماع، لأنه ليس معنى الآية وليست الآية فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم، وإنما هى فى حق الأمة، والزيادة على الأربعة لهم ممنوعة بالإجماع الدال عليه معنى حديث غيلان، ولم يخالفه مستدلا عليه بهذه الآية إلا بعض الروافض والزنادقة كما فصله ابن حزم فى كتاب «الحلى».

(وقد رويانا عن أنس) رضى الله تعالى عنه، قال السيوطى: هذا الحديث عزاه المصنف رحمه الله تعالى للنسائى، وهو عند البخارى، وروينا بفتح الراء والواو المخففة. وما قاله

(١) البيت من الطويل، وهو فى ديوان النابغة (ص ٧٠)، تخلص الشواهد (ص ٤٣٧)، شرح المفصل (٥٤/٢)، الكتاب (٣٦٨/١)، شرح أبيات سيبويه (٣٠/١).



الشمى نقلًا عن المزى من أنه بضم الراء وكسر الواو المشددة لا وجه له. (أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يدور على نساءه) أى يجامعن من دار على كذا وطاف به إذا مشى حوله فجعله كناية عما ذكر.

(فى الساعة من الليل والنهار) أى مقدار ساعة منهما فقدرته صلى الله تعالى عليه وسلم على ذلك مع ما كان عليه من قلة الأكل والشرب معجزة فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم. قيل: والتبتل فى حق يحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام تشبيها بالملاحكة كان أفضل فى زمانهما، ودوره صلى الله تعالى عليه وسلم عليهن كان برضاهن، فلا ينافى وجوبه فى القسم.

(وهن إحدى عشرة) أى نساؤه صلى الله تعالى عليه وسلم اللاتى دار عليهن كذلك عدتهن. قال البرهان: كذا فى صحيح البخارى من حديث أنس رضى الله تعالى عنه. وقال ابن خزيمة: لم يقل أحد من أصحاب قتادة بأنهن إحدى عشرة إلا معاذ بن هشام عن أبيه. وعن أنس رواية أخرى فى البخارى: أنهن تسع. وجمع بينهما بأن أزواجه صلى الله تعالى عليه وسلم كن تسعا فى ذلك الوقت كما فى رواية سعيد، وسريته مارية وريحانة عند من قال إن ريحانة كانت أمة. وبعضهم قال: إنها زوجة. وروى أبو عبيدة أنه كان مع ريحانة فاطمة بنت شريح. وقال ابن حبان: كان هذا أول ما قدم صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة فكانت زوجاته تسعا؛ لأن جمع نساءه لم يقع مرة واحدة، ولا يستقيم هذا إلا فى آخر أمره حيث اجتمع عنده تسع نسوة وجاريتان، ولا يعلم اجتماع إحدى عشرة زوجة عنده، فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم تزوج إحدى عشرة امرأة أولاهن خديجة، ولم يتزوج عليها حتى ماتت. انتهى ما ذكره البرهان. وكلام ابن خزيمة يدل على أن رواية الإحدى عشرة مرجوحة والتسع راجحة، وجمع بينهما بأن من التسع فاطمة بنت شريح وريحانة على القول بأنها زوجة فصدر الجمع منه صلى الله تعالى عليه وسلم مرة تسعا ومرة إحدى عشرة، وأيضاً قيل: التسع محمول على الحقيقة والأخرى على تغليب الزوجات على السريتين وهما ريحانة ومارية، فإن قيل: الرواية بلفظ النساء وهن حقيقة فى غير الرجال فلا حاجة إلى التغليب، قيل: لا يقال إنه حقيقة فى ذلك إلا إذا لم يضاف للأزواج الإمام، كما فى الحديث وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾ [المجادلة: ٣] فإن أضيف لهم لم يتناول الإمام حقيقة، ولذا احتج علماؤنا بهذه الآية على عدم صحةظهار الإمام خلافاً لمالك، وقد تبعه التجانى إذ جمع بين روايتى أنس بأنهن تسع حرائر وإحدى عشر منكوبة وسريتان لدخول السرائر فى النساء كالأية، والنساء والنسوة والنسوان جمع المرأة من غير لفظها كالقوم فى جمع

المراء، وقد علم أن طوافه صلى الله تعالى عليه وسلم على نسائه فى ساعة واحدة لا ينافى القسم إن قلنا بوجوبه عليه، ولم تقل إن من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه لا يجب عليه القسم، وقد ذهب إلى هذا الزيلعى من أئمتنا وبعض الحديث فقسمه صلى الله تعالى عليه وسلم إنما كان تطيبا لخاطرهن تفضلا منه وتعليما لأمته، ولذا كان يقرع بينهن إذا أراد السفر مع أن القسم إنما يجب عليه فى الحضر، أو نقول هذا برضاهن مع أن هذا لا يفوت القسم لمساواتهن فيه، والاختيار فى القسم للزوج ويدل على عدم الوجوب، أنه روى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقسم لثمان ويترك واحدة منهن، قيل: إنها صفة بنت حبي رضى الله تعالى عنها كما فى مسلم، وعليه قوله تعالى: ﴿ تَرْجَى مَن نَّشَاءُ مِنْهُمْ وَيُقِى إِلَيْكَ مَن نَّشَاءُ ﴾ [الأحزاب: ٥١] وقال المنذرى: كان ممن يؤوى عائشة، وأم سلمة، وزينب، وحفصة رضى الله تعالى عنهن انتهى.

ومن أرجاه سودة، وجويرية، وأم حبيبة، وصفية، وميمونة رضى الله عنهن أجمعين انتهى. واستدل القائل بالوجوب عليه بحديث الترمذى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقسم بين نسائه فيعدل، ويقول: «اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذننى فيما تملك ولا أملك»<sup>(١)</sup> وقد يقال: هذا كان قبل إعلامه بعدم الوجوب عليه أو لعدوله عن الأفضل فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم والكلام على ترجمة زوجاته رضى الله تعالى عنهن مفصل فى السير. وللعلامة ابن حجر العسقلانى رحمه الله تعالى:

توفى رسول الله عن تسع نسوة إلهن تعزى المكرمات وتنسب  
فعائشة ميمونة وصفية وحفصة يتلوهن هند وزينب  
جويرية مع رملة ثم سودة ثلاث وست نظمن مهذب  
والواو فى قوله من الليل والنهار بمعنى أو.

(قال أنس رضى الله تعالى عنه: وكنا نتحدث أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أعطى قوة ثلاثين رجلا) فى الجماع، وهذا تتمه الحديث الذى قبله (خرجه) أى رواه مسندا (النسائى) وقد تقدم أن البخارى رواه أيضا (وروى) بالبناء للفاعل والمفعول (نحوه عن أبى رافع) أى هذا الحديث مروى عن أبى رافع أيضا فى سنن أبى داود والبيهقى والنسائى، ولفظه: «طاف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على نسائه فى يوم أو ليلة واحدة وكان يغتسل عند هذه وهذه». ولذا قال: نحوه لاختلاف لفظه وزيادته، وأبو رافع هذا هو مولى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو قبطى، واسمه إبراهيم،

(١) أخرجه أبو داود (٢١٣٤)، وابن سعد (١٢١/٨).

وقيل: أسلم. وقيل: ثابت، وقيل: هرمز. وقيل: صالح، وقوله قوة ثلاثين قال البرهان الحلبي في الصحيح من رواية الإسماعيلي عن معاذ: «أعطى قوة أربعين رجلاً». وفي حلية أبي نعيم عن مجاهد: «قوة أربعين رجلاً من رجال الجنة». وفي الترمذي: «أن قوة كل رجل من رجال الجنة قوة سبعين رجلاً». يعني من أهل الدنيا وصحبه، وفيه: «قوة مائة رجل» وقال: إنه صحيح غريب. وقال ابن حبان: «قوة كل رجل في الجنة قوة مائة رجل». والنسائي هو الإمام الحافظ الحجة أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي صاحب السنن، سمع من قتيبة وطبقته وأصحاب مالك وحماد بن زيد، وانتهى إليه علم الحديث، وروى عنه كثيرون، وتوفي سنة ثلاث وثلثمائة، ويشبه أنه ولد سنة خمسة عشر ومائتين، ولم يبق من أصحاب الكتب الستة بعد الثلاثمائة غيره، فعلى هذا قوته صلى الله تعالى عليه وسلم قوة ألوف، ووقع في بعض النسخ هنا برواية اللخمي عن المصنف.

(وعن طاووس: أعطى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قوة أربعين رجلاً) وقد تقدم من رواه وما فيه، وطاووس هو الإمام عبد الرحمن بن كيسان اليماني وهو من أبناء الفرس. وقيل: من النمر بن قاسط. وقيل: اسمه ذكوان ولقب بطاووس لأنه كان طاووس القراء. وروى عن عائشة، وأبي هريرة، وابن عباس وغيرهم رضي الله تعالى عنهم. وروى عنه الزهري، والتميمي وابنه وغيرهم. وتوفي بمكة سنة ست ومائة وأخرج له أصحاب السنن وغيرهم.

(ومثله عن صفوان بن سليم) بالتصغير وهو إمام عابد، قيل: إنه لم يضع جنيبه على الأرض أربعين سنة حتى نقبت جبهته من السجود، توفي سنة اثنين وثلاثين ومائة، وهو تابعي روى عنه أصحاب السنن. (وقالت سلمى مولاته) بفتح السين بلا خلاف وغلط من ضمها كما قاله النووي رحمه الله تعالى، والضمير للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لأنها خادمته. وقيل: إنها مولاة صفية عمتة صلى الله تعالى عليه وسلم وهي زوج أبي رافع داية فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها، وروى عنها ابن ابنها عبيد الله، وهذا الحديث صحيح رواه أبو داود كما قاله السيوطي. (طاف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على نسائه التسع وتطهر من كل واحدة) أي من جماع كل واحدة منهن (قبل أن يأتي الأخرى وقال: هذا) أي الغسل من كل جماع (أطهر وأطيب) وروى: «أزكى وأطيب وأطهر» أما كونه أطهر فظاهر، وأما أنه أطيب فلأنه يقوى البدن بإنعاشه. وقيل أطيب للباطن وأطهر للظاهر. وهذا الحديث متصل لأن سلمى روته عن زوجها أبي رافع، وفيه دليل على أن الغسل على الفور وأنه لا يجب لكل جماع، وقيل: إن لم يغتسل

يستحب له الوضوء كوضوء الصلاة، وروى عن عمر أنه لازم وما ورد فى الصحيح أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يطوف على نسائه بغسل واحد، فليان الجواز، وحمل بعضهم الوضوء فى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «إذا أتى أحدكم أهله فليتوضأ»<sup>(١)</sup> على الوضوء اللغوى أى يغسل فرجه وهذا بناء على أن الوضوء لا يستحب كما قاله أبو يوسف، وذهب بعضهم إلى أنه يستحب لأنه أنشط كما ورد فى الحديث.

(وقد قال سليمان عليه الصلاة والسلام: لأطوفن الليلة على مائة امرأة أو تسع وتسعين وأنه فعل ذلك) أى الطواف عليهن وجماعهن كما قال. وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «قال سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كلهن يأتى بغلام يقاتل فى سبيل الله، فقال صاحبه أو الملك: قل إن شاء الله تعالى فلم يقل ونسى، فلم تأت واحدة منهن بولد إلا واحدة جاءت بشق غلام» فقال رسول الله: «لو قال إن شاء الله تعالى لم يحث وكان له دركا لحاجته»<sup>(٢)</sup> وفى رواية: «على ستين امرأة» وفى رواية: «على تسعين امرأة» وفى أخرى: «على سبعين» وفى رواية: «على تسعة وتسعين امرأة». وستأتى الزيادة وما فيها. قالوا: ولا تعارض بين الروايات؛ لأن إثبات القليل لا ينفى الكثير والعدد لا مفهوم له، ثم هذه النساء إن كانت إماء أو بعضها حرائر وبعضها إماء فلا إشكال، وإن كانت حرائر فلائ الحصر فى الأربع لم يكن شرعا لمن قبلنا، وإنما صار شرعا لنا لضعف الأبدان وقلة الأعمار، ويقال: طاف بالشئ وأطاف به إذا دار حوله، وقد قدمنا أنه كناية عن الجماع وعلى اختلاف اللغتين جاءت روايتان: «لأطوفن ولأطيقن» وفى الحديث جواز القسم والتعليق بالمشيئة، وأما كون سليمان عليه الصلاة والسلام لم يقله، وأنه نسيه فسيذكره المصنف رحمه الله تعالى فى أول القسم الثالث. وقوله فى الحديث: «لم يحث» بمعنى لم يَأْثُم ويخطئ لأنه فعله، وليس المقسم عليه الولد؛ لأنه ليس فى قدرته ومثله لا يخفى عليه، والدرك: بفتح الراء بمعنى الإدراك والتحصيل. وفى البخارى بدله «كان أرجا لحاجته» وسليمان نبى الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمره ونسبه مفصل فى القصص والتواريخ.

(قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: كان فى ظهر سليمان عليه الصلاة والسلام ماء

(١) أخرجه مسلم (٣٠٨/٢٧)، وأبو داود (٢٢٠)، والترمذى (١٤١)، وابن ماجه (٥١٧)، والحاكم (١٥٢/١)، والبيهقى (٢٠٣/١).

(٢) أخرجه البخارى (٢٧/٤)، ١٩٧، ٥٠/٧، ومسلم (١٦٥٤/٢٣)، والترمذى (٩٤٢)، والنسائى (٢٥/٧)، وأحمد (٢٢٩/٢).

مائة رجل) المراد بالماء المنى ومنبعه من الرجال صلب الرجال كما ذكروه في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصَّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٧] والمراد: أن له قوة مائة رجل في الجماع (وكانت له ثلاثمائة امرأة وثلاثمائة سرية وحكى النقاش) رحمه الله تعالى تقدمت ترجمته (وغيره) أنه كان له (سبع مائة امرأة وثلاثمائة سرية). وروى أن له ألف امرأة وتسع مائة سرية. وهذا يخدش فيما تقدم من العدد، وقد تقدم ما أجابوا به عنه إلا أن بعضهم ضعفه، وجمع بين الروايات بأن بعضها محمول على الحرائر وبعضها على الحرائر والسراري، ولا يخفى ما فيه، ولو قيل إن الاختلاف لاختلاف أحواله صلى الله تعالى عليه وسلم باعتبار الزمان فكانت تزيد وتنقص بهذا الاعتبار لكان أظهر.

وفي تفسير النسفى عكس ما حكى المصنف رحمه الله تعالى عن النقاش، فقال: كان لسليمان عليه الصلاة والسلام ثلاث مائة حرة وسبع مائة سرية. وكذا في الكشف والله أعلم بالصواب.

(وقد كان لداود عليه السلام على زهده وأكله من عمل يده) لأن الله تعالى ألان له الحديد فكان يصنع منها الدروع ويبيعها ويأكل هو وأهله من ثمنها مع ما آتاه الله من الملك، وأفضل ما أنفق المرء ما كان من كسب حلال كالصناعة والتجارة والزراعة، واختلفوا في الأفضل منها، وفصلوه في كتب الفقه والحديث بما لا مزيد عليه ولا حاجة هنا لنا به (تسع وتسعون امرأة) كما ذكره القشيري في تفسيره.

(وتمت بزواج أورياء مائة) بالرفع والنصب، فالرفع ظاهر على الفاعلية، والنصب على أن يكون الفاعل العدة وهو مضمّر، ويجوز النصب على الحال منها، أى وتمت العدة في حال كونها مائة يقال لكل قرنين من ذكر وأنثى زوج وزوجة لغة ردية، وأورياء علم لرجل من بنى إسرائيل عبراني، واختلفوا في ضبطه بعد الاتفاق على أنه بهمزة وواو وراء مهملة ومثناة تحتية، فقيل: ممدودة، وقيل: مقصورة وهمزته مضمومة وواو ساكنة وراؤه مكسورة وياء مفتوحة بعدها ألف، وقيل: همزته مفتوحة وهو أورياء بن حنان. وقال أبو الفرج الأصبهاني في كتاب «النساء»: هو أوريا السعدى وزوجته هى أم سليمان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقصته هى المذكورة فى القرآن فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَمْ يَسْعَ وَيَسْعُونَ نَجْمَةً﴾ [ص: ٢٣] وقصته ستأتى وما فيها فى القسم الثالث من هذا الكتاب، ولكننا نوردها هنا تبعاً لما فى بعض الشروح، وذلك أن داود عليه الصلاة والسلام كان فى ملأ من بنى إسرائيل فأعجب بعلمه وأنه لا يخاف الفتنة، ويقال: إنه قال للملكين الحافظين له إني لا أقع فى مكروه غبتما أو حضرتما، وانفرد فى محرابه يوماً فوقع بين يديه طائر حسن الهيئة يقال إنه إبليس، فمد يده ليأخذه فزال من

موضعه غير بعيد فتبعه فخرج من مدخله، فاطلع داود منه فرأى امرأة جميلة تغتسل فأعجبته، فلما شعرت به أرسلت شعر ذوائبها لتسترها فزاده ذلك عجباً وميلاً لها، فانصرف وسأل عنها فقالوا: إنها امرأة رجل من جندك يسمى أورياء، وكان مع جيش له بعثوا للقتال، فأرسل لأميره أن يجعله مع الثابتين في المقدمة وهو معترك الحرب وأشدّه، فقدمه فاستشهد، فلما جاء خبر الشهداء كان كلما أخبر برجل منهم توجع فلما أخبر به قال: الموت مكتوب على كل نفس، وخطب امرأته وتزوجها فولدت له سليمان عليه الصلاة والسلام، فبعث الله له خصمين ليعلمه بحكمه أن ما فعله ظلم وهو أشد عليه، فتسورا حائطه ودخلا عليه ففزع منهما لخوف أنهما من أهل مملكته بغاة؛ لأن التسور في العادة كذلك، لأنه كان ليلاً بلا استئذان ففهما منه الخوف وقالوا: لا تخف وقصا أمرهما، وقالوا له: احكم ولا تجر كما قصه الله تعالى، وقررا كلامهما على لسان أورياء وقوله تعالى: ﴿أَكْفَلْنِيهَا﴾ [ص: ٢٣] أى اجعلها فى كفالتى، أو اكفل بمعنى زوجنى، والنعجة: كناية عن المرأة، وقوله عزنى أى غلبنى لغلبته على وقهره، فقال داود لخصمه: ما تقول؟ فأقر فجره وأمره بالرجوع للحق، وقال: لقد ظلمك فتبسما وذهب، وقيل: ارتفعوا للسماء فشعر بما أرادوا، وقيل بينا له ما فعل وعرفاه أن ما قالاه تمثيل له، فخر ساجدا فغفر الله تعالى له فقال: يارب ما أصنع إذا طالبنى بدمه؟ فقال: استرضيه فسر بذلك. قالوا: وهذه القصة مما افتراه القصاص وأهل الكتاب، حتى روى عن على كرم الله وجهه: من حدث بقصة داود عليه الصلاة والسلام جلدته مائة وستين. وهو حد قذف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عنده، والمعتمد أن داود عليه الصلاة والسلام رأى امرأته فأعجبته فسأله تطليقها فطلقها بطيب خاطر فتزوجها، ومثله فى شرعهم جائز، وقد كان مثله فى صدر الإسلام مع المهاجرين والأنصار، وسيأتى بقية الكلام على هذا (وقد نبه الله) عز وجل (على ذلك فى الكتاب العزيز بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَمُتَّ سَاعَةً وَنَسُوءُنَّ نَجْمَةً﴾ [ص: ٢٣] الآية) حكاية عن الخصمين اللذين نزلا نفسيهما منزلة أورياء ونزل أحدهما الآخر منزلة الأخ، لأن الصحة كالإخوة كما قال:

صحبة يوم نسب قريب وذمة يعرفها اللبيب

تشديدا لظلمه. والعرب تكنى عن المرأة بالنعجة، وهى فى الأصل أنثى الضأن تأوها لتأكيد التأنيث، لأن مذكرها لفظ مخصوص هو حروف وتطلق على البقرة الوحشية أيضا، فاستعيرت للمرأة كما استعيرت لها الشاة فى قوله<sup>(١)</sup>:

(١) البيت من الكامل، وهو لعنترة فى ديوانه (ص ٢١٣)، الأزهية (ص ٧٩، ١٠٣)، الأشباه والنظائر (٣٠٠/٤)، خزانة الأدب (١٣٠/٦)، شرح المفصل (١٢/٤).

يا شاة ما قنص لمن حلت له حرمت على وليتها لم تحرم

وفى مصحف ابن مسعود نعة أنثى لمزيد تأكيد التأنيث، أو لبيان المراد كحديث: «فالأولى رجل ذكر». وقيل: أنثى بمعنى امرأة مؤنثة يستأنس بها زوجها وضدها امرأة مذكرة، وهى التى لا تلين لزوجها ولا يأنس بها، ووصفها بواحدة تشنيع على ظلم صاحبه فإنه مع كثرة نعاجه حسده مع قلة ما عنده.

(وفى حديث أنس عنه عليه الصلاة والسلام) كما رواه الطبرانى فى الأوسط بسند جيد كما قاله السيوطى رحمه الله تعالى أنه قال: (فضلت) بالتشديد والبناء للمجهول (على الناس بأربع السخاء والشجاعة وكثرة الجماع وقوة البطش) البطش هو قوة السطوة والأخذ بعنف، وعطفه على كثرة الجماع لما فيه من إذهاب القوة؛ لأنه ماء الحياة يصب فى الأرحام، ونور العين ومخ العظم إشارة إلى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم تضعف قوته وأنه من آياته، وسيأتى معنى السخاء والشجاعة.

(وأما الجاه) وهو كونه وجيها عند الناس بتسخير القلوب وطاعتها ومحبتها وانقيادها له، بحيث يقدر على استعمال أربابها فى مقاصده، وهى لا تنقاد إلا باعتقاد الكمال التام عندها حتى يستعبدهم كما يستعبد الأرقاء.

(فمحمود عند العقلاء عادة) منصوب على الظرفية أو الحالية، أى جرت عادة العقلاء بحمده، ويجوز جعله تمييزا وعند متعلق بمحمود ظرف لغو. وقيل: إنه حال وكونه محمودا عقلا يقتضى أنه محمود شرعا بحسب ذاته وأصله، وإن كان قد يذم شرعا بحسب ما يعرض له عند بعض الناس وهو أعظم نفعاً من المال، لأن المال يكسب به ولا يخشى عليه ما يخشى على المال.

(ويقدر جاهه) أى الإنسان ذى الجاه يعظم فى القلوب بمقدار عظمة جاهه، وقيل: المراد جاه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى الدنيا بالنبوة وفى الآخرة بلواء الحمد يكون. (عظمه) بكسر والعين بفتح الظاء المشالة وفى آخره هاء الضمير كما قاله البرهان الحلبي.

(فى القلوب) لأن الجاه كما تقدم متفرع على اعتقاد الكمال والقدرة، وكلما ازداد اعتقاده زادت عظمة شأنه فى قلوب الناس، وقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم مهيبا معظما حتى عند أعدائه ثم أيد كونه محمودا بقوله:

(وقد قال الله تعالى فى صفة عيسى عليه الصلاة والسلام وجيها فى الدنيا والآخرة) أى عظيما ذا جاه عند الله فى الدارين، وفيه دليل على أن الجاه من الوجاهة فقلب.

وكان أصله وجه فوزه فعل، ووجيها منصوب على أنه حال مقدرة من كلمة فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥] ووجاهته صلى الله تعالى عليه وسلم فى الدنيا بالنبوة وفى الآخرة بعلو رتبته كما مر، ثم استدرك على كونه محمودا بدفع ما يتوهم من أنه مذموم لما فيه من العلو فقال:

(لكن آفاته كثيرة) جمع آفة وهى العاهة والمفسدة، أى يعرض له ما يفسده ويجعله مذموما كثيرا. (فهو مضر لبعض الناس) باعتبار ما يعرض له (لعقبى الآخرة) باعتبار ما يعقبه ويترتب عليه فى الآخرة، فاللام لتقييد التأقبت والتخصيص بالوقت كما قيل، ويجوز أن تكون تعليلية. (فلذلك) أى لضرره فى العاقبة.

(ذمه من ذمه ومدح ضده) وهو الخمول وعدم الشهرة بين الناس، أى إنما ذمه من ذمه لهذا إلا لأنه فى نفسه أمر مذموم، كما ورد فى الحديث الصحيح: «ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حب المال والجاه لدين المؤمن» وقد فصله فى الإحياء فقال: طلب رفعة المنزلة فى القلوب باعتقاد صفة ليست فيه كالعلم والزهد حرام؛ لأنه كذب وتليس، وطلبها بما فيه ليجعلها وسيلة لنفع الناس ونفعه فى الآخرة جائز ممدوح، كقول يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ [يوسف: ٥٥] وقد تضمن هذا قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «حسب امرء من الشر إلا من عصمه الله أن يشير الناس إليه بالأصابع فى دينه أو دنياه» رواه البيهقى.

(وورد فى الشرع مدح الخمول وذم العلو والأرض) معطوف على قوله ذمه وهذا كما فى الحديث: «إن الله يحب الأتقياء الأخفاء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لم يعرفوا»<sup>(١)</sup>. وقال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الْأَمْثَلُ الْآخِرَةُ يَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣] وإن كان العلو فى الآية مقيدا بصفة زائدة عليه من ظلم أو غيره. والخمول: بضم الخاء المعجمة وفتحها خطأ ضد الظهور، وكون الخمول فضيلة ممدوحة لا يضر مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين لم يرضوه، والخلفاء الراشدين والأئمة العلماء، فإن المذموم هو طلب الشهرة، فأما وجودها من الله من غير تكلف من العبد فليس بمذموم، بل أفضل من الخمول فى حق من قدر على نفع الناس مع خلوص نيته وسلامة طوبته وسلامه، ولذا قال الله: ﴿رُيُودُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٨٣] دون يعلون، ومن لم يقدر ويصبر على ذلك فالخمول فى حقه أحسن، كما أشار إليه فى الإحياء، وإليه الإشارة فى حديث: «المال والجاه ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٨٩)، والحاكم (٤/١)، والطيبراني فى الصغير (٤٥/٢).



البقل» ولذا قال الشاعر:

من أراد العز والرا حة فى الدهر الطويل  
فليكن فرداً من النا س ويرضى بالخمول  
ويرى أن قليلاً كافياً غير قليل

(وكان صلى الله تعالى عليه وسلم قد رزق من الحشمة) أراد بالحشمة المهابة والعظمة فى أعين الناس، ولذا عطفه عليه (والمكانة) وهى المنزلة الرفيعة رفعة معنوية كالعطف التفسيرى، وتبع فى هذا الاستعمال المشهور؛ لأنها وردت فى كلام الناس بمعنى الاستحياء، فأريد به لازم معناه وهى المهابة. وتحقيقه كما فى شرح «أدب الكاتب» لابن السيد: أن الحشمة تضعها الناس موضع الاستحياء. وعليه قول المتنبى:

ضيف ألم برأسى غير محتشم

وليس كذلك إنما الغضب، يقال: هذا مما يحتشمه أى يغضبه، وهذا قول الأصمعى وهو المشهور، وذكر غيره أنها تكون بمعنى الاستحياء. وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال: طاعم حشمة. وقال الطرماخ<sup>(١)</sup>:

ورأيت الشريف فى أعين النا س وضيعاً وقل منه احتشامى

انتهى.

(فى القلوب والعظمة) معطوف على الحشمة (قبل النبوة عند الجاهلية) أى عند أهل الجاهلية، والمراد ما بين المولد والمبعث، وتطلق على ما كان قبل البعثة. ومنه: ﴿وَلَا تَبْرَحْ تَبْرِجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣] وبه جزم النووى فى شرح مسلم. فإن أضيف للشخص أريد به ما قبل إسلامه، وقد يراد بها ما قبل فتح مكة. (وما بعدها) أى بعد النبوة (وهم يكذبونه ويؤذون أصحابه ويقصدون أذاه فى نفسه خفية) بضم الخاء وكسرهما كما قاله البرهان الحلبى، لأنه لمهابتة صلى الله تعالى عليه وسلم عندهم وعظمته فى قلوبهم لا يواجهونه بما يؤذونه، وهو منصوب مفعول مطلق لمذكور أو مقدر أو حال.

(حتى إذا واجههم أعظموا أمره وقضوا حاجته، وأخبراه فى ذلك معروفة سيأتى بعضها) وهذا بالنسبة لما فى نفس الأمر وأكثر الأحوال، كما روى عن أبى جهل، لعنه الله، أنه ساوم رجلاً من بنى زيد ثلاثة أبعره هى خير إبله بثلث ثمنها، فامتنع الناس من

(١) البيت من الخفيف، وهو فى شرح هاشميات الكميت (ص ٣٥)، لسان العرب (١٢/١٣٦)، تاج العروس (حشم).

الزيادة لأجله، فأخبره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك فزاده حتى رضى، فاشترأها منه ثم باع منها بعيرين بالثمن، ثم باع الثالث وأعطى ثمنه أرامل بنى عبد المطلب، وأبو جهل مخزى ينظره ولا يتكلم. ثم قال صلى الله تعالى عليه وسلم له: «إياك أن تعود لمثل ما صنعت بهذا الأعرابى فترى منى ما تكره». فقال: لا أعود يا محمد. فقال له أمية بن خلف: ذلك فى يد محمد، فقال: إن الذى رأيت منى لما رأيت معه لقد رأيت رجالا عن يمينه ويساره يشرعون رماحهم إلى لو خالفته لكانت إياها» أى لأهلكونى فى وقائع أخرى مثلها، وهذا لا ينافى أنهم فى بعض الأحيان قد آذوه صلى الله تعالى عليه وسلم جهرة، كوضعهم الجزور على ظهره الشريف وهو ساجد، وتكذيبهم له فى قصة الإسراء، وقول أبى جهل لأبى طالب عند موته: لا تطعه أترغب عن ملة عبد المطلب، وتحمل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أحيانا لذلك لحكمة تظهر بها غيره الله وأمره بمقاتلتهم.

(وقد كان ييهت) ثلاثى مبنى للفاعل أو المفعول بمعنى يتحير ويدهش، كما فى قوله تعالى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. (ويفرق لرؤيته) بالبناء للفاعل من باب علم أى يخاف. (من لم يره) فاعله. (كما روى عن قيلة) بفتح القاف وسكون المثناة التحتية ولام وهاء، وفى الصحاحيات من يقال له: قيلة ثلاث، قيلة أم بنى أنمار، ويقال: أخت بنى أنمار، وقيل: الخزاعية أم سباعة، وقيلة بنت مخزومة العنبرية، وقيل: العنزىة نسبة لعنزة بنون وزاء معجمه مفتوحتين، وقيلة الغنوية بفتح الغين المعجمة والنون كما قاله البرهان. والمراد قيلة بنت مخزومة وحديثها مذكور فى شمائل الترمذى، وفى سنن أبى داود، وأخرجه ابن سعد بتمامه كما قاله السيوطى، وهو: «أنها رأتة صلى الله تعالى عليه وسلم فى المسجد وهو قاعد القرفصاء، قالت: فلما رأيت متخشعا فى الجلسة أرعدت من الفرق» وهذا هو المراد، وإن اختلف بعض لفظه. وقال التجانى: هى ابنة مخزومة الغنوية أو العنزىة، ويقال: بل التميمية ولا تنافى بين الأخير وغيره، لأن العنبرية نسبة لبنى العنبر والعنبر أبو حى من تميم، كما أن العنزة حى من ربيعة بن نزار، وفى مثل هذه القصة وقعت لعمر رضى الله عنه وكان مهيبا.

وقوله: (أنها لما رأتة) صلى الله تعالى عليه وسلم (أرعدت) بضم الهمزة وسكون الراء وكسر العين وفتح الدال المهملات مبنى للمجهول، أى لحقتها عدة من الخوف. وقوله (من الفرق) بفتحتين وهو شدة الخوف وفى نسخة: «ارتعدت».

(فقال) صلى الله تعالى عليه وسلم لها: (يا مسكينة عليك السكينة) وصفها بالمسكنة ترحما لها، والسكينة هنا بمعنى الطمأنينة، أى الزمى الاطمئنان وعدم الخوف. والسكينة

ثبت في النسخ المعتمدة بالرفع على أنها مبتدأ وخبر، والجملة خبرية مراداً بها الأمر أى اسكنى، وبالنصب أى الزمى السكنية للإغراء، أو عليك اسم فعل بمعنى الزمى، ولم يثبت هنا ما قيل: «إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد» وبين سكنية ومسكنة تجنيس، ومسكين بكسر الميم على الأفصح وتفتح، وحق مسكنة أن لا تلحقها الهاء؛ لأن باب مفعيل ومفعال للمبالغة لا تلحقه التاء، لكنه حمل على فقيرة وسكنية بالفتح والتخفيف وقد تكسر وتشدد وتفتح وهو قليل جداً.

(وفي حديث أبي مسعود) رضى الله تعالى عنه، هو عقبة بن عمرو بن ثعلبة الخزرجى الصحابى رضى الله تعالى عنه البدرى كما فى البخارى. وقال ابن عبد البر رحمه الله تعالى: إنه لم يصح أنه شهد بدرا وإنما شهد العقبة الثانية وعليه الأكثر، وإنما سكنها فهو بدرى داراً لا حضوراً، وبهذا يحصل الجمع بين القولين. وروى عنه أيضاً أحمد وأصحاب السنن، ومات سنة أربعين أو إحدى وأربعين. وهذا الحديث رواه البيهقى من طريق قيس عنه موصولاً، وعن قيس مرسلًا، وقال: هو المحفوظ. وأخرج الحاكم مثله وصححه: (أن رجلاً قام بين يديه) صلى الله تعالى عليه وسلم (فأرعد) بضم الهمزة وكسر العين المهملة، أى أخذته رعدة من خوفه. وفى رواية: «أتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم برجل فكلمه فجعلت ترعد فرائضه». بالفاء والصاد المهملة كالفرائض بالمعجمة وهى لحمه بين الجنب والكف ترعد من الخائف. (فقال له: هون عليك فإنى لست بملك. الحديث) وتامه «وإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد» وهون بتشديد الواو المكسورة أمر من الهون وهو الأمر الهين السهل، والعرب تقول: هون عليك بمعنى لا تخف. قال<sup>(١)</sup>:

هون عليك فإن الأمور بكف الإله مقاديرها

ولا وجه لتفسيره «باقتصد فى المحبة ولا تبالغ فى التعظيم» وملك بفتح الميم وكسر اللام يجوز تسكينها. بمعنى السلطان، يعنى لست من الملوك الجبابرة حتى تخاف منى؛ لأن جبريل عليه السلام جاءه من الله وخيره بين أن يكون ملكاً نبياً وعبداً نبياً فاختار أن يكون عبداً نبياً ولم يرض بوصفه بالملك، وكذا الخلفاء الأربعة، وأول من ملك فى الإسلام معاوية رضى الله تعالى عنه، فلا وجه لقول بعضهم هنا أن هذا لا ينافى أنه ظهر ملكه وإن كان ملكه نبوة، فإنه لم يرد إلا نفى أنه ملك كسائر الملوك عند المخاطب. انتهى. وهذا الرجل لم يسمه أحد من شراح الحديث.

(١) البيت من المتقارب، وهو للأعور الشنى فى الدرر (١٣٩/٤)، شرح أبيات سيويه (٣٣٨/١)، شرح شواهد المغنى (٤٢٧/١)، الكتاب (٦٤/١).

(فأما عظيم قدره بالنبوة) أى وصفه قدر نبوته بالعظم؛ لأن النبوة مقربة له من الله وفيه من العظم ما لا يخفى. (وشريف منزلته بالرسالة) جعل منزلة رسالته شريفة لأنها واسطة بين الله تعالى وخلقه، وفى تأهيله لذلك دون غيره شرف له على من عداه وجعلها منزله لنزوله إليهم بتبليغه عن اتصاله بالملأ الأعلى. (وإنافة رتبته بالاصطفاء) الإنافة بالنون والفاء بمعنى الإعلاء والإشراف على ماتحته، والمراد بالاصطفاء ولايته وهى أقرب مقاماته من الله تعالى عز وجل لتمحيصها للطرف الأعلى، ولذا جعلها مرتبة لأنها من الرتب وهو العلو، والمرتبة كالمراقبة أعلى الجبل كما فى الصحاح فتفطن لتعبيره أولاً بالقدر، وثانياً بالمنزلة بالرتبة بمصادفة ذلك لمحزه، وفى نسخة بدل إنافة بالنون والموحدة. (والكرامة فى الدنيا) خصها لأنها محل ظهور أمره صلى الله تعالى عليه وسلم وإلا فذلك فى الآخرة مما لا شبهة فيه كما سيذكره. (فأمر هو مبلغ النهاية) أى ليس فوقه مرتبة أخرى يكون نهاية أى نهاية النهاية.

(ثم هو فى الآخرة سيد ولد آدم) عطفه بثم لتراخي زمانا، ومعنى ورتبة وهذا بعض من حديث البخارى وهو: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»<sup>(١)</sup>. وتقدم أن قوله: «ولا فخر» سقط من بعض نسخ الشفاء وثبت فى بعضها، قيل: وهو الأكثر الأولى لأنه هنا من كلام المصنف رحمه الله لا من كلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ومن أثبتة فهو حكاية كما قاله التلمسانى وفيه نظر، والمراد أنا أشرف هذا النوع آدم وولده لما ورد: «آدم ومن دونه تحت لوائى» ومر فى معنى قوله: «ولا فخر» أنه لم يذكره للافتخار ومدح نفسه، بل لبيان الواقع تحدثنا بنعمة الله تعالى، أو المراد أنى لا أفتخر بهذا فإن لى ما هو أعظم منه من المنزلة عند ربى، ولا حاجة للاستدلال عليه بـ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران: ١١٠] لأنه يلزم من تفضيل أمته على الأمم تفضيل نبيهم صلى الله تعالى عليه وسلم لأن أحر أعمامهم له.

(وعلى معنى هذا الفصل) المشتمل على أوصاف يمتدح بكثرتها ويتميز باستثنائه بها. (ونظمنا هذا القسم) الأول من الكتاب، أى جعلناه موضوعاً لبيان وهو المقصود منه بالذات، فجعل ما فيه كالعقد المحتوى على اللآلى والفرائد كناية، وأثبت له النظم تخيلاً، كما قيل: ولك أن تقول المراد بالفصل المشار إليه ما تضمنه قوله: فأما عظيم قدره إلى آخره.

(بأسره) أى جميعه، وأصل الأسر شد الأسير بما يربط به ويطلق على ما يربط به، فإذا قيل: خذ الأسير يرباطه فالمراد خذه بجميع ماله، ثم تجوز به عن معنى الجميع.

## فصل

(وأما الضرب الثالث فهو مختلف الحالات) جمع حالة والحالة تذكر وتؤنث، والغالب عليها التأنيث. (فى التمدح به) هو تفعل للكثرة أو بمعنى المجرد لا للتكلف. (والنفاخر بسببه) بين الناس (والفضيل) من الناس لصاحبه (لأجله) غاير بين العبارة تفننا وهربا من التكرار فى مقام إسهاب الخطابة. (ككثرة المال) ثم بين اختلاف الناس فيه فقال: (فصاحبه على الجملة) هذا كما يقال فى الجملة والمال أنه أحيانا لا فى كل حال. (معظم عند العامة) أى عوام الناس أو أكثر الناظرين للدنيا ووجه تعظيمه. (لاعتقادها توصله به إلى حاجته وتمكن أغراضه) مجرور معطوف على حاجته. (بسببه) أى المال (والا) أى وإن لم يكن ذلك أو إن لم يعتقد فيه ذلك، وجواب الشرط محذوف تقديره فلا يعظمه أحد وأقيم بسببه مقامه، وهو قوله: (فليس له فضيلة فى نفسه) ثم فسر ما أجمله فقال (فمتى كان المال بهذه الصورة) أى مصروفا فى هذه المصارف. (وصاحبه منفقا له فى مهماته ومهمات من اعتراه). مهملتين بينهما مثناة فوقية، أى من ورد عليه وقصده من الضيوف والإخوان وأرباب الحاجات، من عراه إذا غشيه ودخل عليه، كما قيل:

يا لهف نفسى على مال أجود به على المقيلين أرباب المروءات

(وأمله) أى رجاء ورجا إحسانه وإكرامه، ولو قرئ أم له بمعنى قصده صح، ولكن لا يساعده الرسم، كما قيل: من أم له يقال: ما أمله. (وتصريفه فى مواضعه) تصريفه مرفوع معطوف على المال، أى كان تصريفه فى مواضعه أى تصرفه واقع موقعه، ويصح عطفه على قوله صاحبه وهما سواء معنى، ويجوز جره عطفا على مهماته، وكذا ضبط بالقلم فى بعض النسخ، أى أن صاحبه منفقا له فى مهماته، وكذا ضبط بالقلم فى بعض النسخ، أى أن صاحبه منفقا له فى مهماته ومنفقا له فى تصريفه فى موضعه، لكن الأظهر على هذا أن يقول صرفه بدون تصريفه وتصريفه مضاف للفاعل، أى ضمير صاحبه وللمفعول أى ضمير ماله والأول أولى لقوله: (مشتريا به المعالى والثناء) الذكر الجميل (الحسن) فإنه حال منه أى حال كونه مشتريا بماله وتصريفه معالى الأمور وثناء الناس عليه، والمراد بالمعالى جمع معلاه وهى الجاه والرتب العالية. والثناء: الذكر الجميل كما علم، وذلك إنما يكون بصرفه وإعطائه لطالبه، فجعل تحصيل ذلك يخرجه بمنزلة اشتراء أمر نفيس، كما فى قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ عَلَىٰ تَحَرُّمٍ تُحِبُّكَ مِنَ عِلَالٍ أُلِيْمٍ﴾ [الصف: ١٠] ومثل هذه الاستعارة شائع فى الكلام القديم وغيره، وقوله الحسن صفة مؤكدة.

(والمنزلة من القلوب) أى كونه له مهابة وعظمة فى قلوب الناس؛ لأنها جبلت على حب من أحسن إليها، وهو منصوب معطوف على المعالى مفعول الحال. (كان فضيلة فى صاحبه عند أهل الدنيا) جواب متى المسبب عنه وقيد بقوله: عند أهل الدنيا، لأن نظرهم لهذا، فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون، لا لأنه ليس فضيلة عند الله كما توهم؛ لأنه إن اقترن بنية صالحة كان فضيلة عند الله أيضا.

(وإذا صرفه فى وجوه البر) أى إذا صرف المال فى أنواع الإحسان كالصدقة والهبة والهدية فالوجوه بمعنى الجهات، أو هو مستعار لما ذكر استعارة تصريحية أو مكنية. (وأنفقه فى سبيل الخير) أى فى طريقه كالحج والجهاد وصلة الرحم.

(وقصد بذلك) المذكور من الصرف والإنفاق أو المصروف والمنفق. (الله والدار الآخرة) أى قصد أن يكون ذلك لله وثواب الآخرة. (كان فضيلة) أى أمرا فاضلا محمودا. (عند الكل) أى كل الناس من أهل الدنيا أو غيرهم العامة والخاصة، ومر أن إدخال ال على كل وبعض منعه بعض النحاة ولم يسمع من العرب، إلا أن القياس لا يأباه (بكل حال) أى سواء اكتسب به المعالى والثناء أم لا.

(ومتى كان صاحبه ممسكا له) أى لا يصرفه فى مصارفه بل يخزئه لشحه به ومحبته له (غير موجهه وجوهه) أى غير صارف له فى مصارف من مهماته ووجوه الخير. (حريصا على جمعه عاد) أى رجع أو صار. (كثرة كالعدم) الكثر كالكثر معنى، وهو بضم الكاف وكسرهما، وظاهر كلام أهل اللغة جواز فتحها فهو مثلث ومثلثة ساكنة وهو المال الكثير، يقال: ماله قل ولا كثر، ومقابلته بالعدم أبلغ من مقابلته بالقليل، ولذا عدل عنه وإن كانت القلة تكون بمعنى العدم أيضا، وإنما كان كالعدم لعدم انتفاعه به فإنه خازن لغيره حارس لنعمته يستعجل الفقر الذى هرب منه، ويفوته الغنى الذى طلبه فيعيش عيش الفقراء ويحاسب عليه حساب الأغنياء، كما قيل وقد مر:

يغنى البخیل بجمع المال مدته وللحوادث والوارث ما يدع  
كدودة القز ما تبنيه يهلكها وغيرها بالذى تبنيه ينتفع

(وكان منقصة فى صاحبه) لزم الناس له ووصفه بالبخل والردالة قبحه عقلا وشرعا (ولم يقف على جدد السلامة) أى لم يحصل ما يسلم به من النقص والوبال والذم. والجدد: بفتح الجيم ودالين مهملتين أولاهما مفتوحة وهى الأرض الصلبة، وفى المثل: «من ملك الجدد أمن العشار». فالمراد به الطريق المسلوكة. وهكذا هو مضبوط فى النسخ وارتضاه اليرهان رحمه الله تعالى، فمن قال إنه وهم فقد وهم. وأما ضبط بعضهم

له بضم الجيم والبدال على أنه جمع جديد فلا وجه له. وفى بعض الحواشى أنه بضم الجيم وفتح الدال على أنه جمع جدة كمدة ومدد، أى طرق. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَلْجَبَالِ جُذُدٍ يَبُصُّ﴾ [فاطر: ٢٧] أى طرق وهو صحيح أيضا. ومنه ركب فلان جده فى الأمر أى رأى فيه رأيا ظاهرا ولم يقف فى أمر يوصله للسلامة وهو عدم الجمع، أو صرف ما جمعه فى مصارفه فعدل عن طريق السلامة فهلك، كما أشار إليه بقوله: (بل أوقعه) ماله الذى جمعه وبخل به (فى هوة) بضم الهاء وتشديد الواو وهى الأهوية الحفرة العميقة وهو مضاف لقوله:

(رديلة البخل) أى أوقعه فى وهدة دنائته وخسته التى حفرها لنفسه، وفيه استعارة مكنية وتخييلية كالذى قبله، فشبه السباحة بطريق يسلم سالكها ويأمن من كل عثرة، وشبه ضده بحفرة يقع فيها من أتاها.

(ومذمة الندالة) هى بالنون والذال المعجمة الدناءة والخسة وهو معطوف على رديلة، ففيها الاستعارة السالفة، أو على هوة وهذه من آفات المال المقابلة لمحاسنه السالفة الدالة على أنه فى نفسه ليس ممدوحا، وإنما بما يكسب به كما بينه بقوله:

(فإذن التمدح بالمال وفضيلته عند مفضله) أى عند مدحه ومدح صاحبه. ومفضله بكسر الضاد المشددة وفتحها (ليست ثقة) من حيث هى (وإنما هو) أى التمدح به (بالتوصل به إلى غيره) من الثناء الجميل والأجر الجزيل، وهو إنما يكون ببذله (وتصريفه فى متصرفاته) وفى الحديث: «يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنت، أو لبست فأبليت». فمن لم يتوصل بماله لما ذكر ولم ينتفع به كمن لا مال له. قال أبو العتاهية:

إذا المرء لم يعتق من المال نفسه    تملكه المال الذى هو مالكة  
ألا إنما مالى الذى هو منفق    وليس لى المال الذى أنا تاركة

(فجامعه إذا لم يضعه مواضعه) بصرفه فى مهماته ومهمات من أمله (ولا وجهه وجوهه) من أنواع البر وسبل الخير، ويحتمل التعميم فى كل منهما. (غير ملئ) أى غير غنى، يقال: ملأ ملاءة وملاء بالمد إذا استغنى. (بالحقيقة) أى فى نفس الأمر؛ لأن الغناء هو المغنى لصاحبه عما سواه وهو محتاج لماله ولغيره فى اكتسابه. وقد قال الحكماء: الغنى هو الذى لا يحتاج فى ذاته وكماله إلى شىء (ولا غنى بالمعنى) المقصود منه وهو كفاية المهمات، واكتساب المحمدات، فكأنه فقير، (ولا متمدح به) بفتح الدال (عند أحد من العقلاء) بالجر معطوف على ملئ أى من كمل عقله لا يمدح. بمثله (بل هو فقير

أبدًا غير وأصل إلى غرض من أغراضه)

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر  
وكونه لم يصل لغرضه لعدم إنفاقه وكسبه به ما يريد، كما أشار إليه بقوله: (إذ ما  
بيده) أى فى ملكه وتصرفه. (ومن المال الموصل لها) بكسر الصاد مخففة ومشددة أى  
أغراضه. (لم يسلط عليه) بالتشديد والبناء للمجهول أى لم يرزقه الله تعالى ويقدر له  
الإنفاق منه فى أغراضه. (فأشبهه خازن مال غيره) فى حراسة المال وعدم قدرته على  
الإنفاق منه. (ولا مال له) جملة حالية من خازن (فكانه) أى صاحب المال (ليس فى يده  
شئ منه) كما قيل:

إذا كنت جماعا لمالك ممسكاً فأنت عليه خازن وأمين  
تؤديه مذموماً إلى غير حامد فليأكله عفواً وأنت دفين  
ولحمود الوراق:

تمتع بمالك قبل المات وإلا فلا مال إن أنت متا  
شقيت به ثم خلفته لغيرك بعداً وسحقاً ومقتا  
فجادوا عليك بزور البكاء وجدت عليهم بما قد جمعنا  
وأرهمتم كل ما فى يديك وخلوك رهناً بما قد كسبتا

(والمنفق ملئ غنى بتحصيله فوائد المال وإن لم يبق فى يده من المال شئ) فالممسك  
كما أنه فقير بالقوة فكذا المنفق غنى بالقوة، لأن له خلفاً من الله بمنزلة الحاصل عنده،  
كما قيل:

وإنى لأرجو الله حتى كأنتى أرى بحميل الظن ما الله صانع

وهذا كله توطئة لبيان أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالنسبة للمال عدماً  
ووجوداً، كما قال: (فانظر سيرة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم) أى طريقته وهديه.  
(وخلقه) بضمين أو ضم فسكون. (فى المال) أى فى شأن المال وماله بالنسبة إليه (تجده  
قد أوتى خزائن الأرض ومفاتيح البلاد) أى آتاه الله تعالى ذلك، كما ورد فى الحديث  
الصحيح: «بينما أنا نائم أوتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت فى يدي»<sup>(١)</sup> وفى كتاب  
الوفاء عن جابر رضى الله تعالى عنه مسنداً قال: سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه  
وسلم يقول: «أتيت بمقاليد الدنيا على فرس أبلق عليه قطيفة من سندس»<sup>(٢)</sup> وإليه أشار

(١) أخرجه البخارى (٥٢٣/٧)، وأحمد (٤٥٥/٢)، والبيهقى (١٧٥/٨).

(٢) أورده الذهبى فى الميزان (٢٠٦)، والمنذرى فى الترغيب (١٩٧/٤).



الصرصرى رحمه الله تعالى بقوله:

بعثت مقاليد الكنوز جميعها تهدى إليه على سرة حصان  
جعلت عليه قطيفة من سندس فله استقام الزهد عن إمكان

ومثله ثابت من طرق عديدة، وهذا يدل على أن الله تعالى أعطاه ذلك حقيقة. وخزائن الأرض: دفائنها ومعادنها بأن يطلعه الله عليها ويجعل الملائكة الموكلين بها طوع يده، فإن السلطان خزينته بيد خازنها حاضر مطيع لديه، فهذا معنى كونها فى يده عرفا. وأما المفاتيح فإن كانت بمعنى الخزائن فكذلك، وإن كانت جمع مفتاح أو مفتاح بمعنى آلة الفتح فإعطائها إرسالها كما هو ظاهر الحديث السابق، وقيل: إنه كناية عن فتح البلاد على أمته وجباية أموالها لهم. والمفتاح روى فى الصحيح بدون ياء جمع مفتاح، وروى بياء فى كلام المصنف جمع مفتاح، والأول أفصح.

كما قيل: (وأحلت له الغنائم ولم تحل لنبى قبله) الغنيمة: ما يؤخذ من الكفار وكذا الفىء، وفرق الفقهاء بينهما بأن الفىء ما يحصل بلا قتال ولا إيجاب خيل ولا ركاب كسرقة وهبة. والغنيمة ما حصل بقتال ولو قبله أو بعده، وقد يستعمل كل منهما لما يعم الآخر كما نحن فيه، وكان قبل ذلك كل ما يحصل من أهل الحرب كالمقرب من الذبائح تنزل نار من السماء فتحرقه إن قبل.

فإن قلت: كيف هذا وقد كان لسليمان وداود عليهما الصلاة والسلام سرارى، ولا شك أنها تحصل من أهل الحرب غنيمة حتى تملك؟

قلت: قالوا: إن الذى كانت تأكله النار سهام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دون سهام الأمة وقرابينهم، فكانت تحل لهم فإذا اشترى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كداود عليه الصلاة والسلام من أمته شيئا منها كان له. ذكره ابن الجوزى رحمه الله فى الوفاء.

(وفتح عليه فى حياته بلاد الحجاز) الحجاز بمعنى الحجاز وسميت بها لأنها تحجز بين نجد وتهامة، أو بين اليمن والشام، وهى مكة والمدينة والطائف واليمامة وقراها وخير وطرقها الممتدة بينها. وقيل: غير ذلك، وقيل: المدينة نصفها حجازى ونصفها تهامى. (واليمن) وهو معروف وسمى به؛ لأنه عن يمين الكعبة؛ أو لأنه عن يمين الشمس (وجميع جزيرة العرب) الجزيرة: فعيلة من جزر الماء وهو انكشافه ورجوعه ضد المد، وجزيرة العرب ما بين أقصى عدن إلى ريف العراق طولاً، ومن جدة وما والاها إلى أطراف الشام عرضاً عند الأصمعى. ومن حفر أبى موسى إلى أقصى اليمن طولاً، ومن رمل

قبرس إلى منقطع السماوة عند أبي عبيد. وقال مالك: هي الحجاز، واليمن، واليمامة وما لم يبلغه، ملك فارس والروم. أقوال أخرى: وسميت جزيرة لأن بحر فارس وبحر الحبشة ودجلة والفرات أحاطت بها. (وما داني ذلك) أى قرب منه أو من جزيرة العرب فتذكيره باعتبار المكان ونحوه

(من الشام والعراق) أما الشام فبهزمة وتبدل ألفاء، وقد تمد همزته فيقال: شام. وبعضهم أبى هذا ويذكر ويؤنث كغيره من أسماء البلدان، وينسب إليه شامى بهزمة وألف، وشامى بالتخفيف والتشديد كيما، فيقال: امرأة شامة وشامية مخففاً، ووجه تسميتها بذلك أنها من شمال الكعبة، أو لأنه يشأم بها قوم، أو باسم صاحبها وهو سام ابن نوح عليه الصلاة والسلام، فعربت بإبدالها شينا معجمة وأنكر بعضهم هذا، وقال: إنه لم ينزلها سام قط، وإنما سميت بها لأن في أرضها شامات حمراء وسود وبيض. وحده من العريش إلى الفرات، أو إلى نابلس طولاً. وعرضه من جبل أجاد سلمى إلى بحر الروم وما يسامته، وقد دخله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إلا أنه لم يدخل دمشق. وقيل: دخل الشام عشرة آلاف عين رأت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم. وأما العراق: فهو إقليم معروف، وهو عراق العرب وفيه مدن عظيمة وقرى، وطوله من تكريت إلى عبادان وهي قرية، ولذا قيل في المثل: ما وراء عبادان قرية. وعرضه من القادسية إلى حلوان ودجلة. حده جانبها الأيمن العراق واليسار لفارس. وأما عراق العجم وهو إقليم خراسان. ولفظ العراق عربى، وقيل: إنه معرب إيران وفيه كلام ليس هذا محله. واليمن فتحها على رضى الله تعالى عنه فى سنة عشر من الهجرة. والشام فتح منها دومة الجندل فتحها عبد الرحمن، والعراق فتح منها البحرين وقدم أهلها على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على ما فصل فى السير والتواريخ، ومن لم يقف على هذا قال إنها إنما فتحت فى زمن أبى بكر رضى الله تعالى عنه، لكن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أوتى مفاتيحها ووعد بفتحها.

(وجلبت إليه) بالبناء للمفعول نائب فاعله ما لا يجبى الآتى وأثنه باعتبار المعنى وهو الأموال. (من أخماسها) أى غنائمها لأن الغنائم تجعل خمسة أجزاء؛ خمس للإمام وأربعة أخماس للجند. أو المراد نفس الخمس لأنه الذى يختص به. (وجزيتها) بكسر فسكون وهو ما يؤخذ من الكفار من الخراج على الرؤوس، سمى بها إما لأنها تجزى أو من المجازاة أو من الأجزاء بمعنى الكفاية. وقيل: إنها معرب كزيت وأحكامها تفصيلاً فى كتب الفقه. (وصدقاتها) المراد ما كان يؤخذ من الزكاة كبيت المال، لأنه يسمى صدقة. (مالاً يجبى) أى يجمع يقال: جباه إذا جمعه (للملوك إلا بعضه وهادته) أى أهدت إليه

صلى الله تعالى عليه وسلم وليس المراد المفاعلة.

(ملوك الإقليم) المتقدمون قسموا الأرض سبعة أقسام، سمو كل قسم منها إقليما كما يعلم من علم مساحة الأرض المسمى جغرافيا، وحد كل إقليم وما فيه من البلدان مفصل فى كتب الهيئة والمساحة. قيل: المصنف أراد بالأقاليم النواحي والبلدان وإن كانت من إقليم واحد أو إقليمين من السبعة بطريق المجاز، وهو بهذا المعنى مستعمل أيضا كما يقال: أقاليم مصر فسموا كل ناحية منها إقليما.

والهدية: ما يبعث بلا عوض إلى المهدي إليه إكراما. وقال السبكي: الإكرام ليس شرطا فيها وإنما الشرط كونها من المنقولات، فلا يقال العقار هدية فهى أخص من الهبة. والظاهر أن قيد الإكرام بناء على الظاهر فرقا بينها وبين الصدقة، ومن هاداه صلى الله تعالى عليه وسلم المقوقس ملك القبط، أهدى له جاريتين وكسوة وبغلة بيضاء وهى الدلدل. وهاده فروة بن عمرو الجذامى عامل قيصر بعد ما تبرع بالإسلام وأهدى له بغلة بيضاء تسمى فضة وفرسا وأثوابا وقباء من سندس، ولما بلغ ذلك قيصر حبسه مدة طويلة ثم أرسل يقول له: ارجع لدينك أطلقك وأعيد لك ملكك فأبى، وقال: لا أفارق دينه وإنك لتعلم أنه حق ولكن ضننت بملكك فقال: صدق والإنجيل. ومنهم أكيدر دومة الجندل كما فى البخارى والتجاني.

وأما هدايا غير الملوك التى كانت تصل مع الوفود فكثيرة لا تحصى كما يعلم من السير، وأهدى له الرهبان أيضا كراهب نجران، ولا منافاة بين قبوله هدية من لم يسلم منهم كالقوقس والنجرانى ورده بعض هدايا المشركين، وقوله: «إنا لا نقبل زبد المشركين» أى عطيتهم، لأنه كان يقبل الهدية ممن يرجو إسلامه استيلافا له، لما فيه من المصلحة للمسلمين ويرد هدية غيره، أو ذاك خاص بالمشركين ومن قبل منه أهل الكتاب فيقبل، كما تؤكل أطعمتهم وذبائحهم. وقيل: إن عدم القبول منسوخ بأحاديث القبول لا العكس على الأرجح، ثم إن قبول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الهدية مع أنه لا يجوز لغيره من الحكام من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم لانتفاء التهمة فى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم رد ما أهدى له خاصة دون ما أهدى للصحابة.

(فما استأثر بشيء منه) أى ما اختص به صلى الله تعالى عليه وسلم دون أصحابه لرؤيته أنه أحق كما يفعله الملوك فيما يليق بها وهو استفعال من الأثر، وهى المكرمة والخصوصية كما قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَكَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ [الحشر: ٩].

(ولا أمسك منه درهما) أى لم يبق لنفسه منه شيئا ولم يجعله عنده أو فى يده. (بل صرفه) فى (مصارفه) بإعطائه لمن يستحقه وفى وجوه الخيرات. (وأغنى به غيره) من الجند والمؤلفة قلوبهم فكان صلى الله تعالى عليه وسلم يعطى عطاء من لا يخاف الفقر.

(وقوى به المسلمين) بصرفه فى مهماتهم وفيما ينصرهم على أعدائهم. (وقال) أى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث صحيح رواه الشيخان مسندا عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه: (ما يسرنى) أى يجعلنى فى سرور وفرح (أن لى أحدا ذهباً) أى مثل أحد أو نفس أحد يكون ملكا لى وهو ذهب حقيقة، وقوله: ذهباً تميز أى من ذهب واحد بضمين وقد تسكن حاؤه اسم جبل معروف قريب من المدينة، سعى به لتوحده وانقطاعه عما هناك من الجبال. وقال صلى الله تعالى عليه وسلم فيه: «أحد جبل يحبنا ونحبه».

(يبىث عندى منه دينار إلا دينارا أرصده لدينى) وقد روى هذا الحديث بروايات مختلفة اللفظ متقاربة المعنى، ففى الصحيح: «تأتى على ثالثة وعندي منه دينار أو أمسى ثالثة وعندي منه دينار» وروى: «تحول ذهباً ويصير ذهباً». وإلا دينارا روى بالرفع والنصب وأرصده بفتح الهمزة وضم الصاد، ويجوز ضم الهمزة وكسر الصاد المهملة لأنه يقال: رصده وأرصده بمعنى أعدده للخير أو الشر. وقيل: رصده بمعنى راقبته. وأرصده بمعنى أعدده وهو المشهور، وقوله: «لدينى» بفتح الدال المهملة وسكون المثناة التحتية والنون. وإرصاده للدين إما لأن صاحبه غائب أو لأنه لم يحل أجله، وفيه دليل على جواز الاستقراض، وأنه لا ينبغي أن يكون المرء مستغرقا فى الدين حتى لا يجد له وفاء. وبقيّة الحديث فى الصحيحين وشروحهما، فإن أردته فانظره. وفى بعض النسخ هنا زيادة من إلحاق المصنف وهى:

(وأنته صلى الله تعالى عليه وسلم دنائير مرة فقسمها وبقيت منها ستة فدفعها لبعض نسائه فلم يأخذه نوم حتى قام وقسمها وقال: الآن استرحت) انتهى. وقوله: «دفعها» روى رفعها بالراء. قال السيوطى رحمه الله تعالى: هذا الحديث روته ابنة سعد عن عائشة رضى الله تعالى عنها بهذا اللفظ، وفى الشرح الجديد لم أقف عليه إلا أن له نظائر أوردها. وكانت هذه الدنانير جاءت من الصدقة، وإنما لم يأخذه صلى الله تعالى عليه وسلم النوم لخوفه أن يفجأه الأجل قبل تفريقها، فانظر هذا مع أنه غفر له صلى الله تعالى عليه وسلم ما تقدم من ذنبه وما تأخر بعدما عصمه الله تعالى، مع أشقياء هذا الزمان وصرفهم بيت المال فى هوى أنفسهم قاتلهم الله أنى يؤفكون. ومات صلى الله تعالى عليه وسلم ودرعه مرهونة فى نفقة عياله، جمع عيل وهو من تلزمه مؤنته، والدرع

مؤنثة وهى الزردية، وكان له صلى الله تعالى عليه وسلم عدة أدراع ذات الفضول، سميت بها لطولها أهداها له سعد بن عبادة رضى الله تعالى عنه لما خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لبدر، وذات الخواشى ودرعان أصابهما من بنى قينقاع السغدية وفضة، ويقال: إن السغدية كانت درع داود عليه الصلاة والسلام التى لبسها لقتال جالوت، والبتز، والحريق، فهذه سبع. وقال ابن الأثير رحمه الله تعالى فى مادة س ب ع: درع البتز ذات السبع لتماها وسعتها، فيحتمل واحدة مما ذكر أو غيرها فتكون ثمانية. وقال ابن الجوزى: إن التى رهنها صلى الله تعالى عليه وسلم هى ذات الفضول، ورهنها عند يهودى يسمى أبا الشحم كما وقع فى كتب فقه الشافعية، ووقع فى كلام بعض تسميته بأبى شحمة والمعروف الأول. والسغدية لم يتعرضوا لحركة سينها المهمة ويجوز فتحها وضمها والمشهور الثانى، وهى بعين معجمة منسوبة للسغد وهو جبل معروف. وقال مغلطاي: إنها بعين مهملة. وفى معرب الجوالقى أنه بالسین والصاد؛ لأنه قياس فى كل سين معها حرف استعلاء، قال شقيق الأسدى:

وخافت من جبال السغد نفسى

وذكر مغلطاي أيضا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان له مغفر يسمى السبع، والحديث المذكور فى صحيح مسلم مسنداً عن عائشة رضى الله تعالى عنها: «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم اشترى من يهودى طعاماً نسئة فأعطاه درعاً رهناً» وفى رواية: «فرهنه صلى الله تعالى عليه وسلم درعاً له من حديد» ورواه البخارى أيضاً بزيادة ثلاثين صاعاً من شعير. ومنه علم جواز معاملة الكفار مع أن كسبهم لا يخلو من خبث، وجواز الرهن على الثمن المؤجل وإدخال القوت خلافاً لرفر. وقال المصنف رحمه الله تعالى فى شرح مسلم: إنه مكروه عند مالك وأحمد، وأجمعوا على أنه يجوز معاملة أهل الذمة وغيرهم إلا فى آلات الحرب وما يستعان به عليه. وقال الحنفية: يكره بيع السلاح والكراع من أهل الحرب وتجهيزه إليهم قبل المودعة وبعدها. وأما رهنه فإنه خشى التقوى به علينا فهو كالبيع، فما فعله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إما لأن اليهودى لم يكن من أهل الحرب، أو لأنه كان بين أظهر المسلمين فلا يخشى تقويه به، وفى رواية: أن تلك الدرع رهن فى عشرين صاعاً، وفى أخرى: أربعين. وفى رواية: «وسق شعير» والأجل: سنة فحل الأجل قبل الأجل، ومن ثم قيل: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم افتكه قبل موته لخبر: «نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه»<sup>(١)</sup> وهو

(١) أخرجه الترمذى (١٠٧٨، ١٠٧٩)، وابن ماجه (٢٤١٣)، والحاكم (٢٦/٢)، وأحمد

(٤٤٠/٢، ٤٧٥)، والدارمى (٢٦٢/٢)، والبيهقى (٦١/٤).

صلى الله تعالى عليه وسلم منزّه عن ذلك، والأصح خلافه كما اقتضاه كلام المصنف، ولقول ابن عباس: «توفى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودى». والخبر محمول على غير الأنبياء، وجمع بين الروايات السابقة بتعدد الواقعة وكان موسرا، وقد تعسر لإنفاقه جميع ما عنده ولا يعلم أحد بذلك، إذ لو علم الصحابة ذلك واسوه صلى الله تعالى عليه وسلم بجميع أمواهم كما كانوا يواسونه بأرواحهم، ولكنه يكتمه ويصبر تلذذا بالرضى بما قسم. وفى قوله: «فى نفقة عياله» للتعليل.

(واقصر من نفقته و ملبسه ومسكنه على ما تدعو ضرورته إليه وزهد) بصيغة الماضى معطوف على اقصر. (فيما سواه) أى ما سوى مقدار الضرورة. ووقع فى بعض النسخ: «زهده» بصيغة المصدر المضاف للضمير وهو مرفوع عطفا على ضرورته، أو مجرور بالعطف على مجرور إلى من غير إعادة الجار، والنسخة الأولى أوضح.

(وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يلبس ما وجدّه) حاضرا عنده من غير تكلف. (فلبس فى الغالب الشملة) وهى كساء يشتمل به، وقيل: يختص بماله هذب. وقال ابن دريد: هو كساء يؤتزر به وهى البردة، وأما تسمية العوام ما يلف على الرأس شملة فلا أصل له.

(والكساء الخشن) أى الكسوة الملبوسة والكساء قريب من البرد وخشن بزنة حذر ضد اللين والرقيق. (والبرد الغليظ) البرد بضم أوله ثوب فيه خطوط ومطلق الثوب، ثم أشار إلى أن هذا ليس من عجزه صلى الله تعالى عليه وسلم عن فاخر الألبسة، بل لعدم ميله لها فقال: (ويقسم) مما عنده من الغنائم والهدايا. (على من حضر عنده أقبية الديداج المخصوصة بالذهب) الأقبية: جمع قبا وهو المخيط من اللباس، والديداج نوع من أقبية الحرير، معرب ديبا بالبدال المهملة فيهما بكسر داله وقد تفتح، والمخصوصة بضم الميم وفتح الحاء المعجمة وتشديد الواو يليها صاد مهملة وهاء أى منسوخة بأعلام من ذهب كالخوص، وفعل يأتى للتشبيه كثيرا فلا وجه لإنكارهم، مسرج بمعنى كالسراج فى كتب المعانى، وقيل: فهو المكفوف بالذهب أو المطوق أو المزور به، أما نفقته صلى الله تعالى عليه وسلم فى مأكله فكان التمر والماء وحده، فكان يمضى عليه الشهر لا توقد فى بيته نار، وهو يقول: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا أو كفافا». ولبسه فى الأكثر أكسية الصوف الغليظة الخلقة مع أنه لبس ثياب الكنان والقطن أيضا حسبما اتفق له، وكان له صلى الله تعالى عليه وسلم حلة حمراء وبرد أحمر يلبسه فى العيدين، وعند قدوم الوفود عليه، وكانت له صلى الله تعالى عليه وسلم جبة ضيقة الكمين، وكان أحب اللباس إليه القميص القصير الكمين فوق الكعبين مساو كمه لأطراف

أصابه، وكانت عمامته قصيرة صغيرة كما بيناه فى «الثمامة فى صفة العمامة»، وكان له صلى الله تعالى عليه وسلم قلنسوة وقسمته صلى الله تعالى عليه وسلم ما ذكر مروية فى البخارى، وهذا إما أن يكون قبل تحريم الحرير والذهب، أو كان يقسمه لبياع، أو يعطى ذلك للنساء.

(ويرفع لمن لم يحضر): يرفعها من مجلسه حتى يعطيها لمن لم يحضر القسمة، وهو إشارة لقصة مخزومة التى رواها الشيخان عن مسرور بن مخزومة قال: قال لى أبى: يا مسور بلغنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم جاءته أقبية فاذهب بنا إليه، فذهبنا فوجدناه فى منزله، فقال: ادعه لى فأعظمت ذلك، فقال: يا بنى إنه ليس بجبار، فدعوته صلى الله تعالى عليه وسلم فخرج ومعه قباء من ديباج مزور بالذهب، فقال: «يا مخزومة خبأت لك هذا»<sup>(١)</sup> فجعل صلى الله تعالى عليه وسلم يريه محاسنه، ثم أعطاه له فنظر إليه وقد رضى. وكان فيه شدة واستثار.

(إذ المباهاة) أى إظهار الفخر باللباس والعجب به والتزين، وأصل معنى المباهاة المفاخرة فنزل ذلك بمنزلتها (فى الملابس) جمع ملبس وهو واللباس بمعنى. (والتزين بها) أى إظهار الزينة بالملابس. (ليست من خصال الشرف والجلالة) أى المغالات فى ذلك وإظهاره ليس مما يعد شرفاً ولا مما يقصده الأشراف. وقال الفقهاء رضى الله تعالى عنهم: ليس الثوب الجميل للتزين مباح فى الجمع والأعياد ومجامع الناس، وما يستر العورة ويدفع الحر والبرد واجب، وما فيه جمال لصاحبه مسنون بشرط أن لا ينوى به العظمة والزينة، بل إظهار نعمة الله وتعظيم من يجتمع لملاقاته. وقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم يفعله، وقلت فى ذلك:

نصيحة لطيفة — قالت بها الأكياس  
كل ما اشتهيت والبس ما تشتهيه الناس

(و) إنما (هى من صفات النساء) أى والمباهات والتزين إنما يقصده النساء ومن فى حكمهم كالأطفال، وأكثر ما رأينا ذلك فى محدث النعمة ومن لا قدر له. (والحمود منها) أى ما يحمد منها عند الله وعند الناس ومن صفات الملابس. (نقاوة الثوب) بفتح النون وضمها أى كونه نقياً من الوسخ والنجاسة، وهو مصدر ويهمز فيقال نقاء بمعنى نقاء، و فى البستان: يستحب للرجل الذى له مروءة وعلم أن تكون ثيابه نقية من غير كبر. ورأى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رجلاً وسخت ثيابه فقال: «أما وجد هذا

شيئا ينقى ثيابه»<sup>(١)</sup>. وقال أيضا: «ما على الرجل خرج أن يتخذ ثوبين سوى ثوبى مهنته»<sup>(٢)</sup>. وفى المثل: «المروءة الظاهرة فى الثياب الطاهرة». وقال البرهان: النقاوة بضم النون الخيار والظاهر هنا فتحها وهى النظافة كالنقاء بزنة السخاء.

(والتوسط فى جنسه) أى المحمود فى اللباس استعمال الوسط منه، فلا يكون نفيسا جدا ولا خسيسا. (وكونه لبس مثله) بضم اللام بمعنى اللازم أى كونه مما يلبسه أمثاله من جنسه فينبغى أن يوافق أقرانه فى لباسه، فلا يخالفهم فيوقع الناس فى الفتنة. ونهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن الشترتين فى اللباس المرتفعة جدا والمنخفضة جدا. وقال مبارك الموصلى: أكثر الناس فى مدح الملابس وذمها، واللازم أن يلبس كل أحد على قدر حاله، فلا يلبس الغنى ما هو دون حاله، ولا الفقير ما هو فوق حاله، ولا يتزى العالم بزى الجاهل، ولا الجاهل بزى العالم. وعنه صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا يشبه الزى بالزى حتى يشبه القلب بالقلب»<sup>(٣)</sup> وإلى ما ذكرناه أشار بقوله: (غير مسقط لمروءة جنسه) أى مما يعد مسقطا لمروءة أمثاله.

(مما لا يؤدى إلى الشهرة فى الطرفين) أى غاية التعظيم وغاية الخسة فيكون بين بين، وخير الأمور أوسطها. والشهرة: اسم من الاشتهار وهو الظهور بين الناس لامتداد النظر لما لم يعهد. قال النووى: كانوا يكرهون الشترتين الثياب الجياد والثياب الرذلة إذ الأبصار تمتد إليهما جميعا، وبهذا ورد الحديث، فلبس المرقعات أمر مكروه شرعا، وربما يكون حراما إذا قصد إظهار الزهد للطلب كما تراه اليوم. وما نهى الشرع عنه كالحرير خارج مما نحن فيه، وأما توسيع الأكمام كما يفعله الفقهاء فمخالف للسنة كتكبير العمائم. وقد قال ابن الحاج: إنه مكروه وبدعة قبيحة وسرف وتضيع للمال. إلا أن ابن عبد السلام والسبكى قالا: إذا كان ذلك شعارا للعلماء يندب ليعرفوا فيسألوا ويطاعوا، فإذا كان كذلك فى نفس الأمر لا يسقط المروءة. وقال السبكى: إنه استنبطه من الآية فى نساء النبى: ﴿يَذَرِيْنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْفَىٰ أَنْ يَعْرِفَنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩] ومثله لباس الخضره للأشراف، فاختر علماء الشافعية أنه سنة وليس من الشهرة المنهى عنها لأهله. ولبس ثياب الفقراء مع القدرة على غيرها ليروج حاله عند الظلمة ويجعله مكتسبا له منهى عنه، وفى الحديث: «من لبس ثوب شهرة فى الدنيا

(١) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١٥٦/٣).

(٢) أخرجه أبو داود (١٠٧٨)، وابن ماجه (١٠٩٦)، وابن حبان (٥٦٨)، وابن خزيمة (١٧٦٥)، والبيهقى (٢٤٢/٣).

(٣) انظر: تذكرة الموضوعات (١٩٣)، وتنزيه الشريعة (٣١٢/٢).



ألبسه الله ثوب مذكى يوم القيامة»<sup>(١)</sup>. (وقد ذم الشرع ذلك) كما عرفته، وذلك إشارة إلى المباهاة فى الملابس والتزين بها.

(وغاية الفخر فيه عند الناس إنما يعود إلى الفخر بكثرة الموجودة ووفور الحال) يعنى أن كثرة المال والملابس عند العقلاء غير محمودة؛ لأنها مذمومة شرعاً غير مقصودة لذاتها. وأما العوام فيفتخرون بكثرتها وتعددتها، حتى رأينا بعض الحمقاء يلبس فى المجلس الواحد ألواناً من الثياب. والغاية: النهاية وأصلها غيبة بيائين أعلت أولاهما لتحصين الثانية بقاء التأنيث. وكثرة الموجود المراد به ما عنده من المال ونحوه. ووفور الحال المراد به قوة حاله وقدرته على ما لا يقدر عليه غيره، فالوفور على ظاهره أو بمعنى القوة.

(وكذلك التباهى) أى مثل التفاخر بما ذكر التفاخر (بجودة المسكن) أى حسنه بحسن بنائه وزخرفته وعلوه. والجودة: بفتح الجيم وجوز ضمها ابن رسلان وهو كذلك فى القاموس. (وسعة المنزل) لأنه مما يمتدح أهل الدنيا به، وقد قالوا: خير المنازل ما يسافر فيه النظر. وقد قالوا: الدار الضيقة العمى الأصغر. ثم اتبع ذلك بما يتبعه فقال: (وتكثير آلاته) آلات جمع آلة، والآلة ما يصنع به الأعمال كالقدوم للنجار، والإبرة للخياط. والمراد به هنا لوازمه كالفرش وأوانيّه.

(وخدمه) جمع خادم، وفعل بفتحيتين جمع سمع منه ألفاظ معدودة. (ومركوباته) كالخيول والبغال وغيرها، وإضافتها للمنزل لأدنى ملابس، أو لأنها فيه، فمثل هذه الأمور لا يفتخر بكثرتها إلا ذوو العقول السخيفة ومن له حرص على حطام الدنيا. (تنبيه) لا يكره البناء للحاجة وإن طال، والأخبار الدالة على منع ما زاد على سبعة أذرع، وأن فيه الوعيد الشديد محمولة على من فعل ذلك للخيلاء والتفاخر على الناس، ويكره الزيادة عليها لغير حاجة، أى من حيث القدر. وفى معناه على ما هو الظاهر ما لا تدعو الحاجة إليه من حيث الوصف، كأن يتخذ بيتاً من نحو العنبر والعود والدر. فإن قلت: يشكل ذلك بأن الظاهر أنه لا كراهة فى تناول نفس الأطعمة والملابس على ما تقدم؟.

قلت: يفرق بأن النفيس منهما قد ينفع البدن أو يحتاج إليه لمصلحة بخلاف المسكن، لأن كل ما زاد منه على ما يدفع نحو الحر والبرد لا مصلحة فيه للبدن، وهل تختص كراهة ما زاد على الحاجة بالبناء حتى لا يكره شراء ما زاد منه على الحاجة؟ فيه نظر.

(١) أخرجه أحمد (٩٢/٢)، وأبو داود (٤٠٢٩)، والترمذى (٣٥٦٠)، وابن ماجه (٣٦٠٧)، والحاكم (٥٠٧/١).

ولا يبعد عدم الفرق نظرا للمعنى، نبه عليه شيخنا ابن قاسم رحمه الله، ثم بين المصنف أن النبى حائز للفضيلة المالية أيضا، وواصل منها ما لم يصل إليه غيره، ولذا قالوا: لا يجوز أن يقال فى حق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه فقير على ما سيأتى فى آخر الكتاب.

(ومن ملك الأرض) بتمليك الله إياها له، فلو أراد ملكها من المشرق للمغرب يسره الله له فى طرفه عين، وقد خيره الله تعالى بين الملك والعبودية فاختار العبودية كما مر. (وجبى إليه ما فيها) أى جمع له ما فيها من الغنائم وجزيتها وصدقاتها مما فتح فى زمانه. (فترك ذلك) أى المال الجبى (زهذا وتنزها) أى لأجل الزهد والتنزه عن قبوله، والزهد هو الترك لأجل الله، فالزهد أخص من الترك وكلاهما مفعول لأجله، ويجوز جعلهما تمييزا والزهد الرغبة عن الدنيا مع القدرة عليها رغبة فى الآخرة، ولا يتصور ممن لا مال ولا جاه، وقيل لابن المبارك: يا زاهد. فقال: الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها، أما أنا ففيم زهدت حجة على. وهو من أعلى المقامات. وفى الحديث: «ازهد فى الدنيا يحبك الله» ويقال: زهد فيه وعنه.

وقوله: (فهو حائز) جواب من أو خيرها. وحائز: بالحاء المهملة والزاء المعجمة أى جامع ومحصل. (للفضيلة المال) أى من كان كذلك حاز فضيلة المال التى يفتخر بها أهل الدنيا وقادر على التمتع والتلذذ بها إلا أنه لا يريد ذلك.

(وملك للفخر بهذه الخصلة) المالية إلا أنه لا يفعله كأهل الدنيا. وقيل: المراد خصلة الزهد والتنزه وهذا هو الذى يلتم مع قوله: (أن كانت فضيلة زائدا عليها فى الفخر) أن بفتح الهمزة مفسرة بمعنى أى، كما قال التلمسانى رحمه الله تعالى، وهو تحقيق وإثبات للفضيلة التى حازها من الزهد والتنزه عن الدنيا الفانية. وكان تامة أو ناقصة والتقدير كانت تلك فضيلة زائدة على فضيلة المال، ولكن الظاهر أن يقول: زائدة وزائدا على هذا منصوب صفة. وقيل: إن صح نصبه فهو حال من فاعل حائز. وقال بعض الشراح: فيه دليل على عدم الجزم بكونها فضيلة، وفيه نظر إذ لا يتحقق الكرم بدونها قطعا، وهذا مبنى على أن إن شرطية مكسورة الهمزة، وهو مبنى على أن المراد بالخصلة المالية لا الزهد. وفى الشرح الجديد: ما ذكر من نصب زائدا على الحالية إن صحت روايته، فإنه فى بعض النسخ مرفوع ومعرق الآتى مرفوع فى جميع النسخ، وعندى أن نصب زائدا على أنه حال من فاعل ملك لا حائز، أى هو مالك للفخر بهذه الخصلة حال كونه زائدا عليها فى الفخر لعدم التفاته لها واكتراثه بها، فهو فى ملكها غير مساو لغيره ممن ملكها، وفخره بهذه الفضيلة على تقدير كونها فضيلة، ليس مساويا لفخر من افتخر

بها فقد ملكها حالة كونه زائدا على سائر ملاكها بإعراضه عنها، فزائدا وصف له صلى الله تعالى عليه وسلم والأولى أنه صفة مصدر هو مفعول مطلق لمالك، أى مالك ملكا زائدا على هذه الفضيلة بإعراضه عنها. انتهى. وهذا محصل ما فى جميع الشروح وقوله: «فى الفخر» متعلق بقوله زائدا.

وأقول: لا يخفى أن هذا كلام مظلم لا ينور به كلامه، وتحقيقه أن يقال: هو مبتدأ حائز خبره، ومالك معطوف عليه وإن مكسورة شرطية، وكانت ناقصة اسمها ضمير للفضيلة أو للمالية. وفضيلة: منصوب خبرها وقوله زائدا خبر ثالث، والخبر إذا تعدد يجوز عطف الجميع وترك عطفها وعطف بعضها دون بعض، كالصفات، وترك العطف فيه؛ لأنه ليس من جنس ما قبله؛ لأن الفضيلة الدنيوية ليست من جنس ما زاد عليها فى الفخر والفضيلة، لأن الأول أمر دنيوى لا فخر فيه باعتبار ذاته، بل باعتبار ما يترتب عليه إذا صرف فى وجوه الخيرات من الثواب ونصرة الدين، ولذلك أتى فيه بأن الشرطية؛ لأنه لكونه ذا وجهين إذ لا فضيلة له بحسب ذاته فيتزائى أنه لا فضيلة له أصلا، فإن نظر المال يترتب عليه فله فضيلة لكنها لكونها غير ذاتية، كأنها غير محققة أى هو زائد على تلك الفضيلة المالية فى فخره بالأمور الدنيوية لو أراد ما الزيادة ما يأتیه لو بقى على ما عند غيره، أو لكونه مكسبه طيبا ومصرفه فى محله، وفيه من الفوائد ما لا يتيسر لغيره. فحاصل المعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم حاز من الغنى وفضل المال والفخر به، وإن لم يعبأ به ما لم يحز بعضه غيره، ولذا قال بعض العرب كما سيأتى: إن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم يعطى عطاء من لا يخاف الفقر. وزاد غناه على غنى غيره فوائده لا تتيسر لغيره، ويجوز نصب زائدا على أنه حال من ضميره صلى الله تعالى عليه وسلم، وما مر من أنه لا يتحقق الكرم بدونه فكيف لا يكون فضيلة ليس بشىء، فإن المراد أنه ليس فيه فضيلة ذاتية وما ذكره لا ينفيه كما لا يخفى.

(ومعرق فى المدح) بضم الميم وسكون العين المهملة وكسر الراء المخففة وفتحها مع التخفيف والتشديد والأول هو القياس، من أعرق الرجل والشجر إذا اشتدت وامتدت عروقه، والمعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أصل فى الكرم والحسب. قال<sup>(١)</sup>:

أحمد يا خير ضنى كريمة فى قومها والفحل فحل مثرق

وقد يقال فى اللوم تهكما وعرق الثرى آدم. قال امرئ القيس:

(١) البيت من الكامل، وهو لقتيلة بنت النضر فى لسان العرب (١/١١٢)، تاج العروس (١/٣١٧)، وبلا نسبة فى جهرة اللغة (ص ١٠٧٨).

إلى عرق الثرى وشجت عروقى

وهو مرفوع معطوف على قوله زائد، فإن نصب نصب، يعنى أن الناس تتمدح بالمال بكثرة جمعه، وكذلك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم جمع له ما جمع لأهل الدنيا وهو زائد عليهم فى ذلك، وأصيل فى المدح بذلك لأنها لا قيمة لها عنده، كما أشار إليه بقوله: (ياضرا به عنها) أى بسبب إعراضه عن الجهة المالية (وزهد فى فائقها) بالفاء ومثناة تحتية ثم فوقية أى يزهد فيما هو فائت منها، أى ذاهب، كما قال تعالى: ﴿تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] وفى بعض النسخ فانيها بنون بعد الألف. (ويذهها) بموحدة وذال معجمة أى إعطائها.

(فى مضائها) من الضنة بالضاد المعجمة والنون، أى يجود صلى الله تعالى عليه وسلم فى محال تبخل فيها الناس. كذا ضبطه وفسره التلمسانى وهو فى غاية الحسن والظهور. وضبطه البرهان الحلبي بالطاء المشالة وعليه الرواية فى أكثر النسخ جمع مظنة بالكسر وهى الموضع الذى يظن كونها فيه، فالمعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم ييذهها فى محلها الذى يرجى فيه كمحال البر والصدقة.

\* \* \*

### (فصل وأما الخصال المكتسبة)

أى الصفات الحميدة التى ليست ضرورية ولا طبيعية (من الأخلاق الحميدة) من هنا تبعية أو بيانية (والآداب الشريفة) جمع أدب وهو الأفعال المستحسنة فى معاملة الناس ومخالطتهم. (التي اتفق جميع العقلاء على تفضيل صاحبها) أى من قامت به. (وتعظيم المتصف) واتصف بها. (بالخلق الواحد منها) أى بمدح بكل واحد منها منفرداً (فضلاً عما فوقه) أى عما زاد على الواحد منها، وفضلاً يفيد أن ما بعده أولى بالحكم مما قبله، كقولهم: فلان لا يملك درهماً فضلاً عن دينار. ولابن هشام فيه رسالة مستقلة فى بيان إعرابه ومعناه، وهى مشهورة إلا أنهم قالوا: إنها تلزم الوقوع بعد نفى صريح أو مأول، كقوله:

قلما يبقى على هذا القلق      صخرة صماء فضلاً عن رمق

لأن قل ورد بمعنى النفى لأن القلة أخت العدم، ولا يختص هذا بكونها مكفوفة كما قاله ابن هشام، والمصنف استعملها هنا فى الإثبات؛ لأن معنى الواحد الذى لا يتعدد فلا إشكال فى كلامه. (وأثنى الشرع على جميعها وأمر بها) فيدل الثناء عليها على حسنها والأمر على أنها مكتسبة، وإلا لم يكن للأمر بها فائدة. وفيه دليل على جواز تغير

الطباع وتبدلها. وقوله والطبع فى الإنسان لا يتغير مأل أو أكثرى. (ووعده للسعادة الدائمة) منصوب بنزع الخافض أى وعد بالسعادة أو هو مضمن معنى أعطى. (للمتخلق بها) أى الذى اتخذها خلقا واتصف بها إذا قصد بذلك وجه الله، وليس المراد المتكلف المتصنع بإظهار ما ليس فيه فإنه مذموم كما قيل<sup>(١)</sup>:

يا أيها المتحلى غير شيمته إن التخلق يأبى دونه الخلق

(ووصف بعضها بأنه من أجزاء النبوة) كما ورد فى الحديث: «السمت الحسن والتؤدة والاقتصاد جزء من أربع وعشرين جزءاً من النبوة». وورد فى حديث آخر: «إن الهدى الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمس وعشرين جزءاً من النبوة». وهذا هو الذى أشار إليه المصنف، أى هذه الخصال من شمائل الأنبياء وفضائلهم عليهم الصلاة والسلام، وليس معناه أن النبوة تتجزئ أو تكتسب بجمع هذه الخصال، لأنها كرامة يخص الله بها من يشاء من عباده.

(وهى المسماة بحسن الخلق) قيل: أطلق عليها خلقا لكونها ناشئة عنه، وإلا فحسن الخلق هيئة للنفس باعثة على الأفعال الحسنة والشيم الشريفة، وهنا أربعة أمور صدور الفعل الحسن، والقدرة عليه، ومعرفته، والهيئة الحاملة للنفس على صدور ذلك عنها. وليس حسن الخلق عبارة عن الأول لأن ذلك قد يصدر عنه تكلفا أو رياء ونحوه، ولا عن الثانى لأن تعلق القدرة بالسئ والحسن على السوية، ولا عن الثالث لذلك فتعين الرابع انتهى. وقيل: إن المصنف جعل الخصال الحميدة حسن خلق وجعلها مكتسبة، فإنها كسبية فى أول أمرها ثم يصير سجية وطبيعة وهو مبنى على الأصح من أن الأخلاق مكتسبة قابلة للتغير كما عليه المحققون. والخلق هيئة راسخة فى النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة، ثم أطال بما لا طائل تحته، والثمرة تدل على الشجرة فكن على بصيرة.

(وهو) أى حسن الخلق (الاعتدال فى قوى النفس وأوصافها) قوى جمع قوة وليست الشدة وضد الضعف كما توهم، بل الأمور المذكور فى الخلق كما يسمى المتخيلة قوة ونحوها من سائر القوى النفسية، واعتدال القوى أن لا تخرج إلى حد الإفراط والتفريط، فاعتدال قوة العقل يعبر عنه بالفطنة والكياسة، فإن مالت إلى الإفراط تسمى مكرا وخداعا، وإن مالت إلى التفريط تسمى بلها وحمقا. وكذا إذا اعتدل قوة الغضب تسمى شجاعة، فإن أفرطت فهى تهور، وإن مالت إلى التفريط تسمى جبنا، فطرفا كل قوة

(١) البيت من البسيط، وهو لسالم بن وابصة فى لسان العرب (١٠/٨٧)، تاج العروس

(٢٥/٢٦١)، شرح ديوان الحماسة (ص ٧١٠).

مذموم، والاعتدال هو الوسط المحمود، وهو المعبر عنه بحسن الخلق، كما أشار إليه بقوله:

(والتوسط فيها دون الميل إلى منحرف أطرافها) منحرف بكسر الراء من إضافة الصفة إلى موصوفها، أى أطرافها المنحرفة، والمنحرف بمعنى المائل والمراد بالأطراف ما بيناه، ويجوز فتح رائه على أنه مصدر ميمى بمعنى الانحراف والأول أولى.

(فجميعها) أى جميع الخصال الحميدة. (قد كانت خلق نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم) أنت ضمير جميع لاكتسابه التأنيث من المضاف إليه. (على الانتهاء فى كمالها) حال من ضمير كانت أى مستقرة تلك الأخلاق الحسنة على انتهاء الكمال بتشبيه تمكنها واستقرارها بتمكن الراكب على مركوبه، كما تقرر فى قوله تعالى: ﴿عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥].

(والاعتدال إلى غايتها) معطوف على كمالها، أى وصلت إلى غاية الاعتدال والسداد. (حتى) غاية للغاية (أئنى الله عليها بذلك فقال): ﴿وَأَنَّكَ لَتَكُنَّ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] أى مستقر ثابت على خلق يستعظمه كل واقف عليه لحسن مداراته، وتحمل أذى قومه وملاطفته لهم، كما تضمنه قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

(قالت عائشة رضى الله عنها: كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه) أى كان صلى الله تعالى عليه وسلم متمسكا بأوامره ونواهيه وما يشتمل عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب لا يتعداها، فيرضى بكل ما يرضى الله ويسخط بكل ما لا يرضاه كل ذلك لله لا لحظ نفسه. وقال السهروردي قدس الله روحه فى «عوارف المعارف»: فى كلام الصديقة بنت الصديق رضى الله تعالى عنهما سر غامض، وذلك أن النفوس البشرية مجبولة على طبائع وصفات شيطانية وبهيمية وسبعية، وإلى الأولى أشار بقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] لدخول النار فى الفخار. ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥] والله بعظيم عنايته نزع حظ الشيطان منه، كما ورد فى حديث شق صدره فبقيت نفسه الزكية على حد النفوس البشرية مبقاة فيها أمهات تلك الصفات، إلا أنها فى غيره ممتزجة بظلمة الطبائع لتفاوت حاله عن حالهم، فتتزل الآيات لقمعها تأديبا من الله لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم رحمة نجاسة به وعامة للأمة موزعة على الأوقات عند ظهور الصفات، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ إِنشَأْتَهُ بِرَبِّهِ فَوَدَّكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان: ٣٢] فثبت فؤاده بها عند ظهور بعض الصفات لارتباطه بنفسه، فعند كل اضطراب تنزل آية لمصالح سنية

كما وقع فى أحد إذ شج صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم»<sup>(١)</sup> فأنزل عليه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] فلبس قلبه لباس الاضطراب وفاء بعد الاضطراب إلى القرار، فلما توزعت الآيات على تلك الصفات بحسب الأوقات صفت الأخلاق النبوية بالقرآن، وفى إبقاء أمهات تلك الصفات تهذيب للأمة وتأديب لنفوسهم، ولا يبعد أن يقال فى كلامها رضى الله تعالى عنها رمز وإيماء خفى إلى الأخلاق الربانية، فاحتشمت أن تقول كان متخلقا بأخلاق الله، وعبرت بقولها: كان خلقه القرآن استحياء من سبحات الجلال وسترا للحال بلطيف المقال، ولوفور علمها وكمال أدبها رضى الله عنها. انتهى. ولا يخفى أن خلقه فى كلامها اسم كان والقرآن خبرها، وما قيل من أنه على العكس يضبط النسخ الصحيحة ويجوز بحسب العربية عكسه؛ لأنهما معرفتان لا وجه له، فإن خلقه صلى الله تعالى عليه وسلم معلوم والذى قصد إثباته إنما هو بيان حاله، وما تخلق به، وهذا مما اتفق عليه النحاة وأهل المعانى، فالوجه هو الأول. وهذا الحديث رواه البيهقى فى دلائل النبوة بتمامه، والسخط ضد الرضى وقد يقابل الرضى بالإكراه فله معنيان، وعليه مبنى الخلاف فى رضى الله تعالى بالكفر وعدمه كما فصلناه فى حواشى البيضاوى.

وقوله: (قال عليه الصلاة والسلام: بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) حديث صحيح رواه أحمد عن معاذ، والبزار عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه بهذا اللفظ. ورواه مالك فى الموطأ وغيره بغير هذا اللفظ. ومكارم الأخلاق كانت موجودة قبله لاسيما فى العرب فتممها صلى الله تعالى عليه وسلم بشريعته السمحة، وزاد فيها ما لم يسبق إليه وجمع ما تفرق منها فيه وفى أمته، فهذا على حقيقته وليس من قبيلى قولهم ضيق فم الركبة كما لا يخفى.

(قال أنس رضى الله تعالى عنه: «كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أحسن الناس خلقا») وهو حديث صحيح رواه الشيخان. وقال الحليمى: وصف خلق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، بأنه عظيم فى الآفة والغالب وصفه بالحسن كما فى هذا الحديث، لأن حسن الخلق وكرامة يراد به اللين والسماحة، ولم يكن خلقه مقصورا على ذلك، بل كان رحيمًا رؤفا بالمؤمنين عائدا على الكفار مهيبا فى صدورهم، فكان وصفه خلقه بالعظم أولى ليشمل الإنعام والانتقام، ولذا أردفه المصنف رحمه الله تعالى بحديث أنس خادم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم. وفى مسلم عنه: «خدمت النبى صلى الله

(١) أخرجه البخارى (١٢٧/٥)، ومسلم (١٧٩١/١٠٤)، وأحمد (٢٠٦/٣)، وابن ماجه (٤٠٢٧).

تعالى عليه وسلم عشر سنين والله ما قال لى أف قط».

(وعن على بن أبى طالب مثله) أى روى عن على كرم الله وجهه مثل ما قاله أنس رضى الله تعالى عنه كما ذكره أبو عبيد فى الغريب. (وكان) صلى الله تعالى عليه وسلم (فيما ذكره المحققون مجبولا) أى مخلوقا مطبوعا (عليها) أى على مكارم الأخلاق. (فى أصل خلقته وأول فطرته) التى فطره الله تعالى عليها، أى من غير تكلف ولا تعلم.

(ولم تحصل باكتساب ولا رياضة إلا بجود إلهى وخصوصية) بفتح الخاء وضمها (ربانية) منسوبة للرب على خلاف القياس. (وهكذا) أى مثل هذا من جمع مكارم الأخلاق فطرة ثبت (لسائر الأنبياء) عليهم الصلاة والسلام، أى لباقيهم أو لجميعهم أنهم مجبولون على مكارم الأخلاق وحسنها، وأما غيرهم فبعضها فيهم فطرة وجبلة وبعضها مكتسب، وأما الخلاف فى الأخلاق هل هى جبلية أو كسبية فليس هذا محله كما ذكره بعضهم، والحق أن بعضها جبلى وبعضها مكتسب، والجبلى: لا يقبل التغير والزوال كما سبق تفصيله، وفى قوله فيما ذكره المحققون إشعار بأن خلافهم ذهب إلى أنها كسبية فى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فيعلم حال غيرهم بالطريق الأولى، ولذا اعترض عليه بأنا لا نعلم خلافا فى ذلك، وخلط بعض الشراح هنا فأدخل نفس النبوة فى كلامه وجعل هذا إشارة إلى مذهب الحكماء فى أن النبوة تحصل بالرياضة والتصفية ولا حاجة لمثله من التكلف، فإن مراده الإشارة إلى الخلاف فى مطلق الأخلاق والفضائل النفسية كما ذكرنا فى كتب الأخلاق، وهو أشار من أن يذكر.

(ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقق ذلك) أى كونها خلقية جبلية، وإنما قيد بقوله: «(إلى مبعثهم)» لأن بعد البعثة ونزول الوحى لا يظهر كونه جبليا لتعليم الله تعالى له ذلك بأخبار ملائكته عليهم الصلاة والسلام، فلا تقوم الحجة على من يقول إنه جبلى حيثئذ، أما قبله فأمره ظاهر لا يشتبه.

(كما عرف من حال عيسى وموسى ويحيى وسليمان وغيرهم عليهم الصلاة والسلام) قيل: إنما خص هؤلاء بالتمثيل لما اشتمل عليه موسى وسليمان من الشهامة، ويحيى وعيسى من الانقطاع عن الخلق والسياحة، ولذا قدم عيسى على موسى وهو قبله، ويحيى على سليمان أو لذكره أخبار هؤلاء فى الطفولية، وهذا الثانى هو الحق فإن هؤلاء وقع منهم أمور فى طفولتهم وأمور الطفولية جبلية من غير شبهة، كما أشار إليه بقوله:

(بل غرزت فيهم هذه الأخلاق فى الجبلية وأودعوا العلم والحكمة فى الفطرة) غرزت بالبناء للمجهول، وأصل معنى الغرز إدخال شىء فى شىء، فكأن الطبيعة أدخلت فيهم،



ومنه الغريزة وهي الطبيعة. وقال البرهان: معنى غرزت خلقت والفطرة الخلقة، وفاطر السموات بمعنى خالقها، وأودعوا مجهول أيضا من الوديعه فيه استعارة مكنية وتخيلية، وما ذكره من الترتيب في النسخ عندنا ما يخالفه وسيأتي من المصنف رحمه الله تعالى ما يعين ما قلناه.

(قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]) الحكم والحكمة من الحكم وهو المنع، ومنه الحكمة بفتححتين سمي به لمنعه من الفساد وكل ما لا ينبغي، واختلف في تفسيرها هنا. (فقال المفسرون: أعطى يحيى العلم بكتاب الله تعالى) يعنى التوراة (في حال صباه) إشارة إلى قوله ﴿صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] في الآية حال، وهذا أحد التفاسير فيها. وقيل: هو الفهم والعلم. وقيل: هو النبوة. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: «كل من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فقد أوتى الحكم صبيّا» وعلى تفسيره بالنبوة فالمراد أنه لظهور آثارها كأنه أوتيتها، فهو مجاز بناء على أن الله تعالى لم ينبئ صبيّا قط، وكذا وأن قول عيسى عليه الصلاة والسلام وهو طفل: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠] وقيل: الحكم العمل مع العلم.

(وقال معمر) بن راشد (كان) أى يحيى عليه الصلاة والسلام (ابن سنتين أو ثلاث) وفى بعض النسخ ابن معمر والصواب معمر بدون ابن، وتقدم أن معمر بميمين مفتوحتين: بينهما عين مهملة ساكنة وراء مهملة وهو معمر بن راشد أبو عروة الأزدي المهلبى مولاهم، عالم اليمن، روى عن الزهرى وغيره، وروى عنه كثير، وأخرج له الأئمة الستة، وهو ثقة إلا أن له أوهاما تحتمل فى جنب سعة علمه، توفى سنة ثلاث وخمسين ومائة باليمن وله ترجمة فى الميزان، وقوله: «ابن سنتين أو ثلاث»، قيل: هذا غريب فى الرواية، والأصح أنه كان ابن ثمان. وقيل: لا غرابة فيه فإنه منقول عن قتادة ومقاتل من طرق، والغريب ما انفرد به رواية فكيف يكون غريبا.

(فقال له الصبيان: لم لا تلعب؟ فقال: ما للعب خلقت) قال السيوطى: رواه الديلمى عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه ولم يسنده، والحاكم فى التاريخ عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما مرفوعا وسنده واه، وأخرجه أحمد فى الزهد وابن أبى حاتم فى تفسيره عن معمر قال: بلغنى فذكره، والاستفهام إنكارى فى معنى النفى ولذا روى: «لم أخلق للعب» والمشهور أنه لم يبعث الله تبارك وتعالى نبيا طفلا، بل روى أنه لم يبعث نبيا قبل الأربعين، فقيل: هو المطرد وهذا نادرا لا يرد نقصا. ومن الغريب ما قيل: إن الله عز وجل خلق عيسى عليه الصلاة والسلام بالغا عاقلا وإن كان فى صورة طفل كما خلق آدم عليه الصلاة والسلام، حتى قيل: إنه ألهم التوراة فى بطن أمه. وروى عن

الحسن فلا حاجة لتأويل ما ورد فيه بالتأويل المشهور.

(وقيل فى قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩]) صدق يحيى بعيسى عليهما الصلاة والسلام لأنه أوجد بدون أب فشابه ما أبدع من عالم الأمر، كما قاله البيضاوى، أو لكونه أوجد بكلمة كن، أو لاهتداء الناس به كما يهتدون بكلام الله، كما سمي النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذكرا رسولا كما قاله الراغب. وقال الصدر القنوى فى نفحاته: لصورة كل شىء فى عرضة العلم الإلهى الأزلى مرتبة الحرفية، فإذا صبغه الحق بنوره الوجودى الذاتى، وذلك بحركة معقولة معنوية يقتضيها بشأن من الشئون الإلهية المعبر عنها بالكناية تسمى صورة، ومعلومية الشىء المراد بكونيته، وبهذا الاعتبار سمي الله الموجودات كلمات، سمي عيسى كلمة، وقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] أى الأرواح الطاهرة. انتهى. وهذا يحتاج لذوق شهودى فافهم، ولا حاجة لجعل من زائدة على هذا كما قيل.

(وهو) أى يحيى عليه الصلاة والسلام (ابن ثلاث سنين يشهد له أنه كلمة الله وروحه) قد بينا معنى كونه كلمة الله، وكان يحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ابنا خالة كما مر، ويحيى أكبر سنا منه، وإطلاق روح الله تعالى عليه، إما لأن جبريل عليه الصلاة والسلام المعنى بالروح نفخ فى درع أمه، فتكون من نفخته فإضافته إلى الله إضافة ملك وتشريف، أو لأنه خلقه من غير واسطة بشر ولذا وقع النصارى فيما وقعوا فيه. وعن كعب: أن الله خلق أرواح بنى آدم قبل أجسادهم لما أخذ عليهم الميثاق، فأمسك روح عيسى عليه الصلاة والسلام، فلما أراد خلقه أرسلها لمريم فلذا كان روحانيا. وقيل: الإضافة للتشريف كبيت الله كما علم، وقيل: معنى روح الله نعمة الله؛ لأن الروح تطلق على النعمة. وفى صحيح البخارى مسندا عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة»<sup>(١)</sup>.

(وقيل: صدقه) يحيى عليه الصلاة والسلام (وهو فى بطن أمه فكانت أم يحيى تقول لمريم: إني أجد ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك تحية له) منصوب مفعول له أى سجوده له سجود تحية وتعظيم لا عبادة، وكان السجود مما يعظم به المخلوق قبل الإسلام. وهذا الحديث رواه أحمد وابن جرير عن مجاهد من طرق متعددة فهو حديث صحيح، إلا أنهم لم يرفعوه للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ومثله لا يقال من قبل الراى فهو فى حكم

المرفوع، قالوا: وهذا هو المراد بقوله مصدقا بكلمة من الله، وهذا يقتضى أن حمل مريم بعيسى عليه الصلاة والسلام طالت مدته، وفى تلك المدة اختلاف، وقيل: إنها ولدت فى ساعة نفخ الروح.

(وقد نص الله على كلام عيسى عليه الصلاة والسلام لأمه عند ولادتها إياه بقوله لها: لا تحزنلى) وهذا أحد من تكلم فى المهد وفى عدتهم خلاف، وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه: «لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، وصاحب جريح، وغلام كان يرضع فى حجر أمه ومر عليه الصلاة والسلام، وصاحب جريح، وغلام كان يرضع فى حجر أمه ومر عليه راكم فقالت أمه: اللهم اجعل ابنى مثله فقال: اللهم لا تجعلنى مثله»<sup>(١)</sup>. وظاهره الحصر إذ لم يذكر معهم الصبى المذكور فى حديث الساحر الذى قال لأمه: اصبرى فإنك على الحق، وهو فى صحيح مسلم. وأجيب بأنه لم يكن فى المهد وإن كان صغيرا لم يبلغ حد التكلم، ورد بأن ابن قتيبة حكى أنه ابن سبعة أشهر، فلعله صلى الله تعالى عليه وسلم إنما اطلع أولا على ثلاثة، ثم أطلعه الله بعد ذلك على غيرهم لثبوتهم فى صحيح مسلم كما علم. وقالوا: تكلم فى المهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام كما ذكره البغوى والقاضى فى التفسير، وروى أن نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم تكلم فى المهد وهو عند حليلة السعدية، وأول كلمة تكلم بها: الله أكبر. وحكى عن الواقدى وشاهد يوسف كما حكاه القرطبى، وقيل: إنه كان رجلا، وابن ماشطة ابنت فرعون كما فى مسند أحمد، وفيه زيادة لقوله ابن ماشطة ابنة فرعون، وروى الضحاك تكلم يحيى عليه الصلاة والسلام فى المهد أيضا، ومبارك اليمامة الذى كلمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كما فى الدلائل، فهم أحد عشر كما فصله البرهان الحلبى رحمه الله، ونظم غالبهم القائل فى قوله:

إذا رمت سرد الناطقين بمهدهم	فمنهم رسول الله أحمد ذو المجد
خليل ويحيى ثم عيسى وطفل من	دعت لابنها فورا كذى شارة فرد
فقال ألا لا تجعلنى مثله	ورد عليها قولها أفصح الرد
كذاك الذى قد قال إن جريئنا	برىء فلا ترموه بعد بما يردى
ومنهم نجيب كان يدعى مبارك	وقال رسول الله قد جاء بالرشد
وماشطة كانت لفرعون تنتمى	وكان لها طفل تكلم فى المهد

(١) أخرجه البخارى (٢٠١/٤)، ومسلم (٢٥٥٠/٧)، وأحمد (٣٠١/٢، ٣٠٧)، والحاكم

كذا شاهد فى شأن يوسف منهم: فدونك جمعا زائد الحسن فى العد

وقوله: بقوله إلى آخره، يعنى أنها لما حملت بلا زوج وكانت فرت وهى حامل لمكان بعيد خوفا من أهلها، فلما وضعته قال لها: لا تحزنى.

(على قراءة من قرأ من تحتها) بفتح الميم على أن من موصولة وتحتها بنصب التاء ظرف صلتها، وقد أورد على المصنف هنا أمران:

الأول: أن تخصيص دلالة الآية على أن المتكلم عيسى عليه الصلاة والسلام فى المهد بهذه القراءة لا وجه له، فإن القرائتين على حد سواء فى احتمال أن يكون المنادى عيسى أو جبريل أو بعض الملائكة، وكيف لا ومعنى النظم على القرائتين واحد، فإن المعنى ناداها من تحتها قائلا لا تحزنى، فإن قيل: لو كان المنادى جبريل عليه الصلاة والسلام كان فوقها لا تحتها لإتيانه من الأفق. قيل: إن جبريل كان منها مكان القابلة، وقيل: إنها كانت على أكمة هو تحتها، وإذا كان المنادى عيسى عليه الصلاة والسلام قال الجعبرى: معنى كونه تحتها أنه كان تحت ثيابها.

الثانى: أنه قيل: إن كلام المصنف رحمه الله تعالى فى حسن الأخلاق وأنها جبلية، وكلام من فى المهد ليس من هذا القبيل، بل من قبيل خوارق العادة، كنطق الجوارح يوم القيامة، وتسبيح الحصى، ونطق الشجر، وهو لم يدم فإنه ينقطع ويعود فى زمنه، ولم يقولوا باستمراره، ولو استمر كان مناسبا لما ذكر.

والجواب أن ما ذكره بحسب الظاهر، لأنه كان جبريل وقد ذكر هنا بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ﴾ [مريم: ١٩] كان الظاهر أن يقول فناداها كما فى القراءة بمن الجارة، فلما عرفه بالاسم الظاهر وعدل إليه فى محل الإضمار علم أنه غيره وليس ثمة أحد، فعلم أنه عيسى، ومعنى كونه من تحتها أن المرأة فى حال الوضع ترتفع عن الأرض على عال فيقع الولد تحتها فلا حاجة لما قاله الجعبرى. وأما السؤال الثانى فساقط لأنه وإن كان خارقا للعادة يدل على أن ما يأتى بهذه من جنسه أمر جبلى، وقراءة الكسر بمن الجارة والفتح بمن الموصولة كلاهما متواترة من السبعة.

(وعلى قول من قال إن المنادى بكسر الدال (عيسى) عليه الصلاة والسلام لا الملك. ونص على كلامه فى مهده) المهد كالمهاد. بمعنى الفراش المهد للنوم كما مر، ثم خص بما يربط فيه الطفل لنومه وقراره فيه.

(فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَنِي الْكَتَبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]) فلما تكلم عليه الصلاة والسلام بذلك علموا براءة مريم، ثم سكت حتى بلغ مدة التكلم لأمثاله وجعل

أول تكلمه بالإقرار بالعبودية إبطالا لقول النصارى أنه ابن الله، لأن الولد لا يكون عبدا ولو ملكه عتق عليه، والكتاب الإنجيل، ويجوز أن يريد التوراة لعلمه صلى الله تعالى عليه وسلم بها، أو الأعم وتعبيره بالماضى باعتبار ما قدره الله تعالى له، أو جعله بمنزلة الواقع لتحقيقه. وقيل: إنه نبئ في صغره حقيقة كما روى عن الحسن.

(وقال الله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَهَا﴾ [الأنبياء: ٧٩]) أى القصة الآتية ﴿سُلَيْمَنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] عليه الصلاة والسلام ﴿وَكُلًّا﴾ [الأنبياء: ٧٩] أى سليمان وأباه داود ﴿ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩] إشارة إلى قصة سليمان عليه الصلاة والسلام إذا أوتى الحكم صبيا وعمره إذ ذاك أحد عشر سنة فى الغنم التى نفشت فى الحرث، أى رعته ليلا وأفسدته. والنفش: الرعى بالليل بلا راع. فإن كان بالنهار فهو همل، وكان يجلس على الباب الذى يخرج منه الخصوم الداخلين عليه من باب آخر، فتخاصم رجلان لأحدهما حرث وهو زرع، وقيل: كرم. والحرث يطلق عليهما. وللآخر غنم دخلت حرثه فأفسدته، فحكم داود بدفع الغنم لصاحب الحرث على أن يبقى الحرث بيده، وقيل: يدفع الغنم لصاحب الحرث ويدفع الحرث لصاحب الغنم، فداود عليه الصلاة والسلام رأى على القول الأول أن الغنم تقاوم الغلة الفاسدة، وعلى الثانى رأى أنها تقاوم الحرث والغلة، معا فلما خرجا على سليمان عليه الصلاة والسلام سألهما عما حكم لهما به فرجع لأبيه وقال: إنى رأيت ما هو أوفق بالجميع، وهو أن يأخذ صاحب الغنم الحرث فيقوم عليه حتى يعود لما كان عليه، ويأخذ صاحب الحرث الغنم فينتفع بنسلها وريعها، فإذا عاد الحرث لحاله صرف ملك صاحبه له، فقال: أصبت وحكم بما قاله.

قال العلامة ابن القيم فى كتابه «معالم التقويم»: حكم داود عليه الصلاة والسلام له بقيمة المتلف فاعتبر الغنم فوجدها بقدر القيمة فدفعها لصاحب الحرث، إما لأنه لم يكن له دراهم تعذر بيعها ورضوا بدفعها وأخذها بدلا عن القيمة. وسليمان عليه الصلاة والسلام قضى بالضمان على أصحاب الغنم، وأن يضمنوا ذلك بالمثل بأن يعمرؤا البستان حتى يعود كما كان، فلم يضيع عليهم شيئا من حين الإتلاف إلى حين العود، فأعطى أصحاب البستان الماشية ليأخذوا من نمائها بقدر نماء البستان فيستوفوا من نماء الغنم بقدر ما فاتهم من نماء حرثهم، وقد اعتبر النمائين فوجدهما سواء فهذا علم خصه الله به وأثنى عليه بإدراكه، وقد تنازع العلماء فى ضمان النفس وفى المثل وهو الحق، وهو أحد القولين فى مذهب أحمد والشافعى ومالك، والمشهور خلافه.

والقول الثانى: موافقته فى ضمان النفس دون التضمنين بالمثل وهو المشهور عن أحمد،

ومالك، والشافعى.

والثالث: موافقته فى التضمن بالمثل دون النفس كما إذا رعاها صاحبه باختياره دون ما إذا انفلتت ماشيته ولم يشعر بها، وهو قول داود ومن وافقه.

والقول الرابع: أن النفس لا يوجب الضمان بحال وما وجب من ضمان الرعى بغير النفس فإنه يضمن بالقيمة لا بالمثل، وهو مذهب أبى حنيفة.

وما حكم به سليمان عليه الصلاة والسلام أقرب إلى العدل والقياس، وقد حكم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن على أهل الحوائط حفظها بالنهار وما أفسدت المواشى ضمانه على أهلها يصح بحكم النفس، وصح بالنصوص السابقة. والقياس الصحيح وجوب الضمان بالمثل، وصح بنص الكتاب الثناء على سليمان عليه الصلاة والسلام بتفهيم هذا الحكم فصيح أنه الصواب. انتهى.

وقال التجانى: اختلف فى حكمهما فى هذه القضية هل كان بوحى؟ فالثانى ناسخ للأول، أو باجتهاد بناء على أن كل مجتهد مصيب، وكونه فتيا يردّه أن فتيا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حكم، مع أنه يأباه قوله: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨] قيل: ويؤيد أنه اجتهاد قول سليمان عليه الصلاة والسلام: إني رأيت ما هو أوفق للجميع، وهو مبنى على جواز خطأ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى اجتهادهم وأنهم لم يقرؤا عليه. وفى التلويح هنا كلام يلوح عليه أثر الضعف، وعلى أن شريعة من قبلنا ليست شريعة لنا مطلقا. وقد ورد فى الحديث ما يخالفه كما سمعته أنفا، وقول أبى السعود أن رأى سليمان استحسان ورأى داود قياس، قيل: إنه غير سديد لأن الاستحسان إما دليل ينقذ فى نفس المجتهد وإلهام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يكون إلا صوابا، أو هو العدول عن قياس إلى قياس أقوى منه وحينئذ كل منهما قياس واجتهاده، أو هو العدول عن الدليل إلى العادة لمصلحة، ومثله من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حائز ولا يخفى ما فيه. وفى الكشف أن حكم دواود عليه الصلاة والسلام لأن الضرر وقع بسبب الغنم فسلمته بجنائتها إلى المجنى، كما قال أبو حنيفة فى العبد إذا جنى على نفس: فسيده يدفعه أو يفديه. وعند الشافعى يبيعه بذلك أو يفديه. ولعل قيمة الغنم كانت قدر النقصان فى الحرث، وسليمان عليه الصلاة والسلام جعل الانتفاع بالغنم بإزاء ما فات، وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل فى الحرث ما يزيل ضرره، كما لو غصب عبدا فأبق فى يده فإن قيمته تدفع لسيده ينتفع بها، فإذا ظهر ترد له. وفى هذا المقام كلام طويل لا حاجة لنا به، فإن أردته فارجع إليه.

(وقد ذكر من حكم سليمان عليه الصلاة والسلام وهو صبى يلعب فى قضية المرحومة، وفى قصة الصبى ما اقتدى به أبوه) كما اقتدى به فى قصة الحرث، وذلك كان فى صباه وأول أمره، فهذا وأشباهه مما يدل على أنها أمور جبلية غير كسبية. وقصة المرحومة كما حكاه التلمسانى: أن امرأة كانت بارعة الجمال وهى من أهل الدين ولها حق، فرفعت أمرها لأحد قضاة بنى إسرائيل، فلما رآها افتتن بها وراودها عن نفسها فامتعت، ثم ذهبت لثان وثالث ورابع، فكل راودها عن نفسها فأتت لنبى الله داود عليه الصلاة والسلام فحجبت عنه، فأجمع الأربعة أن يقولوا لداود عليه السلام أن لها كلبا تمكنه من نفسها ويزنى بها ففعلوا، فأمر برجمها فرجمت، فبينما داود عليه الصلاة والسلام يوما فى علية له مشرفا على صبيان يلعبون مع سليمان وفيهم صبى جميل، فجعلوا سليمان قاضيا والصبى كمرأة ذات حق، وأربعة منهم قضاة، وفعلوا مثل تلك القصة بعينها من المراودة والتهمة، وذلك يمرئى من داود عليه الصلاة والسلام كما فى قصة المرحومة فعرفهم سليمان، وقال لأحدهم: ما لونه؟ فذكر لونا ودعى كلا بانفراده، فذكر كل لونا مخالفا للآخر، فأمر الصبيان فضربوهم. فقال داود: لعل القضية هكذا، فبعث للقضاة وسأهم عن لون الكلب على الانفراد فاختلفوا كالصبيان فأمر بهم فقتلوا. وهكذا نقله غيره من الشراح عن ابن عساكر مسندا، وكذا نقله السيوطى رحمه الله تعالى فى تخريج أحاديث هذا الكتاب ولم يتعقبه. فقول ابن رسلان: المراد بالمرحومة التى أريد رجمها لأن داود هم برجمها، ثم لما رأى صنيع سليمان درء عنه الحد. فسمها المصنف رحمه الله تعالى مرجومة باعتبار ما يؤول، أو لأنه أريد رجمها يتبع فيه غيره، فلا يخفى أنه مخالف للظاهر فلا وجه لكلامه ولا لمن تبعه فيه، ثم إنه قيل: إن هذا يقتضى أنه كان فى شريعتهم أن المرأة الممكنة من نفسها حيوانا ترجم، وأن شاهد الزور يقتل. وفى الشريعة المحمدية أن حكمهما التعزير.

وقصة الصبى هى ما رواه الشيخان عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: «بينما امرأتان معهما أبناء لهما فأخذ ذئب أحدهما، فتحاكما إلى داود عليه الصلاة والسلام فقضى به للكبرى، فدعاها سليمان عليه الصلاة والسلام فقال: هاتوا سكيننا أشقه بينهما. فقالت الصغرى: رحمك الله هو ابنها لا تشقه فقضى به لها لشفتها عليه ورضيت الأخرى بشقه لتشاركها فى المصيبة»<sup>(١)</sup>.

قال التجانى: وهذا مما لا شبهة فى صحته. وأما الحديث الأول فالله أعلم بصحته، وقد ورد فى الإسرائيليات على غير رواية ابن عساكر، وأن داود عليه السلام لم يرحمها

(١) أخرجه مسلم (١٧٢٠/٢)، وأحمد (٣٢٢/٢).

وإنما أمرهم برجمها، فمروا بها على سليمان فأوقفها وأحضر الشهود وفرق بينهم كما مر، ورجع داود عن حكمه، وعلى هذا بينى ما مر من أن المرجومة هنا مجاز عن من أريد رجمها وفيه فوائد.

منها: أنه إذا تجاوز بالفعل عن إرادته لا يلزم وقوعه.

ومنها: أن أبا هريرة رضى الله تعالى عنه قال: والله إن سمعت بالسكين إلا ذلك اليوم.

ومنها: أن داود عليه الصلاة والسلام يحتمل أنه قضى به للكبرى لشبه بينهما، وأنه كان فى شريعته يجوز الإلحاق بالشبه، أو لكونه فى يدها والترجيح باليد شريعة له صلى الله تعالى عليه وسلم. وأما سليمان عليه الصلاة والسلام فتوصل بلطفه لمعرفة باطن القضية، فأوهمهما إرادة شقه ليسوى بينهما، ومثله يفعله حذاق الحكام فيقضون بأمر لو تجردت لم يقض بها شرعا، ولعل الكبرى أقرت بأنه ليس ولدها فردة بإقرارها لا بمجرد الشفقة فلذا نقض داود عليه الصلاة والسلام حكمه، أو أن فى شرعهم أنه يجوز للمجتهد نقض حكم المجتهد كما فى مزيل الخفاء.

ومنها: أنه وقع فى مسلم أن الصغرى قالت لسليمان عليه الصلاة والسلام: لا يرحمك الله، فيرحمك الله جملة مستأنفة دعائية لكنها موهمة للدعاء عليه، وفى الإكمال أن السلف كرهوا مثله لما فيه من الإيهام، يريد ما روى عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أنه قال لمن قال له مثله: لا تقل هذا، وقل يرحمك الله لا. وروى بعضهم ويرحمك الله. أقول: يعنى أن الواو تزداد لدفع الإيهام، كما تحذف له فى نحو قوله:

وتظن سلمى أننى أبغى بها بدلا أراها فى الضلال تهيم

فإنه لو قال: وأراها ربما ظن أنه معطوف على أبغى وليس مراده ذلك. وسأل الرشيد رجلا عن شيء فقال له: لا وأيد الله الخليفة فاستحسنه منه، فلما سمعه قال: هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ فى حدود الملاح، وهذه الواو إما زائدة أو اعتراضية أو لعطف الإنشاء على الخبر.

(وحكى الطبرى أن عمره كان حين أوتى الملك اثنى عشر عاما، وكذلك قصة موسى) عليه الصلاة والسلام (مع فرعون وأخذه بلحيته وهو طفل) فرعون: لقب لكل من ملك القبط كما مر، وهذا هو مصعب بن الوليد بن ريان كان من القبط العمالقة عمر أكثر من أربعمائة سنة، وسن موسى عليه الصلاة والسلام حين أخذ بلحيته ابن عامين، وكان فرعون، لعنه الله، استبعد بنى إسرائيل واستخدمهم وضرب عليهم الجزية، فرأى فى



منامه أو أخيره الكهنة أن زوال ملكه على يد غلام من بنى إسرائيل، فأمر بقتل كل مولود يولد منهم، فرأى أهل مملكته أن في ذلك ضررا عليهم، لأنهم خدمهم ويكفونهم المؤنة، فعزموا على قتلهم عاما بعد عام. قيل: وهو بعيد لاحتمال أن يولد عام استحياهم. واتفاق العقلاء على مثله غير ظاهر، فلعلهم رأوا عام ولادته زوجا أو فردا أو عينوه، وولد هارون في عام الاستحياء وولد موسى في العام الرابع من ولادته وكان عام قتل، فخافت أمه عليه فأوحى الله تعالى إليها ما يأتي على لسان ملك أو رأت ذلك في منامها، والقول الأول إما لأن من لا يكون نبيا قد يرى الملك وقد جوزة جماعة من السلف، ولعله كان في الزمن السالف، أو أن أمه كانت نبیة والمشهور أن النبي لا يكون إلا ذكرا.

قال التجاني: وقد ذهب علماء قرطبة إلى صحة نبوة المرأة، وصححه ابن السيد، ونسبه ابن الهمام إلى بعض أهل الظاهر، فأوحى الله تعالى إلى أمه أن تتخذ تابوتا تضعه فيه وتقذفه في النيل ففعلت، وكان النيل يدخل منزل فرعون، فبينما هو جالس إذا دخل التابوت به عنده، فأخذه آل فرعون ففتحتة آسية امرأة فرعون صلى الله تعالى عليه وسلم، فلما رآته فيه موسى رحمته وسألت من فرعون أن يتخذها ابنا فأجابها لذلك، فكانت تدخل به عليه فأحبه وجعله يوما في حجره، فمد يده للحيته وجذبها جذبا شديدا، فغضب فرعون وقال: هذا عدو لي وأمر بذبحه، فناشدته الله تعالى وقالت: إنه لا يعقل. فقال: بل يعقل. فقالت: جربه فجربه فجعل بين يديه ثمرة وجمرة، وقيل: درة وجمرة، وقال: إن أخذ الثمرة أو الدرة فهو يعقل وإلا عذر، فلما مد يده للثمرة ضربه جبريل عليه الصلاة والسلام فأخذ الجمرة فأحرقت لسانه، ومنها كان في لسانه عليه الصلاة والسلام عقدة تمنعه من إبانة بعض الحروف، وهي التي أزالها الله تعالى بدعائه، فعذره فلم يزل في حجره إلى أن كان ما كان وموسى وقصصه ونسبه مذكور في محله، والطفل يكون للواحد وغيره، وقد يختص بالواحد فيجمع على أطفال.

(فائدة): قيل: كل مولود ذكرا وأنثى يزيد كل سنة أربع أصابع بأصابع نفسه، وكل أحد طوله أربعة أذرع مقبوضة الأصابع بذراع نفسه، والقوة تزيد إلى أربعين وتقف إلى ستين وتنقص بعد ذلك، وفرعون هذا غير فرعون يوسف، وقيل: إنه هو وأنه أسلم ثم ارتد، وقيل: إن موسى عليه الصلاة والسلام قال: يا رب أمهلت فرعون مع كفره، فقال: إنه كان سهل الحجاب فكفأته على ذلك في الدنيا.

(وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١]) أى هديناه صغيرا قاله مجاهد وغيره هذا أحد التفاسير في العلم السابق، وقيل: المراد قبل موسى

وهارون، والرشد: الاهتداء لوجه الصلاح، ويقال: رشد ورشد وبهما قرئ. قال فى الكشف: معنى إضافة الرشد له عليه الصلاة والسلام أنه رشد ثابت له، ورد بأن هذا المعنى حاصل بدون الإضافة لو قيل آتيناه رشدًا له أفاد ذلك مع التعظيم، ولم يفهم مراده إذ مراده أنا آتيناه رشدًا معلوما من حاله لا ثقا به وبأمثاله من الرسل عليهم الصلاة والسلام، لا كرشد غيره.

(وقال ابن عطاء: اصطفاه قبل ابتداء خلقه) أى اختاره رسولا خليلا فى علمه فإنه لا يختص به، بل المراد أنه حين أراد خلقه فى بطن أمه أمر الملائكة أن تكتب اصطفاؤه وخلته، تنويها به وتعظيما لقدره بخلاف غيره، فإنه إنما يكتب حاله بعد خلقه، والظاهر أن المراد أنه اصطفى روحه فى عالم الذر قبل خلق جسده، كما فى حديث: «كنت نبيا وآدم» إلى آخره. وفى نسخة قيل: ابتداء خلقه قبل لما كان من قبل على هذا بمعنى قبل خلقه، ولا معنى لهديته قبل خلقه أوله باصطفاءه اللازم له لصحة اصطفاؤه المعدوم.

(وقال بعضهم: لما ولد) نبى الله (إبراهيم) عليه الصلاة والسلام (بعث الله إليه ملكا يأمره عن الله تعالى أن يعرفه بقلبه ويذكره بلسانه، فقال: قد فعلت ولم يقل أفعل فذلك رشده) يعنى عبر بالمضى الدال على وقوعه قبل أمره، فيكون المعنى آتيناه رشده قبل أمره، فيدل ذلك على الإيمان واشتغاله بذكر ربه أمر جبلى مجبول عليه، أو أمر عرفه به فى عالم الذر والأرواح، فيكون بمعنى ما قاله ابن عطاء، أو المراد أنه عبر بالمضى لسرعة امتثاله حتى كأنه وقع منه، فمعنى من قبل على هذا من قبل أمره لا من قبل بلوغه كما قيل.

(وقيل: إن إلقاء إبراهيم فى النار ومحنته) التى وقعت له مع غمرد، فإنه كما رواه أبو صالح عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ولد فى زمنه وكان له كهنة، فقالوا له: يولد فى هذه السنة مولود يفسد آلهة الأرض ويدعوهم إلى غير دينهم وهلاك أهل بيتك على يديه، فعزل النساء عن الرجال ودخل آزر إلى بيته فوق على زوجته فحملت، فقال له الكهان: إن الغلام قد حمل به الليلة فقال: اقتلوا كل غلام ولد، فلما أخذ أم إبراهيم عليه الصلاة والسلام المخاض خرجت هاربة، فوضعت فى نهر يابس ولفته فى خرقة ووضعت فى حلفاء وأخبرت به أباه، فأتاه فحفر له سردابا وسد عليه بصخرة فكانت أمه تختلف إليه فترضعه حتى شب وتكلم، فقال لأمه من ربي؟ فقالت: أنا. فقال: من ربك؟ قالت: أبوك، قال: فمن رب أبى؟ فقالت له: اسكت، فسكت فرجعت إلى زوجها، فقالت له: الغلام الذى يتحدث به أنه يغير دين أهل الأرض ابنك، فأتاه فقال له مثل ذلك. وقوله: (كانت وهو ابن ستة عشر سنة) كذا فى الكشف، قال التجانى: المعروف أنه

كان ابن ست وعشرين سنة، والذى أشار بإحراقه رجل من أعراب العجم وهو الكرد، ولما هموا بإحراقه حبسوه وبنوا حظيرة وجمعوا الخطب الصلاب شهرا، حتى كان من مرض ينذر جمع الخطب له، ثم أشعلوا نارا عظيمة إذا مرت بها الطير احترقت لشدتها، ثم وضعوه فى منجنيق مقيدا مغلولا ورموه فيها، فناداها جبرائيل عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْنَا يَنَّاؤُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] فلم يحترق غير وثاقه، فقال له حين ألقى: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، حسبى من سؤالى علمه بحالى. وقيل: نجح منها بقوله تعالى: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وأشرف غرود عليه من صرحه فإذا هو فى روضة معه جليس من الملائكة، فقال: إنى مقرب إلى إلهك ف قرب أربعة آلاف بقرة وكف عنه. وقصته مذكورة فى القرآن بجملة مفصلة فى التفسير.

واعلم أن غرود كما قاله السهلى بضم النون وذال معجمة وقد تهمل انتهى. قيل: لما أرادوا رميه فى النار لم يقدروا على القرب منه، فعلمهم إبليس، لعنه الله، صنعة المنجنيق، فلما أرادوا رميه لم يرم لمنع الملائكة عليهم الصلاة والسلام له، فأمرهم إبليس أن يحضروا نساء مكشوفة الفروج فصعدت الملائكة للسماء.

(وأن ابتلاء إسحاق بالذبح وهو ابن سبع سنين) وقيل: ثلاث عشر سنة، وهذا بناء على أن الذبيح إسحاق عليه الصلاة والسلام كما عليه أهل الكتاب وكثير من المفسرين والمحدثين، حتى صنف الجلال السيوطى فى تصحيحه رسالة مستقلة. والمشهور وهو مذهب الجمهور أنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وهو قول أكثر الصحابة كابن عباس، وابن عمر، ومعاوية رضى الله عنهم، وهو الظاهر فإن سارة زوجة إبراهيم عليه الصلاة والسلام كانت لا ولد لها، وهاجر جاريته ولدت إسماعيل، فغارت منها وكرهت مقامها معها، فنقلها إلى مكة ومعها إسماعيل عليه الصلاة والسلام وكان يتنابها، فلما كبرت سارة وشاخ إبراهيم عليه الصلاة والسلام بشرتهما الملائكة بإسحاق فقال: ﴿إِذْ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢] الآية، فلو كان الذبيح إسحاق عليه الصلاة والسلام ناقض ذلك إخبار الله بأنه سيولد له يعقوب، ولا يصح أنه أمر بذبحه بعدما ولد له يعقوب، للإجماع على أنه فى صغره كما مر، ولقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ أَلْسَعَى﴾ [الصافات: ١٠٢] ولأنه فى الصافات ذكر تبشيره بإسحاق بعد قصة الذبح، وبهذا احتج مالك وغيره. وورد فى الحديث: «أنا ابن الذبيحين»<sup>(١)</sup> يريد عبد الله وإسماعيل. وفى

(٢) أخرجه العقيلي فى الضعفاء (٣/٩٤، ٩٥)، والطبرى فى تفسيره (٢٣/٥٤)، وابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (٢/١٥٠).

تفسير الطبرى عن ابن عباس رضى الله عنهما: «تزعم اليهود أن إسحاق هو الذبيح وكذبوا»<sup>(١)</sup> وقال بعض من أسلم من أحبارهم: إنهم يحسدونكم معشر العرب أن تكون هذا الفضيلة فيكم، وقال الأصمعى: سألت أبا عمرو عن الذبيح، فقال: «أعزب عنك عقلك، ألم تر إلى الموضع الذى أضجع فيه الذبيح بمكة ومنى، ومتى دخل إسحاق مكة» وقال ابن الجوزى: وهو الصواب، والقول بأنه إسحاق باطل بأكثر من عشرين وجها، وأطال فيها ابن القيم فى الهدى. وقال الحب الطبرى: الأكثر أنه إسحاق ورجحه هو وغيره. والصحيح ما مر ويدل له حديث: «أنا ابن الذبيحين» وقصة ذبح أبيه عبد الله مشهورة، لأن عبد المطلب نذر إن بلغ بنوه عشرة أن يذبح واحدا منهم تقربا إلى الله تعالى، فلما كملوا أتى بهم البيت وضرب عليهم القداح فخرج قدح عبد الله فقدها كما هو مشهور. والقول بأن المراد بالذبيحين عبد الله وهابيل بناء على أن الذبيح إسحاق كما نقله مغلطاي مع غرابته لا يعلم له وجه، لأنه لم يتعين أنه من ولد هابيل إلا أن يجعل العم بمنزلة الأب، ولا يخفى ما فيه من التعسف.

(وأن استدلال إبراهيم بالكواكب والقمر والشمس وهو ابن خمسة عشر شهرا) ووجه الاستدلال أن الأجرام السماوية آفلة، وكل آفل فهو متغير، وكل متغير حادث، ولا شئ من الحادث بصانع فلا شئ من هذه الأجرام بصانع، وتلك الأصنام كهذه الأجرام فى التغير فلا شئ منها بصانع، بل هى دونها فثبت لها ذلك بالطريق الأولى، فالصانع المغاير لها موجود إذ لا بد للعالم من صانع، فثبت المطلوب بدليل مؤلف من قضايا تستلزم لذاته قولا آخر هو النتيجة، أو الدليل ما يدل بالقوة وإن كان مفردا، وهو المعروف بما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى العلم بمطلوب خبرى، كالعلم المستدل به على وجود الصانع والأجرام المذكورة، وكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما أخفته أمه فى غار خوفا عليه كما مر، مكث فى الغار عشرة أعوام أو أربعة أعوام كما فى عيون المعانى، أو خمسة عشر شهرا كما حكاه المصنف، فلما عقل سأل أمه من ربى كما مر، وفى رواية فقالت: أبوك فقال: من رب أبى؟ فقالت: الملك. فعرف جهلها ونظر ما يستدل به عليها فرأى النجم، فقال: هذا ربى إلى آخر ما قصه الله. والأقوال بناء على أن هذا قبل بلوغه فى الغار، وقيل: إنه بعد بلوغه فى الغار أو بعد بلوغه وخروجه منه، وقد بعثه الله نبيا وعمره أكثر مما ذكر، وهو الذى يقتضيه ظاهر القرآن؛ لأنه حكى فيه أنه قال لأبيه: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا إِلَهًا﴾ [الأنعام: ٧٤] إلى آخره، ثم عقبه بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ﴾ [الأنعام: ٧٥] الخ ثم ربط به قوله تعالى:

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٥٤/٢٣).

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ [الأنعام: ٧٦] الخ، فدلّت الفاء على كونه بعد هذا كله، وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا﴾ [الأنعام: ٨٣] الخ يدل على مناظرته مع قومه ليرشدهم إلى الإيمان بالصانع لا لنفسه، وبينه قوله تعالى: ﴿يَقْوِمُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]، ولو كان فى الغار نظر لنفسه قال: إني برىء من الإشراك فإذا ثبت هذا وأنه موحد جازم بعدم ربوبية الكواكب، فقوله: «هذا ربى» على تقدير الاستفهام والاستفهام إنكارى، أو هو على تقدير أى يقولون هذا ربى، والتقدير فى الكلام قالوا هو البحر حدث عنه ولا حرج، وهو فى القرآن كثير، أو أنه عرف طباعهم عن قبول الحق لو صرح به ابتداء، فأتى بما يستدرجهم إلى استماع حجتهم بأن أسمعهم ما يوهم موافقته لهم فإذا أصاحوا له أورد الدليل المبطل لما يعتقدونه بما هو أتم وأنفع، وهذا قريب من الأول، وإن فرق بينهما بما فى هذا من الإيهام وعدم إظهار الإنكار، وسيأتى فى القسم الثالث ما يتعلق بهذا.

وقول المصنف رحمه الله تعالى: استدلاله وهو ابن خمسة عشر شهرا إن كان قصد به دفع ما قيل: إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام موحدون لا يصدر منهم شك فى الله ووحدانيته، فكيف صدر هذا من الخليل عليه الصلاة والسلام؟ بأنه صدر منه قبل سن التمييز وهو غير مكلف فليس بكفر ولا جهل بالله فغير مناسب، فإنه يجب أن يعتقد أنهم أعرف الناس، وأنهم مجبولون على فطرة سليمة موحدون، فالأولى ما قدمناه من التأويل، وقد تقدم أن الأصح أنه صدر منه صلى الله تعالى عليه وسلم بعد بلوغه بل وبعثته، وأن سياق الآية ناطق به كما قررناه أولا، وهو ظاهر ارتضاه القرطبى فى تفسيره، وقيل: إنه قاله فى طفوليته من غير اعتقاد ولا قصد كذب، والقول بأنه بعد البعثة فاسد، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥] قصة أخرى؛ لأنه قصد النظر لنفسه والفاء ليست لتعقيب كلامه هذا على ما قاله لأبيه، وإنما هو من قبيل المعارض تعريضا بجهل عبدة الأصنام وتضليل قومه، والقول بأنه على تقدير مضاف أى مخلوق ربى لا يخفى بعده.

(وقيل: أوحى الله إلى يوسف عليه الصلاة والسلام وهو صبي) هذا الوحى يحتمل أن يكون برسول من الملائكة، أرسله الله تعالى إليه وهو طفل إن لم يقل إنه لم يبعث نبى إلا بعد الأربعين، وهو وإن اشتهر فقد روى المحدثون والمفسرون ما يخالفه، ويحتمل أنه بإلهام أو رؤيا منام، وقد ذهب إلى كل من هذه الأقوال طائفة. وفى الكشف: إن يوسف عليه الصلاة والسلام كان إذ ذاك مدركا وعمره تسع عشرة سنة، وهو مخالف لما قاله المصنف رحمه الله تعالى من أنه كان صبيا.

(عندما هم إخوته) بكسر الهمزة وضمها جمع أخ (بالقائه فى الجب) بضم الجيم وتشديد الباء وهو البئر غير مطوية بالحجارة، وسُميت بالجب من الجب وهو القطع، والجب بيت المقدس، وقيل: بالأردن على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه الصلاة والسلام، وقصة إلقائه بالجب مشهورة غنية عن البيان، وسيأتى ذكر إخوته وقصتهم (بقوله تعالى) فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابت الجب: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ﴾ [يوسف: ١٥] أى لتخبرن يا يوسف إخوتك (بأمرهم هذا) وهم لا يشعرون، وهذه جملة حالية إما متعلقة بقوله أوحينا أو بقوله أتنبئهم، وذلك لأنه كان صغيرا كما قاله المصنف رحمه الله تعالى، وقيل: بل كان ابن اثنتى عشر سنة أو ثمانية، فعلى الأول هو ممن نبئ وأوحى إليه فى صباه كيحيى وعيسى، فالوحى فى الآية على ظاهر كما ذهب إليه المصنف رحمه الله تعالى، وقوله: هم كأنه جعل رأيه جميعا بعد ما تفرق، وهو يقتضى أن الوحى وقع له حين هموا بإلقائه، وفى الآية ما يقتضى أنه وقع بعد إلقائه.

وقال القاضى: إنهم أتوا بيوسف عليه الصلاة والسلام إلى البئر ودلوه فتعلق بصفيها فربطما أيديه ونزعوا قميصا يلطخوه بالدم حيلة منهم، فقال: ردوا قميصى اتوار به، فقالوا: ادع الأحد عشر كوكبا يلبسوك ويؤنسوك، فلما بلغ نصفها ألقوه وفيها ماء، فأوى إلى صخرة بها وقام عليها ييكى، فجاء جبريل عليه الصلاة والسلام بالوحى كما قال الله تعالى. انتهى. وهذا يقتضى أن الوحى بعد الإلقاء تطيبا لقلبه، وهم يظنون أنه معذب مذل وهم لا يشعرون أن الله تعالى أراحه بما تبشره به من نصره، فالحال من ضمير أوحينا، والأولى جعله حالا من قوله: «لتنبئهم» أى لتحدثنهم بما فعلوا وهم لا يشعرون، إنك يوسف لبعد العهد وتغير حالك، فهو إشارة لما وقع لهم لما أتوا ممتازين ليعلم أن المحنة تنقلب محنة.

(الآية) أى اذكر الآية التى ذكر فيها هنا ماها.

(ألف غير ذلك من أخبارهم) أى أخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الدالة على أنهم مجبولون على الكمال من ابتداء أمرهم فى صغرهم. (وقد حكى أهل السير) مما يدل على ذلك (أن آمنة بنت وهب) أم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كما مر. (أخبرت أن نبينا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ولد) أى خرج من بطنها حين أراد الله تعالى إخراجها منها فلا لغوية فيه، وقيل: حين ظرف متعلق بباسطا الآتى وهو حال من الضمير المستكين فى ولد الأول والظرف مؤكد لدفع أن الحال مقدرة.

(باسطا يديه إلى الأرض رافعا رأسه إلى السماء) رواه ابن الجوزى فى الوفاء عن أبى

الحسين بن أسيد مرسلًا، قال: قالت آمنة: ولدته صلى الله تعالى عليه وسلم جاثيًا على ركبتيه ينظر إلى السماء. ثم قبض قبضة من الأرض وأهوى ساجداً، وولد وقد قطعت سرتة، وكنت وضعت عليه إناء فوجدته قد انغلق الإناء عنه وهو يعص إبهامه يشخب لنا انتهى. وروى الطبراني: «أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما وقع إلى الأرض وقع مقبوضة أصابع يده مشيراً بالسبابة كالمسيح بها. وله نظائر ذكرها ابن حجر في كتاب المولد. قيل: ولا منافاة بين قبض أصابعه في هذا الحديث وبين ما في سيرة ابن إسحاق من أنه ولد واضعاً يديه في الأرض رافعاً بصره، وأنه كان مسبحاً.

أقول: أما التسبيح فلا دلالة عليه في الحديث، وأما عدم منافاته لما في سيرة ابن إسحاق فمسلّم، لكنه مناف لما ذكره المصنف رحمه الله تعالى إلا بتأويل بعيد، ويؤيده قول البوصيري في قوله:

رافعاً طرفه إلى السماء وفي ذلك الرفع إلى سؤدد إسماء

(وقال في حديثه صلى الله تعالى عليه وسلم: لما نشأت) أي صرت شاباً، وهذا الحديث رواه أبو نعيم في الدلائل عن شداد بن أوس. (بغضت لي الأوثان) بالبناء للمجهول أي بغضها الله لي، وهي جمع وثن وهو حجارة كانت تعبد من أوثنته إذا أجزلت عطيته، وأوثنت كذا أكثر منه قاله الراغب. وقيل: الوثن ماله جثة مما يبعد والصنم الصورة بلا جثة. ومنهم من سوى بينهما، وقد يطلق على الصليب وكل ما يشغل عن الله.

(وبغض إلى الشعر) أي استماعه والتلفظ به. (ولم أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين فعصمني الله منها، ثم لم أعد) وكونه صلى الله تعالى عليه وسلم بغض إليه الشعر لا ينافي قوله: «إن من الشعر لحكمة». لأن فيه ما يحمد كالحكم والمواعظ، ومدح النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهجاء الكفار، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ (٢٢٦) ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الشعراء: ٢٢٦، ٢٢٧] وقد استمعه صلى الله تعالى عليه وسلم وأجاز قائله، وقال مرة لقائله: «لا يفضض الله فاك» لأن الأمر المذموم قد يحمد لعارض، أو يقال تعريف الشعر للعهد. وقوله: أهم بفتح الهمزة وضم الهاء كما قاله البرهان الحلبي، وفسر بمعنى لم أرد وأقصد، وهذا إشارة إلى حديث صحيح رواه البزار مسنداً عن علي كرم الله وجهه، ولفظه: «ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما

أريد، ثم ما هممت بعدها بشيء حتى أكرمنى الله تعالى بم سألته»<sup>(١)</sup>. ورواه فى المستدرک بلفظ آخر: «قلت ليلة لفتى من قريش كان بأعلى مكة يرعى غنما: أبصر لى غنمى حتى أسمع هذه الليلة بمكة كما يسمر الصبيان، فجئت أدنى دار من دور مكة فسمعت غناء وصوت دفوف ومزامير، فقلت: ما هذا؟ فقبل: فلان يتزوج فلانة، فلهوت بذلك الغناء وذلك الصوت حتى غلبتنى عينى، فما أيقظنى إلا حر الشمس، ثم رجعت إلى صاحبى فقال لى: ما فعلت؟ فأخبرته، ثم فعلت الليلة الأخرى كذلك، والله ما هممت بغيرهما مما تفعله الجاهلية». وروى أن الله ألقى عليه النوم فى المرتين صيانة وليس فى ارتكابه لمحرم، لأنه كان قبل تحريم السماع، ولأن ضرب الدف فى العرس غير ممنوع. وأما النهى عن سمر الليل فليس نهى تحريم مطلقا، وكان مباحا إذ ذاك مع أنه شرعا قد يكون أفضل من النوم كمذاكرة العلم، وإنما يحرم أو يكره لعارض كما ذكره الفقهاء، وقوله: «فعصمنى الله» أى حفظنى من ذلك لما غلب عليه من النوم حتى لم يسمع. وما وقع فى بعض الشروح أن كلامه إشارة إلى أنه كان لقريش صنم يسمى بوانه يجتمع عنده فى كل عام، فقالوا له: إنك لا تجتمع مع قومك ولا تكثر لهم جمعا، فذهب ثم عاد مرعوبا بالرؤية رجل طويل حال بينه وبينها، فغير مناسب هنا مع أن فى روايته كلاما للسهيلى ليس هذا محله، والمراد بالجاهلية ما كان قبل البعثة فى زمن الفترة كما تقدم.

(ثم يتمكن الأمر لهم وتزاد نفحات الله عليهم) الضمير للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والظاهر أنه معطوف على غرزت من قوله سابقا: «بل غرزت فيهم الأخلاق» إلى آخره، وعطفه بثم لبعده رتبته أو زمانه اعتبار الابتداء أو الانتهاء، ويمكن معنى يقر ويثبت لا بمعنى يزداد، لأنه تفعل من المكان، والمراد بالأمر ما أودع فيهم من الكمال والعلوم، وتزاد: تتفاعل من الردف وهو الركوب خلف غيره، والمراد أنها تتوالى فيأتى بعضها عقب بعض، ونفحات: بفتح تين جمع نفحة بالسكون وهى فى الأصل رائحة تأتى مع هبة من النسيم طيبة، وهى هنا بمعنى الهبة والعطية. قال:

لما أتيتك أرجو فضل نائلكم نفحتنى نفحة طابت لها العرب

والمراد هنا إمداد الله لهم بوحى وغيره، إطلاق النفحة على ما يصيب من الشر مجازا تهكم كقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ مَسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ [الأنبياء: ٤٦] وفى الحديث: «إن لربكم نفحات ألا فتعرضوا لها».

(١) أخرجه البزار كما فى مجمع الزوائد (٢٢٦/٨)، والطبرى فى تاريخه (٢٧٩/٢).



(وتشرق أنوار المعارف فى قلوبهم) تشرق: بمعنى تضىء، يقال: أشرقت الشمس إذا أضاءت، وشرقت إذا طلعت، والمعارف: العلوم الربانية (حتى يصلوا الغاية) أى غاية الكمال فى التخلق بأخلاق الله تعالى. (ويبلغوا باصطفاء الله تعالى لهم) أى يجعلهم من صفوة خلقه الذين اختارهم. (بالنبوة) متعلق بيبغوا أو باصطفاء. (فى تحصيل هذه الخصال الشريفة النهائية) التى لا يصل إليها غيرهم. والغاية والنهاية واحد لكنه تفنن فى العبارة. (دون ممارسة) أى من غير تكرار عمل ومزاولته. (ولا رياضة) أى تمرين على العملى باعتباره من رضت الدابة أرضها إذا عودتها السير والجرى.

(قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ [يوسف: ٢٢]) أى موسى صلى الله تعالى عليه وسلم بلغ نهاية قوته وتمام عقله وهو من ثلاثين إلى أربعين، أو ما بين ثمانى عشرة إلى ثلاثين، وهو مفرد أو جمع لا واحد له، أو واحده شد بالفتح أو الكسر، وقيل: خمسا وعشرين لما روى عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه قال: «ينتهى لب الرجل إذا بلغ خمسا وعشرين». قيل: هذا لا ينافى ما مر لما ذكره الفقهاء من أن رشد البالغ يبلوغ هذه السن؛ لأنه حال كمال لبه عن عمر رضى الله عنه.

(واستوى) ذكر الاستواء فى قصة موسى عليه الصلاة والسلام ولم يذكره فى قصة يوسف عليه الصلاة والسلام. قال التلمسانى: لأن الاستواء كمال العقل، ووقت الرسالة، وموسى أرسل فى ذلك الوقت، ويوسف لم يرسل حينئذ، ونقل ابن مرزوق عن ابن عرفة أنه قال: قال ابن جماعة: من استولى خمسين سنة فقد بلغ انتهاء الكهولة وهو مجتمع الأشد، ومن بلغ أربعين فقد بلغ حد الاستواء ومنتهى الكمال. انتهى.

﴿أَتَيْنَهُ حُكْمًا﴾ [يوسف: ٢٢] أى نبوة (وعلمًا) بالدين وسياسة الأمة. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢] علق وقوع الجزاء بالإحسان للتنبيه على أنه إنما جازاهم لكونهم محسنين أى مخلصين مراقبين لله أفعالهم. ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [يوسف: ٢٢] واستشهد المصنف رحمه الله تعالى بهذه الآية؛ لأنه تعالى أخبر فيها بكماهم وترادف نفحات الله عليهم، حتى ارتفعوا إلى أقصى الدرجات من غير سبق ممارسة رياضة.

(وقد نجد غيرهم) أى غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. (يطبع) أى يخلق مجبولا. (على بعض هذه الأخلاق الشريفة دون جميعها) وفى نسخة: دون بعضها (ويولد عليها) موجودة فيه وجودا متأصلا وهذا كالتفسير لما قبله. (فيسهل عليه اكتسابه تمامها عناية من الله عز وجل) منصوب بنزع الخافض، أى بعناية الله ولطفه إذ جبله على أصولها (كما يشاهد من خلقه) بكسر الخاء المعجمة وسكون اللام وقاف وهاء تأنيث أو بفتحتها

مضافا لضمير الله، والأول أولى وعليه اقتصر ابن رسلان. (بعض الصبيان على حسن السميت) السميت: الطريق وهيئة أهل الخير، يقال: ما أحسن سمته أى هديه وسيرته. وقد ورد فى الحديث بهذا المعنى.

(أو الشهامة) أى أو خلقه على الشهامة بفتح الشين المعجمة والهاء والميم، أى حدة الفؤاد والذكاة والجلادة والنقاد فى الأمور، يقال: رجل شهم إذا كان سيدا نجيبا نشيطا فى اكتساب المعالى وعدم الالتفات للملاحاة والخصومة. وفى الحديث: «من لاحى الرجال سقطت مروءته وذهبت كرامته، ومازال جبريل ينهانى عن ملاحاة الرجال كما ينهانى عن عبادة الأوثان». (أو صدق اللسان أو السماحة) كان الظاهر عطفها بالواو لكنه لما أتى بيانا لبعضها رأى أن أو الفاصلة أنسب.

(وكان نجد بعضهم على ضدها) أى ضد المذكورة كالكذب والبخل، وعبر بعلى لأنه متمكن منها تمكن الراكب من مركوبه، كما فى قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥] (فبالا كتساب يكمل ناقصها) فإن قلت: لم عبر هنا بالكمال وقبله بالتمام؟ وهل هو تفنن فى التعبير أو بينهما فرق؟ قلت: قال العيني: بينهما فرق إلا أنه لم يفصح عنه. وقال ابن أبى الأصبع فى كتاب «التوكيد»: الفرق بينهما أن التمام الإتيان بما نقص من الناقص والكمال الزيادة على التمام، فإذا قلت رجل تام الخلق لم يفهم منه السامع عربيا كان أو غيره، إلا أنه تام الخلق ليس فى أعضائه نقص، فإذا قلت: إنه كامل فهم وصفه بمعنى زائد على التمام كالحسن والفضيلة الذاتية، أو العرضية، وهذا هو المتداول بينهم، فالكمال تمام وزيادة، فهو أخص منه وقد يطلق كل منهما على الآخر تجوزا، وعليه قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣] انتهى. وما ذكره المصنف رحمه الله تعالى يتمشى على الأخير حيث جعل ما فى حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تماما فى حق غيرهم كمالا ولو عكس كان أحسن.

(وبالرياضة والمجاهدة يستجلب معدومها) بالجيم والبناء للمجهول، أى تكتسب وتحصل لمن لم يطبع على شىء منها وطبع على ضدها، وإن لم يكن الطبع كالتطبع، وهذا قسم آخر غير ما تقدم، فإن الأول وهو مرتبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يطبع على جميعها. والثانى أن يطبع على بعضها ويكتسب البعض، وهذا أن يطبع على عدمها ولكونه ناقصا لم يتعرض له أولا، فسقط ما قيل إن الرياضة والمجاهدة طريق الاكتساب، وقد قرر أنه يطبع على بعض هذه وبالاكتساب يكون كمالها إلى كمال البعض الخلقى، إلا أنه بعينه استجلاب المعدوم بالنسبة لذلك البعض.

(ويعتدل منحرفها) المراد بمنحرفها المائل عن الاعتدال المحمود، لأنه هو الطريق فمن

فرط أو أفرط فقد مال عنه، وهذا بناء على القول الأصح أن الطباع يمكن تغييرها وإلا لضاعت المواعظ والنصائح، وكان الإنسان دون البهائم التى يرياضتها قد تتعلم ما ليس فى طباعها، وقد قال الله تعالى: ﴿وَعَظَّمَهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣] وقال الشاعر<sup>(١)</sup>:

تكرم لتعتاد الجميل فلن ترى أحاك كرم إلا بأن يتكرما

كما فصل فى علم الأخلاق (وباختلاف هذين الحالين) الجبلى والكسبى (يتفاوت الناس فيها) أى فى الصفات الحميدة قلة وكثرة وقوة وضعفا.

(كل ميسر لما خلق له) هذا من الأمثال النبوية وجوامع الكلم، وهو بعض من حديث صحيح وأوله: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فمن خلق سعيدا يعمل عمل أهل السعادة، ومن خلق شقيا يعمل عمل أهل الشقاء». ولذا كان التوفيق خلاق قدرة الطاعة والخذلان خلاق قدرة المعصية. وقال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۖ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۖ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۖ ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۖ﴾ [الليل: ٥ - ١٠].

(ولهذا) التفاوت فيها (ما قد اختلف السلف فيها) ما فى أكثر النسخ وهى موصول اسمى أو حرفى أو زائدة، ولذا سقطت من بعض النسخ وهو الأظهر، والمراد بالسلف من تقدم من العلماء. (هل هذا الخلق) الحسن الذى يحمد به الناس (جيلة أو مكتسبة) الجيلة والغريزة والطبيعة والسليقة بمعنى، وهى بكسر الجيم والباء وتشديد اللام وتخفيفها. (فحكى) الإمام المفسر محمد بن جرير (الطبرى عن بعض السلف أن الخلق الحسن) الذى يجمع أكثر الطبائع المحمودة (جيلة وغريزة) خلقها الله (فى العبد) وتعبيره بالعبد إيماء إلى أن المطلوب منه تخلقه بأخلاق الله وسيده.

(وحكاية عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه والحسن) البصرى (وبه قال هو) أى ابن جرير صرح به لأنه لا يلزم من حكايته اعتقاده له. (والصواب ما أصلناه) أى قدمناه وجعلناه أصلا وقاعدة فيما مر من أن منها ما هو جيلة غير مكتسبة، ومنها ما هو مكتسب بالتعلم والرياضة، وقد تقدم الكلام عليه.

(وقد روى سعد) أى ابن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه (عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال: كل الخلال) بكسر الخاء المعجمة بوزن رجال جمع خلة بفتح الخاء

(١) البيت من الطويل، وهو للمتلسم فى ديوانه (ص ١٤)، لسان العرب (١٢/٥١٢)، تاج العروس (كرم).

المعجمة وتشديد اللام وهى الخصلة والصفة. (يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب) وهو حديث صحيح رواه أحمد فى مسنده، والبيهقى فى شعب الإيمان، وابن أبى شيبة فى المصنف، عن أبى أمامة رضى الله تعالى عنه. ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت عن سعد مرفوعا وموقوفا. وقال الدارقطنى فى العلل: الموقوف أشبه. وعنه صلى الله تعالى عليه وسلم كما رواه الذهبى: «يطبع المؤمن على كل شىء إلا الخيانة والكذب»<sup>(١)</sup>. والخيانة ضد الأمانة وهى تشمل أمورا كالسرقة، وإنكار الوديعة، وخيانة غيره بالنظر لزوجته ونحو ذلك. والكذب معروف يعنى أن هذين لا يكون طبيعة مخلوقة فى المؤمن مطلقا، لأن المؤمن جبلته وفطرته سليمة، وهاتين الخصلتين فى غاية القبح فلا يختار اتصافه بهما، وإن كانت هذه الخصلة تقتضى كفره، أو المراد المؤمن الكامل.

(وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه) قال السيوطى: رواه عنه سعيد بن منصور فى سننه. وابن جرير، وابن أبى حاتم. (فى حديثه والجرأة) بوزن الجرعة وقد تنقل حركة الهمزة للراء وتحذف وهى الشجاعة أو أعم منها، ومقابلة ما أشار إليه بقوله: (والجبن) بضم الجيم والباء وتخفيف النون وتسكن بأؤه كثيرا، وهو عدم الإقدام للخوف وضده الشجاعة، وأما الجبن المأكول فبتثقيب الباء والنون وقد تخفف فيكون كهذا، ولذا تملح القائل:

يقولون لى هل اجترأت لدى الوغى      وكنت شديد البأس فى الضرب والطعن  
فقلت دعونى قانعا بسلامتى      فإننى ممن يأكل الخبز بالجبن

(غرائب يضعها الله تعالى حيث يشاء) وفى هذا وما قبله دليل لما صوبه، فإنه فيما قبله جعل الخيانة غير مطبوعة، وفى حديث عمر رضى الله عنه جعل الخيانة والجرأة غريزتين مطبوعتين، فدلا على ما ادعاه من أن منها ما هو طبعى، ومنها ما هو غير طبعى. (وهذه الأخلاق الحمودة والخصال الشريفة كثيرة) لا يمكن استيفاء أقسامها تفصيلا (ولكننا نذكر أصولها) التى تتضمن باقىها إجمالا. (ولا نشير إلى جميعها) إشارة لا تصريحاً (وتحقق وصفه صلى الله تعالى عليه وسلم بها إن شاء الله تعالى) فإنه المقصود من ذكرها.

\* \* \*

### [فصل فى أصول الأخلاق]

(فصل: أما أصل فروعها)، هذا الفصل معقود لبيان أصول الأخلاق تصريحاً، والإشارة إلى جميعها تلويحاً، لتحقيق وصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بها، وضمير

(١) أخرجه أحمد (٥٥٢/٥)، والبيهقى (١٩٧/١٠)، وابن عدى (٤٤/١).

فروعها للأخلاق المذكورة قبله، (وعنصر)، هو بضم الصاد وفتحها، والأول أشهر، والثانى أفصح، ومعناه: الأصل والمادة، والعناصر إذا أطلقت يراد بها التراب والماء والهواء والنار؛ لتكرب جميع الأجساد منها، والينابيع فى قوله: (ينابيعها)، جمع ينبوع، وهو ما ينبع الماء منه، كالعين، وكل ما يتفجر منه الماء.

(ونقطة دائرتها)، والنقطة جزء من الخط، والسطح مركب من خطوط مسطحة، فإذا كان السطح مستديرا، يكون فى حلق وسطه نقطة جميع الخطوط الخارجة منها إلى الخط المستدير الذى يحيط بالسطح متساوية، فتلك النقطة تسمى مركزا، وذلك السطح يسمى دائرة، وكذا الخط المحيط به، ويصح إرادة كل منهما هنا، فشبه العقل الذى مبنى الأخلاق عليه بشجرة أصلها العقل، وفروعها الأخلاق، ونورها وثمراتها ما يظهر منها وينتفع به غيره، ثم شبهه بعين تلك الأخلاق، كمائها الفائض منها، ثم شبهه بنقطة فى الوسط المعتدل يتساوى جميع جوانبها، والأخلاق كسطح أو خط محيط بها، فقال: (فالعقل)، وهو مشتق، أى مأخوذ من عقله إذا شده، فمنعه من الحركة؛ لأنه يمنع صاحبه مما لا يليق، أو من العقل، وهو الملجأ لاتجاه صاحبه إليه، وهو كما قال الراغب: يقال للقوى المتهية لقبول العلم، ويطلق على العلم المستفاد منه، ولذا قال على، كرم الله وجهه: «العقل عقلان، مطبوع ومسموع، ولا ينفع مطبوع إذا لم يكن مسموع، كما لا ينفع ضوء الشمس وضوء العين».

وفى الحديث: «ما كسب أحد شيئا أفضل من عقل يهديه إلى هدى، أو يرده عن ردى».

وقال بعض الحكماء: هو جوهر، وقال آخرون: جسم شفاف محله الدماغ أو القلب، والأصح أنه قوة نفسية هى منشأ الإدراك، وليس المراد به هنا العقل العاشر المسمى بالعقل الفعال كما قيل؛ لأن أهل الشرع لا يقولون بمثله.

وقوله: (الذى ينبعث منه)، أى ينشأ ويخرج، وهذا ناظر لكونه ينبوعا، وقوله: (العلم والمعرفة)، العلم يكون بمعنى مطلق الإدراك، وبمعنى إدراك الكليات، والمعرفة إدراك الجزئيات، وقيل: إنها ما سبق بالجهل، وقال البيضاوى: إنها تكون بمعنى العلم، كما أن العلم يكون بمعنى المعرفة، كما فى قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْ دُونِهِمْ لَا يَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، أى الله يعرفهم، والعلم بمعنى المعرفة.

قال الفاضل المحشى معترضا عليه: صرحوا بأن العلم بمعنى المعرفة لا يطلق على الله؛ لاقتضائه سبق الجهل، وتبع فيه السيد فى شرح المواقف فى قوله: علم الله لا يسمى

معرفة لا اصطلاحاً ولا لغة إجماعاً، وخطأه فيه الحافظ العراقى، رحمه الله تعالى، فى نكته على المنهاج، فقال: إن إمام الحرمين فسر العلم به.

وإطلاق المعرفة على الله ورد فى الحديث، وكلام الصحابة، وأهل اللغة، والمتكلمين. انتهى. فأى إجماع مخالف لهذا، ومثله عجيب من الشريف.

(ويتفرع) أى يبنى ويظهر، ناظر لكونه أصلاً، (عن هذا)، عداه بعن؛ لتضمنين يتفرع معنى ينشأ، والمعروف تعديته بعلی، وهذا إشارة للأصل الذى هو العقل، (ثقبوب الرأى)، أى نفاذ رأيه فيما يفكر فيه ويدرك به عواقب الأمور، ومنه كوكب ثاقب، أى مضىء، فقله: (وجودة الفطنة)، وهى الحذق وسرعة الانتقال، (والإصابة)، أى موافقة الصواب فيه تفسير لثقبوب الرأى، (وصدق الظن)، أى موافقته الواقع كاليقين، كما قال:

الألمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

(والنظر للعواقب)، أى كأنه ينظر عواقب الأمور ويشاهدها، كما قال:

وإنى لأرجو الله حتى كأنما أرى بجميل الظن ما الله صانع

(ومصالح النفس)، مجرور معطوف على العواقب، أو مرفوع معطوف على ثقبوب الرأى، أى ما فيه صلاح وخير لها، (ومجاهدة الشهوة)، أى مدافعتها وممانعتها عما تريده، فإنه جهاد أكبر، وأعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك، (وحسن السياسة) بغيره بأمره، من ساسه إذا حكم عليه، وهو لفظ عربى لقوله:

وكننا نسوس الناس والأمر أمرنا

وليس معرباً كما توهمه ابن كمال فى رسالة التعريب كما مر بيانه، (والتدبير)، النظر فى إدبار الأمور وعواقبها، وهو عطف تفسير لما قبله أيضاً (واقثناء الفضائل)، أى اكتسابها والتحلى بها، (وتجنب الرذائل)، أى ترك كل ما يلزم وينقص به الإنسان، كالكذب والخيانة.

(وقد أشرنا)، أى ذكرنا فيما تقدم فيما أوردناه فى صفاته والإشارة، وإن كانت تطلق على ما يقابل العبارة، قد يراد بها العبارة أيضاً لنكتة، (إلى مكانه منه، عليه الصلاة والسلام)، الضمير الأول له، صلى الله تعالى عليه وسلم، والثانى للعقل، والمكان الرتبة المعنوية فى الفضائل، يقولون: فلان بمكان من الفضل، يريدون علو رتبته فيه، وقيل: المراد مكانه من العقل، بمعنى أنه حائز، وله مالك لأمره على طريقة التجريد، مبالغة فى تمكنه منه، ولا يخفى ما فيه من التكلف من غير داع له، (وبلوغه منه ومن العلم الغاية

التي لم يبلغها بشر سواه)، كما سنيينه، (وإذ جلالة محله من ذلك)، قيل: الظرف متعلق بقوله: حارت العقول الآتى في آخر الفصل، أى حارت العقول وقت حلوله إلى آخره، و«إذ» تعليلية، أى حارت العقول لأجل... إلخ.

وقيل: أنه علة للإشارة إلى مكانه منه وبلوغه غايته، أى من أجل أن جلالة محله... إلخ، و«إذ» تعليلية كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ أَلْيَمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾ [الزخرف: ٣٩]، وقيل: المعنى من أجل أن جلالة محله متحقق يجب اعتقاد ذلك، ويجوز أن يكون ذلك لمجرد التحقق، ولا يخفى ما فى هذا كله من التكلف، والذي ظهر لى أنه معطوف على ما قبله؛ لأنه يعلم من إشارته إلى مكان منه لم يبلغه غيره علو ظاهر فيه، فكأنه قال: إذ علو قدره فيه محسوس مشاهدته، وإذ جلالة محله أمر متحقق بالدليل القاطع، فاستدل عليه بالחס والعقل، ومثله يسمى العطف على المعنى، وهو فى القرآن وكلام العرب متداول، قال ناظر الجيش فى شرح التسهيل فى قوله<sup>(١)</sup>:

أجدك لن ترى بفعليات      ولا بيدان ناجية ذمولا  
ولا متدارك والليل طفل      ببعض نواشغ الوادى حمولا

متدارك بالجر؛ لأن المعنى لست براء ولا متدارك، وجعله أبو حيان من العطف على التوهم، كقوله<sup>(٢)</sup>:

مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة      ولا ناعبا إلا يمين غرابها

والأولى أنه من العطف على المعنى، وفرق بينه وبين العطف على التوهم، وفيه كلام، وقد بيناه فى نكت المعنى.

وقوله: «من ذلك» إشارة للأصل، ولو سلمنا صحة تعلقه بقوله: حارت، كان معطوفا على ما قبله، ولا وجه له، (وما يتفرع منه)، من الأخلاق الشريفة وثمراتها، (متحقق) لا ريب فيه؛ لتواتره بحسب المعنى (عند من تتبع)، أى علم، فعبر بالسبب عن مسببه، كما قالوه فى تتبع خواص التراكيب، (مجارى أحواله)، جمع مجرى أو مجرى بالضم، وأصله مسيل الماء، والمراد ما جرت به عادته فى أحواله، ولا يخفى لطفه مع ملاحظة قوله أولا: ينايعها، فإنه جار على مجراها ومنحدر إليها، (واطراد سيره)، الاطراد افتعال من الطرد، وهو الجرى خلف شىء من صيد أو غيره، ومنه مطاردة

(١) البيتان من الوافر، وهما للمرار بن سعيد فى ديوانه (ص ٤٧٥).

(٢) البيت من الطويل، وهو للأحوص الرياحى فى الإنصاف (ص ١٩٣)، الحيوان (٣/٤٣١)، خزانة الأدب (٤/١٥٨)، شرح المفصل (٢/٥٢)، شرح أبيات سيويه (١/٧٤).

الفرسان فى الميدان، ومناسبتة للسير، وإن كان المراد بها مطلق الصفات؛ لأنها تختص بالغزوات، وقيل: المراد محال اطرادها؛ ليوافق قوله: مجارى أحواله، أى محال جريانها، والاطراد مصدر أطرده الشيء، تبع بعضه بعضا فجرى، والأنهار تطرد، أى تجرى، ومنه الاطراد البديعى لسرد أسماء المدح وإبانة مرتبته، والمعنى جرى سيره فى جداول الكتب منسجمة، فهو استعارة وجه الشبه فيها الكثرة، ولا يخفى ما فيه من البعد، (وطالع جوامع كلامه)، أما جمع جامع، والمراد الكتب الجامعة للحديث الشريف، أو كلماته الجامعة للحكم التى تتحير فيها عقول البلغاء والحكماء، (وحسن شمائله)، بالجر معطوف على كلامه، وهى جمع شمال، بمعنى الخلق والصفة، قال:

فما لمؤمن أحد من شماليا

أى من خلقى وعادتى.

(وبدائع سيره)، أى سيره البديعة، وينبغى أن يراد بها كتب، حتى لا يكون مكررا مع ما مر، (وحكم حديثه)، بكسر الحاء، وفتح الكاف، وهى القول المصيب غرض الحق، والحديث معروف، (وعلمه بما فى التورة والإنجيل والكتب المنزلة)، بالتشديد والتخفيف على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، كالزبر والصحف، أى على علمه بذلك، والتورة أجل الكتب المنزلة قبل القرآن، وأصلها «وورية»، أبدلت الواو تاء، ووزنها تفعلة، بفتح العين أو كسرهما، وقيل: وزنها فوعلة، والإنجيل بالكسر، وقد تفتح، من النجل، وهذا أمر تقديرى ليجرى عليه أحكام الألفاظ العربية، إذا الاشتقاق لا يجرى فى غير كلام العرب، (وحكم الحكماء)، جمع حكمة، أى ما لهم من الحكم فى كلامهم، فإنهم كان لهم اعتناء بذلك، وقد مر أنه جمعها ابن مشكويه فى كتاب كبير سماه جادان خردن، وقد طالعه فرأيت أكثره ورد فى الأحاديث الشريفة، ولكن أين الثريا من الثرى؟ فإن رونق الألفاظ النبوية لا يمكن مضاهاته، (وسير الأمم الخالية)، أى ما وقع فى زمنهم من الأحوال كما كان ﷺ يحدث عن بنى إسرائيل، وما كان من عجائبهم (وأيامها)، أى وقائعها فى حروبها ومجاداتها، فإن الأيام شاعت بهذا المعنى، كما يقال: يوم حليلة، ويوم بعث، وهو إطلاق شائع صار حقيقة فيه، ومما قلته مشيرا لهذا المعنى:

تمنيت من دهرى زمان نشأتى زمان به طيف السرور كأحلامى

فجاء بأيام على أثر ما مضى ولكن حروب قد تسمت بأيام

(وضرب الأمثال)، الأمثال جمع مثل، وهو كلام شبه مضربه بمورده الذى وقع فيه



أولاً، مستعار من ضرب الخاتم أو اللبن، كما حققه أهل المعاني والتفسير، وهو مما يعتنى به البلغاء لكشف المعنى الممثل له وإبرازه في صورة المشاهد إلى غير ذلك، والأمثال النبوية أفردت بالتأليف، (وميسامات الأنام)، السياسة ضبط أمور العامة باللسان والسنان وتدبير أحوالهم، وليس المراد حسن الإدارة، كما قاله التلمساني، والأنام الخلق، وقيل: الأنام عبارة عما يعتريه النوم، أو الإنس، أو الجن، أو ما على الأرض من الخلق، فيختلف بحسب ما يضاف إليه، (وتقرير الشرائع)، أى بيان ما يتعلق بأحكام الشرع في المعاملات وغيرها، (وتأصيل الآداب النفيسة)، أى بيان أصول الآداب التى تتأدب بها الناس فى مجالسهم ومحاوراتهم، كقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «أكرموا عزيز كل قوم»، ونهيه عن الملاحة والمجادلة كما مر، وقوله: (تهادوا تحابوا)، وسماها نفيسة؛ لأنها مما يتنافس فيها المتنافسون، (والشيم الحميدة)، جمع شيمة، وهى العادة، قالوا: الإنصاف من شيم الأشراف، أى عاداتهم، والحميدة بمعنى الحمودة، مضموماً ما ذكر، (إلى فنون العلم) التى كانت فى الأمم السالفة، كالطب وغيره؛ لما لم ينه الشرع عنه، (التي اتخذ أهلها كلامه، عليه الصلاة السلام، فيها قدوة)، اقتدوا به فيها، واستدلوا به عليها، (وإشاراته) فى أثناء كلامه بها (حجة)، دليلاً عليها (كالعبارة)، بفتح العين بضبط القلم، والحفوظ فيه كسرهما، كما قاله البرهان الحلبي، وذكره الأزهرى الجوهري، إلا أنه لم يضبطه، والذى فى النسخ كسر العين، بمعنى تفسير الرؤيا، وهو على قسمين فى الرؤيا الصحيحة؛ لأنها على ثلاثة أقسام، رؤيا ظلمة من الشيطان، ومن عوارض بدن الإنسان، كمن غلبت عليه الحرارة فرأى نارا توقد عنده، أو البرودة فرأى ماءً وبحراً، أو أكل مأكلاً غليظة سوداوية كالبادنجان فرأى سواداً، ويسمى أضغاث أحلام، ولا تأويل لها، وكذا من غلب فكره فى شيء فرآه، كما قال المعري:

إلى الله أشكو أننى كل ليلة إذا نمت لم أعدم خواطر أوهامي  
فإن كان شراً فهو لا بد واقع وإن كان خيراً فهو أضغاث أحلام

ورؤيا من الله يريها له ملك الرؤيا عند أهل الشرع، أو تدر كها الروح إذا انقطعت عنها علائق البدن واتصلت بالملا الأعلى، فتلقاها إلى القوة المتخيلة، فترسم فى الحافظة، وتبقى مشاهدة فيها حتى يستيقظ، فإن كانت النفس قدسية والقوى قوية، وقع ما رآته بعينه، ولم يحتاج للتأويل، وهو الأكثر فى رؤيا الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ومن كان على سنتهم، ولذا أراد الخليل، عليه الصلاة والسلام، ذبح ابنه، ولم يأول رؤياه بالفداء، حتى أمره الله تعالى به، وإلا فتأول بما يناسبه معنى أو لفظاً أو محاكية صورة.

وفعلها «عبر» بالتخفيف، يعبر بالضم، عبارة بالفتح، كعلاقة وظلامه، أو عبارة

كرسالة، وقد تشدد فيقال: عبر تعبيراً، قال في الكشف في سورة يوسف: رأيتهم ينكرون عبرت بالتشديد والتعبير والمعبر، وقد عثرت على بيت أنشده المبرد في الكامل يدل عليه، وهو (١):

رأيت رؤيا ثم عبرتها وكنت للأحلام عباراً

انتهى.

هذا ما ذكره من يوثق به في اللغة كالجوهري، وصاحب القاموس وغيره، وقال في عمدة الحفاظ: العبارة بكسر العين تختص بالكلام؛ لعبور الهواء من لسان المتكلم لسمع السامع، ولا يستعمل في تفسير الرؤيا، يعني أنها فيه مفتوحة لا غير، فتوهم بعض الشراح أنها بكسر العين لا غير، وأنه أنكر هذا اللفظ مطلقاً وأساء سمعاً، فساء ما جاء به، ثم جاء من بعده، فضاربه مضاربة العميان، فقال: إنه كلام ضعيف مردود، فلم يقف على المراد، ولم يأت بما يدفع الإيراد، فأخطأ في المعنى والعبارة، وأما تحقيق معنى الرؤيا، فليس هذا محله، ولعل النوبة تفضي إليه في بحث النبوة، وقد أفردنا له تعليقة، (والطب)، وهو مثلث الطاء، إلا أنه لم يستعمل فيما نحن فيه إلا بالكسر، والمراد به علم يتعلق بيدن الإنسان من حيث الصحة والمرض، وهو من علوم الأوائل، وللعرب به اعتناء، وقد أفرد الطب النبوي بالتأليف.

(والحساب)، بكسر الحاء، مصدر حسب، بمعنى عد، ثم صار علماً لعلم يعرف به أحوال المقادير، وهو من العلوم الرياضية القديمة، (والفرائض)، ذكره بعد الحساب؛ لتوقفه عليه، وهو علم يعرف به أحوال الموارث، وهو جمع فريضة بمعنى مفروضة؛ لأن الله فرضه، وهو من العلوم الإسلامية، وإطلاق هذا اللفظ عليه بعد نزول القرآن، ومعناه ظاهر، (والنسب)، أي معرفة أنساب الناس من آدم، عليه الصلاة والسلام، إلى كل عصر، وهو من علم التاريخ، وكانت العرب تعتني به، وهو أعلم الناس به، وأعلم الناس به بعد النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، الصديق، رضى الله تعالى عنه، وهو من نسبت الرجل، إذا عزوته لأبيه، ومناسبته للفرائض ظاهرة، وهذه العلوم كلها شرعية وفرض كفاية، لاسيما الفرائض والأنساب، فإن النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، أمر بالحفاظة عليها، ولعن من انتسب لغير نسبه، فقال: «من خرج من نسبه وانتمى لغير قبيلته، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»، كما نقله التلمساني، (وغیر ذلك مما سنبينه في معجزاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، في أبوابه إن شاء الله تعالى)، وقد حصل له، عليه

(١) البيت من السريع، وهو لأعرابي في الكامل (ص ٥٦٣)، وبلا نسبة في تاج العروس

السلام، ذلك (دون تعليم) من أحد من البشر، والظرف متعلق بقوله: علمه السابق، (ولا مدراسة)، من درس الكتاب إذا قرأه وحفظه، أى لم يعرف بأخذه من الأفواه، وحفظه لشيء من العلوم عن غيره، (ولا مطالعة كتب)، يقال: طالعت الشيء إذا اطلعت عليه، أى لم يطلع على شيء من الكتب بقراءتها أو سماعها؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان أمياً بين قوم أميين، لم يره أحد قرأ ولا تعلم ممن قرأ، واستعمال المطالعة بمعنى القراءة، وهو مجاز مشهور قريب من معناه اللغوي، (من تقدم)، ككتب الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، والحكماء، (ولا الجلوس إلى علمائهم)، أى لم يعرف أحد أنه جلس عند أحد ممن يعلم كتب من تقدم ليأخذها عنه، والضمير لمن باعتبار المعنى، فكل ذلك الذى حصل له، صلى الله تعالى عليه وسلم، إنما هو علم لدنى غير مكتسب من أحد من البشر.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، ففيه الرد على قولهم المذكور بأنه كذب محض، يشهد العيان بطلانه، وقد تولى الله تكذيبهم فى ذلك، كما هو مبسوط فى التفسير، (بل) هو، صلى الله تعالى عليه وسلم، نبي أمى لم يعرف بشيء من ذلك التعلم والمدارسة والمطالعة والمجالسة، أى منبئ عن الله، أو منبئ لا عن مخلوق، والأمى منسوب إلى الأم؛ لأنه كيوم ولدته أمه، أو إلى أم القرى، أو أمة العرب؛ لأن القراءة والكتابة كانت عزيزة فيهم، والأمى الذى لا يكتب ولا يقرأ الكتب، وقيل: هو الذى لا يكتب، وبما شرحناه علمت مناسبة ذكر النبي هو، وفى الحديث: «إنا أمة أمية، لا نحسب، ولا نكتب»<sup>(١)</sup>، أى على جبلتنا، لم نتعلم حساباً ولا كتابة، فلا ينافى ما مر من علمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالحساب، (حتى شرح الله صدره)، أى وسعه ونوره بالعلم والحكمة، وهده لكل خفى من العلوم، (وأبان أمره)، أى أظهر أمره فى العلم للناس بآياته الظاهرة، ومعجزاته الباهرة، وإقامته الحجج المتواترة، (علمه) من لدنه العلوم المعهودة وغيرها، (وقرأه)، أى أقدره على القراءة بما ألقاه، أو بما أوحاه إليه بواسطة الملك، والإسناد مجازى، أو التجوز فى الظرف، كقوله تعالى: ﴿سَتَقَرُّكَ فَلَا تَنْفَكُ﴾ [الأعلى: ٦]، (يعلم) بالبناء للمجهول، (ذلك)، أى ما بلغه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من العقل والعلم من غير تعلم، (بالمطالعة)، أى بالاطلاع على سيره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وشمائله من كتب الحديث، (والبحث عن حاله)، وفى نسخة: من حاله، والظاهر الأول؛ لتعديه بعن، وهو بمعنى التفتيش عنه بالسؤال وغيره، (ضرورة)، منصوب بنزع خافض متعلق بـ يعلم، أى من وقف على أحواله، صلى الله

(١) أخرجه مسلم (١٠٨٠/١٥)، وأبو داود (٢٣١٩)، والنسائي (١٣٩/٥)، وأحمد (٤٣/٢)، (٥٢).

تعالى عليه وسلم، علم ذلك بمجرد التفات الذهن إليه من غير احتياج إلى دليل.

(وبالبرهان القاطع على نبوته ﷺ نظرا)، أى ويعلم ذلك أيضا بالبراهين القاطعة الدالة على نبوته لمن نظر فيها، فقله: بالبرهان، معطوف على قوله: ضرورة، وعلى نبوته حال من البرهان، ونظرا تمييز، والنظر أصله تقليب البصر للإدراك، ثم استعمل فى التأمل والفحص والمعرفة الحاصلة منه والاستدلال، وهو المراد هنا، أى من نظر فى دلائل نبوته، صلى الله تعالى عليه وسلم، علم قوة عقله، وأنه أحاط بعلوم لا نهاية لها.

(فلا نطول بسرد الأقايصص)، السرد تعداد أمور من القصص ونحوها متتابعة متوالية، مستعار من سرد حلق الدرع وخيوط النسخ، والأقايصص جمع أقصوصة، كأعجوبة، بمعنى قصة، أو جمع قصص، على خلاف القياس كما قاله التلمسانى، يقال: قص واقتص، بمعنى أخبر، والقصص اسم مصدر، وقيل: إنه يحتمل أن يكون جمع أقصاص، جمع قصص، كأنعام وأنعيم فى جمع نعم، إلا أنهم تركوا استعمال أقصاص، فإنه لم يسمع، وفيه تكلف لا يخفى، (وآحاد القضايا)، أحاد بمحذو الهمزة، جمع أحد، بمعنى مفرداتها.

وفى العباب: سئل أبو العباس عن الآحاد، هل هو جمع الأحاد؟ فقال: معاذ الله، ليس للأحد جمع، ولكن إن جعلتها جمع الواحد فهو محتمل، كشاهد وأشهاد، وليس للواحد تثنية ولا للاتنين، وأحد من جنسه. انتهى. والقضايا جمع قضية، وهى الجملة من الكلام الدالة على معنى من الأحكام، وهى قريبة من قول أهل الميزان: القول المحتمل للصدق والكذب كالخير، فهى أخص من الكلام والجملة، ووزنها فعلى عند الكوفيين، وفعائل عند البصريين، (إذ مجموعها)، أى جميع قصصه وقضاياها، (ما لا يأخذه حصر)، أى ضبط، وأصل معنى الأخذ حوز الشيء وتحصيله، ثم استعمل بمعنى الغلبة والقهر، كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، كما مر، وهذا هو المراد هنا، وجعل مجازا أو كناية عن أنه لا يمكن حصره، وكذا قوله: (ولا يحيط به حفظ جامع)، أى لا يحفظ، والإحاطة الأخذ بجوانب الشيء، وأريد به ما ذكر، (وبحسب عقله). قال البرهان: هو فى الأصل بسكون السين، وينبغى أن يفتح، أى بقدر عقله وإدراكه، وقد جوز فيه السكون، لكنه ضرورة، والذى فى القاموس: هذا بحسب ذا، أى بعدده، وقد تسكن، ولم يخصه بالضرورة، (كانت معارفه، صلى الله تعالى عليه وسلم)، جمع معرفة، أى علومه، (إلى سائر ما علمه الله وأطلعاه عليه من علم ما يكون وما كان)، أى مضمومة إلى جميع ما أو باقى ما أطلعاه الله عليه مما تقدم فى الكون من أحوال الأمم الخالية وكتبهم وشرائعهم، وما أطلعاه الله عليه من المغيبات التى ستأتى، ولما كانت جلالة قدره

بواسطة علمه بما يكون أقوى منها بواسطة علمه بما كان، قدم ما يكون فى المستقبل على ما كان فى الماضى، مع سبقه اهتماما بشأته، ومقتضى الترتيب العكس، (وعجائب قدرته، وعظيم ملكوته)، مجرور معطوف على علم، والمراد ما أطلع الله عليه فى الإسراء من خلق الملائكة والسموات، وإقداره على ذلك فى برهة من الزمن، وقد مر أن الملكوت مبالغة فى الملك، كالرحموت والجبروت، ويطلق ويراد به عالم الأمر، ويقابله الملك، (قال الله تعالى): ﴿وَمَا يَصُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، أى علمك ما لم يكن من شأنك وفى قدرتك علمه، كالمغيبات، والإطلاع على أحوال الملكوت، ولذا امتن عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأنه فضل عظيم، فضله به على مخلوقاته تعالى؛ لأنه كقولهم: ما يكون لك أن تفعل كذا، أى لا ينبغي ولا يليق أو لا يصح ولا يمكن، ولذا ختم الآية بهذه المنة، دون قوله فى الآية الأخرى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم﴾ [العلق: ٥]، إلا أنه يبقى السؤال حيثئذ على الآية الثانية بأنه: أى فائدة فى ذكر هذا المفعول، والتعليم معلوم أنه لا يكون إلا لغير المعلوم، وقال فى عروس الأفراح بعدما ذكر أن لم النافية يجوز فيها اتصال النفى وانفصاله، وأنهما اجتماعا فى قوله: ﴿وَعَلَّمْتُمَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتَ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ [الأنعام: ٩١]، وفائدة ذكر المفعول فى قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، فإن كان الإنسان لا يعلم إلا ما لا يعلم التصريح بذكر حالة الجهل التى انتقلوا عنها، فإنه أوضح فى الامتنان. انتهى.

وفى حاشية السيرامى على المطول، أن الشارح قال فى بعض دروسه الأولى: أن يقول ما لم يكن يعلم، كما فى قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، إذ لا فائدة فى ذكر المفعول، إذ التعليم إنما يكون لما لم يعلم، ولم يكن فيه إشعار بأنه لو لم يعلمه لم يحصل العلم؛ خلفائه على غير علام الغيوب، وهو بعيد، إذ ربما يتوهم حصوله من تعليمه تعالى، ورد بأنه كقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم﴾ [العلق: ٥] الآية.

فالأولى أن يحمل ذكره على إفادة العموم؛ لأنه لثلا يتوهم اختصاصه ببعض الأفراد، كقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلْمٍ يَبْغِي بِجَنَاحِهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، للتأكيد فتذكر، لكن قوله: من البيان، يأباه ويحتمل أنه ذكر للسجع. انتهى.

أقول: هذا كله كلام سطحي، والذى ظهر لى فى الآية أن جملة علم الإنسان مفسرة للصلة، وما الموصولة عبارة عن الكتابة والقراءة، فإنه لما قال له، صلى الله تعالى عليه وسلم: اقرأ، فقال: «ما أنا بقارئ»، سواء أريد النفى أو الاستفهام، قال له: كيف لا

تقرأ ولك رب أكرم تفضل على عباده بنعم من أجلها أن كل إنسان كان أمياً مثلك في ابتداء أمره فعلمه الكتابة وقراءتها بالهامية، فكيف لا يعلمك وأنت أعزهم عليه وأقواهم بصيرة، فأى فائدة أتم من هذه، وكل فعل معتد يدل على فاعل ومفعول ثان التزاماً، ولذا لم ينفذ ضرب ضارب، وضرب المضروب، فإن أريد عموم أو خصوص أفاد، وهنا علم أنه لو قال: ما لم تكن تعلم، أو عقبه بما عقب به تلك الآية، لم يصادف محزه، وما قيل من أنه لم يذكر الكون في هذه الآية الكريمة وذكره ثمة؛ لأنه ورد في مقام خال عن اعتبار القوة والاجتهاد، فلا يناسبه ذكر الكون المؤذن بهما بخلاف تلك، ويؤيده قول الكرمانى فى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]: إن كان، ذكرت للتأكيد؛ لأن معناه كما فى الكشف: ما صح، ويعنى به نفى إمكان الإضاعة، وهو أبلغ من نفى الإضاعة نفسها، ومنه يعلم السر فى أنه أردف قوله: ﴿وَعَلَّمَكُمَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣] بقوله: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، ولم يردف هذه به؛ لما فى الأول من المبالغة والتأكيد. انتهى.

وقد علمت ما فيه مما تقدم، وقوله: (حارت العقول فى تقدير فضله عليه)، المذكور فى هذه الآية؛ لأنه لا يمكن الوقوف عليه، ولذا وصفه بأنه عظيم ونكره، وما يكون عنده تعالى عظيماً، كيف يعلمه سواه، (وخرست الألسن دون وصف يحيط بذلك) الفضل، وما لا يدرك كيف يوصف، وفى قوله: «خرست» دون سكنت وصممت مبالغة؛ لأنه يقتضى سلب القوة الناطقة، ثم ترقى، فقال: (أو ينتهى إليه)، أى كيف يحيط بما لم يصل إليه.

\* \* \*

### (فصل وأما الحلم)

أى حلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب وعدم إظهاره، (والاحتمال)، هو افتعال من الحمل، وهو يكون على الظهر وفى البطن، ففرق بينهما لفظاً، ثم استعمل فى التكليف، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُحْمِلُوا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وللصبر على المكاره وعدم التأثر منها، كما فى: «الماء لا يحمل الخبث»، وهو المراد هنا، (والعفو) عدم المؤاخذه بالذنب ونحوه، وهو قريب من المغفرة، وبينهما فرق تقدم، (مع القدرة)، وفى نسخة: المقدرة، بفتح الدال وضمها، وميم مفتوحة مصدر ميمي. بمعنى القدرة، ومن كلامهم: القدرة تذهب الحفيظة، أى الغضب والحمية، (والصبر على ما يكره)، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، من هذا بمرتبة لا تدرك، (وبين هذه الألقاب)، أى بين مسميات هذه الألقاب، (فرق) يتميز بها عن غيره،

واحتاجت إلى الفرق لتقارب معانيها، والمراد باللقب اللفظ الجامد الدال على صفة لا ما اصطلاح عليه النحاة، وهو كما قال الراغب: اسم يسمى به الإنسان غير اسمه الأول، ويراعى فيه المعنى بخلاف الإعلام، (فإن الحلم حالة توقر)، بفتح المثناة الفوقية، وضم القاف المشددة، أى إظهار الوقار، وهو السكون، يقال: هو وقور ووقار متوقر، أى ساكن غير مضطرب، (وثبات عند الأسباب المحركات) كالغضب، قيل: ولا بد من اعتبار كون هذا لسهولة حتى يخرج التحكم، وإن كان بعد الاعتياد يصير كذلك، (والاحتمال حبس النفس عند) ورود ما يعثر بها من (الآلام)، عند الهمزة، جمع ألم، وهو ما يؤلم فى أى عضو كان، (والمؤذيات)، بالهمزة، والواو، الذال المعجمة، جمع مؤذية، ولأذى كل ما يتأذى به، والمراد بحبس النفس ضبطها حتى تخضع لسلطان العقل وتطمئن لما يأمرها به، وفى نسخة العرفى رواية كما التلمسانى، المرديات بالراء، والذال المهملتين، من الردى، بمعنى الهلاك، (ومثلها) قيل: المراد مثل المذكورات، وقيل: المراد مثل الاحتمال، وأنت ضميره باعتبار أنه حال، ولو قال: ومثله كان أحسن، وأسلم من التكلف، (الصبر)، فإن معناه لغة الحبس، ومنه قتله صبرا، إذا مسكه ليقتله فى غير قتال، وهذا يؤيد إرجاع الضمير للاحتمال، (ومعانيها متقاربة). قال الراغب: الصبر الإمساك فى ضيق وحبس عما يقتضيه العقل أو الشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه، فالصبر لفظ عام، وربما خولف بين أسماء بسبب اختلاف مواقعها، فإن كان حبس النفس لمصيبة سمي صبرا لا غير، ويضاده الجزع، وإن كان فى محاربة سمي شجاعة، ويضاده الجبن، وإن فى نائبة تضجره، سمي ربح الصدر، ويضاده الضجر، وإن كان فى الكلام سمي كتماناً، ويضاده الذله. انتهى.

ومنه تعلم أن له معنيين خاص وعام، فلو حمله المصنف على الخاص، غاير أخويه، وهو الأول.

(وأما العفو، فهو ترك المؤاخذة)، بالهمزة وبالواو، غير فصيحة، وهى الجزاء على ما فعل غيره، قيل: وفى تفسيره بالترك إشعار بأنه لا يكون إلا عن قدرة؛ لأن من لا يقدر عادم لا تارك، فتقييده به أولا للأکید كنظر بعينه، كقوله:

وإن فى الحلم ذلا أنت عارفه      والحلم عن قدرة فضل من الكرم

لأنه إن لم يكن عن مقدرة فهو عجز، وما أحسن قول ابن زيدون:

أرى الدهر أن يبطش فمناك يمينة      وإن تبسم الدنيا فأنت لها ثغر  
عطاء ولا من وحكم ولا هوى      وحلم ولا عجز وعز ولا كبر

(وهذا كله مما أذب الله به نبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم)، أى آداب ومحاسن علمها الله لنبيه ﷺ، وأرشده بعدما خلق فيه استعدادا تاما لها، كما قال: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى»<sup>(١)</sup>، وهو أحد الحكم فى كونه ﷺ تربي يتيما، حتى يعلم أن ربه مربيه من غير حاجة لأمه وأبيه، فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩] الآية، وتماها ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وهذه الآية جامعة لمكارم الأخلاق، أى تعاط العفو عن الناس، وترك مؤاخذتهم، وفى عدوله عن أعف الأظهر الأخصر نكتة يعرفها من له إلمام بالأدب، كما أن فى قوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ دون عمل، إشارة إلى أنه متصف به مركوز فى جبلته، ومن تأمل مثله استخرج منها فوائد لا تحصى، ومنهم من فسر العفو بالمساهلة وترك المؤاخذة، والبحث عن مذام الأخلاق، فأمره بأخذ ما سهل من أخلاق الناس وأفعالهم من غير كلفة وطلب، لما يشق، واعترض عليه بأنه غير مناسب لقوله، (وروى أن النبي ﷺ لما نزلت عليه هذه الآية)، وهذا الحديث، كما قاله السيوطى: رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم، وأبو الشيخ فى تفاسيرهم، وابن أبى الدنيا فى مكارم الأخلاق، ووصله ابن مردويه من حديث جابر، رضى الله تعالى عنه، وعزاه الشيخ قاسم للبخارى، عن عبد الله بن الزبير فى قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ إلى آخره، أنه قال: ما أنزل الله هذه الآية إلا فى أخلاق الناس، وله فى رواية أخرى تعليقا عن عبد الله، قال: أمر الله تعالى نبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أن يأخذ العفو من أقوال الناس، أو من أخلاق الناس.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، أى عن معايهم ولا تمارهم، فإن كان شاملا لمداواة الكفار، فهو منسوخ بآية السيف، وإن كان أمرا بمكارم الأخلاق وعدم مقابلة من سفه، فليست منسوخة، قيل: ويعين هذا ما رواه البخارى من أن عيينة بن حصين استأذن له الحر بن قيس من عمر، رضى الله تعالى عنه، فى الدخول فدخل عليه، وقال له: يا ابن الخطاب، أما تعطينا الجزل، وتحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر، رضى الله تعالى عنه، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله عز وجل قال لنبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ الآية، وإن هذا من الجاهلين، فما جاوزها عمر رضى الله تعالى عنه، وكان وقافا عند كتاب الله، فهذا يدل على أنها غير منسوخة، وليس كما قال، فإنه يجوز أن يكون استشهد بها؛ لشمولها غير الكفار، لا أن هذا هو معناها فقط، (سأل) النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، (جبريل)، عليه الصلاة والسلام، (عن تأويلها)، أى تفسيرها وبيان المراد منها، فإنه أحد معنى التأويل، فقال له: (حتى

(١) انظر: الفوائد المجموعة (٣٢٧)، تذكرة الموضوعات (٨٧)، كشف الخفا (١/٧٢).



أسأل العالم، يعنى الله عز وجل، والعالم كالعليم من أسماء الله تعالى، ويوصف بهما غيره تعالى، أما الأول فظاهر، وأما الثانى فى حق الله فظاهر، وأما فى غيره، فكقوله<sup>(١)</sup>:

فإن تسألونى بالنساء فإننى عليم بأدواء النساء طيب

والثانى فى حق الله تعالى أشهر، وقيل: المراد العالم الكامل فى العلم، كما فى قوله: (ذلك الكتاب)، فيختص به، فإنه مساو بهذا المعنى للعليم، وأما العليم، فإطلاقة على غير الله لم يسمع، والشعر المذكور لابن الوردى، وهو من المتأخرين، لا يستدل به، وهذا الحديث يكفى شاهدا لإطلاق العالم على الله، فهو كاف فى ثبوته.

أقول: هذا عجيب من مثله، وفيه من الخلط ما لا يخفى، أما قوله: إن الشعر المذكور لابن الوردى، فافتراء عليه؛ لأنه شعر فصيح لبعض العرب، وهو مذكور فى الشواهد، وأما استدلاله على العالم بالحديث، وهو مذكور فى القرآن، كقوله: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣]، فمما يقضى منه العجب، وأما قول جبريل، عليه الصلاة والسلام: حتى أسأل العالم، دون أسأل الله، فكأنه تأدب منه؛ لإيهام أنه لا يسأل الله بالذات، فكان بينه وبينه واسطة، أى من هو عالم بالتفسير، وفيه إرشاد لمن سئل عن شىء لاسيما القرآن، فينبغى أن يثبت فيه.

وفى جبريل تسع لغات: جبريل، بكسر الجيم، وجبريل، بالفتح، وجبرئيل، بالفتح مهموزا مشددا للام، وجبرائيل بهمزة بعد الألف، وجبرئيل مفتوحا بهمزة بلا ألف وياء، وجبرئيل، وجبرين بنون وفتح الجيم وكسرها، وفيه لغات أخرى. وقال الجوهرى والأزهري وكثير من المفسرين فى جبرئيل وميكائيل: إن جبر وميك معناهما عبد وثيل وإل اسم الله. وقال أبو على الفارسى: هذا خطأ؛ لأن ال لم يذكر أحد أنه من أسماء الله تعالى، ولأنه لو كان كذلك كان عبد الله يلزم آخره حالة واحدة، ولا يعرب بحسب العوامل. قال النووى: وهو الصواب، ولا يخفى ما فيه، فإن ال إذا كان اسما لله، فهو سريانى، فلا يأتاه عدم معرفة العرب له، وأما إعرابه، فلأنه لما عرب غير عما كان عليه، وجعل اسما واحدا، ولذا أرجعوه لأوزانهم، والعرف هو الخصال المحمود، لا العرف الشرعى كما توهم، (فأناه)، الفاء فصيحة، أى انفصل عنه وفارقه، ثم أتاه، (فقال: يا محمد، إن الله يأمرك أن تصل من قطعك)، الظاهر أن المراد به صلة الرحم، والرحم بمعنى القرابة، وصلتهم بالإحسان إليهم وفعل الجميل وقوله، كاهدية، والزيارة، وإرسال

(١) البيت من الطويل، وهو لعلمة الفحل فى ديوانه (ص ٣٥)، أدب الكاتب (ص ٥٠٨)، الأزهية (ص ٢٨٤)، الجنى الدانى (ص ٤١)، الدرر (١٠٥/٤)، المقاصد النحوية (١٦/٣)، همع الهوامع (٢٢/٢).

السلام، ونحو ذلك، وضده قطع الرحم، ويحتمل التعميم لتعليم الخلق، وترك التهاجر المنهى عنه، كما فى قوله: **﴿وَتَعْطَىٰ مِنْ حَرَمِكَ﴾**، يقال: حرمه وأحرمه بمعنى، أى أحسن إلى من لم يحسن إليك، وهذا إرشاد له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولأتمته، وإن كان لا يرجو غير الله وإحسانه، **﴿وتعفو عمن ظلمك﴾**، هذا معنى قوله: **﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾**، وما قبله، يعنى **﴿وَأْمُرَ بِالْعُرْفِ﴾**.

ولم يتعرض لقوله: **﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾** [الأعراف: ١٩٩]، إما لظهوره، أو للإشارة إلى أنه فى معرض النسخ، أو لأن المراد بالجاهلين من قطع وظلم، وهذا إشارة إلى أصول الأخلاق وأعظمها وأحبها إلى الله تعالى، فتدبر.

وقال له: **﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾** [لقمان: ١٧] الآية، وهذه الآية من وصية لقمان لابنه، إذ قال له: **﴿يَبْنَىٰ أَقِيمَ الصَّلَاةَ وَامْرُءًا مَّعْرُوفًا وَاتَّقِ اللَّهَ إِنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾** [لقمان: ١٧]، كما قصه الله تعالى فى كتابه الكريم، وكل ما قصه الله تعالى من قصص الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فهو إرشاد للنبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولأتمته، فكأنه بما أمر به ابتداء، فلا يتوهم أنها ليست فى حقه، أى إذا أمرت بمعروف ونهيت عن منكر وأصابك بسبب ذلك مكروه، فاصبر له، وقال: **﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾** [الأحقاف: ٣٥]، قال العز بن عبد السلام: أولو العزم، أولو الجهد والصبر، وهم المأمورون بالجهاد، أو الرسل من العرب، وقيل: من لم تصبه فتنة، وقيل: من أصابه بلاء بغير ذنب، وهم نوح، وإبراهيم، ومحمد، صلى الله تعالى عليهم، وقيل: نوح، وإبراهيم، وموسى، ودادود، وسليمان، وعيسى، ومحمد، وقيل: هم المذكرون فى الأنعام، فقوله: **﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ أَقْتَدِ﴾** [الأنعام: ٩٠]، إلا يونس؛ لقصة الحوت. انتهى.

ولا ينبغى عد محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، هنا؛ لقوله: **﴿كَمَا صَبَرَ﴾** [الأحقاف: ٣٥]، وهم كلهم من الرسل، وقد علمت أنه اختلف فيهم، فقال مجاهد: هم خمسة، وهم أصحاب الشرائع، وقيل: ثلاثة، وقيل: ستة، وقيل: جميع الرسل أولو عزم، وقيل: كل الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، أولو عزم، إلا يونس؛ لتخليه، والفاء فى قوله تعالى: **﴿فَأَصْبِرْ﴾** [الأحقاف: ٣٥]، فصيحة؛ لأن قبلها، **﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾** [الأحقاف: ٣٤]، أى إذا كان عاقبة الكفرة ما ذكر فاصبر، وقد صبر ﷺ مثل صبرهم، وزاد عليهم، و**﴿مِنْ﴾** فى **﴿مِنْ الرُّسُلِ﴾** [الأحقاف: ٣٥] بيانية أو تبعية، والخلاف دائر على تفسير **﴿الْعَزْمِ﴾** [الأحقاف: ٣٥] بالصبر، كما هو ظاهر الآية، واجد الاجتهاد أو الجهاد، وقال: **﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾** [النور: ٢٢] الآية، ألا

يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾ [النور: ٢٢]، العفو عدم المؤاخذه بالذنب، والصفح الإعراض عنه وعن ذكره؛ لأن من أعرض عن شىء ولاه صفحة عنقه، وهذه الآية وإن نزلت فى الإفك وفى حق أبى بكر، رضى الله عنه، إذ كان ينفق على مسطح لقربته منه، فلما خاض فى الإفك آلى أن لا ينفق عليه، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ﴾ [النور: ٢٢]، إلى آخره، فقال أبو بكر، رضى الله تعالى عنه: بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى، وعاد إلى إنفاقه عليه، فالنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، داخل فى عمومها، كما فى سائر الخطابات، فلا يرد على المصنف أن هذه الآية ليست فى حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (وقال: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾) [الشورى: ٤٣]، أى من أهم الأمور التى ينبغى التصميم والعزم عليها، واللام موطئة للقسم إن قلنا: أن من شرطية، أو لام ابتداء، إن قلنا: أنها موصولة كما فصله العربون، وهذه الآية مع ما قبلها كما علمت، نزلت فى أبى بكر، رضى الله عنه، وقد شتمه بعض الأنصار، واستشهد بها المصنف على أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان آخذاً بذلك متعمداً عليه.

(ولا خفاء بما يؤثر من حلمه واحتماله)، الباء بمعنى فى، ويؤثر بمعنى ينقل، ويروى من حلمه وتحمله للأذى، فإنه شائع غير خفى على أحد، (وإن كل حلیم)، أى ولا خفاء أن كل حلیم غيره، صلى الله تعالى عليه وسلم، (قد عرفت منه زلة)، بفتح الراء المعجمة، وهى الخطيئة والسقطة، قال الشاعر:

قفى لا تنزلى زلة ليس بعدها      حفو وزلات النساء كثير

(وحفظت عنه هفوة)، بفتح الهاء، وسكون الفاء، وهى قريية من الزلة معنى، وقال التلمسانى: هى بالفاء، وهو أكثر، وبالقاف، وهى السقطة، وقريب منه، وهى من هفا، بمعنى زل وسقط، أو تحرك وأسرع.

(وهو، صلى الله عليه تعالى وسلم، لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبرا، وعلى إسراف الجاهل إلا حلما)، جملة حالية، أى مع أنه لا بد من الزلة والهفوة فى الغضب والمكاره، فهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يزداد مع ذلك إلا صبرا وحلما، والمراد بالجاهل ليس ضد العالم، وإن كان أشهر معنيه، بل هو السيئ الخلق، المجازف فى أموره، قال الشاعر<sup>(١)</sup>:

(١) البيت من الوافر، وهو لعمر بن كلثوم فى ديوانه (ص ٧٨)، لسان العرب (٣/ ١٧٧)، أمالى المرتضى (١/ ٥٧)، البصائر والذخائر (٢/ ٨٢٩)، خزنة الأدب (٦/ ٤٣٧)،

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فالجهل بهذا المعنى خلاف الحلم، ويتعدى بعلى، وقد ترك تعديته، كقول الحماسى:

وبعض الحلم عند الجهل - لى للذلة إذعان<sup>(١)</sup>

وقال بعض الحكماء: لا يحملنك سب الجهول لك، وجرأة السفه عليك على الإجابة له وفرية عليه، فحلم يغنى صبرك خير من سفه يشفى صدرك، وهو مما يدل على مغايرة الحلم للصبر، وإن كان مقاربا له كما مر، وهذا هو المعروف عند العرب فى الجهل، والإسراف بمعنى الزيادة ومجاورة الحد.

(حدثنا القاضى أبو عبد الله محمد بن على التغلبى وغيره)، هو محمد بن على بن محمد ابن عبد العزيز بن حمدين، بزنة غسليين، التغلبى، بفتح المثناة الفوقية، وسكون الغين المعجمة، منسوب لتغلب، اسم قبيلة سميت باسم أبيهم كتميم، ولامه مكسورة تفتح فى النسب استيحاشا من توالى كسرتين وباء، ولد سنة تسع وثلاثين وأربعمائة، ومات يوم الخميس لثلاث بقين من المحرم سنة ثمان وخمسمائة، ودفن يوم الجمعة بعد صلاة العصر، وكان فقيها، ثقة، تولى القضاء فى أيام المرابطين، ولاه يوسف بن تاشفين، فسار بأحسن سيرة، وبقي فيها مدة عمره، وسمع من شيوخ الأندلس، وأخذ عنه المصنف فى رحلته لقرطبة.

(قالوا: حدثنا محمد بن عتاب)، بفتح العين المهملة، وتشديد المثناة الفوقية، وألف، وباء موحدة، وهو ابن محسن الجذامى، المحدث، الفاضل، توفى ليلة الثلاثاء لعشر بقين من صفر سنة اثنين وأربعمائة، قال: (حدثنا أبو بكر بن وافد، وغيره)، هو يحيى بن عبد الرحمن بن وافد، بالفاء والذال المهملة، علم منقول من الوافد، بمعنى القادم، قال ابن سهل فى أحكامه: كان ابن وافد مقدما فى أصحاب ابن ذرب، ثم سقط بعد موته، وألزم داره، ثم أعاده المنصور بن سليمان إلى مرتبته، وجعل إماما بجامع الزهراء، ثم وقعت له أمور اقتضت موته فى الحبس، ودفن بمقبرة الربض سنة خمس وخمسين وأربعمائة، وانتصر الله من قاتله بعد أيام.

وفى بعض الحواشى أنه وقع هنا فى أصل السماع: وافد بالفاء، وفيما سيأتى فى كيفية الصلاة على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، واقد بالقاف، وهو الصواب،

(١) البيت من الهزج، وهو للفند الزمانى فى أمالى القالى (١/٢٦٠)، حماسة البحرى (ص ٥٦)، خزائن الأدب (٣/٤٣١)، الدرر (٥/٢٥٠)، شرح ديوان الحماسة للمرزوقى (ص ٣٨)، شرح شواهد المغنى (٢/٩٤٤)، المقاصد النحوية (٣/١٢٢).

والأول هو الذي صححه البرهان الحلبي والتلمساني، قال: (حدثنا أبو عيسى) هو الثني، واسمه يحيى بن عبيد الله بن أبي عيسى، يروى عن أبيه عبيد بن يحيى، توفي لعشرين مضي من رمضان سنة ثلاث وثلاثين ومائتين، قال: (حدثنا عبيد الله)، قال البرهان الحلبي: هو أبو مروان عبيد الله بن يحيى بن يحيى بن كثير، قال: (حدثنا يحيى بن يحيى) قال البرهان الحلبي: هو يحيى بن كثير الثني مولا هم البربري المصمودي القرطبي، الفقيه أبو محمد، عالم الأندلس، لم يخرج له في الكتب الستة شيء، والموطأ مشهور به، وموطأه أصح نسخ الموطأ، وقد سمعته بحلب، وأقرأته بالإسكندرية، أما الذي له ذكر في البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، فهو يحيى بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن يحيى بن حماد التميمي أبو زكريا النيسابوري، أحد الأعلام. انتهى.

قال: (حدثنا مالك) بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي، إمام دار الهجرة، ومن إليه الرحلة بها صاحب المذهب الجليل، واختلف فيه، هل هو تابعي أو من تبع التابعين؟ ولد سنة ثلاث وتسعين، وتوفي في ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة، ومات وهو ابن ست وثمانين، واختلف في جده أبي عامر، هل له صحبة أم لا؟.

(عن ابن شهاب)، هو محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري، توفي سنة أربع وعشرين ومائة، وقيل غير ذلك.

(عن عروة) بن الزبير بن العوام، أخو عبد الله بن الزبير، أحد فقهاء المدينة السبعة، روى عن أبويه الزبير وأسماء بنت أبي بكر، وخالته عائشة، رضى الله تعالى عنهم، وغيرهم، وتوفي سنة أربع، أو خمس، وتسعين بعد الهجرة، وولد سنة اثنين وعشرين، وهذا حديث صحيح في الصحيحين والموطأ، واختار المصنف، رحمه الله، طريق الموطأ، فقال: (عن عائشة) أم المؤمنين، فريدة الصدق، وبيمة الدهر، رضى الله تعالى عنها، (قالت: ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين قط، إلا اختار أيسرهما). قال البرهان: هذا ما أخرجه المصنف من موطأ مالك، عن يحيى بن يحيى، وقد أخرجه البخاري، ومسلم، وأصحاب السنن، ولم يره الصنف من غير هذه الطريق؛ لأنه إمام مذهبه، ولأهل المغرب اعتناء به وترجيحه على غيره من الكتب الستة؛ ولأن سنده فيه من هذه الطريق أعلى من سنده في غيره؛ لأن بينه وبين مالك في هذه الطريق ستة بالسماع، وبينه وبينه في رواية الصحيحين سبعة، وفي أبي داود ستة، إلا أنه بالإجازة، فلذا اختار هذه الطريق على غيرها لما لها من الشأن عنده، وفي الحديث: «الأخذ بالأسهل والأرفق، ما لم يكن حراماً أو مكروهاً». ونقل النووي، عن المصنف أنه يحتمل أن يكون تحييره هنا من الله، فيخيره فيما فيه عقوبتان، أو فيما بينه وبين الكفار من القتال عقوبتان، وأخذ الجزية، أو في حق

أتمته فى المجاهدة فى العبادة، والاقتصاد فيها، فيختار الأيسر.

وأما قوله: (ما لم يكن إثماً)، فيتصور إذا خيره الكفار أو المنافقون، أما إذا كان التخيير من الله تعالى أو المسلمين، فيكون الاستثناء منقطعاً. انتهى.

قال بعض الشراح: إنه فهم من قوله: «ما لم يكن إثماً» إلى آخره، أى موجب إثم من حرام أو مكروه ما يفهم من الاستثناء، فسماه استثناء وجعله منقطعاً؛ لاستحالة أن يخيره الله، أو خلص المؤمنين بين أمرين، أحدهما إثم، وهو مبنى على أن ما فى معنى الاستثناء له حكم الاستثناء، ألا ترى إلى قول النحاة: إن قولك لأكرمك أو تقضىنى حقى بمعنى، إلا أن تقضىنى حقى، فكأنه قال هنا: إلا أن يكون إثماً.

**فإن قلت:** هذا مناف لما ورد: «إنما أفضل العبادة أحزمها»، أى أشقها على البدن، فكيف يختار غير الأفضل؟.

**قلت:** إنما كان ﷺ يؤثر الأيسر لأتمته تخفيفاً عليهم، لا فى حق نفسه؛ لأنه أرسل بالحنيفية السمحة، ولذا كان ﷺ يقوم حتى تورمت قدماه، ويؤيده مع ما فى نفس الأمر قوله فى عجز الحديث، أنه ﷺ ما انتقم لنفسه، يعنى أن التخيير بين الإثم وغيره من العباد يتصور، وأما من الله فلا، فإذا أول بما يوجب الإثم، أو يفضى إليه فى حق غيره صح، أو المراد بالإثم ما لا يليق به ﷺ؛ لعصمته، كما إذا خير بين ملك كنوز الأرض وعيش الكفاف، ويدل على أنه فى حقه قوله: (فإن كان إثماً، كان أبعد الناس منه)، أقول: قال العز بن عبد السلام، وتبعه الزركشى فى قواعده: إن قولهم: الأجر على قدر المشقة، وما ورد فى حديث عائشة، رضى الله عنها: «أجرك على قدر نصبك»<sup>(١)</sup>، كما فى مسلم، ليس على إطلاقه، إنما هو إذا اتحد العملان فى الشرف والشرائط والسنن، وكان أحدهما شاقاً، فيثاب على تحمل المشقة، وذلك كالغسل فى الصيف والشتاء، أما إذا لم يتساويا فلا، فإن الإيمان أفضل من الأعمال مع خفته، والمختار أن أفضل الأعمال آمنة هو بالمصالح الناشئة عنها، فتصدق البخيل أفضل من قيامه الليل، وإنقاذ الحاكم مظلوماً بكلمة أفضل من قيامه الليل، وصيام النافلة. انتهى.

وهذا هو الحق الذى لا محيد عنه، فلا حاجة لما أطالوا به من غير طائل، (وما انتقم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لنفسه)، أى لا يعاقب أحداً بتقصير وقع منه فى حقه، بحيث يكون فاعله لم يخالف أمر الله فيما فعله؛ لأنه برئ من الحظوظ النفسانية والاعتبارات الدنيوية، (إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم الله بها)، أى بسبب حرمة الله

وانتهاكها، وحرمة الله ما حرمه وجعله محرما ممنوعا، وانتهاكه التعدى والتجاوز فيه من نهكت الثوب إذا لبسته حتى اختلقته، ويقال: نهكه الحمى، إذا أضعفته وأضنته، فانتهاكها تناولها بما لا يحل، وانتهاك فلان محارم الله، أى فعل ما حرم الله فعله لما فيه من ضعف الدين وابتذال حكمه، وليس الانتهاك المبالغة فى إتيان ما حرمه الله تعالى كما توهم، حتى يرد أنه لا يغضب بمجرد فعل محرم أو صغيرة مرة واحدة، ويحتاج إلى الجواب بأن من فعل ذلك، فقد بالغ فى الجرأة على الرب العظيم، أو يقال: إنه كان يغضب عند فعل الصغائر، ويغضب إذا فعلت الكبائر، فإن هذا مما لا ينبغي، فإنه كيف يخطر بالبال أنه، عليه السلام، يغضب من الصغائر من غير عذر لفاعلها، ولا حاجة أيضا إلى حمل هذا على ما يتعلق بالمال، فإنه، عليه السلام، اقتص ممن نال من عرضه، كما أمر بقتل ابن أبى معيط، والأخطل، وأى حرمة لله أعظم من حرمة نبيه، عليه السلام، وإن آذاه فقد آذى الله، وإنما المراد ما كان يقع من بعض جفاة الأعراب، كالأعرابي الذى أمسك بردائه، وجذبه حتى أثر فى جيده الشريف، وقول بعضهم له كما يأتى: أعدل فى القسمة، فإنك لن تعطى من مال أبيك، ونحو ذلك مما صدر منهم، لغلظة طباعهم مما لا يفضى إلى ارتكاب محرم، فمن ارتكب شيئا من محارم الله بحضرته، عليه السلام، التى من جملتها احترامه انتصر وعاقبه الله لا لحق نفسه، وإن تعلق بها انتقاما لدين الله ورسوله، عليه السلام.

(وروى أن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما كسرت ربايعته)، رباعية بوزن ثمانية، سن بين الثنية والتاب من اليمين، والأخرى من اليسار، ويقابلها مثلها فوق، فالربايعيات أربع.

(وشج وجهه يوم أحد)، الشجة جراحة فى الوجه أو الرأس، (شق ذلك)، الكسر والشج، (على أصحابه شديدا)، أى حصل من ذلك فى نفوسهم مشقة وأمر شديدا عظيما.

(وقالوا) له، صلى الله تعالى عليه وسلم: (لو دعوت عليهم)، أى على الكفار بأن يهلكهم الله ويستأصلهم بأشد العذاب، (فقال: إني لم أبعث)، بالبناء للمجهول، أى لم يبعثنى الله (لعانا)، أى داعيا على الناس بالطرد والبعد من رحمة الله، (ولكننى بعثت داعيا) للناس إلى الله (ورحمة) للناس أجمعين، بإخراجهم من الكفر للإيمان، وتأخير العذاب عن كفر، لا لطردهم عن رحمة الله وإبعادهم عنه، ثم قال داعيا لهم: (اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون)، دعا لهم أن يهديهم الله تعالى للإسلام، فإنهم لا يعلمون طريق الحق ولا معرفة قدر نبيه ﷺ، وما يريد بهم من الخير، ولو علموا ذلك لم يصدر

عنهم ما صدر، وفي سيرة ابن هشام وغيره: أن عتبة بن أبي وقاص رماه صلى الله تعالى عليه وسلم، فكسر رباعيته اليمنى السفلى، وجرح شفته السفلى، وإن عبد الله بن شهاب الزهري شحه في وجهه الشريف، وإن ابن قمئة جرح وجنته وضربه بالسيف على شقه الأيمن، وجرح وجنته، فدخلت حلقتان من المغفر في وجنته الشريفة، وفي الروض الباسم أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أصيب وشج جبينه، وكسرت رباعيته برمية عبد الله بن قمئة، وضربه بالسيف على شقه الأيمن، فجرح وجنته، ودخلت فيه حلقتان من المغفر، وشقت شفته السفلى، وصرخ: أن محمدا قد قتل، وقد اختلف في إسلام عتبة بن أبي وقاص أخى سعد بن أبي وقاص، والصحيح أنه لم يسلم، وابن شهاب أسلم، وأما ابن قمئة، فنطحه كبش فردى من شاهق فهللك، ولكل شيء آفة من جنسة، ويقال: إن حاطبا تبع عتبة فقتله، ولم يولد أحد من نسل عتبة إلا أبجز أهتم، فسرى خزيه لعقبة، فبحور أولاده لا يفي بفساد جدهم، وقد قالوا: إن رباعيته ﷺ لم تنكسر من أصلها، وإنما شططت وذهبت منها فلقة، وكانت فاطمة، رضى الله عنها، تغسل دمه، وعلى، كرم الله وجهه، يصب عليها الماء بالجن، فلما رأت فاطمه أن الماء يزيد الدم كثرة، أخذت قطعة من حصير وأحرقتها وذرتها عليه، فأمسك الدم، وكسرت البيضة التي على رأسه الشريف.

وقال الإمام الخيضرى في خصائصه: إن هذا كان قبل نزول قوله تعالى: ﴿وَأَلَلَّهَ يَعِصُوكَ مِنْ أَلَانِ﴾ [المائدة: ٦٧]، أو المراد عصمته ﷺ من القتل، لا من مطلق الأذية كما مر بيان ذلك، وما أحسن قول ابن الفارض، رحمه الله تعالى، فى الإشارة لذلك:

عينى جرحت وجنته بالنظر      من رقتها فالنظر لحسن الأثر  
لم أجن وقد جنيت ورد الخفر      إلا لترى كيف انشقاق القمر

(وذيل بعضهم فقال:)

وما شق وجنته عابثا      ولكنه آية ساطعة للبشر  
جلاها لنا الله كيما نرى      بها كيف كان انشقاق القمر

وبقية قصة أحد وما فيها مفصل فى السير مشهور، فلا يكثر السواد به كما فى الشرح الجديد.

(تنبيه) قال الإمام السمرقندى فى تفسير قوله عز وجل: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ٢١]: طعن الملحدة، لعنهم الله، وقالوا: إن الله أخير أن الكفار



قتلوا الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢]، وما فى معناه من الآيات، ومن كان الله ناصره فهو منصور أبداً، فما لهم قتلوا فهو تناقض، وأجيب بوجهين:

الأول: أنه لم يثبت فى الكتاب، ولا فى خبر متواتر قتل رسول من الرسل الذى أخبره الله بنصرهم، وإنما ثبت قتل الأنبياء لأن الرسل هم الذين أوتوا المعجزات لإظهار الدين الحق ودعوة الخلق، فكان عصمتهم عن القتل من آياتهم الحسنة الدالة على صدق دعواهم الرسالة، وولاية القتل مما يوهن دعوتهم بخلاف الأنبياء إذ ليس لهم دعوة وشريعة.

والثانى: أن المراد النصرة بالحجج لا بالعصمة. انتهى.

(وعن عمر)، رضى الله عنه، قال السيوطى، رحمه الله: إن هذا لا يعرف عن عمر فى شىء من كتب الحديث، ويبض له الشيخ قاسم فى تخريجه لأحاديث هذا الكتاب، فكأنه لم يقف له على أصل أيضاً، وتقدم ما فيه، (أنه قال فى بعض كلامهم:)، أى كلام قاله له لما رأى ما أصابه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من كسر رباعيته وشجحه فى غزوة أحد: (بابى أنت وأمى يا رسول الله)، هذا الجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره: أفديك، وتسمى هذه الباء بآء التفدية، ومعناه إنى أجعل أبوى فداء دونك، وأبذلهما فى حمايتك، يقول الرجل لمن هو أعز عليه من نفسه وأهله وماله؛ لأنهم كانوا يبذلون الأنفس فى صيانة أهلهم، وقد تكلم بهذا النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذه الكلمة جارية مجرى المثل فى ذلك، وقد يظهرون متعلق الجار والمجرور، والفداء بكسر الفاء والمد وفتحها مع القصر فكاك الأسير، يقال: فداه يفديه فداء وفدى وفاداه، إذا بذل فداه، وفداه بالتشديد إذا قال: جعلته فداك، وهى كلمة تقال فى التعظيم، وتدخل الباء على المبدول المفدى به، وقد يعكس كما فى قوله:

فديت بنفسه نفسى ومالى وما آلوك إلا ما أطيق

وجعله فى المغنى من المقلوب، كعرضت الناقة على الحوت، وقد جرى عمر، رضى الله تعالى عنه، فى هذا على ما تداوله العرب، وإلا فهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، حقيق بأن يفدى بالنفوس، فضلاً عن الآباء والأمهات، ولقد قال الآخر<sup>(١)</sup>:

نفسى فداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

(١) البيت من الوافر، وهو لعروة بن الورد فى الأشباه والنظائر (٢/٢٩٨)، شرح شواهد المغنى

(٢/٩٧٢)، لسان العرب (٥/٣١٦).

فانظر قصة على، كرم الله وجهه، إذ فذاه بنفسه ونام مكانه لما هموا بقتله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو أول من اشترى نفسه من الله كما مر، ومقاومه دون عمر، رضى الله تعالى عنه، كما هو معلوم.

(لقد دعا نوح)، عليه الصلاة والسلام، على قومه، فقال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وإنما قال عمر، رضى الله تعالى عنه، هذا؛ لأن مشربه كان مشرب نوح، عليه السلام، كما أن مشرب الصديق، رضى الله تعالى عنه، كان مشرب إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام، وتذر كتدع بمعنى ترك، وديار بمعنى أحد، وهو يختص بالنفى، يقال: ما فى الدار ديار ودورى، أى أحد، وأصله ديوار، فاعل إعلال سيد وميت وأدغم، والفاء عاطفة للمفصل على الجممل.

(ولو دعوت علينا)، أى على الناس كلهم، (مثلها)، أى مثل دعوة نوح، عليه الصلاة والسلام، (هلكنا من عند آخرنا)، هذا التركيب وقع فى كلام العرب، والمراد به أو لنا إلى آخرنا، أى جميعنا، ولشرح الكشف فيه كلام، فقيل: تقديره: من أولنا إلى آخرنا، كما ذكر، وعند مقحمة، وقيل: من بمعنى إلى، وقيل: إنه كناية عن هلاك الجميع؛ لأنه لا يكون الهلاك عند آخرهم إلا إذا شملهم جميعا، فإن أردت تحقيقه فانظر شروح الكشف فى أول سورة البقرة، (فلقد وطىء ظهره)، الوطىء الدوس بالقدم، وفى الشرح الجديد أنه لم ينقل أن أحدا من المشركين وطىء ظهر رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم بقدمه، ولعله عبارة عما روى فى السير من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يصلى عند البيت، وثمة كرش ذبيحة فيها قاذورات، فقال أبو جهل، لعنه الله لجماعة جالسين ثمة: ألا رجل يقوم إلى هذا القذر، فيلقيه على محمد وهو ساجد، فانبعث أشقاها، وهو عقبة بن أبى معيط، فألقاه عليه، فقال النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف»<sup>(١)</sup>، وكانوا أبا جهل، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عقبة، وعقبة بن أبى معيط، وأمىة بن خلف، وعمار بن الوليد، هم المستهزؤون، فأهلكهم الله جميعا، فإما أن يكون سعى هذا وطأ؛ لما فيه من الإهانة الشديدة، كما سعى الغزو وطأ، أو وقع هذا فى قصة لم نقف عليها.

(وأدمى وجهك)، أى جرح فى وقعة أحد، يقال: أدميته، إذا جرحته فأسلت دمه، والذي فعل به، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذلك عتبة بن أبى وقاص أخو سعد كما مر،

(١) أخرجه البخارى (٢٠٣/١، ١٨٢/٢، ٤٨/٦)، ومسلم (٢٩٤، ٦٧٥)، وأحمد (٢٣٩/٢، ٢٥٥)، وأبو داود (١٤٤٨)، وابن ماجه (١٢٤٤).

وفيه يقول حسان، رضى الله عنه<sup>(١)</sup>:

إذا الله جازى معشرا بفعالهم      ونصرهم الرحمن رب المشارق  
وأخزاك ربى يا عتيب بن مالك      ولقاك قبل الموت إحدى الصواعق  
بسطت يميننا للنبي عمدا      وأدमित فاه قطعت بالبوارق  
وهلا ذكرت الله والمنزل الذى      تصير إليه عند إحدى البوائق

(وشج وجهك)، وقع فى نسخة التلمسانى زيادة هذا هنا، وقد شجت وجهته ووجهته بأحد، فدخل فى وجهته، صلى الله تعالى عليه وسلم، حلقتا الدرع، فنزعهما بفيه أبو عبيدة بن الجراح، رضى الله تعالى عنه، حتى سقطت نثيته، والذى جرحه عبد الله بن قمية، فقيل: نطحه تيس، وتردى من شاهق فمات كما مر، وقيل: إنما هو عتبة بن أبى وقاص، فأدركه حاطب فقتله كما مر، وجاء بفرسه.

(وكسرت رباعيتك) تقدم بيانه وما فيه وعليه، (فأيت أن تقول إلا خيرا)، أى لم تدع عليهم كما دعا نوح، عليه الصلاة والسلام، على قومه، ثم فسر الخير بقوله: (فقلت: اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون) الحق، ولا يهتدون إلى الصواب، وفى النسخ المروية هنا: «اللهم اهد قومى»<sup>(٢)</sup>، وهى مفسرة للرواية الأولى، على أن المراد بالمغفرة سببها، وهو الهداية، أو التقدير: اللهم اهدهم واغفر لهم، فلا يرد عليه ما قيل: أن الدعاء المذكور صدر منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأحد، وكانت على أحد وثلاثين شهرا من الهجرة، فكيف يسأل لهم المغفرة وهم كفار، وقد نزل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] الآية، ولو قلنا: إن مغفرة الشرك جائزة عقلا عند بعض المتكلمين، فإنه ممنوع شرعا، فما وجه وقوعه فى كلام الشارع، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا حاجة إلى الجواب بأن هذه الآية من سورة النساء، وهى مدنية بجملة، أو هذه الآية بخصوصها، فيجوز أن دعاءه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان قبل نزولها، وقيل: علمه بمنع الدعاء لهم بالمغفرة لجوازه، سواء قلنا: المدنى ما نزل بالمدينة، أو بعد الهجرة، أو المراد مغفرة ما وقع منهم من كسر الرباعية ونحوه، لا مغفرة الشرك، وقيل: هذا إنما صدر من النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، على سبيل الحكاية عن نبى كان قبله، كما رواه مسلم فى صحيحه، قال عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما: كأنى أنظر إلى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، يحكى عن نبى من الأنبياء ضربه قومه وشجوه، فكان يمسح الدم عن وجهه، ويقول: رب اغفر لقومى، فإنهم لا يعلمون، ومثله فى

(١) الأبيات من الطويل، وهى فى ديوان حسان بن ثابت (ص ١٧٤).

(٢) أخرجه البخارى (٢١٤/٤)، وأحمد (٤٤١/١).

البخارى، والمراد بهذا النبى نوح، عليه الصلاة والسلام، فإنه كان يضرب، ثم يلف فى لبد، ويلقى فى بيته، يرون أنه قد مات، ثم يخرج ويدعوهم إلى الله تعالى، فلما آيس منهم دعا عليهم، فالنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما وقع به ما وقع، حكى ذلك عنه تسلياً له وللمؤمنين، وقوله: لقومى، ذكر نسبتهم له تحننا عليهم، وبياناً لسبب ذلك؛ رجاء لرحمة الله تعالى بهدايتهم، وإضافتهم إليه موافقة لما فى نفس الأمر، وإن قيل: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦]، كما لا يخفى، وقوله: فإنهم لا يعلمون، اعتذار لهم بالجهل الحقيقى، أو بما هو فى حكمه؛ لعدم جريهم على مقتضى علمهم، كما تقول لتارك الصلاة: الصلاة واجبة، والجهل وإن لم يكن مع مشاهدة هذه الآيات الباهرة عذراً شرعاً، فليس بمنج من العذاب، وقد اختلف فيما قبل البعثة أيضاً، كما هو معلوم فى كتب الأصول، لكنه جرى فيه على حكم الظاهر، تضرعاً إلى الله أن لا يعجل عذابهم، ويمهلهم حتى يكون منهم مؤمنين، أو من ذريتهم، وقد حقق الله تعالى رجاءه، لا أنه جعل ذلك عذراً حقيقياً لهم، فلا يرد هنا شىء كما توهمه بعضهم.

(قال القاضى أبو الفضل)، أى المصنف عياض، رحمه الله: (انظر ما فى هذا القول) المذكور فى كلام عمر، رضى الله تعالى عنه، فى الحديث الذى قبله، (من جماع الفضل) الجامع بكسر الجيم، ما يجمع كل أمر، كالخمر جماع الإثم ومظنته، (ودرجات الإحسان)، بالجر معطوف على الفضل، أى ما يجمع مراتب الإحسان، وكذا قوله: (وحسن الخلق، وكرم النفس، وغاية الصبر والحلم)، ففيه ما يدل على نهاية هذه الصفات، (إذ لم يقتصر على السكوت عنهم)، مع ما فعلوه معه، صلى الله تعالى عليه وسلم، مما لا يتحمل بعضه أحد، فضلاً عن أعز الناس نفساً، وأشرفهم وأعلاهم حسباً ونسباً.

وجرح ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

(حتى عفا عنهم)، مع عظيم جرمهم فى حقه، إذ قال: «إنى لم أبعث لعانا»، (ثم أشفق عليهم)، أى أبدى شفقتهم ورحمتهم لهم، (ورحمهم ودعا وشفع لهم، فقال: اغفر واهد)، كما مر بيانه مفصلاً، (ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله: لقومى)، فإن الطبع البشرى يقتضى العطف والحنو على الأهل والأقارب بأى حال كانوا، (ثم اعتذر عنهم بجهلهم، فقال: فإنهم لا يعلمون)، وقد تقدم بيانه، ونسبتهم إليه ليلغهم ذلك، فتشرح صدورهم لأجلها، فيختاروا الإيمان على الكفر، ولذا لم يعبر بالجهل، بل بعدم العلم؛ تحسيناً للعبارة ليجذبهم بزمام لطفه إلى الإيمان، ويدخلوا حرم الأمان، وإن كان جهلهم لا يعتد به اتضاح برهان التوحيد، وقيام الحجة الباهرة بالمشاهدة والتواتر، إلا أنه اعتذار

ظاهري اعتبره سعيًا في تسخير قلوبهم، وإلا فهم عالمون جاحدون مكابرون، وليس لهم عذر يقبل شرعا كما مر تفسيره.

(ولما قال له الرجل:) هو ذو الخويصرة التميمي، ويقال له: حرقوص بن زهير، رأس الخوارج، قال البرهان: قتل يوم النهروان، كما في تجريد الذهبى، وفي صحيح البخارى: هو عبد الله بن ذى الخويصرة التميمي، قال فى المقتفى: ولعلمهما قتلاه، والصواب أن والده هو القائل، والنهروان بفتح النون والهاء، اسم موضع فارسى معرب، قال الطرماح<sup>(١)</sup>:

قل فى شط نهروان اغتماضى ودعانى هوى العيون المراضى

وحكى الجواليقى أنه سمع من العرب ضمها، وكان حرقوص مع على، كرم الله وجهه، فى حروبه، ثم اتبع الخوارج، وزعم بعضهم أنه ذو الثدية، وليس كذلك، ومقول القول، (اعدل)، فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله)، أى كن عادلا فيما قسمته، فإن هذه القسمة ليست عادلة موافقة لأمر الله ولرضاه، والمقسوم كان من غنائم خير أو تبرا أرسله على بن أبى طالب، رضى الله تعالى عنه، من اليمن، وهذا الحديث رواه مسلم، عن جابر، رضى الله تعالى عنه، ونحوه فى صحيح البخارى، وأخرجه البيهقى، وهو حديث صحيح، وفى ألفاظه اختلاف، والمآل واحد، (لم يزد) النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، (فى جوابه، أن بين له ما جهله)، أى لم يزد على أن بين له ما جهله من عدالته فى قسمته، حيث قال: «من يعدل إن لم أعدل؟».

(ووعظ نفسه وذكرها)، التذكير والوعظ بمعنى، فعدل عن وعظ القائل إلى وعظ نفسه، وهو نهاية الحلم منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (بما قال له، فقال: ويحك)، ويح كلمة ترحم وتوجع لمن وقع فيما لا يرضى، وقيل: إنها كلمة مدح وتعجب، وهى منصوبة على المصدرية مضافة، وقد ترفع وتترك إضافتها، فترحم له لما خالف رضاء الله تعالى عليه، أو تعجب من صدور مثله من مسلم، ووقع فى رواية: «ويلك»، (فمن يعدل إن لم أعدل؟)، وفى مسلم: «أو لست أحق أهل الأرض أن أطيع الله عز وجل؟»، وغضب، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى احمرت وجنتاه.

(خبت وخسرتى إن لم أعدل)، روى بفتح التاء فيهما على الخطاب، وضمها على التكلم، واقتصر بعضهم على الفتح، أى خبت وخسرت أيها القائل إن لم أعدل أنا

(١) البيت من الخفيف، وهو للطرماح فى ديوانه (ص ٢٦٢)، لسان العرب (٩/٣٦٠)، الكامل (ص ١١٣٣)، جبهة أشعار العرب (ص ٩٨٧).

لاتباعك واقتدائك بغير عادل، وعلى الضم اقتصر الشمنى، رحمه الله؛ لأنه معلق بعدم العدل الذى عصمه الله تعالى عنه، وهو المناسب لقوله: وعظ نفسه وذكرها، ونقل النووى فى شرح مسلم الوجهين، وفسره بما تقدم، وقال: الفتح أشهر، وقيل، المعنى على الفتح إن لم أعدل خبت؛ لأننى أقتلك لنفاقك ونطقك بما ينافى الإسلام، لكننى عدلت نظرا لمظاهر إسلامك، وإن ما وقع من سوء أدبك جهلا منك غير محل بمقامى.

(ونهى من أراد من أصحابه قتله)، وهو عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، كما فى البخارى، فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لى أضرب عنقه، فقال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى»<sup>(١)</sup>، وفى مسلم: أن القائل خالد بن الوليد، رضى الله عنه، وجمع بينهما بأن كلا منهما أراد ذلك، وقد صرح به فى مسلم، وأن عمر، رضى الله تعالى عنه، لما قال ذلك، فقال: «دعه وأدبر»، فقام إليه خالد بن الوليد، فهذا نص على أن كلا منهما قال ذلك، وقال المصنف فى شرح مسلم: من سب النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كفر وقتل، وسيأتى ذلك فى آخر الكتاب، وهذا الرجل لم يقتل.

قال الماوردى: يحتمل أنه لم يفهم منه الطعن فى النبوة، وإنما نسب له ترك العدل بناء على تجويز صدور المعاصى من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، عند هذا القائل، وإن لم يصب، أو أنه لم يسمعه منه، وإنما نقل له ولم يثبت عنده؛ لأن المخبر له واحد، ومثله لا تراق به الدماء، وهذا تأويل باطل، فإن المروى: يا محمد، اتق الله، بخطاب المواجهة بحضرة الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، حتى استأذنوه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى قتله، وإنما الوجه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، سلك به مسلك غيره من المنافقين استبقاء لانقيادهم، وتأليفا لقلوب غيرهم؛ لئلا يتحدث الناس بأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقتل أصحابه، فينفروا ويرتدوا، فاختير أهون الأمرين لحكمه، والحديث مصرح بهذا.

(ولما تصدى له، صلى الله تعالى عليه وسلم، غورث بن الحارث)، تصدى بالتاء المفتوحة، والصاد المهملة كذا، والذال المشددة، وألف، أى أتاها وتعرض له، وغورث بغين معجمة مفتوحة، وتضم أيضا، وواو ساكنة، وراء مهملة مفتوحة، وثاء مثناة، وقال بعضهم: يجوز إهمال عينه، كما نقله البرهان الحلبى، قال: وعند بعضهم مصغر، يعنى غورث، كفورك وزيرك، فإنه تصغير بالفارسية، ولم يرد أنه كتصغير العرب

(١) أخرجه مسلم (١٤٢/١٠٦٣)، وأحمد (٣/٣٥٣، ٣٥٤)، والطبرانى فى الكبير (٢/٢٠١)، وابن أبى عاصم فى السنة (٢/٤٦٠).

غويرث، وقال التلمسانى: إنه غويرث أيضا، وفى بعض الروايات تسميته دعثور، وأنه أسلم، لكن قيل: إنهما روايتان، (ليفتك به)، الفتك مثلث الفاء، ساكن التاء، هو أن يأتى رجل آخر وهو غافل، فيهجم عليه فيقتله، وقد فتك به بالفتح، يفتك بالكسر والضم، وهذه القصة كانت فى غزوة ذات الرقاع فى السنة الرابعة من الهجرة.

(ورسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، منتبذ)، بضم الميم، وسكون النون، وفتح المثناة الفوقية، وكسر الموحدة، وذال معجمة، أى جالس فى ناحية مختل وحيد بقرب من الناس، (تحت شجرة وحده)؛ ليستريح بظللها، وتلك الشجرة شجرة عضاة، وهى التى تسمى أم غيلان، وهى شجرة عظيمة ذات شوك، وكان ذلك دأبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى سفره، (قائلا) حال، أى مستريحا فى وقت القيلولة، وهى وسط النهار إذا اشتد الحر، وإن لم ينم.

(والناس قائلون)، أى كل منهم فى قيلولته منفردا عن أصحابه، (فى غزاة) هى غزوة ذات الرقاع كما علم، والاختلاف فى زمنها ووجه تسميتها مفصل فى السير، والغزاة اسم مصدر بمعنى الغزو، (فلم ينتبه) أى لم ينتبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لحيثه، أو لم ينتبه من نومه، (إلا وهو)، استثناء من أعم الأحوال، وضمير هو لغورث، (قائم والسيف صلتا)، بفتح الصاد المهملة أو ضمها، ولام ساكنة، ومثناة فوقية، أى مسلولا مجردا من غمده، ويجوز فى السيف رفعه، على أنه مبتدأ، ونصبه على أنه مفعول معه، وصلتا حال على كل حال، (فى يده، فقال:) غورث له، صلى الله تعالى عليه وسلم: (من يمنعك منى)؛ لأنه وجده خاليا ليس معه أحد ولا سلاح، وهو جالس، وغورث قائم عليه بسيفه المجرد، وفى رواية: أنه كرر مراجعته ثلاث مرات، (فقال: الله)، أى يمنعنى منك الله الذى عصمنى من الناس كافة، (فسقط السيف من يده)، أى لما أرعبه قوله: الله، وفى رواية أن جبريل، عليه الصلاة والسلام، ظهر له، فسقط سيفه، وفى رواية: فشام سيفه، أى أغمده، فهو من الأضداد، وكان غورث من أشجع الناس، يتوعد أن يقتل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقيل له: أمكنتك الله من محمد، فاختر سيفاً من سيوفه، وأقبل حتى قام على رأسه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (فأخذه)، أى السيف الذى سقط منه، (رسول الله ﷺ، وقال: من يمنعك منى)، أى من أن أقتلك والسيف يبدى، (فقال: كن خير آخذ)، بالمد اسم فاعل، أى خير رجل أخذ خصمه، وتمكن منه فتكرم عليه، (فتركه وعفا عنه)، مع القدرة عليه، وقيل: الآخذ الأسر، والأخيد الأسير كما فى النهاية، وهو غير بعيد أيضا، وفى البخارى مسندا: أن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قفل لغزوة ذات الرقاع، ونحن معه، فأدركتنا القائلة فى واد كثير

العضاة، فتفرق الناس يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، تحت شجرة علق بها سيفه، فمنا ثمة، فإذا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يدعوننا فجننا، فإذا عنده أعرابى جالس، فقال: «إن هذا اخترط سيفى وأنا نائم، فاستيقظت وهو فى يده صلتا، فقال: من يمنعك منى؟ قلت: الله، فها هو ذا جالس»<sup>(١)</sup>، ثم لم يعاقبه، قالوا: ولما رأى كرمه وحلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أسلم، وهو من غطفان، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ ۖ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [المائدة: ١١] الآية.

(وجاء غورث (قومه)، وفى نسخة: فجاء قومه، (وقال: جئتكم من عند خير الناس) حلما وكرما.

(ومن عظيم خبره)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (فى العفو، عفوه عن)، المرأة (اليهودية)، وهى زينب بنت الحارث بن سلام، وقيل: امرأة سلام بن مشكم، أخت مرحب اليهودى، كما ورد فى الحديث الصحيح الذى أخرجه الشيخان عن أنس، رضى الله تعالى عنه، (التي سمته)، أى جعلت له ﷺ السم (فى الشاة)، المشوية من الغنم، (بعد اعترافها) بوضع السم له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الشاة، (على الصحيح من الرواية)، متعلق بقوله: عفوه، لا باعترافها؛ لعدم اختلاف الرواة فيه، ولذا قيل: كان الأحسن أن يقدم هذا على قوله: بعد اعترافها؛ لأنها أهدت له، صلى الله تعالى عليه وسلم، شاة مصلية، أى مشوية لم تنخز، فقال: «ما هذه؟»، فقالت: هدية لك، ولم تقل صدقة؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يأكل منها، فأكل هو وأصحابه من تلك الشاة، ثم قال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «أمسكوا»، وقال لها: «هل سممت هذه الشاة؟»، قالت: من أخيرك بهذا؟ قال: «هذا العظم»، أشار لساق يده، قالت: نعم، قال: «لم؟»، قالت: أردت إن كنت كاذبا أن نستريح منك والناس، وإن كنت نبيا لم يضرك، فاحتجم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثلاثا على كاهله، لقربه من القلب<sup>(٢)</sup>، وقد اختلف فيها، فقيل: عفا عنها، وقيل: لا، وروى أبو داود أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قتلها وصلبها، ونقل البرهان عن كتاب شرف المصطفى ذلك، وجمع بين الروایتين بأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، صفح عنها لحق نفسه؛ لأنه كان لا ينتقم لنفسه كما مر، فلما مات بشر بن البراء من أكله منها، قتلها

(١) أخرجه أحمد (٣/٣١١)، والبيهقى (٦/٣١٩).

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١٩/٧٠)، وعبدالرزاق (١٩٠/١٠٠)، والبيهقى فى دلائل النبوة



قصاصا به؛ لأنه لم يزل معتلا إلى الحول حتى مات، وقيل: إنه مات في الحال.

وروى معمر في جامعه، عن الزهري، أنها أسلمت فتركها، وغيره يقول: إنه قتلها ولم تسلم، وفي جامع معمر أيضا: أن أم بشر بن البراء قالت له، صلى الله تعالى عليه وسلم، في مرض موته: إني لا أتهم لبشر، تعنى ابنها، إلا أكلة خيبر، فقال: «وأنا لا أتهم لنفسي إلا ذلك»<sup>(١)</sup>، وهو ظاهر في أن المرض الذي مات منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان من تلك الأكلة على سبيل الظن لا القطع، لكن ذكر صاحب المواهب في الطب النبوي أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، احتجم من السم، فخرجت المادة السمية مع الدم لا خروجا كلياً، بل بقي أثرها مع ضعفه، فآثر فيه لما يريد الله له، صلى الله تعالى عليه وسلم، من تكميل مراتب الفضل بالشهادة زاده الله فضلا وشرفا.

وفي الرواية اختلاف، ففيما مر أن الذي أكله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ساق الشاة، وفي أخرى: أنه كتف أو ذراع؛ لأنها سألت عن أحب اللحم إليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقالوا: الذراع، فأكثر في السم، وأنه لأك منها مضغة، ولم يسفها وأساغ بشر لقمته، وهذا يؤيد عدم القطع بتأثيره فيه، لكن يؤيد ما في المواهب ما ورد في الحديث أيضا أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال في مرض موته: «ما زالت أكلة خيبر تعاودني حتى قطعت أبهرى»<sup>(٢)</sup>، فانظر في التوفيق بين الروايتين في الأكل وعدمه.

واعلم أن في هذه المسألة اختلافا للفقهاء فيمن وضع طعاما مسموما لغيره، فأكل منه ومات، هل عليه قصاص أم لا؟ وهو مبني على أنه إذا اجتمع السبب والمباشرة أيهما يقدم، فالأكثر على تقديم المباشرة، وقولهم: إنها أسلمت فتركها، على بعض الروايات، فيه أن الإسلام لا يسقط حقوق العباد، إلا أن يكون هذا من خصائصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفيه نظر.

(وأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يؤاخذ لبيد بن الأعصم)، أعصم بزنة أحمر بمهملات، ويقال له: أعصم بدون ألف ولام، وهو رجل من بني زريق، وهم بطن من الأنصار، وكان بينهم وبين اليهود حلف قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام برعوا منهم، واختلف في لبيد هذا، ففي الصحيحين أنه يهودي، وهو المشهور، وقيل: إنه منافق كان مخالفا لليهود، وسيأتي عن المصنف، رحمه الله تعالى، أنه حكم بإسلامه، وقال البرهان: لا أعلم أحدا عده من المنافقين، فعمل المراد بالنفاق معناه العرفي، كما ورد في الحديث:

(١) أخرجه أبو داود (٤٥١٣).

(٢) أخرجه البيهقي (١١/١٠)، وابن عدى (١٢٣٩/٣).

«آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»، وقد يطلق النفاق على الكفر أيضا، (إذ سحره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد أعلم به وأوحى إليه بشرح أمره)، أى بيانه مفصل فى سحره وما فعله، (ولا عتب عليه، فضلا عن معاقبته)، تقدم الكلام على ذلك مفصلا، وذلك كما رواه النسائى، والبيهقى فى الدلائل، عن زيد بن أرقم، رضى الله عنه، قال: سحر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، رجل من اليهود، فاشتكى لذلك أياما، فجاء جبريل، عليه الصلاة والسلام، فقال: إن رجلا من اليهود سحرك، عقد لك عقدا فى بئر كذا، فبعث فاستخرجها، فجاءه بها فحلها، فقام، صلى الله تعالى عليه وسلم، كأنما نشط من عقال، فما ذكر ذلك لليهودى حتى مات، وكانت له امرأة يهودية تسمى زينب تفعل ذلك، قال التلمسانى: وهو من أفعال النساء فى الأكثر، ولذا قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ﴾ [الفلق: ٤]، دون النفاثين تغليبا، وقال الواقدى: لما رجع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الحديدية فى ذى الحجة سنة ست، جاء اليهود إلى لبيد بن الأعصم، وقالوا له: أنت أسحرنا وقد سحرنا محمد، فاصنع له سحرا ونجعل لك جعلا، فصنع ما سيأتى، فأقام رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم أربعين يوما، وقيل: ستة أشهر، يخيل إليه أنه فعل الشيء وما فعله، فبينما هو ذات يوم، إذ قال لعائشة، رضى الله تعالى عنها: «إن الله أفتانى فيما استفتيته، أتانى رجلان، فقعد أحدهما عند رأسى، والآخر عند رجلى، فقال أحدهما: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب»، أى مسحور، «قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: فى أى شىء؟ قال: فى مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر فى بئر ذروان»، أو ذى أروان، فأتاها رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، مع بعض أصحابه، وماؤها كنفاعة الحناء، ونخلها كأنه رعوس الشياطين، وقيل: إنه ﷺ أرسل عليا، والزبير، وعمارا، رضى الله تعالى عنهم أجمعين، فنزحوا ماءها، واستخرجوا السحر من تحت صخرة بها، وتحتها مشاطة من رأسه وأسنان مشطه، ووتر عقد فيه إحدى عشر عقدة، قيل: وتمثال من شمع مغروز فيه إبر، فنزل عليه المعوذتان، فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة وأخرجت إبرة، حتى زال ألمه<sup>(١)</sup>، والرجلان اللذان رأهما فى منامه ﷺ جبريل، وميكائيل، عليهما الصلاة والسلام، وما كان يخيل له ﷺ من أنه فعل ولم يفعل من أمور الدنيا وجماع زوجاته، لا مما يتعلق بالنبوة والوحى، فإنه معصوم فيه.

واعلم أنهم اختلفوا فى السحر، كما يأتى، هل هو أمر حقيقى أم محض تخيل لا أصل له؟ والصحيح أنه حقيقى بفعل الله بواسطة، إن كان بمجرد توجه النفس، فهو سحر،

وإن كان باستعانة بخواص سفلية، فعلم الخواص، وإن كان ببعض الكواكب ودعوتها، فدعوة الكواكب، وإن كان باستمزاغ القوى السفلية والعلوية، فالطلسمات، فإن اعتقد تأثيرها بالذات فكفر، وإلا فحرام، وفاعله لإضرار الناس يقتل شرعا على تفصيل فيه ذكره الفقهاء ليس هذا محله.

(وكذلك لم يؤاخذ ﷺ عبد الله بن أبى)، هو عبد الله بن أبى بن سلول بن مالك بن الحارث بن عبد الله بن مالك بن سالم بن غنم بن عوف بن الخزرج، كان قبل هجرة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، للمدينة رأس الأنصار مرتجيا لأن يكون حاكما عليهم، فلما هاجر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أسلم ظاهرا، فكان كأحدهم، وفيه عنجهية الجاهلية، وغلبة حب الرياسة، فكان بسبب ذلك رأس المنافقين، يصدر عنه أمور يكرهها الله ورسوله، وكان يبلغ النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذلك فيغضى عنه؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يدارى المؤلفة قلوبهم بأمر من الله؛ لئلا يتحدث الناس بأنه يقتل أصحابه، وكان ابنه عبد الله من كبار الصحابة، وخلص المؤمنين، فكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يكرمه لأجله، وسلول علم لأبى ممنوع من الصرف، فأبى منون وابن بعده يرسم بألف؛ لأنه لم يقع بين علم ابن وعلم أب على الأصح، وهو رأس المنافقين هلك فى السنة التاسعة بعد مقدمه، عليه الصلاة والسلام، من تبوك، مرض فى شوال عشرين ليلة، وهلك فى ذى القعدة، فصلى عليه النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكفنه فى قميصه قبل نزول النهى عن الصلاة على المنافقين كرامة لابنه، رضى الله تعالى عنه.

(وأشباهه)، جمع شبه بمعنى شبيه، أى لم يؤاخذ، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم يؤاخذ من يشبهه، (من المنافقين بعضهم ما نقل عنهم)، بالبناء للمجهول، (فى جهته)، أى فى حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى حق أم المؤمنين عائشة، رضى الله تعالى عنها، (قولا وفعلا)، كقوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَ الْأَعْمَىٰ مِنَ الْأَدْلٰى﴾ [المنافقون: ٨]، يعنى بالأعز نفسه، وبالأذل نبى الله، صلى الله تعالى عليه وسلم.

قال ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما: كان المنافقون من الرجال ثلاثمائة، ومن النساء مائة وسبعين، كما فصله البرهان الحلبى فى شرح سيرة ابن سيد الناس، وشرحه للبخارى فى تفسير سورة المنافقين.

(بل قد قال)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (لمن أشار بقتل بعضهم) وهو عمر، رضى الله تعالى عنه، لما هزم بنو المصطلق، فبلغه قول ابن أبى، وقد لطم حليفا له يقال له: جعال، رجل من فقراء المهاجرين مساعدة لأخيه لعمر، رضى الله تعالى عنه: ما صحبتنا

حمد إلا لنلطم، والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قيل: سمن كلبك يأكلك، أما والله، ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ﴾ [المنافقون: ٨] الآية؛ ثم قال لقومه: والله لئن أمسكتكم عن جعال وذويه فضل طعامكم، لم يركبوا رقابكم، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد، فقال له زيد بن أرقم، رضى الله تعالى عنه: أنت والله الدليل القليل المبغض فى قومك، ومحمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى عز من الرحمن وقوة من المسلمين، ثم أخبره الله بذلك، فقال عمر، رضى الله تعالى عنه: يا رسول الله، دعنى أضرب عنقه، فقال له رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: (لا) آذن لك فى ذلك، (لئلا يتحدث الناس)، من قبائل العرب، (أن محمدا يقتل أصحابه)، فهو علة لتركه رعاية للظاهر من إسلامه وصحبته، وفى نسخة: «يتحدث»، بدون ذكر الناس، مبنى للمفعول، و«لا» هنا ليست لنفى التحدث، إذ هو مستأنف معلل لما قبله، كما علم مما قررناه، وهذا الحديث رواه الشيخان عن جابر، رضى الله تعالى عنه، وروى الطبرانى أن ابنه، رضى الله تعالى عنه، لما بلغه مقالة أبيه، قال لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: دعنى أقتله وآتيك برأسه، فقال: «لا تقتل أباك»<sup>(١)</sup>.

وفى الكشف: فإن قلت كيف جاز له، صلى الله تعالى عليه وسلم، تكرمة المنافق وتكفينه فى قميصه؟ قلت: كان ذلك مكافأة له على صنيع له؛ لأن عمه العباس لما أسر بيدر، لم يجدوا له قميصا يستره به، وكان رجلا طويلا، فكساه ابن سلول قميصه، وكان جاريا على عادة العرب فى المكافأة، وروى أن ابنه قال لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما مات أبوه: أسألك تكفينه ببعض قمصانك، وأنت تقوم على قبره، ولا تشمت به الأعداء، ففعل ذلك، فقليل له عليه السلام: لم فعلت ذلك وهو كافر؟ فقال: «إن قميصى لن يغنى عنه من الله شيئا، وأنى لأرجو أن يدخل فى الإسلام كثير بهذا السبب»<sup>(٢)</sup>، فقليل: إنه أسلم ألف من الخزرج بسبب ذلك.

(وعن أنس، رضى الله تعالى عنه: كنت مع النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم) قال السيوطى رحمه الله تعالى: هذا الحديث رواه الشيخان إلى قوله الآتى «من مال الله الذى عندك قال: فضحك وأمر له بعطاء»، وأخرجه بلفظ المصنف البيهقى فى الأدب من حديث أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، ولفظ مسلم: «كنت أمشى مع النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية، فأدركه أعرابى فجذبه جذبة شديدة» إلخ.

(١) أخرجه الحاكم (٥٨٨/٣)، وعبد الرزاق (٦٦٢٧).

(٢) أورده ابن كثير فى تفسيره (٢٢١/٨).

(وعليه برد غليظ الحاشية) البرد والبردة كساء كانت العرب تلتحف به، والحاشية جانب الثوب، وفي رواية الأوزاعي غليظ الصنفة بفتح الصاد المهملة وكسر النون وبالفاء، وهي طرف الثوب أيضاً.

(فجبدته أعرابي) جبد لغة في جذب أو مقلوب منه، وهما بمعنى (بردائه جبدة شديدة) وهذا يقتضى أنه كان عليه برد ورداء فوقه، وأن الجذب وقع بهما (حتى أثرت) بتشديد المثلثة مبنى للفاعل أى أظهرت أثر أو علامة (حاشية البرد فى صفحة عاتقه) الصفحة الجانب أو العرض، والعاتق ما بين العنق والكف، أو موضع الرداء من المنكب، وهو يؤنث ويذكر، وفي رواية أن البرد انشق.

(ثم قال) الأعرابي: (يا محمد) قيل: مشافهته، صلى الله تعالى عليه وسلم، بهذا تقتضى أنه لم يكن مسلماً، والسياق يقتضى خلافه، وليس فيه ما ينافيه غير ندائه باسمه، فلعلة كان قبل تحريره والنهي عنه بقوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ إلخ، أو أن الأعرابي كان قريب عهد بالإسلام، فى طبعه غلظة وجفاء، فهو معذور، وطلب عطاء الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأخذ من الزكاة يدل على أنه من المسلمين المؤلفة قلوبهم، وفى كتاب الامتناع من خواصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه لا يجوز لأحد أن يناديه باسمه، فيقول: يا محمد، يا أحمد، ولكن يقول: يا نبي الله يا رسول الله، قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ﴾ [النور: ٦٣] إلخ، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢]، أى لا تدعوه باسمه.

فإن قيل: ثبت عن أنس، رضى الله تعالى عنه، أن رجلاً من أهل البادية جاء، فقال: يا محمد إلخ.

أجيب: بأنه يحتمل أن ذلك صدر منه قبل إسلامه أو فى حال إسلامه قبل النهى أو قبل بلوغه، فلو ناداه بالكنية هل يحرم أم لا؟ فيه نظر انتهى.

أقول: الظاهر أن هذا فى حياته مواجهة، أما فى غير ذلك فلا يحرم إلا ذكره بما لا يشعر تعظيمه فلا يرد أنه وقع كثيراً فى المدائح النبوية وغيرها، كقول حسان، رضى الله تعالى عنه<sup>(١)</sup>:

هجوت محمداً فأجبت عنه      وعند الله فى ذاك الجزاء  
فإن أبى ووالده وعرضى      لعرض محمد منكم وقاء

فلا حاجة إلى أن يقال: إنه مخصوص بغير الشعر، لأنه قد يقتضيه الوزن، ومما قيل هنا

(١) البيتان من الوافر، وهما فى ديوان حسان بن ثابت (ص ٢٠، ٢١).

أيضاً: إن الرسول ويا رسول بدون إضافة لله كاسمه حتى اعترض على قول ابن مالك في ألفيته:

مصلباً على الرسول المصطفى

ولا وجه له لما مر. (أحمل لي) قال التلمساني: همزته همزة قطع رباعى أى أعنى على الحمل، ويجوز أن يكون ومعنى أحمل لي أى أعطنى ما أحمل والأول أولى؛ لوجود المحمول. انتهى.

وتبعه بعض المحشين، فيجوز فيه الوصل أيضاً إلا أن فيما رجع به الأول نظراً (على بعيرى) بالثنية مضافاً إلى ياء المتكلم (هذين من مال الله الذى عندك، فإنك لا تحمل لي) بضم التاء وفتحها على ما مر، وروى لا تحملنى أى لا تعطينى (من مالك، ولا من مال أهلك)، وقيل: إنه أسند الحمل إليه: لأنه سبب أمر به، فهو مجاز عقلى، فعلى هذا همزته همزة وصل أيضاً ثم رد على من قال: إن همزته مقطوعة بأنه ظن أنه من أحمل إجمالاً أى جعل البعير حاملاً، فلم يستبعد إسناده له، وهو مجاز مشهور، وليس بشيء لأن ما ذكره معنى آخر حقيقى صرح به الجوهري، وكان الرواية عليه.

(فسكت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم قال: المال مال الله وأنا عبده) أتصرف فى ماله بإذنه أعطى من يأمرنى بإعطائه، فرد، صلى الله تعالى عليه وسلم، عليه بالطف رد، (ثم قال: ويقاد منك) بالبناء للمجهول، وتقدير همزة الاستفهام أى أو يقاد منك من القود، وهو القصاص، وهو هنا مجاز عن مطلق المجازاة أى أتجازى على ترك أدبك، ولم يقل: أقيد نفسى منك كراهة أن يذكر ما يشعر بانتصاره، صلى الله تعالى عليه وسلم، لنفسه، ولو مستفهماً، وقيل: إنما بناه للمجهول للتعميم فيمن يستوفى القود، أهو الله أم من عنده من المسلمين؟.

وقوله: (يا أعرابى) إشارة إلى أنه معذور، لما فيه من غلط الأعراب، وهم أهل البادية (ما فعلت بى) من جذب بردى بأن يفعل به مثله، أو يعزر بما يليق به، وسيأتى تحقيقه فى القصاص باللطمة، (قال: لا قال: لم؟) لا يقاد منك، (قال: لأنك لا تكافىء) بهمزة من المكافاة وهى المجازاة أو بالياء أصلية أو مبدلة منها (بالسيئة السيئة) فيه مشاكلة، لأن الجزء ليس بسيئة أو استعارة، لأنها مثلها بحسب الصورة، (فضحك النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم) سروراً بما رآه من حسن ظنه به، وأنه لم يفعل ذلك بقصد التنقيص منه وتطميناً لقلبه إذ أبدى المسرة بمقالته.

(ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير، وعلى آخر تمر)، وفيه من حلمه، صلى الله تعالى

عليه وسلم، وتحمله الأذى، وعدم التضجر ما لا يخفى، وهو إرشاد لأمته، لاسيما من يتولى منهم أمور المسلمين، ثم أتى بما يدل على ما فى هذا الحديث من خلقه العظيم، فقال: (قالت عائشة، رضى الله عنها) فى حديث أخرجه الشيخان وأحمد والترمذى فى الشمائل مع مخالفة يسيرة فى لفظه: (ما رأيت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم) رؤية بصرية أو علمية (منتصرا) أى منتقما، وناصرنا لنفسه على غيره (من مظلمة) أى من ظلم، وهى بفتح الميم وكسر اللام وفتحها، واقتصر فى التقريب على الأول (ظلمها) مبنى للمفعول، وهو مؤكد أو دفع لتوهم كون الظلم لغيره (قط)، لاستغراق ما مضى كما مر (ما لم تكن حرمة من محارم الله) أى ما لم تكن المظلمة بارتكاب أمر حرمه الله، وليس بصرف حق له، ولا يرد عليه أنه قتل ابن خطل والقينتان اللتان كانتا تغنيان بهجو رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنه حق لله فإن ابن خطل ارتد، وهجو رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وسبه كفر كأذيته بخلاف الأعرابى، فإنه مسلم حمله على ما فعله غلظة طبعه، وظهر من جوابه أنه لم يقصد بذلك الإهانة مع ما فيه من حكم خفية كاستعطاف قلوب أهل البادية، ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وما ضرب رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، (بيده شيئا قط) من دابة، وإنسان وغيره (إلا أن يجاهد فى سبيل الله) كما فى ضربه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أبى بن خلف بأحد بحربة تناولها من بعض أصحابه، أما الحارث بن الصمة كما يأتى أو الزبير بن العوام، فخدشه بها فى عنقه خدشا غير كبير، فاحتبس الدم أى لم يخرج بسبب ذلك الخدش، فقال: قتلنى والله محمد، فوقع من تلك الضربة مرارا من على فرسه التى كان أعدها ليقتل عليها النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما يأتى، وجعل يخور كما يخور الثور إذا ذبح، وفى رواية أنه ضربه تحت إبطه، فكسر ضلعا من أضلاعه، ثم مات عدو الله وهم قافلون به إلى مكة بسرف بفتح السين وكسر الراء المهملتين، وهو مناسب لموضعه لأنه مسرف، وقيل: ببطن رابع، ولم يقتل، صلى الله تعالى عليه وسلم بيده الشريفة قط أحدا إلا أبى بن خلف هذا، لا قبل ولا بعد، وجاء «أشد الناس عذابا من قتله نبى»<sup>(١)</sup>، وفى لفظ: «اشتد غضب الله على رجل قتله رسول الله»<sup>(٢)</sup>، ﴿فَسَحَقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، وفى لفظ «اشتد غضب الله عز وجل على رجل قتله رسول الله فى

(١) أخرجه أحمد (٤٠٧/١).

(٢) أخرجه أحمد (٤٩٢/٢)، والحاكم (٢٧٥/٤)، وسعيد بن منصور (٢٨٧٦)، وأبو نعيم فى تاريخ أصفهان (٣١٦/١).

سبيل الله» أى لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مأمورون بالطف والشفقة على عباد الله، فما يحمل الواحد منهم على قتل شخص إلا أمر عظيم، ورسول الله ﷺ أكملهم لطفاً ورفقاً وشفقة بعباد الله، قالوا: واحتز بسبيل الله عمن قتله، صلى الله تعالى عليه وسلم، حدّاً أو قصاصاً، لأن من يقتله فى سبيل الله كان قاصداً قتله، وقد اتفق ذلك لأبى بن خلف لعنه الله كما يأتى بيانه.

(وما ضرب خادماً) له (ولا امرأة) من نسائه، وفيه دليل على جواز تأديب الرجل امرأته وضربها، ولولا ذلك لم يمدح به، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وجىء إليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، برجل) هذا الحديث أخرجه أحمد والطبرانى بسند صحيح، ولم يسميا الرجل، (ف قيل له: هذا أراد أن يقتلك، فقال له، صلى الله تعالى عليه وسلم: لن تراع لن تراع) أى لا تخف منى، وكرره ليطمئن قلبه، والروع الخوف والفرع، ولن هنا بمعنى لا: أى لا خوف عليك منى ولا من غيرى، (ولو أردت هذا لم تسلط على) لأن الله عصمنى، فلن ينالنى ما أردته أنت ولا غيرك.

فإن قلت: قوله: لو أردت يقتضى أنه لم يرده مع أنه أراد ذلك، لقولهم أراد قتلك. قلت: المراد بالإرادة سببها، وهى مباشرة ما هم به أى لو مددت يدك إلىّ لم تصل إلىّ.

(وجاءه، صلى الله تعالى عليه وسلم، زيد بن سعنة) بفتح السين وسكون العين المهملتين وفتح النون، وقيل: إنها مضمومة وهو غريب وهو خبر من أخبار اليهود كما فى الإكمال، وفى التهذيب هو صحابى من أخبار اليهود الذين أسلموا، وهو من أكثرهم مالا وعلماً، حسن إسلامه وشهد المشاهد، وتوفى مرجعه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من تبوك، ويقال: إنه سعية بالياء التحتية حكاه ابن عبد البر وقال: النون أشهر وعليه اقتصر الجمهور، وقال الذهبى: إنه أصح، وأما أسيد بن سعية فالتحتية فيه أصح، وأسيد بفتح الهمزة أو هو مصغر، وهو حديث طويل رواه البيهقى مفصلاً عن ابن سلام، ووصله ابن حبان والطبرانى وأبو نعيم عن عبد الله بن سلام أيضاً، وسنده صحيح كما قاله السيوطى (قبل إسلامه يتقاضاه ديناً عليه) أى يطلب منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ديناً كان له عليه، والتقاضى بمعنى المطالبة من كلام العرب، قال الحماسى<sup>(١)</sup>:

لحى الله دهرًا شره قبل خيرهِ      تقاضى فلم يحسن إلينا التقاضيا

(١) البيت من الطويل، وهو لأعرابى فى شرح ديوان الحماسة (ص ١٠٧٦)، وشرح ديوان الحماسة للتريزى (٥٨/٣).



قال الشراح: أى طالباً ومثله كثير فى كلامهم وكلام أهل اللغة، فقول شيخنا المقدسى فى الرمز: التقاضى معناه لغة القبض، لأنه تفاعل من قضى، يقال: تقاضيت دينى واقتضيته بمعنى أخذته، وفى العرف الطلبة انتهى لا وجه له، والذى غره قصور كلام القاموس، فظنه غير لغوى بل معنى عرفى وهو غريب منه، وفى روايته عن زيد المذكور: كنت أريد أن أعلم حال النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لي مطابق ما فى التوراة من حلمه، فخرج يوماً ومعه على، فجاءه رجل كالبندوى فقال: يا رسول الله إن قرية بنى فلان أسلموا، وأملهم أنهم إن أسلموا أوتهم أرزاقهم رغداً، وقد أصابتهم سنة وشدة، وإنى مشفق عليهم أن يخرجوا من الإسلام، فإن رأيت أن ترسل إليهم بشيء يغنيهم، فقال زيد بن سعة: يا رسول الله أنا أبتاع منك بكذا وكذا وسقا، فأعطيته ثمانين دينارا فدفعتها للرجل، وقال له: اعجل عليهم بها وأغثهم، فلما كان قبل الأجل يوم أو يومين أو ثلاث خرج رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى جنازة فى نفر من أصحابه، فلقى وتقاضاه، (فجبد ثوبه عن منكبه، وأخذ بمجامع ثيابه) ضمنه معنى أزاله فعدها بعن. ومنكب بكسر الكاف بجمع الكتف والعضد، والمجامع جمع لجمع وهو أطرافه وحواشيه، وقيل: هو التليب أى أخذه بطوقه وما تحت لبتة ونحره، وهذا هو الصحيح المعروف لا ما قيل أنه بين الكتفين، فإن الثياب كلها كالرداء والقميص تجتمع هناك.

(وأغلظ له) أى قال له كلاماً غليظاً خشناً مع تعبس وجهه، (ثم قال: إنكم يا بنى عبد المطلب) مفتعل من المطلب، واسمه شيبة على الأصح، لأنه ولد وفى رأسه شيبة ظاهرة فى ذؤابتية (مطل) بضم الميم والطاء جمع ماطل، والمطل التطويل فى تأخير الحق، أو خلف الوعد فيه مرارا من مطل الحداد الحديد إذا مده، وفى القاموس المطل التسويف بالعدة والدين.

(فانتهر عمر)، رضى الله تعالى عنه، بالراء المهملة افتعال من النهى، وهو الزجر، ونهره وانتهره بمعنى، وقال ابن فورك الانتهار الإغلاظ فى القول مع صياح، وقيل: النهى عن الشيء بفضاظة، (وشدد له فى القول) فقال له عمر، رضى الله تعالى عنه: أى عدو الله تقول هذا لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وتصنع به ما أرى، وتقول له ما أسمع فوالذى بعثه بالحق لو لا ما أخاف فوته لسبقنى رأسك.

(والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، يتبسم) من مقاهما لشدة حلمه ولعلمه كشفاً بمراد ابن سعة، وأن عمر، رضى الله تعالى عنه، لو كشف له الغطاء لم يصعب عليه ذلك.

(فقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنا وهو) أى ابن سعة صاحب الحق (كنا إلى غير هذا) المقال الذى قلته (منك أحوج يا عمر) أى أكثر حاجة، وهو أفعل تفضيل من حاج بمعنى احتاج، وليس من احتاج على حذف الزوائد شذوذا كما توهم، فإن ثلثيه مسموع، والمفضل عليه محذوف، وهو خبر أنا وما عطف عليه، ثم بين الغير الذى هما أحوج إليه من هذا التشديد بقوله: (تأمرنى بحسن القضاء) أى وفاء ما له على، (وتأمره بحسن التقاضى) والطلب بلطف (ثم قال)، صلى الله تعالى عليه وسلم، دفعا لما عسى يتوهم أنه وقع مطلق أو تأخير منه: (لقد بقى من أجله) أى من تأجيل دينه (ثلاث) أى ثلاثة أيام، فلذا لم يحسن تقاضيه بخلاف قضاء النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنه وقع على أحسن وجه، فإنه فعل ما وعده وزيادة كما أشار إليه بقول: (وأمر عمر يقضيه ماله ويزيده) على حقه (عشرين صاعا) من تمر (لما روعه) ما مصدرية أى لأجل ترويع عمر له إذ هم بقتله، وقال له مامر.

(فكان) فعل النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، (سبب إسلامه)، لأنه كان عالما بالتوراة، ورأى فيها ذكره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلاماته، فحقق تلك العلامات كلها غير علامتين لشدة حلمه، فلما رآهما تيقن أمره وزالت شبهته، فحسن إسلامه وأراد الله سعادته، (وذلك أنه كان يقول) لمن عنده من اليهود (ما بقى من علامات النبوة) أى علامات نبوة محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم، المذكورة فى التوراة التى قرأها وعرفها (شيء إلا وقد عرفته) أى شاهده فيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى نسخة إلا وقد عرفتها، باعتبار أن الشيء بمعنى العلامة (إلا) علامتين (اثنتين لم أخبرهما) أى لم أعرفهما، وهو بضم الباء يقال خبرته أخبره خبرا إذا أخبرته فصدق الخير بالخير، ثم فسر الثنتين اللتين لم يعرفهما بقوله: (يسبق حلمه جهله) تقدم أن الجهل فى كلام العرب قديما بمعنى المبادرة للغضب، ومقتضاه عدم المبادرة بالإيقاع بمن يغضبه، وهو مقابل للحلم لا للعلم كقوله<sup>(١)</sup>:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

كما مر لأن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يغضب أحيانا لله ويتنقم، فلا يتوهم من لا يعرف كلام العرب هنا ما لا يليق بصفاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فالمراد أن حلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، يغلب حدته، كما فى قوله: سبقت رحمتى على غضبى، أو السابق على ظاهره، فمن قال: المعنى حلمه على جهله لو كان له جهل كقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وليس المراد أن له، صلى

(١) تقدم الاستشهاد به وتخرجه.

الله تعالى عليه وسلم، جهلا يسبقه حلمه، لأنه لقبه لا يصلح أن يعد من علامات النبوة، وحيث أن فليس من قبيل: سبقت رحمتى، والجهل هنا وفيما بعده مصدر جهل عليه، لا به انتهى، لم يصب مع ما فى كلامه من التناقض.

( ولا تزيده شدة الجهل إلا حلما ) هذه هى العلامة الثانية أى جهل غيره بمعنى سفاهته وأذيته، كلما ازدادت واشتدت عليه زاد حلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وصبره ما لم تتجاوز حدود الله، وتؤتى حرمانه، فإنه حيث أن يغضب لله لا لنفسه، وهذا من صفاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، الخارقة للعادة كما عرفته فى هذه القصة مع زيد بن سعه، ولذا قال زيد لعمر، رضى الله عنه، لما قضاه وزاده: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وما حملنى على ما رأيته صنعت يا عمر إلا أنى كنت رأيت صفاته التى فى التوراة كلها إلا الحلم، فاختبرت حلمه اليوم فوجدته على ما وصف فى التوراة، وإنى أشهدك أن هذا التمر وشطر مالى فى فقراء المسلمين، وأسلم أهل بيته كلهم إلا شيخا غلبت عليه الشقوة، إلى هذا أشار المصنف بقوله: ( فاختبره بهذا فوجده كما وصف، والحديث ) أى الأخبار المستفيضة بين الناس، وليس المراد المصطلح عليه، ولذا عداه بن فقال: ( عن علمه وصبره وعفوه عند القدرة ) قيده به؛ لأنه هو الحمود كما مر ( أكثر من أن نأتى عليه ) يقال: أتى على الكتاب قرأه، أو المال اتفاقا إذا استوعبه كله، وهذا التركيب كقولهم: أكثر من أن يحصى، والكلام عليه مشهور، أنه لا يمكن استيعابه واستقصاؤه.

( وحسبك ما ذكرناه مما فى الصحيح والمصنفات الثابتة )، أى يكفىك ما تقدم مما ثبت بنقل الثقة، فإن ما لا يدرك كله لا يترك كله، فيكفى هذا منضمًا، ( إلى ما بلغ )، لك وعندك ( متواترًا )، تواترًا معنويًا عن مجموعهما، ( مبلغ اليقين )، أى وصل بالتواتر مرتبة اليقين الذى لا يشك فيه أحد ولو قال: مبلغ الضرورى كان أولى، والقول بأنه أراد لا يخفى ما فيه، ثم بين ذلك بقوله: ( من صبره )، صلى الله تعالى عليه وسلم، ( على مقاساة قریش ) المقاساة معالجة أمور صعبة شاقة بحيث لا يحتمل مثلها، وهذا فى أول بعثته، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما يعرفه من طالع السير، ( وأذى الجاهلية ) أى تحمله ﷺ أذى الجاهلية، أى أهل الجاهلية، وهم الكفار، ( ومصابرته الشدائد الصعبة معهم ) فى الحروب الواقعة بينه وبينهم، وهى وإن كانت سجالات إلا أنه صب عليهم العذاب، فالمصابرة مفاعلة من الصبر عن شدائد الحروب، وهم صناديد كان لهم صبر على اصطلاء نارها، لكنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، غلبهم وصابرهم، وزاد عليهم حتى ظفر وانتصر ( إلى أن أظهره الله تعالى عليهم، وحكمه فيهم ) أى جعله الله تعالى قاهرا

غالبا لهم، وهم فى قبضة تصرفه يحكم فيهم بما يريد من قتل وأسر وعفو إن شاء، (وهم لا يشكون فى استئصال شأفتهم) الاستئصال قطع الشئ من أصله وإزالته بالكلية، والشأفة بشين معجمة مفتوحة وهمزة ساكنة وفاء تليها هاء تأنيث وتبدل الهمزة ألفا، وهى قرحة تخرج فى أصل القدم، فتكوى فتذهب، وإن قطعت مات صاحبها، فضرب مثلا، وقد يدعى به، والمراد أزاله الله تعالى من أصله بحيث لا يبقى له عين ولا أثر، ولا أصل ولا فرع، وفيه إشارة إلى خبثهم وأنهم كقرح فى البدن خبثه مهلك لصاحبه، فشبه هلاكهم أجمعين بقطع تلك القرحة، وفيه بلاغة لا تخفى.

(وإبادة خضرائهم) الإبادة بالبدال المهملة بمعنى الإهلاك، وهذا مثل كالذى قبله، والخضرة كالسواد تطلق على الناس والقوم، فمعنى إزالة سوادهم وخضرائهم هلاكهم. قال فى النهاية: أبيدت خضراء قريش أى دماؤهم وسوادهم، والمراد الجماعة وذهب بعض أهل اللغة إلى أن صوابه غضراؤهم بغين معجمة وهى عصارتهم وخيرهم وخصبهم، أو طينتهم التى خلقوا منها، والمراد على كل حال استئصالهم، والصواب ما تقدم رواية ودراية، والمعنى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ظفر بهم فى حال تيقنوا هلاكهم بأسرهم بحيث لا يبقى منهم باقية، (فما زاد) ﷺ (على أن عفا وصفح) أى مع شدة أذاهم ونصره عليهم بحيث صاروا فى قبضة تصرفه، وقد أحاط بهم الهلاك من كل جانب ما زاد على ما كان عليه من حاله إلا العفو والصفح، لا شفاء النفس بالانتقام وفعل ما يستحقون بحيث لو فعل لم يلزم، والعفو والصفح متقاربان عدم المؤاخذه بالذنب.

(وقال)، صلى الله تعالى عليه وسلم، تلويحا للطفه بهم مستندرا منهم كما فى ضمائرهم مفوضا ذلك إليهم تक्रما منه، صلى الله تعالى عليه وسلم: (ما تقولون؟) ما استفهامية، والقول بعدها بمعنى الظن كما صرح به النحاة فقوله: (ألى فاعل بكم) بفتح همزة أن، وهى وما معها سادة مسد مفعوليه، وهذا متعين، وجعل القول على أصله بناء على أنه سألهم عما قالوا فى أنفسهم، أو فيما بينهم، تكلف مخالف للاستعمال الفصيح.

(قالوا: خيرا) منصوب بمقدر يدل عليه فاعل قبله أى تفعل خيرا، أو أنت فاعل خيرا، (أخ كريم) أى أنت إلى آخره كريم، وهى جملة مستأنفة لبيان أنه يفعل الخير، (وابن أخ كريم) هذا على عادة العرب فى تسمية القريب أخا قال تعالى: (والى عاد أخاهم هودا)، والكريم الجامع للخير والفضائل كما فى الحديث: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف... إلخ».

(فقال: أقول كما قال أخى يوسف) فيه بلاغة وطى بديع أبلى من قوله:

نهيت من الأعمار ما لو حووته هينت الدنيا بأنك خالد

لما فيه من الإيماء إلى شقهم عصا القرابة بينهم، وحسدهم له، وكذبهم عليه، وقطع رحمه مع ما له، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الشرف الباذخ، فإنه الكريم ابن الكريم، وأن حسدهم وبغيهم كان سببا لعلو مقامه، وتملكه لنواصيهم، وذلتهم له معترفين بقصورهم: ﴿لا تثرىب عليكم﴾ الآية ﴿أَلْيَوْمَ يَقْفُرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ التثرىب: التعير والتوبيخ أى لا أوبخكم وأعيركم بما يجلدكم، ويحتمل أن المراد لا عتب عليكم لعدم مبالأتى لكم، من الثرب وهو الشحم الذى يغشى الكرش، ومعناه إزالة الثرب كما أن التجليد إزالة الجلد، لأنه إذا ذهب كان غاية الهزال، فضررب مثلا للتقريع الذى يمزق العرض ويذهب بماء الوجه، وفيه جواز الاقتباس من القرآن ولو مع تغيير ما فى المعنى، وقد جوز الوقف على قوله عليكم، والظرف متعلق بيغفر، وفيه المسارعة بالمغفرة فى وقت يرجى فيه خلافه، واليوم بمعنى مطلق الوقت، ويجوز أن يوقف على اليوم أى لا تغيير لكم اليوم؛ لأن المقدرة تذهب الحفيظة إذا بدل الله من العسر يسرا، ومن الحزن سرورا، ومن الفرقة ألفة، ومن الغربة ملكا وبسطة، فلا تثرىب فى زمان فيه مثل هذا الخير، وبهذا الوقف قرأ القراء، ويغفر جملة دعائية أو خبرية مبشرة لهم بذلك.

(اذهبوا فأنتم الطلقاء) بالمد جمع طليق، وهو الأسير يطلق ويخلى سبيله، قيل: وهو مخصوص بمن كان من قريش، ومن ثقيف يقال لهم العتقاء تميزا بينهم، وهذا بعض حديث طويل، وهو أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما نزل بمكة واطمأن الناس، جاء البيت وطاف به سبعا على راحلته، يستلم الحجر بمحجنه، فلما قضى طوافه دعا عثمان ابن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها، ثم وقف على بابها، وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ثم قال: يا معشر قريش ما تظنون أنى فاعل إلى آخره، فخرجوا كأنما نشروا من القبور.

(وقال أنس، رضى الله تعالى عنه: هبط ثمانون رجلا من التنعيم صلاة الصبح) منصوب على الظرفية أى وقت صلاة الصبح، (ليقتلوا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم) الهبوط النزول من علو لسفل، وهو يتعدى، قال العباس، رضى الله تعالى عنه وسلم:

ثم هبطت البلاد لا بشر

وباؤه مفتوحة فى الماضى مكسورة فى المضارع وضمها لغة شاذة، وقال ابن عطية:

إن الضم كثير في غير المتعدى، وقيل عليه أنه لا يوجد الفرق بين المتعدى وغيره يعنى بمحركة عين المضارع وحدها، والتنعيم بفتح التاء اسم موضع عن يمينه جبل يقال له: نعيم، وعن يساره جبل يقال له: ناعم، والوادي هو نعمان، فقيل فيه التنعيم لذلك، وقالت امرأة تذكره<sup>(١)</sup>:

أيا جبلى نعمان بالله خلياً نسيم الصبا يخلص إلى نسيمها

وهو على أربعة أميال من مكة، وهو طرف الحرم من جهة المدينة.

(فأخذوا فأعتقهم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فأنزل الله) في هذه القصة: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ [الفتح: ٢٤] الآية، ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤]، أى أظهركم ونصركم عليهم، فهزمهم حتى أدخلهم بطنها، وحديث أنس، رضى الله تعالى عنه، المذكور رواه مسلم والترمذى وأبو داود، والمراد ببطن مكة الحديبية، وضمير الخطاب للنبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومن معه، وكان ذلك وهو فى أصل الشجرة، فبينما هو كذلك إذ خرج ثلاثون رجلاً، وقال ابن هشام رحمه الله تعالى: سبعون أو ثمانون، وأخذوا أسراء، والسفراء يمشون فى الصلح فأطلقهم وهم العتقاء، وقيل: إن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أخبر أن عكرمة بن أبى جهل خرج إليه فى خمسمائة فارس، فقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لخالد: «هذا ابن عمك خرج فى خمسمائة فارس»<sup>(٢)</sup>، فقال: أنا سيف الله، وبذلك سمى يومئذ، فقام إليه فى خيل فهزمه إلى حوائط مكة، وقيل: إنه كان يوم فتح مكة، وبهذا استدل بعض الحنفية على أنها فتحت عنوة، ورد بأن الآية نزلت قبل الفتح، وأن الكف يناسب الصلح، وهو بصيغة الماضى، والآية نزلت بالحديبية، قيل: ومن العجيب قول أبى السعود أن الآية نزلت لما خرج عكرمة بن أبى جهل فى خمسمائة فارس إلى الحديبية، فبعث رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، خالد بن الوليد بجند، فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة يوم الفتح انتهى.

وهو كلام متناقض لأن الحديبية كانت سنة ست فى ذى القعدة، وفتح مكة كان فى رمضان سنة ثمان، وقصة خالد كانت يوم الفتح.

أقول: من قال المراد فتح مكة فهو ضعيف، فإن السورة مدنية نزلت قبل الفتح،

(١) البيت من الطويل، وهو للمجنون فى ديوانه (ص ١٩٦)، شرح شواهد المغنى (١/٦٠)، وبلا

نسبة فى الحماسة الشجرية (٢/٥٨٠)، شرح التصريح (١/١٥٢)، مغنى اللبيب (١/٢٠).

(٢) أورده القرطبى فى تفسيره (١٦/٢٨٢)، وابن كثير فى تفسيره (٧/٣٢٤).

والحمل على أن الماضى أعنى كف للتحقق بمعنى المضارع وعُدّى بعيد جدا، وأيضا ما ذكر أن عكرمة بن أبى جهل خرج فى عسكر، فبعث رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم خالد بن الوليد إلى الحديبية، فhezهم حتى أدخلهم حيطان مكة غلط، فإن خالد ابن الوليد لم يكن أسلم يومئذ، بل كان طليعة للمشركين كما فى البخارى، ولا حاجة لتأويل كلامه بأنه أراد بالفتح قصة الحديبية لأنها سميت فى القرآن فتحا مع أنه تابع فى هذا الغلط لغيره، وعهدته على من قال أولا، وليس ما نقله أيضا مطابقا لما قاله فى تفسيره، وفى فتح مكة خلاف فى كتب الفقه، وفى الكشف كفى أيديهم قضى بينكم وبينهم بالمكافئة والمحاجزة، وهى نزعة اعتزالية، ولذا تركه القاضى رحمه الله تعالى.

(وقال)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (لأبى سفيان) صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، (وقد سيق إليه) جملة حالية أى قال له القول الآتى، وسيق مبنى للمجهول ساقه أتى به وقاده، والسائق له هو العباس عم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم لما سار النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لفتح مكة، ونزل مر الظهران عشاء، وأوقد عشرة آلاف نار، وجعل على الحرس عمر، رضى الله تعالى عنه، وأراد دخولها قهرا لقتل الكفار، فرقت نفس العباس، رضى الله تعالى عنه، لأهل مكة، فخرج على بغلة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى أتى الأراك، فقال: لعلى أجد ذا حاجة يأتى مكة، فيخبرهم برسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى يخرجوا ويستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة، فسمعت صوت أبى سفيان يقول لبديل: ما رأيت كالليلة سرايا ولا عسكرا، فقلت: أنا حنظلة فقال أبو الفضل: قلت: نعم. قال مالك: فذاك أبى وأمى قلت: هذا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم فى الناس، وإصباح قريش. قال: ما الحيلة؟ قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب عجز هذه البغلة حتى أتى بك رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فاستأمنه لك، فركب خلفى، فكنت كلما مررت بأحد قال: بغلة رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، عليها عمه، حتى مررت بعمر، رضى الله تعالى عنه، قال: أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذى أمكن منك بلا عقدة ولا عهد، وخرج يشتد نحو رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فركضت البغلة، ودخلت عليه وعمر، رضى الله تعالى عنه، فقال: هذا أبو سفيان دعنى أضرب عنقه، فقلت: إنى قد أجرته، وجلست فلما أكثر عمر، رضى الله تعالى عنه، فى شأنه، قال، صلى الله تعالى عليه وسلم: مهلا يا عمر اذهب يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبح فأنتى به، فغدوت به صباحا، فلما رآه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، علم أنه جاء ليسلم منقادا (بعد أن جلب إليه الأحزاب) جلب بالجميل والموحدة بمعنى ساق وجمع،

وأصله من الجلبة وهي أصوات المحارين، والأحزاب جمع حزب وهي الناس المجتمعة من قبائل شتى للحرب، ويقال: تحزبوا تجمعوا، وهذه غزوة الخندق التي كانت في سنة خمس، وإسناد جلب الأحزاب إليه، لأنه كان قائد جيشهم وصاحب رأيهم، وإلا فسبب التخريب إنما كان جماعة من اليهود دعوا القبائل، وحركوا قريشا لذلك كما فصل في السير.

(وقتل عمه حمزة) سيد الشهداء رضى الله تعالى عنه، (وأصحابه) أى أصحاب النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعود الضمير لعمه وإن صح بعيد، (ومثل بهم) بالتشديد أى شوهدت خلقتهم بقطع الأطراف، وشق البطن، وإخراج القلب ونحوه، وهو من المثلة بضم الميم، وهي العقوبة الشديدة، ومنه: (قد خلت من قبلهم المثلات) ويقال مثل بالتخفيف أيضاً، ونسب قتل حمزة، رضى الله تعالى عنه، وقتل أصحاب النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأبى سفيان مع أن قاتل حمزة وحشى بن حرب، وأسلم بعد ذلك، ولم يباشره أبو سفيان إلا أنه هو الباعث والسبب لذلك القتال والمهيج له، ولكون قتل حمزة، رضى الله تعالى عنه مشهور أنه بأحد، لا يقال إن عبارة المصنف، رحمه الله، توهم أنه بالأحزاب، والمراد بالأصحاب من قتل بأحد، وكانوا أكثر من سبعين، ولذلك نسب التمثيل له مع أن الممثل زوجته هند، لأن فعل أهل الرجل كفعله لاسيما النساء، وقد مثل بجماعة غيره أيضاً كما أشار إليه المصنف رحمه الله بقوله: بهم، فمن مثل به أنس بن النضر، وعبد الله بن جحش كما فصل في السير، (فعفا عنه) ما سبق منه في كفره، لأن الإسلام يجب ما قبله، (ولا طفه في القول) إذ خاطبه بقوله: (ويحك يا أبا سفيان) أى أعجب لك ما عقلك ودهاؤك وظهور حقيقة الإسلام، وعبر بفاعل ليلطف كل منهما في مقاله، واللطف الرفق والبر، ويكون بمعنى الرقة والصغر، (ألم يأن لك) أى ألم يدن وقت علمك، يقال: أنى يأنى إذا حان وقته وجاء زمانه (أن تعلم أن لا إله إلا الله) أى توحيد الله وتصديق به، فتسلم إسلاما صحيحا (فقال) أبو سفيان: (بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك) لرحمك إذ خاطبتني بلطف، وهديتني إلى الحق مع ما قاسيته منى، ثم أجابه مصدقا فقال: لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئا بعدد، فقال له رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله»<sup>(١)</sup> فقال: بأبى أنت وأمى أما هذه، ففى النفس منها شىء، فقال له العباس: ويحك أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن يضرب

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٧٢٦٤)، والبيهقي فى دلائل النبوة (٣٤/٥)، وابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (٤٠١/٦).



عنقك، فشهد شهادة الحق وأسلم، والحديث مذكور بتمامه فى السير، وأمر أبى سفيان، رضى الله عنه، مشهور، وفى بعض النسخ بدل ما أحلمك: ما أحملك من الجمال أنه ويحتمل أنه من التحمل وهى صيغ تعجب، وكل هذا جائز.

وفى تاريخ قزوين للإمام القزوينى روى عن على بن أحمد بن صالح قال: حدثنا أبو العباس العبدى القزوينى: حدثنا الحسن بن الفضل: حدثنا محمد بن غزاوان البغدادى: حدثنا الأصمعى: حدثنا مالك بن مغول، عن الشعبي، عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، قال: لطم أبو جهل، لعنه الله، فاطمة بنت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ورضى عنها، فشكت إلى أبيها فقال لها: اتنى أبا سفيان، فأتته فأخبرته، فأخذ بيدها حتى وقف بها على أبى جهل لعنه الله وقال لها: الطميه كما لطمك، ففعلت فجاءت إلى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فأخبرته، ورفع يديه وقال: اللهم لا تنسها لأبى سفيان. قال ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما: ما شككت إن كان إسلامه إلا لدعوة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم. انتهى. نقله السيوطى فى كتاب تحفة الأريب، ومن خطه نقلت: (وكان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضى) أى غضبه بعيد لا يكون منه إلا بعد أمور كثيرة بخلاف رضاه، فإنه يرضى بأقل شىء سريعا لكرمه وحلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويأتى فيه الكلام مبسوطا، وهذا لأنه متخلق بأخلاق الله، وهو رحمة من الله، ورحمته قد سبقت غضبه، وفى الحديث: «المؤمن بطئ الغضب سريع الرضى»، وهذا فى غير حقوق الله، وفى غضبه ما يؤدى إلى الحمية والمروءة، فلا ينافى هذا قول الشافعى: من استغضب فلم يغضب فهو حمار، ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان.

\* \* \*

### (فصل وأما الجود والكرم والسخاء والسماحة)

جواب أما قوله الآتى: فكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يوازى إلى آخره، وما بينهما جمل معترضه، (ومعانيها متقاربة) بعضها قريب من بعض حتى توهم بعضهم لذلك أنها مترادفة، (وقد فرق بعضهم بينها بفروق)، وأهل اللغة يعرفون الفرق فى أمثاله بمقابلها وأضدادها كما قيل:

وبضدها تتميز الأشياء

ولأبى هلال كتاب فى الفروق مفيد جدا، وتقدم أن فرق بتخفيف الراء وتشديدها بمعنى إلا أن بعضهم قال: الأكثر فى التفريق استعماله فى الأجسام، والفرق فى المعانى، وهذا لا ينكر استعمال أحدهما مكان الآخر، فهو كلام قليل الجدوى، وجمع فروق

باعتبار وقوعه بين كل واحد وغيره، وإلا فهو فى الحقيقة فرق، وبدأ المصنف بالوجود أولاً، وفى التفريق أخره، لأنه عنده بمعنى السخاء، ولذا قيل: كان الأولى تركها، وعطفه على السخاء وتأخير، (فجعلوا الكرم الإنفاق بطيب النفس فيما يعظم) عظم يعظم بضم العين فيهما جل مقداره، و(خطره) بفتحين وقد تسكن الطاء قدره ووقعه، (ونفعه) لمن يعطى له، وذلك إنما يكون بكثرته، وهذا يختلف باختلاف المعطى والآخذ كان هذا معنى الكرم فى عرف اللغة، وإلا فالكرم بمعنى الشرف والمجد، وهو لا يختص بالإعطاء، ولذا قال: (وسموه أيضاً حرية) بضم الحاء وكسر الراء المهملتين المشددة تليها ياء تسمى ياء المصدرية، وهى إذا لحقت الأسماء الجامدة والصفات تصيرها مصدرًا، ولا بد فى آخرها من هاء تأنيث، ولم تفصل النحاة حال هذه الأسماء إلا أنها شائعة فى الاستعمال، وما وقع فى بعض النسخ هنا من أنه جرأة بجيم مضمومة وراء ساكنة تليها همزة وهاء كما فى حواشى ابن رسلان، فهو من تحريف الكتاب، فإنه لا مناسبة له هنا، وإن كانت الجرأة والكرم أخوان لا يفترقان، لاسيما فى زمان فيه غاض الكرام وفاض اللثام، وأما تسمية الكرم حرية فلأن الحر خلاف العبد، فالحرية الخلاص من منن الناس، فإذا طوقهم منته حصلت له الحرية، لأن الإنسان عبد الإحسان، وهذا من كلام الصوفية، فإنهم قالوا: الحرية صفة يتولد عنها الإيثار ونهاية السخاء لأنه بذل ما له إليه حاجة، وهو نهاية السخاء وأعلى منه قول بعضهم: الحرية أن لا يكون العبد بقلبه تحت رق شئ من المخلوقات، ولا من أعراض الدنيا والآخرة، ويكون فردا لم تسترقه دنياه ولا هواه، ولاحظ ما يتمناه.

وقال القرطبى فى كتاب المنتقى من كلام أهل التقى فى التصوف: الحرية المحضة هى الخروج من ملك سلطان الشهوة والغضب والقهر بالصبر، والعبودية المحضة هى طاعة الإرادة فيما لا يضطر النفوس إليه بسوء العادة وإيثار اللذة، وكل من خدم فى زمن الحدائث الشهوة والغضب، شق عليه فى زمن الشيخوخة ما يلحقه من ضعف بدنه عن خدمة لذته، ومن خدم فى رأى والأدب شق عليه ذلك فى الحدائث، وكان فى زمن الشيخوخة مستريحاً. انتهى.

(وهذا ضد الندالة) بفتح النون والذال المعجمة واللام هى الخسة والحقارة، وهى من لوازم البخل المقابل للكرم كما قيل، وفيه إشارة إلى أنه ليس مقابلاً له حقيقة.

(والسماحة) والسماح (التجافى) تفاعل من الجفاء، وهو غلظة الطبع، وحقيقته التباعد والترفع يقال: جفا السرج عن ظهر الدابة إذا تباعد عنه، كما قال عز وجل، ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ أى لا يكثرون النوم: أى العفو عما يستحقه المرء عند

غيره بطيب نفس، (وهو ضد الشكاسة) بشين معجمة وكاف وسين مهملة بينهما ألف، وهو كما قال التلمسانى: سوء الخلق، وفى القاموس، أنها البخل، والأول أنسب هنا، والثانى أنسب بتفسير السماحة بالجلود كما قاله ابن القوطية.

(والسخاء: سهولة الإنفاق وتجنب اكتساب ما لا يحمد) من الصنائع المذمومة كالحجامة وأخذ ما لا يحل له، (وهو الجود)، وفرق بعضهم بينهما.

قال ابن عصفور فى الممتع: السخاء مأخوذ من الأرض السخاوية، وهى الرخوة، ولذا وصف الله تعالى بجواد دون سخي، لأنه أوسع فى معنى العطاء وأدخل فى صفة العلاء انتهى، وقد تقدم ذلك فعلى هذا هو أخص منه.

وقال ابن مالك فى الكفاية: السخي هو الجواد، فهو موافق لما قاله المصنف. وقال سقراط: الجواد هو الذى يعطى بلا مسألة صيانة للآخذ من ذل السؤال. وقال الشاعر<sup>(١)</sup>:

وما الجواد من يعطى إذا ما سألته ولكن من يعطى بغير سؤال

(وهو ضد التقتير) المعروف فى اللغة أن الجود ضد البخل، والتقتير التضيق فى الإنفاق، وهو ضد الإسراف والتبذير، وهما بمعنى وفرق بينهما صاحب الكشف فى سورة الإسراء، يقال: قترت الشئ وأقترته أى ضيقت الإنفاق فيه، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، والبخل والتقتير متلازمان لا مترادفان حتى يكون كل منهما ضدا للسخاء.

واعلم أن كلام المصنف هنا غير موافق للغة ولا للعرب، ولا أدرى من أين أخذه، ولكن الأمر فى مثله سهل، وهو محتاج للتهذيب وسنكر عليه مرة أخرى.

(فكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يؤازى) بالهمزة مبنى للمفعول أى لا يساوى ولا يقابل، يقال: فلان يأزى فلانا أى يحاذيه ويساويه، وقال الكرمانى موافقا للجوهري: يقال آزيت أى حاذيته، ولا يقال: وآزيت، والذى عندنا فى النسخ يوازيه بالواو المبدلة من الهمزة، وقد أجاز به بعضهم بقلب الهمزة واوا إذا انفتحت وانضم ما قبلها نحو جؤن، وقد جزم البرهان الحلبي بأنه فى كلام المصنف بالواو، ويحتمل أنه فى كلامه بالهمزة، ورسمت واوا على قاعدة الرسم فى مثله، أى هو، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يساويه أحد (فى هذه الأخلاق الكريمة)، والأوصاف الحسنة من الجود والسخاء والكرم والسماحة.

(١) البيت من الطويل، وهو بلا نسبة فى تاج العروس (٥٢٧/٧).

فاق النبیین فى خلق وفى خلق ولم يدانوه فى علم ولا كرم  
(ولا یبارى) بالبناء للمجهول وهو بالموحدة والراء المهملة، ومعناه يعارض والمعارضة  
أن تفعل مثل ما يفعل، وهما متقاربان.  
(بهذا وصفه كل من عرفه) بالمشاهدة أو بما، اشتهر عنه شهرة لا یبقى معها ريب ولا  
شبهة.

(حدثنا القاضى الشهيد أبو على الصدقى)، هو الحافظ أبو على بن سكرة، وقد  
تقدمت ترجمته وهو منسوب لصدف بفتح الدال، وهى قرية بقرب القيروان قال: (حدثنا  
القاضى أبو الوليد الباجى) تقدمت ترجمته قال: (حدثنا أبو ذر الهروى) تقدم أيضاً قال:  
(حدثنا أبو الهيثم الكشميهنى) قال البرهان الحلبي: هو بضم الكاف وسكون الشين  
المعجمة وكسر الميم وسكون المثناة التحتية وفتح الهاء بعدها نون كما فى لباب الأنساب  
لابن الأثير، وضبطه بالقلم الحافظ عبد الهادى فى طبقاته بفتح الكاف، وكذا صحح فى  
نسخ الشفاء، والصواب ما ذكرته، والنسبة لقرية من قرى مرو قديمة خرج منها جماعة،  
وقد خرجت انتهى، وفى آخره ياء نسبة لم يصرح بها، لأنه معلوم من السياق، فما فى  
بعض الشروح من أنه لا ياء فى آخره، وأن النسبة فيه على خلاف القياس مما يقضى منه  
العجب، (وأبو محمد السرخسى) نسبة لسرخس بلدة عظيمة بخراسان، وقد تقدمت  
ترجمته، (وأبو إسحاق البلخى) إبراهيم بن أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن داود المستملی  
الإمام المشهور كما تقدم، منسوب لبلخ بلدة عظيمة فى ما وراء النهر. (قالوا: حدثنا أبو  
عبد الله القربرى) تقدمت ترجمته وفريزنة سبحل بلدة ببخارى.

(قال: حدثنا البخارى) تقدم وشهرته تغنى عن ذكره قال: (حدثنا محمد بن كثير)  
بلفظ كثير ضد القليل العبدى البصرى والحافظ، روى عنه أصحاب السنن، وتوفى سنة  
اثنين وعشرين ومائتين، وله ترجمة فى الميزان فيها كلام لابن معين، وقال الذهبى: إنما  
هو فى ابن كثير الفهرى، وفيه تعقب لكلام المزى، لأنه قال العبدى قال: (حدثنا سفيان)  
هو ابن سعيد الثورى كما تقدم، وهذا الحديث رواه أيضاً سفيان بن عيينة عن ابن  
المنكدر عن جابر كما هنا، وأخرجه مسلم والبخارى والترمذى فى الشمائل، وهو  
حديث صحيح (عن ابن المنكدر) وهو محمد بن المنكدر بن عبد الله التيمى المدنى الحافظ  
عن أبيه، وعن عائشة، وأبى هريرة، رضى الله تعالى عنهما، وأخرج له أصحاب الكتب  
الستة، (قال: سمعت جابر بن عبد الله، رضى الله تعالى عنهما، يقول: ما سئل رسول الله،  
صلى الله تعالى عليه وسلم، شيئاً فقال: لا)، وقد علمت أن هذا الحديث أخرجه الترمذى  
فى الشمائل وغيره، معناه قول حسان:

ما قال لا قط إلا فى تشهده لولا التشهد لم تسمع له لا لا

ومعنى الحديث أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا أتاه مستحق يطلب عطاءه، لا يخفيه ويقول له: لا قط، بدليل أوله «حتى إذا لم يجد شيئاً اقترض»، أو قال اتنى غداً، ونحوه، وهذا هو الذى عناه حسان، وهو باعتبار الغالب، فإن النادر كالعدم، فهو مبالغة معروفة مألوقة، ولم يرد أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يتلفظ بلا أصلاً حتى يرد عليه أن الأحاديث المصدرة بلا نحو: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»<sup>(١)</sup> كما مر لا تحصى كثرة كما قيل، ويجب عنه بما لا حاجة له، ثم قال: وأما قوله فى البردة:

نبينا الأمر الناهى فلا أحد أبر فى قول لا منه ولا نعم

فهو إنما يقتضى صدور لا عنه مطلقاً، وإذا لا ينافى أنها لم تكن لتصدر عنه إذا سئل عن شىء من متاع الدنيا، لجواز صدورها منه فى غير تلك الحال.

أقول: قد عرفت ما فيه أولاً، بقى هنا فى البيت إشكال كان يجول فى الصدر قديماً، وهو أن الأمر والنهى إنشاء لا يجب بلا ونعم، فالتفريع بلا لا يصادف محله هنا، ولم يحم حول هذا أحد من الشراح مع ظهوره، وقد ظهر لى ولله الحمد وجهه، فمعنى نبينا الأمر، إلى آخره أنه لا حاكم سواه، فهو حاكم غير محكوم، فإذا قال فى أمر: لا أو نعم، وهو لا يقول إلا صواباً موافقاً لرضى الله، فحينئذ لا يخالفه إلا بقسر قاسر، وليس غيره حاكم يمنعه عما حكم به ويرد أحكامه، فهو أصدق القائلين فيما يقوله.

(وعن أنس) بن مالك، رضى الله تعالى عنه، (وسهل بن سعد مثله) أى مثل الحديث السابق المروى فى الصحيحين، وحديث أنس، رضى الله تعالى عنه، هذا فى مسلم، وذكره فى الوفاء أيضاً، ولفظه: كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، حياً لا يسأل شيئاً إلا أعطاه، والأحاديث فى معناه كثيرة، وسهل هو الساعدى الأنصارى الصحابى.

(وقال ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما: كان النبى ﷺ أجود الناس بالخير) أى بما فيه نفع الناس، (وأجود ما كان فى شهر رمضان) رمضان اسم للشهر، ويقال: رمضان وشهر رمضان، وكون العلم المضاف دون المضاف إليه، أو هما كلام لا حاجة لذكره، ولا يكره أن يقال: رمضان، وما روى من حديث، «لا تقولوا رمضان فإن رمضان من

(١) أخرجه أحمد (١١٥/٢)، وأبو داود (٤٨٦٢)، وابن ماجه (٣٩٨٢)، والبخارى فى الأدب المفرد (١٢٧٨)، والطبرانى (٢٧٨/١٢).

أسماء الله عز وجل، ولكن قولوا شهر رمضان<sup>(١)</sup> ضعيف لا يعمل به، لصحة ما يخالفه كما فصله شراح البخارى، وهذا الحديث رواه الشيخان، وروى فيه أجود ما يكون، ووقع فى بعض النسخ هنا أيضاً، وأجود الثانى يجوز رفعه مبتدأ ونصبه عطفاً على خير كان، وعلى الأول خبره محذوف وجوباً كما قرره النحاة فى نحو: أخطب ما يكون قائماً، والكلام عليه طويل الذيل ليس هذا محله، وما مصدرية وكان تامة، ولنقتصر من القلادة على ما أحاط بالعنق، وإنما زاد ﷺ فى رمضان لحاجة الصائمين، ولأنه موسم الخيرات الذى تفضل الله فيه على خلقه بما لم يتفضل فى غيره، فاتبع سنة الله فى عباده وتخلق بأخلاقه.

(وكان) ﷺ (إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة)، لأنه عليه الصلاة والسلام يسر بملاقاته وإمداده له بالبشرى والكرامة، فيحسن كما أحسن الله إليه، فكان بكثرة مجيئه له فى رمضان ليدارسه القرآن، ويعارض به بقراءة كل منهما على صاحبه بالتجويد ووجوه القراءات أجود بالخير من الريح المرسلة.

قال الكرمانى: الجود إعطاء ما ينبغى لمن ينبغى، والخير شامل لجميع أنواعه مما يقرب العبد إلى الله، وإرسال الرياح إطلاقها بإذن الله، فترسل بالرحمة والمطر، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات: ١]، أى الرياح المرسلة بالمعروف على أحد التفاسير، وهو من التشبيه البليغ على سبيل الترقى، فجعله أجود الناس، ثم ذكر أن جوده فى رمضان، وعند ملاقة جبريل أزيد منه فى غيره، والمراد بالمرسلة خلاف العقيمة، قيل: وفى قوله: أجود من الريح جمع بين الحقيقة والمجاز، وفيه بحث يعلم من كلام أهل المعانى فى تحقيق وجه الشبه فى قولهم: كلامه أحلى من العسل، وتقدير قوله: بالخير اهتماماً به، وللدلالة على تقدير مثله فيما بعده أو اشتراكهما فيه، لا لدفع توهم تعلقه بالريح المرسلة، وليس من الاكتفاء، وفى تشبيهه بالريح إشارة إلى سرعته ومبادرته له وقد علم، أو المراد بالريح المرسلة التى لم ترسل بالغيث لا مطلقها، لأنها فى القرآن مخصوصة بها. فإن قلت: ذكر الريح، وقد قيل: إنها إذا كانت مفردة تكون فى العذاب والشر، وإذا جمعت فهي للنفع والخير.

قلت: هذا قيل: إنه مخصوص بما وقع فى القرآن بالاستقراء لا مطلقاً، فلا ينافيه ما وقع فى هذا الحديث وغيره، ويؤيده ما أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى بن كعب أنه قال:

(١) أخرجه البيهقى (٢٠١/٤)، وابن أبى حاتم فى العلل (٨٣٤)، وابن الجوزى فى الموضوعات (١٨٧/٢)، وابن عدى فى الكامل (٢٥١٧/٧).

كل شىء فى القرآن من الرياح فهو رحمة، وكل شىء فيه من الريح فهو عذاب، وما ورد فى الحديث كما رواه البيهقى عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، أنه ما هبت الريح إلا جثا النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، على ركبتيه، وقال: «اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابا، اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا»<sup>(١)</sup>، لا يدل على عدم اختصاصه بما وقع اتفاقا فى القرآن، لأنه قيل: إنه ﷺ أراد اللهم اجعلها من جملة رياح القرآن، ولا تجعلها من ريحه أى مما ذكر بهذه العبارة، فلا دليل فيما ذكر كما قيل، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]، و﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [فصلت: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، و﴿يُرْسِلَ الرِّيحَ مَبْشُرَاتِ﴾ [الروم: ٤٦]، وقد قرئ فى بعض آيات الرحمة بالافراد والجمع، وورد مفردة فى ذلك، فكأنه أغلبي، وأما تأويل ما فى الحديث بما جاز فيه الجمع فتعسف، وقيل: يحتمل أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، إنما قال ذلك، لأنه ما هب إن كان ريحا واحدة لم تلقح السحاب وينزل المطر غالبا، وإن كان رياحا فهو بخلافه، ويحتمل أن يكون معناه: لا تهلكتنا بريح واحدة لا تهب بعدها ريح أخرى، وطول أعمارنا حتى تهب علينا رياح كثيرة.

(وعن أنس، رضى الله تعالى عنه) كما رواه مسندا مسلم فى صحيحه (أن رجلا) هو صفوان بن أمية الآتى بيانه كما فى سيرة ابن سيد الناس وغيرها (سأله)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (فأعطاه غنما) كثيرة كانت (بين جبلين) أى مائة واديا بين جبلين كما يفهم منه ذلك بحسب العرف، وإن كان يقال للغنم السارحة بينهما قليلة أو كثيرة ذلك، فإن كان أسلم قبل سؤاله فهو ظاهر، وقوله: (فرجع إلى قومه)، وهم قريش لأنه من أهل مكة، وفى نسخة إلى بلدة، (وقال: أسلموا) لا ينفيه، وإن قيل كان قبل إسلامه، فأما أنه كان فى صدر الإسلام يجوز إعطاء المؤلفلة قلوبهم من الكفار من الزكاة أو من بيت المال، ثم نسخ، وقول الصرصرى:

وأتاه أعرابى التمس الندا أعطاه شاء ضمها جبالان

لعله قصة أخرى، فإن الرجل المذكور هنا من أكابر قريش، ويؤنس قوله: (فإن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى فاقة) فإن قريشا كانوا كرم خيمه، وجزيل عطائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فإنه لا يخشى فاقة، وما بارى أحدا فى الجود إلا فاقه، والفاقة الفقر أو أشده، وهكذا أولياء أمته، وفى الحديث: «دعائم أمتى عصائب اليمين، وأربعون رجلا

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (٢١٤/١١)، والبغوى فى تفسيره (٦٢/٤).

بالشام كلما مات رجل منهم أبدل الله مكانه آخر»<sup>(١)</sup>، أما إنهم لم يبلغوا ذلك بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بسخاء النفس وسلامة الصدر والنصيحة للمسلمين.

(وأعطى غير واحد مائة من الإبل) الإبل اسم جنس جمعى لا واحد له من لفظه كخيل وغنم، والذين أعطاهم، صلى الله تعالى عليه وسلم، مائة ناس كثيرة منهم أبو سفيان وابنه معاوية، والحارث بن هشام، وقد عدهم البرهان الحلبي، وقال: إنهم يبلغون ستين من المؤلفه قلوبهم، وكذلك ذكر الشيخ قاسم فى تخريج أحاديث هذا الكتاب.

(وأعطى صفوان بن أمية مائة ثم مائة ثم مائة) وصفوان بن أمية هو ابن خلف بن وهب بن خزاعة بن جمح قرشى، له صحبة، وكنيته أبو وهب أسلم يوم الفتح وشهد حنيناً والطائف وهو مشرك، فلما أعطاه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الفىء ما ذكر قال: أشهد بالله ما طابت بهذا إلا نفس نبى، فأسلم، وروى له أصحاب الكعب الستة، وتوفى فى خلافة معاوية سنة اثنتين وأربعين بمكة، وعلى هذا فأعطاه مراراً غنماً وإبلًا، فلا منافاة بينه وبين ما سبق، وعطاؤه له السابق كان من غنائم حنين، وهذا الحديث رواه مسلم.

(وهذه) أى الخصلة والسجىة فى الكرم والعطاء (كانت حاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قبل أن يبعث) أى نبيا أو يرسل، (وقد قال له ورقة بن نوفل) ورقة بواو وراء مهملة مفتوحين وقاف، وهو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى كان من أعقل أهل زمانه وأعلمهم، شاعر بليغ مثله، وكان يقرأ ويكتب الكتب القديمة بالعربية والعبرانية، ويتأله ويتعبد، ولذا سمى القس، وتهود فى أول أمره، ثم تنصر وهو ابن عم خديجة أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، وله أشعار كثيرة فى التوحيد، ولترهبه لم يكن له عقب، وورد فى الحديث: «لا تسبوا ورقة فإنى رأيت له جنة أو جنتين»<sup>(٢)</sup>، يعنى بذلك ما ورد من طريق آخر أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، رآه فى منامه فى الجنة، وعليه حلة خضراء أو بيضاء أو نحوه ككتاب من حرير، وحلة من سندس، وكان حيا فى ابتداء الوحي إلى أن تنبأ رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، واجتمع بالنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وآمن به كما فى أول البخارى، وقال: لئن أدركت زمانك لأنصرك نصراً مؤزراً، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذ ذاك نبيا، ولم يؤمر بالدعوة، ومات ورقة بعد نبوته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: رسالته، ولذا قالوا: إنه أول من آمن بالنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الرجال، وهو ثان بالنسبة لخديجة، رضى الله

(١) أخرجه ابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (٦١/١).

(٢) أخرجه البزار كما فى مجمع الزوائد (٤١٦/٩)، والحاكم (٦٠٩/٢).



تعالى عنها، ولذا عرفوا الصحابي بأنه من اجتمع بالنبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، مؤمنا به، ولم يقولوا بالرسول، وهذا مما ينبغي التنبه له، وفي نظم السيرة للعراقي في ذكر ورقة:

فهو الذي آمن بعد ثانيًا      وكان برا صادقًا موثيًا  
والصادق المصدق قال: إنه      رأى له تخضعضا في الجنة

وهذا المذكور هو الصحيح من أنه صحابي، وقيل: إنه ليس بصحابي لأنه لم ير النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم يؤمن به بعد بعثته، وعليه جماعه محققون، وقول المصنف رحمه الله تعالى، وقد قال إلخ إن كانت الجملة معطوفة على ما قبلها، فهو صادق على القولين، وإن كانت حالا من الضمير في قوله: قبل أن يبعث يكون على القول الثاني، وهو مؤمن على كل حال، ولذا رآه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، في الجنة، والأكثر من علمائنا على أنه صحابي.

(إنك تحمل الكل) هذا بعض من حديث صحيح رواه الشيخان، لكن قال السيوطي رحمه الله في تخريجه القائل له، صلى الله تعالى عليه وسلم، هذا: إنما هو خديجة، رضى الله تعالى عنها، في قصة مكالتها لورقة في شأن النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما رأى جبريل، عليه الصلاة والسلام، في أول أمره، وخاف على نفسه منه، وكذا اعترض عليه الشيخ قاسم في تخريجه أيضًا، فقال: لا أعلم هذا من قول ورقة، رضى الله تعالى عنه، والذي في صحيح البخاري وغيره أنه من قول خديجة، رضى الله تعالى عنها، وما قيل من أن القاضي جليل القدر لا يخفى عليه مثله، ولا يبعد صدوره من ورقة لا يجدى نفعًا مع نقل الصحيحين خلافة، وليس مثله محل بحث، ولكل صارم نبوة، ولكل جواد كبوة.

والكل بفتح الكاف وتشديد اللام مصدر بمعنى الكلال، وهو الإعياء، وفسر بالثقل، فقيل: إنه لازم معناه، وهو المناسب للحمل لأنه لا يقال حمل الإعياء، والذي في البخاري قيل: هذا من قولها أيضًا حين قال لها، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما رأى جبريل عليه الصلاة والسلام: لقد خشيت على نفسي، وهى التى قالت: كلا والله لا يخزيك الله أبدًا إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل.

(وتكسب المعدوم)، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة.

والحديث في أول البخاري، والكلام عليه مفصل في شروحه، وحمل الكل هو

كقول العرب فى المدح: هو حمال أنقال أى يحمل ثقل غيره من الضعفاء والعيال، وإعانة الخلق بالإنفاق عليهم وإطعامهم وإعطائهم كل ما يحتاجون إليه، وكفالة الأيتام وغيره من وجوه البر، وهو استعارة شاع فى هذا المعنى.

وتكسب قال ابن قرقول، بفتح التاء وكسر السين المهملة هى أكثر الروايات وأصحها أى تكسب لنفسك بتحصيله ما يهيم، وقيل: تكسب غيرك أى تعطيه لأن كسب جاء لازماً ومتعدياً، وأنكر الفراء وغيره أكسبه فى المتعدى، وصوبه ابن الأعرابى وأنشد:

فأكسبني مالا وأكسبته حمداً

فيتعدى بالهمزة لمفعولين، وكسب يتعدى لمفعول، وقيل: يتعدى لمفعولين كأكسب والمعدوم الشيء الذى لا وجود له، وأما الفقر فيقال له: معدوم كمكرم قال الشاعر:

قالت بنات العم يا سلمى وإنن كان فقيراً معدماً قالت وإنن

قيل: ويطلق عليه معدوم أيضاً، لأنه كالمفقود لفقره، فأحد المفعولين محذوف إن بنى للمعلوم، ومذكور إن بنى للمجهول، والمراد على الوجهين أنك تعطى الناس الفقراء ما لا يجدونه عند غيرك، لما فيك من مكارم الأخلاق، وقول الخطابى رحمه الله تعالى صوابه المعدم بلا واو يزيد أنك تعطى العادم الفقير الذى لا يجد شيئاً، خطأ لأن هذه الرواية صحيحة مشهورة عند رواة الحديث، وفيما خشيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، على نفسه وجوه، وأصحها أنه خشى الهلاك من شدة الرعب، أو تعييرهم إياه، فأرادت خديجة، رضى الله تعالى عنها، دفع ذلك الذى خشيه بقولها المذكور، أى لا تخف فإنك لا يصيبك مكروه، لما فيك من جميل الصفات.

ثم ذكر قصة هوازن، وهى صحيحة رواه البخارى وغيره، فقال: (ورد على هوازن سباياها وكانوا ستة آلاف) نفس من النساء والذرية غير الأموال التى من غنائمهم لما غزاهم، وكانت أربعة وعشرين ألفاً من الإبل وأكثر من أربعين ألف شاة من الغنم، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، والأوقية أربعون درهماً.

وعن ابن فارس أنه قوم ما وهبه هوازن، فكان خمسمائة ألف ألف، وقيل: ستمائة ألف ألف، وهوازن اسم قبيلة منسوبة لهوازن بن أسلم، وكان يسكن حنيناً، وهو كما يأتى موضع سمي بحنين بن نابة بن مهليل، وغزوته، صلى الله تعالى عليه وسلم، تسمى غزوة حنين، وغزوة هوازن، وكانت فى شوال أو فى رمضان، وأمرها معروف مفصل فى السير، ولما غزاهم وحاز غنائمهم قدم وفدهم على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهم أربعة عشر رجلاً رئيسهم زهير بن صرفة، وفيهم أبو برقان عم رسول الله،

صلى الله تعالى عليه وسلم، من الرضاة، فسأله أن يمن عليهم بما أخذ منهم لما بينهم وبينه من مناسبة الرضاة، فقال لهم: أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئا، فقال، صلى الله تعالى عليه وسلم: أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم، وما للناس يستل منهم، فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، وقال جماعة من المؤلفة أما ما لنا فلا، فأخذه، صلى الله تعالى عليه وسلم، منهم قرضا على أن يعرضهم عنه من أول مال يجيء، فسلموهم جميعا، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، كساهم، وإنما فعل ذلك لأنه كان بعد القسم، وليس للإمام أن يمن بعده لتعلق حق الغير به، والسببا جمع سبية يعنى مسببة، قال التلمساني: ولا يكون السبي إلا في النساء.

(وأعطى) أيضا (العباس) بن عبد المطلب عم الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما رواه البخارى عن أنس تعليقا (من الذهب ما لم يطق حمله)، وقد أتى بحال من البحرين، وكان أكثر مال أتى، فنثر في المسجد، فأتاه العباس، رضى الله تعالى عنه، وقال: أعطنى فإننى فاديت نفسى وعقيلاً، فقال له، صلى الله تعالى عليه وسلم: خذ فحشا في ثوبه، ثم ذهب ليقله، فلم يستطع، فقال: من يرفعه؟ فقال: لا، فقال: فارفعه أنت على، فقال: لا، فنثر منه، ثم ذهب يقله فلم يقدر، فقال له كالأول، فنثر منه، ثم احتمله على كاهله، وانطلق، فأنبهه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بصره تعجبا منه، ولم يقم عليه السلام حتى فرقه، فلم يبق منه درهم، وإنما أعطاه لأنه خرج لبدر مكرها، وكان يخفى إسلامه، ثم فدى نفسه وعقيلاً كما فصلوه.

(وحمل إليه ﷺ سبعون) بتقديم المثناة الفوقية (ألف درهم)، فوضعت على حصير ثم قام إليها فقسمها، فما رد سائلا حتى فرغ منها) رواه الحسن بن الضحاك فى شمائله مراسلا إلا أنه قال: ثمانون ألفا، وأخرجه ابن الجوزى فى الوفاء، وقال: سبعون ألفا كما قال الشيخ قاسم فى تخريج أحاديث الشفاء، والسيوطى فى تخرجه بلفظ: سبعين بتقديم السين على الموحدة، ويوافقه قول الصرصرى فى مديحه:

سبعون ألفا فضها فى مجلس لم يبق منها عنده فلسان

وقوله حتى إلى آخره غاية لقوله قسمها، وقيل: لقوله فما رد سائلا، وليس المراد أنه يرد بعد الفراغ، فهو على حد قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «إن الله لا يمل حتى تملوا»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه البخارى (٦٨/٢، ٥١/٣، ٢٠٠/٧)، ومسلم (٧٨٢/٢١٥)، وأحمد (٤٠/٦، ٦١، ٨٤، ١٢٢، ١٩٩، ٢٦٨)، وابن ماجه (٤٢٤١)، والبيهقى (١٠٩/٣)، وابن حبان (٦١٥).

(وجاءه رجل فسأله) عطاء شيء يحسن به له، (فقال: ما عندي شيء) ولم يقصد منعه بذلك حتى لا ينافي ما مر من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما قال لسائل: لا قط، لأن المراد أنه لم يمنعه ما سأل من متاع الدنيا، وإنما مراده إخباره بعذره في عدم التعجيل بدليل قوله: (ولكن ابتع علي). بموحدة ساكنة بعد همزة الوصل ومثناة فوقية مفتوحة وعين مهملة افتعال من البيع بمعنى الشراء، فإنه يطلق عليهما، وفي القاموس: ابتاعه اشتراه، أي اشتر بثمن يكون ذلك الثمن على وفي ذمتي، كذا ثبت في الحديث، وفي شرح الدجى أنه بتقديم المثناة الفوقية على الموحدة أي اشتر واستلف ما تختار انتهى، وليس هذا ضمان، بل وعد منه إلا أن وعده، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان ملتزم الوفاء، لأن وعد الكريم دين، ولذا صح أنه لما توفي نادى أبو بكر، رضى الله تعالى عنه: من كان له عند رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، عدة أو دين فليأتنا، فجاءه جابر، رضى الله تعالى عنه، وقال: إن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعدنى كذا فأعطاه له.

(فإذا جاءنا شيء) مما من الله به من الغنائم أو غيرها، وفي قوله: جاءنا يعنى معاشر المسلمين. إشارة إلى أنه مال الله لعباده لا لي وحدي (قضيته) أي أديناه، ويحتمل أن الضمير هنا وفيما قبله للتعظيم أي قضيته قضاء أنال به التعظيم منه تعالى، واختاره بعضهم، ولذا لم يقل جاءنى وقضيته مع قوله على فتأمل، والقضاء يشعر بأنه لزم ذمته كالدين. (فقال عمر، رضى الله عنه: ما كلفك الله ما لا تقدر عليه، فكره، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذلك) أي بدا في وجهه الشريف أثر عدم رضاه به، لأن فيه كسر خاطر السائل، ولأن مثله لا يعد تكليفا لما قدره له لما عوده الله من فيض نعمه عليه.

(فقال رجل من الأنصار) كان حاضراً لما رأى من كراهية رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذلك (يا رسول الله أنفق ولا تحف من ذى العرش إقلالا) قال البرهان: هذا الرجل لا أعرفه، وفي حفظي أن القائل بلال، رضى الله تعالى عنه، لكنه مهاجرى لا أنصارى، فيكون قد قال ذلك بلال والأنصارى، فإن الذى فيه ذكر بلال قصة أخرى المأمور فيها بالإنفاق بلال، وهو ما رواه الطبراني والبزار مسنداً عن ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، قال: دخل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، على بلال، وعنده صبرة من تمر، وروى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال له يوماً: أطعمنا يا بلال؟ فقال: ما عندي إلا صبرة خبأتها لك ولضيفك، فقال: «أما تخشى أن تقذف بها في نار جهنم، أنفق يا بلال، ولا تحش من ذى العرش إقلالا»<sup>(١)</sup>، ومن العجب إيراد هذا هنا،

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٤٤/١)، والشجرى في أماليه (٢٠٧/٢)، وأبو نعيم في الحلية (٢٧٤/٦، ٢٨٠/٢).

ولا مناسبة له بما نحن فيه.

ووقع في بعض كتب الحديث أنفق بلال ووجه بتوجيهات، منها أن أصله بلال بال إضافة لياء المتكلم وحذف حرف النداء وإبدال الياء ألفا كيا غلاما، وقيل بلال هنا ليس علما بل فعال من البلل أى إنفاقا رطبا تبل به قلوب أكلية، ولو قيل: إنه رد لأصله من النصب وأطلق لمشكلة إقلال لا لم يبعد، وقد أخرجه العسكري في الأمثال مرفوعا، وفي الطبراني، أنفق يا بلال، ومعنى إقلال أن يقلل الله الرزق ويجعله قليلا؛ لأن لكل منفق خلفا، وقوله: لا تخش نصف بيت وقع اتفاقا، وقيل: بلالا كلمتان أى بغير لا، ويأباه رواية يا بلال بحرف النداء، والذي رواها المصنف رحمه الله، ولا تخف دون لا تخش كما مر، وقول بعض الشراح: الصواب: لا تخش، ليصير موزونا غير صواب من وجهين.

(فتبسم، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعرف البشر في وجهه) بانبساطه وتهلل أساريه، (وقال: بهذا أمرت) أى بالإنفاق من غير مخافة فقد والتبسم انفتاح الفم من غير قهقهة، وهو مبادئ الضحك.

وقد استشكل هذا بأن الله أمره بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

قال في الكشف: لأن الإسراف غير محمود، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، ينفق جميع ما عنده ويجوع حتى يربط الحجر على بطنه، وأجاب القاضي أبو يعلى بأن المراد بهذا الخطاب غيره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وغير خلص المؤمنين الذين كانوا ينفقون جميع ما عندهم عن طيب قلب، لتوكلهم وثقتهم بما عند الله، أما من كان ليس كذلك يتحسس على ما ذهب منه، فالمحمود منهم التوسط، وهم الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا؛ لأنهم لا صبر لهم على الفاقة، ولذا صعب عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كلام عمر، رضى الله تعالى عنه، لما راعى ظاهر الحال وأمره بصيانته المال، شفقة على النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، لعلمه بكثرة السائلين له وتهافتهم عليه، ولكل مقام مقال، والأنصارى راعى حاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلهذا سره كلامه، فقوله: بهذا أمرت إشارة إلى أنه أمر خاص به وبمن يحشى على قدمه.

وقوله: (ذكره الترمذى) إشارة إلى من روى في الحديث، (وذكر عن معوذ بن عفراء) ذكر بالبناء للمجهول قال السيوطي: ذكر هذا الحديث الترمذى في الشمائل والطبراني عن الربيع بنت معوذ، وسنده حسن يعنى أن المذكور إنما هو الربيع بنت معوذ بضم الراء المهملة والتصغير فهو مشدد الياء التحتية اسم امرأة منقول من مصغر الربيع،

وكذا قال البرهان، وقال: لعله سقط من النسخ لفظ الربيع، أو وقف عليه القاضي رواية عن معوذ إلا أن معوذا لا أعلم له رواية، ووقع في نسخة على الصواب، ومعوذ بضم الميم وفتح العين المهملة وكسر الواو المشددة، وحكى ابن قرقول فتحها وغيره لا يجيزه، وكذا ضبطناه عن الصدفي، ثم ذال معجمة، وقال التلمساني: قيل: إن الدال مهملة مع الفتح والكسر، والأول أولى، وعفراء بعين مهملة وفاء ساكنة وراء مهملة وهمزة ساكنة ممدودة اسم أمه، وهى عفراء بنت عبيد بن ثعلبة، وشهر بذلك، واسم أبيه الحارث بن رفاعه بن الحارث بن سواد، ومعوذ استشهد ببدر قتله أبو مسافع، وقيل: إنه هو الذى قتل أبا جهل، وفيه كلام فى السير.

(قال: أتيت النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، بقناع) بقاف مكسورة أو مضمومة فنون وألف فعين مهملة، ويقال: له قنع بكسر القاف، وقيل: قناع جمع قنع، وظاهر قوله: (من رطب يريد طبقا) أنه مفرد، وكذا قوله فى حديث آخر «يهدى لنا القناع» فيه كعب حيث أفرد (وأجر زغب) بفتح الهمزة وسكون الجيم وكسر الراء، وأصله أجرى فسقطت ياءه كأدل فى جمع دلو، وهو جمع جرو بكسر الجيم بوزن علم، وهو صغير القثاء، وزعم ابن قرقول أن جروا جمعه أجرا على أفعال، وهو جمع جرو، وزغب بضم الزاى وسكون الغين المعجمتين جمع أزغب، وهو ما عليه زغب، والزغب صغار الريش والشعر، فشبه به ما يكون على الفاكهة ونحوها من الصغير.

وقوله: (يريد قثاء) بكسر القاف وضمها وتشديد المثلثة والمد وهى معروفة، وهى ضرب من الخيار، وألفه للتأنيث أو للإلحاق، وهو اسم جنس يطلق على الواحد وغيره، ولذا فسر به الجمع، ولا حاجة لتقدير من جنس هذه، وعلى كل حال فلا يقال: إن زغب هنا كالدينار الصفر كما توهم، وهو تفسير لقوله أجر، وروى الهروى أجن بالنون بدل أجر، وهو جمع جنه وهو الغصن الرطب، والمشهور الأول، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يحب القثاء.

(فأعطاني ملاً كفه حلياً وذهباً) بالواو العاطفة، وفى الترمذى: أو قال: ذهباً مما كان عنده مما جاءه من البحرين، وهذا مما يدل على الوهم فى رواية معوذ، فإنه قتل ببدر ومال البحرين إنما أتاه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعد ظهور الإسلام، والحلى بفتح الحاء المهملة وسكون اللام بزنة ضرب، وجمعه حلى بضم الحاء وكسرهما ووزنه فعول، وهو كل مصاغ من الذهب والفضة، وضبطه التلمساني بالمفرد هنا، فإن كانت الرواية به فواضح، والإفتجوز قراءته بالوجهين.

(وعن أنس، رضى الله عنه كان النبي، صلى الله عليه وسلم، لا يدخر شيئاً لغد)

أخرجه الترمذى، وشيئا أعم من المال والقوت، وهذا بالنسبة لأغلب أحواله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد وقع خلافه تعليما وتطبيعا لقلوب أهله، وهو لا ينافى التوكل كما لا يخفى، والخير يجوده أى فى بيان جوده، (وكرمه كثير) لا يحصى، فعن البحر حدث ولا حرج.

(وعن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، أتى رجل النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم) هذا الرجل لم يبين، والحديث لم يخرج السيوطى ولا غيره (يسأله فاستلف له رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم) أى اقترض، والسلف والقرض بمعنى (نصف وسق) بفتح الواو وكسرها وهو ستون صاعا، وعند أهل الحجاز ثلاثمائة وعشرون رطلا، وأربعمائة وثمانون رطلا عند أهل العراق على اختلافهم فى مقدار الصاع والمد كما قاله البرهان الحلبي، رحمه الله تعالى، والوسق أيضا مصدر بمعنى ضم الشيء، (فجاءه الرجل) الذى اقترض منه (يتقاضاه) أى يطلب منه كما مر، (فأعطاه وسقا) ضعف ما أخذ منه.

(وقال) رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، له: (نصفه قضاء) لما أخذ منك، (ونصفه نائل) أى عطاء وهبه لك، ووقع فى بعض النسخ هنا زيادة سقطت من أكثر النسخ، وهى: (وقد قال أبو على الدقاق من شيوخ المتصوفة المشاهير وعلمائهم النحارير، وتكلم فى الفتوة وهى غاية الكرم والإيثار على رأيهم واصطلاحهم فى ألفاظهم أن هذا الخلق لا يكون بكماله إلا لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فإن كل أحد فى القيامة يقول، نفسى، ويقول هو، صلى الله تعالى عليه وسلم: أمتى أمتى) انتهى ما زيد هنا، وأثبتها محمد بن مرزوق فى شرحه، وتبعه التلمسانى وشرحها، فلتتم الفائدة ببعض فوائدها وبيان ما فيها، فاعلم أن الدقاق هو أبو على الحسن بن على شيخ القشيرى، تفقه فى أول أمره على القفال وغيره، ثم انقطع حتى صار سيد وقته، والمتصوفة والصوفية واحدة صوفى، ويقال تصوف إذا انقطع إلى الله تعالى كما يقال تقيس إذا انتسب لقيس، وهذا لفظ مولد واصطلاح حدث بعد القرن الأول، فقال بعضهم: الصوفى هو المنقطع بهمته إلى ربه، وهم مقتدون بأهل الصفة، رضى الله تعالى عنهم، وهى سقيفة اتخذها ضعفاء الصحابة فى مسجد النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان قبل الإسلام حى يقال لهم صوفة يخدمون الكعبة، فقل: الصوفى نسبة لهم، وقيل: لأنهم تجمعوا كما يتجمع الصوف، وقيل: إنهم لخشوعهم كصوفة مطروحة على الأرض، أو هم منسوبون للصوف للينهم وسهولة أخلاقهم أو للبسهم الصوف لاختيارهم الفقر، وهذا أظهر الأقوال لفظا ومعنى، وقيل: منسوب للصفة والأصل صفى فأبدل أحد حرفى التضعيف لينا، وقيل: إنه من الصفاء ففيه قلب، وصحح هذا بعضهم لقول

البستى:

تخالف الناس فى الصوفى واختلفوا جهلا فظنوه مشتقا من الصوف  
ولست أنخل هذا الاسم غير فى صافى فصوفى حتى سى الصوفى  
ولا شاهد فيه لأنه على مذهب الشعراء، وقد بين المصنف رحمه الله تعالى معنى  
الفتوة.

\* \* \*

### (فصل وأما الشجاعة والنجدة)

فالشجاعة فضيلة قوة الغضب والقيادها للعقل) هذا معنى ما قاله الحكماء فى علم  
الأخلاق: أن الله تعالى ركب فى الإنسان قوة هى مبدأ الإقدام على الأهوال والمهالك،  
لتصوره أن من خاطر بالنفس ربما يهلك النفس، وأنه لا يغنى حذر من قدر، وهى للقوة  
الغضبية الشنيعة. والشجاعة انقياد هذه القوة لسلطان العقل والنفس الناطقة؛ ليكون  
إقدامها على حسب الروية من غير اضطراب، حتى يكون فعلها جميلا محمودا، وإفراطها  
للتهور وهو الإقدام حيث لا ينبغى، وتفريطها الجبن، وبهذا عرفت معنى الشجاعة،  
والجراة أعم منها، وهذه تختص بالإنسان وفسرها ابن القوطية بالإقدام، وهو تفسير  
لفظى بالأعم.

(والنجدة) بفتح النون وسكون الجيم ودال مهملة كما فى النهاية، وهى شدة البأس،  
ويقال: هم أنجاد أجماد أى أشداء شجعان، والواحد نجد ككف وأكتاف وقيل: إنه جمع  
الجمع جمع نجد على نجاد ونجاد على أنجاد، وفسرها أهل اللغة بالشجاعة على عادتهم  
فى التسامح، فلا ينافى تغيرهما كما توهم، ويؤيده ما فى الحديث الآتى عن ابن عمر  
ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله، صلى الله تعالى عليه  
وسلم، واشتهرت النجدة فى معنى المساعدة (ثقة النفس) فى بعض الشروح: وثق  
الشيء بالضم وثاقة صلب واشتد، ومنه الوثاق وثقت به بالكسر أثق اعتمدت عليه  
وأتمنته كما فى القريب، والمصنف، رحمه الله تعالى، استعمل الثقة موضع الوثاقة، ولم  
أظفر به، قلت: هذا عجيب منه، فإنه يعنى اعتماد النفس على ربها أو اعتمادها على  
نفسه (عند استرسالها) أى انطلاقها وأخذها فيما يؤدى (إلى الموت) أى استئناسها  
وطمأنينتها بلا خوف، كما ورد فى الحديث: «أىما مسلم استرسل إلى مسلم فغبه» إلخ،  
وحديث «غبن المسترسل ربا» (حيث يحمدها دون خوف) قيل: ومنشأه قوة النفس  
وشدتها، وليست غير الشجاعة، ففسر الشدة بما ينشأ عنها انتهى، وكلامه ماش على  
تغيرهما، والشراح لم يفرقوا بينهما، والفرق مثل الصبح ظاهر، فإن الشجاعة جراءة



وإقدام يخوض به المهالك كما ينبغي، والنجدة ثباته على ذلك مطمئنا من غير خوف من أن يقع على الموت، أو يقع الموت عليه حتى يقضى الله له بإحدى الحسنين الظفر أو الشهادة، فيحى سعيًا أو يموت شهيدًا، فتلك مقدمة وهذه نتيجتها، ولذا أخرها المصنف فى الذكر.

(وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، منهما) أى من الشجاعة والنجدة (بالمكان الذى لا يجهل) أى كان متصفا بهما على أعظم وجهه، ومشتهرا بذلك اشتهارا لا يخفى على أحد، وعدم جهل المكان لعلوه وشرف بنائه كالجبل والقصر، فكنى بذلك عن علو قدره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وشهرته على حد قوله:

إن الشجاعة والسماحة والندى فى قبة ضربت على ابن الخشرج

(قد حضر المواقف الصعبة) أى مواضع القتال الشديدة ومصافها، فجعلها نفسها صعبة لصعوبة ما فيها.

(وفر الكماة والأبطال عنه غير مرة) الفرار الرجوع بسرعة، والكماة بزنة قضاة جمع كمي على خلاف القياس؛ لأنه مخصوص بفاعل لمعتل، أو هو جمع كام. بمعنى كمي وإن لم يسمع، وهو من تكمى إذا تستر، فأصله الشجاع اللابس للدرع والبيضة، ثم استعمل فى مطلق الشجاع كالشفر، فإن قيل: إنه سمي به لأنه يستر شجاعته ووقائعه كان الثانى حقيقة أيضًا، لكن المعروف هو الأول، والأبطال جمع بطل كحسن وهو الشجاع المعروف بالشجاعة، سمي به لأنه يبطل عنده دماء الأقران، وغير مرة. بمعنى مرات، والعرب تجعل غير مرة. بمعنى مرات مع صدقه على مرتين للإبهام ونحوه من الفوائد.

(وهو) ﷺ (ثابت لا يبرح) أى لا يفارق مكانه كقوله: (فلن أبرح الأرض) أى لا أفارقها.

(ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح) أى لا يزول عن مقره، قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وهاتان الحالتان تدل على ثباته، صلى الله تعالى عليه وسلم، أى تارة يقبل على الحرب، وتارة يثبت كالجبل الراسى فلا يتحرك فإن أريد بإقباله مجرد توجهه بوجهه، وبعدم إدباره التفاته لغيرها، فهما حال واحدة، وأصل معنى التزحزح التباعد والتنحى عن المكان، قال الزبيدى: زحه إذا دفعه، كذلك زحزحه، وقيل: هو من زاحه يزيحه أو الزوج وهو السوق الشديد، ويقال: زحزحته فتزحزح، وانزاح إذا تباعد، ومنه المزاح، والصحيح الأول، وعطفه على الأدبار من عطف الخاص على العام، وكان من خصائصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه يجب عليه مصابرة

العدو وإن كثر وزاد على ضعف عسكره، ويأتى ما فيه، وأما الآن فإن زاد العدو على ضعف المسلمين جاز انصرافهم عن القتال، وإلا فلا يجوز إلا بالتحيز أو التحرف إلى فئة، فإن الفرار من الزحف كبيرة كما فصله الفقهاء والمفسرون.

(وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرة) أحصيت بالبناء للمجهول من الإحصاء وهو العد والحفظ، والفررة المرة من الفرار وهو الهزيمة، والفرار الهارب، (وحفظت عنه جولة سواه، صلى الله تعالى عليه وسلم) الجولة بفتح الجيم وسكون الواو واللام المرة من الجولان فى المكان، وقيل: هى الانكشاف والزوال عن الموقف من غير تقييد بالمرّة، وفى النهاية جال واجتال إذا ذهب وجاء، ومنه الجولان فى الحرب، والجائل الزائل عن مكانه، وقول الصديق، رضى الله تعالى عنه: للباطل نزوة وللحق جولة، يريد به غلبة من جال على قرنه يجول انتهى، والجولة هنا صفة ذم بمعنى فرة لا غلبة، وفى الحديث «للباطل جولة ويضمحل»، والحاصل أن الجولة تكون بمعنى الفرار، وبمعنى الذهاب ليعود، والتزدد فى المكان، ويصح إرادة كل منها هنا، ويكون صفة ذم ومدح.

ثم ذكر ما يدل على ما ذكره فقال: (حدثنا القاضى أبو على الجياني فيما كتب لى) هو الإمام الحافظ أبو على الغسانى الجياني بفتح الجيم وتشديد المثناة التحتية ثم ألف ونون وياء، نسبة لبلدة منها ابن مالك وأبو حيان وغيرهما من الأئمة، وقوله: كتب لى دون إلى يشعر بأنه وقع له ذلك مع ملاقاته بدليل قوله: حدثنا، فإن الكتابة تكون للغائب والحاضر وتتضمن الإجازة، وابن الصلاح رحمه الله تعالى لم يفرق بين كتب له وإليه إذ قال: كثيرا ما يوجد فى مسانيدهم ومصنفاتهم كتب إلى فلان، وهو معمول به عندهم معدود فى المسند الموصول، وفيه إشعار قوى بمعنى الإجازة وإن لم تقترن بها، وعن السمعاني وإمام الحرمين أنه أقوى من الإجازة المجردة قال: (حدثنا القاضى سراج بكسر السين كالسراج المنير، وهو سراج بن عبد الملك بن سراج بن عبد الله بن محمد بن سراج الأموى، توفى لست بقين من جمادى الأول سنة ثمان وخمسمائة، والذى روى عنه الجياني وهو جد سراج بن عبد الملك كما قاله التلمسانى قال: (حدثنا أبو محمد الأصيلي) وهو أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن جعفر الأصيلي، ويقال: الأزيلى بالزاي والسين أيضًا نسبة لأصيلة بلدة بالمغرب معروفة كما قاله ابن قرقول، وقال الصاغاني فى الذيل: والأصيل بلدة من أعمال الأندلس قال: (حدثنا أبو زيد الفقيه) هو أبو زيد المروزى، وقد تقدمت ترجمته قال: (حدثنا محمد بن يوسف) هو الفريرى قال: (حدثنا محمد بن إسماعيل) هو الإمام البخارى، وقد تقدمت ترجمته قال: (حدثنا ابن بشار) الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن بشار بفتح الموحدة التحتية وتشديد

الشين المعجمة وألف وراء مهملة المعروف ببندار، روى عنه أصحاب الكتب الستة، عاش ثمانين سنة، ومات سنة اثنين وخمسين ومائتين، وقيل: إحدى وخمسين، وترجمته مفصلة فى الميزان قال: (حدثنا غندر) بضم الغين المعجمة وسكون النون وفتح الدال المهملة وتضم وراء مهملة، وهو محمد بن جعفر الهذلى مولاهم البصرى الحافظ، روى له أصحاب الكتب الستة، توفى سنة ثلاث وتسعين ومائة، وترجمته فى الميزان أيضًا (عن أبى إسحاق) عمرو بن عبد الله السبعى الهمدانى الكوفى، أحد أعلام الحديث أخذه عن عدة من الصحابة وعدة من التابعين، وروى عنه خلق كثير، وله نحو ثلاثمائة شيخ وهو شبيه الزهرى فى الكثرة، وكان صواما قواما غازيا، مات سنة سبع وعشرين ومائة وله خمس وتسعون سنة، وأخرج له أصحاب الكتب الستة، وله ترجمة فى الميزان سمع البراء بن عازب الصحابى المشهور، (و) قد (سأله رجل) وهذا الحديث أخرجه القاضى كما ترى عن البخارى فى الجهاد فى موضوعين باختلاف فى بعض ألفاظه، ورواه مسلم فى المغازى والنسائى فى السير (أفررتم) معاشر الصحابة (يوم حنين عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم؟ قال: نعم)، وحنين بن نابة بن مهلهيل، وبه سمى الموضع المعروف، وسميت غزوة حنين وأوطاس باسم الموضع الذى كانت فيه الوقعة سنة ثمان من الهجرة فى شوال، ووقع فى البخارى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، خرج إلى حنين فى رمضان، والمعروف أنه فى شوال، وما ذكره المصنف ورد فى بعض طرق الحديث، وفى بعضها أفررتم، ولم يذكر عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهى رواية مسلم، وعلى هذه الرواية قال النووى: جواب البراء، رضى الله تعالى عنه، من بديع الأدب، لأن تقديره أفررتم كلكم؟ فيقتضى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وافقهم على ذلك، فقال البراء: لا والله ما فر رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولكن جماعة من أصحابه جرى لهم كذا وكذا انتهى.

وهذا الجواب لا يتأتى إلا على الرواية الثانية، وكان ينبغى للشيخ أن يجيب بجواب غير هذا، لأن هذا الفهم احتز عن السائل بقوله عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم يجيء أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، انهزم قط، ولم ينقله أحد، وقد نقل الإجماع على أنه لا يجوز أن يعتقد أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، انهزم، ولا يجوز ذلك عليه، بل كان العباس وأبو سفيان، رضى الله تعالى عنهما، آخذين بلجام بغلته يكفانها عن إسراع التقدم إلى العدو، وكما يأتى، وقد صرح به البراء فى حديثه كذا قال البرهان، وقيل عليه إنه يأتى الجواب على ما رواه المصنف أيضًا، لأن قول السائل عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وإن دفع وهم أنه ما فر معهم لا يدفع أنه فر بعد

فرارهم، فكان ثابتاً فى ما طواه البراء فى الجواب الذى تقديره: فر من فر عن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم الذى دفعه بقوله: (لكن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم لم يفر)، لأنه استدراك لدفع ما توهم من الكلام السابق، وإن لم يصرح به، وما قيل من أنه يمكن أن يقال: قصد البراء أن يبين أن فرارهم لم يكن بالكلية، وإنما معناه تحولنا عن وجه العدو، فجعلنا جولة ثم عدنا، وكيف ندع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو أعز من أنفسنا أو هو من الأسلوب الحكيم، فكأنه لما سأله عن فرارهم قال له: هذا لا يهكم شأنه، وإنما الذى ينبغى أن تعتقده أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم لم يفر، تكلف ليس فى الكلام ما يدل عليه.

(ثم قال: لقد رأيته على بغلته البيضاء) الشهباء يقال لها فضة أهداها له فروة بن نفثة كما فى مسلم، وفروة بفتح الفاء وإسكان الراء، ونفثة بضم النون وبالفاء المخففة وبالمثلثة الجذامى بضم الجيم وبالدال المعجمة، وفى رواية ابن اسحاق: ابن نعامة بالعين والميم والمعروف الأول، وقال بعضهم: ركب، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى حنين بغلة تسمى دلل، وكذا قال النورى فى شرح مسلم والمعروف الأول، ودلّل أهداها له المقوقس، وكبرت وبقيت إلى زمن معاوية، رضى الله تعالى عنه، ويقال: أنه وهبها، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأبى بكر، رضى الله تعالى عنه، وكان له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ست بغلات أو خمس كما ذكره الحفاظ، وذكروا من أهداها له.

(وأبو سفيان) بن الحارث بن عبد المطلب هو ابن عم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، واسمه المغيرة أو اسمه كنيته، وكان أخاء من الرضاع، وآلف الناس به قبل النبوة، وكان يشبهه، صلى الله تعالى عليه وسلم أيضاً، وكان شاعراً مطبوعاً، فلما ظهر الإسلام أظهر العداوة، وهجا النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأجابه حسان، رضى الله تعالى عنه، بما هو مذكور فى السير، ثم أسلم وحسن إسلامه وأبلى بلاء حسناً يوم حنين، وتوفى سنة عشرين، وصلى عليه عمر، رضى الله تعالى عنه، وهو أحد من ثبت يوم حنين، وهم عشرة أو أكثر كما فصله أصحاب السير.

(أخذ بلجامها) أى ممسك عنان بغلته، صلى الله تعالى عليه وسلم، والعباس، رضى الله تعالى عنه، من الجانب الآخر، فالتفت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأبى سفيان، وقال له: من أنت؟ قال: أخوك أبو سفيان بن الحارث فذاك أبى وأمى فقال: نعم أخى ناولنى حصاً من الأرض، فناولته ورمى به فأصاب أعينهم كلهم وانهزموا، وإنما أمسكا باللجام لئلا يسرع للاتصال بالعدو، ولما رأياه من إقدامه، صلى الله تعالى عليه وسلم ومسارعته، فأشفقا عليه بمقتضى المحبة الإسلامية والرحمة، وإن علما عصمته،

صلى الله تعالى عليه وسلم، وحماية الله تعالى له.

(والنبي، صلى الله تعالى عليه وسلم يقول: أنا النبي لا كذب وزاد غيره: أنا ابن عبد المطلب) هذه الرواية المشهورة بسكون الباء للوقف، ويروى بتحريك الباء فيهما، وروى بلا كذب، وعلى هاتين الروايتين لا إشكال، وعلى الرواية المشهورة إشكال مشهور، وهو أنه يكون موزوناً من مجز وبجر الرجز، والنبي، صلى الله تعالى عليه وسلم لا يصدر عنه الشعر، لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩] فكيف يصدر عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم هذا ونحوه؟ كقوله:

هل أنت إلا أصبع دमित وفي سبيل الله ما لقيت

ووقع مثله في كتاب الله تعالى وأجيب عنه بأن الرجز ليس من الشعر كما ذهب إليه بعضهم استدلالاً بهذا، وبأن العرب تسمى قائله راجزاً لا شاعراً، وبأن المراد بالشعر المنزه عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم أن يكون بنظم أنواعه، فيكون سجية، وما وقع نادراً لا يعد قائله شاعراً، ونظيره ما قاله الباقلاني في كتاب الإعجاز: إن القرآن يقع فيه ذلك حتى يكون جامعاً لأنواع الكلام، ويمثله لا يكون القرآن شعراً كالبيت أو المصراع إذا وقع في أثناء رسالة أو خطبة، والجواب المشهور أن الشعر هو الكلام الموزون المقفى بالقصد، وما وقع في الحديث كهذا وفي القرآن كقوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُنْفِخَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسَحَابٍ﴾ [الشعراء: ٣٥] لم يقصد وزنه، فلا يسمى شعراً، وهذا في الحديث الصحيح، وأما في القرآن فلا، لأن إذا سلمنا وقوعه فيه لابد أن يكون بالقصد والإرادة؛ لأنه لا يمكن أن يقع شيء في الخارج يغير إرادته، وقد ذكرت هذا لبعض مشايخي فاستحسنه، ثم رأيته في بعض شروح المفتاح، وقد أجابنا عنه في كتابنا طراز المجالس، وكان ابن قدامة في كتاب التكملة لحظ هذا، فذهب إلى أنه ليس في القرآن موزون، لأننا لا نجوز أن يقرأه على هذه الطريقة، بل نصل الكلام ولا نقف على ما يشبه العروض والضرب، وحيث لا يكون موزوناً، وهو كلام حسن، وقوله لا كذب إذا حرك يلزمه الوقف على متحرك، وهو لحن لا يصدر عن من هو أفصح الناس وفيه نظر، ونفيه الكذب عنه لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم مصون عنه مطلقاً، أو معناه لا كذب في الظفر والنصر وما وعدني الله تعالى، أو لا أكذب في دعوى النبوة، لظهور آياته ووضوح برهانه معجزاته، والمقصود تثبتهم حتى لا يفر أحد منهم، وقوله: زاد غيره إن كان الضمير راجعاً للبخاري اقتضى صيغة أن هذه الزيادة لم تزد في البخاري مع أنها فيه في محلين من كتاب الجهاد، فكان ينبغي له إسقاط قوله: وزاد غيره إن رجع لغيره ممن سمع البراء، فالأمر واضح، وقوله: أنا ابن عبد المطلب كما يقول المحارب: أنا فلان

إشارة إلى شجاعته وصولته، وإنما انتسب، صلى الله تعالى عليه وسلم لجدّه دون أبيه لاشتهاره بذلك، لأن أباه مات شاباً فى حياة جدّه وهو طفل، فكفله فكانوا يقولون له: ابن عبد المطلب، لعلو مقامه وكونه سيد أهل مكة، أو خصه بالذكر وقد انهزموا عنه تثبيتاً لنبوته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وإزالة للشك فيها؛ لما عرف من رؤياه المبشرة لذلك كما أنبأ بذلك الأخبار والكهان، فكأنه يقول: أنا ذلك الموعود به، فلا بد مما وعدت به، لئلا يفروا ويظنوا أنه مقتول أو مغلوب، وكان عبد المطلب رأى فى منامه أن سلسلة من فضة خرجت من ظهره، لها طرف فى السماء وطرف فى الأرض، وطرف بالشرق وطرف بالمغرب، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور، فإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها، فقصها فعبرت بمولود له من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب، ويحمده أهل السماء والأرض، فلذلك سماه محمداً كما قاله حين قيل له: لم سميت بهذا، وليس لأحد من آبائك ولا قومك مثله، فقال: رجوت أن يحمدّه أهل الأرض، وقيل: إن أمه لما حملت به قيل لها: إنك حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وضعته فسميه محمداً، وقوله: أنا النبى، إلى آخره ليس من الافتخار المنهى عنه، لأنه جائز فى الجهاد لإرهاب العدو وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم ينصر بالرعب كما مر، وهذا جار على عادتهم كقوله:

أقول له والرمح باقر بطنه تأمل خفافاً أننى أنا ذلكا

(قيل: فما روى يومئذ أحد كان أشد منه)، صلى الله تعالى عليه وسلم أى لم ير فى حرب هوازن أقوى وأشجع من النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد ركب بغلته، وقد ظاهر عليه درعا ومغفراً، وطاف على الصفوف يحضهم على القتال ويشرهم بالفتح إن صدقوا وصبروا، وكانوا برزوا للقتال فى كتائب لم ير المسلمون مثلها عدة وعُدّة، وحملوا حملة واحدة، وكانوا أرمى الناس بالسهم وأعرفهم بالقتال، فانهزم الناس، والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم ثابت يلتفت يمنة ويسرة لمن فر منهم، وهو يقول: «يا أنصار الله، وأنصار رسول الله ﷺ، أنا عبد الله ورسوله»<sup>(١)</sup>، ثم تقدم بحربته أمام الناس، فلم يمض قليل حتى هزمهم الله، وإنما قال المصنف رحمه الله: قيل لأن هذه اللفظة بعينها لم تثبت عنده بطريق صحيح.

وأما كونه، صلى الله تعالى عليه وسلم أشد من حضر تلك الموقعة وأشجعهم، فهو مما لا شبهة فيه، ولا يمكن أحد إنكاره.

(١) أخرجه ابن سعد (١٠٩/٢)، وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٢٢٤/٣).

(وقال غيره) أى البخارى الذى الحديث السابق من روايته، لكنه لم يذكر فيه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم (نزل عن بغلته) فإنه فى رواية مسلم رواه سلمة بن الأكوع، رضى الله تعالى عنه، قال: لما غشوا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم نزل عن البغلة، ثم قبض قبضة من تراب الأرض، ثم استقبل بها وجوههم، وقال: شأهت الوجوه، فلم يبق أحد منهم حتى امتلأت عيناه من تلك القبضة ترابا، وهزمهم الله ولا شك أن النزول فى وقت المحاربة فيه من الشجاعة ما لا يخفى، وتسميه العرب نزالا، (فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين) هذه حال مؤكدة، وهى قد تكون موافقة لعاملها معنى كهذه الآية ولى مدبرا، وقد تكون موافقة له لفظا كقوله:

أصخ مصيخا لمن أبدى نصيخته.

والأول أقوى لما فيه من ترك التكرار بحسب الظاهر، وفى قوله: ولى المسلمون إن أريد جميعهم مجاز يجعل الأكثر بمنزلة الجميع، وإلا فلا يجوز خلافا لمن ظنه، وقد ثبت جماعة من المسلمين اختلف فى عددهم كما مر، وفصل فى السير وكتب الحديث.

(وذكر مسلم) فى صحيحه رواية (عن العباس)، رضى الله تعالى عنه، عم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، (قال: فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم) أى جعل وشرع فى فعل ذلك (يركض بغلته نحو الكفار) أى يسوقها ويسرع بها، والركض الضرب بالرجل، فمتى نسب إلى الراكب فهو إعداء مركوبه نحو ركضت الفرس، ومتى نسب إلى الماشى فوطأ الأرض نحو قوله: ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص: ٤٢]، ونحو منصوب على الظرفية أى فى جهتهم، (وأنا آخذ بلجامها).

أى ممسكه (أكفها) أى أمنعها من السرعة (إرادة أن لا تسرع) أى لأجل إرادة أن لا تسرع نحو العدو تقتحم به، (وأبو سفيان) بن الحارث ابن عمه (أخذ بركابه) هذه رواية، وفى أخرى أن أبا سفيان كان يقود بغلته، صلى الله تعالى عليه وسلم آخذ بلجامها من أحد جانبيها، فلعله تارة كان يفعل كذا، وتارة كان يفعل كذا، فلا تعارض بين الروايات.

(ثم نادى) أى العباس، رضى الله تعالى عنه، وكان جهورى الصوت (يا للمسلمين) بفتح اللام الأولى لدخولها على المستغاث به، فإن دخلت على المستغاث له كسرت نحو يا لله للمسلمين، وكان نداؤه، رضى الله تعالى عنه، بأمر رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم إذ قال له: يا عباس ناد أصحاب السمرة، فناداهم فعطفوا وقاتلوا حتى هزم الله

أعداء الدين، وقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه سلم: الآن حمى الوطيس.

وهذا الحديث نقله المصنف رحمه الله تعالى عن مسلم بالمعنى إذ ليس فيه نداء العباس، وخص العباس، رضى الله تعالى عنه، بذلك؛ لأنه كان صيتا يسمع صوته من ثمانية أميال، وأصحاب السمرة هم أصحاب الشجرة، وإنما خصهم بالنداء لأنهم لما بايعوه تحتها بايعوه على الموت، وأن لا يفروا، فذكرهم بذلك.

وفى خصائص الخيضرى كان يجب عليه صلى الله تعالى عليه وسلم مصابرة العدو، وإن كثروا، والأمة إنما يلزمهم الثبات إذا لم يزد عدد الكفار على الضعف، كذا فالوه من غير دليل، لكن ذكر الماوردى أن من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه إذا بارز رجلا لم ينكف عنه، وأنه لا يفر من الزحف، وخوفه من القتل غير جائز، لأن الله عصمه انتهى.

(وقيل: كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم إذا غضب ولا يغضب إلا لله لم يقم لغضبه شيء) أى لمهاية كل أحد له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وخوفه منه لا يتحرك عنده، وقال: شيء، دون أحد مبالغة، فإن العاقل وغيره سواء فى ذلك، ففى هذا إشارة إلى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم كان يعتريه الغضب والحدة أحيانا، ولكن ذلك غير على حدود الله لا لنفسه، ومناسبة هذا لما نحن بصدده من ذكر الشجاعة أن الغضب مقتضى للبطش والإقدام، وهو من نمطها، وهذا بعض من حديث صحيح فى شمائل الترمذى.

(وقال ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما:) من حديث صحيح رواه الدارمى مسندا (ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود) تقدم الفرق بين الشجاعة والنجدة، فليس عطفه عليه عطف تفسيرى كما توهم، ونفى الأفضل هنا يفيد نفى المساوى بطريق الكناية، كما تقول: ما فى البلد أعلم من زيد كما تقدم تحقيقه، (ولا أرضى من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم) أى أكثر رضى منه؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم كان يرضى بكل شيء من ملبوس ومأكول وغيره، ويحتمل أن المراد بالرضى عدم الغضب أى كان أكثر حاله عدم الغضب، لأن الرضى يكون مقابلا للسخط، ويكون بمعنى الإرادة وعدم الكره، وبكل منهما فسر الرضى إذا كان صفة لله، وعلى ذلك مبنى اختلاف الأشاعرة والماتريدية فى رضى الله للكفر فى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، والظاهر أن هذا مراد المصنف؛ لأنه المناسب لما قبله، وهذا الحديث رواه أحمد والنسائى والطبرانى والبيهقى، قيل: عطفه أجود على أنجد لما بينهما من المناسبة، فإن الجواد لا يخاف الفقر، والشجاع لا يخاف الموت كقوله:



إن الذي جمع السماحة والنجد — دة والبر والتقوى جمعاً

ولأن الأول بذل النفس، والثاني بذل المال، والوجود بالنفس أقصى غاية الجود.

(وقال علي، رضي الله تعالى عنه: إنا كنا إذا حمى البأس) بالموحدة وبهمزة أو ألف وهو الشدة، والمراد به الخوف أو الحرب، وحمى بزنة علم أو قد، ففيه استعارة مصرحة أو مكنية أي اشتد القتال، وهذا معنى ما وقع في الرواية الأخرى: حمى الوطيس، فإن الوطيس التنور كما مر، وذلك أبلغ مع نكتة؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم قاله في غزوة أوطاس على ما تقدم مع الكلام عليه بما لا مزيد عليه.

(ويروى إذا اشتد البأس)، وهذه الرواية مفسرة للأولى، (واحموت الحدق) جمع حدقة، وهي ما تحت الأجفان، واحمرارها يكون عند الغضب، لأن الدم يهيج فيه، وفي الحديث «الغضب جمة تتوقد في قلب ابن آدم» أما ترى انتفاخ أوداجه واحمرار عينيه، وفسر بشدة الغضب وهو غير مناسب هنا، وإن كان كل عدو غضبان على عدوه، ولذا فسر به كثرة الموت، والظاهر أنه كناية عن زيادة هيجانها، لأنه يقال: اشتعلت وأوقدت، ومن قرب من النار ولازمها تحمر عينه، فالمعنى اشتد القتال ودام مدة.

(اتقينا برسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم) أي جعلناه وقاية لنا من العدو بأنه يتقدم علينا، فيدفع العدو ونحن خلفه كما يشير إليه قوله: (فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه)، ولذا أمسكوا بغلته، صلى الله تعالى عليه وسلم يوم حنين كما مر، ولم ينكر عليهم، وقد صارت هذه سنة في الملوك وقت القتال حتى أن آل عثمان يقيدون فرسه. (ولقد رأيتني) بضم التاء، وهذا من خصائص أفعال القلوب وما ألحق بها من رأى البصرية والعلمية أن يكون فاعلها ومفعولها ضميرين متصلين لشيء واحد، ورأى هذه بصرية كما في قوله:

ولقد أرانى للرماح دريئة من عن يميني تارة وأمامي<sup>(١)</sup>

وقد اختلف في تعليل هذا كما فصل في كتب النحو، وكان الظاهر لقوله بعده: (يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي، صلى الله تعالى عليه وسلم) أن يقول: رأيتنا فكأنه عدل عنه إشارة إلى أن كل أحد مشغول بنفسه لا يرى غيره، ومعنى نلوذ نسير ونلتجىء إليه، قال عز وجل: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾ [النور: ٦٣].

(وهو أقربنا إلى العدو) منا لشدة شجاعته، صلى الله تعالى عليه وسلم، والمراد بالعدو

(١) البيت من الكامل، وهو لقطرى بن الفجاءة في ديوانه (ص ١٧١)، خزانة الأدب (٥٨/١٠)،

الدرر (٢٦٩/٢)، شرح التصريح (١٠/٢)، المقاصد النحوية (١٥٠/٣).

الكفار، (وكان من أشد الناس يومئذ بأساً) أى نكاية فى العدو كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤]، كما قاله الراغب، وهذا الحديث أخرجه أحمد والنسائى والطبرانى والبيهقى فى الدلائل من طرق عنه، وأخرج مسلم بعضه من حديث البراء بن عازب، رضى الله عنه، كما قاله السيوطى فى مناهل الصفا، (وقيل: كان الشجاع هو الذى يقرب منه، صلى الله تعالى عليه وسلم إذا دنا العدو) أى قرب من المسلمين وقت المقاتلة، (لقربه) أى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم (منه) أى العدو، وهذا من كلام البراء بن عازب، رضى الله تعالى عنه، الذى رواه مسلم فى صحيحه، ولذا قيل: إن قول المصنف رحمه الله قيل: ليس فى محله لإيهامه ضعفه.

(وعن أنس، رضى الله عنه) هذا حديث صحيح اتفق عليه الشيخان (كان النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أحسن الناس) كلهم خلقاً وخلقاً، (وأجود الناس) أى أكثرهم عطاء وإحساناً، (وأشجع الناس) أفعل تفضيل، ولا وجه لما قيل: إنه للتعجب ثم ذكر ما يدل على شدة شجاعته، صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: (لقد فرغ أهل المدينة) اللام فى جواب قسم مقدر، والمدينة مدينة الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم علم لها بالغلبة، والفرغ انقباض ونفار يعترى المرء مما يخاف، وهو قريب من الجزع، ولذا يقال: خفت الله، ولا يقال: فرغت من الله تعالى، كما قاله الراغب قال تعالى: ﴿لَا يَخْزِيهِمُ الْفَرْغُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، أى من دخول النار، ويكون الفرغ بمعنى الاستغاثة قال:

كنا إذا ما أتانا صارخ فرع<sup>(١)</sup>

(ليلة) منصوب على الظرفية أى فى ليلة، (فانطلق ناس) أى خرجوا من المدينة (قبل) بكسر القاف وفتح الباء بمعنى الجانب والجهة ظرف أى نحوه، يقال: ذهب قبل السوق، قال الله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكَ مُهْطِعِينَ﴾ [المعارج: ٣٦]، ويكون بمعنى عند يقال: لى قبله حق، ويستعار للوسع والطاقة نحو: ﴿فَلَنَأْيِنَهُمْ يَحْتَوِرُ لَا قِيلَ لَهُمْ بِهَا﴾ [النمل: ٣٧].

(الصوت) أى الذى سمعوه وخرجوا ليعرفوا خبره؛ لظنهم أنه عدو غار على من هناك، وكان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم خرج قبلهم وحده لذلك، فعرف

(١) صدر بيت، وعجزه: «كان الصراخ له قرع الظنائب» وهو من البسيط، وهو لسلامة بن جندل فى ديوانه (ص ١٢٣)، لسان العرب (٥٧٢/١)، مجمل اللغة (٣٦٥/٣)، تاج العروس (٢٩٨/٣)، كتاب العين (١٦٥/٨)، تهذيب اللغة (٣٩٠/١٤)، الكامل (ص ٣)، مجمع الأمثال (٩٣/٢).

جانب سمع الصوت منه (قد سبقهم إلى الصوت) أى المكان الذى سمع الصوت من جهته، (وقد استبرأ الخبر) بمهملة ومثناة فوقية وموحدة وهمزة، وقد تبدل ألفا أى وقف صلى الله عليه وسلم على حقيقته، وفى الأساس استبرأت الشئ طلبت آخره، لأقطع الشبهة عني، واستبرأ الأرض قطعها انتهى حال كونه راكبا (على فرس لأبى طلحة) زيد بن سهل بن الأسود بن حرام الأنصارى الصحابى، وكان ذلك الفرس يسمى المندوب أى المطلوب، أو لأنه كان فيه ندب أى أثر جرح (عري) بضم العين وسكون الراء المهملتين مجرور صفة فرس، ويقال فى الآدمى: عريانا إذا لم يكن له لباس وغيره عرى، وقيل: إنه عرى بضم العين وكسر الراء وتشديد المثناة التحتية بمعنى عرى، وليس فى اللغة ما يساعده أى ليس على ظهره شئ من سرج أو غيره، قال فى المغرب: فرس عرى لا سرج عليه ولا لبد، وجمعها عرى لا يقال فرس عريانا كما لا يقال رجل عرى، واعرورى الدابة ركبها عريانا، ومنه كان عليه الصلاة والسلام يركب الحمار معروريا، وهو حال من ضمير الفاعل المستكن، ولو كان من المفعول ل قيل معرورى.

(والسيف فى عنقه) أى حمائله معلقة فى عنقه الشريف متقلدا به، صلى الله تعالى عليه وسلم.

وأعلم أن هذا هو السنة فى حمل السيف كما قاله ابن الجوزى، لا شده فى وسطه كما هو المعروف الآن.

(وهو يقول) لمن لقيه من أهل الفزع: (لن تراعوا) لن هنا بمعنى لم، ونفى الروع بفتح الراء بمعنى الخوف، والمراد نفى سببه أى ليس هناك شئ تخافونه، واستدل بهذا الحديث على طهارة عرق الخيل، وهذا حديث صحيح فى الصحيحين.

(وقال عمران ابن حصين) بكسر العين المهملة وسكون الميم وراء مهملة، وحصين بمهملتين كتصغير حصن، وهو صحابى خزاعى كان من فقهاء الصحابة وفضلائهم، رضى الله تعالى عنه، (ما لقي النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم كتيبة) بفتح الكاف وكسر التاء المثناة فوقية وبالمثناة التحتية وباء موحدة هى الجيش المجتمع، وقيل: جماعة الخيل المغيرة من تكتبوا بمعنى تجمعوا، ومنه الكتاب لجمعه الحروف.

(إلا كان أول من يضرب) بسيفه ويقا تل، وهو من قصر الصفة على الموصوف، وهذا الحديث رواه أبو الشيخ فى الأخلاق، وفيه راو مجهول.

(ولما رآه)، صلى الله تعالى عليه وسلم (أبى ابن خلف يوم أحد) هو أبى بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح، الكافر المشهور الذى طعنه رسول الله، صلى الله تعالى عليه

وسلم بحريته في وقعة أحد، فوقع عن فرسه ولم يخرج منه دم وكسر ضلعه كما يأتي، فهلك عدو الله.

وقول المزي في تهذيبه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم أخبرنا بأنه يقتل أبي بن خلف، فخذشه يوم بدر أو أحد فمات، ذكره بالترديد بين بدر وأحد لا وجه له، ويوم أحد ظرف لرؤيته.

(وهو يقول) حال من أبي: (أين محمد؟) سؤال عن المكان.

فإن قلت: كيف يسأل عن مكانه وهو قال أنه رآه؟ قلت: إن السؤال ليس على حقيقته، بل مجاز عن تمكنه منه وظفره به، أو التقدير أين يذهب محمد، أو الظرف ممتد وقع جميع ذلك فيه، فهو في وقت واحد، وإن تقدم وتأخر (لا نجوت إن نجأ) دعا على نفسه بالهلاك إن نجى الله تعالى حبيبه ورسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد أجاب الله دعاءه فأهلكه، ونجا رسوله، صلى الله تعالى عليه سلم، والفأل موكل بالمنطق.

(وقد كان) أبي (يقول للنبي صلى الله عليه وسلم حين افتدى يوم بدر) قيل: يوم بدل من حين، وافتدى مبنى للفاعل ومفعوله محذوف أى افتدى أسيرا له، وهو ابنه عبد الله، والافتداء إعطاء الفدية لافتكاك الأسير، فالمراد بحين الافتداء يوم بدر بتمامه، لا الزمان الضيق الذي وقع الافتداء يوم بدر فيه، لأن الظاهر أنه لم يقل وعيده له، صلى الله تعالى عليه وسلم، الآتى إلا قبل أن يفتدى لا حين الافتداء، وقيل يوم بدر ظرف لمحذوف يدل عليه افتدى أى افتدى أسيره يوم بدر، فهو متعلق بأسيره أى من أسر يوم بدر، وهو ابنه، ولا يستقيم كونه بدلا من حين لأن الافتداء وقع بعد وقعة بدر بالمدينة، وأبى قال ما قال حين افتدى لا بعده، وكان من قال إن ذلك وقع قبل أن يفتدى ظن أن الكفار لم يكونوا يدخلون المدينة بالأمان، فالأسر وقع ببدر والافتداء بالمدينة فلا تتأتى البدلية فتأمل.

(عندى فرس أعلفها) الفرس يقع على الذكر والأنثى، وأنتها هنا لأنها كانت أنثى، وقد ورد في الحديث تذكيرها وتأنيتها بحسب المراد والقرائن، وقال التلمساني: أعلفها هو الصواب، وفي السير أعلفه بضمير المذكر، وأصل الفرس الأنثى، وقد يقال للأنثى فرسة، وهو كلام مشوش، والذي في الصحاح أنه يقع على الذكر والأنثى ويصغر على فريس، وإن أردت الأنثى خاصة لم تقل إلا فريسة بالهاء عن أبي بكر بن السراج انتهى، فلا وجه لقوله: الصواب، واسم فرسه العود بوزن الضرب، وعينه وداله مهملتان والعلف مأكول الحيوان.

(كل يوم فرقا) بفتح الفاء والراء المهملة ويجوز تسكينها، وقيل: لا يجوز، وهو مكىال يسع ستة عشر رطلا وتحريكه وتسكينه بمعنى، وقيل: المسكن مائة وعشرون رطلا، والحرك ستة عشر رطلا.

(من ذرة) بيان للفرق بضم الذال المعجمة وفتح الراء المهملة المخففة وهاء نوع من الحبوب معروف، وقيل: إن غزوة أحد كانت فى شوال سنة ثلاث، وقيل: الظاهر أن المراد هنا الفرق بالتحريك، لأن الفرس لا يعلف ذلك المقدار كما لا يخفى.

(أقتلك عليها) صفة بعد صفة، أو هى جملة مستأنفة فى جواب سؤال مقدر، وقيل: إنها حال وهو بعيد وإن صح أن يكون حالا منتظرة.

(فقال له النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم أنا أقتلك إن شاء الله) فحقق ما أوعده، وكان إنما علف فرسه لتشوقه لهلاكه سريعا كالحافر بظلفه على حفته، ولكل باغ مصرع، (فلما رآه) أى رأى أبى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم (يوم أحد) اليوم على ظاهره، أو بمعنى مطلق الزمان، أو المراد به الواقعة على حد قولهم أيام العرب (شد أبى) ابن خلف الشقى أى عدا وأسرع، قال الراغب: يقال: شد فلان واشتد إذا أسرع، ويجوز أن يكون من قولهم: اشتدت الريح، وأصل معنى الشد القوة (على فرسه على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم) الجاران متعلقان بشد، وإن كان لا يجوز تعلق حرفى جر بمعنى. متعلق واحد، إما لأنه قيد الشد والعدو بأنه على فرسه، لا على رجله، ثم قيده به بعد تقييده بالأول، فيتغاير المتعلق معنى، لأن الأول يقيد به وهو مطلق، والثانى تعلق بالمقيد كما حققه صاحب الكشاف فى قوله تعالى: ﴿كَلِمَاتٍ رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ شَمَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٥] أو الأول مستقر حال أى راكبا على فرسه، والثانى لغو.

وشد جواب لما الثانية دالا على جواب الأولى.

(فاعترضه رجال من المسلمين) أى حالوا بينه وبين رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم ليدفعوه ويصدوه عنه، أو قصدوا نحوه وجهته.

(فقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم هكذا) أى تنحوا ولا تحولوا وتعترضوا بينى وبينه، فهكذا هنا اسم فعل أمر بمعنى اتركوا سبيله، قال السهيلي رحمه الله تعالى: فلا يعمل فيه ما قبله كما إذا قلت: جلس هكذا أى على هذه الحالة، أو يقدر له عامل تقديره: ارجعوا هكذا، ثم استغنى عنه وقام هكذا مقامه، وأصله مركب من هاء التنبيه وكاف التشبيه، وذا اسم إشارة، وإلى كونه انسلخ عن معناه أشار بقوله: (أى خلوا طريقه) أى اجعلوها خالية من حائل بينى وبينه، (وتناول) أى أخذ، صلى الله تعالى عليه

طريقه) أى اجعلوها خالية من حائل بينى وبينه، (وتناول) أى أخذ، صلى الله تعالى عليه وسلم بيده (الحربة) بوزن الضربة، وهى واحدة الخراب بوزن رجال، وهى قناة صغيرة سميت بها، لأنها من آلات الحرب، وقيل: إن هذه الحربة كانت للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأنه كان لا يرى مشاركة فى جهاده وسفره فى سبيل الله، ولهذا اشترى من أبى بكر، رضى الله تعالى عنه، راحلته التى هاجر بها، والأظهر أنها كانت للحارث، وربما استعان بغيره من أصحابه كما أشار إليه بقوله: (من الحارث بن الصمة) بكسر الصاد المهملة وفتح الميم المشددة وهاء تأنيث، ومعناه الشجاع المصمم فى أموره، ثم نقل علمًا، وهو أعنى الحارث بن الصمة بن عمرو بن عتيك الأنصارى الصحابى شهد مع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم بدرًا وغيرها من المشاهد، وقتل ببئر معونة.

وذكر ابن الأثير أن الذى ناول رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم الحربة كعب ابن مالك، وبين الروایتين مخالفة، وجمع بينهما بأنه تناولها من أحدهما فسقطت منه، فناولها له الآخر، أو أن أحدهما وهو الذى معه الحربة كان بعيدا منه، فناولها آخر قريبا منه، فسلمها بيده، ولا بد من التوفيق فإن الروایتان صحيحتان والقصة واحدة.

(فانتفض بها انتفاضة) أصل معنى النفض بالنون والفاء والضاد المعجمة إزالة الغبار ونحوه عن ثوب أو شجر، قال أبو ذؤيب:

تنفض لهدة وتذود عنه وما تغنى التمايم والعكوف

ويقال نفض وانتفض إذا اهتز، ونفض الصبغ إذا أثر لونه فى غيره، وذكر نصيب عن بناته فقال:

نفضت عليهن لونى

وقلت فى أول قصيدة:

نفضت على صاغها أيام نفض البياض بها قليل قيام

وهو هنا استعارة أى قام بها قومة سريعة، وضمير بها للحربة، وما قيل إنه مستعار من انتفاض الطائر قال:

كما انتفض العصفور بلله القطر

غير مناسب هنا إلا أن يقال: باؤه للتعدية، والمعنى أنه هزها، وقيل معناه تحرك وحركها، والأبلغ الأحسن أن يقال، إنه استعارة تمثيلية يلزمها تشبيههم بأنهم كالذباب المؤذى الواقع المتهافت، فيفيد هجومهم عليه، وتشبيه نهوضه لهم بفحل اهتز ليزيل ذبابا وقع عليه لقوله: (تطايروا عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض)، وتطايروا بمعنى

مهملة بعدها همزة ممدودة ذبابة لها إبرة، وفي نسخة البرهان بفتح العين إلا أنه لم يثبت، وقال القتيبي: الشعر جمع شعراء وهي ذباب صغار حمر تؤذى الدواب، وقيل زرق، وقيل كثيرة الشعر، وفي رواية تطاير الشعارير، وهي جمع بمعنى الشعر، وقياس واحده شعروى، وقيل: هي ذباب يجتمع على دبر البعير، وفي الروض الأنف: الشعراء ذباب صغير له لدغ، وفي المثل قيل للذئب: ما تقول في غنيمة تحرسها جويرية؟ قال: شحم في ظفر. قيل: فما تقول في غنيمة يحرسها غليم؟ قال: شعراء في إبطي أخشى خطواته، وهي سهام تتعلم الغلمان بها الرمي، وروى فزجله بالخرية أى رمى بها انتهى.

قيل: رواية الشعراء أنسب؛ لأن الواحد لا يتطاير، أقول: هذه زبدة القيل والقال، وما أنكر من فتح العين لا وجه له، فإن تحريك حرف الحلق لغة. قال بعض النحاة: إنها تطرد فيقولون في بحر وشعر بحر وشعر، والشعراء ليس مفردا بل اسم جمع كالطرفاء، فلا وجه لما قيل: إن الأنسب الشعر، وقول بعضهم: الشعراء جمع شعر كأنه تحريف، واعلم أن ضمير تطايروا للكفار الذين كانوا هجموا مع أبي، وقيل: إنه للصحابة، رضى الله تعالى عنهم، وتطايرهم عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم بإذنه ليكشفوا له عن أبي، ولا يخفى أنه لا يناسب هذا بوجه تشبيههم بالشعراء، ولا تطايرهم كما لا يخفى.

(ثم استقبله) أى قام النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم ومشى إليه بالخرية، (فطعنه فى عنقه طعنة تدأداً منها عن فرسه مرارا) تدأداً بمثناة فوقية ودالين مهملتين وهمزتين أى تدرج وسقط، وقيل: مال، وضمير منها للطعنة ومثله تدهده، وقيل: الهاء بدل من الهمزة، وفي رواية تردى أى وقع.

(وقيل:) لم يطعنه، صلى الله تعالى عليه وسلم فى عنقه (بل كسر ضلعا من أضلاعه) بكسر الضاد المعجمة وفتح اللام ويجوز تسكينها مع كسر الضاد وفتحها عظم معروف، وقال الأخفش: فى الجنب الأيمن تسع أضلاع، وفى الأيسر ثمان، وما نقص منه تام فى النساء، وهو الذى خلقت منه حواء، ولذا روى عن أبي حنيفة فى الخنثى المشكل أنه يحكم فيه بأنه أنثى بتمام أضلاعه وعكسه، وقال التلمسانى: رواية طعنه أقوى، لأن المعروف الطعن بالرمح، وفيه نظر، وقيل إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم طعنه، فوقع عن فرسه فكسر ضلعه، وفيه جمع بين الروایتين وهو حسن.

(فرجع) أبى (إلى قریش) وهو (يقول: قتلنى محمد) جملة يقول حاله أى قائلا، وعبر بالماضى لتحققه الموت، (وهم يقولون: لا بأس بك) البأس بهمة ساكنة وتبدل ألفا كما مر، وهو اسم لا مبنى على الفتح، والبأس الشدة والموت والألم، وهذا هو المناسب، ويقال: لا بأس عليك ولا بأس بك للتسلية أو الدعاء له بأن لا يصيبه شئ من البأس،

وفي نسخة عليك بدل بك، وهما بمعنى.

(فقال: لو كان ما بي) من الألم والشدة التي أجدها في نفسي موزعا وحالا (بجميع الناس لقتلهم) فكيف أتحمّل أنا وحدي هذا وأسلم منه؟ (أليس قد قال)، صلى الله تعالى عليه وسلم حين توعده (أنا أقتلك)؟ قيل: أصله أقتلك أنا، فقدم المسند إليه للحصر أي أنا لا غيري أقتلك وحدي لا يشاركني أحد، ولا يساعدني في قتلك إلا الله حتى قيل: إن قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَنَكِبَ اللَّهُ رَمِيَّ﴾ [الأنفال: ١٧] نزلت، فالقصر قصر أفراد، والظاهر أنه قصر قلب، فهو المناسب للرد عليه أي أنا أقتلك لا أنت تقتلني، فتدبر.

(والله لو بصق على لقتلني) البصق رمى ماء الفم، ويقال بالصاد والسين والزاي، وإنما قال ذلك لتحقيق صدقه، صلى الله تعالى عليه وسلم فيما قاله، (فمات) الملعون من تلك الطعنة (بسرف) بسين مهملة مفتوحة وراء مهملة مكسورة وفاء اسم موضع، وقيل اسم جبل قريب من مكة على ستة أميال أو سبعة أو تسعة أو اثني عشر على اختلاف فيه، واسم مكان موته مناسب له لأنه كان مسرفا على نفسه كما قيل:

اختير الأرض بأسمائها واختير الصاحب بالصاحب

(في قفوههم) أي الكفار (إلى مكة) أي مات، وقد رجعوا من أحد إلى مكة، والقفول معناه الرجوع، وتسميتهم القافلة قافلة تفاؤلا برجوعها كما سمي الملدوغ سليما، فإنكار الحريري وتخطئته فيه لا وجه له، وهذا الحديث صحيح رواه البيهقي في الدلائل، عن عروة بن الزبير، وسعيد بن المسيب مرسلًا، وعبد الرزاق في مصنفه، والواقدي في مغازيه، وابن سعد في طبقاته، وقيل: إنه قال هذه المقالة بمكة لما خلص ابنه من الأسر ورجع به، وكان ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما، يقول: إنه مات ببطن رابغ، وأن أسيرًا من المسلمين مر وهو أسير برابغ، فرأى بعد هدوء من الليل ناراً فهابها، فلما دنا منها خرج رجل في سلسلة يصيح العطش، ومعه رجل يقول: لا تسقه فإنه أبى ابن خلف قتيل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقلت: سحقا له.

\* \* \*

### (فصل وأما الحياء والإغضاء)

الحياء ممدود، وهو في اللغة ضد الوقاحة، وفعله استحيى يستحيى بيائين، وتحذف إحداهما تخفيفًا، والإغضاء أصل معناه إرخاء الجفون قريبًا من الانطباق، وهما متغايران



لغة وعرفا، ويدل عليه قول الفرزدق<sup>(١)</sup>:

يغضى حياء ويغضى من مهابتة فما يكلم إلا حين يتسّم

(فالحياء رقة) الرقة ضد الغلظ ورقة القلب أن لا يكون فيه قسوة وجفاء، قال الراغب: الرقة كالدقة لكن الدقة تقال باعتبار جوانب الشيء، والرقة باعتبار عمقه، وهى فى الجسم ضد الصفاقة، وفى النفس تضاد الجفوة والقسوة (تعزى) أى تعرض وتحدث (وجه الإنسان)، فيكون فيه ما يدل عليه كحمرته عند الخجل (عند فعل ما يتوقع كراهته) لم يقل ما يكره، لأن من يراه قد لا يكرهه، فالمراد ما من شأنه أن يكرهه، (أو ما يكون تركه خيرا من فعله)، وإن لم يكرهه، وقال الراغب: الحياء انقباض النفس عن القباح وتركها.

وفى الحديث: (أن الله يستحى من ذى الشبهة المسلم أن يعذبه)، وليس المراد به انقباض النفس لتنزه الله سبحانه وتعالى عنه، وإنما المراد به ترك تعذيبه، وقال النووى: هو خلق يمنع من القبيح ومن التقصير فى الحقوق، وقال الزمخشري: هو تغير وإنكار يلحق من فعل أو ترك ما يذم به، تفصيل فى تفسير البيضاوى كما بيناه فى حواشيه فانظره.

(والإغضاء) فى عرف اللغة (التغافل) أى إظهار الغفلة ممن ليست فيه، والمراد التجاوز (عما يكرهه الإنسان بطبيعته) وإن لم يكره شرعاً، (وكان النبى صلى الله تعالى عليه سلم أشد الناس حياء وأكثرهم عن العورات) جمع عورة، وهى كل ما يقبح إظهاره، ولذا كنى عن سوءة الإنسان، وعن المرأة بالعورة، وهى مأخوذة من العار (إغضاء) أى سكوتاً وتجاوزاً، والإغضاء يتعدى بعن وعلى، وعبر فى جانب الحياء بالأشدية، وفى الإغضاء بالأكثرية، لأن الحياء كيفية نفسانية تنشأ عنها كيفية حسية تقبل الشدة والضعف، والإغضاء فعل من الأفعال يكثر ولا تزيد كلفته من حيث هو، وقيل: لأن الإغضاء نوع احتمال وحلم وعفو عمن وقع فى مكروه، وهو مسبب عن الحياء، والسبب أقوى باعتبار أنه منشأ للمسبب عنه، وفيه نظر، ثم استدل على أن هذه الصفة الحميدة موجودة فيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: (قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣]) أى مكنتهم فى بيت النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، مستأنسين لحديث بعضهم لبعض ﴿كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيِيهِ مِنْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣] الآية، ﴿كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيِيهِ مِنْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣]،

(١) البيت من البسيط، وهو للفرزدق فى ديوانه (١٧٩/٢)، أمالى المرتضى (٦٨/١)، شرح ديوان الحماسة للمرزوقى (ص ١٦٢٢)، شرح شواهد المغنى (٧٣٢/٢)، مغنى اللبيب (٣٢٠/١)، المقاصد النحوية (٥١٣/٢).

وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، بنى بزينب بنت حجش، و أولم بشاة وتمر وسويق، وأمر أنسا بدعوة الصحابة لذلك، فدعاهم فجعلوا يحيثون ويأكلون ويخرجون، ويحيىء آخرون إلى أن بقى ثلاثة نفر، فأطالوا المكث يتحدثون، فتأذى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بذلك، وكان شديد الحياء، فنزلت الآية فى حقهم أى أن ذلكم اللبث كان يؤذى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لضيق منزله، فيستحى منكم أن يأمركم بالخروج منه، وهذا من الآداب الشرعية، فيستحب لمن زار أحداً ولو بدعوة أن يظهر القيام للذهاب، ثم يذهب ما لم يقل له: امكث عندى، وقد قال السلف، رحمهم الله تعالى: من زار وخفف، وقيل لبعضهم: هل نزل فى الثقلاء قرآن؟ فقال: نعم ﴿فَإِذَا طَلَعْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾، وللسيوطى تأليف لطيف فى هذا.

(حدثنا أبو محمد بن عتاب بقراءة عليه) تقدمت ترجمته، وقيد روايته بقرائته عليه وهو يسمع وهو العرض، والصحيح صحة ذلك إلا أنه اختلف فى كونها دون قراءة الشيخ، أو مثلها، أو فوقها على ثلاث أقوال، وتفصيله فى ابن الصلاح، قال: (حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد) بن عبد الرحمن بن حاتم المعروف بابن الطرابلسى، وتكنيته بأبى القاسم غير مكروهة لاختصاصه بحياته، صلى الله تعالى عليه وسلم؛ أو لأنه إنما يكره الجمع بين الاسم والكنية، والخلاف فيه مشهور كما سيأتى قال: (حدثنا أبو الحسن القابسى) بن محمد بن خلف الإمام الحافظ منسوب لقابس بلدة بالمغرب، وقد تقدمت ترجمته قال: (حدثنا أبو زيد المروزى) بفتح الميم وسكون الراء المهملة وفتح الواو والزاي، تقدم الكلام فيه وفى نسبه قال: (حدثنا محمد بن يوسف) هو الفربرى وقد تقدم قال: (حدثنا محمد بن إسماعيل) هو البخارى، وقد روى هذا الحديث مسنداً فى صفته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكذا أخرجه مسلم فى فضائله قال: (حدثنا عبدان) بفتح العين المهملة وسكون الموحدة والبدال المهملة وألف ونون، وهو عبد الله بن عثمان بن جبلة بن أبى رواد العتكى المروزى أبو عبد الرحمن الحافظ، توفى سنة إحدى وعشرين ومائتين، وخرج له أصحاب الكتب الستة قال: (أبانا عبد الله) بن المبارك بن واضح الحنظلى التميمى الزاهد، شيخ خراسان ومسندها، له مناقب مشهورة، وروى عنه أصحاب الكتب الستة وغيرهم، وتوفى سنة إحدى وثمانين ومائة، وولد سنة ثمانية عشر ومائة، وقبره بهيت يزار قال: (أخبرنا شعبة) تقدمت ترجمته (عن قتادة) تقدم أيضاً قال: سمعت عبد الله مولى أنس) هو ابن أبى عتبة مولى أنس، رضى الله تعالى عنه، وقيل: اسمه عبيد الله مصغراً، وذكره ابن حبان فى الثقات مكبراً، وهو يروى عن أنس وعائشة، رضى الله تعالى عنهما، وروى عنه كثير، وأخرج له أصحاب الكتب الستة، وهو بصرى صدوق ثقة.

(عن أبي سعيد الخدري) بن مالك بن سنان الخدري، وقد تقدم الكلام عليه، وأن الخدري بدال مهملة.

(كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أشد حياء من العذراء في خدرها)، وهذا الحديث صحيح أخرجه الشيخان والترمذي وابن ماجه، والمصنف أخرجه من طريق البخاري، وحياء ممدود تقدم معناه، وبالقصر المطر، وهو منصوب على التمييز المحول عن الفاعل، والعذراء، بعين مهملة وذال معجمة وراء مهملة ومد: البكر الباقية بعذرتها، وهي جلدة يلتحم بها الفرج، فإذا جومت زالت، فيقال: افتضها وأزال عذرتها، ومنه يقال لمن فعل ما لم يسبق إليه أبو عذرة وأبو عذرتة، والخدر بكسر الخاء المعجمة وسكون الدال وبالراء المهملتين هو البيت، أو ستر في جانب البيت، أو قبة تضرب لها.

فإن قلت: البكر في خبائها بين أهلها وأبويها، وهي لا تحتجب عنهم، ولا تستحي منهم كاستحيائها من الأجانب، فكان الظاهر أن يقال: العذراء في غير خدرها لما فيه من المبالغة.

قلت: المراد بكونها في خدرها أنها لم تخرج بسبي وتزوج ونحوه؛ لأنها إذا خرجت بذلك قل حياؤها وزال حجابها، وقيل: المراد التعميم وأن العذراء في خدرها أشد حياء؛ لكونه مظنة الاجتماع بها، والظاهر أن المراد تقييده بما إذا دخل عليها في خدرها لا حيث تكون منفردة قاله ابن حجر، ولا يخفى ما فيه؛ فإنه لا دلالة في اللفظ على ما قاله، فالحق ما سمعته أولاً.

(وكان)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه) أي عرفنا أنه كرهه بعلامات تلوح في وجهه الشريف كغيره وغض بصره ونحوه، والمراد أنه إذا لم يكن في حدود الله تعالى وحقوقه، فلا يؤخذ أحد بما يكره كما قال الصرصري:

فاق العذارى في الخدور حياؤه لا جيد فيه لصاحب أو شاني

(وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، لطيف البشرة) تقدم معنى اللطف والبشرة بفتح الباء الموحدة والشين المعجمة والراء المهملة هي ظاهر جلد الوجه والجسد كله، ومنه البشارة لظهور آثار الفرج بها في الوجه، وهذا كالعلة لمعرفة ذلك في وجهه الشريف، لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، للطف بشرته يظهر فيها ذلك، وكذا قوله: (رقيق الظاهر) أي ما يظهر من بدنه رقيق يظهر فيه بسرعة آثار الانفعالات النفسية، ولا وجه لتفسيرها بأنه يستحي كما قاله التلمساني.

(لا يشافه أحدا) أى لا يكلم، صلى الله تعالى عليه وسلم، (أحدا)، ولا يواجهه (بما يكرهه حياء وكرم نفس) منصوب مفعول له أى يترك ذلك تكريما منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا خوفا ومداراة.

(وعن عائشة، رضى الله تعالى عنها)، حديث رواه أبو داود فى سننه مسندا (كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل: ما بال فلان يقول كذا؟) البال هو الحال والشان، وما استفهامية مبتدأ أو خبر عن بال، وجملة يقول حال أو مفسرة للبال.

(ولكن يقول: ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا؟) إشارة وكناية عما يكرهه، فلا يعين الصانع أو القائل، وفلان وفلانة كناية عن أسماء الآدميين، والفلان والفلانة كناية عن أسماء غيرهم.

(ينهى عنه ولا يسمى فاعله) بصريح اسمه، بل يكتفى عنه، ونهيه عما أنكره مأخوذ من الاستفهام الإنكارى، وسياق الكلام فى قوله: ما بال، فلا يقال: إنه ليس فى الكلام نهى.

(وروى أنس، رضى الله تعالى عنه)، هذا الحديث رواه أبو داود والترمذى والنسائى قالوا: (أنه)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (دخل عليه رجل به أثر صفرة) الصفرة اللون المعروف، والمراد بها لون الورس والزعفران يعنى أنه كان خضب بذلك فبقى عليه بقية منها، ولم يسم هذا الرجل، (فلم يقل له شيئا) من نهيه عن ذلك ونحوه مما يكرهه كما أشار إليه بقوله: (وكان)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (لا يواجه أحدا بما يكره) أى لا يخاطبه شفاهها، ويقول له فى وجهه شيئا يكرهه، وإن قال له أحيانا فى غيبته، (فلما خرج) ذلك الرجل من مجلسه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (قال: لو قلت له يغسل هذا) أى أثر الصفرة والخضاب، (أو ينزعها) بفتح الزاء المعجمة يقال نزع ينزعه كسأله يسأله إذا أزاله، والضمير للصفرة، والشك من الراوى وهما بمعنى، ولو شرطية جوابها محذوف لتذهب النفس كل مذهب، وتقديره أصبتم ونحوه، وقيل: إنها مصدرية أى وددت قولكم هذا، وخضاب هذا الرجل إن كان فى لحيته دل على منع خضاب اللحية بالخناء ونحوها، ولا يعضده ما فى البخارى عن قتادة، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: سألت أنسا هل خضب النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم؟ فقال: لا إنما كان شئ فى صدغيه أى شئ قليل من الشيب لا يحتاج للخضاب؛ لأنه لا يدل على تركه لأنه منهى عنه شرعا، بل لعدم الحاجة إليه، وكذا ما روى عنه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يخضب قط، أى لعدم الحاجة إليه، إلا أنه روى عن أنس، رضى الله تعالى عنه، رأى شعر

رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، مخضوباً يعنى بعد موته كما نقله ابن الجوزى، أما قبله فاختلفت فيه الروايات، وروى جماعة أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، «كان يخنضب بالصفرة والورس والزعفران»<sup>(١)</sup>، وكان عمر، رضى الله تعالى عنه، يفعله، وجمع الكرماني بين الروايات بأنه صبغ في وقت، وتركه في معظم الأوقات، فأخير كل ما رأى، وقد أمر، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالخنضاب بالصفرة، وحث عليه، وفعله وتبعه على ذلك أكابر الصحابة، فهو سنة من تركها فقد ترك سنة، وإنما ترك بعضهم لما فيه من التكلف، وهو أحب للنساء، وأرهب للعدو، وكذا الخنضاب بالسواد، وقيل: إن النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، «نهى عن الخنضاب بالسواد»<sup>(٢)</sup>، وحمل على ما إذا كان فيه تدليس على النساء، فما في هذا الحديث محمول على غير خنضاب اللحية بأن يحنى يديه ورجليه، أو يجعل الصفرة في ثوبه، فإنه منهى عنه، وفي فتاوى شيخ شيوخنا ابن حجر الهيتمي أنه إن كان من غير حاجة كحرب ونحوه حرام؛ لما فيه من التشبه بالنساء، وصنف فيه رسالة مستقلة، وقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، المتقدم: يغسله أو ينزعها فيه دليل على أنه كان في ثوبه، ولو لم نحملة على هذا أشكل الحديث، والشراح لم يتعرضوا له.

**(وقالت عائشة في الصحيح)** أى في الحديث الصحيح المروى عنها كما أخرجه الترمذى وصححه: (لم يكن النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، فاحشاً ولا متفحشاً) الفحش كل أمر قبيح، أو شديد القبح قولاً أو فعلاً، والفاحش من يصدر عنه ذلك، والمتفحش من يتعمده ويبالغ فيه، والظاهر أن المراد به بداءة اللسان هنا، ويؤيده قوله: **(ولا صخاباً بالأسواق)** صخاب بفتح فتشديد صيغة مبالغة من الصخب، وهو رفع الصوت بمبالغة فيه، وهو بالصاد والسين، وهكذا كلما كان معه حرف حلق يجوز إبداله قياساً مطرداً، وخص الأسواق لأنه فيها أقبح، ولأنها محله، وأما في المنزل ونحوه فلا حاجة إليه.

**(ولا يجزى بالسيئة السيئة)** لأنه أحق بالأجر من الله على ذلك؛ لأنه المنزل عليه، فمن عفى وأصلح، فأجره على الله، ولما كان العفو غير لازم من عدم المجازاة بالفعل أتى بالاستدراك في قوله: **(ولكن يعفو ويصفح)** يعنى أنه ﷺ كثير العفو فيما لا يكون من الحدود وحقوق الله، والعفو ترك المؤاخذة بالذنب، والصفح الإعراض عن المسئى بحيث لا ينجله، وقد تقدم شرحه، وهذا الحديث مروى في الصحيحين بطريق آخر عن عبد

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٢١/١٢، ٣٥١).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١٤٢/٢/١).

الله بن عمرو بن العاص، رضى الله تعالى عنهما، عن عطاء بن يسار أنه قال له: أخبرني عن صفة رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى التوراة، فساقه له فى حديث طويل، وإليه أشار بقوله: (وقد حكى) بالبناء للمجهول (مثل هذا الكلام) الذى قالت عاتشة، رضى الله تعالى عنها، (عن التوراة من رواية عبد الله بن سلام) بفتحيتين خفف اللام، وهو الصحابى المشهور، رضى الله عنه، (وعبد الله بن عمرو بن العاص، رضى الله تعالى عنهما)، وهو وإن كان قرشياً لكنه قرأ الكتابين، وكان عالماً بما فيهما، ولذا سأله عن صفة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيها، وقد اختلف فى تحريف أهل الكتاب كتبهم هل كان بتغيير عبارتها بنقص وزيادة، أو أنه إنما كان بمجرد التأويل وصرف ما فيها عن ظاهره؟ والصحيح أن كلا منهما واقع، وإذا كان كذلك علم وجه المنع من قراءتها، وأنه حرام، ولا يرد عليه أن بعض الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، كان يقرؤها؛ لأنهم يعلمونها قبل إسلامهم، وهم لا يخفى عليهم ما غير منها، والظاهر أنه لا يمنع منه من عرف ذلك، وقصد الرد عليهم.

(وروى عنه) أى عن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا ذكره الإمام الغزالى فى الإحياء، وقال الحافظ: إنه لم يجده فى كتب الحديث، وكذا قال السيوطى، رحمه الله تعالى، (أنه)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (كان من حياته لا يثبت بصره فى وجه أحد)، ثبات البصر بمعنى إطالة النظر من غير تخلل إغماض يجفن ونحوه حتى كأن بصره صار قاراً فى المرئى كما قال المتنبى:

وخصر تثبت الأبصار فيه كأن عليه من حدق نطاقاً

فتخيل حقيقة الثبات فيه، ثم بنى عليه جعله كالناطق، وإن كان فيه للأدباء كلام.

(وأنه)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (كان يكنى عما اضطره الكلام إليه مما يكره) أى يورد المعنى القبيح عادة بطريق الكناية، لشدة حياته، صلى الله تعالى عليه وسلم، كقوله: «حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك»؛ لأن الجماع وذكره للمرأة يستحى منه، ومثله فى الحديث كثير.

(وعن عاتشة) الصديقة بنت الصديق (رضى الله تعالى عنها، ما رأيت فرج رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قط) مع أنه يجوز رؤية كل أحد من الزوجين فرج الآخر، وإن كان مكروهاً، وفى حديث رواه ابن حبان «النظر إلى الفرج يورث الطمس»<sup>(١)</sup> أى العمى، فقيل: عمى الناظر، وقيل: عمى أولاده، وقيل: المراد عمى القلب، والمعنى أنه،

(١) أورده ابن حجر فى تلخيص الحبير (١٤٩/٣).

صلى الله تعالى عليه وسلم، لشدة حيائه لم يكشف عورته عند أحد قط كما ورد: «من كرامتي على الله أنه لم يطلع لي على عورة أحد قط»، فما ذكر منطبق على ما سيق له الكلام؛ فإن عائشة، رضى الله تعالى عنها، زوجته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأقرب الناس وأحبهم إليه، وكان يضاجعها وينام عندها، فإذا لم تر ذلك منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لزم عدم كشفه عندها، فإذا لم يكشف عندها، فبالطريق الأولى عند غيرها، وإنما كنت عن ذلك ولم تصفه تأدباً منها، فله درها، فهذا كقولهم: لا أرينك هنا، فلا ترفع الثياب إلا وقد لاصقها، فيكون ستره له حيث، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِيَكُنَّ لَكُمْ وَاسْتُمْ لِيَكُنَّ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فلا يتوهم أن عدم رؤيتها لذلك لغض بصرها حياء منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا أنه لا ينكشف عندها فافهم.

\* \* \*

### (فصل وأما حسن عشرته)

بكسر العين المهملة وسكون الشين المعجمة، أى: اختلاط المرء مع أهله وأصحابه ومعاملتهم، (وأدبه) بالرفع معطوف على حسن، ويجوز جره ورجحه بعض الشارحين، فلما ورد عليه أن الأدب لا يكون إلا حسناً دفعه بأن منه ما لا يحسن، كأدب أهل الدنيا مع كبارهم، وهو أنسب بقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى»<sup>(١)</sup>، والأدب استعمال ما يحمد قولاً وفعلاً، والأخذ بمكارم الأخلاق، من المأدبة وهى الطعام الذى يدعى له الناس (وبسط خلقه) تقدم معنى الخلق وأنه بضمين أو ضم فسكون، والبسط نشر الشيء وتوسيعه ومنه البساط، وورد البسط بمعنى المسرة وعليه استعمالهم، وورد فى الحديث: «فاطمة منى يبسطنى ما يبسطها»<sup>(٢)</sup>، فليس من كلام المولدين كما توهم، ومن أمثال العامة البسط صدف، والمعنى هنا سعة خلقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويجوز رفعه وجره أيضاً، والأول أولى وليس بمتعين كما توهم، وإنما كان معنى بسط الخلق هنا سعته؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، نال من الأخلاق الحميدة أقصاها وغايتها، وقوله: (مع أصناف الخلق) تنازع فيه الألفاظ الثلاثة، فهو قيد لجميع ما قبله، (فبحيث انتشرت) أى كثرت واشتهرت، وهو جواب أما هو خير مبتدأ مقدر أى، فهو بحيث أى بمحل معلوم لكل أحد (به الأخبار الصحيحة قال على، رضى الله تعالى عنه، فى وصفه، عليه الصلاة والسلام)، فى الحديث الصحيح الذى رواه الترمذى فى شمائله (: كان أوسع الناس صدرًا) المراد بسعة صدره تحمله، صلى الله تعالى

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

عليه وسلم، مشاق الناس وكثرة تكاليفهم، قال تعالى: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ [الأعراف: ٢]، أى ضيق، (وأصدق الناس لهجة) فى الصحاح اللهجة اللسان، وقد تحرك فأطلق وأريد به الكلام مجازاً مرسلًا من إطلاق المحل على الحال، ووضع فيه الظاهر مقام الضمير؛ لأن كلا منهما صفة مستقلة، ولا ينافيه حديث: «ما من ذى لهجة أصدق من أبى ذر»؛ لأن المراد تفضيله، رضى الله تعالى عنه، على أمثاله، والصدق ضد الكذب، وهو معروف ثم إن فى التفضيل فى الصدق سؤالاً، وهو أن الصدق هو المطابقة للواقع، فما طابق فهو صادق وما لم يطابق كذب، فكيف يتصور التفاوت فيه حتى يكون هذا صادقاً وذاك أصدق، وهذا إنما يرد لو كان التفضيل فى كلام واحد أو أنواع منه محصورة، أما لو أريد كل كلام صدر عن متكلم، فلا يريد ما ذكر.

(وألينهم عريكة) أى أسهل الناس طبعاً فهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، دائماً سلس مطاوع منقاد قليل المخالفة لا تهور فيه، وأصل العريكة السنام، فهو فى الأصل مجاز حتى صار حقيقة فيما مر.

(وأكرمهم عشرة) أى يعامل الناس فى معاشرته ومخالطته بكرىم الأخلاق، فيعظم من يستحق التعظيم، ويتلطف مع من دونهم.

(حدثنا أبو الحسن على بن مشرق) بضم الميم وفتح الشين المعجمة وفتح الراء المشددة وقاف اسمه على، وله ترجمة فى الميزان وسمع منه السلفى وفيه كلام (الأنماطى) جمع نمط، وهو ثوب من صوف يطرح على الهودج، والنسبة إلى الجمع على رأى، أو لأنه ملحق بالعلم كالأنصارى؛ لأن المراد به صيغة مخصوصة، وقيل: إنه على خلاف القياس (فيما أجازنيه وقرأته على غيره) فيه بيان لطريق التحمل، وأنه رواه عن غيره فأنجز الطعن فيه، وهذا الحديث رواه أبو داود والنسائى (قال: حدثنا أبو إسحاق الحبال) بفتح الحاء المهملة وتشديد الباء الموحدة وألف ولام، وهو الإمام الحافظ المتقن محدث مصر أبو إسحاق إبراهيم بن سعد بن عبد الله بن النعمان التجيبى الفراء الوراق المصرى، ولد سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة، وسمع من أحمد بن عبد العزيز صاحب المحاملى وغيره، ومات فى سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة وله إحدى وتسعون سنة، وترجمته مشهورة قال: (حدثنا أبو محمد بن النحاس) بجاء مهملة مشددة وهو الإمام أبو محمد عبد الرحمن ابن عمر بن محمد بن سعيد بن إسحاق المصرى البزار، سمع أبا سعيد بن الأعرابى وسليمان بن داود العسكرى وجماعة كثيرين، وكان ثقة كما قاله ابن مأكولا (حدثنا ابن الأعرابى) هو الإمام أبو سعيد الذى يروى سنن أبى داود عنه قال: (حدثنا أبو داود) سليمان بن الأشعث صاحب السنن المشهورة قال: (حدثنا هشام أبو مروان ومحمد بن المثنى) هشام



ابن خالد بن يزيد بن مروان الأزرق الدمشقي الثقة الثبت، توفي سنة تسع وأربعين ومائتين، وترجمته في الميزان، ومحمد بن المثنى أبو موسى العنزي الحافظ، توفي سنة اثنين وخمسين ومائتين قالوا: (حدثنا الوليد بن مسلم) الحافظ أحد الأعلام أخرج له الجماعة، إلا أنه رمى بالتدليس قال: (حدثنا الأوزاعي) هو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد نسب للأوزاع، وهي قبيلة من حمير أو اسم قرية، وهو عالم فقيه زاهد روى عن عطاء ومكحول، وروى عنه كثيرون، وأخرج له أصحاب الكتب، وهو ثقة وله ترجمة مشهورة (قال: سمعت يحيى بن أبي كثير) بزنة كثير ضد القليل، وهو من العباد وأئمة الحديث توفي سنة تسع وعشرين ومائة، وأخرج له الستة وترجمته في الميزان قال: (حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة) بضم الزاء المعجمة، وهو محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أسعد وإلى المدينة، وهو ثقة أخرج له الستة، وتوفي سنة أربع وعشرين ومائة (عن قيس بن سعد) بن عباد بن دليم الخزرجي سيد الخزرج، وصاحب شرط رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، أخرج له الستة وأحمد، وكان من الدهاة وذوى رأى طويل القامة جميلاً جواداً، توفي بالمدينة فى آخر خلافة معاوية، رضى الله تعالى عنه، (قال: زارنا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)، على عادته فى تفقد أصحابه، وكان سعد بن عباد دعاه رجل ليلاً، فخرج له فضربه بسيفه فأشواه، فجاءه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يعود.

(وذكر قصة) هى ما وقع له مع عبد الله بن أبيّ بن سلول إذ مر به وهو جالس مع أخطا المسلمين وغيرهم، فغشى المجلس غبار دابته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فحمر ابن سلول أنفه بردائه، وقال لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: لا تغبروا علينا ارجع إلى رحلك، فمن جاءك منا فاقصص عليه، فاستب المسلمون مع المشركين حتى هموا أن يتواثبوا فمنعهم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم ركب دابته حتى دخل على سعد، رضى الله تعالى عنه، وذكر له فقال له: يا رسول الله اعف عنه واصفح، فلقد اتفق أهل هذه البحيرة على أن يعصبوه، فلما رد الله ذلك بالحق الذى جئت به شرق بذلك، فعفا عنه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، (فى آخرها) أى آخر القصة: (فلما أراد الانصراف قرب له سعد)، رضى الله تعالى عنه، (حماراً) ليركبه (وطاً عليه بقطيفة) هى كساء له وبر وخمل وضعه على ظهر الحمار وطاء له ليركب عليه، ووطاء بتشديد الطاء المهملة وهمزة، (فركب رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم قال سعد) لابنه: (يا قيس أصحاب رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)، أى كن معه فى خدمته، وفى هذا الحديث أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما جاء كان على حمار مردفاً خلفه أسامة بن زيد.

فسعد، رضى الله تعالى عنه، إنما أعطاه حماراً ليركبه وحده، ويبقى أسامة على الحمار الذى جاء به، ووهب سعد له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذلك الحمار.

(قال قيس: فقال لى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، اركب) معى على الحمار (فأبيت) الركوب معه تأديباً وفوزاً بالمشى فى خدمته، (فقال: إما أن تركب وإما أن تنصرف) أى ترجع ولا تمشى معى، (فانصرفت) امتثالاً لأمره ﷺ.

(وفى رواية أخرى) أنه، عليه الصلاة والسلام، قال له: (اركب أمامى فصاحب الدابة أحق بصدرها)، وهذا وقع هنا فى بعض النسخ، والمراد بصدرها مقدمها، وفيه دليل على جواز الإرداف، ولو صاروا ثلاثة إذا لم تكن الدابة ضعيفة لا تطيق ذلك، وقيل: ما فوق الاثنين مكروه، وقوله: صاحب الدابة باعتبار ما كان أو هو، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يعلم بأنه وهبها له.

(وكان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يؤلفهم) أى يؤلف المسلمين بإيناسهم ومداراتهم، ليزداد إيمان من كان قريب عهد بالإسلام، وليحسن من كان مخلصاً بحيره خاطره والتودد إليه، (ولا ينفروهم) أى لا يتلقاهم بما يصير سبباً لنفورهم، وذهاب من كان قريب عهد من المؤلفة قلوبهم.

(ويكرم كريم كل قوم) برعايته مما يليق به، كما فعل مع عدى بن حاتم وغيره مما فصل فى السير، (ويؤليه عليهم) أى يجعل شريف القوم والياً عليهم إذا رجعوا من عنده صلى الله تعالى عليه وسلم، لديارهم، كما ولى على وفد همدان مالك بن نمط.

(ويحذر الناس ويحترس منهم)؛ لأنه من الحزم أن لا يركن لكل أحد حتى يجربه (من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره) أى كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، مع احتراسه منهم يلقاهم ببشره وبشاشته، ولا يغير حاله معهم، فشبه بشره وإيناسه ببساط ممتد لهم، فلا يطوى عنهم ما داموا عنده كما قال الشاعر:

إنما مجلس النداء من بساط فإذا ما مضى طويينا بساطه

(ولا خلقه) المعهود منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (يتفقد أصحابه) أى من فقدته من أصحابه، رضى الله تعالى عنهم، يسأل عنه، أو يزوره، أو يرسل إليه من يتعهده، قال الراغب: التفقد أخص من العدم؛ لأنه العدم بعد الوجود، والتفقد التعهد لكن حقيقة التفقد تعرف فقدان الشيء، والتعهد تعرف العهد المتقدم.

(و) كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، (يعطى كل جلسائه نصيبه) أى يعطى كلا منهم ما يليق به وما يسره، (لا يحسب جلساه أن أحداً أكرم عليه منه) أى لما يراه من

لطفه به يظن أن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يحبه أكثر من غيره.

(من جالس) أى جلس عنده فى ناديه، (أو قارنه لحاجة) أى كان معه حال مشيه أو مسيره، (صابره) أى صبر على سؤاله وذكره حوائجه (حتى يكون هو المنصرف عنه) أى الراجع عن مقارنته أو مجالسته.

(ومن سألته حاجة لم يردده إلا بها) أى بإعطائه حاجته التى سألتها منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (أو بميسور من القول) كوعده أو تسليته أو لمنع الخلو قال تعالى: ﴿لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨].

(قد وسع الناس بسطه وخلقه) بسطه مصدر بزنة ضرب مضاف لضمير عائد له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو مرفوع فاعل وسع بزنة علم، وكذا خلقه المعطوف عليه، وقد تقدم معنى الخلق والجلبة، فجعل بسطه بمعنى توسعته على الناس، أو بمعنى بشره كالمكان الرحب، وكذا خلقه الحسن جعله لبذله لهم كالمكان الذى تمكنوا فيه، (فصار لهم أباً) أى صار صلى الله تعالى عليه وسلم، لجميع أمته بمنزلة الأب فى اللطف بهم والشفقة عليهم، وهو لا ينافى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، لأن المنفى ثمة الأبوة الحقيقية، إلا أن بعض علماء الشافعية ذهب إلى أنه لا يجوز أن يقال له، صلى الله تعالى عليه وسلم، أب المؤمنين كما يقال لنسائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أمهات المؤمنين عملاً بظاهر هذه الآية، وإنما يقال: إنه كالأب، ونص الشافعى، رضى الله تعالى عنه، على جوازه وهو الحق، وكذا كل نبي من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، أب لأمته ذكوراً وإناثاً، وكونه صلى الله تعالى عليه وسلم، ليس أباً حقيقياً معلوم بالبداهة، وإنما نفاه فى الآية ردّاً على من أنكر تزوجه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بامرأة زيد الذى تبناه.

(وصاروا عنده فى الحق سواء)؛ لأن الله عصمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ففى الأغراض النفيسة الحاملة على الميل مع الهوى، وكذا وصفه به، صلى الله تعالى عليه وسلم، ابن أبى هالة ربيعة فى الحديث الصحيح المروى عنه كما أشار إليه المصنف، رحمه الله تعالى، بقوله: (بهذا وصفه ابن أبى هالة) ابن خديجة أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، بنت خويلد، واسمه هند وأبوه أبو هالة حليف عبد الدار، اختلف فى اسمه فقيل: بناش بن زرارة، وقيل: مالك بن إلياس بن زرارة، وكان تزوج خديجة، رضى الله تعالى عنها، قبل النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فولدت له هنداً، ولهند ولد يسمى هنداً أيضاً عده ابن منده وأبو نعيم فى الصحابة، وأبوه هند من كبار الصحابة قتل مع على كرم الله وجهه، فى وقعة الجمل، وتقدمت ترجمته بالبسط من قبل هذا.

(قال) ابن أبى هالة، رضى الله تعالى عنه، فى وصفه ، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى هذا الحديث (: وكان دائم البشر) بكسر الباء وسكون المعجمة أى طلاقة الوجه وبشاشته، لا يعبس فى وجه أحد، (سهل الخلق) لاصعباً ولا حزنًا، (لن الجانب) استعارة مصرحة، شبه وصول كل أحد له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولما يريده منه بشىء لين يأخذ من بجانبه لا يطلبه، وقيل: شبهه بجانب لين من الأرض ليس بمجنون.

(ليس بفظ ولا غليظ) الفظ الكريه الخلق مستعار من الفظ أى ماء الكرش، وهو مكروه لا يتناول إلا فى شدة الضرورة كما قاله الراغب، والغلظ ضد الرقة، وأصله فى الأجسام فاستعير للمعانى كما تقدم.

(ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب) أى لا ينطق بالفحشاء كالشتم، ولا يعيب أحدًا أى يذكر عيوبه، (ولا مداح) لأحد بما يؤدى إلى إطرائه، ولا لنفسه الشريفة، وهذه كلها صيغ مبالغة، والمقصود بها النسبة كتمار ولبان، والمبالغة راجعة للنفسى كما قالوه فى قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقيل: المقصود به أصل الفعل، وقول أنس لعمر، رضى الله تعالى عنهما: أنت أفظ وأغلظ من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقتضى ثبوت ذلك له، ف قيل: المقصود وجود أصل الغلظة فيه، ونفيها عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا حقيقة التفضيل، أو المراد إثبات ذلك على المشركين كما فى قوله تعالى: ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، كما أن المدح قد يستحسن فى مقام دون مقام إذا كان فى محله بخلاف ما إذا كان كذبًا، ولذا قال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «احتوا التراب فى وجوه المداحين»<sup>(١)</sup> على أحد الوجوه فيه.

(يتغافل عما لا يشتهى) أى إذا رأى، صلى الله تعالى عليه وسلم، شيئًا لا يرضاه، تغافل عنه حتى يظن أنه ما رآه إذا كان ذلك مما لا يترتب عليه إثم.

(ولا يؤيس منه) مبنى للمفعول، وضمير منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أى والحال أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بتغافله لا ييأس أحد منه، وروى مبنياً للفاعل بضم المثناة التحتية وكسر الهمزة التى كانت مفتوحة، ومفعوله محذوف لقصد التعميم أى لا يؤيس أحدًا منه، أى لا يجعله ذا يأس بحيث لا يرجو، فالضمير لما تغافل عنه، وعلى هذا اقتصر أبواب الحواشى.

(١) أخرجه أحمد (٥/٦)، والدولابى فى الكنى (١٣٠/٢)، وابن حبان (٢٠٠٨)، وأبو نعيم فى الحلية (٩٩/٦)، والعقيلي فى الضعفاء (٤٥١/٣).

(وقال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنْ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ فَطَا غَلِظَ الْقَلْبُ لَا تَنْفُضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]) ما زائدة للتأكيد، وقيل: نكرة موصوفة، ورحمة بدل منه، وقيل: استفهامية تعجبية أى بأى رحمة عظيمة لت لهم، وردة فى المغنى بثبوت ألف ما وقال: إن ما قبله أيضاً لا يتجه كما فصله شراحه، وليس هذا محل تفصيله، والمعنى: أنك لو كنت فظاً غليظ القلب انفضوا عنك أى تفرقوا، ولم يجتمعوا عليك، ولكنك بلىن جانبك لهم وشفقتك عليهم تؤلف قلوبهم وتزيد محبتهم، وهذا امتنان عليه بما جبله الله عليه من الأخلاق الحسنة، وقد تقدم الكلام عليه.

(وقال: ﴿أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦]) الآية التى هى أحسن الصفح والتجاوز، والإحسان فى مقابلة السيئة، ولا حاجة لتقييدها بما لم يكن فيه وهن فى الدين، لأنه لا يكون دفعاً بالأحسن، فإن المراد به الأحسن عند الله تعالى، وقيل: التى هى أحسن كلمة التوحيد والسيئة الشرك، وقيل: الأمر بالمعروف والسيئة المنكر، وقدم الجار والجرور على المفعول الصريح للاهتمام وقصد الحصر أى ادفع بهذا لا بغيره.

(وكان)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (يجيب من دعاه) لطعامه أو لمنزله جبراً لخاطره، وتعليماً وتشريعاً لأمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، سواء كان المدعو إليه وليمة عرس أو غيرها، وفى الحديث: «إذا دعا أحدكم أخاه فليجب»<sup>(١)</sup>، وما قيل من أن إجابة دعوة العرس واجبة عيناً أو كفاية، ولورود أمر بها فى الأحاديث الصحيحة، فلا يكون ذلك من التفضل ومكارم الأخلاق غير وارد؛ لأنه قيل: بعدم الوجوب فيها عند الشافعية أيضاً كما صرح السبكي، ولو سلم فهذا محمول على الأعم من الولايم وغيرها، وليس فى العبارة ما يقتضى التخصيص، ولا تجب إجابة لغير وليمة عرس، ومنه وليمة التسرى كما هو ظاهر، وقيل: تجب واختاره السبكي لأخبار فيه.

(وكان)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (يقبل الهدية) لا الصدقة، (ولو كانت كراعا) لأنه مقتضى للتحاب، وكراع بضم الكاف وفتح الراء المهملة المخففة والعين المهملة، وهى ما تحت الركبة إلى الخف والحافر والظلف، ولو وصيلة هنا تفيد التقليل كاتقوا النار ولو بشق تمرة، وقيل: الكراع ما دون الكعب من الدواب، وقيل: كراع كل شىء طرفه، وفى الترمذى عن أنس بن مالك قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «لو أهدى إلى كراع لقبلت ولو دعيت إلى كراع لأجبت»<sup>(٢)</sup>، وكراع الثانى اسم مكان،

(١) أخرجه مسلم (١٠٠/١٤٢٩)، وأبو داود (٣٧٣٨)، وأحمد (١٤٦/٢)، وعبد الرزاق (١٩٦٦٦)، والبيهقى (٢٦٢/٧).

(٢) أخرجه البخارى (٣/٢٠١، ٣٢/٧)، والترمذى (١٣٣٨)، وأحمد (٤٧٩/٢، ٤٨١، ٥١٢)، =

وهو كراع الغميم موضع بين مكة والمدينة، والصحيح أنه بالمعنى السابق، والمقصود المبالغة في ذلك أى أقبل الهدية ولو كانت حقيرة، وأجيب الدعوة ولو كانت إلى مكان بعيد، ويطلق الكراع على الشاة نفسها، وفي الحديث «إذا دعى أحدكم فليجب، فإن كان مفطراً أكل، وإن كان صائماً دعا بالبركة»<sup>(١)</sup>، وقوله: (ويكافى عليها) بالهمزة أى يجازى على الهدية بشيء مثلها أو أكثر؛ لأن المكافأة أصل معناها المساواة والمماثلة، ومنه قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «المسلمون تتكافأ دماؤهم» أى تتساوى فى القصاص، وفى البخارى كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقبل الهدية ويثيب عليها، واستدل به بعض المالكية على وجوب عوض الهدية إذا أطلق الواهب، وكان ممن يرجو الثواب كالفقير الذى يهدى للغنى، ولم يوافق عليه.

(وقال أنس، رضى الله تعالى عنه)، وهو خادم النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم: (خدمت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عشر سنين)، وفى رواية لمسلم تسع سنين، ولا منافاة بينهما لأنه خدمه تسع سنين وأشهر، فتارة نظر للكسور وجعلها سنة، وتارة ألغاه، وكان عند عمه أبى طلحة، فانطلق به إلى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال له: إن أنساً غلام كيس فليخدمك، (فما قال لى: أف قط) هى كلمة تقال لما يكره ويتضجر منه، وهى اسم فعل فيه لغات نحو الأربعين أشهرها ضم الهمزة وكسر الفاء المشددة، وللسيوطى فى نظم لغاتها أبيات مشهورة حيث قال:

أف ربع أخيره ثم خفف      مبتداه مشدد ومخفف  
وبتنوينه وبالترك أف      لا ممالا وبالإمالة مضعف  
وبكسر ابتدا وأفى مثلث      وزد الهاء فى أف أطلق لا أف  
ثم مدا بكسر أف وأف      ثم أفوا فاحفظ ودع ما يزيف

قال الراغب: أصل الأف كل مستقذر من وسخ وقلامه ظفر وما يجرى مجراهما، ويقال لكل مستقذر يستخف به، وأففت لكذا إذا قلت له: أف، والحاصل مما تقدم أن همزته مثلثة وكذا فاءه مع التنوين وعدمه، وقد فصل لغاتها فى البحر، ومن لطائف السراج الوراق، رحمه الله تعالى، فى مدحه ابنه، رحمه الله:

بنى اقتدى بالكتاب العزيز      فزدت سرورا وزاد ابتهاجاً  
وما قال لى أف فى عمره      لكونى أباً ولكونى سراجاً

= وعبد الرزاق (١٩٦٦٨)، وابن حبان (١٠٦٥)، والبيهقى (١٦٩/٦).

(١) تقدم تخريجه.

أى لم يتضح من أمر غير مرضى وقع منى، وفيه دليل على زيادة حلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (وما قال لشيء لصنعت لم صنعت؟، ولا لشيء تركته لم تركته؟) وهذا الحديث رواه الشيخان.

(وعن عائشة، رضى الله عنها، ما كان أحد أحسن خلقا من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)، ثم بينت بعض ذلك بأنه (ما دعاه أحد) أى ناداه، فقال: يا رسول الله (من أصحابه ولا أهل بيته) خصهم لأن العادة جارية بالمساحة معهم (إلا قال: ليك).

قال السيوطى: رواه أبو نعيم فى دلائل النبوة بسند واه، وليك كلمة يحاب بها المنادى، فالتلبية إجابة المنادى من دعاه، من لب وألب إذا أقام بمكان ولم يفارقه، فكأنه يقول: أنا ثابت على إجابتك، ولا تستعمل إلا بلفظ التثنية كأنه قال: إجابة بعد إجابة، والمراد التكرير كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِيعَ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤]، وهو منصوب على المصدرية بعامل لا يظهر، وتغلب إضافته لضمير المخاطب، وقد يضاف لغيره كما فصله النحاة، ولا يحاب به إلا من يعتنى بإجابته وتعظيمه، ولذا يقوله الحاج، ففى إجابة الرسول، صلى الله تعالى عليه وسلم، اتباعه بذلك رعاية مقامهم وتعظيمهم، وهو من خلقه العظيم، كما كان النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، يخاطب القادم مرحبا كقوله مرحبا بأمره هانىء.

(قال جرير بن عبد الله) بن جابر بن مالك البجلي سيد قومه، قدم على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، سنة عشر من الهجرة على الصحيح، لا قبل موته بأربعين يوماً كما قيل، ولما قدم قال، صلى الله تعالى عليه وسلم: «ويطلع عليكم خير ذى يمن»<sup>(١)</sup> وكان، رضى الله تعالى عنه، جميلا حتى قال عمر، رضى الله تعالى عنه، فيه: إنه يوسف هذه الأمة وأرسله النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، لذى الخلصة، وهى الكعبة اليمنية، وكان فيها صنم فخر به وقتل من عنده: (ما حجبني رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، منذ أسلمت قط) أى ما منعنى من الدخول عليه فى بيته وقد استأذنته، لا مطلقا حتى يقال: كيف يدخل على غير محرم، وحتى يحاب بأن المراد فى مجلس مختص بالرجال، أو المراد ما منعنى شيئا سألته، وإسلامه، رضى الله تعالى عنه، كان فى رمضان سنة عشر كما مر، (ولا رأتى إلا تبسم) وفى رواية: «إلا تبسم فى وجهى»، وهذا الحديث رواه الشيخان، والتبسم مبادئ الضحك بحيث يبدو مقدم أسنان، فإن زاد بلا صوت فضحك، فإن كان بصوت فهو قهقهة، وضحكه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى أغلب أحواله التبسم، وربما زاد على ذلك كما ورد أنه: «ضحك حتى بدت

(١) أخرجه الحميدى فى مسنده (٨٠٠).

نواجهه»، وقيل: إنه أريد مجرد مبالغة لا الحقيقة بناء على أنه لم يقع منه ذلك، والأصح الأول، وكثرة الضحك تذهب الوقار، وهو مكروه لحديث: «كثرة الضحك تيمت القلب»، فإن لزمه استهزاء بأحد وسخرية فحرام.

(وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يمازح أصحابه) الممازحة تكون بالكلام والفعل ملاطفة، ولكنها إنما تحمد من الكبار أحياناً بحيث لا تؤدي إلى أذية صاحبها، والمداعبة قريبة منها، ولكن بينهما فرق سيأتى، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يمزح أحياناً ولا يقول إلا حقاً، ولكنه يورى فى كلامه كما قال لبعض العجائز: «إنه لا يدخل الجنة عجوز»<sup>(١)</sup>؛ لأنهم يعودون فى سن الشباب، والله در القائل:

أفد طبعك المكدود باهم راحة      بأنس وعلة بشيء من المزح  
ولكن إذا أعطيته المزح فليكن      بمقدار ما يعطى الطعام من الملح  
والمزاح بضم الميم اسم، وبكسرهما مصدر كالمزح، وكثرته مذمومة كما قال:  
فإياك إياك المزاح فإنه      يجرى عليك الطفل والرجل النذلا  
ويذهب ماء الوجه من كل سيد      ويورثه من بعد عزته ذلا

والصحيح أنه جائز، وقيل: إنه مكروه، والأصح الأول بشروطه، وكان كبار السلف يمزحون، وقد قيل: الناس فى سجن ما لم يتمازحوا، وورد فى الحديث أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان أفكه الناس، وكان مزاحاً ولا يقول إلا حقاً.

(ويخالطهم ويحادثهم) تأنيساً لهم وجيراً لقلوبهم، (ويداعب صبيانهم) يداعب بالبدال المهمة، والمداعبة الممازحة مع لعب، ولذا خصه بالصبيان كما قال محمود بن الربيع الخزرجى، رضى الله تعالى عنه: عقلت منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بحجة مجها فى وجهى وأنا ابن خمس سنين.

(ويجلسهم فى حجره) كما فعل، صلى الله تعالى عليه وسلم، مع أم قيس إذ أتته بابن لها صغير لم يأكل الطعام، فأجلسه فى حجره، فبال على ثوبه، فدعا بماء فنضحه ولم يغسله، وحجر بكسر الحاء المهمة وفتحها معروف، وهو ما كان من ثديه على فخذه وهو جالس.

(ويجيب دعوة) بفتح الدال المهمة (العبد والحر والأمة والمسكين).

قال السيوطى: إجابته، صلى الله تعالى عليه وسلم، دعوة العبد رواها البزار عن جابر، رضى الله تعالى عنه، والترمذى وابن ماجه عن أنس، رضى الله تعالى عنه، فلا

(١) أورده الزبيدى فى الإتحاف (٧/٤٩٩).



وجه لما قيل: إني لم أقف عليه إلا في صحيح البخاري من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أتى غلاماً خياطاً، فأثاه بقصة فيها دباء، فجعل يتبعه، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يعلم طيب أنفسهم بما يملكونه لهم، فلا يقال: كيف أكل مما في يد العبد وهو وما يملكه لسيده، أو يقال: كان مكاتباً، أو المراد بالعبد من مسه الرق، ولو قبل دعوته، وقدم العبد اهتماماً لبيان أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يجب دعوته مع حقارته بالنسبة للحر.

(و) أخرج الترمذي بسنده عن أنس، رضي الله تعالى عنه، قال: كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، (يعود المرضى)، ويشهد الجنائز ويركب الحمار، ويجب دعوة العبد، وروى البيهقي: «دعوة المملوك» (في أقصى المدينة) أي في أبعد مكان منها، وعيادة المريض سنة مؤكدة لاسيما من يتبرك بعيادته؛ لما فيه من التسلية وتأليف القلوب، وقيل: إنها فرض كفاية ولا تختص بمرض، وقيل: ثلاثة لا عيادة فيها رمد العين ووجعها ووجع الضرس، وقيل: إنه لا يعاد المريض إلا بعد ثلاثة أيام، وورد في ذلك حديث ضعيف، والصحيح أنه لا فرق، والحديث قال شيخنا الرملي: إنه موضوع، واختلف في عيادة الذمي، فقيل: تجوز إذا كان يرجى إسلامه، أو تضمن مصلحة.

(ويقبل عذر المعتذر) المعتذر كل من أبدى عذراً سواء كان له حقيقة أم لا، وسواء كان من شأنه أن يقبل أم لا، ولذا لم يقل المعتذر؛ لأنه من له عذر، وعدم قبوله منه مذموم، وقبول اعتذاره عقوبة جنايته وعدم مؤاخذته بها؛ لأنه من تمام المروءة، وهذا كما قبل، صلى الله تعالى عليه وسلم، عذر من تخلف عن تبوك، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى، وكقبله عذر حاطب بن أبي بلتعة، رضي الله تعالى عنه، لما كتب لأهل مكة يخبرهم بمسيره، صلى الله تعالى عليه وسلم، لفتح مكة، وقبل، صلى الله تعالى عليه وسلم، اعتذار المنافقين حتى كذبهم الله تعالى.

(وقال أنس) رضي الله تعالى عنه. قال السيوطي: هذا إلى قوله: بين يدي جليس له، رواه أبو داود والترمذي والبيهقي في الدلائل، وأخرجه البزار عن أبي هريرة وابن عمر، رضي الله تعالى عنهم، (ما التقم أحد أذن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم) أي ما جعل أحد أذنه محاذية لفمه فتحاذيه، وقال الشمني: أي ما حدثه أحد عند أذنه فجعله استعارة، ولم يحمله على حقيقته، وأنه فعله للتبرك كما وقع لجابر، رضي الله عنه، في التقامه لخاتم النبوة؛ لأن لفظه مشعر بكثرة ذلك، ووقوع مثله كثيراً مستبعد بخلاف قصة جابر، رضي الله تعالى عنه، لما أردفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، خلفه، وأمكنه ذلك بسهولة، وأيضاً في مثله سوء أدب ومنافاة لغرضه، فإنه إذا أدخل أذنه في فيه لم يمكنه

إدارة لسانه ومناجاته، وفى النهاية فى الحديث أن رجلاً ألقم عينه حصاص الباب أى جعل الشق الذى فى الباب محاذى عينه، فجعله للعين كاللقمة فى الفم انتهى، فجعله استعارة كما هنا، وهذا لا ينافى ما فى الصحيح عن ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، أنه قال: والله لآتين النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فأتيته وهو فى ملأ، فساررتة فغضب حتى احمر وجهه، وقال: «رحم الله موسى، لقد أودى بأكثر من هذا فصير»<sup>(١)</sup>؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يغضب من المسارة، بل مما كلمه به، وأذن بضم الهمزة والذال المعجمة وقد تسكن.

(فينحى رأسه عنه) أى يبعدها ويجعلها فى ناحية منه.

(حتى يكون الرجل هو الذى ينحى رأسه) أى حتى يفارقه أو ينفصل منه قليلاً.

(وما أخذ أحد بيده) أى أمسكها، (فيرسل يده) أى يطلقها ويفكها من يده، وهو مجاز من أرسل الرسالة إذا بعثها، وظاهر كلام ابن القوطية أنه معنى حقيقى إن كانت اليد الثانية يد الآخذ، فليس من وضع الظاهر موضع الضمير، وإلا فهو منه، وقوله: (حتى يرسلها الآخذ) غاية لترك إرسالها، أى إلى أن يرسلها الآخذ، وهو بالمد اسم فاعل من الآخذ، وفى نسخة الآخر بالراء المهملة، وفى البخارى: «إن كانت الأمة لتأخذ بيد رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فتنتلق به حيث شاءت»، وعن أحمد: «فما ينزع يده من يدها»، وهو عبارة عن الانقياد لشدة تواضعه وتنزهه عن التكبر، صلى الله تعالى عليه وسلم.

وقوله: (ولم ير، صلى الله تعالى عليه وسلم، مقدماً ركبتيه بين يدي جليس له) من جملة حديث أنس، رضى الله تعالى عنه، ففى المصاييح أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان إذا صافح الرجل لم ينزع يده من يده حتى يكون هو الذى ينزع يده، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون هو الذى يصرف وجهه. أو هو رواية أخرى، وهو الظاهر لما بينهما من المخالفة.

ومعنى لم ير مقدماً إلى آخره أنه يخفض ركبتيه تعظيماً لجلسائه، وقيل: المراد بالركبتين الرجلين أى كان لا يمد رجله فى مجلسه؛ لما روى فى حديث آخر أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يرقط ماداً رجله بين أصحابه كما سيأتى يعنى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يساوى جلسيه، ولا يتقدم عليه بركبتيه حتى كان الغريب ينجى، فلا يعرفه ويسأل عنه.

(١) أخرجه البخارى (٤/١١٥، ٢٠٢، ٢٢/٨).

(وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يبدأ) أى يتدئ (من لقيه بالسلام) من تفيد العموم، أى كل أحد لقيه صغيراً أو كبيراً من المسلمين إلا فى مواضع لا يستحب السلام فيها، وأما الكفرة فلا يسلم عليهم، وجوز بعضهم ابتداءهم بالسلام أيضاً.

(ويبدأ أصحابه بالمصافحة) مفاعلة من الصفح أى يجعل صفحة يده الشريفة على صفحة يده، وفى الحديث: «تمام تحيتكم بينكم المصافحة»<sup>(١)</sup>، وهى سنة عند التلاقى، وكانت الصحابة، ، رضى الله تعالى عنهم، تفعله، وإذا قدموا من سفر تعانقوا، وكانت الصحابة، ، رضى الله تعالى عنهم، تقبل يده أيضاً، وهى مستحبة للكبير وكرهها مالك، أما إذا كان على وجه التكبر فيكروه، وقال النووى: إنه مستحب أيضاً لأهل الشرف والصلاح، وأما لأهل الدنيا فمكروه، وقال فقهاؤنا: لا بأس بالمصافحة؛ لأنها سنة متوارثة؛ لما ورد فى الحديث أيضاً: «تصافحوا»<sup>(٢)</sup> وقيل: إنه من الصفح وهو العفو أى ليصفح أحدكم عن غيره، ولا يناقشه، والمشهور الأول، وأما بعد صلاة الجمعة والعيد، فقالوا: إنه بدعة، وهو من فعل المشايخ كانوا فى الصلاة غائبين عن حضرهم، ومن كان هذا حاله لا يكره منه.

(ولم ير، صلى الله تعالى عليه وسلم، قط ماذا رجليه بين أصحابه حتى يضيق بهما على أحد) هذا إشارة إلى أنه كان ذلك فى مجلس يكثر فيه الناس، أما إذا كان وحده، أو فى قليل من خواصه، فكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، قد يتكى، وقد يضع إحدى رجليه على الأخرى كما ورد فى بعض الأحاديث.

(يكرم من يدخل عليه) بالقيام له ويلطفه كقيامه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لسعد ابن معاذ، ، رضى الله تعالى عنه، وقال، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما قدم سعد: «قوموا لسيدكم» وكره بعضهم القيام مطلقاً؛ لحديث: «من أحب أن يتمثل له الناس قياماً وجبت له النار» ، وحمل هذا على عادة الأعاجم فى وقوف الناس بين أيديهم، أما القيام للعلماء والصلحاء فمستحب كما يأتى، وكان النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا جاء قام له الصحابة، ومن ذهب لكراهته ابن حجر، رحمه الله، وقال فى قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «قوموا لسيدكم»: إنما كان لأنه قدم على حمار، وكان مريضاً، وفى رواية: «قوموا لسيدكم فأنزلوه» ورد بأنه لو كان كذلك لم يأمر جميع الناس الحاضرين بالقيام له، ولذا استدل النووى به وفيه نظر.

(وربما بسط له) أى لمن يدخل عليه (ثوبه) تعظيماً له كما جعل ذلك لعدى بن حاتم،

(١) أخرجه أحمد (٢٦٠/٥)، والترمذى (٢٧٣١)، وابن أبى شيبة (٤٣٢/٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٧٠٢)، وابن عدى (٢٢١١/٦).

ولأخته، عليه السلام، من الرضاعة لما أتياه كما يأتى، (ويؤثره بالوسادة) الإيثار تقديم غيره على نفسه فى بعض الأمور، والوسادة ما يتوسد أى يوضع تحت الرأس، وهى التى تسمى مخدة، ويقال إسادة بالهمزة ووساد بدون هاء، وقضية قوله (التي تحته) كما فى البخارى أنها فراش يجلس عليه، وكانت محشوة بالليف، وقال عدى بن حاتم: دخلت على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: من الرجل؟ فقلت: عدى بن حاتم، فقام وانطلق بى إلى بيته، فوالله إنه لعامد بى إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة، واستوقفته فوقف لها طويلاً تكلمه فى حاجتها، فقلت فى نفسى: والله ما هذا بملك، ثم مضى حتى دخل بيته، فتناول وسادة كبيرة من أدم محشوة ليفاً، فقذفها وقال لى: اجلس على هذه، فقلت: بلى أنت فاجلس عليها، فجلس على الأرض وصارت الوسادة بينى وبينه، فانظر لمكارم هذه الأخلاق، فقلت: والله ما هذا بملك، وهذا يدل على أن الوسادة فراش لا مخدة، ولا عبرة بتفسير الجوهري لها بالمخدة فقط، (ويعزم عليه فى الجلوس) أى يقسم عليه أن يجلس على وسادته بأن يقول له: بالله اجلس أنت. قال فى التهذيب: يقال: عزمت عليك لتفعلن كذا أى أقسمت انتهى، وهو مأخوذ من العزم وهو التصميم فى الأمر، وقوله: (عليها) أى على الوسادة (إن أبى) أى امتنع من الجلوس؛ حياء من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، (ويكنى أصحابه) أى يضع لهم كنية كأبى فلان، أو يدعوهم بالكنية تكريماً، (ويدعوهم) أى يناديهم (بأحب أسمائهم تكرمة لهم) أى يفعل ذلك، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأجل إكرامهم وتعظيمهم؛ تلطفاً بهم وتادباً معهم؛ فإن نداء المرء بكنيته تعظيم، وكذا كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يكنى من لا كنية له كما قال للطفيل الذى كان معه طائر يسمى نغير: «يا أبا عمير ما فعل النغير»<sup>(١)</sup>، وفيه دليل على جواز تكنية من لا ولد له على عادة العرب؛ تفاؤلاً بأن يعمر ويرزق أولاداً خلافاً لمن منع ذلك، وقال: إنه خلاف الواقع فهو كذب، وأخرج الطبرانى عن ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، قال: كنانى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أبا عبد الرحمن قبل أن يولد لى، وسنده صحيح، وعن بعض السلف «بادروا أولادكم بالكنى قبل أن يغلب عليهم الألقاب»<sup>(٢)</sup>، وكره بعضهم تكنية المرء نفسه إلا لقصد التعريف، وقال النووى: يجوز تكنية الكافر بشرطين.

(١) أخرجه البخارى (٣٧/٨)، والترمذى (١٩٨٩)، وابن ماجه (٢٧٣)، (٣٧٢٠)، وأحمد

(١١٥/٣، ١٧٦، ١٩٠، ٢٧٨)، وابن أبى شيبة (١/٤٠٠، ١٤/٩).

(٢) أخرجه ابن عدى فى الكامل (٤٤٨/٣)، وانظر: اللآلئ (٥٨/١)، وتنزيه الشريعة (١/١٩٩)،

والفوائد المجموعة (١٣٨).

الأول: أن لا يعرف إلا بكنيته. الثاني: أن يخاف من ذكر اسمه فتنة.

فالأول: كأبي طالب، والثاني كأبي حباب لابن سلول وفيه نظر، وقد تكون لأمر آخر كأبي لهب فإنه إشارة إلى أنه جهنمي، وقيل: كنى بذلك لحسن وجهه.

(ولا يقطع على أحد حديثه) أي من يحدث عنده يصغى إليه، ولا يقطع حديثه بتكلمه بكلام آخر، أو قيامه أو نهيه عن الكلام، فإن مثله يؤذى المتكلم (حتى يتجاوز) بياء وتاء مفتوحين وجيم مفتوحة وواو مشددة وزاء معجمة غاية لتركه قطع حديثه أي حتى يكثر، فيتجاوز الحد أو يخرج إلى ما لا يليق من الكلام، فهو من التجاوز أو الجواز كما يأتي، (فيقطعه بنهي) عن الكلام، (أو قيام) من مجلسه إعراضاً عنه، وهو مفيد لنهيه عنه، (ويروى بانتهاء أو قيام)، فالنهي بمعنى الانتهاء إذ الروايات تفسر بعضها بعضاً، وهذا وقع في بعض النسخ، فالمعنى حتى يجوز ذلك في حديثه، فيقطع حديث نفسه إما بسبب أنه انتهى، ولم يبق منه شيء، أو لقيامه عن المجلس، والتجاوز على هذا بمعنى التخفيف له والتقليل منه، وقيل: معناه ينطق بما هو غير حقيقي كأن يتكلم بما لا يليق من الكلام.

(وروى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان لا يجلس إليه أحد) أي لا يجلس متوجهاً إليه، والمراد لا يجلس عنده، صلى الله تعالى عليه وسلم، (وهو يصلي إلا خفف صلاته) أي أسرع فيها فقطعها، والتخفيف ضد التطويل وسيأتى بيانه، (وسأله عن حاجته، وإذا فرغ)، صلى الله تعالى عليه وسلم، من كلامه وبيان حاجته (عاده)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (إلى صلاته) التي كان فيها، وقال البرهان الحلبي: هذا الحديث منكر، وقد ذكره في الإحياء في آداب المعيشة، وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: لم أجد له أصلاً انتهى، ولذا قيل: لو أورد حديث الصحيحين الآتى: «إنى لأقوم إلى الصلاة أريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبي، فأبجوز في صلاتي كراهة أن أشق عليه»<sup>(١)</sup> كان أظهر؛ فإنه متفق عليه، وهو في معنى حديث الإحياء.

(وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، أكثر الناس تبسماً)، وقد تقدم معنى التبسم وما يتعلق به، (وأطيبهم نفساً) أي لم يكن مقطباً وعبوساً في مجلسه لطيب نفسه، وهذا وما بعده حديث رواه أحمد والترمذي بسند حسن (مالم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب).

قال الشيخ قاسم بن قطلوبغا في تخريج أحاديث هذا الكتاب عن عبد الله بن الحارث ابن جزء الزبيدي قال: ما رأيت أكثر تبسماً من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، رواه الترمذي وقال: غريب، وقد تقدم.

(١) أخرجه البخارى (٢١٩/١)، وأبو داود (٧٨٩)، والنسائى (٥٩/٢)، وأحمد (٣٠٥/٥).

وعن على كرم الله وجهه، أو الزبير، رضى الله تعالى عنه: كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا كان حديث عهد بجبريل، عليه الصلاة والسلام، لم يتبسم ضاحكا حتى يرتفع عنه. أخرجه أحمد وأبو يعلى من حديث الزبير، رضى الله تعالى عنه، من غير شك.

وعن جابر، رضى الله تعالى عنه: كان النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا نزل عليه الوحى قلت: نذير قوم، فإذا سرى عنه فأكثر الناس ضحكا. أخرجه الطبرانى فى مكارم الأخلاق، وفيه ابن أبى ليلى سىء الحفظ.

وعن على والزبير كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يخطب فيذكرنا بأيام الله حتى يعرف ذلك فى وجهه، وكأنه نذير قوم يصبحهم الأمر غدوة. أخرجه أحمد وأبو يعلى من حديث الزبير، رضى الله تعالى عنه، من غير شك.

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، «إذا خطب احمرت وجنتاه واشتد غضبه»<sup>(١)</sup>. رواه مسلم، والحاكم من حديثه: «كان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه واشتد غضبه»<sup>(٢)</sup> انتهى، وكونه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يتبسم فى هذه الحالات لتوجهه عند نزول الوحى فيه تأدبا معه، وفيما بعده لأنه مقام إنذار وخوف وتخويف.

(قال عبد الله بن الحارث) بن جزء بن عبد الله بن معدى كرب بن غنم الزبيدى الصحابى، سكن مصر ومات، رضى الله تعالى عنه، بها سنة خمس أو سبع وثمانين، وهو آخر من مات بها ببلدة تسمى سفت قرية من سمود بالغربية، وقيل: مات باليمامة حكاه ابن منده عن ابن يونس، وقال: إنه شهد بدرا، ولابن حجر فيه كلام.

(ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)؛ لأن طلاقة الوجه من مكارم الأخلاق، وفى الحديث: «تبسمك فى وجه أخيك صدقة».

(وعن أنس، رضى الله تعالى عنه، كان خدام المدينة) خدم بفتحيتين بزنة حسن جمع خادم، وفعل فى جمع فاعل جاء فى ألفاظ محصورة نظمها ابن مالك رحمه الله تعالى، وقيل: إنه اسم جمع وهو بالتاء كثير نحو كلمة جمع كامل، والمراد بالخدم العبيد والجوارى، وهذا الحديث رواه مسلم وهو حديث صحيح (يأتون رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا صلى الغداة) أى الصبح (بأنيتهم فيها الماء)، والأنية جمع إناء

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧/٤٣)، وابن ماجه (٤٥)، والبيهقى (٢٠٦/٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣٣٨/٣)، والحاكم (٥٢٣/٤).

ككسء وأكسية، وهو ما يوضع فيه الشيء، والأواني جمع الجمع، وكثير من الناس يظن أن الآنية مفردة، وظاهر قوله: (فما يؤتى بآنية إلا غمس يده فيها) يوهم ذلك، (وربما كان ذلك) أى إتيانهم بالأواني وغمس يده فيها (فى الغداة الباردة)، والغداة والغداة أول النهار، وقول فى القرآن الغدو بالآصال والغداة بالعشى، ووصفها بالباردة إشارة لما فيه من زيادة تحمل المشاق لأجل التلطف مع الناس، وإنما فعلوا ذلك تبركا بآثاره، صلى الله تعالى عليه وسلم، وما مسته يده الشريفة، وقوله: (يريدون به التبرك) يحتمل أنه من كلام المصنف، فإن البغوى، رحمه الله تعالى، رواه فى مصابحه بدون هذه الزيادة، وفيه إرشاد للتبرك بآثار العلماء والصلحاء.

\* \* \*

### (فصل وأما الشفقة والرأفة والرحمة لجميع الخلق)

والفرق بين هذه الثلاثة أن الشفقة رحمة ورقة قلب وخوف من نزول مكروه بمن يشفق عليه كما فى الأساس، والرأفة التلطف بمن يريد إكرامه بالبشر والإيناس كما قال قيس الرقيات:

ملكه ملك رأفة ليس فيه جبروت يرى ولا كبرياء

فمقابلتها بالجبروت صريحة فيه، وليست أشد الرحمة كما توهمه بعضهم، وإن استعملت بهذا المعنى كما مر تحقيقه، فما قيل: إنها أرق من الرحمة ولا تكاد تقع فى الكراهة كالرحمة غير موجه، وقوله: لجميع الخلق يعنى أنها لا تحتص بأحد كرحمة غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، (فقد قال الله تعالى فيه) أى فى حقه وصفته، عليه الصلاة والسلام: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، عزيز من عز بمعنى اشتد وصعب، والعنت المشقة أى يصعب عليه مشقتكم وما يؤلمكم؛ لرأفته ورحمته، وقد تقدم الكلام على هذه الآية، وقوله «بالمؤمنين» لا يناسب قوله: لجميع الخلق، فالأنسب أن يقتصر على قوله: (وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧])، وقد أشار المصنف، رحمه الله تعالى، لدفع هذا فى الفصل الأول من أن صدر الآية عام، والرحمة المخصوصة بالمؤمنين لا تنافى العموم، فكأنه يشق عليه لعموم رحمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، كل ما يقع بهم؛ لحرصه على هدايتهم وإرشادهم، فهى مطابقة لهذه الآية كما يعلم من كلامه هناك، وقد تقدم ما ذكر لأنه اسم، وذكره هنا لغرض آخر كالأيات المكررة فى القرآن فلا وجه لما قيل: إنه تكرار لا فائدة فيه لزيادته على المقصود، ولو نبه على ما قلنا كان أولى به؛ لكنه حريص على العنت كما لا يخفى لمن سيره.

(قال بعضهم: من فضله، عليه الصلاة والسلام، أن الله تعالى أعطاه اسمين من أسمائه فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] تقدم الكلام على هذا، وأعاده هنا لمعنى آخر فلا تكرر، بل فيه فائدة قال السيوطى، رحمه الله تعالى: ظاهر كلام المفسرين أن الرحيم يوصف به غير الله بخلاف الرحمن، لكن أخرج ابن أبى حاتم «الرحيم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه»، ويظهر لى أن مراده المعرف باللام دون المنكر والمضاف. انتهى.

(وحكى نحوه الإمام أبو بكر بن فورك) تقدم الكلام عليه. وعلى اسمه واسم أبيه، وهو إمام جليل بلغت تصانيفه أكثر من مائة مصنف جليل، توفى سنة ست وأربعمائة، قال: (حدثنا الفقيه أبو محمد عبد الله بن محمد الخشنى بقراءة عليه)، وهو عبد الله بن أبى بكر بن أبى جعفر بن محمد الخشنى بضم الخاء وفتح الشين المعجمتين ونون نسبة لخشينة مصغراً اسم قبيلة، ولد سنة تسع وأربعين وأربعمائة، ومات بمصرية من بلاد المغرب سنة ست وعشرين وخمسائة، وتقدم الكلام على قوله بقراءة عليه، قال: (حدثنا إمام الحرمين أبو على الطبرى) هو الإمام أبو عبد الله ويقال أبو الحسين بن على شيخ الحسين، ومحتده بمكة، والطبرى منسوب لطبرستان أو لطبرية، والأول أصح قال: (حدثنا عبد الغافر الفارسى) الإمام الزاهد العدل أبو محمد عبد الغافر بن محمد الفارسى أحد رواة مسلم المشهور بالرواية عن الجلودى، ولد سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، وتوفى سنة سبع وعشرين وخمسائة وعمره ثمان وسبعون سنة.

قال: (حدثنا أبو أحمد الجلودى) تقدم الكلام عليه وعلى نسبته، وأنه يجوز فيه فتح الجيم وضمها، وقد قيل هنا إن عبد الغافر لم ير الجلودى ولا روى عنه صحيح مسلم، وإنما الراوى جده أبو أمه واسمه عبد الغافر أيضاً كحفيده، لكنهما اختلفا كنية وأبا، فإن كنية الأول أبو الحسن وهذا أبو الحسين مصغراً، واسم أبى الأول محمد وهذا إسماعيل، وتاريخ موتهما مختلف فيه، وهذا لم يدرك الجلودى وقال السبكى، رحمه الله تعالى، فى طبقاته: بين هذا وبين الجلودى اثنان، وهذا مما لم ينبه عليه البرهان مع اطلاعه، وهو مما ينبغي التنبيه له قال: (حدثنا إبراهيم بن سفيان) تقدم أيضاً وأن سين سفيان مثلثة.

قال: (حدثنا مسلم بن الحجاج) الإمام المشهور صاحب الصحيح، وقد تقدمت ترجمته قال: (حدثنا أبو الطاهر) أحمد بن عمرو بن عبد الله بن عمرو بن سرح بمهمات بزنة ضرب الأموى مولا هم المصرى، روى عنه أصحاب السنن وغيرهم ووثقه النسائى، وقال أبو حاتم: لا بأس به، وكان فقيهاً صالحاً ثباً، توفى فى ذى القعدة سنة خمسين ومائتين قال: (أخبرنا ابن وهب) أبو محمد عبد الله الفهرى أحد الأعلام، روى عنه



السته، وتوفى سنة سبع وتسعين ومائة، (أخبرنا يونس) بن يزيد الأيلى بفتح الهمزة وسكون المثناة التحتية واللام وياء النسبة أحد الأثبات، روى له أصحاب الكتب الستة، وهو ثقة ثبت، توفى سنة تسع وخمسين ومائة، وله ترجمة فى الميزان، وفى يونس ست لغات بتثليث النون مع الواو والهمزة، (عن ابن شهاب) الإمام أبو بكر بن مسلم الزهرى، وقد تقدم.

(قال: غزا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، غزوة وذكر حنيناً) تقدم الكلام على حنين. قال البرهان الحلبي الراوى: إذا قدم الحديث على السنة كأن يقول قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، كذا أخبرنى به فلان ويذكر سنده، أو قدم بعض الإسناد مع المتن كما نحن فيه، قال بعد هذا: قال ابن شهاب: حدثنا سعيد بن المسيب أن صفوان بن أمية إلى آخره، فهو إسناد متصل، ولا يمنع ذلك الحكم باتصاله كما لو ذكر الإسناد بتمامه أولاً، وقال ابن الصلاح ينبغي أن يكون فيه خلاف كتقديم بعض المتن على بعض، وحكى الخطيب المنع من ذلك على القول بأن الرواية بالمعنى لا تجوز، والجواز على القول بأنها تجوز، ولا فرق بينهما فى ذلك انتهى، وفى جعله كالرواية بالمعنى خفاء.

(قال: فأعطى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، صفوان بن أمية) بن وهب بن حذافة ابن جمح القرشى الجمحى الصحابى، وكنيته أبو وهب أسلم بعد الفتح، وشهد مع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، حنيناً والطائف وهو مشرك، ثم أسلم وحسن إسلامه بعد ما كان من المؤلفة قلوبهم، وكان رئيس بنى جمح، وكان يعادى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويؤذيه أذية بالغة مع ما بينهما من الرحم، فجازاه على إساءته بالإحسان الزائد إليه (مائة من النعم ثم مائة ثم مائة)، والنعم اسم جمع للإبل لا واحد له من لفظه، وجمعه أنعام، وقال العزيرى: هو الإبل والبقر والغنم.

(قال ابن شهاب: حدثنا سعيد بن المسيب أن صفوان قال: والله لقد أعطانى ما أعطانى وإنه لأبغض الخلق إلى، فما زال يعطينى حتى إنه لأحب الخلق إلى) بعد ما كان أشد الناس عداوة له لقتل أبيه يوم بدر، ولما شهد وهو كافر حنيناً، ثم رجع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى الجعرانة فبينما هو يسير فى الغنائم ينظر إليها، ومعه صفوان جعل صفوان ينظر إلى شعب ملئ نعماً وشاء، وأدام النظر إليها ورسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يرمقه، فقال له: أبا وهب يعجبك هذا الشعب؟ قال: نعم. قال: هو لك وما فيه. فقال صفوان: ما طابت بهذا إلا نفس نبى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وكانت زوجته أسلمت قبله فأقر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم،

نكاحه عليها، واختلف فيما كان يعطيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، للمؤلفة، هل هو من خمس الخمس الذى هو حقه، أو من الخمس، أو من الغنائم؟ وأما إعطاء مؤلفة الكفار فكان جائزاً فى صدر الإسلام، وهل هو من الزكاة أو من بيت المال؟ ثم منعوا منه فى خلافة الصديق أو فى خلافة عمر، رضى الله تعالى عنهما.

فإن قلت: ما مناسبة الحديث لما نحن فيه؟ قلت: لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أعطى صفوان؛ لما بينه وبينه من الرحم خوفاً عليه أن يستمر على عداوته وكفره فيهلك، فأحسن إليه حتى يحسن إسلامه شفقة عليه من أن تحل به النعمة والعذاب، وقد تقدم إعطاؤه أكثر من ذلك.

(وروى أن أعرابياً جاء يطلب من النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، شيئاً فأعطاه) هذا الحديث رواه البزار عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، بسند ضعيف، وكذا ابن حبان وغيره، ولم يسموا الأعرابى.

(ثم قال: أحسنت إليك؟ قال الأعرابى: لا ولا أجملت) الذى فى النسخ أحسنت بهمة واحدة، فهمة الاستفهام مقدرة كقوله:

ثم قالوا تحبها قلت بهرا عدد الرمل والحصى والتراب

ومثله كثير نفيس، والاستفهام استفهام تقريرى، وقوله: لا رد لقوله: أحسنت، وأجملت بمعنى فعلت فعلاً جميلاً محموداً، وقال بعضهم: معناه ما اعتدلت فى الأخذ والعطاء، أو ما أكثرت، وهذا أولى انتهى، واللغة لا تساعد وإنا حمله عليه الهرب من التكرار ولا تكرار فيه؛ لأنه من ذكر العام بعد الخاص، ومثله لا يعد تكراراً لما فيه من المبالغة، وفى ذلك غلظة وسوء أدب.

(فغضب المسلمون) من كلامه وجراسته عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (وقاموا إليه) ليضربوه ويجازوه بما يستحقه، (فأشار إليهم أن كفوا) أى أشار بيده إليهم إشارة يفهم منها الأمر بكفهم أى تركهم ما أرادوه، وأن تفسيرية أو مصدرية على الخلاف المشهور عند أهل العربية، وهذا من حلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وشقيقته تأليفاً له ليحسن إسلامه.

(ثم قام) من مجلسه، (ودخل منزله وأرسل إليه) عطية (وزاده) أى زاده على ما أعطاه أولاً، (ثم قال: أحسنت إليك؟) فيه مقدر، وهو خرج وقال له ذلك، (قال: نعم) أحسنت إلى (فجزاك الله) على إحسانك ولطفك بى (من أهل وعشيرة خيراً) مفعول جزاك وما بينهما اعتراض، والفاء تقريرية وسببية لما تضمنه، وقيل: إنها فصيحة فى

جواب شرط مقدر، أو عاطفة على أى أحسنت وأجملت فجزاك إلى آخره، ومن فى من أهل قيل: إنها بدلية مثلها فى قوله: ﴿لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ لِبَنَاتِكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أى بدلکم فالمعنى بدلا من أهلى وعشيرتى الذين لم يحسنوا إلى، وقيل: ليس هذا مراده، بل مراده أنه صار أهلا له، وعشيرة أى قبيلة إما لفعله فعل العشيرة، وهذا كما يقولون للقادم: أهلا وسهلا، أو تقدم من أن له، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى كل قبيلة قرابة وعرقا، فمن إما تعليلية كقوله تعالى: ﴿قَوْلِيلٌ لِّلْغَنِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، أى لأجل ذكر الله، وأما كونها للفصل والتمييز كما فى قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥]، أى ممتازين من بين العالمين بهذا الفعل القبيح، فبعيد جدا، ثم أشار المصنف، رحمه الله تعالى، إلى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، زاد لطفًا فأرشد به بقوله: (فقال له النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، إنك قلت ما قلت) فى جوابك وردك على، (وفى أنفس أصحابى من ذلك شىء) تنكيره إما للتحقير أى شىء حقير لا يعتد به عندى، أو للتعظيم أى أثر عظيم عندهم؛ لأذيته النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ووضع اسم الإشارة موضع الضمير؛ لجعله كالشاهد المحسوس لاستحضاره، فتذكيره بما وقع منه من الأمر العجيب، (فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي) علق قوله على محبته وإرادته لطفًا منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأى لطف مع أنه ذنب عظيم ينبغي التنصل منه، وفيه من الشفقة بالأمة ما لا يخفى، وبين الأيدى كناية عن حضوره وتمثله لهم، وليس المراد البينة الحقيقية، بل المقابلة مع القرب، وقد يعبر به عن المستقبل نحو ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

(حتى يذهب ما فى صدورهم عليك) أى الغضب والألم الذى فى قلوبهم بسبب ما قلته أولا.

(قال: نعم) أى أقول لهم ما قلت لك، (فلما كان الغد أو العشى) المراد بالغد صبيحة اليوم الذى بعد اليوم الذى كلمه فيه النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، والغداة من طلوع الفجر إلى الزوال، والعشى ما بعد الزوال إلى الغروب، والشك هنا من الراوى (جاء) أى الأعرابى إلى مجلس النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، (فقال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)، لأصحابه الحاضرين عنده (: إن هذا الأعرابى قال ما قال) لى أولا إذ أساء أدبه لغلظة طبعه، ولذا وصفه بالأعرابى لما عرف من حال الأعراب، (فزدناه) على عطاءه الأول، (فرعم أنه رضى) بجملة ما أعطيناه له، والزعم هنا بمعنى القول الحق، وهو يستعمل بهذا المعنى كقول الشاعر:

هلكننا ولكن إن هلكت فإنما على الله أرزاق العباد كما زعم

ويكون بمعنى القول الباطل كقوله تعالى: ﴿هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، ولذا قالوا: زعم مطية الكذب، وفى التعبير إيماء إلى ما فى نفسه من الحرص والطمع، ثم التفت، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى الأعرابى وقال له: (أكذلك؟)، فالاستفهام متوجه منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، للأعرابى أى الأمر كذلك من أنك رضيت، وإن كان ما قبله كلاماً منه متوجهاً لأصحابه، رضى الله تعالى عنه، فالجار والمجرور خبر مقدر أى الأمر كذلك.

(قال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً) تقدم ما فيه.

(فقال النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم: مثلى ومثل هذا) الأعرابى، المثل يكون بمعنى القصة وبمعنى الكلام المشبه مورد به، بمضربه، ويكون استعارة تمثيلية أو تشبيهاً تمثلياً مركباً، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] الآية، ويكون ذلك لزيادة التوضيح والتقرير، فإنه أوقع فى النفس؛ لأنه يريك المخيل محققاً، والمعقول محسوساً لما فيه من الشأن الغريب، وهو فى الكلام الإلهى والأحاديث النبوية كثير (مثل رجل له ناقة شردت عليه) أى نفرت منه وذهبت فى الأرض، يقال: شردت الدابة والإنسان إذا نفر وجرى جرياً شديداً لا يلحق شروداً وشراداً، وأصل الشراد الفراق خوفاً. قال الله تعالى: ﴿فَشَرَدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧]، قال ابن عرفة أى أفعال بهم فعلاً يخيف من وراءهم فيشردهم، (فاتبعها الناس) أفعال من الاتباع أى مضوا وجروا خلفها ليمسكوها، (فلم يزيدها إلا نفورا) أى لم يحصل باتباع الناس لها إلا زيادة هربها ونفورها؛ لخوفها منهم، (فناداهم صاحبها) أى الناقة (خلوا بينى وبين ناقتى) أى وقال لهم: خلوا إلى آخره، فهو مفعول نادى لتضمينه معنى القول أو مقول قول مقدر كما عرف فى أمثاله أى لا تتبعوها، واتركوها واتركونى أحتال فى إمساكها؛ (فإنى) وفى نسخة فأنا (أرفق منكم وأعلم) أى أنا أشفق عليها وأعلم بحالها منكم، (فتوجه لها بين يديها) أى جاءها من أمامها، (فأخذ لها من قمام الأرض) القمام جمع قمامة ككناسة لفظاً ومعنى، والمراد بها النبات الذى ترعاه الدواب شبهه به لخسته، ولأنه مما يطرح كالقمامة، فاستعير لذلك، (فردها حتى جاءت) فيه مقدر أى فدنت منه لتأكل ما بيده من الحشيش، فأمسكها وردها حتى أتى بها محله، (وامتناخت) أى بركت ومكثت عنده من ناخ الجمل ونوخه إذا بركه، (وشد عليها رحلها) الرحل للإبل كالسرج للفرس، وهو معروف، (واستوى عليها) أى على ظهرها أى ركبها. يقال: استوى على الدابة إذا علا على ظهرها وركبها، (وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال) أى لو لم أكفكم وأنعمكم عنه حين قال لى الرجل مقالته السيئة، (فقتلتموه دخل

النار) عقوبة له بإساءته على النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وشبه المال لخسة الدنيا عنده بالقمامة، وشبه نفسه بالرجل، وشبه الأعرابى بدابة شاردة عن ربها، وشبه الصحابة لما غضبوا وقاموا له بالناس التابعين لها الذين نفروها عن ربها، وشبه قوله: كفوا عنه بقوله: خلوا بينى وبينها، وفى قوله: فإنى أرفق بها منكم بيان لأنه أعظمهم رفقا، وأقواهم شفقة على خلق الله تعالى، وهو تشبيهه فى أعلى طبقات البلاغة لتضمنه هذه المعانى اللطيفة.

قيل: ويحتمل أن الرجل إنما قال أولا ما قال؛ ليطلع على حلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأنه سمع صفاته من أهل الكتاب، والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، علم بذلك، وقيل: إن جزمه بدخوله النار لكفره بما قاله للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، والنبى تلطف به حتى آمن ونجا من النار، فتأمل.

وهذا الحديث رواه البزار وأبو الشيخ بسند ضعيف عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، وابن حبان فى صحيحه، وابن الجوزى فى الوفا.

(وروى عنه) بالبناء للمجهول، وضمير عنه للبنى، صلى الله تعالى عليه وسلم، والراوى له أبو داود والترمذى عن ابن مسعود، وفى نسخة: وروى عنه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: (لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئا) هذا نهى عام عن الغيبة والنميمة، ونقل ما يكره نقله من قول أو فعل أو ترك.

(فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر) سلامة الصدر كناية عن كونه ليس فى قلبه بغض لأحد، ولا غضبان على أحد، ومثله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقال له: سليم القلب قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَنْ أَقَىَ اللَّهُ يَاقِلَ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]، أى برئ من الكفر والنفاق، وهذا معنى آخر.

وقد صح عن أنس، رضى الله تعالى عنه، فيما رواه ابن مسعود قال: قسم رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، قسمة، فقال رجل من الأنصار: والله ما أراد محمد بهذا وجه الله، فأتيت النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فأخبرته، فتمعر وجهه وقال: «رحم الله أخى موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصير»<sup>(١)</sup> رواه البخارى، والمراد سلامة صدره للمنقول عنه أو الناقل كما قيل: سبك من بلغك، والأولى إبقاؤه على إطلاقه ليشملهما وغيرهما، وكل من النميمة والغيبة حرام إلا فى أماكن استثنائها الفقهاء، وقد نظمها الجوجرى من فقهاء الشافعية فى قوله:

بست غيبة جازت فخذها      منظمة كأمثال الجواهر  
تظلم واستعن واستفت حذر      وعرف واذكرن فسق المجاهر  
ويأتى لذلك مزيد بيان أيضاً.

(ومن شفقتة ﷺ على أمته تخفيفه) عنهم التكاليف الشاقة التى كانت فى الأمم السابقة، ورجاؤه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من ربه أن يجعل الصلاة خمساً بعد ما كانت خمسين؛ (وتسهيله) فى أمورهم كقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «لبدنك عليك حق ولزواجك عليك حق» لمن أراد قيام الليل كله، (وكرهته أشياء مخافة أن تفرض عليهم) الكراهة والكرهية من المكروه ضد المحبوب، والكره ضد الطوع، والمخافة بمعنى الخوف منصوب على أنه مفعول له، ثم بين ذلك بقوله: (كقوله)، صلى الله تعالى عليه وسلم: (لولا أن أشق على أمتى) أى لولا مخافة المشقة عليهم؛ (لأمرتهم بالسواك) أى أمر إيجاب، وإلا فأمر الاستحباب ورد فى الحديث كقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «عليكم بالسواك واستاكوا»<sup>(١)</sup> حتى تمسك بهذا الحديث بعضهم، فجعله واجباً، ورد بهذا الحديث فهو سنة، واختلف فى محل سنيته فى الوضوء، فقيل: حال المضمضة وقيل: قبل الوضوء وقيل: مطلقاً من غير تعيين وقت له، وهو من سنن الدين لا من سنن الوضوء كما اختاره الزيلعى، رحمه الله تعالى.

والسواك مصدر بمعنى الاستياك، واسم العود نفسه، والمراد هنا الأول أو الثانى بتقدير مضاف أى استعماله، وهو مذكر وجوز بعض أهل اللغة تأنيثه (مع كل وضوء)، وفى مسلم عند كل صلاة، وهذا الحديث رواه أصحاب الكتب الستة، والوضوء بضم الواو مصدر، وبفتحها ما يتوضأ به كالطهور، وأجاز بعضهم فى المصدر الفتح وقد جاء فى المصادر الفتح أيضاً، وقال أبو شامة، رحمه الله تعالى، فى كتاب السواك: السواك مأخوذ من قولهم تساوكت الإبل إذا اضطربت من الهزل فيما قلقت من الضعف؛ لما فيه من الحركة، وقوله: مع كل وضوء روى مع كل صلاة، وعند كل صلاة كما علم، وهل هو عام لكل صلاة فرضاً أو نفلاً أو الصلوات الخمس؟ ذهب إلى كل جماعة.

وقال الشافعى: أحب السواك للصلاة، وعند كل حال تغير فيها الفم كالاستيقاظ من النوم، وهو يشمل الصائم، وفيه كلام للفقهاء، فيكره له بعد الزوال، فلا يحصل له تغير بنحو نوم بعده، ورواية الموطأ مع الوضوء قال أبو شامة: يحتمل معنيين أى لأمرتهم بالسواك مصاحباً للوضوء، أو لأمرتهم به كما أمرتهم بالوضوء، وله فيه كلام طويل.

(١) أخرجه أحمد (١٠٨/٢)، وابن حبان (١٤٤)، وابن أبى شيبة (٩٦/٢)، وأبو نعيم فى تاريخ أصفهان (٦٢/٢)، وابن عدى فى الكامل (٩٢٩/٣).

وقوله: (وخبر صلاة الليل) هو ما قال الشيخ قاسم بن قطلوبغا فى تخريجه لأحاديث الشفاء، ومن خطه نقلت: عن زيد بن ثابت، رضى الله تعالى عنه، قال: احتجر رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، حجارة بخصفة أو حصير فى المسجد فى رمضان، فخرج فصلى فيها. قال: فسمع رجال (جاؤوا يصلون بصلاته) قال: ثم جاؤوا فحضروا فأبطأ رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلم يخرج إليهم فرفعوا أصواتهم وحصبوا الباب، فخرج إليهم مغضباً فقال لهم: «ما زال بكم صنعكم حتى ظننت أنه سيكتب عليكم، فعليكم بالصلاة فى بيوتكم، فإن خير صلاة المرء فى بيته إلا المكتوبة»<sup>(١)</sup> رواه الشيخان.

وفى رواية: «خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها» انتهى، وهذا هو المناسب للمقام ولما قبله، وإليه أشار السيوطى أيضاً فى مناهل الصفا فى تخريج أحاديث الشفاء، لاما قيل: إنه أراد به حديث: «صلاة الليل مثنى مثنى»<sup>(٢)</sup>، وبه استدل على أن الأفضل فى النفل ليلاً أن يكون ركعتين ركعتين، وعند أبى حنيفة، رحمه الله تعالى، الأفضل ليلاً ونهاراً الأربع لدليل لاح له، وقد علمت أن الأول هو المناسب هنا، ويناسبه ما روى «خذوا من العمل ما تطيقون. إذا نعس أحدكم وهو يصلى، فليرقد حتى يذهب عنه النوم»<sup>(٣)</sup>، وهذا هو الذى قاله التلمسانى فى حواشيه أيضاً.

فإن قلت: كيف يخشى، صلى الله تعالى عليه وسلم، افتراضه بعد فرض الصلاة فى الإسرائ، وقول الله تعالى ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَى﴾ [ق: ٢٩]؟.

قلت: قيل: يحتمل أن الله أوحى إليه أنك إن واطبت على هذه الصلاة بجماعة افترضتها عليهم، أو أنه وقع فى نفسه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ذلك، أو المعنى إنى خشيت أن تظنوها فرضاً إذا داومت عليها ولا يخفى بعده، وإن قيل: إن ما فى الإسرائ هى وظيفة كل يوم وهذه مخصوصة برمضان، أو أنه لما كان قيام الليل فرضاً عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، خشى أن يستوى به غيره من الأمة.

وقيل: إن النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان إذا واطب على شىء من أعمال

(١) أخرجه البخارى (٣٤/٨)، وأحمد (١٨٢/٥)، والنسائى (١٩٨/٣)، والبيهقى فى الكبرى (١٠٩/٣).

(٢) أخرجه البخارى (٣٠/٢)، ومسلم فى الصلاة (١٤٥)، وأبو داود (١٣٢٦)، والترمذى (٤٣٧)، والنسائى (٢٣٣/٣)، وأحمد (١٠٢/٢).

(٣) أخرجه البخارى (٥٠/٣)، ومسلم فى صلاة المسافرين (٢٢٠)، وأحمد (٨٤/٦)، (١٢٨، ١٩٩، ٢٤٧)، وعبد الرزاق (٢٠٥٦٦)، والبيهقى (١٧/٣).

البر واقتدى أناس به يفترض، وفيه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، واظب على أشياء كثيرة، ولم يفترض كرواتب الفرائض والسنن المؤكدة.

وقيل: إن المراد بالفرض فرض الكفاية، وقول الكرمانى إن قوله تعالى: ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيْنَا﴾ [ق: ٢٩] معناه نفى النقص؛ لأن الزيادة بعيد جدًا، وهذا لا يقبل النسخ؛ لأنه خبر، واحتمال أنهم لرغبتهم فى العبادة يفرضون ذلك على أنفسهم كالنذر، فيشق على من بعدهم بعيد أيضًا، وعلى كل حال فالمقام لا يخلو من الإشكال.

(ونهيهم) مصدر مضاف للمفعول أى نهى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، (عن الوصال، وكراهته) لهم، والوصال فى الصوم وهو أن يصوم يومين فأكثر من غير أكل وشرب بينهما، ونهيه عن الوصال ثابت فى الصحيحين، فإنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما واصل واصل الناس، وشق ذلك عليهم، فلما بلغه ذلك نهاهم عنه، فقالوا له: إنك تواصل، فقال: إنكم لستم مثلى إني أبيت عند ربى يطعمنى ويسقيني، فمن خواصه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه يجوز له الوصال، ويمنع منه غيره، واختلف فيه هل كراهته تحرمة أو تنزيهية؟ أو يفرق بين من يطيق ومن لا يطيق، وعلم من الحديث وجه اختصاصه، ومعنى كون الله يطعمه ويسقيه أنه يعطيه قوة روحانية ويغذيه بأنوار ربانية بحيث لا يضعف بدنه بترك الطعام والشراب، بل يزداد قوة، وذلك باتصال روحانيته بعالم الغيب حتى يحصل له بدل ما يتخلل بحيث لا يشعر، وليس هذا حاصلًا له فى كل الأوقات ألا ترى أن المريض مدة طويلة لا يأكل ولا يشرب، ولو فعل ذلك فى حال صحته لم يطقه لاشتغال روحه عنه، وقد اتفق على هذا علماء الشرع والحكماء كما فصله ابن سينا فى مقامات العارفين، فلا يرد عليه أنه ﷺ كان فى بعض الأحيان يجوع جوعًا شديدًا حتى يشد الحجر على بطنه، والترمذى الحكيم لما لم يقف على هذا أنكره لتوهم أن بين الحديثين تنافيا، حتى ادعى أنه تصحيف وتحريف ممن رواه، وإنما هو الحجز بضم الحاء المهملة وفتح الجيم والزأى المعجمة جمع حجرة، وهى مرتشقة فى الحزام، وقال: ما يغنى شد الحجر. ولم يدر أنه بثقله وبرده يجمع الأمعاء ويردها ويقيم الصلب الضعيف، وإنكاره للحديث الصحيح، وحمله على غير ظاهره كما قيل بأن يغذيه حقيقة من طعام الجنة يأباه المقام؛ لأنه لو كان كذلك لم يكن وصالا.

(وكراهته دخول الكعبة) أى من شفقتة، صلى الله تعالى عليه وسلم، على أمته كراهته دخول الكعبة فى الحديث الذى رواه أبو داود والترمذى عن عائشة، رضى الله تعالى عنها، وصحاحه، وكذا رواه ابن خزيمة والحاكم عنها أيضًا مصححًا مسندًا، وهو



أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، خرج من عندها، وهو قرير العين، ثم رجع وهو كتيب أى محزون، فسألته عن ذلك، فقال: خشيت أن أكون شققت على أمتي أى بدخولي البيت، وكان ذلك فى حجة الوداع، وكانت عائشة، رضى الله تعالى عنها، معه، وبهذا جزم الطبرى والبيهقى، واختلفوا هل صلى فيه أم لا؟، وفى بعض شروح البخارى يحتمل أن يكون دخوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، الكعبة وقع مرتين، صلى فى إحداهما ولم يصل فى الأخرى، وكونه، صلى الله تعالى عليه وسلم، دخل الكعبة متفق عليه.

قال ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما، دخل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، البيت هو وأسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة، رضى الله تعالى عنهم، وأغلقوا عليهم الباب، فلما فتحوه كنت أول من ولج، فسألت بلالاً هل صلى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيها؟ قال: نعم بين العمودين اليمانيين، فكان ابن عمر إذا دخل مشى قبل الوجه، ويجعل الباب قبل ظهره حتى يكون بينه وبين الجدار قريب من ثلاثة أذرع، فيصلى يتوخى المكان الذى صلى فيه رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا بأس على أحد أن يصلى فى أى جهة شاء، وهذه الرواية مرجحة على رواية أسامة بن زيد أنه دعا فيه ولم يصل؛ لأن المثبت مقدم على النافى لزيادة علمه، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، قدم مكة بعد الهجرة ثلاث مرات:

الأولى: فى عمرة القضاء، ولم يدخل فيها الكعبة لما فيها من الأصنام والكفر باق بها.

والثانية: فى فتح مكة، وفيها دخل الكعبة، وأمر بإغلاق بابها فلبث فيها ملياً، ثم فتح الباب. قال عبد الله بن عمر: فلقيت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، خارجاً، وبلال على إثره، فقلت له: هل صلى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: نعم. قلت: أين؟ قال: بين العمودين تلقاء وجهه، ونسيت أن أسأله كم صلى؟.

والثالثة: فى حجة الوداع، واختلف فى أنه دخل الكعبة فيها أم لا، وإنما كره دخولها فى حجه لئلا يجعله الناس من المناسك اقتداء به، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد لا يتيسر لهم ذلك، وقد اختلفوا فى كونه من المناسك، والصحيح أنه ليس منها تمسكاً بهذا الحديث.

وقوله: (لثلاثا تتعنت أمته) بتائين مفتوحتين وعين مهملة مفتوحة ونون مشددة ومثناة فوقية تفعل من العنت، وهو المشقة والإثم، ووقع فى بعض النسخ تتعب من التعب كما قاله التلمسانى وأمته فاعل عليهما، وروى يعنت بضم التحتية وسكون العين وكسر

التون من أعتته بمعنى عنته، وأتمته منصوب مفعول، وبالتحتية والتشديد أيضاً، ونصب أتمته ففيه وجوه مروية.

(ورغبته) أى طلبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (أن يجعل سبه ولعنه لهم) أى لأتمته أى لأحد منهم (رحمة بهم)، والسب والشتيم بمعنى، وأصله من السبه وهى مخرج البعر من الدبر، فنقل لما ذكر، وسيأتى بيان هذا (وأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يسمع بكاء الصبى)، وهو فى صلاته، (فيتجوز فى صلاته) التجوز تفعل من الجواز، والمراد به هنا أنه يخففها ويسرع فيها، مستعار من تجوز عن ذنبه إذا لم يؤاخذه به كتجاوز، أو هو من الجواز فى السير، والصبى المراد به الطفل الرضيع، وهذا رواه ابن السنن فى حديث صحيح عن أنس، رضى الله تعالى عنه، كما قاله السيوطى، وروى الشيخان عن أنس أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «إنى لأدخل فى الصلاة وأنا أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبى، فأتجوز فى صلاتى مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه»<sup>(١)</sup>، وفيه دليل على جواز دخول الصبى والنساء فى المسجد؛ لاحتمال أن يكون ذلك من بيوت مجاورة له، ولا دليل فيه أيضاً على جواز تطويل الصلاة لأجل من يلحق الجماعة كما قيل، والمراد بالتخفيف ما لا يؤدى إلى عدم تعديل الأركان والإخلال بالواجبات كما لا يخفى.

(ومن شفقتة، صلى الله تعالى عليه وسلم)، على أتمته ورحمته لهم (أن دعا ربه وعاهده) هذا مفسر لما مر، ولو اقتصر على هذا كان أخصر وأظهر، والمراد بالمعاهدة إلزام ما لا يلزمه شرعاً كالندور كما قاله الراغب أى دعا بذلك، ونذر قصده ما ذكر (فقال: أيما رجل سبته أو لعنته) تفسير لما دعا به وعاهد الله عليه، واللعن أصل معناه الطرد والإبعاد ثم خص بالبعد من رحمة الله، (فاجعل ذلك) السب واللعن (زكاة) أى تطهيراً له مما ارتكبه مما اقتضاه، (وصلاة ورحمة وطمهراً) أى مطهراً له من ذنوبه، (وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة) كما رواه الشيخان عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه.

وروى هذا الحديث من طرق أخر فيها: «أيما رجل من المسلمين» أو من المؤمنين، وروى أو جلدته، ومعلوم أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، «كان لا يغضب لنفسه، وإنما يغضب لله»<sup>(٢)</sup>، فإذا رأى أحداً من المؤمنين وقع منه ما يخالف أمر الله ربما حصلت له غيرة لأمر الله، فبادر بزجره وشتمه أو ضربه، ثم إنه رجا من الله أن يكون ذلك مكفراً لما صدر منه، ورحمة عظيمة مقربة له من الله؛ لأن المؤمن إذا رأى غضب النبي، صلى الله

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أورده الزبيدى فى الإتحاف (١١٢/٧).

تعالى عليه وسلم، حصل له خوف شديد يفت قلبه، فتكون شدة خوفه جزاء عمله، وزجر النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، زيادة في حسناته تقربه من ربه، وهذا لا ينافي ما ورد في حديث آخر: (إني لم أبعث لعائنًا، ولكني بعثت داعيًا ورحمة) إما لأن المنفى هناك المبالغة والكثرة إن لم تقل المبالغة في المنفى، فإن قلنا بها فالمعنى أنه ليس هذا مقصودًا من بعثته، فلا ينافيه وقوع ما يخالفه للتأديب نادرًا، وأما حمل ما صدر منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، على ما قبل البعثة ينافيه قوله: «من المؤمنين أو المسلمين»، وسياق الحديث في قوله: جلدته يأباه، أو أنه لما رجا من الله أن يكون ذلك رحمة لم يكن لعنًا حقيقياً، بل رحمة فلا لعن منه لأحد من أمته أصلاً، وبالجمله فهو، صلى الله تعالى عليه وسلم، رحمة، وأذيته نعمة لا نقمة بخلاف غيره من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فإن دعاءهم نقمة عاجلة على أممهم، وفي المصاييح: «إن الله أجاركم أن لا يدعو عليكم نبيكم فتهلكوا»، وسيأتي تمتة هذا في القسم الثالث، فصار دعاؤه عليهم دعاء لهم على حد قولهم: قاتلهم الله، وترتب يده، وفي هذا نهاية الشفقة.

وأول الحديث: (اللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر، وإنني اتخذت عندك عهداً لن تخلفه فأبما رجل إلى آخره)، وهذا كما مر لا ينافي دعاءه، صلى الله تعالى عليه وسلم، على بعض الكفرة والمنافقين.

(و) من عظيم شفقتة، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما أشار إليه بقوله: و (لما كذبه قومه أناه جبريل، عليهما الصلاة والسلام، فقال له: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداه ملك الجبال وسلم عليه، وقال: مرني بما شئت إن شئت أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله تعالى من أصلابهم من يعبد الله وحده، ولا يشرك به شيئاً).

هذا الحديث رواه الشيخان وأصحاب الكتب الستة، وكان ذلك لما مات أبو طالب، ونالت قريش منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما لم تنله في حياته، فخرج لثقيف، ومعه زيد بن حارثة يلتمس النصره منهم والمنعة، فعمد إلى نفر من رؤسائهم، فجلس إليهم كلمهم ودعاهم إلى الإسلام، فكذبوه وسلطوا عليه سفهاءهم وعبيدهم فجعلوا يسبونهم ويصيحون به ويرضخونه بالحجارة حتى أدموا رجله، وهم يضحكون، وزيد، رضى الله تعالى عنه، يقيه بنفسه حتى انتهى، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى حائط استظل بكرمه، وهو مكروب موجه، فإذا بقرب الحائط عتبة وشيبة ابنا ربيعة، فلما رأهما كره ذلك لما يعلم من عداوتهما له، فرحمهما ودعوا غلاماً لهما يقال له: عداس، وقالاه: خذ قطعاً من هذا العنب، وضعه في طبق، واذهب به له ليأكله، فلما وضعه قال، صلى الله

تعالى عليه وسلم: بسم الله، ثم أكل، فقال الغلام: إن هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد، فقال، صلى الله تعالى عليه وسلم، من أى البلاد أنت؟ وما دينك؟ قال: نصرانى من أهل نينوى. فقال من قرية الصالح يونس بن متى؟ فقال: ما يدريك يونس؟ قال: ذاك أخى من أنبياء الله. فأكب يقبل رأسه ورجليه، فلما رجع قال له: ما لك قبلت رجليه؟ قال: ما فى الأرض خير من هذا، لقد أعلمنى بأمر لا يعلمه إلا نبى، فقال له: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك، وقد قال، صلى الله تعالى عليه وسلم: إن هذا من أشد ما لقيه، والقصة مفصلة فى السير، وقوله: وما ردوا عليك أى ما أجابوك به وما ردوا قولك وخالفوه إذ كذبوك، وقوله: فناده ملك الجبال أى قال له: يا رسول الله: السلام عليك، وقوله: أطبق بضم الهمزة وسكون الطاء المهملة وكسر الموحدة مخففة ومشددة وقاف أى أضمرها وأجمعها حتى يهلكوا تحتها، وملك الجبال هو الموكل بها بأمر الله، والأخشبين تشية أخشب بخاء وشين معجمتين وموحدة بزنة أفعل جبلان يضافان تارة لمكة، وتارة لمنى، فيقال: أخشبا مكة وأخشبا منى، وهما أبو قبيس، وقيقعان بالتصغير ويسميان الجبجبان، وهما تحت العقبة التى بمنى فوق المسجد كما قاله البرهان الحلبى، وقيقعان هو الجبل المشرف الأحمر، ولهم قيقعان آخر بالبصرة، وسما أخشبان لغلظ حجارتهما وخشونتهما، وأصلاب جمع صلب الظهر، والمراد بالإخراج منهما أن يخلق لهم نسل وذرية، وقد حقق الله رجاءه، صلى الله تعالى عليه وسلم.

(وعن ابن المنكدر)، وفى نسخة وروى ابن المنكدر هو محمد بن المنكدر بن عبد الله ابن الهدير بن عبد العزيز المدنى، توفى سنة ثلاثين أو إحدى وثلاثين ومائة، وهم ثلاثة إخوة، وكان يدخل على عائشة، رضى الله تعالى عنها، وهو تابعى وقد تقدم قوله: (إن جبريل، عليه الصلاة والسلام، قال للنبي، صلى الله تعالى عليه وسلم) بإسقاط الصحابى، فهو مرسل قال البرهان: وإنما يكون مرسلًا إذا قلنا: إن الصحابى إذا قال قولاً لا بحال للاجتهاد فيه يكون مرفوعاً، كما ذكره الإمام الشافعى، رضى الله تعالى عنه، فيكون ما قاله التابعى مرسلًا، وفى بعض الشروح: نعم هو مرسل إلا أن إرساله لا يمنع من قبوله إذ مرسل أصحاب القرون الثلاثة مقبول عندنا، وعند مالك، بل هو فوق المسند لبرهان قام عليه عنده، وعند الشافعى مرسل الصحابى مقبول لكنه دون المسند، وفى التنقيح الأصولى حكاية قبول مرسل الصحابى بالإجماع، وفيه نظر لمخالفة أبى إسحاق الإسفرائينى كما نقله العراقى، وقيل: إنه خلاف طراً بعد انعقاد الإجماع فى العصر الأول، ومثله لا يضر وفيه نظر، ولنا فى إطلاق هذه المسألة بحث ذكرناه فى حواشى النخبة.

(إن الله أمر السماء والأرض والجبال أن تطيعك) المراد بإطاعة السماء له، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه إن أراد أن تحرق صواعقها على من عصاه، فتهلكهم كان ذلك، والأرض إن أراد خسفها بهم وانطباقها عليهم كان ذلك من غير مهمة، ووحيد ضمير تطيعك مع عوده على شيئين معطوفين بالواو؛ لجعلها كشيء واحد لتأويلها بالعالم أو الدنيا، وكان الظاهر تطيعاك، وفى بعض النسخ والجبال، وعلى هذا لا حاجة إلى التأويل؛ لأن الجمع يجوز عود ضمير المؤنث المفرد عليه، وفيه مراعاة النظر وحسن الترتيب أى بأن تطيعك فى كل ما تريد.

(فقال)، صلى الله تعالى عليه وسلم: (أؤخر عن أمتى لعل الله أن يتوب عليهم) رجاء أنهم يتوبون عن مخالفتى ويوفقهم للإيمان، فيتوبون ويقبل الله منهم ذلك، أو يكون منهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً، وأصل معنى التوبة الرجوع فهى من العباد الرجوع عن المعاصى، ومن الله قبول ذلك، أو من الرجوع عن الغضب عليهم والعقوبة لهم، ولا منافاة بين هذا وبين قوله: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةُ لَعْنَتِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، ولا بين ما وقع منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى غزواته من القتل والسبى كما توهم؛ لأنه عذاب مخصوص، ولأن التأخير لا ينافى ما وقع بعده كما لا يخفى، والأحسن أن جوابه معلوم من قوله الآتى: ما لم يكن إنمّا فتدبر.

(قالت عائشة، رضى الله تعالى عنها: ما خير رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بين أمرين إلا اختار أيسرهما) تقدم هذا الحديث، وإنما أعاده هنا تأييداً لما قبله، وأيسرهما أى أسهلهما، وأهونهما على الأمة شفقة ورحمة منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، عليهم، وبقية الحديث: «ما لم يكن إنمّا، فإن كان إنمّا كان أبعد الناس منه» كما سيأتى، وكذا رواه الشيخان وتقدم الكلام عليه.

(وقال ابن مسعود، رضى الله عنه)، فى حديث رواه الشيخان (: كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يتحولنا بالموعظة) بفتح المثناة التحتية وفتح التاء الفوقية والخاء المعجمة والواو المشددة المفتوحة واللام، والضمير للصحابة أى يتعهدنا يقال: فلان خائل مال، وهو الذى يصلحه ويقوم عليه، ومنه الخولى لراعى الغنم والمواشى، وقيل: الصواب يتحولنا بالخاء المهملة أى يطلب الحال التى نشط فيها لاستماع الموعظة، فيعظ فيها ولا يكثر منها.

(مخافة السامة علينا) أى لئلا نكل ونسأم، وقيل: إنه يتخوننا بنونين أى يتعهدنا كما يتعهد الضيوف بالخوان والمائدة، والرواية الصحيحة بالإعجام مع اللام والنون كما مر، وكان فعل ماض إذا أخبر عنه بالمضارع الدال على الاستمرار التجددى دل على التكرار

عرفاً، والموعظة مصدر ميمى بمعنى الوعظ وهو التذكير والتخويف من سوء العاقبة، ومخافة منصوب مفعول له، وهو مصدر بمعنى الخوف كما مر، والسامة بالمد، وعلينا متعلق بمخافة وتعلقه بالسامة بتضمين المشقة تكلف، وإن جاز، وقيل: إنه حال من السامة وهو الأرجح، أو صفة لأنه فى معنى النكرة كقوله تعالى: ﴿كَثَّيْلُ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، وفى إفادة كان التكرار كلام مفصل فى كتب الأصول.

(وعن عائشة، رضى الله عنها، أنها ركبت بعيراً وفيه صعوبة) أى شدة بحيث لا ينقاد لراكبه إذا أوقفه وإذا سيره، (فجعلت تردده) أى تمشى به وترجع، وأصل التردد عدم البقاء على حالة، ومنه تردد الإنسان فى الأماكن لحاجة تعرض له، ومنه التردد فى الخواطر، وإنما فعلت ذلك لتروضه حتى ينقاد لها.

(فقال)، صلى الله تعالى عليه وسلم، لعائشة: «عليك بالرفق». أى استمسكى بالرفق فى أمورك، ولا تتبعى الدابة التى ركبت، ففيه دلالة على شفقتة، صلى الله تعالى عليه وسلم، على خلق الله حتى الحيوانات، وعليك بكسر الكاف اسم فعل يتعدى بنفسه وبالباء كما ذكره النحاة، والبعر بفتح أوله ويكسر وكذا كل فعل ثانیه حرف حلق، ويطلق على الجمل والناقة، وقيل: هو الجمل البازل وهو الموافق للاستعمال، وهذا الحديث أخرجه البيهقى فى سننه عن المقدام، عن أبيه، عن عائشة، رضى الله عنها، أنها كانت على جمل، فجعلت تضربه، فقال لها رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «يا عائشة عليك بالرفق فإنه لم يكن فى شىء إلا زانه، ولا نزع من شىء إلا شأنه»<sup>(١)</sup> وختم بهذا الحديث لما فيه من العموم، فهو كالفلذكة لهذا الفصل.

\* \* \*

### (فصل وأما خلقه ﷺ فى الوفاء)

هو ضد الغدر ونقض الذمة، (وحسن العهد) أى ما عاهد عليه والتزمه، وهو عطف تفسير لما قبله، (وصلة الرحم) هو الإحسان إلى الأقارب والأصهار، والرفق بهم، وعفو زلاتهم، ونصحهم والتودد إليهم، وضده قطع الرحم، وهذا إذا لم يكونوا كفاراً أعداء الله كأبى لهب وأبى جهل، والرحم أصله مقر الولد، ثم استعمل بمعنى القرابة بعيدة أو قريبة بواسطة وبدونها.

(حدثنا القاضى أبو عامر محمد بن أحمد بن إسماعيل) بن إبراهيم الإمام احدث الطليطلى، ولد سنة ست وخمسين وأربعمائة، ومات بقرطبة فى ربيع الأول سنة ثلاث

(١) أخرجه أحمد (٥٨/٦، ٢٢٢)، والبيهقى (١٩٣/١٠).

وعشرين وخمسمائة (بقراءة تلي عليه قال: حدثنا أبو بكر محمد بن محمد) تقدم قال: (حدثنا أبو إسحاق الحبال) بفتح الحاء المهملة وتشديد الموحدة، وهو إبراهيم بن سعيد بن عبد الله المهدي الثقة المشهور، وقد تقدم قال: (حدثنا أبو محمد بن النحاس) تقدم ترجمته قال: (حدثنا ابن الأعرابي) تقدم أيضاً قال: (حدثنا أبو داود) صاحب السنن المشهورة، وقد تقدم قال: (حدثنا محمد بن يحيى) بن عبد الله بن خالد بن فارس النيسابوري الإمام الحافظ الجليل القدر، توفي سنة ثمان وخمسين ومائتين، أخرج له أصحاب السنن وغيرهم قال: (حدثنا محمد بن سنان) بكسر السين ونونين بينهما ألف العوقى بفتح العين المهملة والواو وتسكن وبالقاف نسبة للعوق بطن من عبد القيس غير مشهور قال: (حدثنا إبراهيم بن طهمان) بفتح الطاء المهملة وسكون الهاء، وهو الإمام أبو سعيد الخراساني المشهور، روى عنه أصحاب الكتب الستة، توفي في بضع وستين ومائة، وترجمته مبسطة في الميزان.

(عن بدیل) بضم الباء الموحدة وفتح الدال المهملة وسكون الياء المثناة التحتية ولام ابن ميسرة الفضل.

(عن عبد الكريم بن عبد الله بن شقيق) العقيلي الإمام الثقة.

(عن أبيه) عبد الله بن شقيق الإمام المعروف، توفي في زمن الحجاج.

(عن عبد الله بن أبي الحمساء) بحاء مهملة مفتوحة وميم ساكنة وسين مهملة ومدة العامري الصحابي، وفي المقتفى أنه غير أبي الجداء، وسيأتي حديثه في انتظاره، عليه الصلاة والسلام، إلى يوم ثالث، وشقيق ولد عبد الله أخرج له أبو داود فقط قاله المزى بعد أن بين طرقه عند أبي داود، وليس هو عند غيره، وذكر كلام أبي داود الذي نقله عن محمد بن يحيى شيخه، وذكر زيادة على ما في نسخة عندي من السنن، والظاهر أنه من بعض النسخ، وليس هو من كلام أبي داود ما لفظه كذا، وهو من زوائده، ورواه عثمان بن جرزاد عن محمد بن سنان هكذا، وقال: قال عبد الرحمن بن مهدي: ما أظن إبراهيم بن طهمان إلا أخطأ في عبد الكريم، وإنما هو عبد الكريم بن عبد الله بن شقيق، عن أبيه، عن أبي الحمساء، ورواه أبو عون الزيات عن إبراهيم بن طهمان، فلم يذكر عبد الكريم في إسناده، وقال: عن بشر بن السري، رواه عن عبد الكريم بن عبد الله بن شقيق، وقال البزار: أظن فيه غلطاً من الناقل؛ لأن شقيقاً والد عبد الله جاهلي لا أعلم له إسلاماً، إنما عبد الكريم بن عبد الله بن شقيق عن أبيه قال: إذ لا نعلم أنه روى عبد الله بن أبي الحمساء إلا هذا الحديث، ووقع في الشفاء نسختان إحداهما الخنساء بمعجمة ونون، والأخرى وعن أبي الحمساء بإسقاط عبد الله، والأولى تصحيف، والثانية خطأ؛

لأن أبا الحمساء لا إسلام له، ولا رواية، وإنما الرواية لولده عبد الله بن الحمساء، انتهى.  
 (قال: بايعت النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ببيع) أى باع مبيعاً للنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، (قبل أن يبعث، وبقيت له) أى لذلك المبيع (بقية) لم تسلم له، (فوعده أنه آية بها فى مكانه) أى فى مكان وقع فيه البيع، (فنسيت) الوعد الذى جرى بيننا، (ثم ذكرت بعد ثلاث) أى ثلاثة أيام، ولم يقل ثلاثة لأن المعداد إذا حذف يجوز تذكيره مع المذكور، وتأنيثه مع المؤنث كما قالوه فى قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأتبعه سناً من شوال، وإنما تلزم قاعدة العدد إذا ذكر المعداد.

(فجئت فإذا هو فى مكانه) أى مستقر، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى مكانه لم يفارقه، (فقال: يا فتى لقد شققت على أنا هنا منذ ثلاث أنتظرك)، وفى هذا الحديث دليل على وفائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لعده ووعده، وهذا الحديث رواه أبو داود، وهو من أفراد، وأخرجه أيضاً ابن منده فى المعرفة والخرائطى فى مكارم الأخلاق.

(وعن أنس رضى الله تعالى عنه كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إذا أتى بهدية مبنى للمجهول أى أتاه أحد بهدية (قال: اذهبوا بها إلى بيت فلانة) لم يسمها الرواة، لعدم تعلق غرض بتعيينها، (فإنها كانت صديقة لخديجة رضى الله تعالى عنها)، وفى رواية (أنها كانت تحب خديجة)، وهذا الحديث رواه البخارى فى الأدب المفرد.

(وعن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت: ما غرت على أحد)، وفى نسخة: امرأة من نسائه صلى الله تعالى عليه وسلم (ما غرت على خديجة)، يقال: غار الرجل والمرأة إذا غضب من فعل يقتضى أمراً لا يرضاه، وغيرها كانت من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لشدة محبتها له وإرادتها لصرف محبته لها دون غيرها، وهذا أمر طبعى لا لوم فيه، وأما كون الغيرة من خديجة فلا وجه له بعد موتها.

(لما كنت أسمع، صلى الله تعالى عليه وسلم، يذكرها) تعليل للغيرة، وما مصدرية أى لسماعى ذكرها، ولو شددت لما وجعلت حينية جاز ولكن النسخ متفقة على الأول، وعلى على أصلها، وقيل: إنها بمعنى الباء كما فى قوله: اركب على اسم الله، وقال فى الإكمال: مغاضبة عائشة رضى الله تعالى عنها لرسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الغيرة التى عفى عنها للنساء، حتى ذهب مالك إلى إسقاط الحد عن المرأة إذا قذفت زوجها غيرة منها، ولولا هذا لكان على عائشة، رضى الله تعالى عنها، فى مغاضبتها النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، أعظم الحرج، لأنه كبيرة عظيمة، وقد صرحوا بأنها معفوة عند الله وفى الشرع.



(وإن) بكسر الهمزة وسكون النون وهى مخففة من الثقيلة (كان ليذبح الشاة) ليس المراد أنه كان يذبحها بنفسه، (فيهديها) بضم الياء الأولى، والمراد أنه يهدى منها أو يهديها بتمامها، والظاهر الأول، لأنه فى الحديث: فيهدى ما يشبعها أو يشبعهن (إلى خلالتها) بالخاء المعجمة جمع خليلة. بمعنى الصاحبة والصديقة.

(واستأذنت عليه) أى طلبت الإذن فى الدخول له (أختها) أى أخت خديجة، وهى هالة بنت خويلد بن أسد، وهى أم ابن العاصى بن الربيع الصحابية المشهورة، رضى الله تعالى عنها، (فارتاح إليها) أى حصلت له، صلى الله تعالى عليه وسلم، راحة إذ دخلت عليه، وأظهر البشر والمسرة برؤياها، وهذا الحديث فى البخارى، وفى رواية: ارتاح بالعين بدل ارتاح. بمعنى مال إليها وأعجبه بحيثها مجازًا.

(ودخلت عليه امرأة فهش لها) أى تبسم قليلا، وأظهر المسرة بدخولها كما يفعل الناس بأصدقائهم ومن يحبونهم، يقال: يهش ويهش به إذا فعل ذلك استئناسًا، ويقال: هو هش بش إذا كان طلق الحيا غير عبوس شامخ الأنف كما يفعله المتكبرون.

(وأحسن السؤال عنها) فيه مضاف مقدر بقرينة المقام، وأل فى السؤال للعهد أو بدل من المضاف أى أحسن إليها بسؤاله عن حالها، وما هى عليه كما تقول لمن يزورك: ما حالك؟ وما أنت عليه؟ تطفأ به واعتناء بشأنه كما هو عادة الناس لمن يحبونه، ووقع فى الحديث أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال لها: كيف حالكم؟ كيف أنتم؟ فقالت: بخير، وهو مفسر لما هنا، (فلما خرجت) من عنده صلى الله تعالى عليه وسلم، وذهبت من مجاسه.

(قال) بيانًا لسبب معاملته معها وهى امرأة أجنبية (لأنها كانت تأتينا أيام خديجة) أى أنها كانت فى حياة زوجته خديجة تدخل منزله صلى الله تعالى عليه وسلم، لأنها من معارفها وأصدقائها، (وإن حسن العهد) أى رعاية اليهود القديمة ورعاية من يحبك أو يحب من يحبك (من الإيمان) أى من شعب الإيمان ومقتضياته؛ لأن من كمال الإيمان مودة عباد الله ومحبتهم، كما أنه من تعظيم السيد إكرام عبيده، ومناسبة هذا لما عقد له الفصل ظاهرة.

(ووصفه بعضهم) أى وصف بعض الصحابة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، (فقال: كان يصل ذوى رحمه) أى من صفته التى كانت منه دائمة، وكان تدل على التكرار والدوام كثيرة، وإن لم تكن موضوعة لذلك نحو كان حاتم يقرى الضيف، وكان الله غفورًا رحيمًا، كما فصل فى الأصول، أى يحسن إليهم ويوادهم، ولما كان هذا

يوهم الاختصاص بهم احترس عنه فقال: (من غير أن يؤثرهم) أى يخصهم ويقدمهم (على من هو أفضل منهم) من سائر الناس، وهذا أيضا من حسن العهد.

(وقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: إن آل بنى فلان ليسوا لى بأولياء) الآل بمعنى الأهل والأتباع، وفلان كناية عن الأعلام التى للعقلاء، والمراد هنا كما مر أبو العاصى ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، والكناية من الراوى لا من كلامه صلى الله تعالى عليه وسلم، وأبو العاص هو أبو الحكم بن أبى العاص وكان منافقا فى أول أمره، ثم حسن إسلامه وهو عم عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه، وما ذكر كذا هو فى نسخة البرهان الحلبى.

قال ابن قرقول: وفى الحديث المشهور: «إن آل أبى ليسوا بأوليائى»<sup>(١)</sup> بفتح همزة أبى، قال: وبعد قوله أبى بياض فى الأصول كأنهم تركوا من الاسم بقية، وعند ابن السكن إن آل أبى فلان بالكناية عمن ذكر، وفى بعض الروايات إسقاط آل.

والأولياء جمع ولى، وهو القريب ومن يتولى أمره، أى لا أتولاهم ولا أحسبهم من أوليائى لما علمت منهم، والمراد به القدح كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١] أى لا ولى لهم ولا ناصر.

(غير أن لهم رحما) أى قرابة (سأبْلِها بِلأها) لأن أبا العاص أحد بنى أمية وهم قريون منافقون، وولد أمية العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص وهم الأعياص، وحرب وأبو حرب، وسفيان وأبو سفيان واسمه عنيسة، وعمرو، وأبو عمرو، وأبو سفيان هذا هو صخر بن حرب بن أمية، وهو غير أبى معاوية رضى الله تعالى عنهما، وقوله: سأبْلِها أى سأصل رحمتها بصلتها اللاتقة بها، والبلال بكسر الباء الموحدة مصدر كالقتال، أو جمع بلل كجمل وجمال وهو الأفصح والأصح رواية، وروى بفتح الباء أيضا، والمعنى واحد وهو الرطوبة والنداوة، وكل ما يبل الخلق من المائعات كالماء واللبن، فاستعير للصلة والإحسان كما استعير اليبس للقطيعة والشح.

وفى الحديث: «بلوا أرحامكم ولو بالسلام»؛ لأن الرطوبة والنداوة تجمع الأشياء، واليبوسة تفرقها، وأيضا إن بل الأرض يجعلها منبتة، فاستعيرت لما ذكر لتأليفها للقلوب وتنمية المودة كما قال<sup>(٢)</sup>:

(١) أخرجه البخارى (٧/٨)، وأحمد (٢٠٣/٤، ٢٠٤).

(٢) البيت من الخفيف، وهو بلا نسبة فى الأشباه والنظائر (١٣٤/٨)، الخصائص (٢٩٠/١)، (٢٨٠/٢)، الدرر (١٥٥/٦)، ديوان المعانى (٢٢٥/٢)، رصف المباني (ص ٤١٤).

كيف أصبحت كيف أمسيت مما ينبت الود في قلوب الرجال  
ففيه استعارة مصرحة أو مكنية وتخيلية.

(وقد صلى صلى الله تعالى عليه وسلم) أى دخل فى الصلاة (بأمامة) بضم الهمزة وميمين علم (ابنة ابنته زينب) أكبر بناته صلى الله تعالى عليه وسلم، وتوفيت سنة ثمان من الهجرة، وتزوجها أبو العاص بن الربيع لا ابن ربيعة كما فى البخارى، فإنه غلط مشهور، وولد له منها أمانة، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يحبها، وتزوجها على كرم الله وجهه بعد فاطمة، رضى الله تعالى عنها، ثم تزوجها بعده المغيرة بن نوفل، فماتت عنده.

قال البرهان الحلبي: ليس لزينب بنت رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا لرقية ولا لأم كلثوم عقب، وإنما العقب لفاطمة، رضى الله تعالى عنها، ولذا سادت جميع بناته وأما خديجة، وهى سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم.

وقال السهيلي: فضلت على أخواتها؛ لأنها بضعة منه وزوجة خليفته وأم ریحانيه، ولأنها أصيبت برزء لا يساويه رزء، وهو أبيها صلى الله تعالى عليه وسلم فى حياتها، فصبرت واحتسبت، ومن ذريتها المهدي، وهذا الحديث رواه البخارى فى صحيحه كغيره، وفيه كما يأتى أنه كان إذا سجد وضعها، وإذا قام رفعها المعبر به الحمل الآتى، وقد أشكل هذا على الفقهاء، لأن هذه أعمال كثيرة مبطللة للصلاة، ف قيل: إنه من خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل، إنه منسوخ، وقيل: إنه لا عمل له لأنها لحبتها له كانت تتعلق به وتعلو عليه من غير عمل منه، وقوله: رفعها ووضعها يأباه، وقيل: إنه كان فى النافلة ضرورة، لأنه لم يكن ثمه من يكفيه أمرها، وقال بعضهم: إنه كله باطل لأنه وقع بعد الهجرة وتحريم الأعمال، وكان فى صلاة الصبح وهو يؤم الناس كما ورد التصريح به، فالصواب: أنه عمل قليل لا يبطل الصلاة وكانت مطهرة ليس معها ما يبطل الصلاة قيل: وإنما فعل ذلك صلى الله تعالى عليه وسلم إرغاماً للعرب فى عدم محبتهم البنات.

(يحملها على عاتقه) أى كتفه، وعلى متعلق ييحمل، لا حال من أمانة، أو من ضميره كما يقال.

(فإذا سجد وضعها) على الأرض، (وإذا قام حملها) بيانا للجواز.

وقال الخطابي: إسناد وضعها وحملها مجاز، فإنها كانت تألفه فإذا سجد جلست على عاتقه، فلا يدفعها فتبقى محمولة حتى يركع، فيرسلها فإذا سجد فعلت كذلك، وتقدم ما فيه.

(وعن أبى قتادة) الصحابى الأنصارى فارس رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، واختلف فى اسمه فقيل: الحارث بن ربيع بكسر الراء ابن عمرو، وقيل: النعمان، توفى بالمدينة سنة أربع وخمسين، وقيل: ثمان وثلاثين، وهو ابن سبعين سنة، وروى له أحمد وأصحاب السنن.

(وقد وفد للنجاشى) وفد بمعنى قدم، ويخص بقدوم الرسول، وفد بسكون الفاء اسم جمع بمعنى الوافدين، والنجاشى بفتح النون وكسرهما وتشديد الياء وتخفيفها، واسمه أصحمة، وقيل: صحمة بفتح الصاد وسكون الحاء المهملتين، وقيل: صمحة بتقديم الميم، وقيل: خاؤه معجمة، وقيل: اسمه مكحول بن صصه، وقيل: سليم، وقيل: حازم وهو اسم لكل من ملك الحبشة، وكان رضى الله تعالى عنه ممن أعان المسلمين لما هاجروا إليه، وكتب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأهدى له الهدايا، وزوجه بأُم حبيبة رضى الله تعالى عنها، وكتب له النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام، فأسلم على يد جعفر بن أبى طالب سنة ست، وكان بينه وبين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم محبة عظيمة، فلما توفى فى رجب سنة تسع نعاه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وصلى على جنازته، وبه استدل الشافعى رضى الله تعالى عنه على الصلاة على الغائب على ما تقدم، وقصته مشهورة، ولما توفى خلفه نجاشى آخر دعاه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم للإسلام، فأبى ومات كافرا.

(فقام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يخدمهم بنفسه) تواضعا منه وإرشادا لغيره، (فقال له) أى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم (أصحابه: نكفيك) أى نحن نخدمهم ونكفيك من تعاطى خدمتهم، فأبى صلى الله تعالى عليه وسلم و (قال: إنهم كانوا لأصحابنا) الذين هاجروا لأرضهم (مكرمين، وإنى أحب أن أكافئهم) أى أجازيهم على إكرامهم لأصحابنا بإكرامهم، ولا إكرام أعظم من تعاطيه صلى الله تعالى عليه وسلم أمورهم بنفسه، وهذا الحديث رواه البيهقى فى دلائله مستندا.

(ولما جرى) مبنى للمفعول أى جاء الصحابة، رضى الله تعالى عنهم (بأخته من الرضاعة) بفتح الراء وكسرهما بمعنى الرضاع (الشيما) بفتح المعجمة وسكون المثناة التحتية والميم وهمزة ممدودة، ويقال لها: الشماء بتشديد الميم من غير ياء كما قاله الحب الطبرى، ويحتمل أن تكون الشيماء أصلها شماء فأبدلت إحدى الميمين ياء، كما قيل فى أما أيما، فتكون صفة بمعنى ذات شمم، ثم نقل وجعل علما لها، وهى بنت حليلة السعدية التى أرضعت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: أختها زوج حليلة: هو الحارث بن عبد العزى، وحليمة أسلمت وعدت من الصحابة على ما يأتى، واسمها

جدامة بجيم مضمومة ودال مهملة، وقيل: حذافة بجاء مهملة ودال معجمة وفاء، وقيل: حذافة بمعجمتين، واختلف فى زوجها أبو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من الرضاعة، فلم يذكر أحد من أهل السير إسلامه، ولكن ذكره يونس بن بكير فى روايته، فقال: حدثنا ابن إسحاق عن أبيه عن بعض بنى سعد بن بكر أن الحارث بن عبد العزى أبو رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الرضاع قدم عليه بمكة بعد بعثته، فقالت له قریش: يا حارث ما يقول ابنك هذا؟ فقال: ما يقول؟ قالوا: يزعم أن الله يبعث الخلق بعد الموت، وأن الله دارين يعذب فيهما من عصاه ويكرم من أطاعه، وقد شئت أمرنا وفرق جماعتنا، فأتاه فقال: يا بنى مالك ولقومك، يشكونك ويزعمون أنك تقول لهم: إن الناس يبعثون بعد الموت، ثم يصيرون إلى جنة أو نار، فقال: نعم، ولو كان ذلك اليوم يا أبت أخذت بيدك حتى أعرفك حديثك اليوم، فأسلم وحسن إسلامه، وكان يقول حين أسلم: لو قد أخذ ابنى بيدي فعرفنى ما قال، لم يرسلنى إن شاء الله حتى يدخلنى الجنة، انتهى.

(فى سبايا هوازن) السبايا جمع سبية بمعنى مسبية أى مأسورة، وهوازن اسم قبيلة من بنى سعد بن بكر سميت باسم الأب الأعلى كتميم، وهو هوازن بن نصر بن عكرمة بن حفصة بن قيس بن غيلان بن نصر، والمراد بكونها فيهم أنها كانت مسبية معهم أيضاً.

(وتعرفت له) يقال: تعرف له إذا أعلمه باسمه وشأنه، فهى أعلمته صلى الله تعالى عليه وسلم أنها أخته رضاعاً، فقال لها صلى الله تعالى عليه وسلم: ما علامة ذلك؟ فقالت: عضة كنت عضضتنيها فى ظهري، فعرف ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصدقها، جواب لما (بسط لها رداءه) أى فرشها لها لتجلس عليه إكراماً لها.

(وقال لها) بعد ما جلست عنده (إن أحببت أقمت عندى) مفعول أحببت مقدر تقديره أحببت الإقامة عندى، وهذا يدل على أنها أسلمت كما تقدم (مكرمة محبة) بالنصب على الحالية فيهما، ومكرمة بضم أوله وسكون ثانيه وتخفيف راءه اسم مفعول من أكرمه إذا فعل به ما يحبه من إحسان قولاً وفعللاً، وكذا محبة فإنه مفعول من أحبه، ويقال: حبه وأحبه بمعنى، والأكثر الأوضح فى اسم المفعول أن يكون من الثلاثى، فيكثر فيه محبوب، ويقل محب لكنه هنا أحسن لاقتراحه بمكرم، وعليه الاستعمال كقوله عنتره:

وإذا نزلت فلا تظنى غيرى منى بمنزلة المحب المكرم

وقولها جارية خدية مكرمة محبة، وجبروا ذلك فصاغوا اسم الفاعل من المزيد فقالوا: محب، ولم يقولوا: حاب.

(أو تمتعتك ورجعت إلى قومك، فاختارت قومها فمتعتها) ورجعت لقومها وتفصيله ما قاله أصحاب السير أنه لما قدمت أخته الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى، وعرفته صلى الله تعالى عليه وسلم بنفسها، فعرفها وبسط لها رداءه، وأجلسها عليه، وخيرها فاختارت الرجوع لقومها وأرضها، وأن يمتعها بالإحسان إليها فأعطاهما عبداً وجارية، وقال ابن عبد البر، رحمه الله: إنها أسلمت فأعطاهما ثلاثة أعبد وجارية ونعماً وشاء، وهذا منه صلى الله تعالى عليه وسلم صلة لرحمه؛ لأن الرضاع له حكم النسب والقربة، واللبن للأبوين.

(وقال أبو الطفيل) بضم الطاء المهملة وفتح الفاء منقول من مصغر الطفل جعل علماً لعامر بن وائل بالثاء المثلثة الكنانى الصحابى، وهو آخر من مات من الصحابة، ووقع فى بعض النسخ ابن أبى الطفيل، وليس بصحيح كما قاله البرهان الحلبي.

(رأيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأنا غلام) الغلام كما فى الكفاية المتحفظ عن بعض أهل اللغة الصبى إذا فطم إلى سبع سنين، ثم يصير يافعاً إلى عشر حجج، وقد يطلق الغلام على الشاب التام الرجولية، والمراد هنا الأول.

(إذ أقبلت امرأة حتى دنت منه) أى قربت من مكانه الجالس فيه، وفى بعض النسخ تأخير قوله: وأنا غلام عن قوله: إذ أقبلت إلى آخره، وهذا الحديث رواه أبو داود فى سننه بسند حسن، فقال: حدثنا ابن المثنى قال: حدثنا أبو عاصم قال: حدثنى جعفر بن عمارة قال: أخبرنا عمارة بن ثوبان أن أبا الطفيل أخبره قال: رأيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقسم لحماً بالجعرانة، وأنا يومئذ غلام أحمل لحم الجزور إذ أقبلت امرأة وساقه، وقوله، إذ يحتمل أن تكون ظرفاً لرأيت أى رأيته وقت إقبال المرأة، ويحتمل أن تكون للمفاجأة بتقدير بينا أى رأيته يقسم لحماً، وبينما هو كذلك إذ أقبلت امرأة إلى آخره، أو هى بمعنى قد، والوجه هو الأول، وفى هذا دليل على قبول رواية الصغير، وفيه كلام مفصل فى مصطلح الحديث. قالوا: وهذه المرأة هى حليلة أمه صلى الله تعالى عليه وسلم من الرضاع مجيئها له صلى الله تعالى عليه وسلم كما فى الاستيعاب. كان يوم حنين، وقال الحافظ الدمياطى، رحمه الله: وزوجها لا نعرف له صحبة ولا إسلاماً، وما قاله ابن عبد البر من أنها أخته صلى الله تعالى عليه وسلم يوم حنين وبسط لها رداءه، وروى عنه، وروى عنها عبد الله بن جعفر لم يصح، وابن جعفر لم يدركها، وإنما التى جاءت هى بنتها الشيماء، وأما حليلة فإنها جاءت صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة قبل النبوة فى زمن خديجة رضى الله تعالى عنها، فأعطاهما أربعين شاة وجملاً، ثم انصرفت لأهلها، وما هنا يقتضى مجيئها له، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعد النبوة

بالجعرانة بعد انقضاء حرب هوازن، ومجىء وفدهم، وليس كذلك، إنما هي ابتها.

وجوز الذهبي، رحمه الله تعالى، أن تكون المرأة التي جاءتة ثوبية مولاة أبي هلب الآتي ذكرها، ويرده أنها ماتت سنة سبع قبل هوازن، ولما فتح مكة سأل عنها ابنها مسروجاً، فأخبره بموتها، وصحح بعضهم خلافه ذكره ابن الجوزي في الوفاء.

وصنف الحافظ مغلطاي جزءاً في إسلامها سماه النعمة الجسيمة في إثبات إسلام حليلة، وأيده وارتضاه علماء عصره ومن أنكره أبو حيان.

(وعن عمرو بن السائب) عمرو بفتح العين وبالواو، وهو ابن واش المصري، وقيل: إنه عمر بالضم وحذفها، قال الحلبي: والفتح غلط، وصوابه الضم كما ذكر ابن حبان، وقال: إنه من الثقات، وروى عن أسامة بن زيد، وروى عنه جماعة، وأخرج له أبو داود فقط كذا قاله التلمساني في حواشيه، وهو من أجلة التابعين، وهذا الحديث رواه أبو داود بلاغاً كما قاله السيوطي في تحريجه.

(أن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان جالساً يوماً) قيل ظاهره: أن عمرًا شاهد هذه القضية وهو تابعي، والحديث من مرسل زيد كما في سنن أبي داود قال: عن أحمد بن سعيد الهمداني قال: حدثنا ابن وهب قال: حدثني عمرو بن الحارث أن عمرو بن السائب حدثه أنه بلغه أن رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان جالساً إلى آخره، فلو ذكره المصنف كما قاله أبو داود كان أولى.

(فأقبل أبوه من الرضاعة) وهو الحارث بن عبد العزى، وقد تقدم الكلام فيه وفي إسلامه وكون الزوج للرضعة يسمى أبا، ويثبت بإرضاع زوجته معنى له حكم النسب كما أن الرضعة أمه، لأن الفحل محرم، وإن لم يكن له حكم النسب من كل وجه، وإليه ذهب الفقهاء كافة غير الظاهرية، والكلام عليه مفصل في كتب الفروع.

(فوضع له) صلى الله تعالى عليه وسلم، (بعض ثوبه) وفرشه له في الأرض ليجلس عليه، (فقعده عليه ثم أقبلت أمه) وهي حليلة كما مر، (فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر، فجلست عليه، ثم أقبل أخوه من الرضاعة، فقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فأجلسه بين يديه) يعني أنه أجلس أباه عن يمينه، وفرش له جانباً من ثوبه، وأجلس أمه حليلة عن يساره، وفرش تحتها جانباً من ثوبه إكراماً لهما، فلما قدم أخوه، وهو عبد الله بن الحارث بن عبد العزى لم يبق جانب من ثوبه يفرشه، فقام له صلى الله تعالى عليه وسلم لثلا يقصر في توقيره عن أبويه، وفيه دليل على أنه يجوز القيام تعظيماً لمن يستحق التعظيم خلافاً لمن قال: إنه مكروه مطلقاً، وللنبي ﷺ عدة مرضعات منها

حليمة هذه، وثوية مولاة أبى لهب الآتية، وخولة بنت المنذر بن زيد بن ليبد، وأم أيمن، وثلاث نسوة من سليم تسمى كل واحدة منهن عاتكة، وهو أحد القولين فى قوله صلى الله تعالى عليه سلم أنا ابن العواتك، وقيل: إنهن جدات له ومعنى عاتكة متضمنة بالطيب.

(وكان) صلى الله تعالى عليه وسلم (يبحث إلى ثوية) علم منقول من تصغير الثوب، وهى (مولاة أبى لهب مروضته) أى جارية معتقة له، وأبو لهب كنيته واسمه عبد العزى، وكنى بذلك لتوقد لونه، وذكر بهذه الكنية فى القرآن للإشارة إلى أنه جهنمى، كما مر.

(بصلة) أى عطية يحسن بها لها، (وكسوة) بضم الكاف وكسرهما أى ثياب تلبسها، (فلما ماتت) بمكة بعد هجرته، عليه الصلاة والسلام، (سأل من بقى من قرابتها) أى عمن بقى، فهو منصوب بنزع الخافض، أو تقديره: وقال من بقى، فهى إما موصولة أو استفهامية، والقرابة مصدر بمعنى قرب النسب، وسمع اسم جمع بمعنى الأقرباء كما ذكره ابن مالك وغيره خلافاً للحريرى إذ أنكره، وقال: لا يقال للأقرباء قرابة، وإنما يقال: ذو قرابة كما قال الشاعر<sup>(١)</sup>:

ييكى عليه غريب ليس يعرفه      وذو قرابته فى الحى مسرور

(فقيل: لا أحد) أى لا أحد من قرابتها باق، وأحد مرفوع بفعل مقدر أى لم يبق، أو مرفوع اسم لا العاملة عمل ليس، أو مفتوح اسمها والخبر مقدر عليهما، وقوله: وكان إلى هنا سقط من بعض النسخ، وما ذكر من حسن الوفاء وصلة الرحم، وفيه من مكارم أخلاقه وحسن عهده صلى الله تعالى عليه وسلم ما لا يخفى، وهذا الحديث رواه الواقدي وغيره، وأما إرضاع ثوية له صلى الله تعالى عليه وسلم، فثبت فى الصحيحين، وهى أول من أرضعته مع ابنها مسروح المتقدم ذكره أياماً قبل حليمة، وأرضعت قبله عمه حمزة وأبا سلمة، واختلف فى إسلامها، فأثبت بعضهم وعدّها فى الصحابة، وأنكره أبو نعيم، وكان أبو لهب أعتقها لما بشرته بولادة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ورئى فى المنام وهو يقول: خفف عني العذاب بإعتاقى ثوية لما بشرتنى به، وفى السير أنه أعتقها قبل ولادته بدهر طويل، وهو المروى فى غير السير، وفى المواهب ما يخالفه، والذى رآه فى المنام بشر حية بفتح الحاء المهملة أو بكسرها وياء مثناة تحتية وباء موحدة، وقيل: إنه بخاء معجمة، وقيل: بجيم وهو تصحيف أى بسوء حال، فهو الحوبة

(١) البيت من البسيط، وهو لعثير بن ليبد، أو لحريث بن جبلة كما فى لسان العرب (٢٩٣/٤)، تاج

العروس (٣٤٩/١١).



وهي المسكنة والحاجة، قالوا: وانقلبت ياء لانكسار ما قبلها، أو على خلاف القياس، وتخفيف عذابه بسبب ما ذكر لا يعارض قوله تعالى في أعمال الكفرة: ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبْأَةً مَّقْشُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]؛ لأنه بعد الحشر، أو لأنه لما لم ينجمهم من النار فكأنه لم يفدهم أصلاً، وتفصيله في حواشينا على القاضي.

(وفي حديث خديجة، رضي الله تعالى عنها)، الذي رواه الشيخان عن عائشة رضي الله تعالى عنها بسند صحيح (أنها قالت له: صلى الله تعالى عليه وسلم في ابتداء أمره لما رأى جبريل، عليه الصلاة والسلام، فحصل له به رعب شديد (أبشّر) أمر بفتح الهمزة، وهي همزة قطع يقال: أبشّر وبشّر. بمعنى، ويجوز وصلها وفتح الشين من بشر يبشّر كعلم يعلم، وهو أمر المقصود منه تعجيل المسرة بالبشرى التي بعده، وهو إنشاء أريد به الخير أي أنى مبشرة لك، والبشرى الخبر السار الذي يظهر أثره في البشارة.

(فوالله لا يخزيك الله)، وهذا الحديث تقدم شرحه في فصل الجود والكرم، ومر أن في يخزيك روايتين ضم الياء وإعجام الحاء من الخزي، وهو النكال والفضيحة، وبه روى لفظ المصنف هنا كما ذكره البرهان الحلبي، وإهمال الحاء من حزن وأحزن وهي دون الأولى، فلذا تركها المصنف رحمه الله تعالى، وروى لا يخزيك الله أبداً عن الزهري بزيادة أبداً.

(إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق)، وقد مر ذلك مبيناً.

\* \* \*

### (فصل وأما تواضعه ﷺ)

التواضع بضم الضاد المعجمة إظهار أنه وضع، وهو أشرف الناس، فالصيغة للتكلف في الأصل (على علو منصبه) قد قدمنا لك أن المنصب في كلام العرب بمعنى الأصل والحسب كما في قول أبي تمام:

ومنصبب ثمناه      ووالد سمناه

وأن استعماله في تولى الأعمال السلطانية كقول ابن الوردي<sup>(١)</sup>:

نصب المنصب أوهى جلدى      وعنائى من مداراة السفلى

مولد لم يسمع من العرب، ولذا عطف عليه قوله: (ورفعة رتبته) فهو كالتفسير له، والرتبة كالمنزلة رفعة القدر، (فكان صلى الله تعالى عليه وسلم أشد الناس تواضعاً)

(١) البيت من الرمل، وهو في ديوان ابن الوردي (ص ٤٣٨)، تاج العروس (٤/ ٢٨١).

منصوب على التمييز، (وأقلهم كبرا)، وفى نسخة وأعدمهم كبرا وفى نسخة بالجمع بينهما، وهو أفعّل تفضيل من العدم، وهذا أنسب بمقامه صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأن اللائق به عدم الكبر لا قتله، ووجه هذه البرهان الحلبى بأن القلة بمعنى النفى، وقال أبو حيان فى قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]: إن التقليل يرد بمعنى النفى الحض كما فى قولهم: أقل رجل يقول ذلك، وقل رجل يقول ذلك، وقلما يقوم زيد، وقليل من الرجال يقول ذلك.

وقال الحافظ السخاوى فى كتابه جواهر الدرر فى مناقب شيخه ابن حجر: إن ابن حجر رحمه الله تعالى سئل عن هذه العبارة، وأن بعضهم شنع على المصنف فيها وعماها من النسخ، فأجاب بأن الاعتراض باطل، لأنهم تكلموا على الحديث الذى رواه النسائى عن عبد الله بن أبى أوفى، قال: كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يكثّر الذكر ويقل اللغو، فقالوا، يقل اللغو بمعنى لا يبلغو أصلاً.

قال ابن الأثير فى النهاية: لأن قل يستعمل فى النفى كما فى الآية السابقة، فمعنى هذه النسخة أنه لا يقع منه صلى الله تعالى عليه وسلم كبر أصلاً كما فى الحديث الصحيح، وليس أفعّل فيه للتفضيل، فإنه قد يخرج عنه كما فى قوله تعالى: ﴿أَمْحَبُّ الْجَنَّةَ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: ٢٤]، ومثله أفض وأغلظ، فإنه بمعنى فظ غليظ أى كما مر، وقال المصنف فى شرح مسلم: يصح حمله على المفاضلة، والقدر الذى فيه منه إغلاظه على الكفرة والمنافقين، كقوله تعالى: ﴿جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يغلظ عليهم، ويغضب عند انتهاك حرّمات الله انتهى.

فقوله: أقلهم كبرا بمعنى انتفاء الكبر عنه البتة، أو يحمل على شدته على الكفار والمنافقين كما فى الذى قبله، لأن تواضعه صلى الله تعالى عليه وسلم ورافته كانت بالمؤمنين، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقوله فى التوراة: ليس بفظ ولا غليظ أى بالمؤمنين، ونظيره: ﴿أَشِدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. بمعنى أذلة على المؤمنين عاطفين عليهم، أعزة على الكافرين متكبرين عليهم يعادونهم، فلا معنى لمحو النسخ وإتلافها انتهى.

واستدرك عليه عز الدين الحنبلى بأن تأويله الشدة والغلظ بكونها على الكفار والمنافقين فيه أن شدته وغلظه على نحو هؤلاء كانت أشد من عمر رضى الله تعالى عنه بلا شك، انتهى.

أقول: الجواب الحق هو الثاني، لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان متخلقاً بأخلاق الله تعالى عز وجل، ومنها التكبر، فاتصافه صلى الله تعالى عليه وسلم بهذه الصفة مدح في محلها ولذا قيل: التكبر على التكبر صدقة، فالتكبر على الكفرة والمنافقين أحياناً في محله ممدوح، وهو في صفاته تعالى ذاتي لا ينازعه أحد رداءه إلا قصمه الله، والجواب الأول تعسف، وليس من قبيل قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨].

وأما تأويل التفضيل بالنفى، وخلع المفاضلة منه، فمجاز على مجاز، وضغت على إباله، وما اعتراض ابن الحنبلي فلا وجه له، ولبعض الشراح والمحشين هنا كلام ركيك تركه خير منه.

(وحسبك) أى يكفيك في إثبات ما ذكر (أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، خير بين أن يكون نبياً ملكاً) بكسر اللام أى سلطاناً، وخير مبنى للمجهول أى خيره الله على لسان ملائكته في الحديث المشهور، (أو نبياً عبداً، فاختر أن يكون نبياً عبداً)، فخيره الله بعد تفضيله بالرسالة أن يكون شأنه كالمملوك فى اتخاذ الجنود والحجاب والخيل والخدم والقصور، فاختر مع الرسالة العامة مقام العبودية، والخدمة بنفسه فى مهنة أهله تواضعا منه صلى الله تعالى عليه وسلم وزهداً فى الدنيا، ولذا وصفه الله تعالى بالعبودية فى عظيم مقاماته كقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، وهذا من حديث صحيح رواه أحمد عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، والبيهقى، عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما.

(فقال له إسماعيل عند ذلك) أى حين اختار العبودية على الملك: (فإن الله قد أعطاك) هذه الفاء فصيحة عاطفة على مقدر أى أصبت وجزاك الله خيراً ممن تركته (بما تواضعت له) الباء سببية، وما مصدرية أى بسبب تواضعك له (أنك سيد ولد آدم) بفتح همزة أنك، وهى وما بعدها مفعول أعطى، والسيد من يفوق غيره فى الشرف، وهو يطلق على الله تعالى وعلى غيره فى أصح الأقوال المشهورة، وخصه بقوله: (يوم القيامة) لأنه لا أعلى من هذه السيادة حيث يسود صلى الله تعالى عليه وسلم، فيه على الرسل وسائر البشر، وفيه نكتة لتبين اضمحلال كل ملك لفنائيه حيث يقول الله تعالى: ﴿لَيْمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، لسائر مخلوقاته فتدبر.

(وأول من تنشق عنه الأرض) معطوف على سيد خير أن، وانشقاق الأرض لتخرج الموتى من قبورهم للبعث، فلا يتقدمه صلى الله تعالى عليه وسلم أحد حينئذ، وأما حديث فإن الناس يصعقون أى يغشاهم غشية كالموت يوم القيامة، فأصعق معهم، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان ممن صعق، أو

كان ممن استثنى الله تعالى بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]، فلا ينافيه لأن هذه الصعقة كما قاله التوربشتى صعقة فزع بعد البعث، ويؤيده قوله: يوم القيامة.

(أول شافع) يوم القيامة أو فى الجنة لرفع درجات الناس؛ لأن مقام الشفاعة متعدد، وفى قوله أول إشارة إلى أن غيره من الملائكة وغيرهم يشفعون بعد ذلك.

واعلم أن سفير الوحى بين الله ونبينا صلى الله تعالى عليه وسلم جبريل، عليه الصلاة والسلام، وعن الشعبى أن إسرائفيل، عليه الصلاة والسلام، كان يأتيه صلى الله تعالى عليه وسلم بالوحى فى أول بعثته، ويتزأى له ثلاث سنين، ويأتيه بالكلمة والشىء، ثم وكل به جبريل، عليه الصلاة والسلام.

قال ابن عبد البر فى الاستيعاب: أنزلت عليه صلى الله تعالى عليه وسلم النبوة، وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوته إسرائفيل، عليه الصلاة والسلام، ثلاث سنين، فكان يعلمه الكلمة والشىء ولم ينزل عليه القرآن على لسانه، فلما مضت ثلاث سنين قرن به جبريل، عليه الصلاة والسلام، فنزل القرآن عليه عشر سنين، وفى شرح البخارى لابن التين: ميكائيل بدل إسرائفيل، ونقل البرهان عن ابن الملقن أن المشهور أن الذى ابتدأه بالوحى جبريل، عليه الصلاة والسلام، وأنكر الواقدى كون غير جبريل وكل به، وقال السيوطى، رحمه الله تعالى، فى كتاب الحباثك: لم أقف على أن جبريل أفضل أو إسرائفيل، ثم نقل أحاديث متعارضة فى ذلك، وفيه أيضاً أن إسرائفيل نزل عليه ﷺ بآية ذكرها.

(حدثنا الفقيه أبو الوليد بن العواد الفقيه) بفتح العين المهملة وتشديد الواو وألف ودال مهملة، وهو هشام بن أحمد القرطبى وقد تقدمت ترجمته (بقراءة عليه فى منزله بقرطبة سنة سبع وخمسمائة)، وفى هذه السنة توفى رحمه الله تعالى (قال: حدثنا أبو على الحافظ) الغسانى، وقد تقدم، والحافظ إذا أطلق يراد به حافظ الحديث بالرواية قال: (حدثنا أبو عمر) يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمرى القرطبى الإمام الجليل صاحب التأليف المشهورة كما تقدم قال: (حدثنا ابن عبد المؤمن) أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن كما تقدم قال: (حدثنا ابن داسة) أبو بكر بن محمد بن بكر، وقد تقدم، وأن داسة بدال وسين مهملتين مفتوحتين بينهما ألف قال: (حدثنا أبو داود) صاحب السنن المتقدم قال: (حدثنا أبو بكر بن أبى شيبه) عبد الله بن محمد بن أبى شيبه العبسى أحفظ أهل عصره، له ترجمة فى الميزان مفصلة، وأخرج له الأئمة الستة.

قال النووى: أبو بكر بن أبى شيبه منسوب إلى جده عبد الله بن محمد بن إبراهيم

ابن عثمان بن خواستی بخاء معجمة مضمومة، ثم واو مخففة، ثم ألف ثم سين مهملة ساكنة، ثم تاء مثناة من فوق مكسورة، وأبو شيبة هو إبراهيم وغلب على أولاد ابنه النسب إليه، وهم ثلاثة عبد الله هذا وهو مشهور بكنيته، وعثمان، وقاسم، فأما عبد الله وعثمان فإمامان حافظان من أحفظ أهل عصرهم، وهما شيخا البخارى ومسلم، وأما القاسم فليس كهما، بل ترك التحديث عنه أبو زرعة وأبو حاتم الراويان الحافظان، وأبوهم محمد ثقة، وجدهم إبراهيم ضعيف قال: (حدثنا عبد الله بن نمير) بالنون تصغير النمر الهمداني أبو هشام بن هشام بن عروة الأعمش الحافظ، أخرج له أصحاب الكتب الستة، وتوفى سنة تسع وتسعين ومائة.

(عن مسعر) بكسر الميم وسكون السين وفتح العين المهملتين وراء مهملة، ومعناه موقد النار، ويقال: هو مسعر حرب للشجاع، وهو مسعر بن كدام أبو سلمة الهلالي الكوفي المسمى بالمصحف، لإتقانه وحفظه، ومن أخرج له الستة، وتوفى سنة خمس وخمسين ومائة، وله ألف حديث.

(عن أبي العنيس) بفتح العين المهملة وسكون النون وفتح الباء الموحدة وسين مهملة، وهو الحارث بن عبيد بن كعب العدوي الكوفي لم يخرج له غير أبي داود، وذكره في الميزان، ولم يذكر فيه شيئاً.

(وعن أبي العدبس) بفتح العين والdal المهملة وتشديد الباء الموحدة المفتوحة وسين مهملة، وهو تبيع بن سليمان الأسدي، ويقال: الأشعري الكوفي، وتبيع بضم المثناة الفوقية ثم باء موحدة وعين مهملة بزنة المصغر كما في الميزان، وتهذيب الذهبي والإكمال إلا أن أبا الخليل الحافظ كتب في حواشيه أن هذا وهم منه، وإنما هو منيع بالميم بدل المثناة كما قاله البرهان الحلبي.

(عن أبي مرزوق) التجيبي، واسمه كنيته، وله ترجمة في الميزان قال فيها: إن ابن حبان قال: إنه لا يحتج بما انفرد به.

(وعن أبي غالب) الراسبي، واسمه خرور، وقيل: سعيد بن خرور، وقيل: نافع، وروى عنه أصحاب السنن، واختلفوا في ضعف روايته، ومنهم من وثقه.

(عن أبي أمامة، رضي الله تعالى عنه)، الباهلي أو السهمي، وهو صدى بن عجلان ابن وهب، توفى سنة إحدى أو ست وثمانين، وأخرج له الستة، وهو من بقايا الصحابة بمحصر، وهذا الحديث رواه أبو داود، وابن ماجه مسنداً.

(قال: خرج علينا رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، متوكفاً بكاف مشددة

مكسورة وهمزة أى معتمداً متحاملاً، وهو منصوب على الحال (على عصا)، وقال ابن عباس: التوكؤ على العصى من سنن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وكان له صلى الله تعالى عليه وسلم عصى منها قضيب ومخصرة قصيرة ومحجن، وكانت فى يده إذا خطب، وكانت عند الخلفاء، وقال فيها الصرصرى رحمه الله تعالى كما مر:

وعصاه لما مسها بيمينه فضلت عصا صارت إلى ثعبان  
(فقمنا له) تعظيماً وإجلالاً.

(فقال: لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً) هذه الجملة بدل مما قبلها أو مستأنفة استئنافاً بياناً، والأعاجم جمع أعجمى أو عجم على خلاف القياس أو جمع أعجام جمع جمع، وهم من عدا العرب، وقد يختص بفارس، وقد اختلف العلماء فى القيام للتعظيم المعتاد، هل هو مكروه أم لا؟ فقيل: مكروه استدلالاً بهذا الحديث، وبحديث «من أحب أن يتمثل له الناس قياماً وجبت له النار» ونحوه حتى ذهب بعضهم إلى حرمة، والأحسن ما قاله القاضى زكريا فى شرح الروض أنه مستحب لأهل العلم والصلاح وللحكام والعدول، بل قد يجب إذا خشى من تركه ضرراً كجبايرة الملوك، ويستحب لمن قدم من سفر، ولذوى الأرحام تكرماً وبراً لهم، ويدل على ذلك قوله صلى الله تعالى عليه وسلم، للأنصار لما قدم عليهم سعد، رضى الله تعالى عنه: «قوموا لسيدكم» والنهى عنه إنما هو ما كان على سبيل الرياء والتكبر، وحمل حديث سعد على أنه كان مريضاً، وقدم مكة راكباً، فأمرهم صلى الله تعالى عليه وسلم بالقيام ليعينوه فى النزول عن خلاف الظاهر كما مر، وقد فعله صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان يقوم لفاطمة، رضى الله تعالى عنها، إذا جاءته، وإنما نهاهم لئلا يظنوه سنة ويتخذوه عادة.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم: (إنما أنا عبد) الحصر فيه إضافى أى لست بسلطان، ثم إنه أريد بالعبد معناه العرفى وهو الرقيق المملوك للناس، فهو استعارة فشبه نفسه تواضعاً لله بالرقيق، لتعاطيه خدمة نفسه فى بيته، فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم كما يأتى كان يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويكنس بيته، ويلبس الغليظ.

فقوله: (أكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد) بيان لوجه الشبه، وإن أراد عبد الله، وكل الناس عبيد الله المملوك وغيرهم سواء فى ذلك، فالمراد أنه متمحض لهذه العبودية لا يشوبها بشىء من أمور الدنيا، ولا تخلق بشىء من أخلاق أهلها فى لباسهم ومأكلهم ومشربهم وفراشهم، فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يجلس على الأرض، ولا يأكل على خوان، ولا يغلق عليه باباً، ولا يتخذ حجاًباً.

(وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يركب الحمار)، وكثير من الأغنياء يأنف من ركوبه، وكان له حمار يسمى عفير، وأخرى يسمى يعفور، وهو مأخوذ من العفرة، وهى التراب لشبه لونه له، وليس اسمين لحمار واحد كما توهم، فإن عفيراً أهده له المقوقس ويعفور أهده له فروة بن عمرو، وقيل: بالعكس، ومات يعفور منصرفه من حجة الوداع، وقيل: ألقى نفسه فى بئر ابن التيهان يوم موته صلى الله تعالى عليه وسلم، وقيل: إنه كان من جنس من الحمير لم يركبه إلا نبى، وإنه كان صلى الله تعالى عليه وسلم يرسله للرجل، فيأتى بابه ويقرعه برأسه، فيعلم أنه يطلبه.

(ويردف خلفه) غيره، ويردف بضم المثناة التحتية بمعنى يجعله رديفاً له أى راكباً خلفه على دابته التى ركبها، ويقال، ردف وأردف، أصله الركوب على الردف، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يجعل غيره قدماه أيضاً، ولم يذكر المصنف من أردفه إشارة لعمومه، فيشمل الذكر والأنثى والصغار والكبار، وقد ذكروا أن من أردفه صلى الله تعالى عليه وسلم، بلغ أربعين فى سفره وحضره، وهذا من تواضعه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهم أسامة بن زيد، رضى الله عنه، مرجعه من عرفة، والصديق، رضى الله عنه، فى الهجرة، وعثمان رضى الله عنه، راجعاً من بدر، وعلى كرم الله وجهه فى حجة الوداع، وعبد الله بن جعفر رضى الله عنهما، بين يديه، وسبطه مع غلامين من بنى هاشم، وأولاد عباس الثلاثة رضى الله عنهم، فى نزوله من المزدلفة، والحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما، ومعوية رضى الله تعالى عنه، ومعاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه، على عفير، وأبو ذر رضى الله تعالى عنه، على حمار، وزيد بن حارثة رضى الله تعالى عنه، وثابت بن الضحاك رضى الله تعالى عنه، والشريد بن سويد رضى الله تعالى عنه، وسلمة بن الأكوع رضى الله تعالى عنه، وزيد بن سهل رضى الله تعالى عنه، وأبو طلحة الأنصارى رضى الله تعالى عنه، وسهيل بن بيضاء رضى الله تعالى عنه، وعلى ابن ابنته زينب رضى الله تعالى عنهما وعبد الله بن الزبير، رضى الله تعالى عنهما، وغلام مطلبى، وأسامة بن عمير رضى الله تعالى عنه، وصفية بنت حى، رضى الله تعالى عنها، مقدمه من خير، وأبو الدرداء رضى الله تعالى عنه، وآمنة بنت أبى الصلت، وأبو إياس، وأبو هريرة، وقيس بن سعد، وخوات بن جبير، رضى الله تعالى عنهم، وجبريل عليه الصلاة والسلام، على البراق فى الإسراء، وأم حبيبة الجهنينة، رضى الله عنها، وزيد بن أرقم رضى الله تعالى عنه، وجابر بن عبد الله رضى الله عنهما، وزاد ابن منده، رحمه الله، غير هؤلاء، ونظمهم أبو ذر بن موفق الدين فقال:

وأردافه جم غفير فمنهم على وعثمان شريد وجبريل

وأولاد عباس ذوو الرشد والتقى	أسامة والدوسى وهو نبيل
معاوية قيس بن سعد صفية	وسبطاه ماذا عنهم سأقول
معاذ أبو الدردا سويد وعقبة	وأمنة إن قام ثم دليل
كذلك خوات ظريف وسبطه	على ووجه النقل فيه جميل
أسامة والصديق ثم ابن جعفر	وزيد وعبد الله ثم سهيل
كذا بنت قيس خولة وابن أكوع	وقدرهم فى العالمين جليل
كذلك زيد جابر ثم ثابت	فعن جهم والله لست أحول
ثلاثة غلمان وزد معهم أبا	إياس وحسبى الله هو وكيل

(و) كان (يعود المساكين، ويجالس الفقراء) الفرق بين المسكين والفقير مشهور فى مبحث الزكاة إلا أن كلا منهما يطلق على الآخر من غير فرق فى العرف، والعبادة سنة للغنى والفقير، وإنما خصها هنا لأنه يعلم منه غيره بالطرق الأولى، والمسكين بكسر الميم وفتحها مأخوذ من السكون، ويكون بمعنى المتذلل الخاضع، ومنه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: (اللهم أحيى مسكيناً وأميتى مسكيناً) وتقدم أنه لا يجوز أن يطلق على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه فقير أو مسكين، وإن أطلقه على نفسه الشريفة.

(ويجب دعوة العبد) إذا علم أنه يجوز له إطعام غيره لكونه مأذوناً ونحوه.

(ويجلس مع أصحابه مختلطاً بهم) فلا يختار مكاناً رفيعاً، ولا يتقدم عليهم. قال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه: حتى كان الغريب إذا أتى ناديه لا يعرفه حتى يسأل عنه، ثم إن الصحابة رضى الله تعالى عنهم سألوه صلى الله تعالى عليه وسلم أن يجعل له مكاناً مخصوصاً حتى إذا أتاه الغريب عرفه وسأله، ففعله من طين تارة يجلس عليه، وتارة يجلس بجانبه (حيثما انتهى به المجلس جلس) حيثما تفيد العموم أى أى مكان وجده خاليا وقت يجيئه يجلس فيه صدرا أو غير صدر، وكل هذا لتواضعه صلى الله تعالى عليه وسلم وإرشاد أئمة.

(وفى حديث عمر عنه) صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا الحديث رواه البخارى (لا تطرونى) مضارع أطراه إذا بالغ فى مدحه وتجاوز الحد فيه قال:

لا يلحق الواصف المطرى مدائحـه وإن يكن محسناً فى كل ما وصفـا

أى لا تمدحونى. قال الجوهري والزيدي: أطريت الرجل مدحته، وقال ابن فارس فى المجمل: أطريته مدحته بأحسن ما فيه، وقال الهروى: الإطراء مجاوزة الحد فى المدح والكذب فيه، وبه فسر الحديث، وقد علمت أن الذى قاله الهروى هو معنى الحديث،



وهو مأخوذ من الطراوة، يقال: طراوة طراءة، ومدحه صلى الله تعالى عليه وسلم مطلوب من كل أحد، والمنهى إنما هو عما لا يليق به، ولذا قال: (كما أطرت النصارى) جمع نصراني منسوب لنصرى أو نصره أو نصورية على خلاف القياس، وتلك القرية كان فيها فى أول أمره (ابن مريم)، فإنهم قالوا فيه: إنه ابن الله وغيره مما هو مشهور، وهذا كقول البوصيرى رحمه الله تعالى:

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم  
وما أحسن قوله العارف بالله عمر بن الفارض تقننا الله تعالى به:

وعلى تفنن واصفيه بحسنه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف  
(إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله) ولا تقولوا ما قاله أهل الكتاب ونحوه،  
فالخصر إضافى.

(وعن أنس) رضى الله تعالى عنه رواه مسلم (أن امرأة) من الصحابة تسمى أم زفر،  
وهى ماشطة خديجة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها، وتردد البرهان الحلبى رحمه الله  
تعالى فيها، هل هى هذه أو غيرها؟ وحزم به غيره.

(وكان فى عقلها شيء) من الجنون، ولم يصرح به إشارة لخفته، وأنها لم تستغرق فيه  
فإن لفظ شيء يشعر بالقلّة.

(جاءته صلى الله تعالى عليه وسلم فقالت: إن لى إليك حاجة) أى لى حاجة أريد أن  
أنهيها إليك، وأعلمك بها.

(قال) لها (اجلسى يا أم فلان) الإبهام من الراوى، لأنه لم يحضره اسمها (فى أى طرق  
المدينة شئت أجلس إليك) مجزوم فى جواب الأمر، وإلى بمعنى عند عبر به للمشاكلة  
(حتى أقضى حاجتك قال) أى أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه (فجلست فجلس  
النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إليها حتى فرغت من حاجتها) التى أعلمته بها تواضعاً منه  
صلى الله تعالى عليه وسلم وملاطفة، وفيه استحباب الملاطفة بمثلها لا من كان فيه جنون  
مطبق، وكانت جارية سوداء تصرع أحياناً، فشكت ذلك للنبي صلى الله تعالى عليه  
وسلم، وقالت: إنى أصرع وأنكشف فادع الله لى فقال: «إن شئت فاصبرى ولك الجنة،  
وإن شئت دعوت الله أن يعافيك»<sup>(١)</sup>، فقالت: أصبر ولكن ادع الله أن لا أنكشف،  
فدعا لها.

(١) أخرجه البخارى (١٥٠/٨)، ومسلم فى البر والصلة برقم (٥٤)، وأحمد (٣٤٧/١)، والطبرانى  
(١٥٧/١١)، وابن حبان (٧٠٨).

وكان ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يقول: ألا أريكم امرأة من أهل الجنة، فيشير إليها، وقيل: إن التي كانت تصرع سعيرة الأسدية.

(وقال أنس) رضى الله تعالى عنه فى حديث رواه بتمامه أبو داود والبيهقى (كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يركب الحمار، ويجيب دعوة العبد) كما تقدم بيانه.

(وكان) صلى الله تعالى عليه وسلم (يوم بنى قريظة) يوم واحد الأيام، واليوم هنا بمعنى الوقعة والغزوة شائع بحيث إذا أطلق إنما يفهم منه هذا، وبنو قريظة بصيغة التصغير والقاف والراء المهملة والطاء المشالة ثم هاء قوم من اليهود بقرب المدينة غزاهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعد غزوة الخندق كما فصل فى السير راكباً (على حمار) وهو صاحب الرياسة والرسالة العظمى تواضعاً منه صلى الله تعالى عليه وسلم، ومن هو من أقل عبيده يركب الخيل فى مثله، ويجتنب الجنائب إظهاراً لشوكره وعظمته بذاته، لا لغرض الدنيا الذى لا يستقر، وما فى بعض الشروح هنا نقلاً عن بعض الحواشى فى ضبط يوم من أنه بفتح الياء التحية والهمزة المضمومة المرسومة واواً والميم المشددة بمعنى يقصد تحريف لا وجه له.

(مخطوم بجمل من ليف) اسم مفعول من الخطام بخاء معجمة وطاء مهملة، وهو ما يقاد به الدابة كالرسن، والليف بكسر اللام والفاء شئ يتخذ من النخل ويقتل حبالا.

(وعليه) أى على الحمار (إكاف) بكسر الهمزة وكاف وألف وفاء بزنة كتاب ويضم كغراب، ويقال: وكاف بالواو وهو رحل يوضع على ظهر الحمار للركوب عليه، أو بعض أدواته وهو البردعة، وهذا من حديث رواه أبو داود والبيهقى كما مر.

(قال) أى أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه (وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة) إهالة بكسر الهمزة وتخفيف الهاء ولام، وهو كل مايؤتدم به من الدهن أو ما يذاب من الإلية أو الدسم الجامد، وسنخة بفتح السين المهملة وكسر النون وفتح الخاء المعجمة وهاء بمعنى متغيرة الرائحة، يقال: سنخ الدهن وزنخ إذا تغير.

(فيجيب) دعوة من دعاه، وهذا الحديث رواه الترمذى فى شمائله وابن ماجه فى سننه.

(قال) أنس أيضاً رضى الله تعالى عنه (وحج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم) بعد الهجرة فى حجة الوداع كما فى البخارى، ويدل عليه قوله الآتى: وقد فتحت عليه الأرض.

(على رطل رطل) الرطل للجمل كالسرج للفرس، فيختص به ورث بفتح الراء المهملة وتشديد المثلثة بمعنى بال خلق، (وعليه قطيفة) أى كساء من صوف له حمل (ما تساوى أربعة دراهم) أى لو قومت لم يكن قيمتها أربعة دراهم، ويقال: هذا يساوى ويسوى كذا لقيمتة، والحج من أعظم شعائره التواضع، وإظهار الافتقار إلى الله تعالى، ومنع النفس من التلذذ والملابس، ولذا شرع الإحرام فيه، والتجرد فى الموقف لذكر الموقف الحقيقى، والعرض على الله، وهذا من محاسن التشريع والإرشاد للإخلاص، ولذا قال ثمة: (فقال: اللهم اجعله) أى اجعل حجى هذا (حجاً مبروراً لا رياء فيه ولا سمعة) بل خالصاً لوجهك الكريم، والرياء مشتق من الرؤية، وهو ما يفعل من عبادة ونحوها لأجل أن يراه الناس، فيمدحوا صاحبه به.

والسمعة بضم فسكون ما يفعل ليشيع ويسمع الناس به، وهما بمعنى بحسب لما صدق، وإن اختلف مفهومهما، ومنهم من فرق بينهما، فإن عبد السلطان إذا عمل عملاً ليراه سيده وحده رياء لا سمعة، ومن أشاع أمراً لم ير سمعة لا رياء فيه، وقال القرافى فى قواعده: الرياء موجب للإثم والبطلان عند كثير لظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ [البينة: ٥]، وهو أن يعمل لله مع قصد نفع من العباد، وهذا رياء الشرك، وأن يعمل للناس فقط ويسمى رياء الإخلاص، وهو لأغراض شتى، والتشريك كمن جاهد طاعة لله مع قصد الغنيمة، وهذا يضرب بنقص الثواب ولا يحرم بالإجماع، بخلاف من فعل ليقال: إنه شجاع، أو ليحظى عند الإمام، أو يكثر عطاؤه، وهو محرم ليس كقصد الغنيمة من العدو، ومن حج وشرك مع الحج المتجر لا يأثم، ولا يقدح ذلك فى صحة حجه، ولو كان جل قصده أو كله التجارة كمن صام ليصبح بدنه ويحتفى، فهذا لا يقدح فى فعله، لأن الشارع أمر به فى حديث: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء) أى قاطع للشهوة، فأمر بالصوم لغرض آخر غير العبادة، ولو كان قادحاً لم يأمر به كمن توضأ للتبريد والتنظيف، فإنه فيه أغراضاً ليس فيها تعظيم غير الله بفعله، فإنه هو المضر انتهى.

والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم معصوم من الرياء والسمعة، وإنما دعا بذلك تعليماً لأمتة، وتواضعاً كقول يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٣] لأن التقشف قد يدخله الرياء بإظهار الزهد.

(هذا) أى فعله صلى الله تعالى عليه وسلم هذا، واختياره رث الثياب والمركب ليس عن عجز.

(وقد فتحت الأرض عليه) صلى الله تعالى عليه وسلم، وفتح يتعدى بعلى لما جاء

كثيراً بسهولة من الله، كأنه أفاضه عليه، وفتح الأرض إن أريد به بعضها كالحجاز فظاهر، وإن أريد جميعها، فقد تمكنه صلى الله تعالى عليه وسلم منها بمنزلة وقوعه مر، وفى الحديث عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «أتيت بمقاليد الدنيا على فرس أبلق عليه قطيفة سندس»<sup>(١)</sup>، وفى رواية «مفاتيح خزائن الأرض فوضعت بين يدي»<sup>(٢)</sup>، وهو محمول على ظاهر ﴿وَعِنْدُ مَفَاتِيحِ الْغَيْبِ لَا يَمْلِكُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، أو هو كناية عن أن الله مكنه من ذلك، ولو أن الله تعالى أراه صرفه بالفعل فيها وقاد جميع أهلها له.

(وأهدى فى حجه ذلك مائة بدنة) أهدى بمعنى بعث الهدى بوزن الرمى مخفف الياء، وقد تشدد فتكسر داله وهو ما يرسل للبيت الحرام لينحر فيه، ويتصدق به من الإبل والبقر، وكذا البدنة تطلق على الجمل والناقة والبقرة، وأكثر ما تطلق على الإبل، وقد يسمى الإبل مطلقاً هدياً، وسميت بدنة لكبر بدنها.

وفى البخارى: لما حج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حجة الوداع أهدى مائة بدنة نحرها، وقسم لحمها وجلودها وجلالها، ونحر بيده منها جملة، ثم أمر عليها، كرم الله وجهه، بنحر باقيها، واختلف فيما نحره صلى الله تعالى عليه وسلم بيده الشريفة أهو ثلاثون أم ستون؟

(ولما فتحت عليه مكة، ودخلها بجيوش من المسلمين) وذلك فى شهر رمضان ثالث عشرة أو سادس عشرة أو ثامن عشرة، وصحح النووى، رحمه الله، أنه تاسع عشرة، واختلف فى الجيوش أيضاً، فقليل: اثنا عشر، وقيل: عشرة آلاف، وقيل: ثمانية.

(طأطأ على رحله رأسه حتى كاد يمس قادمته) الرحل له مقدم ومؤخر مرتفع عن محل الراكب، وفيها لغات قادم وقادمة ومقدم ومقدمة بكسر الدال مخففة وفتحها مشددة، وكذا آخره الرحل.

(تواضعاً لله تعالى)، ومن تواضعه صلى الله تعالى عليه وسلم أن ركب الجمل دون الفرس، وعلى رأسه مغفر فوقه عمامة سوداء، وأردف خلفه أسامة رضى الله تعالى عنه كما مر.

(ومن تواضعه صلى الله تعالى عليه وسلم قوله: لا تفضلونى على يونس بن متى) قال شيخ مشايخنا الجلال السيوطى: لم أقف عليه بهذا اللفظ، والذى فى البخارى عن ابن

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

مسعود رضى الله تعالى عنه: «لا يقولن أحدكم أنا خير من يونس بن متى»<sup>(١)</sup>، وفى سنن أبى داود: ما ينبغى لنبى أن يقول: «أنا أفضل من يونس بن متى»<sup>(٢)</sup>، وفى الصحيحين «لعبد» بدل لنبى، وفى رواية: «لا أقول: إن أحدا أفضل» إلى آخره. إنه سبى الله فى الظلمات، وفى البخارى ونسبه لأبيه، ففى إشارة إلى أن متى بفتح الميم وتشديد التاء مقصوراً اسم أبىه، وقيل: معناه أنه ذكر اسم أبىه بدل متى اسم أمه، وهذا هو المشهور، وأنه لم ينسب لأمه إلا يونس وعيسى، عليهما الصلاة والسلام، واختلف فى المراد منه، فقيل، إنه صلى الله تعالى عليه وسلم قاله تواضعاً منه، وإن كان هو أفضل من جميع الرسل بالإتفاق، وكلام المصنف رحمه الله تعالى يعيل لهذا، فإن الأفضل قد لا يطلب تفضيل أحد له، وقيل: إنه كان قبل أن يعلم بتفضيله والإذن فيه لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وخص صلى الله تعالى عليه وسلم يونس، عليه الصلاة والسلام، لثلاثتهم أحد تنقيصه إذا سمع قصته، وقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْكُوْتِ﴾ [القلم: ٤٨] وقصته مفسرة فى التفسير.

(و) قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: (لا تفضلوا بين الأنبياء) لا ينافى هذه الآية، لأن المنهى عنه تفضيل يؤدى إلى التنقيص أو الخصومة والنزاع، أو التفضيل من سائر الوجوه، لأنه قد يكون فى المفضل ما ليس فى الفاضل، أو التفضيل فى نفس النبوة لا فى الخصائص وعموم الرسالة، وإلا فيجب علينا اعتقاد أفضليته صلى الله تعالى عليه وسلم لقوله: «أنا سيد ولد آدم».

وقوله: «إن الله تعالى اختارنى على جميع العالمين من الأنبياء والمرسلين».

(ولا تخيرونى على موسى)، صلى الله تعالى عليه وسلم، أى لا تقولوا أنى خير منه وأفضل، وخصه لثلاث يظن أحد نقصه لقوله تعالى: (فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان)، وسيأتى بيان ذلك.

أقول: الظاهر أن المعنى لا تفضلونى تفضيلاً يؤدى للنزاع والمخاصمة، فإن هذا من بعض حديث فى الصحيحين أن رجلاً من المسلمين استب مع يهودى، فقال اليهودى: والذى فضل موسى على العالمين فلطمه، فاشتكى للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال ذلك، وسيأتى الكلام على هذا.

(ونحن أحق بالشك من إبراهيم) إذ قال: ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُعْطِي الْمَوْتِ﴾ [البقرة:

(١) تقدم تحريجه.

(٢) تقدم تحريجه.

[٢٦٠]، وحمله بعضهم على ظاهره، وأنه كان قبل البعثة في سن الطفولية، ومن قال بعصمة الأنبياء مطلقاً قال: إنه نفى للشك لا إثبات له، وإنما قاله صلى الله تعالى عليه وسلم على سبيل التواضع، أى نحن أحق بالشك منه لو شك، ولكنه لم يشك فكأنه قال: أنا لا أشك فكيف بإبراهيم، وقيل: إنما قاله جواباً لمن قال: شك إبراهيم، ولم يشك نبينا. ولا تنافي بين القولين، وسيشير إليه المصنف رحمه الله تعالى في القسم الثالث.

وقيل: لا يصح، أن يكون المراد أنه أحق بالشك منه لقوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠] إلى آخره، وتسميته شكا بالنظر للظاهر، لاقتضائه عدم الاطمئنان، وهو ينافي عدم التردد والشك، ولذا احتج لتأويله بأن الخليل، عليه الصلاة والسلام، قطع بالقدرة على إحياء الموتى بدليل قطعي، لكنه اشتاق لمشاهدة كيفية هذا الأمر العجيب الذي جزم بثبوته، فنفسه لا تطمئن حتى يشاهده، قال ابن أبي شريف رحمه الله تعالى: وهذا التأويل يشير إلى أن المطلوب بقوله: ﴿وَلَكِنَّ يَطْمَئِنُّ قَلْبِي﴾ سكون قلبه عن المنازعة إلى رؤية الكيفية المطلوبة التي تمنّاها، ليحصل له العلم البديهي بعد العلم النظري، ولما كان هذا الشك ظاهرياً جائزاً على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، قال، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما قاله كناية عن أمه جائز منه، إلا أنه أورده بهذه الصورة تأدباً مع الله تعالى، وإن لم يكن أحق بذلك الشك منه، وكيف يتصور جوازه عليه، وعلى كرم الله وجهه يقول: لو كشف الغطا ما ازددت يقيناً، إلا أن في هذا إشكالاً أورده ابن العماد، لاقتضائه تساوى علمه البديهي والنظري، فيتجاوز المقام الخليلي.

وقد أجاب عنه في كتابه كشف الأسرار فقال: قال العز بن عبد السلام: المراد ما ازددت يقيناً بالإيمان، وإن كان إذا رآها أبصر من التفاصيل والهيئات ما لم يحط به قبل ذلك علماً، وكذلك إبراهيم لما رأى كيفية الإحياء لم يزدد يقيناً بالإيمان بقدرته تعالى على الإحياء، وإن وقف بمشاهدة كيفية الإحياء على ما لم يقف عليه من الإيمان، كمن رأى بناء عجيماً وعرف صانعه علم قدرته وصنعه وتحققه، وإن لم يعرف كيفية بنائه وصنعة عمله، فإذا طلب مشاهدة عمله ورآه لم يزد علمه بقدرته وصنعته وهيئته بذلك، ولكن اطمأن قلبه لحصول ما طلبه من كيفية صنعه، وقال السبكي رحمه الله تعالى: سئل الغزالي رحمه الله تعالى عن هذا فقال: اليقين يتصور عليه الجحود، كما قال تعالى: ﴿وَمَحَمَّدُوا بِهَا وَأَسْتَقْنَتَهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]، والطمأنينة لا يتصور عليها الجحود، وهو جواب حسن في الفرق بين اليقين والجحود، انتهى، وفيه نظر.

وقول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: هذه الآية أرجى آية في القرآن معناه أن

سؤاله الإحياء في الدنيا يدل على أنا نحى وننعم في الآخرة، أو أن الإيمان بالغيب إجمالاً كاف لنا.

(ولو لبث ما لبث يوسف في السجن لأجبت الداعي) (لبث في السجن بضع سنين) أى لبث خمساً ثم سبعاً بعد رؤيا الفتين اللذين دخلا معه السجن، وقيل غير ذلك، وورد في الحديث: «رحم الله أخى يوسف لو لم يقل اذكرنى عند ربك ما لبث فى السجن سبعاً بعد خمس» أى لو لم يستغن بغير الله تعالى ما طالت المدة، والمراد بإجابة الداعي إجابة رسول الملك الذى دعاه للخروج منه.

قال الكرمانى: وصفه بالصبر حيث لم يبادر إلى الخروج، وقال ذلك تواضعاً لا أنه كان فيه مبادرة وعجلة لو كان مكان يوسف، والتواضع لا يصغر كبيراً، بل يزيد قدره إجلالاً، وذلك منه صلى الله تعالى عليه وسلم إشارة إلى مقام التفويض، وتلقى كل ما يأتى من الله بالقبول، ورفض الوسائط، والمعنى لو كنت مكانه تلقيت دعوة الداعي مستعيناً بالله تعالى مفوضاً أمراً له، وقد كان يوسف، عليه الصلاة والسلام، عبر رؤيا الفتين، ثم رؤيا الملك، فطلبه فلما جاءه الرسول ليخرجه من السجن لم يبادر للخروج، وطلب الكشف عن أمره حتى يعلم أنه مظلوم، وقال القرطبي: الوجه عندى فى ذلك أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ لنفسه وجهاً آخر من الرأى، وهو أن يفعل أمراً ليقضى به فيه، وهو أن يخرج سريعاً، ثم يرى ساحته بالتبرئة من غير إلحاح وهو الحزم، ويوسف، عليه الصلاة والسلام، سلك مسلكاً آخر وهو الصبر، وقيل إنه صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يلتفت لما التفت له من براءة الساحة اكتفاء بعلم الله واعتقاده، لأنه يرى ساحته من غير طلب منه لهذا المقام، ولكنه قال ما قال تواضعاً، وفى يوسف ست لغات بتثليث السين مع الهزمة وعدمه.

(وقال، للذى قال له: يا خير البرية، ذاك إبراهيم)، وهذا من تواضعه أيضاً صلى الله تعالى عليه وسلم، وإلا فهو خير البرية من غير شك، وليس فيه إخبار بغير الواقع إذ المعنى لا أقول ذلك إطراء لنفسى، والبرية الخلق من برأ بمعنى خلق لكن همزته متروكة كما فى الذرية، والنبي والخائنة، وهذا الحديث رواه مسلم فى صحيحه وغيره، وخص إبراهيم لأن الله أمره باتباع ملته فى قوله تعالى: ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [النمل: ١١٣]، وسيأتى الكلام على هذه الأحاديث بعد هذا إن شاء الله تعالى من غير تطويل واعتساف.

(وعن عائشة، رضى الله تعالى عنها، والحسن وأبى سعيد وغيرهم فى صفته صلى الله تعالى عليه وسلم، وبعضهم يزيد على بعض) قدم عائشة، رضى الله تعالى عنها؛ لأنها

أدرى بحاله صلى الله تعالى عليه وسلم في بيته، ولذا عقبها بالحسن بن على، رضى الله تعالى عنهما؛ لأنه من أهل البيت أيضاً، وأبو سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه كان يخدمه صلى الله تعالى عليه وسلم، فلذا خص هؤلاء ورتبهم الأقرب فالأقرب.

(كان في بيته في مهنة أهله) خير بعد خير أو بدل مما قبله بدل اشتمال، والمهنة بكسر الميم وفتحها الخدمة مأخوذة من الامتهان، واختلف في أيهما الأوضح والأكثر على أنه الفتح، والأشهر أنه الكسر لتوافق الخدمة لفظاً ومعنى، وأنكر بعضهم الكسر، والأصح أنه لغة وأنه ثابت بالوجهين.

(يفلى ثوبه) بيان هو وما بعده لما قبله، لأن هذا مما ينبغى أن يفعله أهله، ويفلى بفتح المثناة التحتيّة وسكون الفاء يقال: فلاه يفليه كرماء يرميه إذا فتش ما فيه من قمل وغيره هذا أصله، وهو يقتضى أن يكون في ثوبه صلى الله تعالى عليه وسلم قمل، وقد قالوا: إنه لا يكون تكرّماً له صلى الله تعالى عليه وسلم، ولأنه يتولد من عفونة والعرق وجسده وعرقه طيب لا يكون فيه عفونة، والقول بأن فيه قملاً تنقيص لا ينبغى أن يقال، إلا أن بعضهم نقل أنه لم يكن الذباب يعلق عليه، وأن القمل لا يؤذى بدنه تعظيماً له صلى الله تعالى عليه وسلم، وتكرّماً كما سيأتى بيانه قبيل فصل قد آتيناك أكرمك الله، فقيل: المراد بنفى أذيته نفيه لأنه من لوازمه، وقيل: إنه كان فيه، ولكن لا يؤذيه، والأول مناف لحديث المتن ولما روى أن أم حرام كانت تفلّى رأسه، واللفظ شاهد لخلافه، نعم نفى أذاه مستلزم لنفيه، لأن أذيته بتغذيه من البدن، فإذا امتنع غذاؤه لم يعيش، وحيث لم يكن في وجوده إلا قذارته، والاحتياج لفليه، ولذا قيل: المراد بفليه تفتيشه لخرق فيه، أو تعلق شيء به شوك ونحوه، وكل ذلك للتشريع وإظهار التواضع، واحتمال أن يكون القمل جاءه من غيره، لكثرة مجالسته الفقراء كما سيأتى لا يأباه فلى أم حرام لرأسه كما قيل على أنه يحتمل أنها كانت تفحص عن هذا، وإن لم تجده.

(ويحلب شاته ويرقع ثوبه) بفتح الياء وسكون الراء المهملة وفتح القاف المخففة ويجوز الضم والتشديد إلا أن الضبط بالأول مناسبة ما معه، ورقع الثوب أن يضع فيما انخرق منه رقعة من غيره، فيسده بها.

(ويخصف نعله) يخزها به، وفي العمدة أنه تطبيق بعض جلود النعل على بعض، وهو في قوله تعالى: ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢] استعارة من هذا، وأصل معنى الخصف الضم والجمع.

(ويقم البيت) أى يكنسه ويزيل قمامته من قم يقم بضم القاف إذا كنس، (ويعقل



البعير) أى يربطه من رجله بالعقال، ويعقل بوزن يضرب.

(ويعلف ناضحه) بنون وضاد معجمة وحاء مهملة، وهو البعير الذى يستقى عليه من النضح.

(ويخدم نفسه) أى يفعل ذلك كثيراً لا دائماً مع كثرة عبيده وخدمه، وتشوق الناس لخدمته صلى الله تعالى عليه وسلم، لكنه يجب فعل ذلك بنفسه تواضعاً وتشريعاً.

(ويأكل مع الخادم) الخادم متعاطى الخدمة ذكراً كان أو أنثى حراً أو عبداً، وأكل الإنسان مع خادمه سنة. قال القاضى زكريا فى شرح الروض: إن السنة أن يجلس خادمه للأكل معه، ويلبسه من لباسه، فإن أبى فليناولهما يأكله، ومن الغريب ما نقل عن الشافعى أنه واجب للأمر به فى الحديث، وفيه نظر.

(ويعجن معها) الضمير للخادم؛ لأنه يطلق على الأنثى كما مر، والعجين من عمل النساء (ويحمل بضاعته) بكسر الموحدة، وهى ما يشتريه (من السوق) وفيه دلالة على أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يدخل السوق قالوا: وهو عادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَكْشُرُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٣٠]، وكذا كان دأب الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، ولا ينافيه: «أحب البقاع إلى الله تعالى المساجد، وأبغضها إليه الأسواق»<sup>(١)</sup>، لأن المراد بغض ما فيها أو النهى عن الجلوس فيها من غير حاجة.

(وعن أنس) بن مالك، رضى الله تعالى عنه، خادم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا الحديث رواه البخارى تعليقاً، ووصله ابن ماجه: (إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة) بكسر همزة إن المخففة من الثقيلة كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ [البقرة: ١٤٣]، وهى مهملة أو اسمها ضمير شأن مقدر (لتأخذ بيد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فتنتطلق به حيث شاءت) أى تمسك يده الشريفة، وتذهب به إلى أى محل تريده لأجل حاجتها (حتى يقضى حاجتها)، وليس فيه إفراط فى التواضع المذموم، لأن قضاء حاجة المسلمين أمر محمود.

(ودخل عليه رجل فأصابته من هيئته رعدة) بكسر فسكون لخوفه من مهابته إذ كان لم يره قبلها، وأعاد هذا الحديث لما فيه من الزيادة، والردة أن يرجف ويضطرب، (فقال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: هون عليك) أمر من التهوين أى عد ما رأيته أمراً هيناً غير صعب تخشى منه أى لا تخف ولا تفزع، (فإنى لست بملك) من الملوك

الجبابرة الذين يخشى بوادهم (إنما أنا امرأة من قريش تأكل القديد)، وهو اللحم الذي يقطع ويجعل في الشمس حتى ييبس، وكان عادة العرب أكله، وهكذا عادة فقرائهم، فكفى به عن عدم تكبره وتجبره وترفعه صلى الله تعالى عليه وسلم .

(وعن أبي هريرة) رضى الله تعالى عنه قال السيوطي: هذا الحديث رواه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف (قال: دخلت السوق مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فاشترى سراويل) في حواشي الشمني ذكر المصنف، رحمه الله تعالى، اشتراؤه، صلى الله تعالى عليه وسلم، للسراويل إلا أنهم قالوا: إنه لم يثبت أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لبسها، ولكنه اشتراها ولم يلبسها.

وقال ابن القيم في الهدى: إنه لبسها، فقالوا: إنه سبق قلم، وقال السيوطي في فتواه: قد رأيت الذي ذكره المصنف رحمه الله تعالى في معجم الطبراني الأوسط، ومسند أبي يعلى، وفيه أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم لبسها، ولفظه عن أبي هريرة أنه قال: دخلت يوماً السوق مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فجلس إلى البزازين، فاشترى سراويل بأربعة دراهم، وكان لأهل السوق وزان فقال له: زن وأرجح<sup>(١)</sup>، وأخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم السراويل، فذهبت لأحمل عنه، فقال: صاحب الشيء أحق أن يحمله إلا أن يكون ضعيفاً، فيعجز عنه فيعينه أخوه المسلم. فقلت: يا رسول الله إنك لتلبس السراويل، قال: أجل في السفر والحضر وبالليل والنهار، فإنني أمرت بالستر فلم أجد شيئاً أستر منه<sup>(٢)</sup>. أخرج من طريق ابن زياد الواسطي، وأخرجه أحمد وفي سننه ابن زياد، وهو وشيخه ضعيفان انتهى.

وأقول: انجبر ضعفه بمتابعته، ومنه يعلم أن تخطئة ابن القيم لا وجه لها، وكون الثمن أربعة دراهم هو المروى لا ما في الإحياء من أنه بثلاثة، وكونه صلى الله تعالى عليه وسلم اشتراها ولم يلبسها بعيد جداً، وقد لبسها عثمان رضى الله تعالى عنه، وهو محاصر أيضاً، والسراويل تذكر وتؤنث، ولم يعرف فيه الأصمعي إلا التأنيث، وجمعه سراويلات، وهي مصروفة في النكرة عند سيبويه، فإن سمي بها رجل لم تصرف، وكذا إن صغرت بعد التسمية لأنها مؤنثة على أكثر من ثلاثة أحرف كعناق، فإن صغرت من غير علمية صرفت، وقال الجوهري: من النحويين من لا يصرفه في النكرة أيضاً؛ لأنه عده جمع سروالة وأنشد:

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٣٦، ٣٣٣٧)، والترمذي (١٣٠٥)، وابن ماجه (٢٢٢٠)، وأحمد

(٤/٣٥٢)، والدارمي (٢/٢٦٠)، وابن حبان (١٤٤٠)، والحاكم (٢/٣٠، ٤/١٩٢).

(٢) أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (٥/١٢٢).

عليه من اللوم سرواله

ويقول ابن مقبل:

فتى فارسی فی سراویل رامج

والعمل على الأول والثاني قوى انتهى، ومن ثم رد قول من قال: إنه ممنوع من الصرف بالاتفاق، وقول المحدثين: إنه لم يصح أنه جمع في الأصل كحضاجر للضبع، فيعتبر فيه الجمعية الأصلية قال: ولذا اضطربوا فيه، ف قيل: إنه أعجمي معرب سروال حمل على موازنه في العربية كمصاييح، وقيل: عربي جمع سرواله تقديرًا، وهى لغة في سراويل، ويقوى عجميته أنه لا نظير له في العربية، وعلى هذا اقتصر الجواليقي في معرباته، إلا أنه قيل: إنه معرب شلوان بالمعجمة، والأشبه أنه معرب سراوين أى مدلى الرأس، لأن سر معناه الرأس، واوين معناه مدلى.

(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم (للوزان) أى الذى يزن الدراهم، وينقدها، وهو الصيرفى: (زن وأرجح) أى زن لصاحب السراويل ثمنها، وزد عليه حتى يترجح الميزان بزيادة الكفة التى فيها الدراهم، وبهذا استدل الإمام مالك على جواز هبة المجهول وفيه نظر، لأنه منه حسن القضاء، وكلام أبى حنيفة رحمه الله تعالى فى الهبة المحضة، والرجحان نزول كفة الميزان لزيادة ما فيها، (وذكر القصة) كما سمعتها آنفاً.

(قال) أى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه راوى هذا الحديث: فقال الوزان: هذه كلمة ما سمعتها من أحد؛ فقال له أبو هريرة: كفى بك من الوهن والجفا فى دينك أنك لا تعرف نبيك وطرح الميزان (ووثب) أى قام بسرعة (إلى يد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقبلها) أى قام ليقبل يده الشريفة لما رأى منه، ولمعرفته أنه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، (فجذب) أى نزع صلى الله تعالى عليه وسلم (يده) من يده، (وقال: هذا) أى تقبيل اليد أمر (تفعله الأعاجم بملوكها، ولست بملك إنما أنا رجل منكم) معاشر العرب، أو الناس، وهذا من تواضعه صلى الله تعالى عليه وسلم أو لأنه علم أنه إنما قبل يده لأمر دنبوى، وإلا فتقبيل يد الرجل لعلمه أو صلاحه أو شرفه سنة مستحبة، وقد كان الصحابة رضى الله تعالى عنهم يقبلون يده الشريفة، ويد الخلفاء رضى الله تعالى عنهم، وقيل لبعض المشايخ: أتقبل يد المشايخ؟ فقال: إنهم رياحين الله فشموها بالتقبيل.

(ثم أخذ) رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بيده الشريفة (السراويل) ليحملها بنفسه، (فذهبت لأحمله) أى شرعت فى حملها عنه يقال: ذهب يفعل كذا، وقام يفعله إذا شرع فى الفعل، ولذلك عدت من أفعال المقاربة، فليس المراد بالذهاب معناه

المشهور، وضمير لأحملة للسروايل لأنه يجوز تذكره وتأنيته كما علم.

(فقال) أى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لأبى هريرة: (صاحب الشىء أحق بشيئته أن يحمله) بدل من شيئة أى أحق بحمله من غيره، وهذا من تواضعه صلى الله تعالى عليه وسلم، واقتدى به الصحابة رضى الله تعالى عنهم، فكان الخلفاء منهم يحملون أمتعتهم فى السوق كما فضله الغزالي فى الإحياء .

\* \* \*

### (فصل وأما عدله ﷺ)

العدل مصدر معناه العدول عن الظلم والجور، ويكون بمعنى العادل فيستوى فيه الواحد المذكور وغيره، ويجمع على عدول، (وأمانته) فى كل شىء يحفظه قولاً كان أو فعلاً أو غير ذلك مما يجعل عنده، وكونه موثقاً به فى أموال الناس وأحوالهم، (وعفته) فى نفسه بترك كل قبيح، وترك السؤال، والنزاهة عن كل شىء، (وصدق لهجته) اللهجة اللسان والكلام يقال لهج بكذا إذا ولع به ولا يخفى تقارب معانى ما ذكر، ولذا جمعها فى فصل، فإن فى العدل عفة عن الظلم، وفى الصدق أمانة على ما سمع، وعفة عن الكذب، وهذا ظاهر لمن له بصيرة.

(فكان صلى الله تعالى عليه وسلم آمن الناس) آمن بمد الهمزة بمعنى أكثرهم وأشدهم أمانة.

(وأعدل الناس وأعف الناس، وأصدقهم لهجة منذ كان) أى من ابتداء خلقته إلى نهايتها، وكان تامة بمعنى وجد (اعترف له بذلك محادوه) جمع محاد بتشديد الدال المهملة بمعنى المعادى، والمخالف له الذى فى حد وجانب عنه، ويكون بمعنى المحارب قال تعالى ﴿مَنْ يُحَادِدِ اللَّهََ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ٦٣].

(وعداه) بكسر العين جمع عدو أو اسم جمع، وهو فى الصفات وقد تضم عينه، (وكان يسمى قبل نبوته الأمين قال ابن إسحاق) محمد بن إسحاق بن يسار صاحب السير كما تقدم، وهذا حديث صحيح رواه أحمد فى مسنده والحاكم والطبرانى عن على، كرم الله وجهه.

(كان صلى الله تعالى عليه وسلم) فى ابتداء أمره قبل نبوته (يسمى الأمين) لأمانته وصدق قوله فى جميع أحواله (بما جمع الله له من الأخلاق الصالحة) أى بسبب ما جمعه الله له من الأخلاق الصالحة الذى ائتمنه الله إياها، أو الباء بمعنى مع أى مع ما جمعه الله له من الصالحات التى عرف بها عندهم.

(وقال تعالى: ﴿مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ﴾ [التكوير: ٢١] أكثر المفسرين على أنه) أى المطاع الأمين فى هذه الآية (محمد صلى الله تعالى عليه وسلم)، وكثير منهم على أنه جبريل، عليه الصلاة والسلام، كما يشهد به سياق النظم، ولذا ارتضاه المحققون لكونه عليه الأكثر وفيه نظر.

(ولما اختلفت قريش وتحازبت) بالحاء المهملة والزأى المعجمة والباء الموحدة أى صارت أحزاباً وفاقاً لاختلاف آرائهم، ولو قيل: تحازبت بالراء المهملة لما فى السير أنهم تخالفوا حتى اعتدوا للقتال، ثم بدا لهم فتشاوروا صح، إلا أنه بعيد، والنسخ مضبوطة خطأ بخلافه. (عند بناء الكعبة) قال السهيلي: كان بناؤها خمس مرات:

الأولى: حين بناها شيث بن آدم.

والثانية: حين بناها إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، على القواعد الأولى.

والثالثة: حين بنتها قريش قبل الإسلام بخمسة أعوام.

والرابعة: حين احترقت فى عهد ابن الزبير بنار طارت من أبى قبيس أو بشرر طار من مجمر امرأة أرادت أن تحمرها، فتعلق بأستارها وأحرقها، فتشاور من حضرها فى هدمها، فهابوه وقالوا: نصلح ما انهدم منها، فقال رضى الله تعالى عنه: لو احترق بيت أحدكم لم يرض له إلا بأكمل صلاح، ولا يكمل صلاحها إلا بهدمها، فهدمها حتى أفضى إلى قواعد إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، فأمرهم أن يزيّدوا فى الحفر، فحركوا حجراً منها فرأوا تحته ناراً أفزعتهم فأمرهم أن يقرّوا القواعد، وأن يبنوها من حيث انتهى الحفر، واستمرت على ذلك إلى أن قام عبد الملك بن مروان، فهدمها وبنائها، فهذه المرة الخامسة، ولا منافاة بينه وبين ما فى التواريخ من أن الخامسة بناء الحجاج، لأنه كان بأمر عبد الملك، لأنه أميره، وكان أرسله لمحاربة ابن الزبير رضى الله تعالى عنهما، وقيل غير ذلك، والكلام فيه مفصل فى تاريخ مكة.

(فيمن يضع الحجر) الأسود فى موضعه ويرفعه بيده؛ لما فى مباشرة ذلك من الشرف، والجار والمجرور متعلق باختلف.

(حكموا) بفتح الحاء وتشديد الكاف جواب لما أى ارتضوا بأن يكون الحاكم فى ذلك (أول داخل عليهم؛ فإذا بالنبي ﷺ داخل) إذا فجائية أى فاجأهم دخوله عليهم بفتة من غير طلب وميعاد منهم.

(وذلك قبل نبوته) صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو ابن خمس وثلاثين، وقيل: ابن خمس وعشرين أو حين بلغ الحلم، ولا شك فى أن هذا كان قبل النبوة، والأول أصح.

(فقالوا : هذا محمد هذا الأمين قد رضينا به) حكماً في هذه القضية، فلما انتهى إليهم ذكروا له ذلك، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم لهم: اتسوا بثوب وضعوا فيه الحجر، وارفعوه جعلتكم من كل بيت رجل، فلما فعلوا وضعه صلى الله تعالى عليه وسلم بيده الشريفة، ثم بنى عليه، فكان شرف الوضع له، وكان مع العباس رضى الله تعالى عنه ينقلان الحجارة، فقال له العباس: اجعل إزارك على رقبتك ليقبك ألم الحجارة، فلما فعل بدا منه ما لا بد من ستره، فخر مغشياً عليه وطمحت عيناه إلى السماء، فقال: «إزارى»<sup>(١)</sup> فشد عليه إزاره، لأنه نودى: يا محمد غط عورتك، فلم تر له عورة، بعده ولا قبله، وروى أنه وقع له مثله وهو يلعب صغيراً.

(وعن الربيع بن خثيم) رضى الله تعالى عنه بضم الخاء المعجمة وفتح المثناة وسكون الياء المثناة التحتية والميم، وهو الربيع بن خثيم بن عابد بن عبد الله بن موهب أبو يزيد الثوري ينسب إلى ثور بن عبد مناة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر، وينسب إليه سفيان وغيره، والربيع يروى عن ابن مسعود وأبي أيوب، وروى عنه خلق كثير، وكان ثقة عابداً، وأخرج له أصحاب الكتب الستة، وتوفى سنة سبع وستين.

(كان يتحاكم إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الجاهلية)، وفسر الجاهلية بقوله: (قبل الإسلام)؛ لأنها تطلق بهذا المعنى في الأكثر، وهذا شاهد لعدله صلى الله تعالى عليه وسلم، والمراد قبل بعثته، وتطلق الجاهلية كما في النهاية على صفاتهم، وإن كانت في الإسلام كقوله في الحديث: «إن فيك جاهلية»، وحقيقتها الأول، وهذا معنى مجازي اللهم إلا أن يراد بها المعنى اللغوي، وهو النسبة إلى الجهل مطلقاً فتكون حقيقة، وإلى هذا نظر ابن حجر في شرح البخاري، ويتحاكم بضم المثناة مجهول أى يتحاكم إليه قريش أو العرب، وقول الربيع هذا رواه ابن مسعود، وله حكم الرفع، وتحاكمهم إليه صلى الله تعالى عليه وسلم يدل على عدله وإنصافه.

(وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: إني لأمين في السماء وأمين في الأرض) يعنى أنه مشهور بذلك بين الملأ الأعلى وبين أهل الأرض، لأنه لم يتهم قط بكذب وجد في أحكامه، وهذا الحديث رواه ابن أبي شيبة في مسنده عن أبي رافع، وفيه دليل على جواز مدح الإنسان نفسه مؤكداً بالقسم، وأعاد أميناً لاختلاف الأمانتين.

(حدثنا) ابن سكرة (أبو علي الصدفي الحافظ بقراءتى عليه)، وقد تقدمت ترجمته وحكمه قال: (حدثنا أبو الفضل بن خيرون) تقدم أنه أحمد بن الحسن بن أحمد بن

(١) أخرجه البخاري (٥١/٥)، وأحمد (٢٩٥/٣)، وأحمد (٣٨٠)، وعبد الرزاق (١١٠٣)، والبيهقي في دلائل النبوة (٣١٤/١)، وفي السنن الكبرى (٢٢٧/٢).

خيرون الحافظ، وخيرون ممنوع من الصرف قال: (حدثنا أبو يعلى بن زوج الحرة) تقدمت ترجمته قال: (حدثنا أبو علي السنجي) تقدم ضبطه وترجمته قال: (حدثنا أبو محمد المروزي) محمد بن أحمد بن محبوب راوى جامع الترمذى كما تقدم قال: (حدثنا أبو عيسى الحافظ) هو الإمام الترمذى كما تقدم قال: (حدثنا أبو كريب) بضم الكاف وفتح الراء المهملة وياء تصغير وياء موحدة، وهو الإمام الحافظ محمد بن العلاء الهمداني، أخرج له الستة، ووثقه النسائى وغيره، توفى سنة ثمان وأربعين ومائتين قال: (حدثنا معاوية بن هشام) القصار الكوفى الثقة، وقال ابن معين: صالح، وليس بذلك، توفى سنة خمس وعشرين ومائة.

(عن سفيان) الثورى فيما يظهر إلا أن المزى والذهبى لم يقيدها (عن أبى إسحاق) عمرو بن عبد الله الهمداني السبيعى أحد الأعلام.

(عن ناجية) بنون وجيم (بن كعب) العنزى أو الأسدى الثقة، وتوقف ابن حبان فى توثيقه، وله ترجمة فى الميزان، وقال الذهبى فى المغنى: ما أدرى لماذا توقف ابن حبان انتهى.

(عن على) بن أبى طالب، كرم الله وجهه ورضى الله تعالى عنه، وهذا الحديث رواه الترمذى كما ذكره المصنف، وانفرد بإخراجه من طريقين: أحدهما ما ذكره المصنف، والثانية عن إسحاق بن منصور عن ابن مهدى عن سفيان عن أبى إسحاق عن ناجية قال: وهذا أصح، وكذا رواه عبد العزيز بن أبى عثمان.

(إن أبا جهل) بن هشام لعنه الله فرعون هذه الأمة (قال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به فأنزل الله) فيما قاله، وهو سبب نزول هذه الآية ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، الآية ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِقَائِلَتِ اللَّهِ يَكْذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وروى أبو ميسرة أنه ﷺ مر بأبى جهل وأصحابه، فقالوا: والله يا محمد ما نكذبك وإنك عندنا لصادق، ولكننا نكذب بما جئت به، فنزلت هذه الآية، وقرئ يكذبونك، مخففا ومشددا، فقل: معناهما واحد لأنه يقال: كذبت وأكذبت كحزيت وأحزيت، واختار أبو عبيدة قراءة التخفيف، وهى مروية عن على كرم الله تعالى وجهه، وقيل: معنى يكذبونك بالتشديد ينسبونك إلى الكذب، ويردون ما قلته، ومعناه بالتخفيف يجدونك كاذبا كأبخلته إذا وجدته بخيلاً، والمعنى على التشديد لا يكذبونك بحجه وبرهان، وقيل: فى كلام المصنف إشارة إلى دفع التناقض فى الآية، فإنه قال أولا: إنهم لا يكذبونه ثم أخبر أنهم يجدون ما جاء به من الآيات، وجاحد كلامه مكذب له، ويجحدون مضمن معنى يكذبون، ولذا عداه بالباء، وهو متعد بنفسه ويدل على

أنهم كذبوه قوله بعده ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: ٣٤]، فليس المراد بقوله: (لا يكذبونك) نفى تكذيبه مطلقاً، فإما أن يقال فى دفع توهم التناقض أن معنى لا يكذبونك بالتشديد لا يحكمون عليك بأن سجيتك الكذب؛ لأنك موصوف بالصدق عندهم فى جميع شئونك ما عدا قولك الذى جئت به من عند الله، وهو الآيات، فإنهم يجهلون، وهذا مراد المصنف فى استشهاده بهذه الآية أو يقال: المراد أنهم لا يكذبونك فى الحقيقة ونفس الأمر، وفى نفوسهم إذا خلوا، ولكنهم يظهروا التكذيب حسداً وبغياً، أو أنهم لا يكذبونك إذا أمعنوا النظر وتدبروا، ولكنهم عموا عن نور الهداية انتهى، وفى الآية كلام فصلناه فى حواشى القاضى البضاوى.

(وروى غيره) أى روى غير الترمذى، أو الصدى فى الحديث زيادة الثقة مقبولة: (لا تكذبك وما أنت فىنا بمكذب) أى معروف بالكذب فى غير هذا، (وقيل: إن الأخنس بن شريق) بن ثعلبة الثقفى الصحابى، واسمه أبى، وهو بهمة وخاء معجمة ونون وسين بزنة أفعل التفضيل، وشرىق بفتح الشين المعجمة وكسر الراء المهملة وقاف على وزن فعيل، وهو قديم الوفاة كذا قاله البرهان الحلبي، وقال التلمسانى: إنه حليف قريش قتل يوم بدر كافراً يعنى به شريقاً لا الأخنس، وهذا الحديث رواه أبو إسحاق والبيهقى عن الزهرى، وأخرجه ابن جرير عن السدى (لقى أبا جهل يوم بدر)، وكان يوم الجمعة سنة اثنتين من الهجرة فى تاسع عشر رمضان.

(فقال له: يا أبا الحكم) بفتحتين، وهذه كنيته القديمة، ثم غلب عليه كنيته بأبى جهل (ليس هنا غيرى وغيرك يسمع كلامنا تخبرنى عن محمد) جملة خبرية، والمراد أخبرنى عنه (صديق أم كاذب؟) يعنى أصادق، فحذفت الهمزة تخفيفاً، والاستفهام تحقيقى أو تقديرى.

(فقال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق، وما كذب محمد قط) هذا يدل على أنهم لا يعتقدون كذبه.

(وسأل هرقل عنه) هرقل بكسر الهمزة وفتح الراء وسكون القاف، ويقال: بإسكان الراء بين كسرتين كما سيأتى، وهو علم غير منصرف. قال البرهان: هلك على كفره، وفى الاستيعاب أنه صحابى، قيل: وهو مأول (أبى سفيان) صخر بن حرب بن أمية القرشى الأموى، أسلم يوم الفتح، فكان من المؤلفة قلوبهم، ثم حسن إسلامه، وكان رئيس قريش وأكثرهم مالاً، وتوفى سنة أربع وثلاثين وسنه ثمان وثمانون فى المدينة، وقصة أبى سفيان مع هرقل مشهورة مروية فى الصحيحين مفصلة فى أول باب فى البخارى، وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كاتبه فى سنة ست، فلقبه رسول الله



صلى الله تعالى عليه وسلم بمحمص، فلما قرأ الكتاب أمر منادياً ألا إن قيصر قد أسلم، واتبع محمداً وترك النصرانية فهاج جنده وتسليحوا فأمر منادياً ثانياً ألا إن قيصر راض بدينه، وهو راض عنكم، ثم قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: إنى مغلوب على مملكتى، وكتب إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: إنى مسلم وبعث له دنانير، فقال: كذب عدو الله؛ لأنه علم أنه ليس قوله عن صميم قلبه، ولو سلم فنداؤه بأنه راض بدينه ردة، فلذا قالوا: إن القول بإسلامه بناء على ظاهر قوله واه. كيف وقد قاتل المسلمين يوم مؤتة، وواعدهم أن يأتهم فى العام المقبل؟، ونزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأجله إلى تبوك، فلم يجرى وأخذت منه البلاد، وهلك سنة عشرين بالقسطنطينية على نصرانيته.

وقوله (فقال) أى هرقل لأبى سفيان (هل كنتم تتهملونه بالكذب؟) أى هل وقع فى قلوبكم أنه صدر منه كذب فى أقواله؟ قال فى الأساس: وهمت الشئ أهمه وهما وتوهمته وقع فى خلدى، وشئ موهوم ومتوهم انتهى، وإنما سألمهم عن توهم الكذب، ولم يقل: هل علمتم وتحققتم؟ لأنه يعلم من انتفاء التوهم انتفاء غيره بالطريق الأول (قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا) فقال هرقل: قد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله وإنما لم يقل: إنه يكذب لئلا يأت الناس عليه الكذب، وهو عار عند العرب، أو يقول ما لا يقبل منه، ثم قال أبو سفيان: ألا أخبرك عنه خيرا كذب فيه؟ قال: ما هو؟ قال: إنه زعم أنه خرج فى ليلة من الحرام إلى مسجد إيلياء، ثم رجع فيها قبل الصباح، وكان عنده بطريق إيلياء فقال: صدق وإنى كنت لا أنام حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كانت تلك الليلة أغلقت أبوابه غير باب منها غلبنى، فاستعنت بمن حضرنى، فلم يمكنهم تحريكه، وقالوا إنه سقط عليه البناء، فلما أصبحت غدوت عليه، فإذا الحجر الذى فى زاويته منقوب فيه أثر ربط دابة، فقلت: ما جيس هذا الباب الليلة إلا على نبي قد صلى فى مسجدنا. فقال قيصر: يا معشر الروم ألم تعلموا أن بعد عيسى عليه الصلاة والسلام نبياً بشركم به، وكنا نرجو أن يكون فينا، فجعله الله تعالى فى غيرنا، وهو رحمة الله يضعها حيث شاء، ولم يعتدوا بتصديقه هذا حتى يكون يومنا لتلبسه بما يخالفه قولاً وفعلاً.

قلت: وبهذا علم أن مربوط البراق بالمسجد الأقصى صحيح، وسأل أبا سفيان عنه ﷺ أسئلة أخرى مذكورة فى أول البخارى.

(وقال النضر) بنون مفتوحة وضاد معجمة ساكنة وراء مهملة (بن الحارث لقريش)، فى حديث رواه ابن إسحاق والبيهقى عن ابن عباس، والنضر بن الحارث بن علقمة بن

كلدة بفتح الكاف ابن عبد مناف القرشي، وكان شديد الأذية للمسلمين، فظفر به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بيد، فقتله كافراً صبراً كما يأتي، فرثته أخته قتيلة بأبيات مشهورة أولها<sup>(١)</sup>:

ياراكبا إن الأثيل مطية من صح خامسة وأنت موفوق  
إلخ، وقيل: إنها مصنوعة، وقتيلة بالمشناة الفوقية مصغرة اختلف في إسلامها وكونها صحابية.

(قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً) بفتحيتين قال الجوهرى: حدث شاب فإن ذكرت السن قلت: حديث السن من الحدوث، لقرب عهده بالوجود، والغلام الذى لم يلتح.  
(أرضاكم فيكم) أى أكثركم رضا وصبراً وأفعالاً مرضية، (وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة) منصوب هو وما قبله على التمييز، وهذه شهادة العدو، فما بالك بغيره؟ (حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب) الصدغ ما بين لحظ العين والأذن، والشعر الذى فيه من أعلى العذار، وجانب الرأس كثيراً ما يبدو الشيب فيه قبل غيره، فكنى بذلك من أنه تمت رجوليته، وكمل عقله صلى الله تعالى عليه وسلم بمجاوزته سن الشباب، وهذا أشد فى الإنكار عليهم.

(وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر) أى قلتم: إنه ساحر بدليل قوله: (لا والله ما هو بساحر)، وهذا منه غاية فى الإنصاف، ولكن غلب عليه الشقاء، فقتل صبراً بالصفراء كافراً فى منصرفه صلى الله تعالى عليه وسلم من بدر كما ذكره الشيخان عن عائشة رضى الله تعالى عنها.

وهذا الحديث رواه ابن إسحاق والبيهقى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، والذى قال: إنه ساحر الوليد بن المغيرة، وسبب قول النضر المذكور أن أبا جهل لما أراد أن يرضخ رأس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بحجر، فتمثل له جبريل عليه الصلاة والسلام فى صورة فحل، ففر هارباً، ويست يده على الحجر كما سيأتى، فلما سمع ذلك النضر قال: يا معشر قريش، والله قد نزل فيكم أمر ما أتيتم فيه بحيلة بعد، قد كان فيكم محمد إلى قوله ما هو بساحر، وقد رأينا السحرة نفثهم وعقدهم، وقتلتم: إنه كاهن والله ما هو بكاهن، وقد رأينا الكهنة وسمعنا سجعهم، وقتلتم: شاعر والله ما هو بشاعر، وقد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه هزجه ورجزه، وقتلتم: مجنون، لا والله ما هو بمجنون فما هو بخنقة ولا تخليط ولا وسوسة، فانظروا فى شأنكم، فإنه والله قد نزل

(١) البيت من الكامل، وهو لقتيلة بنت النضر فى تاج العروس (أثل).

بكم أمر عظيم، والنضر بن الحارث كان من شياطين قريش؟، وهو الذى جاء بقصة رستم وإسفنديار، وكان يجلس يحدث بها، ويقول: ما جاء به محمد ليس بأحسن مما جئت به إن هو إلا أساطير الأولين فنزل فيه: ﴿إِذَا تَتَلَّاهَا عَلَيْهٖ ءَايَتُنَا قَالَا كَاسْطِيزُ الْاَوَّلٰىنَ﴾ [القلم: ١٥] فى آيات أخر.

(وفى الحديث عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما لمست يده يد امرأة قط لا يملك رقها)، وهذا من عفته صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا الحديث رواه الشيخان عن عائشة رضى الله تعالى عنها، وسكت عن زوجاته، لأن جواز مسهن معلوم، وإنما يحرم مس الأجنبية التى ليست بمحرم، فيعلم ذلك من الرقيق بالطريق الأولى، وقيل: إنه داخل فى ملك الرق لتملكه البضع، وقد سمى بذلك فى قول أسماء رضى الله تعالى عنها التزويج رق المرأة، فلينظر أين يضع رقها؟، ولا ينافى هذا ما مر من أن الأمة من إماء المدينة كنت تأخذ بيده صلى الله تعالى عليه وسلم، فلا تدع يده من يدها حتى يقضى حاجتها؛ لأنه كان بحائل من كمه أو كمها، وكلام عائشة رضى الله تعالى عنها هذا ورد فى مبايعته صلى الله تعالى عليه وسلم للنساء، فإن بعضهم توهم أنها كمبايعة الرجال باليد من غير حائل، فقالت رضى الله تعالى عنها: إنما كان يقول لمن هاجر من المؤمنات ما أمره الله تعالى به فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعَنَّكَ﴾ [الممتحنة: ١٢] إلى قوله: ﴿عَفْوٌ رَّحِيمٌ﴾، فبايعهن على ذلك، فمن أقر به قال: قد بايعتك كلاماً من غير مس لأيديهن، وما ورد فى المبايعة من إمساك أيديهن، فإن كان مدّاً من غير مصافحة فيها، وإلا فهو بحائل؛ لأنه ورد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، أتى بثوب وضعه على يده، وقال: لا أصافح النساء<sup>(١)</sup>، وروى أنهن كن يأخذن بيده من فوق ثوب، وفى المغازى عن أبان بن صالح أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان فى المبايعة يغمس يده فى ماء فى إناء، وتغمس من بايعته يدها فيه، وقيل: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم بايع النساء بواسطة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، وكلام عائشة، رضى الله تعالى عنها، يقتضى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يبايعهن إلا كلاماً، فلعله تعدد.

(وفى حديث على رضى الله تعالى عنه فى وصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم: أصدق الناس لهجة) رواه الترمذى فى شئامه، وتقدم بيانه لعصمته، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن الكذب، ولو سهواً لمنافاته للإبلاغ ووجوب تصديقه فى كل ما يقول كما سيأتى.

(وقال فى الصحيح) أى فى الحديث الصحيح، أو فى صحيح البخارى، لأنه حيث

(١) أخرجه عبد الرزاق فى المصنف (٩٨٣١).

أطلق الصحيح انصرف إليه، وهذا أولى (ويحك فمن يعدل إن لم أعدل خبت وخسرت إن لم أعدل) وتقدم ضبطه على الخطاب والتكلم، والكلام عليه إلا أن الذى فى البخارى فى باب الأدب ويلك بدل ويحك، وقد فرق بينهما يقال: ويل كلمة زجر وتوبيخ، وويح كلمة ترحم، وويس ترحم دون ترحمها، وهو معنى قول الأصمعى: إنها تصغيرها، وقيل: أصل ويل وى زيدت فيها اللام، وقد تقدم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قاله لمن قال له: ليست قسمتك يعدل، وأنه اختلف فى اسمه، وأنه عبد الله بن ذى الخويصرة التميمى، أو حرقوص بن زهير الخارجى، أو ذو النديّة، وقد مر الكلام فيه مفصلاً فتذكره.

(قالت عائشة رضى الله تعالى عنها: ما خير رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه) أعاد المصنف هذا الحديث، وقد تقدم بعينه، لما فيه من عدالته صلى الله تعالى عليه وسلم وعفته، فلا وجه للاعتراض عليه، والأمران من أمور الدنيا، والمخير إن كان الناس فلا إشكال فيه، وإن كان الله تعالى وهو الظاهر، فالمراد بالإثم ما يؤدى إلى وقوع أمته فيه، لأن الله تعالى لا يخيره صلى الله تعالى عليه وسلم بين إثم وغيره كاختياره الرزق الكفاف على فتح الكنوز له ولأمرته، فإن الدنيا تشغلهم عن العبادة، وتوقعهم فى المهالك، وقد تقدم تفصيله.

(قال أبو العباس المبرد)، وهو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر إمام العربية، وترجمته مشهورة فى التواريخ، وما نقله المصنف هنا عنه إنما ذكره ليعلم بذلك جلالة قدره، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومباينة حاله لحال أهل الدنيا، وما هم عليه من اللهو، فلا يرد عليه ما قيل: إنه لا فائدة فيه: (قسم كسرى أيامه) بكسر الكاف وقد تفتح، وهو كما تقدم اسم لكل من ملك الفرس معرب خسرو، إلا أنه لقب كسرى أنو شروان الذى ولد فى زمنه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، لأنه أشهرهم وأعظمهم.

(فقال: يصلح يوم الريح للنوم)، والتغطى حتى يسلم من مس الريح الشديد المصدع، (ويوم الغيم للصيد) الذى كان يتقيد به الملوك لعدم أذية الشمس وحرها، ويقال له يوم فاختى وسبيل، (ويوم المطر للشرب واللهو)؛ لقلة المصالح فيه، والسلامة من البلل، والنظافة من الوحول، والمراد باللهو سماع الغناء ومنادمة الندماء، (ويوم الشمس للحوائج)، وروى يوم الصحو أى خلو الجو من المطر والغيم، والمراد بالحوائج مصالح الناس، وهو جمع حاجة على خلاف القياس، أو جمع حائجة وأنكره بعض أهل اللغة، وقد رده الجواليقى بأنه ورد فى كلام الفصحاء كثيراً، وفى الحديث: (اطلبوا الحوائج

عند حسان الوجوه) فلا وجه لإنكاره كما فصلناه فى شرح الدرّة، وإنما اختير ذلك اليوم للحوائج، لعدم المانع فيه، وما اشتهر من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «ولدت فى زمن العادل كسرى»<sup>(١)</sup> قد قال الحافظ السخاوى والسمعانى: إنه لا أصل له، فهو موضوع، ولو صح لم يكن فى وصفه بالعادل بأس كما توهم، فإنه كان لا يجوز على أحد من رعيته ولا يظلمهم فى حقوق الدنيا، فعدله بالنسبة لذلك لا ينافى كفره وظلمه لنفسه لجهله ومحبهه للدنيا، وقيل: إنه وصف بذلك لشهرته به ادعاء منهم، لا أنه شهد له بالعدالة حقيقة، وذكر قصته توطئة لقوله: (قال ابن خالويه) بفتح اللام والواو وسكون المثناة التحتية، والمحدثون يضمنون اللام مع سكون الواو وفتح الياء، وهو الحسين بن محمد بن خالويه النحوى الأديب الهمدانى، دخل بغداد ثم انتقل للشام، وصحب سيف الدولة لتأديب أولاده، وأخذ العربية عن أبى بكر بن الأنبارى والسيرافى، وتصدر للإفادة، وله تأليف جليلة وشعر حسن، ومات بحلب سنة سبعين وثلاثمائة.

(ما كان أعرفهم) أى الفرس الدال عليهم ذكر كسرى (بسياسة دنياهم) أى تدبير أمورهما، لأن هذا معنى السياسة لغة قال<sup>(٢)</sup>:

فبينما نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة تنتصف  
وقول ابن كمال فى رسالة التعريف إنه معرب خطأ كما تقدم (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) يعنى أنهم عرفوا أمر شربهم وأكلهم وحركتهم، وتقيدوا بذلك، وغفلوا عن المعاد وما يليق به، وهذه مراده فيما اقتبس كما قال الشاعر:

ومن البلية أن ترى لك صاحباً فى صورة الرجل السميع المبصر  
فطن لكل مصيبة فى ماله وإذا يصاب بدينه لم يشعر  
ويقرب ما قاله المفسرون نقلاً عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنهم يعلمون أمر معاشهم ودنياهم، متى يزرعون، ومتى يحصدون، وكيف يعرشون وينون.  
(ولكن نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، جزأ نهاره ثلاثة أجزاء) يعنى أنهم قسموا

(١) انظر: الدرر المنتثرة (١٧٠)، وتذكرة الموضوعات (٨٨).

(٢) البيت من الطويل، وهو لحرقه بنت النعمان فى الجنى الدانى (٣٧٦)، خزنة الأدب (٥٩/٧)،

٦٠، ٦٨، ٧٠)، الدرر (١١٩/٣١)، شرح ديوان الحماسة (ص ١٢٠٣)، شرح شواهد المغنى

(ص ٧٢٣)، لسان العرب (٣٣٣/٩).

أيامهم لما ذكر، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم قسم أوقاته، وهو أكثر حزما لعدم ضياع جزء ووقت من عمره فيما لا يعنيه، وشتان بين القسمين والمقسمين، وفى نسخة لكن بدون واو.

(وجزءاً لله) أى لعبادة الله وتلقى وحيه.

(وجزءاً لأهله) أى لمصالح أهله وبيته.

(وجزءاً لنفسه) مخصوصاً بأكله وشربه ونحو ذلك من أموره الدنيوية.

وجزءاً فى المواضع الثلاثة يجوز نصبه ورفع، وكذا روى (ثم جزءاً جزئه بينه وبين الناس) أى جعله قسمين قسمًا خاصة نفسه، وقسم الخاص به قسم له فى نفسه، وقسم ينظر فيه أمور الناس وحوائجهم.

(فكان) صلى الله تعالى عليه وسلم (يستعين بالخاصة) من أصحابه، وهم خلفاؤه ووزراؤه رضى الله تعالى عنهم، ومن يقرب منهم (على العامة) من المسلمين، (ويقول) للخاصة (أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغى) أى أخبرونى، وقولوا لى ما يطلبه العوام ممن لا يقدر أن يبلغنى حاجته، إما لعدم الجراءة على كلامه لمهابته صلى الله تعالى عليه وسلم، أو لعجزه عن الوصول إلى، ثم رغب فى ذلك بقوله: (فإنه من أبلغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها آمنه الله يوم الفرع الأكبر) وهو يوم البعث والحشر، وحيث يكون الناس كلهم فى فرع أى خوف من العذاب، وقيل: هو يوم النفخة أو يوم الانصراف إلى النار، وهذا من حديث هند بن أبى هالة، وآمنه بالمد بمعنى جعله فى أمن من أهوال القيامة.

(وعن الحسن) بن على، رضى الله تعالى عنهما، كما رواه أبو داود فى مراسيله (كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا يأخذ أحدًا بقرف أحد) الأخذ مجاز عن العقوبة من أخذ السلطان إذا حبسه، وجازاه على ما صدر منه، والقرف بفتح القاف وسكون الراء المهملة والفاء التهمة، وإسناد الذنب لغيره، وقال البرهان الحلبي: يقال: قرفت الرجل أى عبته واتهمته فهو مقروف، وفى نسخة بقذف بزال معجمة بدل الراء وكتب عليها صح.

(لا يصدق أحدًا على أحد) أى لا يحكم بصدق مقالة صدرت من أحد فى حق أحد غيره بإسناده إليه أمرًا يقتضى عقوبة، أو حقًا من الحقوق بمجرد قوله من غير إثبات لمقاله، وهذا من عدله صلى الله تعالى عليه وسلم، ولكن هذا ليس على عموم، فإنه ربما كان المخبر ممن يعلم صدقه، ويعتمد على خبره، وينكشف بنور النبوة جلية الحال له.

(وذكر أبو جعفر الطبرى) هو الإمام محمد بن جرير الطبرى المشهور، وقد تقدمت

ترجمته، وهذا الحديث رواه البزار إلى قوله برسالته الآتى (عن على) كرم الله وجهه (عنه صلى الله تعالى عليه وسلم: ما هممت بشىء)، وقد تقدم هذا الحديث، والكلام فيه، وإنما أعاده المصنف لغرض آخر، وهو بيان عفته صلى الله تعالى عليه وسلم عن اللهو، وأن الله عصمه عن ذلك من أول أمره، وقيل: إنما أعاده لزيادة فيه لم تذكر أولاً، وهى قوله غير مرتين إلى آخره (مما كان أهل الجاهلية يعملون به) كما تقدم بيانه (غير مرتين، كل ذلك يحول الله بينى وبين ما أريد من ذلك) استعار الحائل الحاجز بين شىء وشىء للمناع كما فى قوله تعالى: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤].

قال أبو عبيد: أى يملك عليه قلبه، فيصرفه كيف يشاء، وذلك الثانى إشارة لما كان عليه أهل الجاهلية، والمعنى أنه عصمه صلى الله تعالى عليه وسلم عنه، (ثم ما هممت بسوء) أى صرف الله قلبى عن أن يهيم بسوء أى بقبیح شرعاً كاللهو (حتى أكرمنى الله برسالته) أى حتى من الله على بالبعثة، وجعلنى نبياً رسولاً، ثم بين ما هم به فى المرتين، فقال، صلى الله تعالى عليه وسلم: (قلت للغلام كان يرعى معى) يعنى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يرعى غنماً لبعض قريش فى صغره، وهذا كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يرعون لغيرهم أيضاً، والغلام كان أجيراً أيضاً يرعى معه، ويرافقه فى البداية، وفى هذا تحصيل كسب حلال، وتدريب لرعاية الخلق كما ورد: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»<sup>(١)</sup> مع ما فيه من الأئس بالوحدة والخلوة، وفى الحديث: «ما من نبى إلا رعى الغنم»<sup>(٢)</sup>. قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «نعم، كنت أرها على قراريط بمكة»<sup>(٣)</sup>، وقيل: حكمته أن الغنم جاهلة صعبة السياسة، فكان ذلك ليأئس بسياسة الخلق، والقراريط جمع قيراط، وهو سلس درهم، وقيل: إنه اسم جبل بمكة، وأنكروه لأنه لم يسمع به ثمة، وفى الحديث: «ستفتح عليكم مصر فاستوصوا بأهلها خيراً» الحديث، والقيراط فيه: قيل: إنه بهذا المعنى، وقيل: إنه نصاب بينهم، وقيل غير ذلك، وعندى أنه بمعنى مقدار الأرض المعروف بينهم فى الساحة، لأنه مخصوص بها، وأما غيره فلا اختصاص له بها، وفى هذا معجزة له صلى الله تعالى عليه وسلم لإخباره بالغيب، وقوله: (لو أبصرت لى غنمى)، أى لو حرصتها وحفظتها؛ لأن البصر والنظر يستعار لذلك، (حتى أدخل مكة، فأسمر بها) سمر يسمر كقتل يقتل، والسمر التحدث بالليل،

(١) أخرجه البخارى (٦/٢، ١٩٦/٣، ٦/٤، ٧)، وأحمد (٥/٣، ٥٤، ١١١، ١٢١)، والترمذى

(١٧٠٥)، والبيهقى (٢٨٧/٦، ٢٩١/٧، ١٦٠/٨).

(٢) أخرجه مالك فى الموطأ (٩١/١)، وابن سعد (٧٩/١/١).

(٣) أخرجه البخارى (١١٦/٣).

وأصل معناه: ضوء القمر من السمرة، وهى السواد القليل، فسمى به حديثهم ليلاً لجلوسهم له فيه قال:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر  
(كما يسمر الشباب)، والشباب بفتح الشين مصدر شب، بمعنى صار شاباً، واسم جمع له كالعقود، والشاب حديث السن كالفتى.

(فخرجت) من البادية التى فيها الغنم، (لذلك حتى جئت أول دار من مكة) غاية لجيئه من المرعى، (سمعت فيها عزفاً) بعين مهملة وزاى معجمة وفاء بزنة ضرب، وهو ما يلهى به الإنسان، وفى مختصر العين: العزف اللعب بالمعازف، وهى الملاهى وواحدها عزف على خلاف القياس أو معزف، والمعزف الطنبور أو الدف، وقيل: كل لعب عزف.

(بالدفوف) جمع دف بضم أوله وفتح وتشديد الفاء، وهو الذى يضرب به النساء، وهو معروف، ويسمى عند العامة دراجاً وطاراً، وفيه شبه الجلالجل قال:  
كأن فى الدف الذى يفصله زمار دف يتغنى جلاله  
واختلف فيه فجوزه بعض الشافعية، وكرهه مالك.

(والزماير لعرس بعضهم، فجلست أنظر) ما يلعبون به والذين يلعبون، (فضرب على أذنى فنمت) بكسر النون وأذن بضمين وضم فسكون تخفيفاً، وضرب الله على أذنه أن يغشاه النوم، وأصله منع السمع؛ لأن من نام لا يسمع، وهو مستعار من ضرب الخيمة العظيمة المغطى لمن تحتها، فكان أذانهم تحت غطاء محجوبة عن السمع قال الراغب: ﴿ضُرِيتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ﴾ [آل عمران: ١١٢] التحفتهم التحاف الخيمة لمن ضربت عليه، ومنه استعير ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ﴾ [الكهف: ١١]، وفيه لطف هنا؛ لأنه ذهب ليسمع ضرب الدف، فضرب على أذنه صيانة من الله له ﷺ، (فما أيقظنى إلا مس الشمس)، أى مس حرها، فكانها مسته حتى حرقتها وحبسته حتى نبهته، ففيه استعارة ولطف كما فى قول ابن المعتز:

والريح تجذب أطراف الغصون كما أفضى الشفيق إلى تنبيهه و سنان  
وكما قيل:

نمت تحت أذيال النسيم حتى ألقى على الشمس رداءها

(فرجعت) من المكان الذى ضرب فيه الدفوف، (ولم أقض شيئاً) من قضى وطره إذا كان ما يريده يعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، جلس قبل تعاطيهم الله، فغلبه النوم حتى لم يسمع شيئاً من ذلك؛ لعصمة الله له صلى الله تعالى عليه وسلم، ومجرد همه



بذلك، وإرادته لا حرج فيه، والفاء شاهدة بعدم سماعه على أنه لم يكن حرم عليه شىء من ذلك، وكونه محرماً فى شرع من قبلنا، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم، متشرع به غير مسلم.

واعلم أن المعازف حرام فى ملتنا للنهى عنها فى الأحاديث المشهورة كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «ليكونن فى أمتى أقوام يستحلون الخمر والمعازف»، واختلف فى بعضها، فمنهم من جوز الدف فى العرس، ومنهم من جوز ضرب العود لتسليه الأحران كماوردى، وكان الأستاذ الشيخ محمد البكرى، رحمه الله تعالى ونفعنا به، يقول: عطروا مجلسنا بالعود الماوردى، لكنه قول ضعيف، وفى منظومة الدميرى، رحمه الله تعالى:

ونغمات العود فى الأحيان      قالوا تزيل أثر الأحران  
فاجزم على التحريم أى جزم      والحزم أن لا تتبع ابن حزم  
فقد أبيحت عنده الأوتار      والعود والطنبور والمزمار

(ثم عرانى)، أى طراً علىّ وعرض لى وغشينى (مرة أخرى) فى وقت آخر (مثل ذلك) من الهم بالسماع والذهاب له، (ثم لم أهم) قال الشمنى: هو بضم الهاء وعليه اقتصر الجوهري، رحمه الله تعالى (بعد ذلك بسوء) أى بما فيه إثم، فسماه سوءاً؛ لأنه يكرهه ويؤله.

\* \* \*

### (فصل وأما وقاره ﷺ)

أى سكوته وطمأنينته ورزاقته يقال: وقر يقر وقرأ ووقاراً، وفسروه هنا بالحلم، وهو غير مناسب هنا كما لا يخفى، ويجىء الوقار بمعنى العظمة كما فى قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تُرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، وأصله من الوقر وهو من الثقل، (وصمته) أى سكوته، وهو من الوقار، (وتؤدته) بضم التاء الفوقية وفتح الهمزة والبدال المهملة وهى التأنى يقال: اتأد فى فعله إذا تأنى ولم يعجل، وتأؤه منقلبة عن واو (وحسن هديه) بوزن ضربه بمعنى سيرته وطريقته وسمته وسلوكه.

(فحدثنا أبو على الجياني) بالجميم وتقدم ضبطه وترجمته (الحافظ إجازة) قال ابن فارس فى مجمله: وهى من جواز الماء الذى تسقاه الماشية. يقال منه: استجرت فلاناً فأجازنى إذا سقاك الماء لأرضك وماشيتك، قال القطامى: وقالوا: فلان قيم الماء فاستجرت عبادة أن المستجيز على قتر أى على ناحية، وجزت الموضع سرت فيه، وأجزته حلقتة وقطعته،

وأجزته بعدته، قال امرئ القيس:

ولما أجزنا ساحة الحى وانتحى بنا بطن خبت ذى قفار عنققل

وقوله: حتى يقال: أجزوا آل صو، فإنما يمدحهم بأنهم يجيزون الحاج، انتهى.

قال ابن الصلاح: قلت: فللمجيز على هذا أن يقول: أجزت فلاناً مسموعاتى أو مروياتى، فيعديه بغير حرف جر من غير حاجة إلى ذكر الرواية، أو نحو ذلك، ويحتاج إلى ذلك من يجعل الإجازة بمعنى التسويغ والإذن والإباحة، وذلك هو المعروف، فيقول: أجزت لفلان رواية مسموعاتى مثلاً، ومن يقول منهم: أجزت له مسموعاتى، فعلى سبيل الحذف الذى لا يخفى نظيره، انتهى.

أقول: اعلم أن أصل الإجازة فى كلام العرب قديماً كما ذكره أهل اللغة الإذن فى الانصراف، ولما كان من يأخذ عن شيخه ينصرف عنه أخذت منه كما يقتضيه الاستعمال، وكلام أهل اللغة قاطبة؛ لأنها من جاز المكان إذا تجاوزه ومر عليه، ثم عدى بالهمزة للمفعول الثانى، وقد يقتصر على أحد مفعوليه؛ لأنه من باب كسا، ومعنى أجازته أذن له الجواز والمرور، ثم استعمل فى مطلق الإذن، وشاع حتى صار حقيقة فيه، فمعنى إجازة الشيخ إذنه فى الرواية عنه، وهذه لفظة قديمة كما سمعته، وكذا الجائزة بمعنى العطية ليست محدثة كما قاله الحافظ ابن حجر، رحمه الله، إلا أنه يحتمل أنها من هذا؛ لأن المعطى كأنه يأذن لمن أعطاه فى الانصراف عنه، ولا تختص بالماء كما يوهمه كلام المحمل المتقدم، وهو الذى غزا ابن الصلاح، فقوله: مأخوذة من جواز الماء لا وجه له، بل من أجازته إذا جعله جائزاً، ثم نقل لمعنى أذن له، وكذا قوله: وقد تبين أنه يتحوز به عن معنى لفظ آخر، وبينهما مخالفة فى التعدية، فنحوز حمله على حقيقته وعلى مجازته، فلك حيثئذ أن تعديه لمفعولين، ولك أن تعديه لواحد بحرف، وبدونه، فيعمل عمل أذن وأجاز من غير تكلف.

(وعارضت بكتابه)، أى قابلت نسختى بنسخته حال القراءة؛ لأنه يقال: عارضه إذا قابله، والكلام على هذا مبين فى مصطلح الحديث، فالمعنى أنه حدثه به قراءة منه، وهو مقابل له وفى يده كتابه.

(قال: حدثنا أبو العباس الدلائى) بكسر الدال المهملة مشددة وتخفيف اللام المفتوحة، ثم ألف ممدودة وياء مشددة إلى دلاء جمع دلو، وقال البرهان الحلبى: إن لامه مشددة، ووجد فى بعض النسخ مضموم الهمزة، والظاهر أنها مكسورة بعدها ياء نسبة، انتهى، والظاهر أنه مفتوح الدال وهو صانع الدلو، وهو أبو العباس أحمد بن أنس العذرى

المعروف بابن الدلاء من مدينة بالنسبة قال: (أخبرنا أبو ذر الهروى) تقدمت ترجمته، وهو عبد الله بن أحمد بن محمد الهروى قال: (أخبرنا أبو عبد الله الوراق) أبو الحسن عبد الله محمد بن على الأنطاكى المعروف بابن الغيور الوراق قال: (حدثنا اللؤلؤى) أبو على محمد بن أحمد بن عمرو والمشهور برواية السنن عن أبى داود قال: (حدثنا أبو داود) سليمان بن أشعث صاحب السنن الإمام الحافظ المشهور قال: (حدثنا عبد الرحمن ابن سلام) بفتح السين المهملة وتشديد اللام، وهو جد عبد الرحمن نسب إليه، وأبوه محمد بن سلام البغدادى الثقة، روى عنه أبو داود والنسائى وقال: لا بأس به قال: (حدثنا حجاج بن محمد بن عبد الرحمن بن أبى الزناد) هو الأعور المصيصى الحافظ الثقة، أخرج له أصحاب السنن الأربعة، قال ابن حزم: توفى سنة أربع وستين ومائة.

(عن عمر بن عبد العزيز بن وهيب)، ويقال: أهيب بالهمزة وهو بدل قياسى، وهو أنصارى مولى لزيد بن ثابت، وهو يروى عن خارجة، وأخرج له أبو داود فى المراسيل هذا الحديث، وقال الذهبي: لا يعرف من هذا كما فى الميزان (سمعت خارجة بن زيد) هو خارجة بن زيد بن ثابت الأنصارى المدنى التابعى، أحد فقهاء المدينة السبعة، وهم سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود، وخارجة بن زيد، وسليمان بن يسار، وفى السابغ أقوال: فقيل: هو سالم ابن عبد الله بن عمر، رضى الله تعالى عنهم، وقيل: أبو سلمة بن عبد الرحمن، وقيل: أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، ثم إن الفقهاء بالمدينة، وإن كانوا كثيراً، فإنما خص هؤلاء لإجماع الناس على رأيهم وانتهائهم لفتواهم؛ معرفتهم بالفضل والصلاح حتى كان لا يقضى فى أمر حتى يرفع إليهم، وكان الناس يتبركون بهم حتى قيل: إن أسماءهم إذا علقت على محموم برئ، وإذا وضعت فى البر لم يدخله سوس ولم يفسد، وقد نظمهم القائل فى قوله:

ألا كل من لا يقتدى بأئمة فقسمة ضيزى عن الحق خارجه

فخذهم عبيد الله عروة قاسم سعيد أبو بكر سليمان خارجه

وهذا الحديث من مراسيل أبى داود.

(يقول: كان النبى ﷺ أوقر الناس فى مجلسه)، أى أعظمهم وقاراً إذا برز للناس وجلس معهم، بخلاف ما إذا خلا مع أهله أو مع خاصته، فإنه ينبسط معهم ويلطفهم يعنى أن هذا كان عادته ودأبه ﷺ، بحيث لا يصدر عنه خلافه، وكان وإن كانت بحسب الأصل فعلاً ماضياً لكنها قد تستعمل للاستمرار نحو ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، وللتكرار نحو: (كان حاتم يقرى الضيف) لقرينة، وهو استعمال شائع،

ولكثرته عده بعض الأصوليين معنى لها، ولم يحققه أحد كابن جنى فى كتاب الخصائص، فإن أردته فانظره.

(لا يكاد يخرج شيء من أطرافه)، أى أطراف بدنه كرجليه، ولا يكاد يخرج فيه مبالغة، أى لا يخرج ولا يقرب من الخروج، ولذا عدل عن لا يخرج وهو أخصر، ويخرج بفتح أوله مضارع خرج يخرج كقتل يقتل، وشيء فاعله، أو بضمه مضارع أخرج وشيئاً مفعول إلا أن جل النسخ على الأول.

(وروى أبو سعيد الخدرى)، هو سعيد بن مالك بن سنان الخدرى، رضى الله تعالى عنه، وقد تقدم: (كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إذا جلس فى المجلس احتبى بيديه، وكذلك كان أكثر جلوسه صلى الله تعالى عليه وسلم محتبياً)، وفى رواية بثوبه بدل بيديه، والاحتباء بالحاء المهملة أن يجمع ظهره وساقيه بيديه أو عمامته ونحوه، والحبوة بضم الحاء وكسرهما، ويقال: حبية وحبية أيضاً، ويقال: الاحتباء حيطان العرب؛ لأنهم أهل برارى لا حيطان لهم يستندون إليها، فالاحتباء قائم مقامها، وليس هذا معارضاً لما ورد فى الحديث من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم «نهى عن الاحتباء فى ثوب واحد»<sup>(١)</sup>، إذ النهى فيه لم يرد عن الاحتباء، وإنما ورد عن كونه فى ثوب واحد؛ لأنه ربما تحرك فيزول الثوب وتنكشف عورته، وأما قوله:

وإذا احتبى قربوسه بعنانه علك الشكيم إلى انصراف الزائر

فاستعاره ونهى عن الاحتباء يوم الجمعة والخطيب يخطب؛ لأنه يؤدى إلى النوم، وهذا الحديث رواه أبو داود، والترمذى فى شمائله.

(وعن جابر بن سمرة، رضى الله عنه) رواه مسلم، وأبو داود (أنه) ﷺ (تربع)، أى جلس متربّعاً، وهو أن يقعد الرجل على وركيه، ويمد ركبته اليمنى إلى جانب يمينه وقدمه اليمنى إلى جانب يساره، وركبته اليسرى إلى جانب يساره وقدمه اليسرى إلى جانب يمينه، وهذا فى خارج الصلاة كما فى الحديث: «كان صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا صلى الفجر جلس متربّعاً حتى تطلع الشمس»<sup>(٢)</sup>، وهو فى الصلاة كما صرح به الفقهاء، وأما خارجها فلا يكره، وقيل: إنه سنة، وقول بعض فقهاءنا: إنها جلسة الجبابة مع فعله صلى الله تعالى عليه وسلم، لها فيه نظر.

(وربما جلس القرفصاء) بضم القاف والفاء ويجوز كسرهما ويمد ويقصر، وهو

(١) أخرجه ابن ماجة (١١٣٤).

(٢) أخرجه البخارى (٧٠/٢)، وأحمد (٢٥٤/٦)، وأبو داود (١٢٦٣)، والبيهقى (٤٥/٣).

جلوس على إيتيه كجلوس المحتبى بيديه من غير احتباء كما يدل عليه ما بعده، وقال الفراء: إذا ضمنت مددت وإذا كسرت قصرت.

(وهو) أى جلوسه صلى الله تعالى عليه وسلم، القرفصاء ورد (فى حديث قليلة) بفتح القاف وسكون المثناة التحتية ولام، وهى بنت مخزومة العنبرية كما فى المفتى، وقال الشمنى: العدوية، وقيل: العنزىة، وهو الصحيح، وفى حديثها أنها رأت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فى المسجد، وهو قاعد القرفصاء.

وفى رواية: فلما رأت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، المتخشع فى الجلسة أرعدت من الفرق، وليس هذا فى رواية الترمذى، ومسلم التى ذكرها المصنف، وفى كلامه إشارة إلى أنه زيادة عليها.

والمتخشع إن كان صفة فالرؤية بصرية، وإن كان مفعولاً ثانياً فهى علمية، ورعدتها من مهابته، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا من تخشعه.

(وكان صلى الله تعالى عليه وسلم، كثير السكوت لا يتكلم فى غير حاجة) تدعوه للكلام، ولم يكن يسرد الحديث بعجلة ليفهم عنه، وهذا مروى عن عائشة، رضى الله تعالى عنها، (يعرض عمن تكلم بغير جميل) لا يرضاه فيعلم بإعراضه عنه أنه غير مرضى له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا من وقاره أيضاً، وليس المراد به: أن يكون حراماً كما قيل؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يقر على مثله.

(وكان ضحكك تبسما) بدون قهقهة لشدة وقاره صلى الله تعالى عليه وسلم، والضحك انبساط الوجه حتى يظهر منه السرور ويبدو الثنايا فقط، وأما ما ورد من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، ضحك حتى بدت نواجذه فمحمول على المبالغة لزيادته فيه على ما عهد منه، أو هو نادر لا يعتد به.

(وكلامه فصلاً) بفاء وصاد مهملة أى فاصل بين الحق والباطل، أو مفصل لتمهله فيه قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١١﴾ وَمَا هُوَ بِالْمَؤَلِّ﴾ [الطارق: ١٣، ١٤].

(لا فضول) مصدر أى لا زيادة فيه، وقيل: إنه فى الأصل جمع فضل بمعنى الزيادة، فنخص بما ذكر، ولذا قيل فى النسبة له: فضولى وينسب للجمع.

(ولا تقصير) فيه حتى يخل بفهم السامع.

(وكان ضحك أصحابه عنده) صلى الله تعالى عليه وسلم، (التبسم توقيراً له واقتداء به)؛ لتخلقهم بأخلاقه وتأديهم بآدابه.

(مجلسه مجلس حلم) بكسر الحاء وسكون اللام، وفى نسخة حكم بضمها مع

الكاف، (وحياء) منه ومن أصحابه، (وخير) لإحسانه ولطفه وتعليمه، (وأمانة) يأمن المتكلمون فيه على أسرارهم، فلا ينقل منه مالا يحبون إفشاءه، كما ورد فى الحديث: «المجالس بالأمانة».

(لا ترفع فيه)، أى فى مجلسه (الأصوات) لأدبهم وتوقيرهم له، وكان ذلك محرماً عليهم لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢]، وأما كونه وقع مثله بمحضرتة فى قصة الإفك فنادر لا يعتد به.

(ولا تؤبن فيه الحرم) بضم المثناة الفوقية وهمزة ساكنة وتبدل واو وتؤبن من أبته يأبته إذا عابه ورماه بقبيح، أصله الأبنة وجمعها أبن، وهى العقدة فى القسى تفسدها وتعاب بها، ووقع فى بعض الخواشى: تؤبر براء بدل النون، وفسره بما ذكر على أنه مأخوذ من المآبر التى واحدها مبرة، أو من أبترته العقرب إذا لدغته بإبرتها، وهى آخر عقد ذنبها، وهو تصحيف كأنه وجده فى بعض النسخ فاتبعه، والمذكور فى كتب اللغة كالنهاية والجوهري وغيرهما هو الأول، وصرح ابن فارس فى الجمل بأن الحديث مروي هكذا، والحرم جمع حرمة، وهى كل ما يحرم هتكه، وأما استعماله بمعنى المرأة فعامية وإن كان لها وجه، وقيل: إنها صحيحة مراد به هنا النساء؛ لأنه ورد فى الحديث نهيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن شعر تؤبن فيه النساء، وفى حديث الإفك: (أشيروا على فى أناس آبنوا أهلى)، انتهى. يعنى أنه محفوظ من الرفث ولغو القول، فهو من وقاره أيضاً؛ لقوله: (إذا تكلم أطرق جلساؤه) أى طأطأوا رءوسهم توقيراً له، صلى الله تعالى عليه وسلم، منصتين لكلامه (كأنما على رءوسهم الطير)، وصفهم بالسكون وعدم الخفة والطيش؛ لأن الطير لا تكاد تقع إلا على شىء ساكن، ولك أن تقول: إنه شبههم بغصون مغروسة فى رياض مجلسه كما قال فى البردة:

كانهم فى ظهور الخيل نبت ربا من شدد الحزم لا من شدة الحزم  
(وقلت فى المقصورة:)

كأنما الطير على رءوسهم من كل غصن فى ربا المجد نما  
والطير جمع أو اسم جمع لطائر وهو معروف.

(وفى صفته ﷺ) فى مشبه، وهو خير مقدم، وقوله: (يخطو تكفأ) مبتدأ؛ لأنه أريد به لفظه، فهو كقوله: «لا حول ولا قوة إلا بالله كثر من كنوز الجنة»<sup>(١)</sup>، أى قيل فى

(١) أخرجه مسلم فى الذكر والدعاء برقم (٤٤، ٤٥)، وأحمد (١٥٦/٥)، والطبرانى (٤٢١/١٩)، والعقلى فى الضعفاء (٢٠٠/٢)، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (٣٤٩/٢)، وابن عدى (١٧١/١).

وصفه هذا، ويخطو مضارع خطا المعتل إذا مد رجله ومشى، والخطوة بالضم ما بين القدمين وبالفتح المرة، وتكفأ بفتح المثناة والكاف وفاء مضمومة مشددة بعدها همزة مصدر كتقدم تقدما، بمعنى مال إلى قدام، والأصل فيه الهمزة وبه روى، فإن اعتل كسرت الفاء وكان بالياء كتسمى تسميًّا، وقال شمر: معناه مال يمينًا وشمالًا كمشى المختال، والصواب تفسيره بمال إلى جهة ممشاه كما يدل عليه قوله: كأنما ينحط من صيب أى من علو لا تمايل، فإنه غير مناسب.

وقد ورد في حديث ابن أبي هالة أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، ذريع المشية إذا مشى مشى تفلعا، أى يرتفع عن الأرض بجملته، وروى قلعا بفتح القاف وكسر اللام وهو أدل على الثبوت والشجاعة، وهكذا كان أولوا العزم عليهم الصلاة والسلام.

(ومشى هونا) بفتح الهاء وسكون الواو أى برفق ولين من غير تمايل مع الترفق والثبوت، قال الله تعالى: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، قال مجاهد: بالسكينة والوقار، (كأنما ينحط من صيب) بفتحيتين أى ينزل من صيب، وهو الموضع المنحدر، وفي رواية: كأنما هو من صبوب بالضم والفتح، وهو ما يصب من ماء ونحوه، أى لم يكن صلى الله تعالى عليه وسلم، يستعجل، وأما قول أبي هريرة، رضى الله تعالى عنه: ما رأيت أحداً أسرع من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، كنا نجهد أنفسنا وهو غير مكترث، فإنما هو لسعة خطوته، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى لا يلحق مع تثبته وتمهله.

(وفي الحديث الآخر: إذا مشى مشى مجتمعا)، أى ينقل أعضائه كلها دفعة واحدة من غير تحريك لرأسه الشريف وبدنه، فهو ﷺ فى مشيه قوى غير مسترخ (يعرف فى مشيته) بكسر الميم وفتحها، (أنه غير غرض) بفتح الغين المعجمة وكسر الراء المهملة والضاد المعجمة، أى غير قلق ولا ضجر ولا ملل، (ولا وكل) بفتحيتين وهو البليد والجبان والعاجز الذى يكل أمره لغيره، وحكى شمر فيه كسر الكاف، كما قاله التلمسانى والدجلى، وهو أنسب هنا لموازنته لما قبله، وفسره بكسلان.

وقوله: (أى غير ضجر ولا كسلان) يعينه، فإن ظاهره أنه تفسير لما قبله على اللف والنشر المرتب، وضجر كحذر من الضجر وهو القلق، والكسلان من الكسل وهو الفتور وعدم النشاط من الغم، ويكون معنى سوء الخلق، ويكون غرض بمعنى سباق كقوله:

إنى ضجرت إلى تناصف وجهها غرض الحب إلى الحبيب الغائب

وليس بمراد هنا.

(وقال عبد الله بن مسعود)، رضى الله تعالى عنه، رواه البخارى وأصحاب السنن: (إن أحسن الهدى هدى محمد، صلى الله تعالى عليه وسلم)، والهدى بدال مهملة بوزن الرمى السميت والسيرة والطريقة، والحالة التى يكون عليها.

وهذا الحديث وإن كان موقوفاً على ابن مسعود، فله حكم المرفوع، وكذا سائر الأحاديث المتعلقة بالشمائل، فإن مثلها لا يقال من قبل الراوى، وقد روى مرفوعاً أيضاً، وكان ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، أشبه الناس هدياً بهدى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وكذا عمر وابنه، رضى الله تعالى عنهما، فلذا كان الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، يتشبهون به فى هديهم.

وبقية الحديث: « وشر الأمور محدثاتها»، وهو حديث طويل، قال ابن قرقول: وروى بضم الهاء وفتح الدال ضد الضلال.

(وعن جابر بن عبد الله، رضى الله تعالى عنهما)، أخرجه أبو داود والإمام أحمد فى الزهد: (كان فى كلام رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ترتيل أو ترسيل) كذا فى النسخ بأو إشارة إلى أنه روى بكل منهما على حدة، وفى المصاييح بالواو لتقارب معناه، فالعطف تفسيرى، فلا منافاة بينهما كما قيل، أى يبين الكلام من غير عجلة وغموض حتى يسبق فهم السامع إليه، وقيل: الترتيل التبيين، والترسيل التؤدة، وللترتيل من قولهم: نغمر مرتل وهو المفلج كالأقحوان.

(قال ابن أبى هالة) المتقدم ترجمته: (كان سكوته)، صلى الله تعالى عليه وسلم، (على أربع)، أى يقع على أربع خصال فيه (على الحلم)، أى يسكت تارة لحلمه على من تكلم عنده بما يقتضى المؤاخذة، (والحذر)، أى الاحتراز من كلام ربما أدى لأمر يخشى منه، (والتقدير)، أى يقدر صلى الله تعالى عليه وسلم، فى نفسه وسكوته ما يليق به وبغيره، (والتفكر) فى مصنوعات الله ونحو ذلك.

(قالت عائشة: رضى الله تعالى عنها)، كما رواه الشيخان عنها: (كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يحدث حديثاً لو عده العاد أحصاه)، أى لو أراد عده عده بسهولة، أو لو عده حصره بحيث لا يفوته منه شيء لقلته وتبته وعدم سرعته فيه.

(وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يحب الطيب والرائحة الحسنة)، الطيب كل ما يتطيب به من بخور ومسك وزعفران ونحوه، والرائحة الحسنة تشمل رائحة غيره كالريحان وسائر الزهور العطرة، ولذا كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يرد هديتها،



(ويستعملهما كثيراً) فى أكثر أوقاته لملاقاته الملك، فإنها تقوى الحواس، والملائكة، عليهم الصلاة والسلام، تحبها وتكره الرائحة الخبيثة بعكس الشياطين.

(ويحض عليهما) بضمير التثنية للطيب والرائحة، وفى نسخة عليها، فالضمير لها لأنها المقصود من الطيب لا لأنها أعم كما قيل؛ لتغايرهما أى كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يحث الناس ويحرضهم على استعمال ذلك لما لهم فيه من الفوائد، ولحضور الملائكة الحفظة والكتابة عندهم، ولملاقاتهم له بما يحبه، ومن مروءة الإنسان نظافته وطيب رائحته.

(ويقول: حُب إلى من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرّة عينى فى الصلاة)، وقد تقدم هذا الحديث، وأن لفظ ثلاث الموجودة فى التفاسير كالإحياء والكشاف غير ثابتة عن أكثر المحدثين، وما فى عطف جعلت، فإن محبة النساء من هدى الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، كداود وسليمان، وكان فيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من قوة الجماع ما ليس فى غيره، وقال: «فضلت على الناس بأربع: بالسماحة، والشجاعة، وقوة الجماع وشدة البطش»<sup>(١)</sup>، وكان فيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، قوة أربعين رجلاً من رجال الجنة، وكل رجل منهم فيه قوة مائة رجل من أهل الدنيا، وهذا مع قلة أكله وشربه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهذا الحديث أخرجه أصحاب الكتب الستة، وكان أكثر طيبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، الذريرة، وهو طيب يجىء من الهند معروف مركب، وتقدم أنه إنما قال: «حُبَّ» بالبناء للمجهول؛ لأن تلك المحبة جعلها الله فيه طبيعة لا شهوانية، وعلى تسليم رواية ثلاث إما أن يكون اكتفى باثنين منها، وحذف الثالث لتذهب نفس السامع كل مذهب، والعرب تفعله كقوله:

كانت حنيفة أنلاً فثلثهم من العبيد وثلث من موالها

أو الثالث: الصلاة، وقرّة عينه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيها، وجعلها من الدنيا لوقوعها فيها، ويكون تغييره للعبارة إشارة لمغايرتها لما قبلها، وأنها ليست من جنسها، ووقع فى بعض النسخ هنا زيادة لفظ ثلاث بعد قوله: من دنياكم، ومر الكلام فيها، وأنها ليست ثابتة وإن أثبتها الزمخشري والغزالي فى الإحياء، وكذا المصنف، رحمه الله تعالى، تبعاً لهم، وقد أفردنا هذا الحديث بتعليقة مستقلة، والحديث رواه أيضاً النسائي فى سننه فى رواية له بلفظ: «حُب إلى من الدنيا النساء والطيب وجعلت قرّة عينى فى الصلاة»، ومن هذا الوجه أخرجه أحمد، وأبو يعلى فى مسنديهما، وأبو عوانة فى

(١) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٢٦٩/٨)، والخطيب فى تاريخه (٧٠/٨)، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (١٦٩/١).

مستخرجه على الصحيح، والطبرانى، والبيهقى، وآخرون، كالحاكم فى مستدركه بسند جيد بدون لفظ: «وجعلت»، وقال: صحيح على شرط مسلم، وأخرجه ابن عدى فى كامله، وقال العقيلي: إنه ضعيف.

(ومن مروءته، صلى الله تعالى عليه وسلم، نهيه عن النفخ فى الطعام والشراب) المروءة من المرء وهو الإنسان، فهى بمعنى الإنسانية، ومعناها التلبس بما يليق بالرجال وترك ما يخل به، فارتكاب ما يكرهه الصاحب مغل بالمروءة، والنفخ فيما ذكر إما للتبريد أو إزاحة قدر على وجهه، وقد يخرج معه ريق المرء فيكره تناوله أو يكون النفس متغيراً فيؤثر فيه ولو توهمما، والغرض منه يحصل بالصبر وإماطة ما عليه بإراقة وخلال ونحوه، ولذا نهى عن التنفس فى الإناء حال الشرب، وأما ما ورد من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، «كان يتنفس إذ شرب مرتين»<sup>(١)</sup> ونحوه، فليس معناه ذلك بل أنه يقطع الشرب وينحى الإناء ويتنفس خارجه، فإنه يستحب عدم العب والقطع فى الشرب، وقد ورد أن النفخ فى الطعام يذهب البركة منه، كما ورد: «أبردوا الطعام، فإن الحار لا بركة فيه»<sup>(٢)</sup>، وفى لفظ: «غير ذى بركة»، وليس المراد بإبراده نفخه حتى يبرد، بل أكله بارداً بأن يصبر عليه حتى يبرد، فلا منافاة بينهما كما توهم، وقلة بركته لأنه يلتذ بمضغه وبلعه، أو أنه لشدة حرارته ينهضم سريعاً، فلا يشبع شبع غيره.

(و) من مروءته ﷺ (الأمر بالأكل مما يلى) كل أحد من الطعام لحديث عمر بن أبى سلمة ربيب رسول الله ﷺ أنه قال: «كنت غلاماً فى حجر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأن أمه أم سلمة، رضى الله تعالى عنها، زوجته، صلى الله تعالى عليه وسلم، وكانت يدي تطيش فى الصحيفة، فقال لى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «سم الله وكل يمينك وكل مما يليك»<sup>(٣)</sup>، أى لا من الوسط، ولا مما يلى غيرك، فهذا أمر منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بذلك، وورد مثله فى أحاديث أخرى، وقال أيضاً: تنزل البركة فى وسط الطعام، فكلوا من حافته أو من حاشيته، وهذا أمر ندب وذهب بعض الشافعية: إلى أنه للوجوب.

وقال الشيخ تاج الدين السبكي: من الفوائد الفقهية فى هذه المسألة التى لا تكاد تعرف؛ لأن الشافعى، رضى الله تعالى عنه، نص فى الأم فى الجزء السادس عشر فى

(١) أخرجه أحمد (٢٨٤/١)، والترمذى (٢٨٤/١)، والبيهقى (٢٨٤/٧).

(٢) أخرجه الحاكم (١١٨/٤).

(٣) أخرجه البخارى (٨٨/٧)، ومسلم فى الأشربة برقم (١٠٧)، وأحمد (٢٦/٤، ٢٧)، والدارمى

(٩٤/٢)، وابن ماجه (٣٢٢٧، ٣٢٦٥)، والطبرانى (١٣/٩).

باب صفة النهى على أن أكل الإنسان مما يليه واجب، ولو لم يفعله أثم إن كان عالماً بالنهى، انتهى.

ولعله إذا علم عدم رضاء صاحبه وجليسه بذلك، قيل: وهذا إذا لم يكن الأكل من ذلك بقصد التبرك بمس يده، وعليه حمل ما فى حديث الدباء أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، جعل يتبعها، وهو أيضاً فى غير الفاكهة؛ فإن له الأكل والأخذ منها من أى جانب، قال بعض المدققين: وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَفَكَهَهَا مِمَّا يَشَخَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠]، وفيه لطف خفى.

(والأمر بالسواك) أمر ندب، وشذ بعض الشافعية فأوجبه للصلاة، والسواك اسم للعود الذى يستاك به، ولل فعل وهو الاستياك، والمراد الثانى، أو الأول بتقدير مضاف أى استعمال السواك، وعده من المروءة لما فيه من النظافة وطيب رائحة الفم.

(وإنقاء) بكسر الهمزة وسكون النون وقاف بعدها مدة من أنقاه إذا نظفه كتنقاه، (البراجم) بباء موحد وراء مهملة وألف وجيم وميم جمع: برجم أو برجمة، بضم الباء والجم، وهى مفاصل الأصابع التى بينها، والسلاميات من ظهر الكف التى ترتفع إذا قبض الإنسان كفه، فهى المفاصل الظاهرة، والبراجم الباطنة، وقيل: هى مفاصل الكف كلها، والأشاجع: جمع أشجع، وهى أصول الأصابع المتصلة بالكف، (والرواجب) براء مهملة وواو وألف وجيم وباء موحد: جمع راجبة على القياس، وقيل: جمع رجة، بضم فسكون على خلافه، وهى المفاصل التى تلى الأنامل وقيل: هى مفاصل أصول الأصابع، وقيل: قصب الأصابع، وقيل: السلاميات، وقيل: ما بين البراجم والسلاميات، وقيل: ظهور السلاميات، وقيل: مفاصل الأصابع، وواحد السلاميات سلامى بضم السين وفتح الميم المقصورة، وتفصيله فى كتاب خلق الإنسان، وجزم البرهان الحلبى بأن البراجم العقد المتشنجة فى ظهور الأصابع، وهى مفاصلها.

ونقل عن أبى عبيد: أن البراجم والرواجب جميعاً مفاصل الأصابع كلها، وهى اللائق بكلام المصنف، فينزل عليه لا على ما فى الصحاح من أن البراجم مفاصل الأصابع التى بين الأشاجع، والرواجب وهى رءوس السلاميات من ظهر الكف إذا قبض القابض كفه نشرت وارتفعت، والراجبة فى الأصابع واحدة الرواجب، وهى المفاصل التى تلى الأنامل، ثم البراجم، ثم الأشاجع التى تلى الكف، انتهى؛ لئلا تكون الفاصل التى تكون الكف خارجة إذ هى على ما فيه غيرهما، وعند أبى عبيد داخلة فيهما مع أن الظاهر أنها تنقى كما تنقى التى بين الأنامل والتى بينهما كما قيل.

(واستعمال خصال الفطرة) الخمس فيما رواه الشيخان: «الختان، والاستحداد، أى حلق العانة بالحديد، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، وتنف الإبط».

وزاد مسلم، رحمه الله تعالى: «المضمضة، وإعفاء اللحية، والاستنجاء»، وأبو داود: «الانتضاح»، وزاد غيره عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما: «فرق الرأس» كما تقدم تفصيله المغنى عن إعادته.

والفطرة بكسر الفاء معناها: الخلقة، كما قال تعالى: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، والمراد: السنة التى أمر بها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، كما مر.

\* \* \*

### (فصل وأما زهد ﷺ فى الدنيا)

الزهد معناه: ترك الدنيا ولذتها رغبة فيما عند الله، وهو ثلاثة أقسام ترك الحرام وهو زهد العوام، وترك فضول الحلال وهو زهد الخواص، وترك كل ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين، وأما من لم يرض وصف أولياء الله به فضلاً عن أنبيائه، عليهم الصلاة والسلام؛ لأن الدنيا لا تساوى عند المتخلقين بأخلاق الله جناح بعوضة؛ وما ينال أعظم ملوكها بعض منها، بل أقل قليل من باقيها، فعنده معنى الزهد ترك ما يرغب نفسه فيه، فمن لا رغبة له فى شىء منها لا يسمى زاهداً، وغيره يعرفه بترك الدنيا مطلقاً أو بترك ما من شأنه أن يرغب فيه، وإلى هذا أشار الغزالي فى الإحياء، فمن وصفه بأعلى طبقات الزهد نظر إلى الأول، وجنح إلى أنه من مقامات الكاملين، فله منه الحظ الأوفر، ومن نفاه عنه ولا يرضى وصفه به نظر إلى الثانى.

وأما طلبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، للدنيا الضرورية فى المعاش، فليس لرغبته فيها بل لدفع ضعف بدنه المانع عن أداء حق العبودية، فلا ينافى فى الزهد أيضاً، وإليه يشير صاحب البردة بقوله:

وأكدت زهده فيها ضرورته أن الضرورة لا تعدو على العصم

ومن شرط الزهد أيضاً القدرة، وقال ابن المبارك لما قيل له: يا زاهد: الزاهد عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها.

(فائدة) قال أبو يزيد البسطامى، قدس سره، بفتح الباء: قد مر علينا شاب من بلخ حاجاً فقال لى: ما علامة الزهد عندكم؟ فقلت له: إذا فقدنا صبرنا، وإذا وجدنا شكرنا، فقال: هذه حالة الكلاب عندنا بيلخ، قلت: فما الزهد عندكم؟ قال: إذا فقدنا

شكرنا وإذا وجدنا آثرنا.

(فقد تقدم من الأخبار) التى فى صفاته فى أول الباب (فى أثناء) أى فى خلاله وما بينه جمع ثنا مقصور كما قاله ابن هشام اللخمي فى شرح المقصورة، ومعناه ما أننى ودخل بعضه فى بعض (هذه السيرة)، أى هذا الكتاب المتضمن لسيرته وطريقته ﷺ أو المراد سيرة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، (ما يكفى) طالب سيرته، ويغنى عن إعادته هنا، (وحسبك من تقلله) أى يكفىك فى معرفة تقلله، أى قنعه بالقليل (منها) أى من الدنيا لزده، صلى الله تعالى عليه وسلم فيها، واكتفائه فى ضرورياته بالأمر الزهيد القليل، وهذا لا ينافى زهده، (وإعراضه عن زهرتها) أصل معنى الزهرة النضارة والزينة مستعار من الزهر بفتحيتين، وهو نور النبات، ويسكن الثانى أى تركه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما يرغب فيه الناس من زخرف الحياة الدنيا، ومما قلته فى الرباعيات:

من حرصك بالغناء كم تشتغل والعمر مضى فما يفيد الأمل  
ما زهرة هذه الحياة الدنيا للفرح بأمل المنا تامل

(وقد سيقّت إليه)، أى ساق الله تعالى إليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، الدنيا مستعار من سوق البهيمة للتسخير والتمكن منها (بجذافيرها)، أى بجملتها وكليتها من جميع نواحيها، يقال: ملك كذا بجذافيره، أى جميعه بحيث لم يبق منه شىء جمع حذفور أو حذفار، وهو الناحية، وفى النهاية الجذافير الجوانب، وقيل: الأعلى فكنى به عما ذكر، وهو إشارة لما تقدم من أن زهده، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيها ليس لعجزه كما تقدم.

(وترادفت عليه فتوحها) أى تابعت وتوالت، فأثته الدنيا راغمة بما يسر الله له من الغنائم والأموال والأرزاق الواسعة الطيبة، بحيث لو أراد توسع فيها وأنفق واقتطف زهرتها، فلم يرضها واكتفى بأقل قليل منها، والجملتان حاليتان أو معترضتان بين المبتدأ وخبره أفادتتا كمال زهده، صلى الله تعالى عليه وسلم؛ لأن من كان هذا حاله وزهده، فزهده أبلغ زهد وأتم عفاف، أى كافيك مما ذكر حال حصول ما ذكر (إلى أن توفي) بالبناء للمجهول، أى حضرت وفاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، (ودرعه مرهونة عند يهودى)، أى والحال هذه، والدرع معروفة تذكرو وتؤنث، والأكثر تأنيثها، واليهودى كان يسمى أبا الشحم من ظفر من موالى الأنصار، وهذا الحديث صحيح رواه الشيخان عن عائشة، رضى الله تعالى عنها، وإنما عامله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم يطلب من الصحابة، رضى الله تعالى عنهم؛ لأنه لم يحضره إذ ذاك منهم من يقرض منه؛ ولأنه لو طلب، صلى الله تعالى عليه وسلم، منهم وأعلمهم بضرورته وهبوه ذلك، ولم يرضوا

باقتراضه منهم، فأخفى حاله مع ما فيه من بيان جواز معاملة الكفرة وأهل الذمة (في نفقة عياله) في التعليل كقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «إن امرأة دخلت النار في هرة عذبتها»<sup>(١)</sup>، والعيال أهل البيت ومن تلزمه نفقته، والذي اقترضه ﷺ ثلاثون صاعاً، وروى عشرون صاعاً من الشعير.

(و) كان في حال اقتراضه (هو يدعو، ويقول) كما رواه الشيخان: (اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً) القوت كل ما يتقوت به الإنسان من الطعام، أى اجعله بمقدار ما يسد الرمق من غير زيادة.

وقد استشكل هذا بأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، مات، وله حصون وأراضي، وعنده مما أفاء الله عليه أرض خيبر وفدك وغيرهما، فكيف مع ذلك يكون به، صلى الله تعالى عليه وسلم، فاقة تحوجه إلى رهن درعه على أصوع شعير؟.

وأجاب عنه ابن الصلاح في فتاواه بأنها كانت معدة لنوائبه موقوفة، ولذا لم تورث عنه، وقال: «إنا لا نورث ما تركناه صدقة»<sup>(٢)</sup>، فلا يقدح فيه ما كان في ملكه، وقد أعدّه لمصالح المسلمين وإخراجه ما يحصل منها في ذلك، والفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام، فاختار، صلى الله تعالى عليه وسلم، الفقر، ولم يتصرف فيما عنده لنفسه وعياله، ولذا لا يجوز أن يقال في حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه فقير كما مر.

وأقول: هنا دقيقة وهي أن رياضة النفس بالجوع تصفى الذهن، وتقوى الروح، وتجعل النفس قدسية ملكية، وقد كان أهل المال يتعبدون بذلك، ولما لم تكن في الدين المحمدي لما فيها من الحرج فعل ذلك، صلى الله تعالى عليه وسلم، واختاره لنفسه خاصة، وأبرزه بصورة الفقر؛ لئلا تقتدى به أمته فيه، ولحبهته لذلك طلبه من الله تعالى له ولأهله، فافهمه فإنه دقيق جداً.

(حدثنا سفيان بن العاصي) هذا الحديث رواه مسلم، والبخاري، وسفيان هذا هو ابن سكرة؛ لأن المصنف سمع منه صحيح مسلم، وليس هو الغساني؛ لأنه لم يسمع منه، وإنما روى عنه بالإجازة، (والحسين بن محمد الحافظ) بن عيسى قاضي سبته شيخ المصنف أحد الأعلام، وقد أكثر المصنف، رحمه الله تعالى، الرواية عنه، توفي في جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة، (والقاضي أبو عبد الله التميمي قالوا: حدثنا أحمد بن عمر) قد تقدمت ترجمتها.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (١/٢٥، ٤٨، ١٦٢)، وابن سعد (٢/٢٨٥)، والترمذي في الشمائل (٢١٤).

(قال: حدثنا أبو العباس الرازى قال: حدثنا أبو أحمد الجلودى) بفتح الجيم نسبة لقريّة بأفريقية، وقيل: بالشام، وقيل: إنه بضم الجيم وقد تقدم قال: (حدثنا ابن سفيان، حدثنا أبو الحسين بن الحجاج) مسلم صاحب الصحيح، وقد تقدم هو ومن قبله قال: (حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة) تقدم ترجمته قال: (حدثنا أبو معاوية) محمد بن خازم. معجمتين الضرير الحافظ أحد الأئمة الأعلام إلا أنه كان مرجئاً، روى له الستة، وتوفى سنة خمس أو أربع وتسعين ومائة، وترجمته مفصلة فى الميزان.

(عن الأعمش) أبو محمد سليمان بن مهران الكاهلى أحد الأعلام، روى عن أنس وابن أبى أوفى وغيرهما، وروى عنه شعبة ووکیع وكثيرون نحو ألف وثلاثمائة حديث، وعاش ثمانيا وثمانين سنة، ومات فى ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائة، وأخرج له الستة وترجمته فى الميزان.

(عن إبراهيم) بن يزيد بن قيس بن الأسود بن عمرو بن ربيعة النخعى الكوفى الفقيه الزاهد رأس عصره، رأى عائشة، رضى الله عنها، وأخرج له الستة، وتوفى سنة ست وتسعين.

(عن الأسود) بن يزيد النخعى العابد حج ثمانين مرة وصام حتى اخضر جلده، وكان يختم القرآن فى كل ليلتين، وتوفى سنة أربع أو خمس وسبعين، وهو ثقة أخرج له الستة. (عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: ما شيع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ثلاثة أيام تباعا) أى متتابعة متوالية (من خبز) برأ كان أو شعيراً، وفى نسخة من خبز بر (حتى مضى لسبيله) أى حتى توفى؛ لأن الموت طريق يسلكه كل أحد، وأول منزل منه القبر.

(وفى رواية أخرى) رواها البخارى (من خبز شعير يومين متوالين، ولو شاء) الدنيا وترفها ونعيمها (لأعطاه الله، عز وجل، ما لا يخطر ببال) البال القلب والعقل والفكر، وخطر يخطر بضم الطاء وكسرها خطوراً إذا ذكر وتصور أى يعطيه منها كل أمر نفيس لم يتصوره أحد من الناس، لجلالته وعظمته وكونه لم يعهد مثله حتى يعرف، (وفى رواية أخرى) رواها مسلم (ما ترك) أى ما خلف تركة (رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ديناراً ولا شاة ولا بعيراً)، وفى رواية: «ولا شيئاً»، ولذا قال عبد الله ابن أبى أوفى: ما أوصى رسول الله ﷺ عند موته؛ لأنه لا مال عنده يوصى به، وإنما أوصى بكتاب الله.

وادعاء الشيعة أنه أوصى، وأن علياً، كرم الله وجهه، وصى لا أصل له، ولم يثبت.

(وفي رواية) في الصحيحين (ما شيع آل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، من خبز بر حتى لقي الله عز وجل)، وفي البخارى: «ما شيع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام بر ثلاث ليال حتى قبض»<sup>(١)</sup>، وهو المراد ببقاء الله، وفيه روايات كثيرة متقاربة المعنى، وأنه ما جمع بين غداء وعشاء، وفي رواية من خبز وزيت، وفي رواية ما أكل أكلتين في يوم.

قيل: وهذا مشكل بما ثبت أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يدخر لأهله قوت سنة، وأنه ساق مائة بدنة، ووهب قطيعاً من غنم وألف بعير ونحوه كما مر، وأن أصحابه كأبى بكر وعثمان وطلحة كان لهم أموال كثيرة، رضى الله عنهم، وهم يبدلون له، صلى الله تعالى عليه وسلم، أموالهم وأنفسهم.

وأجيب: بأن ذلك كان في حالة دون حالة، وأن ذلك للإرشاد وكراهة الشيع، لا لضيق اليد.

وعن عائشة، رضى الله تعالى عنها: من حدثكم أنا كنا نشيع من التمر، فقد كذبكم، فلما فتحت قريظة أصبنا شيئاً من التمر والودك.

وروى: «لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشيع من التمر»، والحق أن كثيراً منهم كانوا في ضيق قبل الهجرة وبعدها، وآسأهم الأنصار بالمناخ، فلما فتحت بنو النضير وما بعدها ردوا ذلك عليهم.

أقول: هذا ينافية ما مر من أنه ﷺ مات ودرعه مرهونة، فكيف تكون العسرة زالت بعد الهجرة، فالحق الأحق بالاتباع ما قاله ابن الصلاح، رحمه الله تعالى، كما مر قريباً، وما قاله هذا الشارح لا يسمن ولا يغنى من جوع.

(وفي حديث عمرو بن الحارث) الذى رواه البخارى: (ما ترك) أى ما خلف، ﷺ، تركه لأهله (إلا سلاحه وبغلته وأرضاً جعلها صدقة) هذا بعض حديث أوله: ما ترك رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، عند موته ديناراً ولا درهماً، ولا عبداً ولا أمة، ولا شيئاً إلا بغلته البيضاء وسلاحه وأرضاً جعلها صدقة، وتفصيله فى السير، فإنهم قالوا: كان له، صلى الله تعالى عليه وسلم، تسعة أسياف لكل منها اسم، ودروعه سبع، وقسيه ست، وثلاثة أتراس، وخمسة رماح، وقال مغلطاي: أربعة، ومغفران، وراية سوداء يقال لها: العقاب مربعة، وراية بيضاء أو صفراء، وكان مكتوباً على رايته، صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا إله إلا الله محمد رسول الله».



وفى الميزان أنها لم تكن إلا بيضاء، ولم يبين ما وجد منها عند موته، وأما بغلته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فهي الدلدل التي أهدها له المقوقس، وعاشت بعده، صلى الله تعالى عليه وسلم، حتى ذهبت أسنانها، فكان يحش لها الشعير، ثم ماتت بالينبع، وقيل: إنها بقيت لخلافة معاوية، رضى الله تعالى عنه، وأن عليا، كرم الله وجهه، قاتل عليها.

وأما بغلته فضة فوهبها لأبي بكر الصديق، رضى الله تعالى عنه، والأرض المذكورة فذك والنضير، وأرض مخيريق، وهى مفصلة، ومعنى كونها صدقة أنه وقفها لمصالح المسلمين، والوقف يسمى صدقة، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يأخذ منها نفقته ونفقة عياله بقدر الحاجة، ويتصدق بباقيها، فكل ما عنده، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان مرصداً لا ملكاً، فلذا لم يورث عنه كسائر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وأما قوله تعالى: ﴿يَرْثُ وَيَرْثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦]، فالمراد منه أنه يرث علمه وحكمته وشرفه كما صرحوا به، وضمير جعلها للأرض والجملة صفه أو مستأنفة استئنافاً بيانياً، أو الضمير للمذكورة.

(قالت عائشة، رضى الله تعالى عنها)، فى حديث رواه الشيخان، (ولقد مات رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وما فى بيتى شىء يأكله ذو كبد)، هو كناية عن كل حيوان إنساناً أو غيره، والكبد معروف وهو أحد الأعضاء الرئيسية، وخصه لأن منه يصل الغذاء إلى الجسد كله، وهذا مناف لقولها: «ما ترك درهماً ولا ديناراً ولا شيئاً»<sup>(١)</sup>، ووفق بينهما بأن المنفى هنا ما كان مختصاً بها من بقية نفقتها، أو المراد بالشىء وإن كان عاماً ما كان من جنس المال والمتاع، أو هو لعدم الاعتداد بما ذكر لقلته، (إلا شطر شعير) الشطر النصف كالشطير، أو البعض مطلقاً، وفى النهاية أراد به نصف مكوك، أو نصف وسق، والمكوك المد، وقيل: الصاع.

(فى رف لى) بفتح الراء المهملة وتشديد الفاء شبه الطاق فى الحائط، ويطلق على خشبة عريضة ترفع عن الأرض تعد لوضع ما يراد حفظه، وهو الرفع أيضاً، والأول أقرب لأن الخشبة لا تحتل وضع هذا المقدار عليها، وتتمة الحديث: «فأكلت منه طويلاً ثم كلته ففنى»، وفيه إشارة إلى أن الكيل كالعذ يذهب البركة، وقد وردت، وله نظائر كما فى مسلم، عن جابر، رضى الله تعالى عنه، أن رجلاً أتى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، يستطعمه، فأطعمه شطر وسق شعير، فما زال هو وامرأته ووصيفه يأكل منه

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٦٣)، والنسائى (٢٢٩/٦)، وابن ماجه (٢٦٩٥)، وابن أبى شيبه (٢٠٧/١١)، والدارقطنى (١٨٥/٤).

حتى كاله، فأتى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأخبره، فقال: لو لم تكله لم ينفد. قيل: لما فيه من الحرص وعدم التوكل والتمسك بالأسباب المعتادة.

وأما ما ورد فى حديث المقدام: «كيلوا طعامكم يبارك لكم فيه»<sup>(١)</sup>، فأجيب عنه بأنه عند التبائع لحق المشتري فتأمل.

(وقال) أى النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم: (لى) أى لعائشة، وفى شرح ابن أثير: وقال إلى بدل اللام أى ادن واقربى إلى، صلى الله تعالى عليه وسلم، دنوها منه ليسارها، وقال حكاية لحال ماضية: (إنى عرض على) بالبناء للمجهول، وفى رواية عرض على ربي، يقال: عرض له وعليه إذا أظهره له وأراه إياه، والمراد أعلمه بالوحي (أن يجعل لى بطحاء مكة ذهباً) البطحاء واد تحرى فيه السيول، أو بطن واد فيه رمل وحصى، أو مكان لا ينبت؛ لأنه مسيل وهو ما غلب عليه الإسمية، والمراد يجعله ذهباً أن يملأه به أو أن يقلب حصاه ورماله ذهباً، وقلب الأعيان كإنشائها من العدم غير مستحيل لوقوعه، والله قادر على كل شىء.

(فقلت: لا يا رب) أى لا أريد جعل البطحاء ذهباً (أجوع يوماً، وأشبع يوماً) استئناف كأنه قيل له: فما تريد؟ قال: أريد الفاقة وأن أكون تارة جائعاً وتارة شبعان؛ لزوماً لمقام العبودية والافتقار إلى الله، ثم بين ما يكون عليه فقال: (فأما اليوم الذى أجوع فيه فأتضرع إليك) فيه، والتضرع الدعاء بتذل وانكسار من الضراعة، وهى الذلة والالتجاء، (وأدعوك) أى أطلب منك وفى الدعاء مناجاة والتجاء ومعاملة مع الله، وإن كان عالماً بذلك.

(وأما اليوم الذى أشبع فيه، فأحمدك وأثنى عليك) لما أنعمت به على، ولا وجه لما قيل هنا من أنه تعليم لفقرائه أمته، وإلا فلو جعلت له الدنيا ذهباً لم يشغله ذلك عن الله طرفة عين إلى غير ذلك مما أطال فيه بغير طائل على عادته، وهذا الحديث رواه الترمذى، عن أبى أمامة، رضى الله تعالى عنه، بلفظ: فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، فإذا شبعت شكرتك وحمدتك.

(وفى حديث آخر) قال السيوطى: لم أجده هكذا، ولكن البيهقى، رحمه الله تعالى، أخرجه فى الزهد من طريق عطاء عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، أن النبى صلى

(١) أخرجه البخارى (٨٨/٣)، وأحمد (١٣١/٤)، وابن ماجه (٢٢٣١)، والطبرانى

(١٢٣/٤)، وأبو نعيم فى الحلية (٢١٧/٥).

الله تعالى عليه وسلم، قال يوماً: «ما أمسى لآل محمد كف سوق ولا سفة دقيق»<sup>(١)</sup>، فأتاه إسرائيل، عليه الصلاة والسلام، فقال: إن الله سمع ما ذكرت، فبعثنى إليك بمفاتيح الأرض وأمرنى أن أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردًا وياقوتًا وذهبًا وفضة، فقلت . . . إلى آخره.

وأخرج ابن سعد، وابن عساكر فى تاريخه من حديث عائشة، رضى الله تعالى عنها، أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «لو شئت لسارت معى جبال الذهب»<sup>(٢)</sup>.

ولأحمد فى الزهد عنها: «والله لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة»<sup>(٣)</sup>. وللطبرانى نحو منه من حديث أم سليم، رضى الله عنها، عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه قال: «لو سألت الله أن يجعل تهامة كلها ذهبًا لفعل».

وأخرج أحمد حديث: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، قد يجمعها من لا عقل له» مختصرًا عن عائشة، رضى الله تعالى عنها.

قلت: فما ذكره المصنف، رحمه الله، رواية بالمعنى من عدة أحاديث (أن جبريل نزل عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال له: إن ربك يقرئك السلام) أى يسلم عليك ويحييك تحية إكرام، قال فى الإكمال: أقرأته السلام، وهو يقرئك السلام بضم الياء من المزيد، فإذا قيل: يقرأ عليك السلام بعلى، فيفتح الياء لا غير، وقيل: هما لغتان، وهو مهموز لا معتل، ويجوز إبدال همزته واوًا وياء، ومعنى أقرأه حملة على أن يقرأ عليه سلامه، أى يبلغه إياه، فهو مجاز مرسل لمطلق التبليغ مأخوذ من القراءة، ومعنى قرأه عليه ذكره له.

(ويقول لك: أتحب أن أجعل لك هذه الجبال ذهبًا، وتكون معك حيث ما كنت)، أى تسير معك وتتوجه أنى توجهت، (فأطرق ساعة) أى طأطأ رأسه يفكر فيما يجيبه به، صلى الله تعالى عليه وسلم، (ثم قال: يا جبريل إن الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له) الدنيا تقابل الآخرة؛ لأنها فعلى من الدنو وهو القرب، وتطلق على هذا العالم المشاهد، وكل ما فيه من المال وغيره، وعلى الأرض التى هى مقر العالمين، وبهذا الاعتبار تسمى دارًا، وقوله: دار من لا دار له، أى لأنها فانية لا يقيم فيها أحد، ولذا شبهت بالخان الذى ينزله المسافرون، وبالقنطرة بل بالسفينة كما قال:

(١) أخرجه الشجرى فى أماليه (١٧٠/٢).

(٢) أخرجه الخطيب فى تاريخه (١٠٢/١١)، وابن سعد فى الطبقات (١٥٧/٢/١).

(٣) أورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٣٢٨/٦).

وإنما لقي الدنيا كركب سفينة نظن وقوفاً والزمان بنا يسرى

وقوله: مال إلى آخره، أى إنما يملكه المرء فيها سيسلب منه، فهو عارية أو وديعة، فصاحبه لا ملك له حقيقة فكل غنى فيها فقير، وليس هذا من قبيل فرط من لا فرط له، وذخر من لا ذخر له.

(قد يجمعها من لا عقل له) قد للتحقيق؛ لأن من جمع الدنيا كثيراً، وهى لتقليل جمعه وحيازته لها فإنه يجمعها بعد بلوغه ورشده لموته، ثم يفقدها إلى ما لا نهاية له، أو لمتعلق الفعل، فإن متاع الدنيا بالنسبة لغيره قليل، وعلى هذا حمل قوله: (قد يعلم ما أنتم عليه)، وإنما هم عليه بالنسبة لبقية معلوماته أقل قليل، أو هى مستعارة تهكماً للتكثير كقوله:

اترك القرن مصفراً أنامله

وإن كان فى البيت نزاع ليس هذا محله، وجعله لا عقل له؛ لتنزيل وجود عقله منزلة العدم؛ إذ لم يصرفه فيما يتعلق بالآخرة ويهديه إلى الاكتفاء من الدنيا بزد المسافر الذى يبلغه منزله، فإن العاقل من كان كذلك، ولذا قال الفقهاء: لو أوصى لأعقل الناس صرف للزهاد، وقال الشاعر:

إن لله عبداً فطئاً \_\_\_\_\_ طلقوا الدنيا وخافوا الفتناً  
نظروا فيها فلما علموا \_\_\_\_\_ أنها ليست لحي وطننا  
جعلوها لجة واتخذوا \_\_\_\_\_ صالح الأعمال فيها سفناً

(فقال له جبريل عليه والصلاة والسلام: ثبتك الله يا محمد بالقول الثابت) المراد بالقول الثابت الحق؛ لأنه دائم لا يزول، أو المراد به حق مخصوص بمقالته، وهو إما دعاء له أو إخبار بأن الله امتن عليه، فإنه بمحض فضل الله ولطفه، فإنه الذى ثبته على هذا.

(وعن عائشة، رضى الله تعالى عنها) فى حديث صحيح رواه الشيخان أنها (قالت: إن كنا آل محمد) المراد بآله أهل بيته، عليه الصلاة والسلام، وله معان أخر مشهورة، وإن مخففة من الثقلة (لنمكث شهراً ما نستوقد ناراً)، أى ما نوقد ناراً، فالسين للتأكيد، أو المراد ما نطلب من أحد ناراً نوقدها، وهذا كناية عن أنه ليس لهم ما يطبخ (إن هو إلا التمر والماء)، وإن نافية، وهو ضمير الطعام، والمأكول أى ما عندنا ما يؤكل ويتغذى به إلا التمر والماء، وروى: وإنما هو الأسودان التمر والماء. قيل: هذا كان فى بعض الأحوال.

(وعن عبدالرحمن بن عوف) الصحابى المشهور، رضى الله تعالى عنه، وهذا الحديث رواه عنه الترمذى، والبزار وغيرهما بسند جيد: (هلك رسول الله، صلى الله تعالى عليه

وسلم)، أى توفى، والهلاك بمعنى الموت مطلقاً مستعمل فى حق النبي ﷺ، وغيره، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، وأما اختصاصه بميعة السوء كالقتل فعرف طار، ولذا كثر استعماله فى الأعداء، فيقال: هلك عدو الله، وقد ورد فى الحديث، والإهانة إنما تفهم من ذكر العدو ونحوه.

قلت: فلا يجوز لنا الآن إطلاقه على من كرمه الله والصحابه، ونقتصر فيه على ما ورد منه من غير تكير، كما ورد فى حق يوسف، عليه الصلاة والسلام، ﴿حَقَّقْ إِذَا هَلَكَ قَلْبُكَ﴾ [غافر: ٣٤] إلخ، وكذا ورد فى حق غيره من الأنبياء، عليه الصلاة والسلام، فلا يختص بمن استحق العذاب إلا بقرينة.

(ولم يشيع هو ولا أهل بيته من خبز الشعير)، وأول الحديث عن نوفل بن إياس الهذلى قال: كان عبد الرحمن بن عوف، رضى الله تعالى عنه، جليساً لى، وكان نعم الجليس، وإنه انقلب بنا ذات يوم حتى إذا دخلنا بيته دخل فاغتسل، ثم خرج وأتانا بصحفة فيها خبز ولحم، فلما وضعت يدى بكى عبد الرحمن بن عوف، فقلت: يا أبا محمد ما ييكيك؟ قال: هلك رسول الله ﷺ، ولم يشيع هو ولا أهل بيته من خبز الشعير، فلا أرانا أخرنا لما هو خير لنا، وقد تقدم أنه ورد فى معناه أحاديث كثيرة متقاربة المعنى، وتقدم ما فيه من الإشكال وجوابه، وإلى تقوية هذا أشار بقوله: (وعن عائشة، رضى الله تعالى عنها، وأبى أمامة وابن عباس، رضى الله تعالى عنهم، نحوه) أما حديث عائشة، رضى الله تعالى عنها، فما فى الصحيحين عنها أنها قالت: «ما شبع رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، من خبز شعير يومين حتى قبض»<sup>(١)</sup>.

وحديث أبى أمامة، رضى الله تعالى عنه، فى الترمذى بهذا اللفظ أيضاً.

وحديث ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، عنه هو المذكور عقب هذا بقوله: كان النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، إلى آخره كما قاله السيوطى، رحمه الله تعالى، وسياق كلامه يأباه، ولو كان مراده هذا اكتفى بذكره والأحسن أنه ما فى الصحيحين أيضاً، عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، أن عمر، رضى الله تعالى عنه، حدثه أنه دخل عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد اعتزل نساءه، فإذا هو مضطجع على حصير قد أثر بجانبه، فقلبت عينى فى خزانته، فإذا هى ليس فيها شىء غير قبضتين من شعير، وقبضة من تمر، فابتدرت عينى، فقال: ما ييكيك يا ابن الخطاب؟ فقال: ما لى لا أبكى وأنت صفوة الله من خلقه، وهذه الأعاجم فى النمارق والأنهار وأنت هكذا؟ قال: يا

(١) أخرجه الترمذى (٢٣٥٧).

ابن الخطاب أما ترضى أن تكون لنا الآخرة، ولهم الدنيا؟ فقلت: بلى، يا رسول الله، قال: فاحمد الله عز وجل.

(قال ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما: كان النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، يبيت هو وأهله الليالى المتتابعة طاوياً) حال من ضميره، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولم يقل: طاوين لأن المقصود حاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وحال أهله يعلم من حاله لأنهم يتبعونه فى كل حال، وطاويًا بمعنى جائعًا؛ لأن الطوى الجوع كما ذكره الجوهري، والليالى منصوب على الظرفية، وقوله: (لا يجدون عشاء) بفتح العين والمد الطعام الذى يقابل الغداء، وخصه لقوله يبيت، والمراد به مطلق الطعام، وهذا الحديث أخرجه الترمذى، وابن ماجه.

(وعن أنس، رضى الله تعالى عنه)، فى حديث رواه البخارى (قال: ما أكل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، على خوان) بكسر الخاء المعجمة وضمها فارسى معرب، ويقال: إخوان بزنة إكرام أيضاً، وهو والمائدة والميدة بمعنى، وإن فرق بينهما فى الأصل بأن الخوان ما يوضع عليه قبل وضعه، وبعده يسمى مائدة، والأكل عليه عادة المتكبرين حتى لا يحتاجوا للانحناء إذا أكلوا، وقيل: إنه عربى من التخون وهو النقص، ويجمع على أخونة وخون، وأما السفرة بالضم فالطعام المعد للسفر، وتكون بمعنى ما يوضع عليه الطعام من الأديم أيضاً.

(ولا فى سُكَّرَجَة) قال الجوالقى: هى بضم السين المهملة وضم الكاف وفتح الراء المهملة المشددة وجيم وهاء وهى أعجمية معربة، وقيل: الصواب أسكرجة بهمزة مضمومة، وقد جاء فى الحديث الصحيح بدون همزة، ومعناه مقرب الخل، ولذا قيل معناها: قصعة صغيرة يوضع فيها الكوامخ والجوارشات فى جوانب المائدة، فيها ما يعين على الهضم، وقيل: قصعة مدهونة، وقيل: إنها مائدة صغيرة، وعلى كل فهى مما يصنعه العجم والمقلدون لهم من المتكبرين، والجيم والهاء علامة التصغير عندهم، وقيل فيها أيضاً: سكرجة.

(ولا خبز له مرقق) بالبناء للمجهول، ومرقق بوزن معظم رقيق الخبز كالرقاق، وقيل: هو المنبسط الرقيق، وقيل: هو الحوارى والسמיד بدال مهملة، وفى رواية مرققاً بالنصب تمييز أو مفعول ثان للخبز؛ لتضمنه معنى الجعل، والمراد أن خبزه ﷺ لم يجعل من بياض الدقيق؛ لأنهم لم يكن لهم مناخل.

(ولا رأى شاة سميطة قط) سميطة فعيل، بمعنى المفعول، أى لم يطبخ له، صلى الله تعالى

عليه وسلم، شاة بتمامها بعد ستمطها، أى غليها في الماء الحار حتى يذهب شعرها، ثم تشوى، وظاهر كلامهم أنها لم تسليخ، وأن ما ذكر في الحملان الصغيرة.

(وعن عائشة، رضي الله تعالى عنها)، في حديث رواه الشيخان: (إنما كان فراشه، صلى الله تعالى عليه وسلم، الذي ينام عليه أدما) بفتح الهمزة والذال المهملة والميم اسم جمع لأديم، وهو الجلد المدبوغ اللين، وقيل: إنه مخصوص بالأسود (حشوه ليف)، والليف ما يكون من النخل وهو معروف.

(وعن حفصة، رضي الله تعالى عنها)، بنت عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، أم المؤمنين، وحديث حفصة رواه الترمذى في الشمائل منقطعاً، وحديثها لا ينافى حديث عائشة المتقدم؛ لجواز كون أن كلا منهما ذكرت فراشه، صلى الله تعالى عليه وسلم، الذي كان عندها.

(قالت: كان فراش رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، في بيته مسحاً) بكسر الميم وسكون السين المهملة وبعدها حاء مهملة، وهو ثوب مستعد للفراش شبه الكساء، ويقال له: حنبل، وقيل: هو ثوب أسود من شعر يلبسه الزهاد، وقيل: هو ثوب من الشعر والوبر والصوف يلبس ويجلس عليه، وجمعه مسوح وعلى كل حال فهو شيء غليظ يتنزه عن مثله أصحاب الترفه.

(نشيئه ثنتين فينام عليه) الثنى بكسر فسكون، والمثنى ما ثنى بعضه على بعض، وعطف أى يجمع بعضه على بعض مرتين حتى يكون أثخن وأوطأ للنوم عليه، وتثنيته ثنتان، وجمعه أثناء، وروى ثنتين. مثناة فوقية مكان الياء المثناة التحتية، والمعنى واحد، والنسخة الأولى أصح وأشهر.

(فشيناه له ليلة بأربع) طاقات ليكون ألين مهاداً من الثنتين، (فلما أصبح، صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: ما فرستم لي الليلة، فذكرنا ذلك له)، وهو أنهم جعلوا فراشه أربع طاقات، (فقال: ردوه بحاله) الأولى وهو الثنتين، (فإن وطأته) بفتح الواو والطاء المهملة والمدة وتاء تأنيث مضاف لضمير الفراش، فوزنه فعالة، أو فعلة بفتح فسكون وهمزة غير ممدودة على وزن فعلة، أى لينه تحت جنبى لكثرة طاقاته وتضعيفها (منعتنى الليلة صلاتي) أى أن لينه لذ له، عليه السلام، النوم، فنام أكثر من معتاده؛ لأن فراشه ممدد لم يؤذه حتى ينبهه، فانقطع عن بعض القيام لتهجده ليلاً لزيادة نومه.

(وكان ﷺ ينام أحياناً على سريره مرمول)، ونومه الأول على فراش على الأرض، ورمول براء مهملة وميمين. بمعنى منسوج.

(بشريط) أو غيره، والشريط بشين معجمة وراء وطاء مهملتين بينهما ياء مثناة تحتية حبل مفتول من خوص النخل، أو سعه مع حبال، وواحد شريطة (حتى يؤثر) حبال شريطه، (فى جنبه)؛ لكونه بغير فراش يحول بينه وبينه.

وهذا من حديث طويل رواه الشيخان والترمذى، وفيه: وتحت رأسه وسادة من آدم حشوها ليف، وفى معناه أحاديث آخر.

(وعن عائشة، رضى الله تعالى عنها، قالت: لم يمتلى جوف النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، شعباً قط).

قال التلمسانى: فيه أربع لغات فتح الشين المعجمة وكسرها مع سكون الموحدة وفتحها.

وقال البرهان: هو بفتح الموحدة نقيض الجوع، ويسكونها ما يشبع، والظاهر هو الأول، وقيل عليه: إن كان ظهوره بحسب الرواية، فمسلم، وأما بحسب الدراية فالظاهر الثانى؛ لأنه اسم عين، وعلى الأول اسم معنى، والامتلاء منه مجازى كامتلاء غضباً، وقيل عليه: إن المجاز أبلغ من الحقيقة فهو أولى رواية ودراية، فالبرهان مع البرهان، وفيه نظر، وهذا يقتضى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يشبع، ولكنه لا يمتلى جوفه بتمامه منه، فإن المطلوب تقليل الطعام والاقتصار على ما يقوم به الأود، ثم ملأ ثلث بطنه فإن ثلثاً للزاد، وثلثاً للماء، وثلثاً للنفس، فإن زاد فنصفها، وما زاد على ذلك حرص وبطنة غير ممدوحة، وقد يحرم إن وصله للضرر والتخمة قصداً كما أن أول مراتبه واجب.

(ولم يث شكوى إلى أحد) بفتح الياء التحتية وضم الباء الموحدة وتشديد المثلثة بمعنى يذكر ويظهر، ويقال: بث الخير وأبته إذا نشره، ويقال أيضاً: نثه بالنون وبهما روى قول قيس<sup>(١)</sup>:

إذا جاوز الاثنين سرفانه    بنث وتكثير الحديث قمين

والشكوى مذمومة، فالذى يليق بمقام العارفين الصبر، وكم ما بهم لا سيما والنبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يسر بكل ما يأتى من الله ولا يعده مؤلماً، بل يتلذذ به، فكيف يتصور شكواه؟ وإلى هذا أشار بقوله: (وكانت الفاقة) وهى الحاجة والفقر (أحب إليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الغناء) قيل: هذا يقتضى أن الفقر أفضل من الغناء، وقد اختلف فيه على قولين، ولكل منهما أدلة كقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾

(١) البيت من الطويل، وهو لقيس بن الخطيم فى ديوانه (ص ١٦٢)، وحماسة الهجرى (ص ١٤٧)،

الدرر (٣١٢/٦)، سمط اللآلى (ص ٧٩٦)، لسان العرب (٢/١٩٤).



[الضحى: ٨]، حيث امتن عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالغنى، ولا دليل فيه لأنه امتن عليه بقضاء حاجته، والمفضول قد يكون فى المقام له منة تزيد على الفاضل، ولا فى قوله: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ [العلق: ٦]، فإنه لم يذم الغناء، بل ما قد يترتب عليه، وكذا كون حساب الفقير أخف، والمختلف فيه هل الغنى الشاكر خير أم الفقير الصابر؟، فذهب إلى كل منهما قوم من العلماء؛ لحديث ذهب أهل الدثور بالأجور، وحديث: «إن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم من أيام القيامة»<sup>(١)</sup>، وهو خمسمائة عام إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة فى الجانيين، وقال الغزالي، رحمه الله تعالى: قد انكشف أن الفقر هو الأفضل لكافة الخلق إلا فى موضعين غنى يستوى فيه الوجود والعدم، ويستفاد به دعاء المساكين، وقضاء حوائجهم كغنى بعض الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، وفقر يكون من الضرورة حتى يكاد يكون كفرًا، فالأول خير محض، وهذا لا خير فيه بوجه من الوجوه، والمدوح غنى النفس لا غنى المال من حيث هو، والفصل كله فى الكفاف والاقتصار على مقدار الحاجة، ولذا طلبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، له ولآله.

(وإن كان ليظل جائعًا) إن مخففة من إن المكسورة الهمزة المثقلة النون، والجملة حالية، ويظل بفتح المثناة التحتية والظاء المشالة من أخوات كان، وأصل معنى ظل فعله نهارًا؛ لأنه زمان يبدو فيه الظل، ثم استعمل لدوام الفعل ليلاً ونهارًا، وهو المراد.

(يلتوى طول ليلته من الجوع) بتقديم اللام على التاء الفوقية وواو مخففة مكسورة، وفى نسخة يَتَلَوَى بياء مثناة مفتوحة وفوقية مفتوحة ولام كذلك وواو مشددة مفتوحة يليها ألف، ومعناه ينقلب على فراشه من ألم الجوع من لواه ليا إذا صرفه عن جانب لآخر قال تعالى: ﴿لَوْ رَأَوْهُمْ﴾ [المنافقون: ٥]، وهذا لزهد، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى الدنيا وصبره على مشاقها؛ ليقمع شهوته ونفسه ويقهرها ويرشد أمته لذلك كما بينه بعد، وقوله: (فلا يمنعه) ذلك أو جوعه (صيام يومه) بالنصب بيمنع، أو بنزع الخافض، أى عن صيام يومه، يقال: منعت الرجل عن الشئ فامتنع.

وقوله: (ولو شاء)، صلى الله تعالى عليه وسلم، الغنى أو الشيع، وشاء كثيرًا ما يحذف مفعولها بعد لو؛ لدلالة جوابها عليه (سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها) ما بعد الكنوز يجوز جره عطفاً عليه، ونصبه عطفاً عن جميع، والكنوز جمع كنز وهو معروف، والثمار جمع ثمرة، وهى ما يحصل من الأشجار ونحوها، وقد يراد بكل ما يستفاد من غيره كما يقال: ثمرة العلم العمل، ويجوز إرادة هذا هنا، ورغد بفتحتين وقد

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٢٣، ٤١٢٤)، وأبو نعيم فى الحلية (٩٩/٧).

يسكن ثانيه يقال فيه: رغيد وأرغد، والعيش بمعنى المعيشة، والمراد ما يتعيش به، وأصل معنى الرغد الواسع، يقال: أرغد فلان إذا أصاب رغدًا، أى سعة وخصبًا وغيره.

(لقد كنت أبكي له رحمة مما أرى به)، وفي نسخة: «لما أرى به»، أى مما أشاهده به، أو مما أعلمه به، (وأ مسح يدي على بطنه) كأنه بمسحه تستريح بذلك كما كان يضع الحجر عليه؛ ليبرده ويشد صلبه وهذا للشفقة (مما به من الجوع)، أى من ألمه، ثم تبين أن ذلك شفقة بقولها: (وأقول: نفسي لك الفداء) تقدم أن الفداء بالكسر والفتح والقصر والمد، وهو ما يفدى به الأسير ونحوه، فيجعل عوضًا عنه، ويقال: أفديه بنفسى وبأسمى وبأبى ومالى، وقد يقال: بنفسى من غير ذكر للفداء، وتسمى الباء باء التفدية، وهذا جائز بل مستحب؛ لصدوره منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيقال لمن شرف كالحكام والعلماء والصلحاء وأعزة الإخوان: قصداً لتوقيره واستعطافه، ولو كان محظوراً كما قيل ما قاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ونهى عنه من قاله له، وقد قال أبو بكر، رضى الله تعالى عنه: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، وقال، صلى الله تعالى عليه وسلم، لسعد: ارم فداك أبى وأمى، ومنعه قوم لحديث مالك بن فضالة أن الزبير، رضى الله تعالى عنه، دخل عليه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو شاك، فقال: كيف تجدك؟ جعلنى الله فداك، فقال له، صلى الله تعالى عليه وسلم: ما زلت على أعرايتك بعد.

قيل: ولا حجة فيه لما ادعوه؛ لأن الحديث الواحد لا يقاوم الأحاديث الصحيحة الكثيرة الواردة بخلافه، ولا احتمال أنه إنما نهاه عنه لوروده فى غير محله؛ لأنه لا ينبغي أن يقال ذلك للمريض، بل يتوقع له ويقال: لا بأس عليك وعافاك الله وشفاك ونحوه، ولكل مقام مقال لا لأن القائل له كان أبواه مشركين، ولا لأنه من خصوصياته؛ لأن من قائله من ليس كذلك، والأصل عدم الخصوصية.

(لو تبلغت من الدنيا بما يقوتك) التبلىغ مفعول من البلاغ، وهو مقدار الكفاية يقال: تزود من دنياك بالبلاغ مأخوذ من الزاد الذى يبلغ به المسافر منزله، وضمنه هنا معنى اكتفيت أى لو اكتفيت منها بالكفاف من القوت من غير ضرورة ومخمصة، ولو للتمنى.

(فيقول)، صلى الله تعالى عليه وسلم، لعائشة، رضى الله تعالى عنها: (مالى وللدنيا) قيل: ما نافية أى ليس لى ألفة وحبّة مع الدنيا حتى أرغب فيها، أو استفهامية أى أى ألفة وحبّة ورغبة لى فى الدنيا.

وهذا من إثارة، صلى الله تعالى عليه وسلم، الزهد، وإظهاره لغنى القلب وحبّة تركه لها، ثم بين أنه مقام عظيم سبقه به الرسل، عليهم الصلاة والسلام، فجرى على

طريقتهم، فقال: (إخوانى من أولى العزم من الرسل) تقدم أنهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، عليهم الصلاة والسلام، على خلاف فيهم، وفى وجه تسميتهم بذلك.

(صبروا على ما هو أشد من هذا) كالحبس والعرض على القتل، أو غير ذلك مما علم من التفاسير، (فمضوا على حالهم) أى استمروا عليه راضين بقضاء الله لهم إلى أن ماتوا.

(فقدموا على ربهم)، أى لاقوه وشهدوا ما انكشف لهم من أحوال الآخرة فى البرزخ، (فاكرم ما بهم) أى أكرمهم الله فى مرجعهم إليه يقال: أب يؤب إذا رجع، فهو اسم مكان أو مصدر ميمى، (وأجزل ثوابهم) أى كثر لهم العطاء والجزاء فى دار المقام.

(فأجدلى أستحى) من الله عند لقائه (إن ترفهت فى معيشتى) أى إن تنعمت وتوسعت فى العيش، والترفة تفعل من الرفاهة والرفاهية، وهى كالرغد السعة، وقد كان الله خير، صلى الله تعالى عليه وسلم، قبيل موته بين الخلد فى الدنيا ولقائه، فاختار لقاءه كما قاله ابن العربى، وإن شرطية، ويجوز فتحها على المصدرية بتقدير لام قبلها أى لترفهى، ووقع فى نسخة فى معيشتهم أى فى جنس معيشتهم، والأصح الأولى.

(أن يقصر بى غداً) يقصر مبنى للمجهول مع التشديد، أى أن يقع التقصير، أو القصر بالكسر حاله وعمله (دونهم)، أى فىكون مقامى دون مقامهم لتنزل مرتبتى عن مرتبتهم، والمعيشة مفعلة وجمعه معايش بلا همزة، وقد تهمز قليلاً كما بينه النحاة، وهى ما يتعيش به، وغدا بالمعجمة اليوم الذى بعد يومك، والمراد به الآخرة جعل الدنيا بمنزلة اليوم الحاضر، والآخرة بكونها بعدها بمنزلة غدا استعارة.

(وما من شىء هو أحب إلى من اللحق ياخوانى وأخلائى) بالمد مضاف لىاء المتكلم جمع خليل، وهو قياس فى المضاعف، والمراد بالإخوان والأخلاء الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، السابق ذكرهم، (والرفيق الأعلى).

وعن عائشة، رضى الله عنها، عنه صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه قال: «لم يقبض نبى حتى يرى مقعده من الجنة ويخبر بذلك»، فلما حضرته، صلى الله تعالى عليه وسلم، الوفاة شخص بصره، وهو يقول: «اللهم اغفر لى وارحمنى وألحقنى بالرفيق الأعلى»<sup>(١)</sup>، كما فى البخارى، وفى النهاية: الرفيق الأعلى جماعة النبيين الذى يسكنون أعلى عليين، والمراد به الله عز وجل، والرفيق بمعنى الرؤوف، وهو من أسماء الله كالأعلى، واللحق بهم بمعنى كونهم معهم.

(قالت) عائشة، رضى الله تعالى عنها: (فما أقام بعد) بالبناء على الضم، أى بعد

مقاتله هذه (إلا شهراً حتى توفى، صلى الله تعالى عليه وسلم)، أى انتقل للآخرة واستوفى أيام عمره.

\* \* \*

### (فصل وأما خوفه ربه)

عز وجل، ولما كان الزهد ترك الدنيا باختياره وحبسه نفسه عن الشهوات، وذلك إنما يكون بعد تحقيق الخوف والرجاء عقب الزهد بالخوف من الله، وربّه منصوب مفعول المصدر، واعلم أنهم اختلفوا فى خوف النبى، صلى الله تعالى عنه وسلم، من عقاب الله، فقال الإمام أبو الحسن الأشعرى فى كتاب الإيجاز: كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يخاف الله بلا خلاف، إلا أن خوفه كان لماذا؟ فقال أهل الحق: كان خوفه قبل أن آمنه الله من عقابه، وبعده كان من عتابه ولومه فى الدنيا كما قيل له، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما أعرض عن ابن أم مكتوم: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [عبس: ١]، الآية، فأما بعد أن آمنه الله تعالى من عقابه، فلا يجوز أن يخاف عقابه مع علمه بأنه آمنه منه، فأخبره بأنه لا يخاف عقابه خلافاً للرافضة والقدرية، حيث زعموا أنه هو وسائر المكلفين ما داموا المكلفين فى الدنيا لابد أن يخافوا عقابه سواء آمنهم أم لا.

دليلنا: أن الخوف من شىء لا يجوز إلا مع تجويز نزوله به، وأما مع القطع بأنه لا يحصل أبداً فمحال حصول الخوف منه عند عاقل، فلو قلنا: إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يخاف عقاب الله مع تأمين الله له من ذلك لأدى إلى كونه شاكاً فى غيره، وأنه صدق أو كذب فى أخباره بأنه لا يتعلق به عقاب، ولما بطل هذا بالاتفاق علم أن الخوف لا يصح مع القطع بأنه لا يعاقب أصلاً، انتهى.

وسئل شيخ مشايخنا ابن حجر الهيتمى عن الأنبياء، والملائكة، عليهم الصلاة والسلام، والعشرة المبشرة بالجنة، هل كانوا يخافون عقاب الله تعالى بعد إخبار الله لهم بأنهم لا يعذبون؟ فأجاب بأن نفى الخوف وإثبات الأمن لمن ذكر مطلقاً باطل، بل مصادم للنصوص من وجوه:

أحدها: أن حقيقة الخوف كما فى الإحياء ألم القلب لتوقع مكروه فى المستقبل، وهو أقسام منها خوف ضعف القوة عن الوفاء بحقوق الله على ما ينبغى، والخوف بهذا المعنى محقق فى جميع الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ويلزمه عدم الأمن من مكر الله، ولا يأمنه أحد إلا إن كان المأمون منه الانسلاخ عن النبوة، والملكية، والإيمان فى العشرة على أنه قيل بوقوعه لبعضهم.

والرجاء والخوف متلازمان، واشترط الرجاء والخوف بما هو مشكوك فيه لا تأيد فيه؛ لأنهم لا يخافون لأنهم على بينة ويقين من ربهم كما قيل، بل هو حجة عليه لما مر من معنى الخوف، فالكل على يقين من أصل الكمال، وقد تعتريهم استشعار قدرة الله واستغنائه عن خلقه، وأنه لا يستل عما يفعل، ولا يجب عليه شىء وقد يشترط ما أخبرهم به بما انطوى عن علمهم، فيوجب الخوف حتى من سلب أصل الكمال.

الثانى: أن الشافعى، رضى الله تعالى عنه، صرح بأن الملاحكة داخلون فى قوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، لما أخرج ابن أبى حاتم من أن الله تعالى قال لهم: ما هذا الخوف الذى بلغ منكم وقد أنزلتكم منزلة لم ينزلها غيركم؟ فقالوا ربنا لا يأمن مكرك إلا القوم الخاسرون.

الثالث: ما فى الإحياء أن الأنبياء عليهم، الصلاة والسلام، يخافون المكرك؛ لما روى أن النبى وجبريل، عليهما الصلاة والسلام، بكيا خوفا من أن يكون تأمينهم امتحانا ومكرا، وهذا هو الذى قطع قلوب العارفين، فلا شبهة فى ذلك، لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩].

فإن قلت: يرد ما روى عن الحسن أنه لما نزلت هذه الآية خاف، صلى الله تعالى عليه وسلم، زمانا، فلما نزل ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ [الفتح: ١]، إلخ جد، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى العبادة، وقال: «أفلا أكون عبدا شكورا»<sup>(١)</sup>، وروى أنه قال فى الآية: إن ذلك فى الدنيا أما فى الآخرة فمعاذ الله، لأنه أخبر بأنه فى الجنة، فالمعنى: ما أدرى ما يفعل بى فى الدنيا، فأخبره بنصره وإظهار دينه.

قلت: المراد خوفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من أمور الدنيا واستئصال أمته، فأمنه الله منه، وأما الخوف من الله فلا يأمنه أحد.

الرابع: أنه ورد فى أدعيته، صلى الله تعالى عليه وسلم، كثيرا ما يدل عليه نحو: «اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك»<sup>(٢)</sup>، وقوله: «اللهم إنى أعوذ من عذاب النار، وفتنة الحيا والممات»<sup>(٣)</sup>، وليس هذا تشريعا

(١) أخرجه البخارى (٦٣/٢، ١٦٩/٦، ١٢٤/٨)، ومسلم فى صفات المنافقين برقم (٧٩، ٨٠، ٨١)، والترمذى (٤١٢)، والنسائى (٢١٩/٣)، وابن ماجه (١٤١٩، ١٤٢٠)، وأحمد (٢٥١/٤، ٢٥٥، ١١٥/٦).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٣٣)، والترمذى (٣٥٦٦)، والنسائى (٢٤٩/٣)، وابن ماجه (١١٧٩)، وأحمد (٩٦/١، ٢٠١/٦)، وابن حبان (٥٤١)، وابن خزيمة (٦٥٥).

(٣) أخرجه البخارى (١٠٠/٨)، وأبو داود (١٥٤٨)، والترمذى (٣٤٩٥)، والنسائى (٢٦٢/٨)، وابن ماجه (٣٨٣٨)، وأحمد (٥٧/٦)، وعبد الرزاق (١٩٦٣١)، والحاكم (٥٤١/١).

لأتمته أن يقولوه؛ لأنه لم يقل: قولوا، ولا قرينة على تقديره، انتهى.

وقد اختلف الفقهاء فى الأمن من مكر الله، واليأس من رحمته، فقالت الشافعية: إنها من الكبائر، وقالت الحنفية: إنها كفر لقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وتمسك الشافعية لعهما من الكبائر بما ورد فى حديث ابن مسعود، رضى الله تعالى عنه، وقال ابن أبى شريف: إن أريد باليأس إنكار سعة الرحمة الذنوب، وبالأمن أنه لا مكر، فهو كفر وفاقاً؛ لأنه رد للقرآن، وإن أريد استعظام الذنوب واستبعاد العفو استبعاداً يدخل فى حد اليأس، وغلبة الرجاء المدخل له فى حد الأمن، فهو كبيرة لا كفر، فإن ورد إطلاقه عليه فالتغليظ، أو إرادة كفران النعمة، انتهى.

وبهذا وفق بينهما ابن نجيم فى رسائله، وعلى ما مر عن الأشعرى يخص الأمن بغير من مر، وعلى غيره هو باق على عمومته.

هذا جملة ما قاله الفقهاء والأصوليون فى هذه المسألة، وهاهنا بحث فيما قالوه، وهو أن الأشعرى إمام أهل السنة، وقد جزم بأنهم عمومًا ذهبوا إلى أمنهم من العقاب كان دون العتاب، وقوله: أفلا أكون عبدًا شكورًا يؤيده، وما ذكر من الخوف والأدعية، فالظاهر الذى يقتضيه النظر الدقيق أن مكر الله ليس بمعنى عقابه، بل بمعنى يقدر عليهم أمرًا يقتضيه إذا صدر منهم؛ لأنه تعالى وإن كان له أن يعذب كل أحد، لكن عدله وحكمته يقتضى أن لا يقع ذلك منه، بل يجوز جوازًا عقليًا، ومن علم هذا، ونظر لعظمته واستغناؤه عن جميع مخلوقاته خاف منه وخشى منه، وهذا مقام الكاملين، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وهذا الخوف لا بد منه لكل أحد، وأما خوفه العقاب بدون هذا ما دام على حال العصمة والتقوى، فلا يجوز عليهم، فإنه يلزمه عدم الوثوق بخبره تعالى، وعلى هذا يحمل كلام الأشعرى، وهو مناف لما قاله ابن حجر، رحمه الله تعالى.

إذا عرفت هذا فقوله فى شرح جمع الجوامع: الأمن من مكر الله تعالى معناه الاسترسال فى المعاصى اتكالا على العفو ليس بسديد، وليس محلا للخلاف.

ثم أقول: الحق ما قاله الأشعرى، والذى ندين الله به أنا نعتقد أن العقاب لا يقع، وأن الأنبياء خصوصًا نبينا، عليهم الصلاة والسلام، بعد عصمته ومغفرة ما تقدم وما تأخر له لا يخشى أحد عليه العقاب، ولا يجوز تجويزه عليه، أما هو فلعظمة الله ومهابته

عنده، وعلمه بأنه غنى عن خلقه له أن يفعل بهم ما أراد، فيخافه خوفاً شديداً، ويستعيذ من عقابه، وإن لم نجوزه نحن.

وفى قوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢]، إيماء لذلك دقيق، وما قاله ابن حجر لا دليل له فيه، وكلام الغزالي لا حجة له فيه، والآية التى ذكرها مخصوصة بالدنيا، أو منسوخة كما فى الكشف.

ولك أن تقول: إنه لشدة خوفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، من الله قد يذهل عن تأمين الله له لا سيما مع ما مر، ونظيره ما قاله السيوطى، رحمه الله تعالى، فى أجوبة الأسئلة التكرورية فى قول يوسف، عليه الصلاة والسلام: ﴿تَوَقَّيْ مُسْلِمًا﴾ [يوسف: ١٠١]، وهو يعلم أن كل نبى لا يموت إلا مسلماً: إنه دعى بذلك فى حال غلبة الخوف عليه حتى أذهلته عن علمه ساعة الدعاء، أو ذلك إظهاراً للعبودية والافتقار وشده الرغبة فى طلب سعادة الخاتمة، وتعليمها للأمة، انتهى، ثم رأيت ما قلناه صرح به ابن عربى فى سراج المريدين، فالحمد لله على الوفاق، وإنما أطلنا الكلام فى هذا المقام؛ لأنه من مزال الأقدام، فعليك بإعادة النظر.

فإن مورده لم يصف من الكدر، ولنا عودة إلى الكلام فيه آخر الكتاب، إن شاء الله تعالى.

(وطاعته له وشدة عبادته) قرنهما مع الخوف لتلازمهما معه، (فعلى قدر علمه بربه) قال القشيرى، رحمه الله تعالى: العلم والمعرفة عند العلماء بمعنى، وعند القوم معرفة الحق بأسمائه وصفاته، ومن عرفه صدق فى معاملاته، وتنقى من ردى أخلاقه وآفاته، ومن أمارات المعرفة حصول الهيبة وهى الخوف مع الإجلال، وإلى ذلك أشار المصنف، فإن من قدر الله حق قدره اشتد خوفه منه، وأطاعه وعبده على قدر طاقته، وإنما يعصى الله من جهل ربه ونفسه، فإن الإيمان محبة الله، ومن أحبه أطاعه، وتحت الرغبة اللبن الصريح.

(ولذلك قال فيما حدثناه)، وفى نسخة حدثنى (أبو محمد بن عتاب قراءة منى عليه) تقدم ترجمته قال: (حدثنا أبو القاسم الطرابلسى) حاتم بن محمد بن عبد الرحمن التميمى المعروف بابن الطرابلسى كما تقدم عن اليرهان، فالنسبة إليه طرابلسى وأطرابلسى بزيادة همزة فى أوله، وهى مدينة بالشام وبالمغرب، والمشهور فيها ترابلس بالتاء الفوقية، وهو صحيح أيضاً؛ لأنه أعجمى عرب بإبدال التاء طاء، فلك حكاية أصله والنطق بمعربه قال: (حدثنا أبو الحسن القابسى) على بن محمد بن خالد المغافرى الإمام الفقيه الحافظ،

وقد تقدم قال: (حدثنا أبو زيد المروزي) تقدم أيضاً قال: (حدثنا أبو عبد الله القبري) تقدم ضبطه وترجمته قال: (حدثنا محمد بن إسماعيل) الإمام البخاري صاحب الصحيح، وقد تقدم قال: (حدثنا يحيى بن بكير) المخزومي الحافظ أبو زكريا المصري، روى عنه البخاري وغيره، وهو ثقة وإن ضعفه بعضهم، توفي سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة.

(عن الليث) بن سعد بن عبد الرحمن بن حمزة عالم مصر وأصله من أصفهان، وكان نظيراً للإمام مالك، وكان أسخى الناس فقيل: إنه كان دخله في كل يوم ألف دينار، ولم تجب عليه زكاة، توفي يوم الجمعة منتصف رمضان سنة خمس وسبعين ومائة، وقيل غير ذلك، وأدرك ناساً من التابعين.

(عن عقيل) مصغر وهو عقيل بن خالد الحافظ، أخرج له الأئمة الستة وله ترجمة في الميزان، توفي سنة إحدى وأربعين ومائة.

(عن ابن شهاب) تقدم أبو بكر بن محمد الإمام المشهور بالزهري (عن سعيد بن المسيب) تقدم ضبطه والكلام عليه (أن أبا هريرة، رضي الله تعالى عنه)، تقدم أيضاً (كان يقول: قال رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم: لو تعلمون ما أعلم من عظمة الله وجلاله وكبريائه هذا هو المناسب للترجمة أو ما أعلم من أحوال الآخرة وأهوالها وما سيلقاه الإنسان، (لضحكتكم قليلاً ولبكيتكم كثيراً) يأتي بيانه، وفي الحديث طباقان أو ثلاثة بين قليل والبكاء والعلم، وبين الكثرة والضحك وعدم العلم، فتدبر.

وهذا الحديث رواه المصنف، رحمه الله، عن صحيح البخاري، وله فيه رواية أخرى عن الترمذي أشار إليها بقوله: (زاد في روايتنا عن أبي عيسى الترمذي رفعه) بصيغة الماضي، أي زاد هذا الكلام، أو مصدر فهو مفعول زاد (إلى أبي ذر، رضي الله تعالى عنه)، يعني أن رواية البخاري السابقة رواية أبي هريرة، رضي الله تعالى عنه، وهذه رواية أبي ذر، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد خالف المصنف في عبارته ما اصطلاح عليه المحدثون، فإن المرفوع عندهم ما اتصل بالنبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأن يذكر صحابى قال النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، كذا، فيقال: رفعه إلى النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا إلى الصحابي، وقيل: الجار والمجرور متعلق بحال مقدرة تقديره عازياً إلى أبي ذر، فلا مخالفة فيه لاصطلاحهم، وسيأتى تتمته.

(إنى أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون) المراد بما الموصولة فيهما مغيبات، وأمور فى الملائكة الأعلى أطلع الله عليها، وغيره لا يراها كرؤية الملائكة والجنة والنار وعذاب القبر، والاطلاع على الموتى وأحوال البرزخ، وسماعه لأصوات المعذبين فى القبور،



ولأطيط السماء المشار إليه بقوله: (أطت السماء) أصل معنى الأطيط صوت الإبل إذا حنت، والقتب إذا ضغطه ثقل ما عليه، ونحو ذلك أى أن السماء لكثرة ما عليها من الملائكة إذا تحركوا يسمع لها صوت سمعه النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، (وحق لها) بالبناء للمجهول، أو هو مصدر مرفوع خبر مقدم لقوله: (أن تنط)، أى تصوت يسمع لها صرير لثقل ما عليها، وعلى الأول هو نائب الفاعل، وقد قيل: إن صريرها يسمع منه ألحان متناسبة مطربة منها أخذ ألحان الموسيقى، ولذا تطرب الأرواح لسماعه لتذكرها معاهد حمائها، وقيل: إنه أنين من خشية الله، وقال التلمسانى: هذا إيذان بكثرة ما فى السماء من الملائكة وإن لم يكن ثمة أطيط، والمراد تقرير عظمة الله، ثم استأنف، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما يبين سبب أطيطها، فقال: (ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله)، أى ليس فيها مكان خال منهم، ومن هنا علم أن الملائكة أكثر المخلوقات.

(والله لو تعلمون ما أعلم) من أحوال الدنيا والآخرة الدال على عظمة الله تعالى وقدرته، (لضحكتكم قليلاً ولبكيتكم كثيراً)، أى لضحككم ضحكاً قليلاً إذا سررتكم برجاء عفو الله، ونظرتكم ما أنعم الله به عليكم، وبكيتكم للخوف منه حتى يشغلكم ذلك عن التمتع والتفكه بلذائذ الدنيا.

(وما تلذذتم بالنساء على الفراش) بضمتين جمع فراش، وكنى بذلك عن مضاجعة النساء ومجامعتهن، (ولخرجتم إلى الصعدات) بضم الصاد والعين وفتح الدال المهملات جمع مؤنث سالم لصعد بضمين جمع صعيد كطريق وطرق لفظاً ومعنى، أى لخرجتم من دوركم للطريق وممر الناس، وقيل: جمع صعدة كظلمة وهى فناء الدار (تجأرون إلى الله) أى تضحجون وتصبحون من الجوار بضم الجيم وفتح الهمزة وألف وراء مهملة، وهو الصباح ورفع الصوت أى تستغيثون الله وتتركون أهلكم ومساكنكم.

(لوددت أنى شجرة تعضد) أى تقطع من أصلها يقال: عضدت الخشب والنبات إذا قطعته، واللام فى جواب قسم مقدر، ووددت بزنة علمت بمعنى تمنيت، والعرب تقول: وددت وبودى إذا تمنيت، قال البحرى:

وبودى لو استطعت لحقت بصبر عن سيدى حين ملا

وهو مستعار من المودة المعروفة، قال الراغب: الود حبة الشئ وتمنى كونه موجوداً، ويستعمل فى كل واحد من المعنيين على أن التمنى يتضمن معنى الود؛ لأن التمنى يشتهى حصول ما يوده، انتهى، والمراد تمنيه أن يكون غير ذى روح، فلا يبعث

ولا يسأل، وعضد الشجر موته وآخر العهد به.

(روى هذا الكلام) يعنى قوله: (وددت أنى شجرة تعضد)، فهو بدل من الكلام مبين له (من قول أبى ذر نفسه) لا من الحديث، وكلام النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، (وهو) أى كونه منه قول أبى ذر (أصح)، وفى نسخة واضح بالضاد المعجمة، والصحيح أصح أى من كونه من الحديث مرفوعاً له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو أليق بحاله وأنسب بكلامه بخلاف ما قبله، فإنه من الحديث بلا خلاف، وإلى هذا أشار المصنف، رحمه الله تعالى، بقوله سابقاً: زاد فى روايتنا عن أبى عيسى الترمذى رفعه إلى أبى ذر، وإذا كان من كلام أبى ذر، فهو مدرج فى الحديث إذ لم يميز لفظه، فاعترض البرهان الحلبي عليه بأنه كان ينبغى له أن يقول: إنه مدرج لا وجه له، نعم فى عبارته السابقة كدر لا يخفى.

قيل: وكونه، صلى الله تعالى عليه وسلم، تمنى ما ذكر مشكل؛ لأنه مقطوع له بالزلفى آمن من كل سوء موقن بالدرجات العلى، وخوفه إنما هو خوف إحلال وهيبة كخوفنا من غضب الله وسوء الخاتمة، وقول بعض الصحابة المبشرين بالجنة: ليتنى طائر، وليتنى لم أخلق بشراً، أو ليتنى كبشاً يذبح ويؤكل لحمه، ليس لعدم الوثوق بالوعد، بل لم يكن إلا خوفاً من مخالفة أمره، فإنهم يجلونه ويخافون من مخالفته، وإن لم يعاقبهم، وهذا كلام من لم يحقق المقام، وقد تقدم فى أول الفصل ما فيه كفاية.

(وفى حديث المغيرة، رضى الله عنه)، المتفق عليه فى رواية الشيخين، والمغيرة بضم أوله ويكسر إتياعاً أى ابن شعبة من الصحابة، وهو أحد دهاة العرب: (صلى رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)، أى صلاة التطوع والتهجد؛ لأن الزيادة المذكورة فى بعض الروايات إنما تأتى فيها (حتى انتفخت قدماه) أى ورمت من طول القيام.

(وفى رواية أنه كان يصلى حتى ترم) بفتح المثناة الفوقية وكسر الراء المخففة المهملة وميم مخففة مضارع ورم إذا انتفخ؛ لانصباب المادة لقدميه من طول وقوفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ووقع فى بعض النسخ ترم بتشديد الميم، أى تصير رميماً، وهى غير صحيحة رواية ودراية (قدماه) وفى رواية ساقاه، وروى تورمت وتزلعت بزاي معجمة وعين مهملة أى تشققت.

(فقيل له: أتكلف هذا؟) بهمزة استفهام وفتح التاء الفوقية، وأصله أتتكلف فحذفت إحدى التائين تخفيفاً أى تتحمل مشقته وكلفته، (وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر) جملة حالية معترضة بين الاستفهام وجوابه، وسيأتى ما فى إضافة الذنب له، صلى

الله تعالى عليه وسلم، مع أنه معصوم عن الصغائر والكبائر على الأصح بأن المراد لو صدر منك، أو ما يعد من الذنوب بالنسبة لغيرك لتنزهك وعلو مقامك، وتستسمع تفصيله فى محله.

(قال: أفلا أكون عبداً شكوراً) لما أنعم الله على من جلائل النعم التى لا تحصى، ومن أجلها عصمته لى ومغفرته لذنبى قبل وقوعه، والاستفهام إنكارى والفاء سببية، أى أترك الصلاة لمغفرته، وهى سبب موجب للعبادة لا لتركها، وقوله: شكوراً؛ لأنها نعم جلية تستوجب مزيد شكره، وقوله: عبداً تلويح لغاية إكرامه له، صلى الله تعالى عليه وسلم، بتفريه ونسبته لسيده، وكله يقتضى أجل الشكر وهو العبادة.

(ونحوه عن أبى سلمة)، رحمه الله تعالى، واسمه عبد الله أو إسماعيل، أو اسمه كنيته ابن عبد الرحمن بن عوف الزهرى التابعى، أحد الفقهاء السبعة المشهور بروايته عن أبى هريرة وغيره، وفى الصحابة أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومى، مات فى حياة النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا يعرف له إلا حديث واحد وآخران غير مشهورين ولا الرواية عنهم مشهورة.

(وأبى هريرة، رضى الله تعالى عنه)، قال البرهان: هكذا فى النسخ، قال المحشى: وأنا أخشى أن يكون هذا غلطاً، والصواب فيه أن يكون عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، فإنه وقع هكذا فى الشمائل فى باب عبادة رسول الله ﷺ بعد أن ذكر حديث المغيرة الذى ذكره المصنف هنا، فقال بعده: حدثنا الفضل بن موسى عن محمد ابن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه: كان يصلى إلخ، إلا أن يكون المصنف وقف على حديث آخر لأبى سلمة الصحابى، ولم نره. قلت: ويحتمل أن يكون مراده عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، ولكنه عطف أحدهما على الآخر وهو بعيد أيضاً.

(وقالت عائشة، رضى الله عنها)، كما رواه الشيخان: (كان عمل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ديمة) بكسر الدال وسكون الياء المنقلبة عن الواو؛ لأنه من الدوام، ومعناه الدائم، وأصل معناه المطر الدائم فى سكون وهدوء، وفى الحديث: «أحب الأعمال إلى الله تعالى ما دؤم عليه، وإن قل»<sup>(١)</sup>؛ لأن ترك الشىء بعد فعله كالإعراض عنه بعد الإقبال، ولذا وقع الوعيد لمن حفظ القرآن ثم نسيه.

(وأىكم يطيق ما كان يطيق): أى أىكم يقتدر أن يعبد الله كما عبده، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما وكيفاً.

(وقالت) عائشة، رضى الله تعالى عنها: (كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول: لا يصوم) روى نقول بالنون والتاء الفوقية، ورفع يقول ونصبه كما قرئ به فى قوله تعالى: ﴿وَذُرُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢١٤]، يعنى أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان فى بعض الأزمنة يوالى الصوم حتى يتوهم أنه صائم الدهر، وتارة يكثر الفطر حتى يظن أنه لا يصوم نافلة، وقيل: المراد أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يصوم من أول الشهر ووسطه وآخره حتى يتوهم من صادف أيام صومه أنه دائم الصوم، ومن صادف إفطاره كذلك، وهو بعيد، وهذا لا ينافى كون عمله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ديمة؛ لأنه بالنسبة لما كان راتباً كصوم ثلاثة أيام من كل شهر، وهذا بالنسبة لغيره، ولك أن تقول: الأول فى صلاحته وقيامه، وهذا فى صيامه، ويؤيده لفظ العمل لكن يأباه قوله: (ونحوه عن ابن عباس وأم سلمة وأنس، رضى الله عنهم)، واسم أم سلمة هند على الصحيح، وقيل: رملة، والأحاديث التى رواها هؤلاء بمعنى ما تقدم مع اختلاف فى بعض ألفاظها، وكلها صحيحة مروية فى الصحيحين وابن حبان، وقد ذكرها بعض الشراح هنا ولكن لا حاجة بنا لإيرادها هنا كما فى الشرح الجديد.

(قالت) عائشة، رضى الله عنها: (كنت لا تشاء أن تراه) ﷺ (من الليل مصلياً إلا رأيته مصلياً، ولا نائماً إلا رأيته نائماً، وقال عوف بن مالك): هو عبد الرحمن الأشجعى الصحابى الجليل القدر، رضى الله عنه، سكن الشام، وتوفى فى أيام عبد الملك سنة ثلاث وسبعين، وهذا الحديث رواه أبو داود، والنسائى:

(كنت مع رسول الله ﷺ ليلة، فاستاك ثم توضأ ثم قام فصلى، فقمتم معه)، أى أتهجد وأقندى به، وفيه دليل على صحة الاقتداء فى صلاة النافلة من غير نزاع، وإليه ذهب الشافعى، رحمه الله، وبعض الحنفية.

(وبدا الصلاة)، وفى نسخة فابتداً بالفاء، أى شرع فى الصلاة، (فاستفتح البقرة)، أى شرع فى قراءتها، وفيه دليل على أنه يقال: البقرة، وسورة البقرة من غير كراهة كما ورد فى أحاديث لا تحصى، وأسماء السور توقفية على الأصح خلافاً لمن قال: إنه يكره، وإنما يقال: السورة التى يذكر فيها البقرة، والسورة التى يذكر فيها التين وهكذا؛ لما روى الطبرانى والبيهقى عن أنس مرفوعاً: «لا تقولوا سورة البقرة، ولا سورة آل عمران، ولا سورة النساء، ولكن قولوا: السورة التى يذكر فيها البقرة»<sup>(١)</sup> وهكذا، وهو

(١) أخرجه العقيلي فى الضعفاء (٤١٨/٣)، وانظر: اللآلئ المصنوعة (١٢٤/١)، وتنزيه الشريعة

(٢٩١/١)، والدر المنثور (١٨/١).

ضعيف، بل قال ابن الجوزى: إنه موضوع، والأحاديث المعارضة له صحيحة، فهى أرجح وعليه العمل، أو نقول: إن هذا كان فى أول الإسلام، ثم نسخ لأن المشركين كانوا يستهزئون بهم إذا قالوا: سورة العنكبوت ونحوها، فلما كفاه الله المستهزئين، وكف السيف أيديهم وألستهم قيل ذلك من غير حرج.

(فلا يمر)، صلى الله تعالى عليه وسلم (بآية رحمة إلا وقف فسأل) الله الرحمة، (ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ) بالله من العذاب، وهذا الحديث أخرجه أبو داود والنسائى، ويؤخذ منه أنه ينبغى لمن قرأ القرآن أن يتدبره ويتفكر فى معانيه، وأن الدعاء بما يناسبه مستحب ومستجاب، فيدعو بما يناسبه، وإذا ذكر الإيمان بالله يستحب أن يقول: آمنت بالله ونحوه، ونحو هذا ما ورد أن من قرأ سورة تبارك فبلغ: ﴿فَمَنْ يَأْتِكُمْ بِمَلَوْ مَعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠]، فليقل: الله رب العالمين، وإذا قرأ سورة التين، فبلغ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْأَحْكَمِينَ﴾ [التين: ٨]، فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين، وإذا قرأ: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [القيامة: ١]، وبلغ قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ مَجِئَ الْوَقْتُ﴾ [القيامة: ٤٠]، فليقل: بلى، وإذا قرأ والمرسلات، وبلغ: ﴿فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، فليقل: آمنا بالله، وإذا قرأ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ [الأعلى: ١]، فليقل: سبحان ربى الأعلى، وإذا قرأ سورة الرحمن، فليقل عند كل ﴿فَيَأْتِي آيَةً﴾ رَكْعَةً ﴿رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ١٣]، ولا شىء من نعمك ربنا نكذب، وكل ذلك ورد فى الأحاديث الصحيحة، وهذا نظير سجود التلاوة، إلا أن من الناس من فعل أموراً زائدة على ما ورد كالدعاء بين الجلالتين فى سورة الأنعام، وقد قال البقاعى: إنه بدعة لم يرد فى أثر ولا حديث.

(ثم ركع فمكث) بضم الكاف، وهى لغة القرآن وتفتح فى لغة عنه، ومعناه انتظر وتوقف (بقدر قيامه يقول: سبحان الله ذى الجبروت والملكوت والعظمة) هذه الصيغة مر أنها صيغة مبالغة كالرهبوت والرحموت والرغبوت، وهى مصادر فى الأكثر، ووردت فى الأسماء أيضاً كجالوت، الجبروت مبالغة فى الجبر وهو القهر، والملكوت الملك العظيم، وعقبها بالعظمة؛ لأنهما كاللذليل عليها، ولأنها أعم، ويكون، صلى الله تعالى عليه وسلم، كرر ذلك مراراً كثيرة حتى يكون بمقدار قيامه كما لا يخفى.

(ثم سجد فقال مثل ذلك، ثم قرأ آل عمران) أى السورة التى ذكر فيها قصة آل عمران، وقد تقدم جوازه وما فيه.

(ثم سورة سورة) أى ثم قرأ فى صلاته فى كل ركعة سورة بعد سورة، وهما منصوبان على الحالية كما قرره النحاة فى قولهم: قرأت النحو باباً باباً، وجعله التلمسانى منصوباً مفعولاً لقرأ المقدرة فيه، وفيه نظر، والسورة مهموزة من السور وهو

بعض الماء الباقى فى الإناء وتبدل همزته واوًا لسكونها وانضمام ما قبلها، وقيل: إن واوه أصلية على أنه من السور لإحاطتها بالآيات، أو من السوار أو من التسور لرفعته، والسورة مقدار من القرآن مشتمل على آيات أقلها ثلاثة مسماة باسم، ولا يرد عليه آية الكرسى لذكر الآية (يفعل مثل ذلك) المذكور من القراءة والتسبيح.

(وعن حذيفة) بن اليمان الصحابى المشهور، رضى الله تعالى عنه، وهذا الحديث رواه مسلم عنه (مثله) أى مثل الحديث السابق.

(وقال) حذيفة، رضى الله تعالى عنه: (سجد نحوًا من قيامه، وجلس بين السجدين نحوًا منه) أصل معنى النحو القصد، ومنه علم النحو، ويقال: هذا نحو هذا أى مثله أو قريب منه.

فإن قلت: ذكر الفقهاء أن الجلوس بين السجدين ركن قصير غير مقصود لذاته، بل للفصل بين السجدين حتى قال بعض الشافعية: إن تطويله قصدًا مبطل للصلاة ومخل بالموالة، وحديث حذيفة صحيح رواه مسلم كما مر وهو مناف لما ذكر.

قلت: قالوا: إنه إنما يضر إذا طول بسكون أو بذكر غير مشروع، فلو طول بغير ذلك كما فى صلاة التسبيح، فلا يضر، وقد يستحب كما ذهب إليه النوى تبعًا لإمام الحرمين استدلالًا بحديث حذيفة هذا، ولا يشترط أن يكون بمقدار أكمل التشهد.

(وقال) حذيفة، رضى الله تعالى عنه: (حتى قرأ البقرة وآل عمران والنساء والمائدة) أى قرأ فى ركعة بسورة من هذه السور.

(وعن عائشة، رضى الله عنها)، فى حديث صحيح أخرجه أحمد، والنسائى، عن أبى ذر، والآية التى ذكرت فى قولها: (قام رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بآية من القرآن)، أى ردها طول ليله ويكررها فى كل ركعة، وهى كما صرح به ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَا تَهُمُّ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨]، الآية فى سورة المائدة، وإنما أكثر ترددها للتدبر والتفكر فيها، فإن القرآن له بطون سبعة، ففى كل قراءة يظهر له، صلى الله تعالى عليه وسلم، ما لم يظهر قبل، والله تعالى تجلّى لخلص عباده فى كلامه، ولكن لا تبصرون كما روى عن جعفر الصادق، رضى الله تعالى عنه، ففى كل قراءة يتجلّى له الله فى مرآة كلامه، ومثل هذا لا تفى به العبارة، اللهم نور مشكاة قلوبنا حتى تطبع فيها صور الحقائق.

(وعن عبد الله بن الشخير) بكسر الشين والخاء المعجمتين المشدتين ومثناة تحتية ساكنة وراء مهملة، وهو ابن عوف بن كعب العامرى الصحابى البصرى المخضرم الذى أدرك الجاهلية والإسلام، وروى له أصحاب الكتب الستة، وهذا الحديث رواه أبو داود،

والتزمذى، والنسائي:

(أتيت رسول ﷺ، وهو يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل) جوف كل شىء باطنه، والمراد به ما تحت صدره وأضلاعه، والأزيز بهمة مفتوحة وزائين معجمتين بينهما ياء مثناة تحتية ساكنة، وهو صوت الغليان إذا اشتد وهو المشيش، والمراد أنه ﷺ، لشدة خوفه وخشيته من الله يسمع حركة قلبه إذا رق صدره، وقيل: صوت الحنين مع البكاء، والمرجل بكسر الميم وسكون الراء المهملة وفتح الجيم واللام القدر مطلقاً، وقيل: من نحاس.

(قال ابن أبي هالة) الصحابي المتقدم، رضى الله تعالى عنه: (كان ﷺ متواصل الأحزان)، أى حزينا حزنا يتصل ببعضه ببعض بحيث لا يفصل بينها فرح ومسرة، وهذا يقتضى الدوام، ولذا فسره بقوله: (دائم الفكرة)، أى تفكره دائماً فى أمره وأمر أمته، ومن كان هكذا (ليست له راحة)؛ لاستغراق أوقاته فى الذى كلفه من أعباء الرسالة، وتبليغ الأحكام، وتدبير الحروب والوقائع، ومن نيظ به أمور جميع الخلائق كيف يقضى من الهم، فإن الأمور بقدر الهمم، والظاهر أن هذا حاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا لم يكن متكلماً مع الناس فى مصاحبته لهم، وحكمه بينهم، وملاقة من يقدم عليه من الوفود، وعرض الناس عليه أمورهم، وفى عشرة أهله، وإنما ذلك حال سكونه وهو بين الناس وفى خلوته بنفسه ومشيه وتعبده، أما فى غير ذلك فكان طلق الحيا متبسماً متلقياً بالبشر ودوام كل شىء بحسب زمانه.

فاقسم لكل زمان ما يليق به فإن للزند حلياً ليس للعنق

فسقط ما قيل: إنه وصف فى غير هذا الحديث بأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، دائم البشر، وهذا مناقض له، وقد أورد عليه أيضاً أن الحزن فضلاً عن دوامه غير محمود، وقد نهى الله تعالى عنه فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقال: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المجادلة: ١٠].

واستعاذ، صلى الله تعالى عليه وسلم، منه فقال: «اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن»<sup>(١)</sup>، وتقدم الفرق بينهما بأن الهم لما يقع فى المستقبل والحزن لما مضى، وكلاهما مفتر للغم مضاعف للقلب غير معدود من مقامات العارفين؛ ولذا قال أهل

(١) أخرجه البخارى (٢٣/٤، ٩٩/٧، ٩٧/٨)، وأبو داود (١٥٤١)، والتزمذى (٣٤٨٤، ٣٥٠٣)،

والنسائي (٢٥٧/٨، ٢٥٨)، وأحمد (١٥٩/٣، ٢٢٠، ٢٢٦، ٢٤٠)، والحاكم (٥٣٣/١).

الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «ما يصيب المؤمن من هم ولا نصب ولا حزن إلا كفر الله به من خطاياها»، يدل على أنه مصيبة يؤجر المرء عليها، وسيأتى الكلام عليه، والحديث الذى ذكره المصنف رواه الطبرانى والقضاعى، وقال ابن القيم كما سيأتى: إنه لم يثبت، وفى سنده من لا يُعرف، ولا أعلم صحته، وفى التوراة: إذا أحب الله عبداً جعل فى قلبه نائحة، وإذا أبغضه جعل فى قلبه مزماراً.

فقال ابن القيم: أجمع أهل السلوك على أن الحزن ليس من مقامات السائرين إلى الله إلا أبو عثمان الخيرى، فإنه قال: الحزن فضيلة وزيادة كمال للمؤمن ما لم يكن على معصية؛ لأنه إن لم يوجب تخصيصاً أو جب تمحيصاً، فهو بلاء ومحنة كالمرض لا مقام كما قاله الجليلى، وحزنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما أودعه الله فيه من الرحمة ورقة القلب، فكان يحب هداية الأمة، فإذا رأى ما هم عليه من عنادهم وتخلفهم حزن لذلك، وخاف من أن ينسب إليه قصور فى دعوتهم، وبما قررناه ظهر أنه ليس فيما ذكر إشكال بوجه من الوجوه، ولا حاجة لتفسير دوام الفكرة بأنها فى ذات الله وصفاته حتى يرد عليه أنه منهى عنه، فيجاب بأن المنهى غير الكمل كما قيل.

(وقال، عليه الصلاة والسلام: إنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة، وروى سبعين مرة) هذا حديث صحيح، وسيأتى الكلام عليه، وقوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: أستغفر الله، بمعنى أطلب منه المغفرة، أو أذكر هذا اللفظ بعينه، والسبعون عدد معلوم، وقد يراد به مجرد التكرير، وعلى هذا تكون الروايتان بمعنى، وطلب المغفرة وإن اقتضى الذنب، وهو ﷺ معصوم من الكبائر والصغائر مطلقاً على الأصح، المراد به أنه مع كماله ﷺ يشهد فى نفسه قصوراً نزل منزلة الذنب، فاستغفر له أوعد اشتغاله بما أبيح له كالأكل، واشتغاله بأمور الناس ذنباً لعوقه عن المشهود، أو هو تشريع لأتمته، أو كان استغفاره ﷺ لذنوبهم، أو أنه لم يزل مترقياً فى المقامات، فكلما ترقى لمرتبة رأى ما دونها نقصاً فاستغفر منه، وستأتى تتمته.

(وعن على، كرم الله وجهه: سألت رسول الله ﷺ عن سنته) أى طريقته التى هو عليها، وهذا الحديث ذكره فى الإحياء، وقال الحافظ العراقى: إنه لا أصل له، وقال السيوطى، رحمه الله تعالى: إنه موضوع وآثار الوضع لائحة عليه، وهو يشبه كلام الصوفية.

(فقال: المعرفة رأس مالى) رأس المال هو المال المعد للتجارة وما يكسب به هو الفائدة، والمراد بالمعرفة معرفة الله وصفاته الوقوف على غوامض الأمور مما لم يكن



يعلمه، وهى تختص بالعلم المسبوق بالعدم أو بالجزئيات، فلذا قيل: إن علم الله لا يسمى معرفة، ولا يقال: الله عارف إلا أنها جاءت بمعنى العلم أيضا، والمراد هنا الأول لمقابلتها بالعلم، وهذا تشبيه بليغ كما قيل:

إذا كان رأس المال عمرك فاحترس عليه من الإنفاق فى غير واجب  
وقد تقدم.

(والعقل أصل دينى) مر أن العقل قوة غريزية فى الإنسان يستعد بها لإدراك المعلوم أى دينه وشرعه، أى ما تعبد به وتدين قبل البعثة، أو قبلها وبعدها، مبنى على ما أودعه تعالى فيه من كمال عقله الذى هداه إلى النظر فى مصنوعات الله الدالة على وحدانيته وعظمته، وأنه هو الحقيقى.

وفى الحديث أن عائشة، رضى الله تعالى عنها، قالت: يا رسول الله بم يتفاضل الناس؟ قال: بالعقل فى الدنيا والآخرة. فقالت: أليس يجوزون بأعمالهم؟ فقال: يا عائشة هل يعمل إلا من له عقل؟ فبقدر عقولهم يعملون، وبقدر عملهم يجزون. وقد اتفقوا على أن ما أعطى الناس من بدء الدنيا إلى آخرها من العقل بالنسبة لعقله، ﷺ، كنسبة ذرة من الرمل إلى رمال الدنيا كلها.

(والحب أساسى) أى محبة الله بعد معرفته؛ لأن من لم يعرف لا يحب أى أساس بينى عليه أموره فى اتباع أوامر الله ونواهيه، كما أنه موجب لاتباع الناس لى كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، ولا يكمل إيمان أحد حتى يكون الله أحب إليه من نفسه وأهله وماله كما سيأتى بيانه، وجمع هذه الأمور فى نسق واحد؛ لأن رأس المال والأساس والأصل من واد واحد وتغاير العبارة إنما هو لتلوين الخطاب.

(والشوق مركبى) أى شوقى إلى المطالب العالية وإلى لقاء الله تعالى هو الذى حركنى حتى وصلت لمرادى كما قيل:

وقالوا إذ أتيت لهم سريعا مجدا فى سبيلى للتلاق  
ركبت على البراق؟ فقلت: كلا ولكنى ركبت على اشتياق

والشوق أعلى من المحبة؛ لأنه ينشأ عنها، فإنه انجذاب النفس لشدة ميلها إلى لقاء من يشताقه.

(وذكر الله أنسى)، وفى نسخة أنسى يعنى أنه يأنس فى خلوته وجلوته بذكر الله؛ لأنه إذا أكثر من ذكره صار نصب عينه حتى كأنه معه، ومن كان الله معه آنس به

واستوحش مما عداه، ومن كان له ورد فى الصباح والمساء كان من الذاكرين الله، وانظر لقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال سحنون: حقيقة الذكر أن ينسى ما سواه، ويستغرق الأوقات فيه:

لا لأنى أنساك أكثر ذكر ك ولكن بذاك يحى لسانى  
(والثقة) بكسر المثلثة مصدر كالسعة بمعنى الوثوق. بما عند الله وما يطلب منه  
(كنزى) الكنز المال المكنوز أى المدفون، وفيه بلاغة ونكتة بديعة، لأن من له مال مدفون لا يراه، ولكنه أنفع مما يراه، فكذا ما ترجوه من الله قبل حصوله أنفع من الحاصل عند الثقة كما قيل:

وإنى لأرجو الله حتى كأنى أرى بجميل الظن ما الله صانع  
وعلامة الثقة بالله بذل الموجود وترك طلب المفقود.  
(والحزن رقيقى) أى لا يفارقنى، وذكره مع الأنيس؛ لأن الرفيق أنيس، وهذا بمعنى ما تقدم من قوله: متواصل الأحزان وقد علمت ما فيه.  
(والعلم سلاحى) أى علمى بالله وبما علمنى من لدنه وأوحاه إلى أدفع به من يجادلنى ويخاصمنى، وأدفع الشيطان ووسواسه كما يدفع العدو بالسلاح وآلات الحرب.  
(والصبر) فى المكارة وتحمل المشاق، وعدم العجلة فى الأمور (ردائى) الرداء ما يكون فوق اللباس، وبه يتجمل ظاهر المرء، ولما كان الصبر فيه سكون وتحمل وعلم ووقار يشاهده الناس شبهه بالرداء؛ لتجمله به ودفعه ضرر البرد، فما قيل من أنه لو شبهه بالدرع واللحاف صح كما قيل:

تدرعت صبرى والتحفت صروفه وقلت لنفسى: الصبر أولى فاهلكى  
ليس بشىء.

(والرضاء) بالقصر مصدر، وبالمدة اسم كما فى الصحاح، والذى فى النسخ بالمد (غنيمتى) جعله غنيمة؛ لأنه يقهر به عدو نفسه اللوامة، ويأسرها، إذ الراضى بما قسم الله لا يتمنى ما لم يكن، فيحصل له غنى القلب والراحة كما قيل:

هل هى إلا مدة وتنقضى وما يغلب الأيام إلا من رضى  
ولا شك أن الرضاء بما قدره الله واجب، وقوله فى الشرح الجديد: اختلف العلماء فى الرضاء هل هو واجب أو مستحب؟ فقيل هو مستحب؛ لأنه لم يرد الأمر به، وإنما ورد الثناء على المتصف به، وإلى هذا ذهب محققو العلماء مما لا ينبغى ذكره.

(والفقر فخرى)، وفى نسخة البرهان وغيره: والعجز بدل الفقر أى إظهار أنه عاجز ضعيف، وأن القدرة والقوة لله، وهو مقتضى مقام العبودية كما قال تعالى: ﴿وَحُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، والعجز المذموم الذى استعاذ منه الرسول ﷺ فى قوله: «اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل». بمعنى آخر، وهو التثاقل عن العبادة والتوانى كما قيل:

إذا ما التوانى أنكح العجز بنته فساق إليها حين أصدقها مهرا  
فراشا وطاء ثم قال لها: اتكى أقصارهما لا شك أن تلد الفقرا

قال ابن تيمية: «الفقر فخرى» ليس بحديث، ومن قال: ?إنه حديث فقد كذب، وقيل: الظاهر أن المراد بالعجز بفتح فسكون هو العجز عن طلب الدنيا، والتمكن فى الثروة والشوكة، أريد به لازمه وهو الفقر، ولا وجه له، فإنه ﷺ ليس بعاجز عما ذكر، وإنما تركه وأعرض عنه باختياره كما مر، والأوجه أن المراد به ما مر كما فى حديث «لا يدخل على إلا عجزة الناس» أى ضعفاؤهم، وفى آخر «أهل الجنة كل ضعيف متضعف»<sup>(١)</sup>، وفى حديث هرقل «ضعفاء الناس أتباع الرسل»، وفى حديث الإسراء «أمتك أضعف الأمم، وهم أكثر أهل الجنة».

قيل: فقلوه: الفقر فخرى قد يقال إنه رواية بالمعنى، فليس بكذب وفيه نظر، ولذا قال الحافظ ابن حجر: إنه باطل موضوع، فإنه ورد مدح الفقر فى الحديث كحديث «تحفة المؤمن فى الدنيا الفقر»<sup>(٢)</sup>، وقد روى بسند لا بأس به، وإثبات الفخر له وقد نفاه فى قوله «لا فخر»؛ ليس من شأنه لأن المراد به الخصلة الحسنة التى من شأنها الافتخار بها، أو المراد فخرى لو كنت ذا فخر، كما قيل فى قراءة: (إنما يخشى الله من عباده العلماء) برفع الجلالة أى إنما يخشاهم لو كان يخشى غيرهم، وإن كان المشهور أن المراد بالخشية لازمها، وهو التوقير والتعظيم، والفقر مع الصبر وصف محمود، فإن الغنى هو الله كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

(والزهد حرفتى) الحرفة بكسر الحاء وسكون الراء المهملتين والفاء هى الصناعة التى يرتزق منها الإنسان، والزهد ترك ما يرغب فيه من الدنيا، وقال الجنيد: الزهد خلو الأيدى من الأملاك والقلوب من التبع، وليس الزهد عدم الملك، فإن سليمان، عليه السلام، كان زاهدا مع أن الدنيا كلها فى قبضته، والتعبير بالحرفة ليس فى محله، فإنه

(١) أخرجه أحمد (٣٠٦/٤).

(٢) انظر: تذكرة الموضوعات (١٧٨)، وتنزيه الشريعة (١٣١/٢)، والإتحاف (٢٧٦/٩).

يوهم أنه جعلها مكسبا، وفيه شاهد للوضع، ومما قلته فى مشايخ زماننا:

قد قام فى سوق الرياء تاجرا وباع للسوقة إرشاده  
حرفته الزهد ودكانه يبيع فيه الكذب سجاده

(واليقين قوتى) اليقين الاعتقاد الجازم، وهو قوت القلب من قام به لاطمئنانه وعدم خوفه من غير الله، وهذا شامل لحق اليقين وعين اليقين، والفرق بينهما مشهور فى التفسير وكتب الكلام.

(والصدق شفعى) الصدق بمعنى مطابقة الخير، والمراد به ما اصطلاح عليه المشايخ من أنه استواء السر والعلانية والوفاء لله عز وجل بكل ما عهده إليه، ويصح إرادة المعنى الأول، والمراد بكونه شفعيه أنه سبب مصالحه عند الله، أو المراد تعليم أمته.

(والطاعة حسبي) بفتحيتين هو ما يعده المرء من مفاخر آبائه، أى طاعة الله فى السر والعلانية هى التى أفتخر به وأعده مأثرة لا ما يفتخر الناس به، أو هو بسكون السين أى الطاعة تكفينى.

(والجهاد) فى سبيل الله، أو مجاهدة النفس بمخالفتها (خلقى) أى طبعت على محبته، (وقرة) بضم القاف وتشديد الراء المهملة (عيني) الباصرة أى مسرتها وفرحها فى الصلاة لما أشاهد فيها من التجليات الإلهية، فإنها المعراج الأصغر، والقرة مأخوذة من القر وهو البرد؛ لأن دمعة السرور باردة، أو من القوار؛ لأن بلوغ الأمنية برؤية ما يسر تسكن به العين، فلا تستشرف لغيره، وقد تقدم ما فيه.

(وفى حديث آخر) لم يذكره المخرجون لأحاديث هذا الكتاب، (وثمره فؤادى فى ذكره) الفؤاد القلب أو داخله، وهو محل العقل على الأشهر، فجعله كشجرة مثمرة وجعل ذكر الله المقصود منه.

(وغمى لأجل أمتى) لرأفتى عليهم فى الدنيا والآخرة.

(وشوقى إلى لقاء ربى) ومناجاته والتوجه إليه.

\* \* \*

### فصل

(اعلم وفقنا الله وإياك) تقدم الكلام عليه (أن صفات الأنبياء والرسل، عليهم الصلاة والسلام) هو من عطف الخاص على العام اعتناء لشأنهم وبياناً لشرفهم، وسيأتى تفصيله (من كمال الخلق وحسن الصورة) الخلق بفتح فسكون، والمراد خلق مادة جسمه وأعضائه، والصورة هيئة بدنه وتناسب أعضائه ومقاديرها ولون بشرته.

(وشرف النسب) أى شرف آبائه وأمهاته وأجداده وجداته إلى أن تنتهى إلى آدم، عليه الصلاة والسلام، فليس فيهم خسيس ولا وضع.

(وحسن الخلق) بضميتين أو ضم فسكون، وقد تقدم بيانه.

(وجميع المحاسن فى هذه الصفة) كذا فى بعض النسخ، وفى غيرها وعليه الشراح: هى بالضمير بدل فى الجارة، قال القسطلانى: هذه الصفة خير أن، ووقع بين اسم أن وخبرها ضمير الفصل لقصر الصفة على الموصوف كأن زيدا هو المطلق أى لا غيره، وأتى بها على لفظ الأفراد لتغاير بين المبتدأ والخبر، فإن الاتحاد غير جائز، وعرفها بالألف واللام ليشعر بأن المراد استغراق ما ذكره من كل الصفات المذكورة انتهى.

وتبعه بعض الشراح، ولم يبينه غيرهم، وجميع المحاسن على هذا معطوف على اسم أن، فهو منصوب فالمعنى أن كمال الخلق، وحسن الصورة، وشرف النسب، وحسن الخلق صفات جامعة لجميع المحاسن، وهى صفة الرسل، عليهم السلام، وهى على الوجه الأتم الأكمل لا تجتمع فى غيرهم، ومن بيانية مبينة لصفات جميع الأنبياء والرسل، والصفة بمعنى الصفات المذكورة، ولا يخفى ما فيه من القلاقة والخفاء، وأن قوله هذه الصفة ركيك جداً، ولو قيل: إن قوله من كمال الخلق إلخ خير أن، ومن ابتدائية وجميع مرفوع مبتدأ، وفى هذه الصفة خبره، والمعنى جميع صفات الأنبياء، عليهم السلام، ناشئة من كمال الخلق إلى آخره، وجميع المحاسن مجموعة فيها كان أظهر وأحسن؛ (لأنها صفات الكمال) أى صفات بها يكمل البشر.

(والكمال والتمام البشرى) تقدم الفرق بين الكمال والتمام، (والفضل الجميع) مبتدأ وكان الأحسن أن يقول: والفضل جميعه (لهم) خبره أى ثابت للأنبياء، عليهم الصلاة والسلام (إذ رتبهم أشرف الرتب، ودرجاتهم أرفع الدرجات) فيه إشارة إلى تفضيلهم على الملائكة كما سيأتى.

(ولكن فضل الله بعضهم على بعض) استدراك لدفع ما عسى يتوهم من تساويهم رتبة، ثم أشار على طريق اللف والنشر المشوش إلى الدليل على عدم تساويهم بقوله: قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، المذكورون فى سورة البقرة، فالتعريف عهدى، أو جميع الرسل الذى يعلمهم، فهو استغراقى ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، بمواهب سنية ومراتب عليّة غير أصل النبوة والرسالة، ﴿مِنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وهو محمد أو إبراهيم، عليهما الصلاة والسلام، وأشار إلى فضلهم على من عداهم بقوله: (وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى

عليه السلام [الدخان: ٣٢]، منا بأحوالهم ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، وهذا من المصنف، رحمه الله تعالى، مبنى على أن الضمير للأنبياء مطلقاً، والمراد بالعالمين جميع العالم لا على ما اختاروه من أنه لبنى إسرائيل، والعالمين عالمى زمانهم لكثرة الأنبياء فيهم.

(وقال عليه الصلاة والسلام) فى حديث رواه الشيخان عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، (إن أول زمرة) أى طائفة وجماعة (يدخلون الجنة على صورة القمر) أى وجوههم مشرقة مضيئة، وليس المراد أنها مثله فى الاستدارة وغير ذلك، ولذا قال: (ليلة البدر)، وهى ليلة أربعة عشر، وهو أضوأ ما يكون فيها، وسمى بدرًا لامتلائه بالنور أو لمبادرته مغيب الشمس بالطلع، وهو يسمى هلالاً فى أول الشهر، ثم يسمى بدرًا إذا تم:

إن الهلال إذا رأيت نموه ينبيك أن سيعود بدرًا كاملاً

والقمر يطلق عليه دائماً كما بينه أهل اللغة، وتام الحديث «ثم الذين يلونهم كأشد كوكب درى فى السماء إضاءة»، (ثم قال آخر الحديث) «قلوبهم على قلب رجل واحد، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، لكل امرئ منهم زوجتان من الخور العين يرى مخ سوقهن من وراء العظم واللحم، يسبحون الله بكرة وعشياً، لا يسقمون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون، آتيتهم الذهب والفضة، وأمشاطهم الذهب، ووقود مجامرهم الألوكة، ورشحهم المسك»، وفى أثر أن له من الخور العين اثنين وسبعين حورية سوى أزواجه من الدنيا، وأن الواحدة منهن لتأخذ مقعدها قدر ميل من الأرض.

(على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم، عليه السلام، طوله ستون ذراعاً فى السماء)، والمراد بهذه الزمرة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وبالذين يلونهم الأولياء والعلماء والراسخون، وقيل: المراد بهم الأنبياء والأولياء، وبالذين يلونهم بقية المؤمنين الأتقياء، وقوله: آتيتهم الذهب والفضة إما على اللف والنشر، فآنية الفرقة الأولى من الذهب والثانية من الفضة، أو هما لهما بقرينة جعل أمشاطهم كلهم من الذهب، ويحتمل أن يكون اكتفاء أى من الذهب والفضة، ورجح بعضهم أن يكون هؤلاء كلهم من أمة محمد ﷺ، لحديث الصحيحين: «يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفاً بيض الوجوه تضىء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر»<sup>(١)</sup>، ويعلم منه حال الأنبياء بالطريق الأولى، أو هم مسكوت عنهم وعلمهم عند الله، وجعلهم على صورة آدم، عليه الصلاة والسلام؛ لأنه

(١) أخرجه البخارى (١٨٩/٧، ١٤٠/٨)، ومسلم فى الإيمان (٣٧١، ٣٧٢)، وأحمد (٤٠٠/٢)،

كان أجمل الناس وأتمهم خلقا، والستون ذراعا إما بذراعه نفسه أو بذراع معهود عند المخاطبين، والأول أظهر، لكن روى ابن أبى الدنيا عن أنس يرفعه: «يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم ستون ذراعاً بذراع الملك، وعلى حُسن يوسف، وعلى ميلاد عيسى ثلاث وثلاثين سنة، وعلى لسان محمد، ﷺ، جرد مرد مكحلين»<sup>(١)</sup>.

وورد أن عرضه سبعة أذرع، والحديث يدل على تبدل ألوانهم، فمن كان أسود أو أشقر صار أبيض بياضاً معتدلاً.

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة يرفعه: «يدخل أهل الجنة الجنة جرداً بياضاً جعاداً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين، وهم على خلق آدم ستون ذراعاً فى عرض سبعة أذرع»<sup>(٢)</sup>، وقوله: فى السماء يحتمل إرادة الحقيقة منه، أى كابتداء خلقه وصورته إذا كان فى السماء، أو المراد جهة العلو أى طوله ذلك إذا كان منتصباً قائماً.

(فائدة) استنبط بعضهم من أثر: أن مقعد الحوراء فى الجنة ميل، أن كل آدمى يدخل الجنة يكون طوله اثنا عشر ألف ذراع بذراع الشرع الذى هو شيران؛ لأن مقعد الحوراء ميل، فيكون طولها ثلاثة أميال، ومقعد الواحد منا ثلث قامته تقريباً، والغالب أن الذكر كالأنثى فى الخلقة، فيكون طول الرجل اثنا عشر ألف ذراع كما تقدم يقسم على الستين الواردة فى الحديث، فيكون كل ذراع من الستين ما يأتى ذراع شرعى تقريباً.

(وفى حديث أبى هريرة) رضى الله عنه الذى رواه الشيخان أيضاً (رأيت موسى) عليه الصلاة والسلام، ليلة الإسراء عياناً لامناً لأن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، أحياء لا تبلى أجسادهم، (فإذا رجل ضرب) إذا فجائية أى فإذا هو رجل ضرب بفتح الضاد المعجمة وسكون الراء المهملة والموحدة، ورجل هنا بفتح فضم بمعناه المشهور وهو الذكر من بنى آدم، ومعنى ضرب بالفتح والسكون أن جسمه بين الهزال والسمن، وقال الخليل، رحمه الله تعالى: إنه القليل اللحم، ووقع فى رواية الأصيلى بسكون الراء وكسرها، والأصح الأول، وروى مضطرب، وهو الطويل غير الشديد الطول.

وفى مسلم عن ابن عمر، رضى الله تعالى عنهما، أنه جسيم سبط، وحمل هذا على ما يوافق رواية مضطرب، لا على كثير اللحم كما وقع فى صفة الدجال، فهو من الأضداد (رجل) بفتح المهملة وكسر الجيم، وجاء فتحها فى لغة قليلة أى شعره متكسر قليلاً، ليس بسبط لا تكسر فيه، ولا جعد متكسر كثيراً.

(١) أخرجه الترمذى (٢٥٤٥)، وأحمد (٢٩٥/٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٣/٥).

(أقنى) بقاف ونون من القنى بالفتح والقصر، وهو طول الأنف ودقة أرنبته يقال: رجل أقنى وامرأة قنواء، وقيل: القناء احديداب فى الأنف، فمعناه محدوب وليس بعيب فى الناس، وفى النهاية القناء فى الأنف طوله ودقة أرنبته مع حذب فى وسطه، وأما قول كعب، رضى الله تعالى عنه<sup>(١)</sup>:

قنواء فى حُرَّتَيْهَا للبصير بها عتق مبين وفى خديه تسهيل

فمعنى آخر لا حاجة لنا به هنا.

(كأنه من رجال شنوءة) بفتح الشين المعجمة وضم النون وواو ساكنة وهمزة وقد تبدل الهمزة واوًا تدغم وهاء على وزن فعولة، وهى اسم قبيلة ويقال لها أزد شنوءة وأسد شنوءة، وهى باليمن مشهورة، وهى من الشناء وهو التباعده مما يدنس، يقال: رجل شنوء إذا كان طاهر النسب ذا مروءة، سميت بذلك لعلو نسبهم وحسن سيرتهم وأفعالهم، وهذا الحديث متفق عليه، وفى رواية البخارى كأنه من رجال الزط، وهم نوع من السودان أو الهنود طوال الأجسام مع نخافة، وهذا هو وجه الشبه أنه طويل غير جسيم.

(ورأيت عيسى) عليه الصلاة والسلام، يقظة فى الإسراء كما سيأتى (فإذا هو رجل ربعة) بفتح الراء المهملة وسكون الباء الموحدة وفتحها أى بين الطول والقصر معتدل القامة، (كثير خيلان الوجه) بكسر الخاء المعجمة وسكون المثناة التحتية جميع خال، وهو الشامة السوداء المعروفة، وما قيل من أن كثرة الخيلان مذمومة غير مسلم، واختلفت الرواية فى لونه فروى أنه آدم أى أسمر وروى (أحمر كأنما خرج من ديماس) بكسر الدال المهملة والمثناة التحتية وميم وألف وسين مهملة وهو الحمام والكن، وأصله السرب فى الأرض، والمراد صفاء لونه مع حمرة فيه، فرواية آدم بمعنى شديد الحمرة لا تنافى هذه.

(وفى حديث آخر) لم تعرف روايته (مبطن) بالتشديد والطاء المهملة أى ضامر البطن كما يفسره قوله: (مثل السيف) أى فى استوائه ودقته، وقد تعددت الرواية برؤيته ﷺ للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، يقظة فى السماء والأرض؛ لأنهم أحياء، وصنف البيهقى فى هذا جزءاً مستقلاً.

(قال) ﷺ: «وأنا أشبه ولد إبراهيم به»، فحليته، صلى الله تعالى عليه وسلم، ولونه كلونه، فهو أكثر شبهاً به من سائر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، والناس كلهم.

(١) البيت من البسيط، وهو لكعب بن زهير فى ديوانه (ص ١٣)، لسان العرب (٤٤٣/١٣)، تاج العروس (٥٨٢/١٠)، وبلا نسبة فى المخصص (٨٢/١).



(وقال) صلى الله تعالى عليه وسلم، (في حديث آخر في صفة موسى) عليه الصلاة والسلام، كما رواه البخارى في صحيحه (كأحسن ما أنت راء من آدم الرجال) ما موصولة والعائد محذوف أى الذى أنت رائيه، وآدم من الأدمة وهى سمرة اللون، قيل: وهى فى الإبل بمعنى البياض، وفى الظباء سمرة الظهر وبياض البطن، ومؤنثه أدماء، وآدم هنا بضم الهمزة وسكون الدال المهملة وبالميم جميع آدم كأسمر وأسمر، وهى السمرة مطلقاً؟ أو الشديدة، وقيل: إنها البياض والأول أصح، واستدل عليه بقوله تعالى: ﴿مَخْرُجٌ بَيَضٌ مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [طه: ٢٢]، أى عيب كالبرص، وإنما يكون هذا إذا كان أسمر وخالف لونها لونه، ويحتمل أنها تخالفه لشدة بياضها، كما قيل: إنها كانت ذات شعاع كشعاع الشمس.

(وفى حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه، عنه صلى الله تعالى عليه وسلم) رواه أبو يعلى وابن جرير من طرق، وأخرجه سعيد بن منصور فى سننه عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، موقوفاً: (ما بعث الله تعالى من بعد لوط عليه الصلاة والسلام نبياً)، وهو لوط بن هاران، وهو ابن أخى إبراهيم، وخص ما ذكر بما بعده لأنه من الشام، فبعثه الله تعالى إلى أهل قرية يقال لها: سدوم ليست من بلاده، وليست موطناً لقومه، ومن بعده من الأنبياء لم نبأ (إلا فى ذروة من قومه، ويروى فى ثروة أى كثرة)، والذروة بكسر الدال المعجمة وضمها وسكون الراء المهملة أعلى شىء، أى بين قوم له ذوى جدة وسعة وشرف، لا غرباء ولا من قوم ليسوا كذلك، وأشار بهذا الحديث إلى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كلهم شاركوا نبينا، ﷺ، فى علو النسب، وشرف القوم، والثروة بمعنى الكثرة مطلقاً، وقد يختص بالمال، وقيل: الذروة المكان المرتفع وهى مثلثة الدال.

(ومنع) بفتح الحروف أى ميم ونون وعين مفتوحات جمع مانع كخدمة جمع خادم، ويجوز تسكين نونه، أو هو اسم مصدر فى الأصل كصدقة أى قوم يمنعونه ويحجمونه، وقصة لوط عليه الصلاة والسلام، مفصلة فى كتب التفسير، وفى قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ ذِي قُوَّةٍ﴾ [هود: ٨٠] إشارة إلى ما ذكر من أنه لم يبعث فى قومه الذين ينصرونه ويحجمونه.

فإن قلت: كيف يكونون فى منعة وثروة، وقد قال تعالى فى بعضهم: ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، وقد عاداهم قومهم وقتل بعضهم؟ وما مناسبة ما ذكر لما عقد له الفصل من محاسن الخلق؟ والخلق من الصفات الذاتية.

قلت: قد توهم بعضهم ورود ما ذكر، وليس كذلك لأن ما ذكر من شرف القوم

والأصالة يدل على المحاسن الذاتية؛ لاستلزامه لها، وكونهم كثيرون لا ينافي عداوتهم، وأما المنعة فباعتبار من اتبعه منهم، ولذا ورد: «رحم الله أخى لوطاً لقد أوى إلى ركن شديد»<sup>(١)</sup>، وهو لا ينافي الآية لأن المراد الملازمة وما أمده الله تعالى به.

(وحكى الترمذى عن قتادة ورواه الدارقطنى من حديث قتادة عن أنس، رضى الله تعالى عنه) تقدم ترجمة الترمذى وكتادة، وأن الدارقطنى منسوب لدارقطن وهى محلة ببغداد كان يسكنها، وهو الحافظ الإمام الجليل المشهور إمام عصره فى الحديث والفقه والقراءات، وغيرها من العلوم الشرعية، والحديث المذكور فى الشمائل وغيرها مراسلاً.

(ما بعث الله نبياً إلا)، وقد خلقه (حسن الوجه حسن الصوت وكان نبيكم) من ابتداء وجوده وخلقته (أحسنهم) أى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، (وجهاً وأحسنهم صوتاً)؛ لأن حسن الصورة يدل على كمال الخلق والخلق إذ الظاهر عنوان الباطن كما قيل:

يدل على معرفه حسن وجهه وما زال حسن الوجه أهدى الدلائل

وقال الآخر:

يدل على قبح الطوية ما ترى بصاحبها من قبح بعض ملاحظه

وحسن الصوت بكونه جهورياً يسمع من بعيد مع لطفه فيه يدرك بالذوق، ولا يلزمه كونه على رسم الموسيقى، وهذا يدل على أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان أجمل من يوسف، وأحسن صوتاً من داود عليهما الصلاة والسلام، وكانت قراءته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى بيته ليلاً تسمع عند الكعبة، وفيما بعد من منازل المدينة.

وما ورد فى حديث الطبرى فى يوسف: «فإذا أنا برجل أحسن ما خلق الله قد فضل الناس بالحسن» المراد منه تفضيله، صلى الله تعالى عليه وسلم، على من عداه، لاسيما إن قلنا: إن المتكلم لا يدخل فى عموم كلامه كما ذهب إليه بعض الأصوليين، ويدل عليه ما ورد أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، أعطى الحسن كله، وأعطى يوسف، عليه الصلاة والسلام، شطره أى نصفه. أى أن الحسن كله، جمع له، صلى الله تعالى عليه وسلم، من تناسب أعضاء وصفاء لون وغيره مما يدرك ولا يوصف، ويوسف أعطى من جنس الحسن الكامل فيه نصفاً، وجميع الخلق وزع بينهم، وما يعدل نصفه الآخر، فدل ذلك على أنه أحسن الناس كلهم كما صرح به فى الحديث الذى نحن فيه، وما قاله السخاوى فى كتاب الامتنان من أن جلال الدين الخلى، رحمه الله، سئل عن حديث «أعطى نبينا جميع الحسن، ويوسف شطره» فقيل: كيف يكون الشئ الواحد جميعه فى

شئ ونصفه فى آخر؟ فقال: لم يظهر لى جوابه، وكذا قال ابن حجر، وقد تأملت قوله فى البردة البوصيرية:

منزه عن شريك فى محاسنه فجوهر الحسن فيه غير منقسم

فبان لى منه جوابه، وهو أن حسن النبى ﷺ غير منقسم بينه وبين غيره بخلاف حسن سائر الناس، فإنه منقسم بينهم وبين يوسف، عليه الصلاة والسلام، انتهى وفيه نظر، وهذه مغالطة وزهرة لا تحتمل الفرق، ومنشؤه عدم الفرق بين تقسيم شئ بعينه، وتقسيم أفراد نوع من الأنواع فتدبر.

(وفى حديث هرقل) مر ضبطه والإضافة لأدنى ملابس لذكره فى الحديث كما يقال: حديث الشفاعة، والأصل إضافته لرواية الصحابى أو التابعى، أو من خرج به كالبخارى ومسلم، وهذا الحديث رواه الشيخان عن ابن عباس، رضى الله عنهما، وابن عباس نقله عن أبى سفيان حين أرسل إليه هرقل، وهو بالشام للتجارة فى ركب من قريش فى مدة محادة رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لكفار قريش، فأتوه بإيليا فدعاهم وحوله عظماء الروم، فسألهم عن أحواله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فكان أول ما سأله عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ فقال: هو فينا ذو نسب إلى آخره، فقال له كما أشار إليه بقوله: (وسألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب) أى نسب عظيم، فالتكثير للتعظيم لشرف أصوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأنه ليس فى أمهاته سفاح ولا شئ من نكاح الجاهلية كما مر، وتقلبه فى الأصلاب الطاهرة من الأنبياء وقبيلته أشرف القبائل، وبيته أشرف بيوتهم، (وكذلك الرسل) عليهم الصلاة والسلام، (تبعث فى أنساب قومها) أى كل نبى له نسب عال فى قومه؛ لأن من اختاره الله لنبوته يختار له عنصرا مناسباً، (ولم يتخذ ولدا من الدل)، فشبه اتصاله باتصال الظرف بمظروفه.

(وقال تعالى فى أيوب) صلى الله تعالى عليه وسلم، وكان ببلاد حوران وقبره مشهور عندهم بقرية قرب نوى، وعليه مسجد وقرية موقوفة على مصالحه، وعنده عين جارية فيها أثر قدم فى حجر يقال: إنه أثر قدمه، عليه الصلاة والسلام، والناس يشربون من عينه ويغتسلون منها بالترك، ويقولون: إنها المذكورة فى القرآن ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَقِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، كثير الرجوع لربه بمراجعة دعائه، وامتنال أوامره ونواهيه، واستشهد بهذه الآية على حسن خلق الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فإن الصبر أمر عظيم وخلق كل كريم حلیم، ولذا أثنى الله عليه بقوله: ﴿نَقِمَ الْعَبْدُ﴾ إلى آخره، ووصفه بالعبودية المناسبة للصبر، وقد صبر على ما ابتلاه الله به كما صبر يعقوب وغيره من الرسل، ونبينا صلى الله تعالى عليه وسلم، صبر على قومه وما قاساه منهم، وقصة

أيوب عليه الصلاة والسلام، ونسبة مذكور في التفسير، واختلف في زمن نبوته، فقيل: كان قبل موسى، عليه الصلاة والسلام، وأنه من بني إسرائيل، ومدة بلائه ثلاث عشرة سنة أو ثلاث سنين وامرأته اسمها ليا، وقيل: رحمة بنت يوسف.

وقال تعالى: ﴿يَبْخِشُ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٢-١٥]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبْشِرُكَ بِعَيِّي﴾ إلى ﴿الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]، واستشهد المصنف، رحمه الله تعالى، بما ذكر على محاسن الأنبياء وأخلاقهم إذ تلقى يحيى، عليه الصلاة والسلام، الكتاب التوراة، أو غيرها بقوة فهم وعزيمة على العمل بما فيها، وقد آتاه الله الحكم صبيا، وهو يدل على سلامة فطرته وخلقته، وكان حنانا في طبعه الرحمة، وأنه كان تقيا برا بوالديه مطهرا من النقائص، وأنه سلمه الله من يوم ولد إلى مماته.

(وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] استشهد بهاتين الآيتين على ما حواه الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، من الصفات الجليلة، ومكارم الأخلاق، وأنه تعالى جعلهم صفوة خلقه، فالإبراهيم إسحاق وإسماعيل وأولادهما، وآل عمران عيسى ومريم بنت عمران ذرية بعضها من بعض على سنن واحد.

(وقال في نوح) عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّكُمْ كَانَتْ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]؛ لأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان لا يفعل شيئا إلا قال: بسم الله والحمد لله.

(وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبْشِرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾ [آل عمران: ٥٤] الآية) استشهد بهذه الآية على ما لعيسى، صلى الله تعالى عليه وسلم، من النعوت السنية، والمحاسن الجليلة التي وصفه الله تعالى بها من أنه وجه أي شريف قدره في الدارين، وأنه تكلم في مهده، وقد تقدم ذكر من تكلم في المهد غيره، والكهل الشاب، وقيل: من خطه الشيب أو من جاوز الثلاثين إلى خمس وخمسين، وكونه رفع ابن ثلاث وثلاثين وإن جزم به القاضى في تفسيره غير متفق عليه، فقد ذكر ابن حجر في الإصابة أقوالا آخر منها أنه بلغ المائة أوزاد عليها، وتقدم معنى كونه كلمة الله.

(وقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾) إلى ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠]، وقيل: إنه نبيء وهو صبي وألهم حفظ التوراة والإنجيل، ووصف نفسه بالعبودية ردا لما اعتقده فيه النصارى، وكان نطقه بما ذكر تبرئة لأمه.

(وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ

عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩]، وذلك لأنهم عابوه، عليه الصلاة والسلام، لشدة تستره حياء من الله بأن في بدنه برصاً، أو به أدرة فبرأه الله من ذلك، وبين أنه كامل الخلق والخلق، ولذلك ساق المصنف الآية، وقال: (قال النبي، صلى الله تعالى وسلم، كان موسى رجلاً حياء) بحاء مهملة ويائين ثانيتهما مشددة بزنة صبي أى كثير الحياء (ستيراً) بكسر السين المهملة وكسر التاء المثناة المشددة بزنة سكين أى شديد الستر لبدنه، وقد أشار لتفسيره بقوله: (ما يرى من جسده شيء استحياء)، وهذا يدل على عفته وحيائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وهو خلق حميد.

وقال البرهان: إن ستيراً بفتح السين وكسر التاء الفوقية المخففة فعيل بمعنى فاعل، والذي أحفظه أنه بكسر وبتشديد التاء الفوقية كسكيت وسكين، وكذا ضبط في نسخ البخارى انتهى، ومن كان يستحي من كشف عورته وبدنه، فهو أشد حياء من كشف غيره.

(الحديث) بالنصب أى اقرأ الحديث الذى رواه البخارى عن أبى هريرة أو بذكره وتتمته أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لما كان يكثر الستر ويغتسل وحده قالوا: إنه إنما يفعل هذا لبرص أو أدرة به، فذهب مرة ليغتسل ووضع ثوبه على حجر، فلما أراد أن يلبسه فر الحجر، وجرى خلفه ويقول: ثوبى حجر ثوبى حجر ثوبى حجر حتى مر على بنى إسرائيل، فأروه أكمل الناس وأصحهم بدناً، فبرئ مما سمعوه وآذوه به.

(وقال تعالى عنه) ضمنه معنى حكى، فعدها بعن أى عن موسى عليه السلام: ﴿فَقَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ [الشعراء: ٢١] الآية) أى علماً ونسوة، وفراره ﷺ لما قتل القبطى وذهب، فكلمه الله كما هو مشهور.

(وقال فى وصف جماعة منهم) أى من الأنبياء عليهم السلام: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٠٧]، وقع هذا من نوح وصالح ولوط وشعيب، عليهم السلام، كما حكاها عنهم على وجه الرضا والتصديق، فلا يتوهم أنه مدح لأنفسهم، فليس مما نحن فيه.

(وقال) موسى لشعيب، عليهما الصلاة والسلام: ﴿إِنِّي خَيْرَ مَنْ اسْتَعْجَزْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وقصته معه أنه لما فر من القبط إذ خافهم؛ لقتل رجل منهم، ومر بابنتى شعيب، عليه السلام، جالستان ينتظران فراغ الناس ليسقى غنما لهما، قال لهما: لم تأخرتما فقالتا: ﴿فَسَقَى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّجَاءُ﴾ [القصص: ٢٣]، فقال: أما عندكم بئر غير هذه؟ فقالتا: عندنا بئر مطبق عليها حجر لا نطبق رفعه، وكان لا يرفعه إلا عشرة من أشد الرجال، فقال: اذهبا فأريانيها فأرتها، فرفعه وحده وسقى لهما، فقالتا

له: اذهب معنا ليجزيك أبانا علي ما فعلت، فقال، أرشداني للطريق وامشيا خلفي لأنني رجل من ذرية إبراهيم، عليه السلام، لا أحب أن أرى منكما ما لا يحل لي، فأخبرتنا أباهما بقصته وقوته في رفعه ذلك الحجر، وأمانته لامتناعه من النظر لهما، فاستأجره علي ما قصه الله لرعى غنمه.

قال البيضاوي: الجملة معللة لما قبلها وللمبالغة جعل خير واسم إن معرفتين يعني لم يقل: إن من استأجرته قوى أمين، بل أتى بجملة معرفة الطرفين لحصر الخبرية فيه فتدبر.

(وقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥])، فوصفهم بالصبر، وهو من أحسن الأخلاق، والعزم على التصميم على نفاذ الأمر، والحزم في الشدائد، وقد اختلف في أولى العزم كما مر.

(وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾) إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَى﴾ [الأنعام: ٨٤، ٩٠]، وقد وقع في هذه الآية بحث ذكره الطوفى في تفسيره، وهو أنه استدل بهذه الآية على أن محمداً، صلى الله تعالى عليه وسلم، أفضل من جميع الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، لأن الله تعالى أمره بالافتداء بهداهم جميعاً، ولا شك في امتثاله واقتدائه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وإذا أتى بما أتوا به جميعاً مع ما خص به كان أفضل من كل فرد فرد بلا شبهة، ومن المجموع، ونقل عن العز بن عبد السلام أنه قال: إنه أفضل من كل واحد منهم، لامن المجموع، ولا دلالة في الآية عليه، قال: ولما نقل عنه هذا قام عليه الناس ونسبوه في هذه المقالة إلى ما وصل إلى تكفيره.

وأنا أقول: أنا برىء من نسبة مثله للعز، والقائل بهذا توهم أنه مثل ما لو قسم عشرة دنانير على خمسة رجال، وأعطى أربعة منهم ديناراً ديناراً، وأعطى ستة للخامس، فهو يزيد على كل واحد منهم لا على المجموع، فلا يلزم من زيادته على كل واحد من الجماعة زيادته على الجميع، فالآية لا دليل فيها لما ادعوه، وهذا إنما يتم لو لم يثبت له، صلى الله تعالى عليه وسلم، غير ما لجميعهم، وهو مقرر ظاهر، وقد بسطنا الكلام على هذا في غير هذا المحل، والهاء في اقتداه سكت تثبت وقفاً على القياس ووصلاً لإجراء له مجرى الوقف، وحذفها حمزة وصلاً وكسرهما هشام اختلاساً وصلاً، ووصلها ابن ذكوان بها تشبيهاً لها بهاء الضمير، وقيل: هذا لا يصح وإنما هي ضمير المصدر كقوله: هذا سراقا للقرآن يدرسه.

(فوصفهم بأوصاف جمّة) أى كثيرة (من الصلاح) ليس المراد بالصلاح المعنى المشهور

فى قولهم: رجل صالح حتى يقال: إنه ليس بمدح للأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ومن توهمه قال: المراد مدح الصفة لا الموصوف كما حقق فى شروح الكشف، بل الصلاح صفة جامعة لكل خير، فهى أبلغ من غيرها كما فصله السبكى فى فتاويه.

(والهدى والاجتهاد) وهو الاصطفاء والاختيار للرسالة، (والحكم والنبوة) أى الحكمة أو فصل الأمر على مقتضى الحق.

(وقال: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِعَلِيمٍ﴾) (علیم و﴿حَلِيمٍ﴾ [الصفات: ١٠١])، وهو إسحاق، فوصفه بالعلم والحلم، وهما أمران عظيمان قال الأنطاكى: كذا فى النسخ، والذى فى القرآن ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِعَلِيمٍ حَلِيمٍ﴾ و﴿بِعَلِيمٍ حَلِيمٍ﴾، ولو قدم حلیم وعطف عليه بان الأمر.

(وقال: ﴿وَلَقَدْ قَتَلْنَا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾) إلى قوله: ﴿أَمِينٌ﴾ [الدخان: ١٧، ١٨]، والمراد بالفتنة الاختبار والامتحان يقال: فتنت الفضة إذا أدخلتها النار، فشبه أمرهم باتباعه بمعاملة المختبر، أو المراد أنه ابتلاهم كما ابتلى العرب بنبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، فوصفهم الله فى هذه الآية بصفات حميدة من الكرم والأمانة وغيرهما.

(وقال) حكاية عن الذبيح: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الصفات: ١٠٢] على الذبيح مسلماً لله، ولذا سلمه الله وفداه.

(وقال فى إسماعيل) عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّكُمْ كَانُوا صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤] (الآيتين) صرح بإسماعيل مع أن المذكور قبله فى حقه إشارة للاختلاف فيه، فإنه قيل إنه إسحاق، وقيل: إنه إسماعيل بن حزقيل، وهو نبى بعثه الله لقومه فسلخوا رأسه، فخيره الله بين تعذيبهم وغيره، فاختر العفو والرضا بثوابه، والجمهور على أنه إسماعيل الذبيح ابن إبراهيم، وهو رسول نبى، وصدق وعده لأنه وعد أباه بالصبر على الذبح فوفى بوعده، وقدم الرسالة هنا على النبوة لأنها أشرف على قول.

(وقال فى موسى، عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّكُمْ كَانْتُمْ تَخْلَصُونَ﴾ [مريم: ٥١]) فى طاعته لا يقصد بها إلا وجه الله والتقرب إليه.

(و) قال (فى) شأن (سليمان): ﴿نِعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠] أى مسبح أو رجاء إليه بالتوبة، وقيل: الأبواب المطيع، وقيل: الرحيم أو كثير الصلاة.

(وقال: ﴿وَأَذْكُرْ عِبَدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٤٥])، وهو إسرائيل أبو أنبياء بنى إسرائيل ﴿أُولَى الْآيَاتِ وَالْأَنْبِيَاءِ﴾ إلى ﴿الْأَنْبِيَاءِ﴾ [ص: ٤٨] الأيدى جمع يد بمعنى

القوة، والأبصار جمع بصر بمعنى بصيرة، فإنه يطلق على الحاسة الظاهرة وقوتها، وعلى القوة الباطنة المدركة، ولا يقال للجراحة: بصيرة كما في عمدة الحفاظ، ومعنى ﴿أَخْلَصْتُمْ بِخَالِصَةِ ذِكْرِي الدَّارِ﴾ [ص: ٤٦] جعلناهم خالصين بسبب أنهم لا يذكرون إلا الدار الآخرة، وأطلق الدار إشارة إلى أن الدنيا ليست بدار مقر، بل ممر ومعبر، وعند هنا للقرب، والأخبار جميع خير أو خير المشدد بعد التخفيف.

(و) قال (في داود): ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] تقدم تفسيره، (ثم قال) في حقه: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، أى قويناه لأن بنى إسرائيل لم تجتمع على ملك غيره، وكان يحرس محرابه ثلاثون ألف متسلح، أو قويناه بالعدل والتوفيق له، وفصل الخطاب أى الكلام الفاصل بين الحق والباطل، وقيل: هو أما بعد وهو أول من قالها، وقيل: هو البيئة على المدعى واليمين على المدعى عليه، وقيل غير ذلك.

(وقال عن يوسف) عليه الصلاة والسلام: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] قيل: الأرض هنا أرض مصر، وفي الآية دليل على جواز طلب الحكم لمن وثق بنفسه وتوليه من الكافر، وقيل: إن فرعون يوسف أسلم، وقصة يوسف، عليه الصلاة والسلام، أشهر من أن تذكر.

(و) قال (في موسى) ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩]، وهذه قصته مع الخضر عليهما الصلاة والسلام المشهورة.

(وقال عن شعيب) عليه الصلاة والسلام، ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الْقَبْلِ حِمِيًّا﴾ [القصص: ٢٧] وقال عنه أيضا: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنهَضَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨] شعيب من نسل إبراهيم، عليهما الصلاة والسلام، أرسل إلى مدين والأيكة، وهما أمتان، وقيل: أمة واحدة، فوصفه الله بالصلاح والإصلاح، وأنه لا يأمر إلا بما فعله، وهو خطيب الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

وقال: ﴿وَلَوْ طَآءَمَتِ أَيْنَتُهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٤] فلو ط ابن أخى إبراهيم كما تقدم، والحكمة والحكم بمعنى هنا.

(وقال) في حقهم، عليهم السلام، عمومًا: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْـَٔرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠] أى شأنهم المبادرة إلى فعل أنواع الخير، وسؤال الله تعالى فى الرغبة والرغبة.



(وقال سفيان) الثورى أو ابن عيينة فى تفسير هذه الآية: (هو الحزن الدائم)، قيل: ضمير هو راجع إلى الخشوع فى قوله: ﴿وَكَاثُرًا لَّنَا خَشِيعَةً﴾، وفى الشرح الجديد يريد أن ما ذكر فى الآية من الخيرات هو الحزن الدائم الذى ينشأ عن خيرات من سلك طريقها، فقد وصل إلى مقامه، ولا يخفى بعده، والظاهر هو الأول.

(فى آى) جمع آية (كثيرة ذكر فيها من خصائصهم ومحاسن أخلاقهم الدالة على كمالاتهم)، وهذا ابتداء كلام لا تعلق له بكلام سفيان، رحمه الله تعالى، أى ما ذكر من الآيات مندرج فى آيات كثيرة دالة على كمالاتهم، وليس ما ذكر محيطاً بما فيه، بل هو بعض منه (وجاء من ذلك) أى من وصف كمالاتهم، عليهم الصلاة والسلام، فى غير القرآن (فى الأحاديث) الصحيحة (كثير كقوله ﷺ: إنما الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم نبي ابن نبي ابن نبي) هذا الحديث فى البخارى بدون إنما وقوله نبي ابن نبي إلى آخره، والكريم ليس بمعنى السخاء، فإنه استعمال طار، وإنما هو معنى جامع للخير والشرف ومكارم الأخلاق، قيل: وإنما خص يوسف، عليه الصلاة والسلام، بما ذكر؛ لما جمع الله له مع علو النسب جعله رابع أربعة من الأنبياء من الحسن المفرط والعفة والملك أو العلم والحكمة إلى غير ذلك مما لم يجتمع لغيره من الأنبياء، وفيه التكرار المعلوم من المحسنات البديعية كقول إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، ﴿يَتَابَتِ لِمَ تَبَدُّ﴾ [مريم: ٤٢] الآية. كرر يا أبت مبالغة فى استعطاف أبيه، والاطراد كقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٣٨]، والسجع وهو من المحسنات أحياناً، وأما إنكاره لمن خاطبه، وقوله: أسجع كسجع الكهان؟ لأنه ليس فى محله، وهو مقام الحكمة، وقيل عليه: إن ما ذكر ليس من قبيل التكرير؛ لأن كرمًا ليس معناه واحد فى الحديث، وأن ما ذكر ليس من قبيل السجع، وليس بشئ؛ لأن الكريم مفهومه متحد، وإن اختلف ما صدق عليه، والسجع ما اتحدت قافيته.

(وفى حديث أنس) رضى الله تعالى عنه، الذى رواه البخارى (وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم)، فهو من خصائص الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ومر أن الخصائص تنقسم إلى أقسام.

فمنها: ما اختص به، صلى الله تعالى عليه وسلم، دون سائر الناس الأنبياء وغيرهم.  
ومنها: ما اختص به، صلى الله تعالى عليه وسلم، دون أمته كالجمع بين زوجات فوق الأربع، وإن جاز لغيره فى الشرائع السابقة.

ومنها: ما اختص به، صلى الله تعالى عليه وسلم، دون الأمم كلها وإن كان لغيره من

الأنبياء كما نحن فيه؛ ولذا كان وضوءه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا ينقض بالنوم كما صرح به الشافعية.

ومنها: ما اختص به، صلى الله تعالى عليه وسلم، دون الأمم السابقة وأنبيائهم كالتييم.

فإن قلت: كيف هذا، وقد نام رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، عن صلاة الصبح حتى طلعت عليه الشمس، ولا يصح أن يكون هذا تشريعاً لأمته، لأنه لا يفعل ما يمتنع شرعاً للتشريع، وإن لزمه ذلك من غير قصد له.

قلت: أجيب عنه بأجوبة.

أحدها: وهو الأصح أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان له حالان حال لا ينام فيها قلبه، وهى الغالب عليه، وحال نادرة فيها ينام قلبه.

الثانى: أنه يغيب عنه فى نومه ما يحس بالبصر لا ما يدرك بالقلب كالحديث والالم ونحوهما، ورجح بعضهم هذا.

الثالث: أن قلبه لا يستغرق حتى يتعطل إحساسه، وقد يستغرق لاشتغاله بوحى كما كان يشاهد منه إذا نزل عليه الوحى فى اليقظة.

وقيل: إن المراد أنه لا يستغرق قلبه حتى لا يدرك الحدث. قال ابن دقيق العبد: وهو بعيد.

قال ابن حجر: ومن الأجوبة الضعيفة أن قلبه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يقظان، وعلم بخروج الوقت، ولكن فعله تشريعاً لما مر، وفى هذا إشارة إلى يقظة قلبه، وأنه لا يفعل، وهذا من جملة الكمال فناسب الترجمة مناسبة تامة.

(وروى) رواه الطبرانى عن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، (أن سليمان عليه الصلاة والسلام، كان مع ما أعطى من الملك لا يرفع بصره إلى السماء تخشعاً وتواضعاً لله)، وذلك لتعظيم ملكوت الله وملائكته استصغاراً لنفسه، لا لأن فى جهة وحيز كما توهم، وكذا كان أبوه داود، عليه الصلاة والسلام، كما ذكره الغزالي فى الإحياء حياة من الله تعالى أى حياة من ملائكة الله تعالى، لقصور عمله من أعمالهم أى لا يفترق عنها طرفة عين، ولا ينافى هذا قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (١٧، ١٨)؛ [الغاشية: ١٧، ١٨]؛ لأنه مقام آخر، (وكان يطعم الناس لذائد الأطعمة ويأكل خبز شعير) جمع لذيدة، وهو ما يشتهى ويميل له الطبع من المأكولات، (وأوحى الله إليه: يا رأس العابدين) أى أعلاهم ورئيسهم، (وابن محجة الزاهدين) أصل المحجة الطريق

المسلوك، فاستعير لجمعهم ومقصدهم أو مقتداهم الذين يأنسون بسنته ومسلكه، وفي نسخة حجة، وزهده، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا ينافي ملكه وقدرته، بل حقيقة الزهد إنما تتم بذلك.

(وكانت العجوز) خصها لحقارتها (تعرضه) أى تجيء له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وتقف مقابلته، (وهو) راكب (على الريح فى جنوده) وعزة سلطانه، (فيأمر الريح فتقف فينظر فى حاجتها ويمضى) لمقصده.

(وقيل ليوسف، عليه الصلاة والسلام: مالك تجوع وأنت على خزائن الأرض؟ فقال: إني أخاف أن أشيع فأنسى الجائع) المراد بخزائن الأرض المخزون من الأموال والأرزاق.

(وروى أبو هريرة، رضى الله عنه، عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم) كما رواه البخارى عنه: (خفف على داود القرآن) هو مصدر بمعنى القراءة كالنفران، والمراد قراءة كتابه وهو الزبور، أو المقروء، وقيل: إن إطلاقه هنا مع أنه علم لما أنزل على رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويطلق على المعنى القائم بذاته تعالى اشتراكا ومجازا على طريق الاستعارة والمجاز المرسل، والمراد بتخفيفه سرعة قراءته فى زمن يسير.

(فكان يأمر بدوابه فتسرج)، وروى بدابته، والمراد الجنس المختص به، (فيقرأ القرآن قبل أن تسرج) قالوا: هذا من بسط الزمان له، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو من البركة فى الزمن اليسير حتى يقع فيه العمل الكثير.

قال النووى: وبلغنا أن من الناس من قرأ أربع ختمات بالليل، وأربع ختمات بالنهار. (ولا يأكل إلا من عمل يده) مع أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ملك خزائن الأرض بيده، وكان آدم، عليه الصلاة والسلام، حراثا، ونوح، صلى الله تعالى عليه وسلم، نجاراً، وإدريس عليه الصلاة والسلام، خياطاً، وموسى، صلى الله تعالى عليه وسلم، راعياً، وفيه دليل على فضل الكسب الحلال، وأنه لا يتنافى توكل الخواص، ثم بين عمله بقوله: (قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَهُ الْخَدِيدُ﴾ [سبأ: ١٠])، فكان إذا مسه بيده لآن كالشمع والعجين من غير نار وضرب ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَةً﴾ [سبأ: ١١]، أى دروعاً طويلة تامة من السبغ، وهو السعة، (وقدر فى السرد) سرده نسجه أى عمله، وأصل معناه التابع، ومنه سرد الكلام، ومعنى تقديره: جعل ثقب طرفى الخلق على قدر المسامير، وكون المسامير غير رقيقة فتغلق ولا غليظة فتكسر الخلق، وقيل: إن دروعه، عليه الصلاة والسلام، كانت بلا مسامير لالتئامها للينها، وأن فى قوله: أن اعمل تفسيرية أو مصدرية بتقدير الجار، قيل: كان سبب تكسبه أنه اختفى، ودار يسأل الناس

عن سيرته فيهم، فلقى ملكاً فى صورة رجل، فسأله عن نفسه، فقال له: نعم الرجل لو كان لا يأكل من بيت المال، وأصول المكاسب الزراعة والتجارة والصناعة، وأفضلها التجارة، وقيل: الزراعة لأنها أقرب إلى التوكل، وقيل: صنعة اليد، وفوق ذلك الجهاد، ومن فضيلة الجهاد والكسب الاشتغال عن البطالة.

(وكان) داود، عليه الصلاة والسلام، (سأل ربه أن يرزقه عملاً بيده يغنيه عن بيت مال الله)، وسببه ما مر، ومن هنا يعلم أن السلطان ينبغى أن يكون له ما يكسبه؛ لئلا يأكل من بيت المال، فإن لم يكن له صنعة لا يأكل من بيت المال إلا بقدر الحاجة، والإسراف منه حرام عليه، فالويل كل الويل لسلطين زماننا الذين يظنون أن بيت المال ليس لأحد فيه حق غيرهم.

(وقال، عليه الصلاة والسلام) فى حديث صحيح رواه الشيخان إلى قوله: (يفطر يوماً) الآتى من نقله (أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود)، وبين ذلك بقوله: (كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه)، وقيامه فى وقت يتجلى الله فيه، ويقول: هل من سائل فأعطيه، وليس المراد بقوله: ينام سدسه، أنه ينام إلى طلوع الشمس، بل إلى قبيل الفجر، فيستقبل الصبحه بنشاط لاستراحته، وهكذا ينبغى للمجتهد، ولم يتعرض أحد لصلاة الأمم السالفة، ولا لصلاته ﷺ قبل الإسراء، وبيان كيفيتها إلا أن السيوطى، رحمه الله تعالى، نقل فى الخصائص الكبرى أنها كانت بغير ركوع، ولذا قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ [الحج: ٧٧].

(و) كان (يصوم يوماً ويفطر يوماً)، وفى هذا إشارة إلى أن صوم الدهر دون هذا، وقد ورد النهى عنه مع أن هذا أشق منه؛ لأن من اعتاد هذا صار طبيعة له لا تضره، وهذا آخر الحديث.

وقوله: (وكان) أى داود، عليه الصلاة والسلام، (يلبس الصوف ويفترش الشعر) أى ما أنسج منه؛ لأنه خشن يمنعه لذة النوم والاستغراق فيه المانع له عن ورده، وهذا شعار الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، والصلحاء.

(ويأكل خبز الشعير بالملح والرماد) الملح إدام بخلاف الرماد، فكأنه كان يأتد به على خلاف المعتاد، أو يضعه فى إدامه لئلا يلتد به.

(ويمزج شرابه بالدموع)؛ لكثرة بكائه وعدم خلوه منه، (ولم ير ضاحكاً بعد الخطيئة)، وهى تزوجه بامرأة أوريا بعد ما سأله أن ينزل له عنها، ففعل وتزوجها، فجاءه ملكان

فى صورة رجلين يدعيان نعاجا على ما قصه الله تعالى، وليست هذه خطيئة، ولكن علو مقامه وزهده يقتضى خلاف ذلك؛ فلذا عوتب عليه، وكان ييكى، وقد ذكر الله مدحه وعصمته مما لا مزيد عليه.

(ولا شاخصاً) رافعاً وفتحاً (بصره نحو السماء) أى جهة العلو (حياء من ربه) سبحانه وتعالى، كعادة من أذنب، فإنه يطأطئ بصره، (ولم يزل باكياً حياته) منصوب على الظرفية أى مدة حياته، صلى الله تعالى عليه وسلم، (كلها) تأكيد لما قبله، (وقيل: بكى حتى نبت العشب من دموعه) لكثرتها، وهذا رواه ابن أبى حاتم عن أنس، رضى الله تعالى عنه، مرفوعاً، وعن مجاهد وغيره موقوفاً.

(وحتى اتخذت الدموع لحدّه أخذوداً) هو فى الأصل الشق المستطيل فى الأرض استعير لتأثير الدموع فى مجراها أثرًا يعلم، وبين الخد والأخدود تجنيس اشتقاقى.

(وقيل: كان يخرج) من منزله (متكبراً) أى مستخفياً من معرفة الناس، (ليتعرف سيرته) جملة مستأنفة لبيان سبب تنكره، (فيسمع الثناء عليه فيزداد تواضعاً لله)؛ لما منحه من السيرة الحسنة والذكر الحسن، لا كمن يزداد بمدح الناس له غروراً.

(وقيل لعيسى، عليه الصلاة والسلام) كما خرجه أحمد بن حنبل وابن أبى شيبة عن ثابت: (لو اتخذت هماراً) لتركبه؛ لتستريح من المشى (قال: أنا أكرم على الله من أن يشغلنى بحمار) هذا من زهده وستر حاله أيضاً إذ لم يقل: أنا أتواضع بالمشى، وشغله يشغله كسأله يسأله وأشغله لغة ردية.

(وكان يلبس الشعر) أى ما نسج منه زيادة فى تقشفه، وإنما كره مالك لبس الصوف لمن يتخذ شعاراً له إظهاراً لزهده، فإن إخفاءه أفضل لما فيه من الرياء، (ويأكل الشجر) أى أوراقه، أو المراد به مطلق النبات تجوزاً، (ولم يكن له بيت) يملكه أو يختص به (أينما أدركه النوم) أى وقته (نام) أى ينام فى أى مكان يجن عليه الليل فيه.

(وكان أحب الأسماء إليه)، وفى نسخة الأسامى أى الألفاظ التى ينادى بها (أن يقال له: يا مسكين) رغبة فى التواضع لعظمة الله عز وجل، وقيل عليه: نحن مأمورون بتعظيم الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ومحبتهم وتعظيمهم تعظيم لله.

فلو قال أحد لنبي من الأنبياء: يا مسكين كان تحقيراً له، وتحقيرهم كفر ومعصية، فلا ينبغى لنبي من الأنبياء أن يرضى به، وقد أمرنا بتعظيم نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأن لانناديه باسمه، بل لا نجهر له بالقول، ولا نرفع أصواتنا عنده توقيراً له، وحرمة، صلى الله تعالى عليه وسلم، ميتاً كحرمة حياً كما سيأتى بيانه، وهذا مما اشترك فيه سائر

الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فكان يجب على أمة عيسى، عليه الصلاة والسلام، أن يوقروه، ويجب على عيسى أن لا يرضى بعدم توقيره.

فإن قيل: إنه فرار من العجب. وقيل: مثله لا يطرق عليه عجب ولا يخشاه.

وأجيب: بحمل هذا على أنه صدر ممن لم يؤمن به، فكانوا يقصدون بذلك تنفير الناس عن الإيمان به واتباعه، كما وقع من المشركين في حق نبينا، صلى الله تعالى عليه وسلم، فكان عيسى، عليه الصلاة والسلام، إذا بلغه ذلك عنهم أحبه، وأما المؤمنون به فيجب عليهم تعظيمه، أو ذلك ممن آمن به إذا سألهم سائل عنه أهو ذو مال أم فقير؟ فيقولون: هو مسكين كما كان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقول في دعائه: (اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرنى في زمرة المساكين)، وكما قال أبو العتاهية:

إذا أردت شريف القوم كلهم فانظر إلى ملك في زى مسكين

والكلام على الفقير والمسكين أشهر من أن يذكر.

أقول: لا وجه للسؤال ولا للجواب، أما الأول فلأن عيسى، صلى الله تعالى عليه وسلم، غلب على أمته الرهبانية وإظهار المسكنة، فيكون في شرعهم يجوز مناداته وخطابه بمثله من مؤمنيههم وخواص حواريههم، وإن لم يجز مثله في شرعنا، ولا ما يقرب منه.

وأما الثانى فلأن جعله من كفارهم أو مؤمنيههم في غيبته لا يصح، لأن إظهار محبته واجب، وقوله: يقال: وحرف النداء مناد على خلافه، وصريح في عكسه لمن له أدنى فهم، وقد روى: «مامن كلمة كانت تقال لعيسى، عليه الصلاة والسلام، أحب إليه» إلى آخره.

(وقيل: إن موسى، عليه الصلاة والسلام، لما ورد ماء مدين) هذا الحديث رواه أحمد في الزهد وابن أبي حاتم عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما، موقوفاً، وتقدم أن وروده، صلى الله تعالى عليه وسلم، لماء مدين كان لما فر من قبط مصر، فلقى ابنتى شعيب على ذلك الماء، وبينه وبين مصر ثمانى مراحل أو أكثر في قصته السالفة المذكورة في القرآن، وكان صلى الله تعالى عليه وسلم، حافياً من غير زاد، وبه جوع شديد حتى كانت ترى أمعاؤه، و(كانت ترى خضرة البقل) الذى كان يأكله، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذ لم يجد غيره، والبقل ما ليس بشجر من النبات التى لا تبقى أرومته وأصوله بعد أخذه، وهو معروف.

(فى بطنه من الهزال) بضم الهاء وزاى معجمة، وهو ضعف مذهب اللحم.

(وقال صلى الله تعالى عليه وسلم) كما رواه الحاكم عن أبي سعيد الخدري، وصححه (ولقد كان الأنبياء قبلي يتلى) بالبناء للمفعول ونائبه (أحدهم بالفقر والقمل، وكان ذلك) الابتلاء (أحب إليهم من العطاء إليكم)، لتيقنهم بما أعد الله لهم في مقابلته، وهو أن نعيم الدنيا عندهم، ولفظ الحديث ليس كما ذكره المصنف، رحمه الله، وهو ما قال أبو سعيد الخدري، رضى الله تعالى عنه، قلت: يا رسول الله من أشد الناس بلاء؟ قال: الأنبياء. قلت: ثم من؟ قال: العلماء قلت: ثم من؟ قال: الصالحون كان أحدهم يتلى بالقمل حتى يقتله، ويتلى بالفقر حتى لا يجد إلا العباء يلبسها، ولأحدهم أشد فرحًا بالبلاء من أحدنا بالعطاء<sup>(١)</sup>، وهو صحيح على شرط مسلم، والمراد ما يعطى من السعة في الدنيا.

قيل: وهو يدل على أن الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، يتسلط عليهم القمل ويعرض لهم؛ لأنه من الأعراض البشرية، إلا أن ابن الملقن، رحمه الله تعالى، نقل عن ابن سبع أن القمل لم يكن يؤذيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، تكرمًا له.

ونقل ابن عبد البر، رحمه الله تعالى في التمهيد أن نعيم بن حماد ذكر عن ابن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن رضى الله تعالى عنه، أن النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يقتل القمل في الصلاة، والظاهر أن جسده الشريف لا يتولد منه القمل، لاعتدال مزاجه الشريف، وإنما كان يوجد في ثيابه من الفقراء المحالسين له، وكذا سائر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ولو قيل: إن ضمير يتلى في حديث الحاكم للصالحين كان أقرب انتهى، وهذا ينافيه ما نقله عن التمهيد وقد تقدم، وفيما قاله دليل على صبر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، وعلو همتهم في النظر للأخرة.

(وقال عيسى، عليه السلام، لخنزير لقيه) المراد به الحيوان المعروف، وتجويز أن يراد به الكافر أو العدو أو الجاهل، وإن كان صحيحًا غير مناسب هنا (أذهب بسلام) أى اذهب مصحوبًا بالسلامة.

(فقيل له في) شأن (ذلك) القول الذى قاله، فإنه لا ينبغي (فقال: أكره أن أعود لسانى النطق بسوء) عملاً بقوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، وترغيبًا في العمل به.

(وقال مجاهد) كما رواه أحمد وابن أبي حاتم (كان طعام يحيى، عليه الصلاة والسلام، العشب)، وهو النبات الذى يخرج بغير زرع وعينه مضمومة، (وكان يبكى من خشية الله

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٤)، والبيهقى (٣٧٢/٣).

عز وجل)، والخشية خوف مع تعظيم (حتى اتخذ الدمع مجرى فى خده) أى صار محل جريانه منخفضاً متميزاً عن غيره؛ لتأثيره بدوام جريانه فيه، (وكان يأكل مع الوحش) أى كان يجيى، صلى الله تعالى عليه وسلم، يأكل العشب فى القفار الخالية التى يسكنها الوحش، أو يألفهم فيها ويكون معهم؛ (لئلا يخالط الناس) أى يعاشرهم ويختلط بهم، فيشغلونه عن العبادة وذكر الله، وما ذكر رواه أحمد فى الزهد عن الخولانى.

(وحكى الطبرى عن وهب أن موسى، عليه الصلاة والسلام، كان يستظل بعريش) هو كل ما يستظل به خيمة كان أو خشباً أو نباتاً مثلاً.

(ويأكل فى نقرة من حجر) بوزن حفرة، فلا يأكل فى آنية ويضع طعامه فى الأرض، (ويكرع فيها) أى يضع ما يشربه فى نقرة يكب عليها ويشرب منها بفيه (إذا أراد أن يشرب)، وأصل معنى الكرع شرب الدابة بضمها من ماء فى الأرض، وضمير فيها راجع للنقرة المذكورة أو لغيرها من جنسها، كما تقول: أعطيته درهماً ونصفه، وبه فسر قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ﴾ [فاطر: ١١].

(كما تكرع الدابة) أى تشرب بضمها بلا آنية، معنى كرع دخل النهر وصب رأسه ليشرب؛ (تواضعاً لله بما أكرمه من كلامه) إذ كلمه بلا واسطة كما قال: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] (وأخبارهم) أى الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، (فى هذا كله) من النعوت التى تقدمت فى هذا الفصل المعقود لها (مسطورة) فى كتب الحديث والتفسير المعول عليها.

(وصفاتهم فى الكمال وحسن الأخلاق) كما تقدم من الصبر والقناعة والتواضع، (وحسن الصورة والشمائل) جمع شمأل وهى الخلق والسجية، وينبغى أن يراد بالأخلاق القوى الطبيعية، وبالشمائل ما ينشأ عنها من الآثار (معروفة مشهورة)، وعبر فى الأولى بأنها مسطورة، وفى هذه بأنها مشهورة تفنناً فى العبارة، ولأن الأولى أخبار يحتاج لنقلها من الكتب المعتمدة، وهذه كمالات لائقة بهم تدرك بالعقل، ولكونها مدونة مشهورة غير محتاجة للإعادة، ولكن ذكر منها ما ذكر ليعلم قدرهم وفضلهم.

(فلا نطول بها) مع أنها معلومة، ثم لما كان فى بعض الكتب أموراً متعلقة بالأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، غير لائقة بهم حذر منها، فقال: (لا تلتفت) أى لا تعتبر ولا تعتقد، وأصل الالتفات لى العنق أو انعطاف بالجانب، لتتظر ما تريد معرفته فتجوز به عما ذكر، ومنه الالتفات البديعى (إلى ما تجده) وتقف عليه (فى كتب بعض جهلة المؤرخين) جمع مؤرخ بالهمزة، وقد تبدل واواً، وهو المصنف فى التاريخ وهو فن



معروف، وهو لفظ عربي أصله من الأرخ مستعار للحادث من ولد البقرة، أو هو معرب ماه روز وهو بعيد جدًا، وأول ما حدث في زمن عمر، رضى الله تعالى عنه.

(و) في كتب بعض (المفسرين مما يخالف ذلك) أمثال (هذا) المذكور.

\* \* \*

### (فصل) [حديث جامع لوصفه ﷺ]

(قد آتيناك أكرمك الله) جملة اعتراضية، والخطاب لمن سألته تصنيف هذا الكتاب كما مر، أو لكل من يقف على كتابه، وليس فيه تجريد لمخاطب من نفسه كما قيل، ومفعول آتينا مقدر أى مما عرفته وسمعته، أو مما فيه مقنع بقرينة ما سيأتى (من ذكر الأخلاق الحميدة) أى الحمودة المدوحة، وهو بيان لمقدر أو لما الآتية بناء على جواز تقدمه، (والفضائل المجيدة) أى الكريمة الشريفة، (وخصال الكمال العديدة) أى الكثيرة المعدودة، وقد تقدم أنه قد يفيد الكثرة؛ لأن القليل لا يحتاج للعد، وقد يراد به القلة والمراد الأول. (وأريناك) أى أعلمناك وأوضحنا لك (صحتها له ﷺ) أى كونها صحيحة فى حقه لاثقة به.

(وجلينا) بجيم ولام مفتوحتين ومثناة تحتية ساكنة أى أوضحنا وبيننا، وفى نسخة جلبنا بياء موحدة أى رويانا ونقلنا، وفى بعض النسخ حكينا بالكاف بدل السلام والمعنى واحد (من الآثار) جمع أثر وهو ما يبقى من علامات الشيء الدال عليه، ويطلق على الحديث، وقد يختص بالموقوف وكلام الصحابة، رضى الله عنهم، ويراد به مطلق الخبر الشامل للحديث المرفوع أو الموقوف وكلام الأكابر وهو المراد هنا (ما فيه مقنع) بفتح الميم والنون وبينهما قاف ساكنة مصدر ميمي بمعنى القناعة، أو هو صفة مشبهة بمعنى ما به القناعة والرضى، وفى القاموس يقال: شاهد مقنع وقنعان أى مرضى ويكتفى بشهادته، وقد قال ابن الحاجب: إن مفعلا يكون صفة نحو مركب بمعنى مركوب، إلا أنه نادر، وعلى هذا فما ذكره هو المقنع نفسه، فعدل عنه للمبالغة، وهو تجريد كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَأُرُ الْخُلْدِ﴾ [فصلت: ٢٨]، والتجريد يكون بمن وفى والباء، وما قيل من أن المراد به الدليل، وهذه الآيات والأخبار تتضمن الدليل تضمن اللفظ للمعنى، تكلف مذهب لرونق الكلام.

(والأمر أوسع) جملة حالية أى شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، ومقامه أعظم مما ذكرناه وأكثر، فإن محاسنه لا تطيق العبارات حصرها:

وعلى تفنن واصفيه بحسنه      يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

(فمجال هذا الباب) بفتح الميم والجيم من جال يجول إذا طاف ودار أى محل تجول فيه الأفكار حول نعوته وصفاته، وهذا الباب عبارة عن خصاله ومحاسنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (فى حقه، صلى الله تعالى عليه وسلم) أى ما يقال فى أمره وشأنه الذى يحق له (ممتد) أى واسع، فكفى عن كثرتها وعظمتها بسعة محلها كما يقال المجلس والمقام العالى عبارة عن من هو فيه، ثم بين سعتة بقوله: (ينقطع دون نفاده الأدلاء) جمع دليل، وهو من يتقدم الركب ليهديهم إلى الطريق، وانقطاع سالك الطريق أن يعجز ويقف دون بلوغ غايتها، ففيه استعارة تمثيلية، شبه صفاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، بطريق ممتد طويل، وشبه العلماء الذين يريدون معرفتها يركب سلكوا طريقاً، وشبه من يستفيدون منه بها بهديهم فى الطريق، وعجزه عن الوقوف على كنهها ممن انقطع ووقف فيها لا يهتدى لسيبله، والأدلاء جمع دليل كما علمت لا بمعنى الحجة، بل بمعنى هادى السابلة كأنبيا جمع نبي، وأصله أدلاء، وقيل: إنه جمع أدلة بمعنى دليل، فهو جمع الجمع، وليس المعنى أن محاسنه وكمالاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، لو أريد غايتها بالأدلة كالأيات والأحاديث وأقوال الصحابة لم يكن إلا أن يراد بين المقصود منه، ونفاد بالفاء والدال المهملة بمعنى الذهاب والفناء قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَمْ يَنْفَادْ﴾ [ص: ٥٤]، ولاوجه لتفسيره بفراغه.

(ويجوز علم خصائصه) من إضافة المشبه به بالمشبه كالجين الماء، وقد تعكس لكنه قليل (لا تكدره الدلاء) جمع دلو، وهو ما يؤخذ به الماء من الأديم، وعدم تكديره عبارة عن عدم بلوغ آخره؛ لأنه إذا بلغه حرك طينه فيتكدر ماؤه، وهو ترشيح للتشبيه، فإن الترشيح لا يختص بالاستعارة من الكدرة خلاف الصفو، وفيه إشارة لصحته وكثرته.

(لكننا أتينا فيه بالمعروف) المشهور الذى يعرفه الناس (مما أكثره فى الصحيح) أى الكتب الصحيحة كالكتب الستة، وأشار بقوله: أكثره إلى أن فيه أحاديث غير صحيحة اعتمد على شهرتها، وذكر أن بعض المصنفين لها أوردها لما فيها من الفضائل كما أشار إليه بقوله: (والمشهور من المصنفات) التى لم يلتزم فيها الصحيح.

(واقصرونا فى ذلك) الذى أتينا به وأريناه أى اكتفينا (بقول من كل)، وفى نسخة من أكثر، والأصح ما ذكرناه، والقل بضم القاف وتشديد اللام بمعنى القليل، أو بمعنى القلة كالذل بمعنى الذلة أى ذكرنا أمراً قليلاً منه لا كثيراً، أو دون الجميع لأنه لا يمكن الإحاطة به.

(وغيض من فيض) الغيض بفتح الغين المعجمة وسكون المثناة التحتية والضاد المعجمة من غاض الماء إذا نقص، والمراد أنه قليل، والفيض بفاء ومثناة تحتية وضاد معجمة من

فاض الماء إذا تدفق وانسكب، والمراد أنه كثير وفيه طباق وافتتان.

(ورأينا) هو من رأى لا من الرواية أى خطر له خاطر (أن نختم هذه الفصول) أى نجعل خاتمة هذه الفصول التي سبق ذكرها في هذا الباب (بذكر حديث الحسن) رضى الله تعالى عنه ابن علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، الذي رواه الترمذى فى شمائله، وأخرجه ابن سعد والبيهقى والطبرانى، ورواه المصنف، رحمه الله تعالى، عن مشايخه.

(عن أبي هالة) وهو هند بن أبي هالة الصحابى، رضى الله تعالى عنه، ربيب رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، لأنه ابن خديجة بنت خويلد أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، وقد تقدم الكلام عليه وترجمته (لجمعه) الضمير للحديث، وهو علة لذكره وجعله مسك الختام (من شمائله وأوصافه) عطف تفسير (كثيراً) مفعول جمعه المصدر المضاف لفاعله، (وإدماجه) أى اشتماله من أدمج الشيء إذا لفه وستره، وقيل: المراد لإحكامه وإتقانه وأنه أولى (جملة كافية من سيره وفضائله) مفعول الإدماج لما فيه من معنى الإدخال. قال الجوهري: دمج دمجاً إذا دخل واستحكم، (ولصله بتنبيه لطيف على غريبه ومشكله) أى نبين فى التنبيه ما فى الحديث من غريب اللغة، وما يشكل من تركيبه.

(حدثنا القاضى أبو على الحسين بن محمد الحافظ بقراءتى عليه سنة ثمان وخمسمائة)، هو الإمام الحافظ أبو على بن سكرة الذى تقدمت ترجمته.

(قال: حدثنا الإمام أبو القاسم) التكنية بهذه الكنية جائز، وما ورد فى حديث «تسموا باسمى ولا تكنوا بكنيتى»<sup>(١)</sup> محمول على حياته صلى الله تعالى عليه وسلم، أو على الجمع بينهما على ما يأتى، لما فى ذلك من الخلاف (عبد الله بن طاهر) بطاء مهملة تقدمت ترجمته (التميمي) منسوب لبنى تميم قبيلة مشهورة (قرأت عليه): أخبركم الفقيه الأديب أبو بكر محمد بن عبد الله بن الحسن النيسابورى) الأديب هو العارف بعلوم الأدب الاثنى عشر المشهورة، (والشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحسن المحمدي) منسوب للمحمدية قرية من قرى تونس، وتسمى بهذا الاسم قرى آخر بنواحي مصر وبغداد واليامة، (والقاضى أبو على الحسن بن على بن جعفر الوخشى) بوأو مفتوحة وخاء وشين معجمتين نسبة لوخش قرية من أعمال بلخ، وقيل: بجاء مهملة والصحيح الأول، وعليه اقتصر البرهان، وهو الحافظ الرحلة الحسن بن على بن محمد بن

(١) أخرجه البخارى (٣٨/١، ٨٦/٣، ١٠٣/٤)، ومسلم فى الآداب (٧، ٥/١)، وأبو داود

(٤٩٦٥)، وابن ماجه (٣٧٣٥)، وأحمد (٣٩٥/٢)، والدارمى (٢٩٤/٢)، والبيهقى (٣٠٨/٩)،

وعبد الرزاق (١٩٨٦٦).

جعفر البلخي يروى عن جماعة، وحدث عنه الخطيب وهو من أقرانه، وسمع منه الحسن ابن علي البلخي سنن أبي داود، وهو ثقة، ترجمته معروفة إلا أنه اتهم بالقدر، توفي خامس ربيع الأول سنة إحدى وسبعين وأربعمئة ببلخ، وعمره ست وثمانون سنة.

(قال: حدثنا أبو القاسم علي بن أحمد بن محمد بن الحسن الخزاعي) بضم الخاء المعجمة نسبة لخزاعة قبيلة معروفة قال: (أنبأنا أبو سعيد الهيثم بن كليب الشاشي) نسبة لشاش بلدة معروفة بما وراء النهر، وهو الحافظ الثقة أبو سعيد الهيثم بن كليب بن شريح بن معقل صاحب المسند محدث ما وراء النهر سمع من الترمذي وغيره، توفي سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة قال: (أنبأنا أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الحافظ) الإمام الترمذي صاحب السنن، وسورة بفتح السين المهملة وسكون الواو وراء مهملة كما تقدم.

(قال: حدثنا سفيان بن وكيع) بن الجراح أبو محمد، روى عنه أصحاب السنن وله ترجمة في الميزان، توفي سنة سبع وأربعين ومائتين.

(قال: حدثنا جميع) بزنة مصغر جمع ضد المفرد (ابن عمر بن عبد الرحمن العجلي) الكوفي، وعجل اسم قبيلة بكسر العين المهملة وسكون الجيم (إملاء من كتابه) الذي بيده أو بيد غيره، وهو أحد طرق الرواية المقبولة من الثقة المصحح لكتابه، وما روى من منع الرواية من كتابه الصحيح خلافه كما فصلاه.

(قال: حدثنا رجل من بني تميم من ولد أبي هالة زوج خديجة أم المؤمنين، رضى الله تعالى عنها، يكنى أبا عبد الله) هذا الرجل هو عبد الله بن أبي هالة الذي كان تزوج خديجة قبل النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما مر، وهذا الرجل أخرج عنه الترمذي في شمائله (عن ابن لأبي هالة) قال الذهبي وتبعه البرهان: إن هذا الرجل لا يعرف اسمه، فهذا الحديث منقطع؛ لأن فيه راوياً مجهولاً، وهالة علم منقول من هالة القمر وهي دارته.

(عن الحسن بن علي بن أبي طالب قال: سألت خالي هند بن أبي هالة؛ لأنه أخو فاطمة الزهراء، رضى الله تعالى عنها، لأمرها (قال القاضي أبو علي) بن سكرة المتقدم، فروى هذا الحديث من طريقين، (وقرأت على الشيخ أبي طاهر أحمد بن أحمد بن خذاداذ الكرجي الباقلائي) وخذاداذ بضم الخاء المعجمة وفتح الذال المعجمة وألف ودال مهملة وألف ثم ذال معجمة وألف مقصورة كذا ضبطه البرهان، وهو معرب حداداد بدالات مهملة، ومعناه بالفارسية عطية الله، والكرجي بفتح الكاف والراء المهملة، ثم جيم منسوب للكرج اسم بلدة لأبي دلف العجلي، واسم بلدة بالدينور وبضم فسكون اسم

مملكة معروفة، والباقلانى بتشديد اللام قال الجوهرى: الباقلاء إذا شددت لامها قصرت وإن خفت مددت.

(قال) أبو على: (وأجاز لنا الشيخ الأجل أبو الفضل أحمد بن الحسن بن خيرون) هو الحافظ المتقدم ترجمته (قالا: أخبرنا أبو على الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن الحسن ابن محمد بن شاذان) بشين معجمة وألف ونون معرب، ومعناه بالفارسية السرور (ابن حرب) كضد السلم (ابن مهران) بكسر الميم (الفارسى) منسوب لفارس ديار العجم (قراءة عليه فأقر به) هو شرط لقبول الرواية عن قرىء عليه، فيقال له: أخبركم بهذا فلان عن فلان، فيقول: نعم أخبرنى به، فلذا قيده المصنف، رحمه الله تعالى، بهذا.

(قال: أخبرنا أبو محمد الحسن بن محمد بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله ابن الحسين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب المعروف بابن أخى طاهر العلوى) هذا الرجل ترجمه الذهبى فى الميزان ونسبه كما هنا، وروى حديث: «على وذريته مجتمعون الأوصياء إلى يوم القيامة»، وهذا الحديث يدل على كذبه ورفضه، وهو متهم بالكذب، ولولا هذا لازدحم الناس عليه؛ لأنه معمر توفى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة.

(قال: حدثنا إسماعيل بن محمد بن إسحاق بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب قال: حدثنى على بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين) على هذا هو جعفر بن محمد الصادق، روى عن أبيه وأخيه موسى، وروى عنه الترمذى دون أصحاب السنن إلا أنهم لم يوثقوه، وانفرد بالرواية عنه الترمذى.

(عن أخيه موسى بن جعفر) هو موسى بن جعفر بن محمد الكاظم، وهو إمام ثقة (عن جعفر بن محمد) هو الصادق وقد تقدم (عن أبيه محمد) هو محمد (بن على) أبو جعفر الباقر (عن على بن الحسين) هو زين العابدين الإمام المشهور (قال: قال الحسن بن على)، رضى الله تعالى عنهما، (واللفظ لهذا السند) يعنى اللفظ المذكور مخصوص بالطريق الثانى، والسند بالنون بمعنى الإسناد، وليس السيد بمثناة تحتية، لأنه لم يذكر أنه رواه عن على بن الحسين زين العابدين، وكذا لم يذكر أنه رواه أحد مع الحسن هو ابن على كما فى المفتى، وهذا إسناد شريف لأن رواه كلهم من أهل البيت، ومثله حديث صفة الصلاة حتى نقل التلمسانى، رحمه الله تعالى، أنه إذا قرىء على مصاب أفاق، ورجال سنده كلهم معروفون.

(سألت خالى هند بن أبى هالة عن حلية رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم) الحلية بمعنى ما يتحلى به الإنسان أى مما يرى من وجهه الشريف وبدنه، وهى بكسر الحاء

المهملة وسكون اللام، (وكان وصافاً) أى كان فصيحاً له خيرة بوصف الناس لحذقه، أو كان معروفاً بذكر صفات النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، (وأنا أرجو) جملة حالية أى راجياً (أن يصف لي منها) أى من حلية النبي، صلى الله تعالى عليه وسلم، (شيئاً) أى مقداراً منها؛ لأن جميعها لا تحصى، أو بعضها لا تفي العبارة به (أتعلق به) أى أحفظه وأتمسك به تبركاً.

(قال: كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فخماً مفخماً) بفتح الفاء وسكون الخاء المعجمة، والمفخم بوزن المكرم، والفخم بمعنى العظيم، وأصل الفخامة العظمة فى الأجسام، ثم شاعت فى المقدار والشرف، فإن كان المراد الأول وهو الظاهر، فالمعنى أن أعضاءه، صلى الله تعالى عليه وسلم، تامة الخلقة واسعة سعة غير مفرطة كما تقدم فى الباب الثانى أنه كان واسع الصدر، وعينه نجلاء أى واسعة الشق، ووجهه الشريف ممتلئ باللحم، وأن قامته الشريفة غير قصيرة، والمراد بكونه مفخماً أنه كذلك فى العيون الناضرة إليه، ويحتمل أن يراد بكونه فخماً هذا المعنى، وأن يراد بكونه مفخماً أن له، صلى الله تعالى عليه وسلم، مهابة فى العيون والصدر مع الجلال.

(يتلألأ وجهه) أى يضيء ويشرق، وهو مأخوذ من اللؤلؤ لصفائه ولمعانه (تلألؤ القمر ليلة البدر) أى فيه نور كنور القمر فى ليلة البدر، وقد تقدم الكلام فيه وتفسيره (أطول من المربع)، وهو الذى بين الطول والقصر كالربعة، وقال التلمسانى: المراد به هنا القصير الذى تحت الربعة؛ لئلا يناقض ما ورد من وصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأنه ربعة، وأصل المربع الحبل المفتول على أربع طاقات، فاستعير لما ذكر انتهى.

أقول: لا حاجة لما ذكر لصرفه عن ظاهره؛ لأن المراد أنه يزيد على الربعة زيادة يسيرة لا تخرجه عن كونه ربعة، فهذا أمر تحقيقى، وربعة أمر تقريبى، فلا منافاة بينهما؛ ولذا قال: (وأقصر من المشذب) بضم الميم وفتح الشين والذال المعجمتين المشددة والباء الموحدة، وهو المفرط فى الطول كالبائن، وهو مستعار من النخلة المشذبة، وهى التى قطع بعض جريدها، والتشذيب قطع كالتقليم.

(عظيم الهامة) بالهاء وتخفيف الميم، وهى الرأس، وليس المراد أنها مفرطة فى الكبر، بل كبيرة كثيراً نسبياً لأن صغرها وإفراط كبرها غير ممدوح لدلالته على قلة العقل، وقيل: الهامة وسط الرأس، وقيل: مخه، ولها معان أخر غير مناسبة هنا.

(رجل الشعر) بكسر الجيم على وزن حذر، والشعر معروف ويجوز فتح عينه وسكونها كما مر، والمراد أن فيه تجمعاً قليلاً، وهو من صفاته الممدوحة فيه، ويقال

لضده قطط وهو الشديد الجعودة، والسبط المسترسل.

(إن انفرت عقيقته فرق) انفرق أى صار شعر رأسه فرقتين، والعقيقة الشعر الذى على رأس المولود الذى يخرج عليه حين يولد من علق إذا قطع؛ لأنه يخلق فى اليوم السابع، فسمى به شعر النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، على طريق المجاز المرسل لاستعمال المقيد فى المطلق، وليس استعارة تحقيقية كما قيل، ومعنى فرق أبقاه منفرداً على حاله إذا انفرق بنفسه، يقال: فرقه فانفرك والفرق والمفرق البياض الواقع بين شعر الرأس، وفى رواية عقيصته بالصاد المهملة بدل عقيقته.

(وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنه)، وفى رواية أذنيه بالثنية وهما بمعنى كما يقال: نظرت بعينى إذا نظر بعينيه، وهكذا فى كل عضو كان كذلك كما هو مقرر فى العربية، وشحم الأذن ما لان منهما حيث يعلق القرط، وتقدم فى هذا الحديث: «ما رأيت من ذى لمة فى حلة حمراء أحسن من رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم»، وأن اللمة الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن، فإذا وفر شعره صار لمة أى ما يلم بالمنكبين، واللمة دون الجملة، والوفرة دون اللمة والجملة أكثر من الوفرة وهى ما سقطت على المنكبين، فالوفرة أبلغ منها اللمة، والجملة أبلغ منهما، وفيه كلام تقدم، والفرق سنة بخلاف السدل من قدام أو خلف، ومعنى قوله: وإلا: وإن لم يفرق، فعلم منه إذا فرق جاوز الشحمة ووصل المنكب، وأحواله مختلفة فى الطول، ولذا قيل له لمة وجملة.

(إذا هو وفرة)، وفى بعض النسخ وفر بدون ضمير، والمعروف رواية الأول كما قال المزى، وفأوه مخففة ومشددة أى كثرة، وقد نقل بعد الحلق وغيره كما عرفته، وهذا أولى من حمل اختلاف الروايات على التقريب.

(أزهر اللون) سيأتى معنى الأزهر، وأن معناه أبيض مشرب بحمرة، وقد ورد أنه ليس بالأبيض الأمهق ولا بالآدم، وبهذا علم ما روى أنه كان أسمر، ولعله رآه عقيب سفر ونحوه، أو لم يحققه لأنه لمهابتة، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يحقد النظر فى وجهه، وفى رواية أنه كان أبيض شديد الوضح، والمراد بالوضح البياض وقد يطلق على البرص، ولذا سمي جزيمة الأبرص الوضح، ويؤيده أنه ورد أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان عنقه كوز فضة ويأتى كأن ساقه جمارة، وكشف ظهره فكأنه سبيكة فضة، وقيل: إن سمرته حمرة، ولذا قيل فى الجمع بين الروايات: إنه كان يميل إلى السمرة أو البياض لونه، وهذا عرض له بعد ذلك لكثرة أسفاره.

(واسع الجبين) فى القاموس الجبينان حرفا الجبهة وجانبها عند الصدغين وبعد

الحاجبين، والجبهة وسطه أو هو جميع ما بين الصدغين، فتدخل فيه الجبهة إلى قصاص الشعر.

(أزج الحواجب) أزج أفعل كأحمر، والزجج نقوس فى الحواجب مع طول فى طرفه وامتداد بدقة فى طرفيه، وأراد بالحواجب الحاجبين، وجمع لأن أقل الجمع اثنان أو لإطلاقه على أجزائه، وهما العظمان فوق العينين بلحمهما وشعرهما، ويطلق على الشعر، وسمى به لأنه يحجب الشمس وغيرها عن العين (سوايف) بالسین والصاد جمع سابغ؛ لأنه لما لا يعقل، وقيل: جمع سابعة فيه أى طوال كاملة (من غير قرن) بفتحيتين أى من غير اقتران واتصال؛ لأنه غير ممدوح عند العرب، وما وقع فى حديث أم معبد من وصف حاجبيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالقرن، فيحتمل أنه كان بينهما شعر دقيق جداً إذا سافر، وعلاه غبار السفر ظن قرنا، وما قيل: إنه بطريق الرأى أو أنه لاختلاف الرؤية قربا وبعداً، أو أنه حدث له، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعد ذلك بعيد جداً، بل لا وجه له (بينهما) أى بين الحاجبين، وهذا يدل على أن الجمع فى الحواجب بمعنى المثني هنا.

(عرق يدره الغضب) بضم الياء مضارع الإدرار، من أدر الضرع والسحاب إذا كثر دره، وهو لبنه ومأؤه فحلب، والمراد أنه يظهر لغليان الدم بالغضب بعد ما كان خفياً، لا أنه يحدث بعد أن لم يكن، وهذا لا ينافى ما ورد من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، حلیم لا يغضب؛ لأنه باعتبار أكثر أحواله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وأنه لا يغضب لنفسه، ولا لأجل أمر دنيوى، ولكنه قد يشتد غضبه لله إذا انتهكت حرمة، وفى ضربه للأعداء كما قال الصرصرى، رحمه الله:

يجبينه عرق يدر إذا سطا غضباً على الأقران يوم طعان

والغضب تهيج الحرارة الغريزية، فيغلى الدم منها، ولذا يحمر الوجه وتفتح العروق. (أقنى العرنيين) القناء فى الأنف طوله ودقة أرنبته أى ظرفه مع ارتفاع يسير فى وسطه، والعرنيين بكسر العين الأنف أو ما صلب منه أو ما تحت مجمع الحاجبين، وهو أول حيث يكون الشمم، والمجمع عرائن ويكنى به الأشراف لشموخ أنفهم وارتفاعه على أقرانه قال<sup>(١)</sup>:

إن العرائن تلقاها محسدة ولا ترى للنام الناس حسادا  
(له نور يعلوه) الضمير له، صلى الله تعالى عليه وسلم، وجوزوا أن يعود للعرنيين؛ لأنه

(١) البيت من البسيط، وهو بلا نسبة فى أساس البلاغة (ص ٨٣).



وإن كان وجهه كله له نور لكنه أول ما يتعلق به، ولذا سُمى أنفاً أيضاً.

(يَحْسِبُهُ مَنْ لَمْ يَتَأَمَّلْهُ أَشْمٌ) الشمم فى الأنف ارتفاع وسط قصبته مع استواء أعلاه وإشراف أرنبته قليلاً، يعنى أن وسطه فيه استواء مع أعلاه وأسفله، ولكنه لتأله قد يظن أن فيه ارتفاعاً، أو أن فيه قليلاً جداً لا يعد شمماً، والشمم قد يعبر به عن عزة النفس وعدم التنزل للأمور، وهو ما يمدح به كما قال كعب، رضى الله عنه<sup>(١)</sup>:

شم العرانيين أبطال لبؤسهم من نسج داود فى الهيجا سراييل

والتأمل إعادة النظر وتكراره ليثبت فيه ويقف على كنهه، وهو فى الأصل تفعل من الأمل والرجاء؛ لأن الإنسان لا يعيد النظر غالباً إلا لما فيه أمل، فأطلق على لازمه وشاع حتى صار حقيقة فيه، وقيل: الشمم طول الأنف مع سيلانه ودقته، والأول أصح وأشهر.

(كث اللحية) بفتح الكاف وتشديد المثناة، والكث كون اللحية كثيرة الشعر من غير طول ولا دقة شعر، وما اشتهر من قوله: «من سعادة المرء خفة لحيته»<sup>(٢)</sup>، لم يثبت أنه حديث مع أنه قيل: إنما خفة لحية مثنى لحي، وأن معناه كثرة تحريكهما بذكر الله، أو المراد عدم طولها.

(أدعج) أى سواد عينيه شديد مع بياضها، ويقال: رجل أدعج أى أسود، وليس بمراد، وسيأتى فيه كلام.

(سهل الخدين) أى غير مرتفع الوجنة، وكثير اللحم فيهما، فإنه غير محمود، وقيل: المراد أنه طلق منبسط.

(ضليع الفم) بضاد مفتوحة معجمة أى طويل انشقاق الفم واسعه، وهو مما يتمدح به ويعاب ضده؛ لدلالته على الفصاحة، وليس المراد به عظم الأسنان وتراصها كما قاله التلمسانى، وشعراء المولدين يمدحون صغر الفم، وهو خطأ منهم أو لمعنى آخر لا يلتفت إليه كما مر.

(أشنب) بنون بين شين معجمة وباء موحدة أى ذو شنب، وهو كما فى النهاية بياض وبريق وصفاء وتحديد فى الأسنان، وقيل هو رونقها وماؤها، وقيل: برد وعذوبة

(١) البيت من البسيط، وهو لكعب بن زهير فى ديوانه (ص ٢٣)، لسان العرب (٣٩٥/٢)، تاج العروس (سربل).

(٢) تقدم تخريجه.

فيها، وقيل: نقط بيض وتخيز فيها، وسئل رؤبة عن قول ذي الرمة<sup>(١)</sup>:

لمياء في شفتيها حوة لعس وفي اللثا وفي أنيابها شنب

فأخذ حبة رمان وقال: هذا هو الشنب أي أنه صفأؤه وماء فيها كهذا، ومن أمثال المولدين «فاتك الشنب» لمن أرد التشبه بمن لا يشبهه. قال ابن الوكيل، رحمه الله تعالى:

يأبارقا بأعالي الرقمتين بدا لقد حكيت ولكن فاتك الشنب

(مفلج الأسنان) تقدم أن الفلج عدم تلاصق الأسنان، وهو أنقى للفم وأطيب، وفي حديث علي، كرم الله تعالى وجهه، أفلج الثنايا، وهو المراد بالأسنان، أو المراد الثنايا والرباعيات؛ لأن تباعد الأسنان كلها معيب، وقد تقدم كلام فيه، ومفلج مضموم الميم مشدد اللام، ويشبه به تقارب الدار مع عدم التلاقي كقوله:

مالي به مع قرب داري ملتقى فهل رأيت ثغره المفلجا

(دقيق المسرية). ميم مفتوحة وسين مهملة ساكنة وراء مهملة مضمومة وباء موحدة مفتوحة تليها هاء، وهو شعر كالخيط سائل من الصدر إلى السرة، ووصفه بالدقة لأنه غير عريض ولا متكاثف طويل.

(كأن عنقه جيد دمية) الجيد العنق إلا أن السهيلي قال: إن العنق يستعمل في غير المدح، والجيد يستعمل في مقام بخلافه، وإن قوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَمٍ﴾ [المسد: ٥]، تهكم لجعل الحبل عقداً لها، وما هنا على أصل اللغة لا على نهج الاستعمال، فلا اعتراض عليه، والدمية بضم الدال المهملة وسكون الميم وتخفيف المثناة التحتية، وهي الصورة من رخام أو عاج، والمراد شدة بياضه وطوله، ويؤيده ما روى من أن عنقه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كإبريق فضة، ويشير إليه هنا قوله: (في صفاء الفضة) أي بياضها الخالص، وهذا يؤيد ما مر من أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، ليس بأسمر وإنما شبه بالدمية لأن صانعها يبالغ في تحسينها، ولهذا ضرب بها المثل.

(معتدل الخلق) بفتح فسكون أي متوسط الخلقة بين الطول والقصر، والسمن والزال، والضخامة والصغر، فهو متناسب الأعضاء مستقيم في أحسن تقويم.

(بادنا) أي ضخم البدن غير دقيق الأعضاء صغيرها، وأردفه بقوله: (متماسكا) أي كأن أعضاءه تمسك بعضها بعضاً لشدة ارتباطه به ومناسبتة له، وهو منصوب صفة بادنا، وروى بالرفع خبر مبتدأ مقدر.

(١) البيت من البسيط، وهو لذى الرمة في ديوانه (ص ٣٢)، الخصائص (٢٩١/٣)، الدرر (٥٦/٦)، لسان العرب (٥٠٧/١)، المقاصد النحوية (٢٠٣/٤)، همع الهوامع (١٢٦/٢).

(سواء البطن والصدر) أى متساويهما لم يرتفع أحدهما على الآخر.

(مشيح الصدر) بضم الميم وكسر الشين المعجمة ومثناة تحتية ساكنة وحاء مهملة بمعنى عريض متسع مع مساواته لبطنه من غير تقاعس وانخفاض فيه، وروى بفتح الميم وكسر السين المهملة وهو بمعناه.

(بعيد ما بين المنكبين) تثنية منكب بفتح الميم وكسر الكاف ونون بينهما وآخره باء موحدة، وهو ما بين الكتف والعنق، والمراد ببعدهما سعتهما، وهو أقوى للبدن والبطش، وعبر عنه تارة بالبعد وتارة بالعظم، والكل واحد، وما موصولة.

(ضخم الكراديس) جمع كردوس، وهو رأس العظم أو ملتقى كل عظمين كالمرفقين، وضخم بمعنى كبير، وكل عظم كثير اللحم كردوس.

(أنور المتجرد) اسم مفعول يعنى ما خفى من البدن من التجرد وهو الكشف ورفع الثياب، وأنور بمعنى نير مشرق أو أفعل تفضيل؛ لأن ما تحت الثياب من البدن لعدم ملاقاته الهواء والشمس أبيض من الأطراف المكشوفة، وورد فى وصفه ﷺ أنه أجرد، وهو ضد الأشعر، فإن الشعر كان على أماكن مخصوصة من بدنه كالمسربة والساعدين والساقين.

وقال الشريف الغرناطى، فى شرح البردة: قال بعض الصحابة: رأيت ساق النبى، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى غرز الركاب كأنه جمارة يعنى فى بياض اللون والطلاوة. فإن قلت: الوارد فى صفته، صلى الله تعالى عليه وسلم، أنه أزهر اللون أى مشرب بحمرة وبياض الجمار خالص.

قلت: يمكن الجمع بأن ما تحت الثياب مما لم يباشره الشمس خالص البياض بخلاف غيره انتهى.

(موصول ما بين اللبة) بفتح اللام وتشديد الباء الموحدة وهى النحر، وقيل: الصدر، وقيل: موضع القلادة وما موصولة لا زائدة (والسرة)، وهى موضع ما يقطع من المولود والمقطوع سر (بشعر) متعلق بموصول (يجرى كالحط)، وهو المسربة السالفة، وجريانه امتداده كماء جار، والخط الطريقة المستطيلة المستقيمة، وفى الاصطلاح: ما وصل بين نقطتين متقابلتين، فكأنه جعل اللبة وهى النقرة التى فوق الصدر نقطة، والسرة نقطة أخرى، والشعر الرقيق بينهما خطا.

(عارى الثديين) تثنية ثدى بفتح المثناة وكسرها تذكر وتؤنث، وروى الشدوتين بشاء مثناة ونون وهما بمعنى، قال الجوهري: الثدي يكون للرجل والمرأة ووافقه الصاغاني،

وفى درة الغواص الثدي خاص بالمرأة والذي للرجل ثندوة، وهى غير مهموزة كترقوة على فعلوة، وهو مغرز الثدي أو رأسه، فإن ضمنت همزته وهو فعلوة ففيه تفصيل بيناه فى شرح الدرة، وعلى ما قاله الحريرى تبعاً لبعض أهل العصر صوب بعضهم رواية الثندوتين، وزعم أن غيره خطأ لعدم ثبوته فى اللغة، وما قيل من أنه صحيح على الاستعارة غير صحيح، ومعنى عاريهما أنه لا شعر عليهما، وقيل: لا لحم عليهما، لما سيأتى من أنه أشعر إلى آخره، وفيه نظر لأنه لم يذكر فيه أنه على ثدييه شعر كما ستسمعه قريباً (ما سوى ذلك) أى ماسوى الشعر الذى بين السرة واللبة، وهو بدل من الثديين، وفيه نظر وروى ما سوى ذين وهو أظهر.

(أشعر) أى كثير الشعر فى (الذراعين) بكسر الذاال المعجمة ما بين المرفق وطرف الأصابع (والمنكبين) تقدم بيانهما (وأعلى الصدر طويل الزندين) تشية زند، وهو طرف الذراع المتصل بالكف، وطرفاه الكوع وهو رأس الذراع مما يلى الإبهام، والكرسوع وهو رأسه مما يلى الخنصر، وهما العظمان اللذان فى ظاهر الساعد، والمراد عظم الذراع فسماه باسم بعضه، ولذا وصفه بالطول.

(رحب الراحة) أى واسع الكف، والكف والراحة بمعنى، والراحة من الروح وهو الاتساع.

(شن) بفتح الشين المعجمة وسكون الشاء المثناة والنون، وهو الضخم الممتلىء لحما، ويؤيده أنه ورد فى رواية أنه ضخم (الكفين والقدمين)، وما فى النهاية فى تفسيره من أنهما يميلان إلى الغلظ والقصر غير مناسب؛ لقوله رحب الراحة، وقيل: هو الذى فى أناء له غلظ بلا قصر، وذلك محمود فى الرجال دون النساء لأنه أشد للقبض والبطش، وقال ابن بطال: كانت كفه ﷺ مثثلة لحما وهى مع ضخامتها لينتة، وفى حديث أنس، رضى الله عنه: مامست حريراً ألين من كفه، صلى الله تعالى عليه وسلم.

وقول الأصمعى: الشن غلظ مع خشونة لم يوافق عليه، ولا حاجة لتأويله بأنه لأمر عارض فى أسفاره وجهاده واستعمال يديه فى مهنة بيته؛ فإنه مناف لعهده من الحلية وهى الصفات الخلقية، فإن الذى ارتضاه أهل اللغة أنه الضخم، ولا ينافية قوله: (سائل الأطراف)، وبسط الكفين أو سبط الكفين كما قيل؛ لأن المراد بالأطراف الأصابع والكف والقدم مغرسهما، فليست داخلية فى معناهما، ومعنى سائل باللام طويل، فكأنه شبهها بعين سالت من بركة لطولها وصفائها وبياضها وليتها؛ لأن راحتته، صلى الله تعالى عليه وسلم، تنبع منها الخيرات والمياه، كما قلت فى قصيدتى الحمزية:

نبت الماء من أصابع كفه بأيد ما غاض فيها الماء  
لا تقسها على أصابع نيل كم لكسر من جبرهن وفاء  
(أو قال: سائن الأطراف) شك من الراوى فى قول ابن أبى هالة أنه قال ما تقدم، أو  
قال: سائن بنون مبدلة من اللام كما يأتى قالوا: جبريل وجبرين، وإسماعيل وإسماعين.  
(وسائر الأطراف) بالراء المهملة مكان اللام، ومعناه باقى أو جميع، وليس الثانى خطأ  
كما قاله الحريرى وتبعه فى الشرح الجديده كما فصلناه فى شرح الدرّة، وعلى هذا  
الأخير هو مجرور معطوف على القدمين أى ضمهم أطرافه كلها، وليس شكه لتقارب  
الحروف الثلاثة فى الخط والمخرج كما قيل، وقد ضبب فى النسخ على قوله: سائن  
بالتون، والصواب إثبات الألفاظ الثلاثة لما سيأتى فى تفسيرها كما قاله فى المقتضى،  
وجاء هذا فى بعض الروايات من غير شك.

(سبط العصب) سبط بسكون الباء الموحدة وكسرها بمعنى ممتد ليس به تعقد وثيق  
كما فى النهاية، والعصب وقع فى أصل البرهان بعين وصاد مهملتين كما ضبطه ابن  
الأنبارى، والذى اتفق عليه ابن الأثير والهروى أنه القصب بالقاف لا بالعين، والمراد  
بالقصب ساعده وساقاه، وفى الغرسين كل عظم عريض لوح، وكل أجوف فيه قصبه،  
وجمعها قصب ويشهد له أن العرب تتمدح به كما قال<sup>(١)</sup>:

فجاءت به سبط العظام كأنما عمامته بين الرجال لواء  
لأنه يدل على قوة البدن والشجاعة، والعصب بالعين ما يمتد فى البدن لربط الأعضاء  
وتحريكها كما بين فى علم التشريح، وهو إطناب المفاصل، وقيل: المراد به ههنا عظام  
الساقين والساعدين مجازاً؛ لما بينهما من المجاورة، فتتحد الروايتان وهو بعيد جداً.

(خضان الأخصين) خضان بضم الخاء المعجمة وفتحها وسكون الميم لا بفتحها كما  
توهمه عبارة القاموس، وتبعه بعضهم هنا، وبهما ضبط لفظ الشفاء ومعناه الضامر  
البطن، وهو هنا بمعنى المتجافى عن الأرض أى المرتفع، والأخصين مثنى أخص بوزن  
أحمر، وهو ما دخل من باطن القدم ولم يصب الأرض؛ لعدم مساواته العقب ومقدم  
القدم، وسمى به لضموره ودخوله، ولما كان أخص القدم قد يطلق على ما يلى الأرض  
منها مطلقاً أتى بقوله خضان مضافاً إليه، ليبين أنه على ظاهره، وهو المحل المرتفع، وليس

(١) البيت من الطويل، وهو لبعض بنى العنبر فى خزنة الأدب (٩/٤٨٨)، ولرجل من بنى الجناح  
فى المقاصد النحوية (٣/٢٢١)، وبلا نسبة فى أمالى المرتضى (١/٥٧١)، شرح الأشموني  
(١/٢٤٣).

المراد به المبالغة فى ارتفاعه كما فسرهم بعضهم هنا بالشديد التجافى لهذا، فجعله كليل أليل، وقد قال ابن الأعرابى: إذا كان خميص الأخصم بقدر لم يرتفع جدا ولم يستو أسفله فهو أحسن، فإن استوى أو ارتفع جدا فهو مذموم، فمعنى خمصان الأخصمين أنه مرتفع باعتدال، وقال البرهان: وسيأتى ما ينافى هذا يعنى قوله مسيح القدمين، قال البارزى فى كتاب توثيق عرى الإيمان: خمصان الأخصمين متجافى أخصم القدم، وهو الموضع الذى لا تناله الأرض من وسط القدم.

وقوله: (مسيح القدمين ينبو عنهما الماء) قال المصنف، رحمه الله، فيما يأتى: أى أملسهما، ولذا قال: ينبو عنهما الماء، وفى حديث أبى هريرة خلافه، ففيه إذا وطىء بقدميه وطىء بكليهما ليس له أخصم، وهذا يوافق معنى قوله مسيح القدمين، وقد قالوا: سمى عيسى ابن مريم ﷺ مسيحا لأنه لم يكن له أخصم، وقيل: معنى مسيح القدمين لا لحم عليهما، وهو مخالف لقوله: شتن القدمين انتهى، وأقره صاحب المقتضى، وفى الشرح الجديد فى النهاية: معنى مسيح القدمين أنهما ملساوان لينان ليس فيهما التواء وانشقاق، فإذا أصابهما الماء سال ومر سريعا من جانب الكعب القبلى، وقال ابن الحنجل فى شرح قصيدة الصرصرى النونية: ليس المسيح باطن القدمين الذى هو محل الخمصان، بل ظاهرهما للملامسة، فلا تعارض بين العبارتين.

أقول: هذا كله خلط منهما، وليت شعرى ما يقول فى حديث أبى هريرة الذى نقله البارزى، فالإشكال الذى ذكره البرهان غير مندفع، اللهم إلا أن يقال: إن الخمصة فيه قليلة جدا، ومعنى ينبو: يرتفع، والمراد به مفارقة الماء وانصبابه مجازا، وأنشدوا هنا لبعضهم:

يارب بالقدم التى أوطأتها      من قاب قوسين المحل الأعظما  
وبحرمة القدم التى جعلت لها      كف المؤيد بالرسالة سلما  
ثبت على متن الصراط تكرما      قدمى وكن لى منقذاً ومسلما  
واجعلهما ذخرى فمن كانا له      ذخرا فليس يخاف قط جهنما

والقدم الأولى قدمه، ﷺ، والثانية قدم على، رضى الله عنه، لما قال له، ﷺ، يوم الفتح: اصعد لكسر أصنام الكعبة، فصعد على كتفه، ﷺ، فى حديث رواه صاحب الصفوة، ومسيح بفتح الميم وكسر السين المهملة ثم ياء مثناة تحتية ساكنة وحاء مهملة، وفى بعض النسخ مشيح بضم الميم وشين معجمة، ولم يفسرها وكأنها تحريف من النساخ، أو معناها خفيف المشى.

(إذا زال زال ثقلها)، وروى إذا مشى ثقل أى رفع رجليه رفعًا قويًا ليتثبت فى مشيه، فكأنه يقلع رجليه من الأرض، فيقارب خطاه من غير احتيال وإسراع كما ورد من قوله الآتى: كأنما ينحط من صعب، وروى: إذا زال ثقلها بفتح القاف وسكون اللام وكسرها وروى بالضم أيضًا.

(يخطو تكفًا) أى إذا مد خطاه يميل إلى قدماه كمن يتكفى، وتكفؤا إن همز ضمت فاؤه كالمصادر الصحيحة مثل تقدما؛ لأن الهمزة حرف صحيح، فإن أبدلت ياء كسر ما قبلها فقليل تكفيا كتسمى تسميا ونحوه من المصادر المعتلة الآخر.

(ويمشى هولا) بفتح الهاء أى إذا مشى مشى برفق ولين ووقار كما يأتى، لأنه ممدوح قال تعالى: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

(ذريع المشية) بفتح الذال المعجمة وكسر الميم، والذريع الواسع الخطو أى ما بين قدميه واسع، فمع عدم سرعته يساوى مشيه المشى السريع أو يفوقه، (كأنما ينحط من صعب) أى ينحدر من مكان عال، والمنحدر من عال يكون له سرعة مع سهولة، وإنما قال: كأنما لأنه ليس منحدراً على الحقيقة، وإنما هو كالمنحدر فى السرعة والسهولة.

(وإذا التفت التفت جميعا) أى إذا أراد أن يدور لما خلفه، أو فى جانبه لا يلوى عنقه، بل يصرف جميع بدنه فيقبل جميعا ويدبر جميعا من غير مسارقة نظر؛ فإنه خفة وطيش.

(خافض الطرف) مصدر بمعنى تحريك الجفن، ثم صار بمعنى الخفض ضد الرفع، والطرف العين، وفسر هذا بقوله: (نظره فى الأرض أطول من نظره فى السماء) يعنى أن نظره لجانب السفلى أكثر من نظره فى جانب العلو؛ لخشوعه وحيائه ووقاره، وليس هذا مخصوصا بالصلاة والدعاء، فإنه مكروه فيهما، ولا ينافى هذا قوله: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلُفَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٤٤]؛ لأن هذا باعتبار الأغلب كما يشعر به لفظ قد.

(جل نظره الملاحظة) جل بضم الجيم بمعنى المعظم والأكثر، والملاحظة النظر باللحظ، وهو طرف العين مما يلي الصدغ، ومما يلي الأنف موق وماق أى ينظر بطرف عينه تأدبًا وحياء.

(يسوق أصحابه) أى يمشى خلفهم وفى ساقتهم، ولا يدع أحدًا يمشى خلفه كما هو عادة المتكبرين، وكان، صلى الله تعالى عليه وسلم، يقول: خلو ظهري للملائكة، وفى قوه: يسوق إشارة إلى أنه هو المحرك لهم، فما قيل من أنه لا يتقدم الصغار الكبار إلا إذا ساروا ليلا، أو خاضوا سيلا، ليس على وفق السنة.

(ويبدأ من لقيه بالسلام)؛ لأنه من السنة أن يسلم الأكبر على الأصغر، والسلام دعاء

ونحية، وهو تحية أهل الجنة كما ورد في السنة، فهو دعاء بالسلامة، واسم من أسمائه تعالى، وجوز إرادته هنا بمعنى أن الله معك ومطلع عليك، وابتدأه سنة لا واجب بالإجماع، وفيه قول به ضعيف لا يعتد به، ورده فرض كفاية لا على كل أحد بعينه؛ لأن السلام معناه الأمان، فإذا سلم أحد ولم يجب توهم الشر، فيجب دفعه كما قاله الحلیمی، وهذا منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، تواضع ولطف مناسب لما نحن فيه من حسن الخلق.

قال الحسن، رضى الله عنه، الراوى لهذا الحديث: (قلت) لخالى هند بن أبى هالة، رضى الله تعالى عنه، (صف لى منطقَه) مصدر ميمى أى نطقه وكلامه، صلى الله تعالى عليه وسلم، والنطق هو اللفظ الدال على معنى، وأما قول سليمان، عليه الصلاة والسلام: ﴿عَلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦]، وقول الشاعر:

لقد نطق اليوم الحمام لنطربا

فلتنزله منزلته لفهم سليمان، عليه الصلاة والسلام، منه معنى، ولادعاء الشعراء شوقه وطربه كما قاله الهروى.

(قال: كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، متواصل الأحزان) هذا مشتمل على الجواب وزيادة، فالجواب قوله الآتى، ولا يتكلم فى غير حاجة، فكأنه قال: كأن كلامه موجز قليل، وقيل: معناه أن كلامه لم يكن بفرح وبطر، بل بحزن وأسف.

وقال ابن قيم الجوزية: قول ابن أبى هالة متواصل إلى آخره لم يثبت عنه، وفى سنده مجهول، كيف وقد صانه الله عن الحزن وأسبابه؟ ونهاه عنه بقوله: (لا تحزن)، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلا خوف عليه ولا حزن فى الدنيا والآخرة، فمن أين يأتيه الحزن، وقد ورد وصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بأنه «كان دائم البشر ضحكوك السن»<sup>(١)</sup>، وقد استعاذ من الهم والحزن، ومر أن الهم لما سيأتى والحزن على ما مضى.

وقال ابن تيمية فى حديث ابن أبى هالة: إنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان كثير الصمت دائم الفكر متواصل الأحزان ليس المراد بالحزن الألم على فوت مطلوب، أو حضور مكروه، فإنه لم يكن من حاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، وإنما المراد به التيقظ لما يستقبل من الأمور، وهو مشترك بين العين والقلب انتهى.

قيل: وهو لم يته عن ذلك لأنه ليس باختياره، وإنما نهى عن تعاطى أسبابه كما قيل:

(١) أخرجه الترمذى فى الشمائل (١٨٧)، وابن سعد (١٣٠/٢/١)، والبغوى فى شرح السنة (٢٧٤/١٣).



ومن سره أن لا يرى ما يسوءه فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقدا

انتهى. وقال ابن قيم الجوزية في شرح منازل السائرين: ليس الحزن من منازل السالكين، وقد ورد النهي عنه، فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقد استعاذ منه، ﷺ، وحزن المؤمن يسر الشيطان؛ لأنه يفتن العزم، ولذا قال أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: ٣٤] الآية، وهو من المصائب، وأما خير: «إن الله يحب كل قلب حزين»، فلم يثبت.

أقول: هذا تطويل بغير طائل، وإنكار ورود الحديث مردود؛ لأنه ثابت كما قاله الحافظ ابن تيمية وغيره، وأما كونه ليس من المقامات فمع كونه غير مسلم كما مر، فلا يضر، والمراد أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان على هيئة الحزين حال سكوته؛ لكثرة أفكاره في أمور أمته وأحوالهم كما يدل على قوله: (دائم الفكرة ليس له راحة)، وكيف لا وقد قاسى، صلى الله تعالى عليه وسلم، في التبليغ ما لا يوصف. وأما وصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالبشر والتبسم، فهو في حال آخر، وهو مخاطبته للناس والنظر في أمورهم.

(ولا يتكلم في غير حاجة) له، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو لأمرته كما قال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

(طويل السكوت) عما لا يجدى نفعاً؛ لكثرة أفكاره، صلى الله تعالى عليه وسلم، ودوام أذكاره.

(يفتح الكلام ويختمه بأشداقه) جمع شدة بفتح أوله وكسره وسكون داله المهملة، وهو جوانب الفم، وذلك لسعة فمه الدالة على فصاحته، صلى الله تعالى عليه وسلم، كما مر، وهو مما تتمدح به العرب كما يأتي، وأما قوله، صلى الله تعالى عليه وسلم: «أبغضكم إلى الله المتشدقون»، فمعناه من يتكلف كثرة الكلام بلا احتياط فيه، فسقط ما قيل: إنه من صفة الفم ولا مدخل له في الجوانب.

(ويتكلم بجوامع الكلم)، وهى الكلمات الموجزة المشتملة على الحكم النافعة السائرة مسير الأمثال جمع جامعة، وتطلق على القرآن. (فصلاً) بفتح الفاء وسكون الصاد المهملة أى كلاماً فاصلاً للخصومة، وفارقاً بين الحق والباطل، (لا فضول فيه) أى لا زيادة فيه على أداء المراد، وهو اسم مفرد، وقيل: إنه جمع فضل خص بما ذكر، ونقل لمعنى آخر، ولذا نسب إليه فقليل: فضولى كما فى المغرب. (ولا تقصير) فيما يريد به بتقليل مغل بالفهم.

(دمثا) بفتح الدال المهملة وكسر الميم وبالثاء المثناة من الدمثة، وهى سهولة الخلق مستعار من الأرض الدمثة، وهى ذات الزمل المتلبد أى لين الخلق لطيف المعاملة، (ليس بالجافى) أى ليس غليظ الطبع، وهو أصل معنى الجفاء، أو لم يكن يجفو أصحابه، (ولا المهين) روى بضم الميم وفتحها، فالأول من الإهانة والميم زائدة أى لم يكن، صلى الله تعالى عليه وسلم، يهين أحداً من الناس، والثانى من المهانة وهى الحقارة والميم أصلية أى لم يكن، صلى الله تعالى عليه وسلم، حقيراً متذللاً لأحد من الناس؛ لشرف نفسه وعزتها، وهذا وصف لذاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، ويحتمل أن يكون وصفاً لمنطقه. (يعظم النعمة وإن دقت)، أى يعد كل ما أنعم الله به عليه عظيماً، وإن لم يكن كذلك، ومعنى دقت: صغرت وقلت.

(لا يذم شيئاً) أى شيئاً يستحق الذم (لم يكن يذم ذواقاً) بفتح الذال المعجمة وفتح الواو المخففة وألف وقاف فعال مصدر صار بمعنى ما يذاق من مأكول ومشروب، فما قدم له، صلى الله تعالى عليه وسلم، من طعامه ونحوه إن أعجبه أكل منه، وإلا كف يده، ولا يقول فيه شيئاً فلا يذمه، (ولا يمدحه، ولا يقام لغضبه) من قام إذا ثبت أى لا يثبت له أحد، أو من قام بمعنى دام أى لا يدوم أحد على تحمل غضبه، ويقام بضم المثناة التحتية مبنى للمجهول، وفيه دلالة على أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يغضب لله أحياناً، وقد ورد ما يدل على ذلك (إذا تُعْرَضَ للحق بشيء) بضم التاء الفوقية والعين وكسر الراء المهملة المشددة والضاد المعجمة أى إذا اعترض أحد للحق بما يبطله، أو يقتضى خلافه، وبشيء بالباء الجارة واللام، وعامله إما يقام أو تعرض (حتى ينتصر له) أى للحق، فيؤيده ويبطل خلافه.

(ولا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها) أى إذا آذاه أحد من الأعراب وغيرهم بما يتعلق بنفسه كالأعرابى الذى أمسكه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بردائه ولبيه، والذى قال: إن هذه قسمة غير عادلة، ونحو ذلك ككلام بعض المنافقين كأبى ابن سلول رأس المنافقين، وما كان يصدر منه.

(إذا أشار أشار بكفه كلها) أى إذا أشار لشيء خارج الصلاة أشار برفع يده، وأما فى الصلاة إذا أشار للتوحيد أشار بإصبعه السبابة والمسبحة ليفرق بين الإشارتين، وله صلى الله تعالى عليه وسلم، إشارات أخر نبه عليها بقوله: (وإذا تعجب قلبها) أى قلب كفه، وجعل باطنها نحو السماء وظاهرها للأرض، وتأنيث الكف لأنها مؤنث سماعى، وهو إشارة لانقلاب الحال عما يعتاد من غير إظهار للتعجب، واستغراب لأمر، وهذا مما يدل على سكونه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وعدم خفته، وهو أمر ممدوح.

(وإذا تحدث أفصل بها) فى شرح الدجلى بهمة وفاء وصاد مهملة ولام، والضمير للكف أى وجه كفه من فصل علينا إذا خرج من طريق، أو ظهر من حجاب قاصداً بها أى بكفه ولم يبينه غيره، ووقع فى بعض النسخ اتصل بها أى بمشاة فوقية بدل الفاء، وفى حاشية التلمسانى: وللحديث يتصل بها أى لا زال يحركها، وذلك أثبت لأنه قول وفعل، انتهى، وهذا يدل على أن اتصل بها رواية، ففى العبارة ثلاثة وجوه: أفصل، واتصل، ويتصل، والمعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، فصل حديثه بإشارته بيده لجهة من يخاطبه كعادة من يهتم بكلامه فى أمر مهم.

أقول: هذا كلام مع غموضه غير محرر مع ما فيه، أما ما ذكره الدجلى من أنه أفصل بهمة وفاء فتحريف؛ لأنه لم يسمع فى هذه المادة مزيد بزنة أكرم، فالصواب فصل أو اتصل، ومعناه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، فصل كلامه بإشارته أو وصل إحدى يديه بالأخرى، ثم رأيت فى كتاب النعمة فى الصلاة والسلام على شفيع الأمة، ذكر هذا الحديث، وأنه اتصل افتعال من الوصول وهو الصحيح، وذكر أنه ﷺ كانت له إشارات مختلفة، فيشير بالمسبحة للتوحيد، ويجمع كفه لغيره فرقاً بينهما، وأنه كان إذا حدث وصل حديثه بالإشارة بيده توكيداً له، والظاهر أن الفاء الآتية فى قوله: (فضرب) تفصيلية كقوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ﴾ [هود: ٤٥]، إلى آخره، ولم يبينوا معناه، والظاهر أن المعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يشير بجميع كفه إذا كان مع أصحابه على وجه متعارف كالإشارة للذهاب والجلوس ونحوه، فإذا تحدث وضع إبهامه على راحته وقت حديثه؛ لتثبيت حديثه، أو انتهائه فاعرفه.

وقوله: (إبهامه اليمنى راحته اليسرى) كذا فى أكثر الروايات، وفى بعضها: فضرب براحة اليمنى باطن إبهامه اليسرى، والإبهام معرف يذكر ويؤنث، وجمعه أباهيم وأباهم، قالوا: وهذا عادتهم إذا تحدثوا.

(وإذا غضب أعرض) عن غضب عليه من غير لوم له؛ لشدة حلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (وأشاح) بشين معجمة وحاء مهملة بينهما ألف قيل: معناه صرف وجهه، فهو تأكيد لما قبله، معناه قبض وجهه وزواه من غير لوم وعقاب، وهذا من حلمه، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلا يقال: كيف أدرج هذا فى صفات المدح؟ فأجاب بأن الغرض بيان صفاته، صلى الله تعالى عليه وسلم، للسائل؛ لأن المقام يأباه وسيأتى من المصنف تفسيره بما يقارب هذا، وقيل: إن فى النهاية أن المشيخ الحذر، أو الجاد فى الأمر، أو المقبل عليك المانع لما وراء ظهره، وفى حديث سطيح: أقبل على جمل مشيخ أى جاد مسرع، فيجوز أن يريد أحد هذه المعانى أى حذر من موجب غضبه، أو حذر فى الأمر

ليشعر بإعراضه عن موجب غضبه، أو أقبل عليه ليمنع من وراءه من ضرر الغضوب عليه، ولا يخفى أنه تكلف مخالف لما اختاره المصنف مما هو أظهر هنا.

(وإذا فرح) لرؤية ما يسره أو سماعه (غض طرفه) أى أرخاه وأطرق تباعدًا من الأشر والمرح.

(جل ضحكك التبسم) أى أكثره، وقد تقدم بيانه، وقد يضحك صلى الله تعالى عليه وسلم، أحيانًا حتى تبدو نواجذه، والتبسم مبادئ الضحك.

(ويفتقر) بفتح التاء وسكون الفاء وفتح التاء الفوقية وتشديد الراء المهملة من قولهم: أفتّر ضاحكًا إذا أبدى أسنانه قال:

يفتر عن لؤلؤ رطب وعن برد وعن إقاح وعن طلع وعن حيب

وهو من فررت الدابة إذا كشفت فمها لتعرف سننها من سننها، وذلك هو الفرار بالضم (عن مثل حب الغمام) متعلق بيفتر، والغمام السحاب واحده غمامة كسحابة، وحبّه هو البرد المعروف لا قطر المطر كما توهم، فإنه مع عدم مناسبتة لا يسمى حبا؛ لأن الحب الجامد دون السائل، وتشبيه أسنانه صلى الله تعالى عليه وسلم، به لصفائه ولمعانه ورطوبته دون جريه حتى يقال: إنه لنوع منه، وهو مشهور فى كلامهم كما مر.

(قال الحسن) بن على بن أبى طالب، رضى الله تعالى عنهما: (فكتمتها) أى أخفيت صفاته صلى الله تعالى عليه وسلم، التى سمعتها من ابن أبى هالة (الحسين) مفعول ثان لكتم، وفى نسخة عن الحسين بن على (زمالكًا) مدة من الزمان، (ثم حدثته) بما سمعته من صفته صلى الله تعالى عليه وسلم، (فوجدته قد سبقنى إليه) أى إلى الحديث المعلوم من قوله: حدثته أى حفظه قبلى إلا أنه رواه عن أبيه على، رضى الله تعالى عنهما، (فسأل) أباه عن مدخل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، ومخرجه ومجلسه، وفى نسخة: وملبسه بدل مجلسه، فإن كانت الثلاثة مصادر ميمية فظاهر، وإلا بأن كان اسم الزمان أو مكان، فالمراد سألته عن حاله فى مخرجه ومدخله، والمراد خروجه صلى الله تعالى عليه وسلم، للناس ودخول بيته وجلوسه عندهم كما سيأتى، وقيل: المراد بمجلسه بكسر اللام هيئة جلوسه، وأن ما ذكر استقراء لجميع أحواله.

يعنى الحسن أنه سمع هذه الصفات من ابن أبى هالة خاله، ولم يخبره أخاه بما سمعه منه، والحسين لم يسمعها من خاله، فلما حدثه بها وجد عنده علمًا منها من طريق، وهى روايته لها عن أمير المؤمنين أبيه مع زيادة، وإنما كتم ذلك عنه مع النهى عن كتمان العلم عن أهله؛ لأنه لم يسأله ولم ينحصر علمه فيها، ولو كان كذلك دخل فى حديث:

«من كنتم علما ألجمه الله بلجام من نار»<sup>(١)</sup>، أو أنه كنتم عنه كلام أبى هالة الوصاف البليغ دون معناه لعلم أهل البيت بذلك، فإن الثبت والحديث لهم، (وشكلكه) بفتح أوله أى هيئته فى ذلك الحال وبكسره بمعنى الهدى والسمت قاله التلمسانى، (فلم يدع من ذلك شيئاً) أى لم يترك شيئاً من أحواله إلا بينه له.

(قال الحسين: سألت أبى، رضى الله تعالى عنه، عن دخول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقال: كان دخوله لنفسه)، أى دخوله منزله ليجتمع بأهله لمصالحه، وقضاء مآربه، وقبولته (مأذوناً له فى ذلك)، من الله إذناً عاماً بحيث يدخل أى بيت من بيوته فى أى وقت من غير استئذان من زوجاته، رضى الله تعالى عنهن؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، كان لا يجب عليه القسم، وقيل: المراد دخوله بيوت أصحابه، رضى الله تعالى عنهم، وهو بعيد لقوله: (فكان إذا أوى) الأصح قصره ويجوز مده (إلى منزله جزءاً دخوله) أى قسم زمن دخوله لبيته (ثلاثة أجزاء جزءاً لله) أى لعبادته والتفكر فى ملكوته، (وجزءاً لأهله) يدبر فيه أمورهم ويصلحها ويتلطف بهم، (وجزءاً لنفسه) من مأكّل ومشرب وراحة وغيره مما يليق به لقوله: (ثم جزءاً جزءه بينه وبين الناس)، أى قسم الزمن الذى جعله لنفسه، فجعل قسمًا منه مخصوصًا بذاته وأحواله فى نفسه، وجزءاً آخر للناس، وسائر الأمة، وهو فى منزله ولا يلاقيه فيه إلا أهله، أو خواص أصحابه الذى يؤذن لهم فى الدخول عليه، وغيرهم لا يصل إليه ثمة، فلذا قال: (فيرد ذلك على العامة بالخاصة) يرد بمعنى يوصل ويعطى كأنه لما كان لهم حق فى الجملة أخذ منهم، ثم رد إليهم، وقيل: معناه يستعين؛ لأنه ورد أنه ﷺ كان يستعين بالخاصة على العامة، وهو بيان لمحصل المعنى، وذلك إشارة لما فهم من السياق، وهو جزء الناس والعامة من عدا الخاصة التى عرفتها، فكانت الخاصة تخبر العامة بما سمعته منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، إذا لم يكن مما ينبغى كتمه عنهم، والباء فى بالخاصة للسببية، وكونها للبدل كقوله:

فكيف لى بهم قومًا إذا ركبوا

بعيد لأنه ليس المراد أنه يجعل وقت العامة بعد الخاصة وبدلاً منه، وعلى على ظاهرها، وقيل: بمعنى إلى، وروى بدل يبدل بالمعجمة والمهملة مع ضم الياء المثناة التحتية وفتحها فيهما.

(ولا يدخرو عنهم شيئاً) أى عن المذكورين من العامة والخاصة، وقيل: عن الداخلين

(١) أخرجه ابن حبان (٩٥، ٩٦)، والحاكم (١٠٢/١)، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (٩١/١)، وابن عدى فى الكامل (١٤١٠/٤).

عليه ﷺ، والمال واحد، ويدخر بـدال مهمله مشددة وأصله يذخر بـدال معجمة وتاء اففعال من الذخر قلبت تاؤه وذاله دالاً وفعل به ما علم من كتب الصرف، وكذا أمثاله من ادكر، ويجوز يذخر بـدال معجمة مشددة وخاء.

(فكان من سيرته فى جزء الأمة)، وهو الجزء الذى جعله للناس، وأفرزه مما كان لنفسه أى كان دأبه ﷺ، وعادته فى هذا الجزء (إيثار أهل الفضل بإذنه) الإيثار تقديم ما يؤثره على غيره، والمراد بإذنه أن يأذن لهم فى الدخول فى خلوته فى بيته كما مر، وما قيل من أن المراد بأهل الفضل أغنياء الصحابة، رضى الله تعالى عنهم، والفضل زيادة ما لهم على حاجتهم، والمعنى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، يأذن لهم أن يؤثروا بصدقاتهم أقرباءهم، كما وقع لأبى طلحة، رضى الله تعالى عنه، فى بير حاء تكلف أوقعه فيه قوله: (وقسمته على قدر فضلهم فى الدين)، فتوهم أن المراد تقسيم المال والعطاء، وليس كذلك، وإنما معناه قسمة جزئه فى حديثه معهم واشتغاله بأحوالهم، وقوله: فى الدين لأن أكرمهم عند الله أتقاهم، فتفاوتهم عنده بذلك لا بالنسب والمال، وفى بعض النسخ: وقسمه بدون تاء، ثم بين سبب تفاوتهم بقوله: (منهم ذو الحاجة) الواحدة، (ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج) الثلاثة فأكثر.

(فيتشاغل بهم) أى بقضاء حوائجهم وإرشادهم لما يصلح معاشهم ومعادهم، (ويشغلهم) بفتح الياء المثناة التحتية مضارع شغل، وأما أشغل فلغة ردية كما مر أى يجعلهم ﷺ مشغولين بما أمرهم به (فيما أصلحهم)، وفى نسخة يصلحهم أى ما فيه صلاحهم، (والأمة) بالنصب أى وأصلح الأمة لتبليغه لهم ما يليق بهم بعد معرفته، عليه السلام، بحالهم (من مسألته عنهم)، وهو بيان لما أى سؤاله عن أحوالهم، وروى مسألته أى الخاصة ذوى الفضل، (وإخبارهم) أى إخبار ذوى الفضل (بالذى ينبغى لهم) أى يليق ويناسب حال المستول عنهم من الأمة، وهو مطاوع بغى بمعنى طلب.

قال الراغب: إذا قيل ينبغى أن يكون كذا فهو على وجهين:

أحدهما: ما يكون مسخرًا للفعل نحو: النار ينبغى أن تحرق.

الثانى: الاستئصال نحو: فلان ينبغى أن يعطى لكرمه قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ السِّعَرَ وَمَا يَلْبِغِي لَهٗ﴾ [يس: ٦٩].

(ويقول) صلى الله تعالى عليه وسلم، لمن حضر عنده: (ليبلغ الشاهد) أمر وهو للوجوب فى الأمور الشرعية، وهو بتخفيف اللام بقرينة ذكر الاتباع بعده، ويجوز تشديدها والأول أصح هنا، والشاهد الحاضر عنده لمقابله بقوله: (الغائب)، وهو من لم

يكن حاضراً أو موجوداً، فهو من كبار الصحابة، والغائب من صغارهم، أو هم الصحابة والتابعون، قيل: ويحتمل أن يراد العالم والجاهل، وأهل الحضر والبادية، والسامع ومن لم يسمع، والمسلم والكافر، وهذه احتمالات عقلية، أو هى تأويلات وتعميم لمفهومه فتأمل.

(وأبلغونى حاجة من لا يستطيع إبلاغى) أى حاجته، وروى إبلاغ حاجته، وهو تعميم بعد تخصيص للترغيب والحث، وبيان لسبب الأمر، (فإنه) أى الأمر والشأن (من أبلغ سلطاناً حاجة من لا يستطيع إبلاغها) قيل: يريد أن من أبلغ سلطاناً حاجة جوزى بهذا الجزاء العظيم، فكيف بمن بلغ رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم؟ وإلا فهو أجل من أن يكون ملكاً أو سلطاناً، وقد قال كما تقدم: لست بملك.

قلت: فيه نظر، وقد يقال: المراد بالسلطان هنا الإمام الأعظم خليفة الله، وقد أطلق الفقهاء ذلك عليه كما بيناه فى حكمه بالسلطنة والفتيا والقضاء المذكور فى القواعد للسبكى كما سيأتى، وهذا الحديث مستقل رواه الأصبهاني، وفى بعض ألفاظه اختلاف.

(ثبت الله قدميه يوم القيامة) على الصراط يوم تزل الأقدام كما ورد مصرحاً به فى رواية لابن أبى الدنيا؛ وذلك لأنه مشى بقدميه، وسعى لحاجة أخيه، فهو جزاء من جنس العمل، وهو كناية عن نجاته من أهوال الموقف.

(ولا يذكر عنده) أى لا يذكر فى مجلسه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (إلا ذلك) الإشارة لجميع ما تقدم من ذكره مصالحهم، وسؤاله عن الأمة، والأمر بالتبليغ والحث عليه والترغيب فيه.

(ولا يقبل من أحد) بالبناء للفاعل والمفعول (غيره) أى لا يرضى كلاماً غير ما يكون من هذا القبيل.

(وقال) أى على، رضى الله تعالى عنه، فى رواية (فى حديث سفيان بن وكيع) بن الجراح أبو محمد الكوفى، وهو إمام حافظ روى عنه الترمذى والدارقطنى وغيرهما، توفى سنة سبع وأربعين ومائتين ووالده إمام جليل حافظ، رحمه الله تعالى، (يدخلون) أى أصحابه، رضى الله تعالى عنهم، (رؤُادا) بضم الراء المهملة وتشديد الواو وألف ودال مهملة جمع رائد، وأصله من يتقدم القوم المسافرين ليختار لهم منزلاً فيه الماء والكلأ، فاستعير هنا للطالبين المحتاجين لحاجتهم وما يرشدهم، وقيل: يتحينون وقت الوصول إليه، وقال التلمسانى: إن روادا بكسر الراء تخفيف الواو مصدر رود يرود، ويروى لواداً

بلام، وذال معجزة أى ملتجئين لا ئذين به، (ولا يتعرقون) من مجلسه، صلى الله تعالى عليه وسلم، (إلا عن ذواق) بفتح الذال المعجمة والواو المخففة وألف وقاف فعال من الذوق بمعنى المذوق، وهو المأكول فاستعير للعلم الذى يتعلمونه، ويحتمل أن يريد حقيقته؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، كان عادته أن يطعم شيئاً لمن يدخل بيته، وعلى هذا جرت عادة السلف الصالحين، وأحققة الذوق كما قاله الراغب: وجود الطعم بالفم، وأصله فيما يقل تناوله، وفيه تفصيل ذكرناه فى كتابنا طراز المجالس، أى لا يتفرون إلا عن علم وأدب هو غذاء لأرواحهم وسبب لبقائهم.

(ويخرجون) من عنده، صلى الله تعالى عليه وسلم، (أدلة يعنى فقهاء) عالين بأمور الدين، أى هداة مرشدين للناس، ويهتدى بهم غيرهم، فأدلة جمع دليل بمعنى هادى، أو بمعناه المشهور كما يقال: فلان حجة الإسلام، والصحابه، رضى الله تعالى عنهم، كلهم مجتهدون خلافاً لبعض الحنفية كما فى تحرير ابن الهمام.

(قلت) قائله الحسين لأبيه، رضى الله تعالى عنهما: (فأخبرنى عن مخرجه) أى عن حاله، صلى الله تعالى عليه وسلم، بعد خروجه من منزله: (كيف كان يصنع فيه؟) بعد خروجه من منزله.

(قال: كان رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم)، من وضع الظاهر موضع الضمير؛ للاهتمام والتلذذ والتبرك بذكره (يخزن لسانه) بالخاء وضم الزاى المعجمتين والنون أى يصونه، ومنه الخزانة؛ لأنه لا يجب كثرة الكلام قال<sup>(١)</sup>:

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه فليس على شىء سواه بخزان

ولما فيه من المنع عداه بمن فقال: (إلا لما يعينهم)، وفى نسخة إلا فيما، ويعنى بفتح المثناة التحتية أى يهيمهم وينفعهم من جواهر كلمه وزواجر حكمه، (ويؤلفهم ولا يفرقهم) أى يجعلهم مؤلفين به غير متفرقين عنه؛ لمداراتهم ولطفه بهم كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، أو يجعل الله بينهم ألفة لحنهم على التحاب والمؤاخاة بينهم.

(يكرم كريم كل قوم) كما قال: أكرموا عزيز كل قوم؛ لمعرفته ﷺ بمقادير الناس، (ويؤليه عليهم)، أى يجعله حاكماً عليهم، فلا يولى أحداً من أصحابه غيرهم، ولا غيرهم عليهم، ولا يولى صغارهم عليهم رعاية لأهلية ذوى الولايات، وتجنباً لإعلاء الأسافل

(١) البيت من الطويل، وهو لامرئ القيس فى ديوانه (ص ٩٠)، جمهرة اللغة (ص ٥٩٦)، أساس البلاغة (حزن).



ترغيباً فى الإسلام.

(ويحذر الناس ويحترس منهم) لأن من الحزم سوء الظن، وعدم الوثوق بكل أحد، وقال عمر، رضى الله تعالى عنه: احتجزوا بسوء الظن، وهو من بديع حكمه، وليس المراد بالناس جميعهم، بل عوامهم بخلاف خواصهم، والاحتراز والاحتباس والحذر متقاربة، وقيل: الاحتراس التحفظ، والاحتراز التعوذ، والحذر الخوف (من غير أن يطوى) أى يخفى ويمنع استعارة من طى الثياب (عن أحد بشره) أى طلاقة وجهه وانبساطه معه تأنيساً له، وتأليفاً لقلبه، وإذهاباً لخوف مهابته، (وخلقه) أى حسن خلقه، ولم يذكر الحسن إشارة إلى أنه محبوب على الحسن فيه، (ويتفق أصحابه) أى يسأل عمن لم يحضر عنده وفقد من مجلسه، وقد يذهب، صلى الله تعالى عليه وسلم، لمنزله إذا طالت غيبته وتطلبه.

(ويسأل الناس عما فى الناس) من أحوالهم وأمورهم ليعلم أمرهم، فيتدارك ما ينبغى تداركه، وينصح من يلزم نصحه، وليس هذا من التجسس أو الغيبة المنهى عنه، بل من سؤال الطبيب ليشفى المريض، فإذا أخبروه بحال حسن حمد الله على ذلك.

(يحسن الحسن ويصوبه)، أى يبين حسنه وكونه صواباً، ويمدح فاعله ترغيباً له فيه، (ويقبح القبيح ويوهنه) بضم أولهما وتشديد ثانيهما والنون أو بالياء التحتية من الوهى بمعنى الوهن، وهو الضعف أى يقول: هو فعل قبيح وضعيف ساقط تنفيراً وتحذيراً ونصحاً نافعاً، والمراد الحسن والقبيح عادة أو شرعاً، وفيه صنعة الطباقي.

(معتدل الأمر) أى أموره، صلى الله تعالى عليه وسلم، كلها معتدلة، فلا يبالغ فى تحسين وتقبيح غيره.

(غير مختلف) أى على سنن واحد فى جميع أوقاته.

(لا يغفل) عن شىء من أحوال الناس (مخافة أن يغفلوا) عما يصلحهم، وهو بضم الفاء فيهما، (أو يملوا) أى يحصل لهم فتور وكسل عن صالح أمرهم إذا لم ينبههم عليه، ولو أرجع هذا لقوله معتدل الأمر لم يبعد، ويجمع هذا قوله تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

(لكل حال) من أحوال الناس (عنده عتاد) بعين مهملة مفتوحة ومثناة فوقية ودال مهملة، وهو كالعتيد العدة والحاضر المعد لإصلاحه وتداركه إذا وقع، فهو متخلق بقوله: ﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقيل: أصل العتاد عداد لأنه من العدة، فأبدلت داله تاء هرباً من التكرار.

(ولا يقصر عن الحق ولا يجاوزه إلى غيره) فإذا رآه عمله، وإذا رأى منكراً أزاله من غير تأخير.

(الذين يلونه من الناس) أى يقربون منه فى مجلسه ونحوه (خيارهم) أى أفضلهم وأشرفهم، (وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة) أعم هنا بمعنى أكثر نصيحة، أو أكثر منصوحاً بأن ينصح فى كل أمر كل أحد بإرشاده لما هو خير له، ولذا قال عليه السلام: «الدين النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين»<sup>(١)</sup>، فنصيحة الله إخلاصه فى اعتقاده له بما يليق به من توحيده وعبادته مخلصاً لوجهه، وكتابه فهم معانيه والعمل بما فيه، والنصيحة لرسوله، صلى الله تعالى عليه وسلم، الإيمان به واجتناب نواهيه وامثال أوامره، ولأئمة المسلمين طاعتهم وعدم الخروج عليهم، ونصيحته العامة إرشادهم لمصالحهم، والنصح إرادة الخير لمن ينصحه بإخلاص، وهى كلمة جامعة يقال: نصحته ونصحت له.

(وأعظمهم عنده منزلة) أى رتبة وشرفاً (أحسنهم مواساة) لكل أحد؛ لأن حذف المتعلق يفيد العموم، والمواساة إعطاء من يريد ما يريد وبذله له، يقال: آساه وواساه بواو مبذلة من الهمزة إذا جعله أسوة له، (وموازرة) أى إعانة لمن التجأ إليه يقال: آزره ووازره إذا أعانه وقواه وساعده من الأزر، وهو الظهر لأن قوة البدن به، أو من الوزر هو الملجأ، ومنه الوزير، وفى الحديث: «ما أحد عندى أعظم يداً من أبى بكر واسانى بنفسه وماله»، وهذا يدل على أنه أفضل الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

قال الحسين، رضى الله تعالى عنه: (فسألته) يعنى عليا والده، رضى الله عنهما، (عن مجلسه) أى عن حاله فى مجلسه خارج بيته مع الناس ومعاملته لهم فيه، ولذا أرفده بقوله: (ما كان يصنع فيه؟ فقال: كان لا يقوم) من مجلسه (إلا على ذكر) لله يجعله، صلى الله تعالى عليه وسلم، فكان إذا قام منه قال: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت، فيجعل ذلك علامة لانصرافه عن العامة، والذكر بالذال المعجمة إذا أطلق أريد به ذكر الله تعالى، وإن كان عاماً.

وقال التلمسانى، رحمه الله تعالى: وقد تهمل ذاله قليلاً، فقليل: إنها لثغة، وقيل: لغة ولا دليل لقائله فى نحو: ﴿قَهَلٌ مِّنْ مُّذَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٥]، فإنه مغالطة.

(ولا يوطن) بضم المثناة التحتية وسكون الواو وكسر الطاء مشددة ومخففة وفتحها مشددة كما فى بعض الشروح، وفى بعضها أنه بالكسر من أوطنه ووطنه إذا اتخذها وطناً

(الأماكن) جمع أمكن أو أمكنة جمع مكان، فهو جمع الجمع، ففى ميمه خلاف هل هى أصلية أو زائدة.

(وينهى عن إيطانها) أى اتخاذها وطناً، والمراد ملازمة محل بخصوصه فى غير بيته مما ليس بملك كالمسجد وغيره من الأماكن المباحة؛ لأن لكل أحد حقاً فيه، والنهى الوارد عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، إنما هو فى حق المسجد بأن يتخذ مصلًى معيناً منه، ولذا نص الفقهاء على كراهة إرسال السجادة للجامع وفرشها فيه، وفى الحديث: «نهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، أن يوطن الرجل المكان بالمسجد»<sup>(١)</sup>، قيل: وهو عام مخصوص بما لم يتضمن مصلحة كمن ألف مكاناً للإفتاء والتدريس، فله إيطانه وإقامة غيره منه إذا كان من لا يعرفه يأتى لاستفتائه، فيعرفه فى مكانه، وقوله: إيطانها يؤيد أن يوطن مخفف ولا يعينه كما قيل؛ لأنه يجوز أن يذكر فعل من باب، ويذكر له مصدر أو اسم فاعل واسم مكان وغيره من باب آخر نحو تبتل إليه تبتيلاً وقوله<sup>(٢)</sup>:

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب

ويجوز فى نحو أجراه مجراه ضم الميم وفتحها، وقد تكون المغايرة أبلغ وأكثر معنى وهذا مما ينبغى التنبيه له.

(وإذا انتهى) مشيه قاصداً (إلى القوم) الذين يريد الجلوس معهم (جلس حيث ينتهى به المجلس)، أى فى أى مكان خال منه من غير تصدر على أصحابه صلى الله تعالى عليه وسلم، وينتهى من النهاية لأنه نهاية محل الجالس فيه، (ويأمر) أصحابه (بذلك) تشريعاً وتأديماً، فعلم أن تحرى الصدر مكروه شرعاً؛ لما فيه من الكبر والترفع على أصحابه لاسيما إذا لم تطب أنفسهم بذلك فيتأذون به، فإنه قد يحرم كما يفعله علماء السوء فى زماننا.

(ويعطى كل) أحد من (جلسائه نصيبه) أى ما يستحقه من ملاطفته ومجاوبة سؤاله، وبشره صلى الله تعالى عليه وسلم، له (حتى لا يحسب) أى يظن (جليسه أن أحداً أكرم عليه منه) أى يظن أنه أكرم الناس وأجلهم عنده؛ لما يرى من لطفه به، فهو كقولهم: ليس فى البلد أعلم منه كما مر تحقيقه، فهو غاية لذلك الإعطاء.

(١) أخرجه ابن أبى شيبة (٩١/٢).

(٢) البيت من الطويل، وهو لكعب بن سعد الغنوى فى الأصمعيات (ص ٩٦)، لسان العرب

(٢٨٣/١)، التنبيه والإيضاح (٥٥/١)، جمهرة أشعار العرب (ص ٧٠٥)، تاج العروس

(٢٠٦/٢).

(من جالسه أو قاومه فى حاجة) أى من حادثة أو قام مع قيامه لعرض حاجته، أو لغير ذلك، فهى مفاعلة من الجلوس والقيام (صابرة) أى صبر عليه أو صبر مقدار صبره، فلا ينصرف عنه حتى ينصرف هو، كل ذلك لاشتغالهم وتطبيب قلوبهم، فلا يمل حتى يملوا (حتى يكون هو المنصرف عنه)، والخصر بتعريف الطرفين فى محزه هنا.

(من سألته حاجة لم يرده إلا بها) أى رده رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، مقضى الحاجة غير خائب، (أو بميسور من القول) أى أو رده بقول لين سهل لا غلظة فيه كوعده، وقد تقدم بيانه.

(قد وسع الناس) بالنصب مفعول وسع (بسطه وخلقه) بإضافته لضميره، ورفع على الفاعلية أى عمهم بسطه أى بسط يده، صلى الله تعالى عليه وسلم، وسماحته أى بشره وطلاقة وجهه، وإبداء سروره وحسن خلقه، فشبهه بمكان متسع رحب، وأثبت له السعة والبسط بهذا المعنى مسموع، وليس لغة مولدة كما يتوهم كما ذكره المصنف، رحمه الله، فى المشرق، وتقدم فى الحديث عنه، صلى الله تعالى عليه وسلم: «فاطمة منى يبسطنى ما يبسطها»<sup>(١)</sup>، (فصار لهم أباً) أى بمنزلة الأب فى البر والصلة وقصد الخير، وفيه دليل على أنه يجوز أن يقال: إنه صلى الله تعالى عليه وسلم، أبو المؤمنين، كما يقال لزوجاته، رضى الله عنهن: أمهات المؤمنين، ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]؛ لأن نفى الحقيقة لا ينافى المجاز كما سيأتى.

(وصاروا عنده فى الحق متقاربين)، أى يقرب بعضهم من بعض إذا كانوا على الحق، أو فى أداء حقوقهم أى فى أصل الحق، فلا ينافيه قوله: (متفاضلين فيه بالتقوى) أى بحسب مراتبهم فى تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتَقَوُّكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم: (أنزلوا الناس منازلهم)، وسيأتى فى الرواية الأخرى، وصاروا فى الحق سواء، فلا ينافيه هذه الرواية، ولا أن بينهم تفاوتاً تاماً، وفى الحديث: لا يزال الناس بخير ما تفاضلوا، فإن تساوا هلكوا، وصاروا كأسنان المشط ليس فيهم فضلاء، أو تنافسوا فى الفضائل فأنكروا فضل بعضهم على بعض.

وما عبر الإنسان عن فضل نفسه كمثّل اعتراف الفضل فى كل فاضل

(وفى الرواية الأخرى صاروا عنده فى الحق سواء) كما بيناه.

(مجلسه مجلس حلم وحياء)، أى يظهر فيه حلمه عليهم، وحلمهم على غيرهم بحيث

لا يستفزهم الغضب، وهم مظهرون للحياء لا يرفعون رءوسهم وأصواتهم، ولا يرتكبون ما لا ينبغى قولاً وفعلًا.

قيل: ولو قدم هذا وأدرجه فى جواب السؤال عن مجلسه كان أحسن.

قلت: ما بالعهد من قدم.

(وصبر وأمانة لا ترفع فيه الأصوات) احتراماً له صلى الله تعالى عليه وسلم، ولوقارهم وأدبهم، (ولا تؤن فيه الحرم) كالكبر جمع حرمة، وهى مالا يحل، والمراد النساء حرمة النظر لهن ونحوه، أى لاتذكرن بسوء من ابنته، فابنته إذا ذكرته بما يكره مأخوذ من الابنة والابن، وهى عقد فى القسى تعاب بها أى لا تذكر فيه النساء؛ لأنه رفث من القول، أو لا يذكر فيه ما يحرم كالغيبه وسيأتى تفسيره.

(ولا تنشى فلتاته) بناء مثناة فوقية مضمومة ونون ومثلثة مقصورة من النشاء، وهو ذكر القبيح ضد النشاء بتقديم المثلثة، وهذا هو الموافق لما سيأتى، وروى ولا ينشى بتقديم المثلثة على النون أى لا تعاد، والفلتات بفتحات جمع فلتة بفتح فسكون ويجوز تسكين لام فلتات، ويجوز ضم فاء فلتة كما قاله التلمسانى، وهى الزلة أى القبيح الذى يقع بغتة، والمراد أنه لا فلتة فيه حتى يذكر فى مجلس آخر فيعاد ذكرها، فنفى الشئ بذكر لازمه؛ لأنها لو وقعت ذكرت كقوله:

ولا ترى الضب بها ينحجر

(وهذه الكلمة) أى قوله: لا تنشى فلتاته (من غير الروايتين) رواية الحسن عن خاله، ورواية الحسين عن أبيه، ويجوز أن يراد ظاهره أى: الفلتة إذا وقعت لا تذكر بل تستر.

(يتعاطفون بالتقوى) أى يعطف بعضهم على بعض، ويشفق عليه ويرحمه بسبب تقوى الله، لا رياء ولا سمعة ولا خوفاً واتقاء شر، فالباء سببية كقوله تعالى: ﴿رُحَمَاءُ يَتَّبِعُهُمُ﴾ [الفتح: ٢٩].

(متواضعين)، أى يتواضع بعضهم لبعض لا يتكبر أحد على أحد، فيخدمه ويخفض جناحه له.

(يوقرون فيه) أى فى المجلس (الكبير) سناً، (ويرحمون الصغير) شفقة عليه ورأفة، وهو مفتوح الصاد ويكسر فى لغة ردية، (ويرفدون) بفتح المثناة التحتية وضمها أى يعينون ويواسون، يقال: رفده يرفده بالكسر وأرفده بمعنى (ذا الحاجة) أى كل من كانت له حاجة ومسألة لهم، أوله صلى الله تعالى عليه وسلم، أعانوه بقضائها، أو إبلاغها أو الشفاعة، ويجوز أن يراد به الفقير المحتاج، (ويرحمون الغريب)، أى يشفقون عليه

ويعطفون تأنيساً له، وإزالة لوحشة غربته.

قال الحسين: (فسألته عن سيرته، صلى الله تعالى عليه وسلم، فى جلسائه فقال: كان صلى الله تعالى عليه وسلم، دائم البشر) أى طلاقة الوجه وبشاشته، وإظهار السرور فى مجالسه العامة، وهذا لا ينافى ما مر من قوله: دائم الأحزان كما مر فتذكره.

(سهل الخلق) أى خلقه وسجيته السهولة وعدم الشدة فى أقواله وأفعاله، وقد جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، بالملة السمحة السهلة.

(لين الجانب) بتشديد الياء وسكونها أى لا غلظة فيه، ولا جفاء، متذلاً متواضعاً.

(ليس بفظ) أى سىء الخلق، (ولا غليظ) أى شديد متوعد لأحد ممسك عنه لطفه ورفده، (ولا صخاب) بالصاد والسين، أى لا يرفع صوته جداً فى خصومة ونحوها، (ولا فحاش) أى لا يتكلم بقبيح كالشتم، (ولا عياب) أى ذاكراً لعيوب الناس ونقائصهم، (ولا مداح) أى لا يكثر المدح لغيره ويطريه بمبالغة قوة ما فيه، وإن كان يذكر الحسن والقبيح بما فيه كما مر، وذكر هذه بصيغة المبالغة إشارة إلى أنه قد يصدر قليلها أحياناً منه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لمقتضى الحال، ومثله لا يعاب، والمدح إنما يذم إذا كان زيادة عن حده؛ لأنه كذب ومداهنة، وأما مدح من يستحق المدح بما فيه إذا لم يلزمه محذور، فأمر حسن.

ألا ترى إلى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «(لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان العالم لوجع)»، وقوله لعمر، رضى الله عنه: «(لو لم أبعث لبعثت أنت يا عمر)»، فأى مدح يزيد على هذا، لكنه صدق ناشئ عن بصيرة، ولا يورثهم ذلك إعجاباً ولا فتوراً، وما من شىء إلا وهو ممدوح من وجه مذموم من آخر.

(يتغافل عما لا يشتهى) أى يتغافل عن ما ليس بمنكر شرعاً، لكنه غير مستحسن عادة أو طبعاً إذ لو كان منكراً شرعاً نهى عنه ولم يقر عليه، وهذا من مكارم الأخلاق كما قال أبو نواس:

ليس الغبى بسيد فى قومه لكن سيد قومه المتغابى

(ولا يؤيس منه) قال فى المقتفى: يؤيس، بضم أوله وسكون الواو وهمزة مكسورة وهى ترسم ياء، ويجوز فتحها على أنه مبنى للفاعل أو المفعول، وهو من اليأس ضد الرجاء، يعنى إذا سئل رسول الله، صلى الله تعالى عليه وسلم، عما لا يليق تغافل عنه، ولم يرد السائل حتى يئأس، أو يبين له أنه سأل ما لا يليق فيخجل سائله.

(وقد ترك نفسه من ثلاث) أى نزهها عنه ومنعها، وقيل: فيه قلب أى ترك ثلاثاً من

نفسه: (الرياء، والإكثار، وما لا يعينه) بفتح المثناة التحتية أى يهيمه، وهى بدل من ثلاث مبينة لها، والرياء إظهار ما فيه من الصفات الحميدة، والأفعال الجميلة للناس حتى يحمد بها ويشيع، وهو الشرك الأصغر، وهو صلى الله تعالى عليه وسلم، منزّه عنه بلا شبهة.

فإن قلت: كونه غير ثابت له أمر ظاهر الانتفاء عنه، فما الحاجة لذكره؟.

قلت: كأنه ذكر هذه الجملة الحالية لبيان وجه تغافله عما لا يحبه من غير أن يقنط راجيه يعنى أنه لم يقل: أنا لا أحب هذا، فلذا لم أجبك عنه حتى يتوهم أنه سيفعله؛ لما فيه من الرياء، ولذا قال: (وترك الناس من ثلاث) أى أبعدهم عنها أو ترك ذكر الناس ونحوه من أجل ثلاث تضمنها قوله: (كان لا يذم أحداً) من الناس يستحق الذم كالمنافقين لعنهم الله، (ولا يعيره) بعين مهملة يقال: عيره كذا أو بكذا أى ذكر ما فيه بما هو عار عليه وعيب فيه قد سلف منه، فالفرق بينه وبين ما قبله أنه أخص منه، وليس عينه حتى لا تكون أمور الناس المتروكة أربعة كما ذكره التلمسانى، رحمه الله تعالى، (ولا يطلب عورته) أى لا يتجسس عن معائب الناس ويبحث عنها، كما كان صلى الله تعالى عليه وسلم، يفعل مع المؤلفة قلوبهم، وأصل العورة الخلل وما يجب ستره كما فى حديث أبى داود: «يا معشر من أسلم بلسانه، ولم يفض الإيمان إلى قلبه! لا تؤذوا المسلمين، ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإن مع تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته»، وهذا كما قيل فى المثل: «كل من عير ابتلى»، وهذا إذا لم يلزم إظهاره شرعاً كالمتجاهر بفسقه ونفاقه.

وقوله: (ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه) صفة أخرى مرتبطة بما قبلها، وليست من الثلاث، وهذا كنصيحة الأمة وإرشادهم وتعليم الخير والتبليغ.

(إذا تكلم أطرق جلساؤه) أى خفضوا رءوسهم تأدباً وإنصافاً (كأنما على رءوسهم الطير) أى بسكون ووقار من غير طيش وخفة؛ لأن الطير لا تقع إلا على ساكن، وهذا مثل مشهور.

(وإذا سكت تكلموا)، فلا يقطعون حديثه بحديثهم تأدباً معه، صلى الله تعالى عليه وسلم، وتوجهاً لفهم مقاله لحرصهم على حفظه مراعاة لعظيم قدره.

(لا يتنازعون عنده الحديث) أى إذا كانوا فى مجلسه، صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يديرون الحديث بينهم، فيحدث بعضهم بعضاً كما هو جار بين الناس إذا اجتمعوا فى ناد، وهذا بيان لقوله: تكلموا، أو أن المراد يتكلمون ومع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، بسؤالهم له ونحوه من مهماتهم، لا أنهم يديرون الحديث بينهم وهذا هو معنى

تنازع الحديث فى كلامهم، ومن فسرہ بالتخاصم لاغتراره بظاہر التنازع لم يصب، لعدم مناسبتہ لمقام، ولا يخفى أنه لا معنى لقولك: تخصصوا الحديث إلا بتأويل، أى تخصصوا فى الحديث، وهو ركيك. قال امرؤ القيس:

فلما تنازعنا الحديث وأسمحت هصرت بغصن ذى شماريخ ميال

قال ابن السيد فى شرح أدب الكاتب: تنازعنا الحديث أى تداولناه، فحدثنى مرة وحدثتها أخرى، وهاهنا بحث، وهو أن سيبويه قال فى كتابه: لا تقول تفاعلت إلا وأنت تريد فعل اثنين فصاعداً، ولا يجوز أن يتعدى لمفعول بنصبه، وفى تفاعلنا تلفظ بالعين الذى فى فاعلته كتضاربنا وتقاتلنا، وقد يجىء تفاعل على غير هذا كتقاضيته، انتهى، فلم يجوز تفاعل لمفعول إلا إذا كان لواحد؛ لأن تفاعل قد تضمن الفاعل والمفعول الذى كان فى فاعل، ألا تراك تقول: ضاربنى زيد فتأتى بفاعل ومفعول؛ فإذا قلت: تضاربنا لا يتعدى لاشتماله على فاعل ومفعول ليس لنا غيره، وليس تنازعنا كذلك؛ لأن نازع يتعدى لمفعولين تقول: نازعته الحديث، فإذا قلت: تنازعنا لم يكن بد من ذكر المفعول الثانى؛ لأن تنازع لم يتضمنه، كذا قاله ابن السيد فى المقتضب شرح أدب الكاتب.

أقول: فى كلام سيبويه حينئذ قصور؛ لأنه كان عليه أن يقول: إن باب تفاعل بمعناه الأصلى ينقص عن فاعل مفعولاً، فإن كان متعدياً لواحد كان لازماً، وإن كان متعدياً لاثنين تعدى كما ذكره بعض النحاة، فإطلاقه لا يتبعى، وقد نقل ابن السيد هذا فى محل آخر عن الكوفيين، فقال: قال ثعلب: يقال: فلان متعهد ضيعته، ولا يقال: متعاهدها.

قال ابن درستويه: فإنما أنكرها؛ لأنها على وزن يتفاعل، وهو عند أصحابه لا يكون إلا من اثنين، ولا يكون عندهم متعدياً لمفعول مثل تقاتلا وتعاملا، وهو غلط؛ لأن تفاعل قد يكون لواحد، ويكون متعدياً كقول امرئ القيس<sup>(١)</sup>:

تجاوزت حراساً وأهوال معشر على حراس لو يسرون مقتلى

وجاء تفاعل متعدياً لاثنين كقوله: فلما تنازعنا الحديث إلخ، قال الخليل: التعاهد والتعهد الاحتفاظ بالشىء وإحداث العهد به، وقوله سيبويه السابق يشبه قول الكوفيين، انتهى، والتنازع هنا كالتجاذب بديع كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم، لمن قرأ خلفه: مالى أنازع القرآن؟.

(١) البيت من الطويل، وهو لامرئ القيس فى ديوانه (ص ١٢)، جمهرة اللغة (ص ٧٣٦)، خزنة الأدب (٢٣٨/١١)، شرح شواهد المغنى (٦٥١/٢)، لسان العرب (٤٠٢/٤).



(من تكلم عنده) أى فى مجلسه صلى الله تعالى عليه وسلم، من الصحابة أو غيرهم (أنصتوا له حتى يفرغ) من حديثه، وفى بعض النسخ (من كلامه)، وأنصت يكون لازماً بمعنى سكت، ومتعدياً يقال: أنصتته إذا أسكته.

(حديثهم حديث أولهم) مبتدأ وخبر أو حديثهم فاعل يتفرغ فجمع الضمير، وهو من رعايته للمعنى، وحديث أولهم بدل منه أى لا يقطع كلام من تقدم بكلام آخر، ولا يخاصم، فهذا فى معنى لا يتنازعون، وهو مرتبط بما قبله، فإن كان مبتدأ بدليل رواية من كلامه، فهو تشبيه أى حديث كل واحد منهم إنما هو حديث من قبله، يعنى أنه لا حديث له معه يقطعه كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «زكاة الجنين زكاة أمه»، وقد خفى هذا على بعض الشراح فعلقوه بأنصتوا.

(يضحك) صلى الله تعالى عليه وسلم، (مما يضحكون منه) أى الصحابة، رضى الله عنهم، (ويعجب مما يعجبون)، وفى نسخة، يتعجب مما يتعجبون؛ لأنه من حسن الصحبة أن يسرك ما يسره، ويرضيك ما يرضيه، وهم على نهج واحد، وطبائعهم سليمة، فلا يضحكون ويعجبون من غير مقتض، فلا يقال: إنه يلزم من ضحك أحد وتعجبه فعل غيره مثله؛ لأنه أمر طبيعى، وهذا فى أحيان قليلة، فلا ينافى قوله السابق: «كأنما على رءوسهم الطير».

(ويصبر للغريب على الجفوة) أى الغلظة وتكلمه بما يؤلم (فى المنطق) أى فى تكلمه مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، كتحليف الأعرابى له ﷺ، وقوله: الله أرسلك بهذا، وإنما قيد بالغريب؛ لأنه معذور لأنه لا يعرف أحواله، وهذا من مكارمه ومعاملة كل أحد بما يليق به حتى إن كان أصحابه ليستجلبونهم.

(ويقول) ﷺ، لأصحابه: («إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فارفدوه»)، بوصل الهمزة وقطعها من رفده وأرفده إذا أعانه أو أعطاه؛ لأن الرشد العطية والإرفاد الإعانة، وكل منهما قابل هنا.

(ولا يطلب الثناء) بمعنى يقبله كما ورد فى رواية، فهو مجاز مرسل أو استعارة، والثناء الذكر الحسن الجميل والمدح (إلا من مكافئ) بالهمزة اختلف فى تفسيره أى ممن أثنى جزاء على نعمه وإحسانه تقدم له منه، وقد صرح به فى بعض الروايات بقوله: عن يد، ولا يرد عليه أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، رحمة عامة، ما من أحد إلا وله عنده يد، فالصواب تفسيره بمسلم أى غير متجاوز فى المدح مطر؛ لأن القرينة قائمة على أن المراد نعمة حادثة خاصة.

(ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوزه) أى يخففه يقال: تجوز فى الصلاة إذا أسرع وخفف، (فيقطعه بانتهاء) أى إتمام لحديثه وبه ينقطع الكلام، (أو قيام) من المجلس؛ لأنه انقطع كلامه فمضى لشأنه (هنا انتهى حديث سفيان بن وكيع) السابق ذكره.

(وزاد الآخر) أى صاحب الرواية الأخرى (قلت) القائل أحد السبطين، رضى الله تعالى عنهما، كما مر: (كيف كان سكوته، صلى الله تعالى عليه وسلم؟ قال: كان سكوته على أربع: على الحلم، والحذر، والتقدير، والتفكر) لما كان الحلم والحذر من جميع الناس معلوماً، وقد تقدم لم يفسره، وقال: (فأما تقديره) أى بم ينظر مقداره إذا صدر منه، أو من غيره ممن يقتدى به، (ففى تسوية النظر) فى الأمور وما يترتب عليها من المنافع الدنيوية والأخروية، (والاستمتاع) أى استمتاع الناس به، صلى الله تعالى عليه وسلم، أو بأمورهم فيما بينهم، ومعنى الاستمتاع الانتفاع، وقوله: (بين الناس) متعلق بالتسوية، وهى جعلهم متساوين، وليس المراد تساويهم حقيقة، بل أن يكون لكل أحد مقدار يليق به، (وأما تفكره ففيما يبقى ويفنى) أى فى أمور الدنيا الفانية والآخرة الباقية المخلدة.

فإن قلت: كيف يعلم هذا وهو أمر مضمر فى نفسه صلى الله تعالى عليه وسلم، لا يطلع عليه إلا الله؟.

قلت: هذا بطريق الاستدلال العقلى، والفراسة الصادقة الشاهد لها ما يظهر من آثاره ويتعلق به إذا تكلم، فإن الظاهر عنوان الباطن.

(وجمع) بالبناء للمفعول أى جمع الله (له)، وكذا ما سيأتى بعده (الحلم) باللام أى جمع له سائر جزئيات الحلم المختص كل حلیم ببعض منه، وفى بعض النسخ الحكم بالكاف، وله وجه (فى الصبر) أى مع الصبر على أمور الناس والأمة، فكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، مع حلمه صابراً لا يضجر ولا يقلق كما أشار إليه بقوله: (فكان لا يغضبه شيء) مما يتعلق به فى نفسه، وإن كان قد يغضب لله، (ويستفزه) بكسر الفاء وتشديد الزاى المعجمة أى يستخفه بحيث يبدو منه خفة وقلق لأمر الدنيا والأعداء.

(وجمع له فى الحذر) أى فى حال حذره واحتراسه من الناس، أو مع ذلك (أربع) نائب الفاعل (أخذه بالحسن)، وفى بعض النسخ ترك قوله أربع، وهو مرفوع نائب الفاعل أو منصوب مفعول لأجله أى تمسكه بكل أمر مستحسن مشروع؛ (ليقتدى به) ويتبعه الناس، (وتركه القبيح) شرعاً وخلاف الأولى؛ (لينتهى عنه) علة للترك أى لينتهى الناس عنه، (واجتهاد الرأى) أى اجتهاده، صلى الله تعالى عليه وسلم، فيما يراه رأياً (بما

أصلح أمته) أى فيما يصلحهم أو بسببه، (والقيام لهم) أى الأمة بما جمع لهم أمر الدنيا والآخرة، فى المعاش والمعاد، ومعنى القيام التعهد والالتزام والاجتهاد، وبذل ما فى وسعه وطاقته من إصلاحهم، أو هو بمعناه المصلح بناء على جواز اجتهاده، صلى الله تعالى عليه وسلم، وفيه اختلاف مذكور فى كتب الأصول.

قال الآبى فى شرح مسلم نقلاً عن المصنف: لا خلاف أنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يجتهد فى أمور الدنيا، ويرجع إلى رأى غيره فى ذلك كما فعل تلقيح النخل، واختلف فى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم، هل له أن يجتهد فى الشرعيات؟ وهل هو معصوم فى اجتهاده أم لا؟ والصواب: أنه له ذلك، وأنه معصوم، وتفصيله فى أصول الفقه، فلا حاجة للتطويل به.

\* \* \*

### (فصل فى تفسير غريب هذا الحديث ومشكله)

المراد بالغريب ما لم يكن استعماله مشهوراً بين العرب بحيث يخفى على غير العرب العرباء إلا أن لا يكون جارياً على قوانين اللغة كما قيل، والمشكل ما لم يكن واضح الدلالة بحيث يحتاج للتأويل.

(المشذب) بضم الميم وفتح الشين وتشديد الذال المعجمتين المفتوحة والباء الموحدة (أى البائن) أى الظاهر احترازاً عما فوق الرابعة بقليل (الطول فى نحافة) هى قلة اللحم، وضدها الضخامة، وقيل: الطويل مطلقاً.

(وهو مثل قوله فى الحديث الآخر: «ليس بالطول الممغط») بضم الميم الأولى وفتح الثانية وتشديدها وكسر الغين المعجمة وطاء مهملة، وأصله منمغط فأبدلت النون ميماً وأدغمت. بمعنى الطويل من اتمغط النهار إذا امتد، ويقال بالعين المهملة بمعناه كما فى النهاية، وقال التلمسانى: بالمعجمة والمهملة الميم الثانية مشددة أو مخففة، وهو الطول فى نحافة أو الطول الذى ليس بفائق، فليس يذم.

(والشعر الرجل) بفتح الراء المهملة وكسر الجيم من الترجيل، وهو تسريح الشعر وتمشيطة، والمرجل الذى سرح بمشط، والرجل الذى بحاله خلقة كما فى الإكمال وإليه أشار بقوله: (الذى كأنه مشط) بالتخفيف والتشديد، (فتكسر قليلاً) التكسر التثنى كأنه كسر.

(ليس بسيط) بفتح الباء وكسرها، وهو المرسل الذى فيه تنن كما قاله ابن عبد البر. (ولا جعد) بفتح فسكون أى كثير الشعر كشعر الزنج، وقال المازرى: شعر رجل

ورجل ورجل بفتح وكسر وسكون وبكسر الراء ثلاث لغات بين السبوة والجعودة، وقيل: الذى كأنه مشط.

(والعقيقة)، وهى كما تقدم فى الأصل الشعر الذى يولد به الطفل؛ لأنه يعق أى يقطع سريعاً، ومنه العقيقة للطعام الذى يصنع عنده، والشاة التى تذبح له (شعر الرأس) وأصله كما علمت شعر المولود، ثم أطلق على غيره.

(أراد) أى ابن أبى هالة فى وصفه لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، بقوله: (إن الفروقت) أنها انفردت (من ذات نفسها)، وذات مقحمة تأكيداً لنفسها إن وقع تفرقها من غير صنع (فرقها) بالتخفيف أى تركها متفرقة غير ملتفة، (ولا تركها معقوصة) أى إن لم تتفرق بنفسها والتفت واجتمعت تركها على حالها، والعقص ضمير الشعر على الرأس وليه، وقيل: هو لى الخصلة من الشعر، ثم عقصها، ثم إرساها، وعقص شعره عقده فى قفاه.

(ويروى عقيصته) بدل عقيقته، وهى الشعر المعقوص أى المضفور من العقص، وهى اللى وإدخال أطراف الشعر فى أصوله كما فى المقتفى، والمشهور عقيقته؛ لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يكن يعقص شعره، وقيل: إن هذا كان فى صدر الإسلام؛ لأنه كان يجب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر به بشىء، وكانوا يسدلون شعورهم والمشركون يفرقون، فسدل ﷺ ناصيته، ثم فرق بعد، وقال النووى: المختار جوازهما، والفرق أفضل.

(وأزهر اللون نيره، وقيل: أزهر: حسن. ومنه زهرة الحياة الدنيا، أى زيتها) من أزهر السراج إذا نوره، ومما قلته كما تقدم:

من حرصك بالغناء كم تشتغل والعمر مضى فما يفيد الأمل  
ما زهرة هذه الحياة الدنيا للفرك بأمل المنا تحمل

(وهذا كما قال فى الحديث الآخر: «ليس بالأبيض الأمهق ولا بالآدم»، والأمهق هو الناصع) أى الخالص (البياض)، والمهق شدة البياض من غير خالطة حمرة، وقيل: ما يقرب بياضه من الزرقة، ويقال: أهق بتقديم الهاء أيضاً وهو من القلب.

(والآدم الأسمر اللون، ومثله فى الحديث الآخر: أبيض مشرب) بالتشديد على زنة اسم المفعول المزيد، ويقال: مشرب بالتخفيف والتشديد للتكثير والمبالغة، والإشراب خلط لون بلون، فكأنه شرب، وأكثر ما يقال فى الحمرة (أى فيه حمرة، والحاجب الأزج: المقوس الطويل الوافر الشعر، والأقنى: السائل الأنف المرتفع وسطه، والأشم:

الطويل قصبة الأنف، والقرن)، بفتحتين: (اتصال شعر الحاجبين، وضده البلج) كما تقدم ما فيه، ولا حاجة لقول التلمسانى: البلج صباحة الوجه، فلا ينافى ما فى حديث أم معبد من وصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم، بالقرن الذى أشار إليه بقوله: (ووقع فى حديث أم معبد وصفه بالقرن)، ورواية مثله عن أبى عبيدة، فإن المشهور خلافه، ويؤيده أن العرب تكرهه، (والأدعج: الشديد سواد الحدقة) فى الصحاح الدعج شدة سواد العين مع سعتها، وكذا فى غيره.

(و) هو لا ينافى قوله: (وفى الحديث الآخر أشكل العين، وأسجر العين) بسين مهملة وجيم، (وهو الذى فى بياضها حمرة) أى اللون الذى فى بياض العين، وحمرة بدل منه بناء على جواز إبدال النكرة من المعرفة، أو الذى صفة لمقدر، وحمرة خير آخر، وهو ممدوح لأنه فى البياض لا فى الحدقة، وقيل: الأشكل طويل شق العين كما فى المصاييح إلا أنه غلط فيه كما مر فى الفصل الثانى، ومنهم من قال: الدعج لغة زرق فى بياض مستدلاً بقول:

يا رب إن العيون السود قد فتكت      فىنا وصالت بأسياف من الدعج

إذ السيوف زرق أى مخلوقة من الدعج، كقولهم: أنت مما تفعل و﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، على قول، وقيل: لا حجة فيه لاحتمال أنه من الدعج بضمتين على أنه تجريد، وهو جمع أدعج وتشبيها بالسيوف فى فتكها، لا فى لونها؛ فإنها يقال لها: البيض كما يقال للرماح، والزرق إنما هى السهام، قال امرؤ القيس:

أتقتلنى والمشرفى مضاجعى      ومسنونة زرق كأنياب أغوال

(والضليع: الواسع، والشنب: رونق الأسنان وماؤها، وقيل: رقتها وتخيز فيها، كما يوجد فى أسنان الشباب، والفليج: فرق بين الثنايا) إلى آخره كما تقدم ما فيه، وماؤها صفاؤها كما يقال: ماء الجمال، والماء يستعار لمعان فصلها الثعالبى فى المضاف والمنسوب، وقيل: المراد بالماء ريق الفم، والمراد بتخيزها بزائين معجمتين كون أطرافها دقيقة كالشرافات لها.

(ودقيق المسربة: خيط الشعر الذى بين الصدر والسرة، بادن: ذو لحم متماسك) أى لا سمين فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم، لم يكن كذلك، وهو ممدوح، فهو (معتدل الخلق) فى المقتضى هو إشارة لدفع احتمال السمين، وكذا قوله: (يمسك بعضه بعضاً، مثل قوله فى الحديث الآخر: لم يكن بالمطهم) أى فاحش السمن منتفخ الوجه، (ولا بالمكثم أى ليس بمسترخى اللحم، والمكثم القصير الذقن، وسواء البطن والصدر أى مستويهما،

ومشيح الصدر) بضم الميم والشين المعجمة كما مر (إن صحت هذه اللفظة) فى صفته صلى الله تعالى عليه وسلم، (فيكون من الإقبال) فى صدره، (وهو أحد معانى أشاح، أى أنه كان بادی الصدر و) المراد به أنه (لم يكن فى صدره قعس) بفتحيتين وعين وسين مهملتين بعد قاف، (وهو تطامن فيه) أى فى الصدر قيل: إن هذا مخالف لقول الجوهري: القعس خروج الصدر ودخول الظهر ضد الحذب؛ لأن التطامن الانخفاض كقول ابن مالك، رحمه الله تعالى، فى نظم الكفاية:

والميل من أرنبة الأنف خنس وعرض أنف مع تطامن فطس

وفى الروض الأنف: الحذب انحناء فى الظهر، وقد يكون مستعملاً فى معنى المخالفة إذا قرن بالقعس كقوله:

فإن حذبوا فاقعس وإن هم تقاعسوا لينتزعا ما خلف ظهرك فاحذب

قلت: وكذا فسرهُ الشراح، والظاهر أن مراده عدم الارتفاع بقرينة أنه ورد أنه مستوى البطن والصدر، وقد صرح به المصنف فى قوله: (وبه يتضح قوله قبل: سواء البطن والصدر، أى ليس بمقتاعس الصدر ولا مفاض البطن)، والعجب منه بعد هذا كيف يعترض عليه؟ وكيف يصح تفسيره بغير ما ذكر؟ ومفاض بضم الميم وفتح الفاء وآخره ضاد معجمة ضخم البطن، وقيل: مسترخى اللحم، وقيل: عظيم البطن أو عظيمها مسترخى اللحم.

(ولعل هذه اللفظة مسيح بالسين وفتح الميم بمعنى عريض، كما وقع فى الرواية الأخرى، وحكاها ابن دريد، والكراديس رءوس العظام، وهو مثل قوله فى الحديث الآخر: جليل المشاش والكتد) جليل بفتح الجيم بمعنى عظيم.

(والمشاش) بضم الميم وشينين معجمتين واحده مشاشة، وهى رءوس العظام كالمرفقين والكفتين والركبتين، وفى الصحاح (رءوس المناكب): أى العظام اللينة التى يمكن مضغها، ويقال: تمشمشها.

(والكتد) بفتح الكاف وكسر المثناة الفوقية ويجوز فتحها فسرهُ المصنف بأنه (مجمع الكفتين، وشن الكفتين والقدمين: لحيمهما، والزندان: عظما الذراعين، وسائل الأطراف: أى طويل الأصابع)، وسائل مر الكلام عليه مفصلاً.

(وذكر ابن الأنبارى) محمد بن قاسم بشار اللغوى نسبة للأنبار بفتح الهمزة: قرية قريبة من الفرات، ولهم أنبارى آخر منها راو للحديث، وهو محمد بن سليمان، والأنبار معربة معناها مخزن القمح (أنه روى: سائل الأطراف، أو قال: سائن بالنون، وهما بمعنى

واحد تبدل اللام من النون إن صحت الرواية بها، وأما على الرواية الأخرى: وسائر الأطراف، فإشارة إلى فخامة جوارحه)، عليه الصلاة والسلام، (كما وقعت مفصلة فى الحديث، ورحب الراحة أى واسعها، وقيل: كناية عن سعة العطاء والجود و) قوله: (خصان الأخصين) تقدم ضبطه وما فيه، وفسره هنا بقوله: (أى متجافى أخص القدم، وهو الموضع الذى لا تناله الأرض من وسط القدم) هو بفتح السين والكثير سكونها، وضابطه أنه إن استعمل فى متفرق الأجزاء كالناس والدواب، فبالسكون وقد تفتح، أو فى متصلها كالدار والرأس فبالفتح وقد تسكن، وقال الجوهري وغيره: والأول ظرف، والثانى اسم، ومن هنا يعلم أنهم لا يريدون بالاسم فى أمثال هذا الكلام اسم المصدر بخصوصه إذ الوسط بالمعنى الثانى ليس اسم مصدر قطعاً ثم قضيته أنه ليس ظرفاً إذ لا يقال: جلسنا وسط الدار، بل فى وسطها أى ما توسط منها.

(ومسيح القدمين أى أملسهما، ولذلك قال: ينبو عنهما الماء، وفى حديث أبى هريرة)، رضى الله تعالى عنه، (خلاف هذا، قال فيه: إذا وطئ بقدمه وطئ بكلاهما ليس له أخص، وهذا يوافق معنى قوله: مسيح القدمين، وبه قالوا: سمي المسيح عيسى ابن مريم أى لم يكن له أخص، وقيل: مسيح لا لحم عليهما، وهذا أيضاً يخالف قوله: شتن القدمين) إذا فسر بلحيمهما، وأما إذا فسر بميلهما إلى غلظ وقصر، أو بغلظ الأصابع فلا، وزعم أبو عبيدة أن شتنهما بمعنى غلظتهما مع قصرهما، قال فى المطالع: وقد جاء ضد هذا، وهو سائل الأطراف يشير إلى رد زعمه، قال: وليس الشتن يعيب فى الرجال بخلاف النساء رداً لمن زعم أنه معيب.

(والتقلع: رفع الرجل بقوة، والتكفو: الميل إلى سنن المشى وقصده، والهون: الرفق والوقار، والدريع: الواسع الخطو، أى أن مشيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، كان يرفع فيه رجله بسرعة، ويمد خطوه، خلاف مشية المختال، ويقصد سمته، وكل ذلك يرفق وتثبت دون عجلة، كما قال: فكأنما ينحط من صيب، وقوله)، فى صفته عليه الصلاة والسلام: (يفتح الكلام ويختمه بأشداقه، أى لسعة فمه، والعرب تتمادح بهذا، وتلذم بصغر الفم، وأشاح: مال وانقبض، وحب الغمام: البرد، وقوله: فيرد ذلك بالخاصة على العامة أى جعل من جزء نفسه ما يوصل الخاصة إليه، فيوصل عنه للعامة، وقيل: يجعل منه للخاصة، ثم ييدها فى جزء آخر أخير بالعامة و) قوله: (يدخلون رواداً أى محتاجين إليه، وطالبن لما عنده، و) قوله: (ينصرفون إلا عن ذواق) مر ضبطه (قيل: عن علم يتعلمونه) منه، عليه الصلاة والسلام، (ويشبه أن يكون على ظاهره، أى فى الغالب والأكثر، والعتاد: العدة والشىء الحاضر المعد، والموازرة: المعاونة، وقوله: لا يوطن الأماكن أى لا يتخذ للصلاة

موضعاً معلوماً، وقد ورد نهيه ﷺ (عن هذا مفسراً فى غير هذا الحديث، وصابره: أى حيس نفسه) الشريفة (على ما يريد صاحبه، و) قوله: (لا تؤين فيه الحرم) مر ضبطه وفسره هنا بقوله: (أى لا يذكرن فيه بسوء، و) قوله: (لا تنشى فلتاته) تقدم ضبطه وفسره هنا بقوله: (أى لا يتحدث بها، أى لم يكن فيه فلتة وإن كانت من أحد سترت، و) قوله: (يرفدون) ذا الحاجة (يعينون، والسخاب: الكثير الصياح، وقوله: ولا يقبل النساء إلا من مكافى، قيل: مقتصد فى ثنائه ومدحه، وقيل: إلا من مسلم، وقيل: إلا من مكافى على يد سبقت من النبى ﷺ له) أى نعم، واليد تطلق على الجارحة، وعلى النعم؛ لأنهم بمنزلة العلة الفاعلية لها لصدورها عنها إلا أنه خولف بينهما فى الجمع، فقيل فى الجارحة: أيد وفى النعمة أيادى، ويذى بضم المثناة التحتية وكسر الدال المهملة وتشديد الياء كقوله:

فإن له عندى يدياً وأنعماً

والأصح أنها فى الجمع سواء كما أثبتته أهل اللغة بشواهد، فلا حاجة للإطالة بذكره.

(ويستفزه: يستخفه، وفى حديث آخر فى وصفه، صلى الله تعالى عليه وسلم: منهوس) بسين مهملة ومعجمة (العقب، أى قليل لحمها) أى قليل لحم العقب، وقيل: بالمعجمة معناه ناتئ العقبين معروقهما، قاله ابن قرقول برمته، وأول هذين التفسيرين يوافق كلام المصنف، والمراد: جنس العقب لا عقب واحد كما تقدم مثله، وثانيهما يخالفه؛ لأنه اعتبر فيه التواء مع قلة اللحم؛ لأنه معنى المعروق قليل اللحم كما فى الصحاح.

(وأهدب) بدال مهملة (الأشفار) بشين معجمة وفاء وراء مهملة، وهى حروف الأجفان التى ينبت عليها الشعر المسمى بالهدب، واحدها شفر بضم فسكون كهذب، ويكون مطلق الطرف: (أى طويل شعرها) انتهى التفسير، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين، وسلم تسليماً كثيراً.

\* \* \*

تم بحمد الله الجزء الثانى من كتاب نسيم الرياض لشهاب الدين الخفاجى رحمه الله فى

شرح الشفاء للقاضى عياض

ويليه الجزء الثالث، وأوله:

«الباب الثالث: فيما ورد من صحيح الأخبار»

\* \* \*



# المحتويات

فصل	٣
فصل فى قوة عقله ﷺ وشدة إدراك حواسه وذكائه	٤٠
فصل: وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول	٦٦
فصل	١٣٥
فصل	١٤٥
فصل	١٦٤
فصل	١٩٣
فصل	٢٠٨
فصل فى أصول الأخلاق	٢٣٢
فصل وأما الحلم	٢٤٢
فصل وأما الجود والكرم والسخاء والسماحة	٢٧٧
فصل وأما الشجاعة والنجدة	٢٩٢
فصل وأما الحياء والإغضاء	٣٠٨
فصل وأما حسن عشرته	٣١٥
فصل وأما الشفقة والرأفة والرحمة لجميع الخلق	٣٣١
فصل وأما خلقه ﷺ فى الوفاء	٣٤٦
فصل وأما تواضعه ﷺ	٣٥٧
فصل وأما عدله ﷺ	٣٧٦
فصل وأما وقاره ﷺ	٣٨٩
فصل وأما زهده ﷺ فى الدنيا	٤٠٠
فصل وأما خوفه ربه	٤١٦
فصل	٤٣٢
فصل حديث جامع لوصفه	٤٥٣
فصل فى تفسير غريب هذا الحديث ومشكله	٤٨٧